

0166853

Bibliotheca Alexandrina

المكتبة الثقافية

رواية روكامبول

المجلد الثالث

يحتوي هذا المجلد على :

ملايين النورية
البدستانية الحسنة
كنوز الهند
ابن ارلندا

رواية بروكامبولك

ترجمة الكاتب باليلغ الأستاذ

طانيوس عبده

الجزء التاسع

ملايين النورية

المكتبة الثقافية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٩٨٠

ملايين النورية

- ١ -

كان الهواء يهب عاصفاً والغيث يهطل منهمراً وقد ثارت عاصفة تحطم
لشدتها زجاج النوافذ في قصر روشريم في بيكارديا ، وهو القصر الذي تبدأ
فيه حوادث هذه الرواية .

وكان هذا القصر على بضعة مراحل من طريق أميانس ، وهو قديم يتصل
عهد بنائه بأيام الصليبيين ، ولكنه هجر نحو مئة عام لم يسكنه أحد ، حتى
رويت عنه الأحاديث الخرافية المزعجة ، وبات الناس يخافونه ولا يدنون منه
لكثرة ما روي عنه من الحوادث الخيفة ، وأخصها أنه مسكون من الجان .

وكان ينتقل من وريث إلى وريث ، فلا يقيم به ، ولا يجد من يستأجره
إلى أن جاء يوماً سائحان من الانكليز إلى تلك الجهة وسما ما يروون من
الخرافات عن ذلك القصر فزاراه وتفقداه ، ثم اشترياه من صاحبه وأقاما فيه
وذلك منذ ٥ أو ٦ أعوام .

وكان أحد السائحين امرأة يبلغ عمرها نحو الخامسة والثلاثين عصبية المراج
بارعة الجمال ، غير أن آثار الهم والتفكير كانت بادية بين ثناياها وجميع

ظواهرها تدل على أنها من الأعيان .

أما السائق الآخر فقد كان أبيض الشعر مصفر الوجه ، إلا أن آثار القوة كانت تبدو من اتقاد عينيه ، وخفة حركاته ، وكان يدعوها بلقب ميلادي ، ويخاطبها بلهجة الاحترام ، وهي تدعوه باسم بب دون كلفة مما يدل على أنها مولاته وأنه وكيلا .

وقد حاول هذا الوكيل حين إقامتها في هذا القصر أن يجد خداماً من أهل القرية فلم يلق من يجسر على المبيت فيه لكثرة ما تداول على الأسماع من سمعته السيئة ، فاضطر إلى إحضار الخدم من باريس .

وكان من عادة ميلادي أن تخرج في صباح كل يوم ممتطية جواداً فتنزه ساعة وتعود ، لكنها تجتنب الحقول والمزارع والمنازل والقرى المجاورة فلا تكلم أحداً من الناس ، حتى سكان القصر ، ولا يأتي إلى هذا القصر أحد حتى الشعاذين .

وأغرب من هذا أن الخدم أنفسهم لم يكونوا يكلمون أحداً كأنما الأمر قد صدر إليهم بهذا السكوت غير أنهم كانوا يتحدثون بعضهم بأسرار هذا القصر كما تراه من هذه المحادثة الآتية :

فقد اجتمع في المطبخ السائق وخدام والطباخة فقال الخدام : مسكينة هذه السيدة فقد كانت ليلتها أمس من أسوأ الليالي .

فقالت الطباخة : هو ما تقول فقد سمعناها تصيح وتطلب العفو .

وقال السائق : بهذا لو كنت أعرف اللغة الانكليزية فسأني كنت أفهم حديثها حين تصيح في الليل .

فقال الخدام : لا شك ان الأرواح مقيمة في هذا القصر وانها ستعود هذه الليلة

فقال السائق : أنها تأتي كل ليلة منذ حين غير بعيد .

فقالت الطباخة : ولكن أتعلمون في أي غرفة من غرف القصر تنسام

ميلادي ؟

فقال خادم الغرفة : ذلك يستحيل معرفته فإن غرف القصر كثيرة وهي تنام كل ليلة في غرفة راجية أن لا تهدي الأرواح اليها كأنما الأرواح تخفها خافية .

فقلت الطباخة : أظن ان سيدتنا لا تهبط اليها الأرواح ولا تناجيها وانها قد تكون أذنبت ذنباً عظيماً ندمت عليه وما نسمعه منها إنما هو مما يصيبها من تقريع الضمير .

فقال السائق : وأي تقريع هذا ، بل أي ذنب يمكن أن تجزئه مثل هذه الحسناء ؟

فقلت الطباخة : اني عقدت كلامي على الظن ، ومع ذلك فلاني أعتقد أنها ارتكبت جريمة وعندي برهان .
لكنها قبل أن تتم حديثها وتذكر ذلك البرهان ، قرع باب القصر الخارجي قرعاً شديداً فتوقفت عن الحديث .

وانذهل جميع الخدم لأنهم لم يتعودوا قدوم الزائرين فشغلهم الانذهال عن فتح الباب ثم توالى القرع بشدة فأسرع بب إلى المطبخ وأمر أحدهم أن يفتح الباب وينظر من الطارق .

فذهب أحدهم وعاد بعد هنيهة فقال للوكيل : إنها يا سيدي اثنان أحدهما رجل والآخر امرأة صبية وقد ابتلت ثيابهما بمياه المطر .

فسأله الوكيل ماذا يريدان ؟

— إن مركبتهما قد انكسرت على الطريق وهما لا يعملان أين يذهبان .
فقلت لهما ان سكان القصر لا يضيفون أحداً .

— وهل ذهبا ؟

— كلا فانهما لا يزالان يلحان بالدخول .

فلم يحبه الوكيل بحرف ، ولكنه قطب حاجبيه وغادر المطبخ فذهب

إلى السيدة ، وعاد إلى الخادم كي ينفذ الأمر ، وبقي الخادمان الآخران في المطبخ ينتظران .

- ٢ -

بعد ذلك بساعة كان الضيفان جالسين في قاعة من قاعات القصر يتدفقان قرب النار ، وقد مضت عليهما ساعة دون أن تحضر ميلادي أو وكيلها بب فلم يريا غير الغلام .
ولم يكن هذان الضيفان إلا السير جيمس نيفلي وفاندا ، وقد كانا قادمين إلى باريس للانتقام من روكامبول بعد أن خدعت فاندا السير نيفلي كما تقدم في الرواية السابقة (ضحايا الهند)

فلما وصلت المركبة القادمة بهما إلى أميانس سقطت في هوة في ذلك الوادي الذي كان يشرف عليه قصر روشريم فلم يصب ركبها بأذى إلا ان المركبة انكسرت ولم تعد صالحة للسير ..

وكانت الساعة العاشرة من الليل والأمطار تنهمر غزيرة فجارا في أمرها ولم يعلما أين يسيران فقال لهما السائق : انه لا يوجد هنا ملجأ قريب غير قصر روشريم ، لكنه روى لهما جميع ما كان شائعا من الخرافات عن ذلك القصر ، فلم يحفلا بها وقالت فاندا ما زال سكان القصر من الانكليز فلاني أرحو أن يأذنوا لنا بالمبيت في هذه الليلة .

فوافقها السير جيمس وبعد ساعة كانا في تلك القاعة كما ذكرنا ، وكان السير جيمس ينظر اليها نظرات ملؤها الغرام وهي مقبضة صامتة تمثل دور اليأس والحقد الدفين خير تمثيل .

إلا أن السير جيمس أراد أن يشاغلها بالحديث عن هواجسها فقال لها :

كيف رأيت هذا القصر ألا يشبه تلك القصور التي كنا نقرأ عنها في الروايات الخرافية ؟

— هو ما تقول فلإن كل ما فيه يدل على الغرابة .
— ولقد يخال لي أننا في منزل إحدى بنات الجان ، ولكن هذه الجنية لم تتنازل بعد إلى مقابلتنا .

— ربما هي تتأهب لاستقبالنا فلنصبر .
فأطرق السير جس برأسه إلى الأرض وقال : إني لا أرى كما ترين .
وفي ذلك الحين دخل عليها الخادم وقد رأى من لهجتهما في حديثهما أنهما غير زوجين فوقف أمامها وقفة المتردد وقال : أسألكما العفو يا أسيادي فلإني متلعجج ولا أعلم ماذا أقول فلإن المسيو بب نائم .

فقالت فاندا : من المسيو بب هذا ؟
— أنه وكيل القصر ولا أجسر على إيقاظه .
— ألعلمك محتاج إليه ؟
— كل الاحتياج يا سيدتي فلإن المسيو بب كان يحسب أنكما زوجان .
— كلا .. انه منخدد فلإن الذي تراه هو من أصدقائي ..
— وهذا الذي يقلقني يا سيدتي ..

— لماذا ؟
— لأن المسيو بب أمرني أن أهيه لكما الغرفة الحمراء ، لكنه لا يوجد في هذه الغرفة إلا سرير واحد .
— كيف ذلك ... ألا يوجد سوى غرفة واحدة للضيوف في هذا القصر العظيم ؟

— يوجد نحو عشرين غرفة ، لكنها جميعها لصاحبة القصر ، لأنه ليس بيننا من يعلم في أية غرفة تنام ولهذا ترينني مضطرباً فإني اذا أدخلت صديقك إلى الغرفة الحمراء ، فأين تنامين أنت ؟

- أنام على كرسي في هذه القاعة .
- إن ثيابك مبتلة يا سيدتي ، والبرد شديد فلا تسلمين من الخطر إذا نمت على الكرسي ، ولكني سأفتح لك غرفة من غرف ميلادي فتبيتين فيها وعند الصباح أصلح سريرها فلا تعلم بشيء مما جرى .

ثم أخذ مصباحاً فسار أمامها وسألها أن تتبعه فودعت السير جس وسارت في أثر الخادم حتى أوصلها إلى غرفة متسعة مفروشة بأفخر الرياش على الطريقة الانكليزية ، فوضع شيئاً من الخطب في المستوقد وخرج ، فأقفلت فائدة الباب وخلعت ملابسها ، ثم أطفأت المصباح وصعدت إلى السرير بغية أن تنام ولكن لم تتم .

وكانت نار المستوقد لا تزال متأججة ، يخرج منها نور ضعيف ، والأمطار لا تزال تنهمر على النوافذ ، فيضيق صوت سقوطها بين هزيم الرعود القاصفة .

وكانت فائدة تقول في نفسها : من عسى تكون هذه المرأة التي تغير غرفة نومها في كل ليلة ؟

وأقامت في سريرها نحو ساعة وهي تمنع الفكرة في حل هذا اللغز دون أن تهتدي إلى حل .

وفيا هي أرقه مفكرة خيل لها أنها تسمع صوت تنهد من بعد ، ثم قرب هذا الصوت وانجلي ، فرفعت رأسها عن الحدة وأصغت كل الاصغاء إلى هذا الصوت .

وكانت تسمع مع صوت التنهد ، صوت قيود من حديد ، كأنما صاحب هذا الصوت كان أسيراً يرصف في قيوده ، فجعلت أصوات التنهد تتوالى والخطوات تتداني ، وأخذ لهب نار المستوقد يخدم وتنطفئ أشعته التي كانت تنير الغرفة .

ولم تكن فائدة من اللواتي يعتقدن بالخرافات والأرواح ولكنها على بسالتها

لم تنج من الاضطراب ، إلى أن سمعت أن الخطوات وقفت عند باب غرفتها
فجعل العرق ينصب من جبينها .

وكانت فاندا قد أقفلت باب غرفتها ، ومع ذلك فقد رأت ان الباب انفتح
ورأت من بقية نور المستوقد الضعيف خيالا دخل إلى هذه الغرفة يحرق وراءه
قيداً كبيراً من الحديد ويتنهد تنهداً متصلاً ، ثم رأت أن الخيال يمشي مشياً
بطيئاً إلى السرير .
وعند ذلك انطفأ نور المستوقد وساد الظلام ، فلم تعد فاندا ترى الخيال
ولكنها كانت تسمع صوت القيد ينجر على أرض الغرفة .

- ٣ -

وكانت فاندا بأسلة كما يعمدها القراء ، ولكن قلبها قد انقبض حين شعرت
أن هذا الخيال يدنو منها ، وحاولت أن تصرخ وتستغيث لو لم يخطر في بالها
ذكر روكامبول فتتشدد .

وما زال الخيال يدنو متباطئاً متوانياً حتى وصل إلى السرير فوضع
يده على فاندا ثم تنهد تنهداً عميقاً وقال : يا مس الن هو ذا أنا عدت إليك
أعرفتيني ؟

فعلمت فاندا ان هذا الخيال أو هذا الروح الهائمة يحسب أنه يخاطب
الانكليزية صاحبة المنزل فزال خوفها في الحال ..

أما الخيال فانه عاد إلى الحديث فقال : ألم تندمي إلى الآن حق الندم
يا مس الن ؟

ولم تجب فاندا بحرف وعاد الخيال الى الحديث فقال : ان الله قد أذن لي
أن أخرج من القبر كل ليلة كي أذكرك بذنوبك وأوبخك على قتلي ... مس

الن ماذا فعلت بأختك ؟ . ألم تمت مخنوقة بأمرك ، وماذا صنعت بأبيك ، وهو أنا ، ألم تحبسني في سجن عميق وتقيديني بالسلاسل عشرة أعوام حتى قتلتني الشقاء والجوع ؟ ثم ماذا فعلت بابنة أختك ؟ انك لا تريدين أن تقولي شيئاً عنها ، إلا أن الوقت لا يزال فسيحاً لديك فاندمني فقد ينفعك الندم ، وابحثني عن الفتاة المفقودة وردني لها تلك الثروة العظيمة المسلوقة .

وكان الخيال قريباً من فانداء ، وكانت تشعر بأنفاسه تقع على يديها فاطمأنت وقالت في نفسها . ان الأرواح لا يكون لها أنفاس ولا عيون ، ثم أنه إذا كان الله يسمح لأرواح الموتى بالخروج من قبورها ، لأن هذه الأرواح لا تخطئ الناس الذين تسير اليهم فكيف أخطأ هذا الخيال وحسباني مس الن ؟

وعند ذلك أيقنت الرجل يخدع تلك الانكليزية منذ أعوام هذه الخسدة الهائلة وانه متنكر بشكل خيال

ثم عاد الخيال إلى الكلام وقال : مس الن أن السرد شديد وأن الأموات يشعرون به أكثر من الأحياء وقد اجتزت طريق الأبدية للوصول اليك وهي طريق شاسعة فاستغفري الله واندمني على ذنوبك أعود إلى قبوري ولا أخرج منه بعد الآن واستغفر لك الله .

وكان يقول هذا القول ويمشي عائداً إلى المستودع ، وكان بقية لخب تمكنت فانداء من نوره الضعيف أن ترى الخيال فرأت انه شيخ عجوز مرتد بملابس ضباط الانكليز

ثم انطفأ اللهب وساد الظلام فقال الخيال . اني عندما أتيت اليك المرة الأخيرة ظهرت عليك دلائل الندم لأنك بكيت البكاء الشديد وجعلت تصيحين وتستنغيثن ، وطلبت إلي أن أعود إلى قبوري ووعدتني بالتوبة والطاعة لي فماذا فعلت ؟ إنك لم تفعلي شيئاً ، بل اني أراك صامئة لا تجيبين فاحذري لأن العقاب هائل شديد .

ثم هز قيوده هزاً عنيفاً وقال : انك تخافين في الليل وتمزجين عزماً صادقاً

على التوبة والندم وإرجاع الأموال المسلوقة ، فإذا أقبل النهار محا توبة الليل وعدت إلى الأكام . أيتها الشقية قاتلة أختها وأبيها إن عقابك سترجف له الأبدان . وبعد أن قال هذا القول فتح الباب بسكينة وخرج منه فأقفل وراءه وجعل يمشي مشياً بطيئاً فتسمع فاندأ صوت قيوده ، وما زال هذا الصوت يتباعد حتى انقطع .

فتنفست فاندأ الصعداء ولكنها لم يغمض لها جفن في تلك الليلة . ولما أشرق الصباح نهضت من سريرها وفتحت نافذة الغرفة المطلة على حديقة القصر ، ورأت السيم نيفلي يتنزه فيها والخادم واقف عند باب الحديقة فلبست ملابسها وخرجت من تلك الغرفة إلى الحديقة وكان أول من قابلها الخادم فسأله : أعلمت ميلادي يا سيدي انك نمت في إحدى غرفها ؟

— كلا .. كن مطمئناً .

— ألم تسمعي شيئاً مدة نومك ؟

— كلا .. ما خلا صوت الأمطار وهزيم الرعد .

— ألم تسمعي صوت الخيال ؟

— أي خيال تعني ؟

فخشي الخادم أن يزيد في التصريح وقال لها : التمس من سيدي أن تبرح القصر قبل أن يستيقظ بب .

— اننا مسافران في الحال .

ثم نادى السير جس وقالت له : أتريد أن نسافر الآن ؟

— انك تعلمين اني أطوع لك من البنان .

وبعد ساعة كان السير نيفلي وفاندا في قطار الاكسبرس المسافر إلى باريس .

- ٤ -

ولنذكر الآن شيئاً عن ميلادي فانه مضت ساعتان على سفر فاندا ونيفلي ولم يكن بب قد استيقظ من رقادہ بعد .

وكان الخادم قد عاد إلى المطبخ بعد سفرهما وفيما هو جالس مع الخدم إذ سمع قرع الجرس في المطبخ فقال : هوذا ميلادي قد استيقظت .

وأسرع إلى حيث الجرس كي يعلم نمرۃ الغرفة التي باتت فيها ميلادي فانه كان يوجد في المطبخ أزرار كهربائية متصلة أسلاكها بغرف ميلادي وتحت كل زر نمرۃ الغرفة المتصل بها السلك ، ورأى الخادم ان نمرۃ الغرفة التي قرع جرسها كان ٩ فاطمأن باله كل الاطمئنان ، لأن الغرفة التي نامت فيها فاندا كانت نمرتها ٣ .

وكانت الغرف التي تنام فيها منقسمة إلى قسمين ، قسم في الدور العلوي ونمرها ١ إلى ١٠ والقسم الثاني في الدور الأسفل ونمر غرفه من ١١ إلى ١٠ ، وكانت إذا اختارت غرفة من هذه الغرف للنوم أقفلت بابها من الداخل ، ولكن كل هذا الحذر لم يكن يفيدھا فان الخيال كان يزورها مرة في كل ثلاث ليال .

وكان الخدم يعلمون بزيارة الخيال من وجه سيدتهم فانه حين يزورها في الليل تصبح نحيلة مضطربة مصفرة الوجه ولا تقوى على الكلام وإذا لم يزورها أصبحت مرطحة النفس براقۃ العين باسمۃ الشجر لأنها تنام تلك الليلة خلافاً لحالها في الليلة التي يزورها الخيال فان عينيها لا تذوقان طعم الرقاد .

ولما دق الجرس أسرع الخادم إلى الغرفة نمرۃ ٩ فطرق الباب بلطف فأذنت له بالدخول وعلم من هيئتها وارتياحها ان الخيال لم يزورها في الليلة السابقة . وكانت جالسة قرب المستوقد متشحة برداء من الكشمير وقد فتحت نوافذ الغرفة فلأتها أشعة الشمس فلما دخل الخادم قالت له : أين هو بب ؟

- إني لم أره بعد يا سيدتي .
- إذأ ، قل لي أنت أ رأيت الغريبين الذين باتا ليلة أمس في القصر ؟
- نعم يا سيدتي .
- صفهما لي .
- إنه شاب وصبية ويظهر ان الزوج استاء لأنه لم ير سيدتي .
- وقد استعمل الخادم لفظة زوج ، حذراً من أن تعلم أنه أدخل فاندنا
- إحدى غرفها .
- فقالت له : أهي حسناء تلك الصبية ؟
- إنها بارعة الجمال .
- أعرقت اسمها ؟
- كلا يا سيدتي .
- أهما باقيان في القصر أم سافرا ؟
- إنها سافرا منذ الفجر

فذهبت ميلادي الى النفاذة ونظرت في الفضاء نظرة فاحص ، ثم عادت الى الخادم فقالت : إن الطقس جميل ، إذهب وأسرج لي جوادي في الحال .

فخرج الخادم مسرعاً ولما بلغ آخر السلم التقى بالوكيل بب فسأله الوكيل فأخبره أن ميلادي ستخرج للنزهة وإنه ذاهب لإسراج جوادها فقال له : العلهأ سألت عني ؟

- نعم يا سيدتي فقلت لها إني لم أرك .
- حسناً إمض في شأنك وأنا صاعد اليها .

فصعد بب الى الدور الأول وذهب توأ الى الغرفة التي ينامتها ٣ وهي الغرفة التي كانت نائمة فيها فاندنا ، فطرق بابها فلم يجبه أحد فطرق ثانية دون جدوى . وعند ذلك فتح الباب ودخل فلم يجد أحداً في الغرفة لكنسه وجد رماداً في

المستوقد ورأى الفراش مختل النظام فقال في نفسه : العى ميلادى بائت هذه الليلة في غرفتين ؟

ثم برح هذه الغرفة وجعل يطرق جميع الأبواب حتى انتهى الى نغرة ٩ ، فأجابته ميلادى من داخلها وأمرته بالدخول فدخل ورآها تلبس ملابس الركوب وعليها علائم السكنينة والارتياح فتقدم منها وقبل يدها وقال أرى أن سيدتى قد نامت مستريحة هذه الليلة ؟

— نعم فلم أزعج في رقادى .

— ويسرنى ان أراك اليوم ناعمة البال رضية الأخلاق

— نعم إننا في اليوم السابع عشر من الشهر ، وإنه في مثل هذا اليوم من كل شهر يحضر رجل باريس .

— لقد أصبت فقد سهوت عن التاريخ .

ثم خرجت ميلادى وخرج بب في أثرها حتى انتهت إلى الحديقة فأعانها وكيلها على امتطاء الجواد وصحبها الى الشارع فأطلقت عنان الجواد إلى أن توارت عن الأنظار .

أما بب فإنه عاد الى القصر وصعد وهو يضطرب الى الغرفة نغرة ٣ وجعل يفحص الفراش فحسباً مدققاً ، فرأى على المخدة شعرة علم من طولها انها من رأس امرأة ولكنه ما لبث ان نظر الى لونها حتى ارتعش ، لأن هذه الشعرة كانت شقراء وشعر ميلادى أسود . فأيقن ان ميلادى لم تبت الليلة الماضية في هذه الغرفة . وجعل العرق ينصب من جبينه ، ليقينه أن تلك المرأة التي بائت أمس في هذا القصر ، برحت في هذا الصباح وهي تحمل سر الخيال .

- ٥ -

وسارت ميلادي على ظهر جوادها تقطع تلك البراري وهي طلقة الحيا ،
فكانت تسير في طريق خاص كأنها تسير لموعد مضروب ، وما زالت مجدة
في سيرها حتى انتهت إلى روضة في آخر القرية ، كائنة على الطريق المؤدية
إلى باريس .

وهناك أوقفت جوادها وجعلت تنلفت يمنة ويسرة ، ولم يطل وقوفها حتى
برز لها رجل من وراء الأكمة كان متنكراً بملابس القرويين ، ولكنها عرفتة
في الحال وقالت له بصوت يتهدج : أهذا أنت يا فرانتز ، قل لي ما وراءك
من الأخبار ؟

فحيها هذا الرجل ، الذي دعته باسم ألماني ، وقال لها : إن
الأخبار حسنة .

- وكيف ولدي ؟

- إنه زاد جمالاً .

- أهو سعيد ؟

- دون شك ولكنه عاشق مفتون وهو سيتزوج .

فاضطربت ميلادي وقالت : رباه وماذا أصنع ؟

- لماذا تضطربين فإنه سيكون أسعد الناس بهذا الزواج ، لأنني يحبها
بارعة الجمال ، ولكنها فقيرة مديونة له بكل شيء حتى بهنائها فإنها أيضاً
هائمة بهواه .

فزالت آثار الاضطراب عن وجه ميلادي وأخذت يد فرانتز وقالت : إنه
بلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً ، وإني لم أعد أراه بعد أن تجاوز عمره
خمسة أعوام .

- إني يا سيدتي لم أجسر أبداً على اعتراضك بل إني كنت أمتثل لأوامرك

وأنفذها كما تنفذ الآلة أغراض الصنّاع وما أنا الآن لا أزال في موقفتي القديم ،
 أحبّ ان أتكلّم ولكني لا أجسر على الكلام .
 - قل إني أريد ان تتكلّم .
 - ألا تظنين يا سيدي ان حبّ الأم يكفر عن الذنوب ؟
 - أسكت .

ولكن فرائز أتم حديثه فقال : إنك أردت ان أتكلّم وسأكلّم فاعلمي
 يا سيدي انه قد مضى ٢٥ عاماً على موت أبيك .
 ففطمت ميلادي وجهها بيدها إخفاء لاضطرابها فقال فرائز : وقد مضى
 أيضاً على قتل اختك ستة أعوام ، فمن تخشين ومن الذي يطالبك بعد
 أبيك واختك بهذه الثروة الطائلة التي تتمتعين بها منذ عهد بعيد فلماذا لا تظهرين
 لابنك انك أمه ولماذا لا تقيمين في باريس ؟

وكانت دموع ميلادي تتساقط ، ولكنها مسحت دمعها حين سمعت
 هذا القول ، وقالت له : ألا تعلم أيها التعس ، ما القاء من العذاب منذ
 ستة أعوام ؟

- ماذا تعنين بما تقولين ؟
 - ألم تقل ان أبي مات ؟
 - ولا أزال أردد هذا الكلام لأني واثق من موته .
 فابتسمت ميلادي إبتسام القنوط وقالت : ولكنه يخرج من قبره
 حين يريد .

- إن الأموات لا يخرجون يا سيدي من القبور .
 - ولكن أبي لم يخرج على منوالهم لأنه يخرج من قبره كل ليلة وهو يخرج جميع
 القبود التي كبّلناه بها .
 - ما هذا الوهم بل ما هذا الجنون ؟
 - ليس ما أقول لك ومما بل هو حقيقة ثابتة ، فإنه يدخل إلى

غرفتي ويجلس على سريري ، ويقول لي : توبي واستغفري وأرجعي الأموال المسلوقة .

فهرز كتفيه قائلاً : لمن يريد ان ترجعي هذه الأموال ؟
- لابنة أختي .

- ما هذا الخوف . إنك تعلمين أن إرجاع الأموال محال لأنك إذا أردت إرجاعها فإن الآخرين لا يريدون .

فذهرت وقالت له بربك لا تكلمني عنهم .
فقال فرانز بلهجة قاسية : إنك يا سيدتي قد جريت في صحبتي شوطاً بعيداً ولم تكتمي عني أمراً ، ولذلك أسألك بحق ما بيننا من الصلات أن تبوح لي بكل شيء .

فقطبت حاجبيها وقالت : إذا أنت تريد .
- نعم ا .

فزلت عن جواردها وتأبطت ذراعه ، ثم مشت وإياه وجعلت تبوح له بأسرارها الغامضة .

ولم يعلم أحد ما دار بينهما من الحديث عن الخيال وغيره من الأسرار . ولكن يظهر ان ميلادي قد اطمأنت بعد هذا الحديث ، فعادت إلى القصر وعليها مظاهر السكينة والارتياح ، خلافاً لوكيلها بب ، فقد كان مضطرب أشد الاضطراب . ولكنه لم يسأل الخادم عن المسكان الذي قامت فيه فائدا .

ولما عادت ميلادي دخلت الى قاعة الطعام ، ودخل معها بب . وكان من عادته ان يخدمها على المائدة ، لكنها كانت تعتبره صديقاً بل حليفاً لها فكانت تتخلى عن كبريائها الانكليزية وتكلمه من غير كلفة ، لما كان بينهما من الروابط السرية .

غير أن ميلادي كانت ملازمة للصمت مدة الأكل على ما كان يبدو عليها من

ظواهر الارتياح فبدأ بب الحديث وقال أرى على سيدتي مظاهر السرور فهل وردتها أنباء حسنة من باريس ؟
- نعم إن ابني سيتزوج

فأظهر بب سروره ودعا له بالهناء والعمر الطويل غير ان ميلادي قاطعته وقالت له : أعتقد بالأرواح يا بب ؟
فتكلف هيئة البلاهة وقال : لا أعلم .
- ولكنك تعتقد مثلي فيما أظن أن أرواح الموتى تظهر للأحياء !
- لا ، لا أعلم أيضاً . ولكنني أصدق بكل ما تروي لي يا سيدتي .
- ألم تر الخيال ولم تسمع رصف قيوده ؟
- كلا ولكن . .

فنظرت ميلادي اليه نظرة ارتياح وقالت لكن ماذا ؟

- ولكنني أرى أن هذا الخيال وهذه القيود وهم يمثل لك فكرك المضطرب ولم ير أحد من سكان القصر شيئاً من هذا . غير أنني سمعتك في إحدى الليالي فأصغيت ، فمخيل لي إنك تجيبين على مسألة تعرض عليك ولكنني لم أسمع صوتاً غير صوتك وأظن ان تلك الخرافات التي أشيعت عن هذا القصر قد دعت إلى هذا الاضطراب في أفكارك .

فقالت له ميلادي قد يكون ما تقوله حقاً . ولكن هذا الخيال كان يزورني أيضاً في غلاسكو وفي لنندرا . أي في غير هذا القصر الذي كثرت عنه الخرافات ، لأن أبي كان يخرج إلي من قبره في كل ليلة . أتعلم ما كان يريد ؟

ثم قلبت ثفتها إشارة إلى الاحتقار وقالت : إنه يطلب إلي أن أرجع إلى تلك الفتاة النورية تلك الثروة التي ما وصلت إلي إلا بعد أن سفكت كثيراً من الدماء . وهو يقول إنني إذا أرجعت هذا المال يصفح عن الزلة التي ارتكبتها في صباي ، ويصفح عن حيي لذلك الهندي وعن قتلي إياه

وقتل أخى .

فارتعش بب وقال : أهو يطلب منك هذا الطاب ؟

- نعم إنه يريد أن أحرم ولدى الذي تمود بسطة الكف وعيش السعة والانفاق دون حساب ، وأجعله فقيراً معدماً يعيش من شق القلم ، أو يرتقى من صناعته .

ثم ضحكت ضحك الهازىء وقالت : إنه ينذرني بالنار الأبدية وماذا تهمني النار إذا بقي ولدى سعيداً ؟

وقامت بعد ذلك فجعلت تمشي بخطوات غير متوازنة وقالت : لقد اسود هذا القصر في عيني وأريد ان أبرحه .

- إلى أين تبحرين يا سيدتي ؟

- إلى باريس أريد ان أرى ولدى وأهنأ بسعادته .

فلم يجب بب بحرف لكنه خرج من القاعة بحجة انه يريد إصدار بعض الأوامر الى الخدم وبقيت ميلادي وحدها .

ولما أقبل الليل ودنت ساعة الرقاد ترددت ميلادي هنيئة باختيار غرفة تنام فيها إلى ان وقع اختيارها على الغرفة التي نمرتها ١١ وكانت نوافذها تشرف على حديقة القصر .

ولكنها لم تصعد الى سريرها بل جلست فوق مقعد قرب المستودع وجعلت تنظر الى الساعة من حين إلى آخر وعليها دلائل القلق .

ولبثت على ذلك الى ان دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فسمعت صفيراً من الحديقة فأسرعت الى خزانة ففتحتها وأخرجت منهلاً من الحرير ثم فتحت النافذة المشرفة على الحديقة فربطت طرف الحبل بحديد النافذة وأطلقت الطرف الآخر فبلغ أرض الحديقة .

ولم يمض على ذلك دقيقتين حتى رأت ميلادي رجلاً يتسلق الجدار ، مستهيناً بهذا الحبل .

وتنعت عن النافذة ودخل ذاك الرجل منها الى الغرفة فأسرعت ميلادي الى المصباح وأطفأته فساد الظلام في تلك الغرفة .

- ٦ -

غير ان نار المستوفد كانت حامية ، فكان ينبعث منه نور ضعيف ينسير إضاءة الشفق فيمكن مشاهدة الرجل الداخل من النافذة ويعرف الناظر اليه انه فرانز الألماني الذي التقت به ميلادي في آخر القرية فقال لها عند دخوله العلي تأخرت وجئت بعد فوات الأوان ؟

- كلا ، لأن الخيال لا يحضر إلا في منتصف الساعة الأولى بعد انتصاف الليل .

فنظر فرانز الى ما حواليه وقال : اين يجب ان أختبئ ؟

- هنا وراء السرير فلا يفصل بيننا غير ستار .

فاختبأ وقال لها : قد يمكن ان يكون الزائر خيالا ، ولكنني أعتقد انه جسم مركب من لحم وعظم ودم فإذا كان ذلك فلا بد لي من مقاتلته .

فاتقدت عينها ببارق من الغضب وقالت أليديك سلاح ؟

- نعم مسدس وخنجر وأنت لديك مسدس ايضاً فنامي في سريريك بشبات ولنتظر قدوم الخيال .

فامتثلت ميلادي وجعل فرانز يخاطبها من وراء الستار همساً فقال لها أواثقة أنت ان الخيال خيال أبديك ؟

- ليس لدي ريب لأن الوجه وجمه واللباس لباسه ولا يختلف عنه إلا اختلافاً قليلا في الصوت .

وفيا هي تقول ذلك سمعت تنهداً فقالت له : كفى لقد حضر

ثم استحال التنهد الى زفير وشهيق تلاهما صوت القيود ففطت ميلادي رأسها
بلحاف وقالت لفراز بصوت منخفض : أسمعت ؟
- نعم اسكتي ولا تفوهي بحرف

وكان الخيال قد بلغ الباب ولكنه لم يسرع بالدخول إلى الغرفة فوقف عند
الباب وانطلق لسانه بالكلام فقال . ربه ! ألا تريخني من هذا العذاب ؟ أقضي
علي ان أخرج كل ليلة من قبري كي الين قلب هذه المرأة التي قتلت أباه وأختها
دون إشفاق . إنها تقنع بالرجاء ولا تخاف من الوعيد بل هي تنكر جلالك ولا
تخشي بأسك ربه عفوك لان كفرانها شديد .

وعند ذلك فتح الباب بعنف ودنا من المستوقد وقال . إن البرد شديد وأنا
في حاجة الى الدفء .

ثم وقف هنيهة أمام النار فجعلت أسنان ميلادي تصطك من الخوف خلفاً
لفراز فقد وقف موقف التأهب .

وبعد هنيهة دنا الخيال من ميلادي ، فهز سريرها وقال : مس الن
أتسمعينني ؟

فاضطربت ميلادي وقالت له بصوت متلعجج : ماذا تريد مني ؟

- أريد ان ترجعي الأموال المختلسة أيتها السارقة السفاكة .
فلم تجبه بشيء . فدنا منها ووضع يده على كتفها وقال لها : ألا
تذكرين أباك ؟

فصاحت تقول رحماك .

- أتذكرين أختك ؟

- نعم نعم إني أذكر كل شيء فأشفق علي

إذاً أترجعين الأموال المسروقة ؟

-- لمن تريد ان أرجعها ؟

الى إبنة أختك .

- وإذا كانت هذه الفتاة قد ماتت ؟

- كلا فهي لا تزال في قيد الحياة وأنا أرشدك الى مكانها .

فقالت له بصوت المتوسل ، كيف ذلك ، أتريد أن أحرم ولدي وأجعله فقيراً بعد غنى ؟

- نعم ، لأنه ابن الجريمة . وفوق ذلك فإنك إذا لم ترجعي المال الى إبنة اختك فإن ابنك لا يستفيد منه بشيء ، لأنه يموت ليلة زفافه قرب عروسه .

فصاحت ميلادي صيحة يأس وقالت : إني أرد كل شيء على أن يبقى ولدي حياً .

ولكنها قبل ان تتم كلامها خرج فرانز من وراء السرير وقال له بصوت الساخر المتهم لكنك تموت قبله أيها المنافق .

ثم انقض بسرعة على الحبال وضغط على عنقه ضغطاً شديداً حتى كاد يخنقه فرأى الحبال انه لا يستطيع دفاعاً فطلب العفو وشعر فرانز ان قناع وجه ذلك الحبال قد سقط على الأرض .

وكان هذا القناع مصنوع من الشمع على مثال وجه والد ميلادي . فلما سقط عن وجهه ورأت ميلادي انه يطلب العفو أيقنت ان فرانز قد تغلب عليه هبت من سريره وأثارت الشمعة ونظرت الى ذلك الحبال وهو تحت أقدام فرانز ، فرأت انه وكيلها بب . ولكنها لم تهجم على ذلك الرجل الذي كان يخدعها منذ عشرة أعوام بهذه الحيلة الهائلة بل قالت لفرانز يجب على هذا الرجل أن يعترف بكل شيء قبل ان يموت .

ثم قالت لفرانز ، وكان راکماً فوق صدره : إنقض عنه كي يستطيع أن يتكلم ، لأنه إذا حاول الفرار ألهبت دماغه بنار المسدس .

فامتثل فرانز ونفض بب فألقى سلاسل قيوده وتغير فجأة من الرعب الى الارتياح والاطمئنان كأنه لم يعد يرهب الموت وقال لميلادي : انك تريدني أن

تعرفني كل شيء ؟

— إن دقائق حياتك باتت معدودة ، ولكني أريد ان أعرف مارك قبل أن تموت .

فقال بلمهجة المتهمك: إني سأبوح بكل شيء ، ولكني لا أبوح بما تريدن لرهبي من الموت بل إني أقول ما أقوله ببلء الرضى وأنت لم تعلمي السبب الذي حملني على ان أظهر لك بمظهر الخيال منذ عشرة أعوام وكيف اني أقنع وجهي بقناع من الشمع يشبه وجه أبيك .
ثم قهقه ضاحكاً وقال إذا إسمعي .

انك تعلمين يا ميمـلادي ، بل يا مس الن ، إني اهتمت أباك حين كنت خادماً غرفته ، انه دنس عرضي وأغوى إمرأتي ، فحالفتك مع فرانز على قتل أبيك ولا شك إنك تعجبين كيف أني انقلبت عليك هذا الانقلاب ؟

— نعم وأريد ان أعرف ايها الشقي من دفعك الى هذه الخيانة

فحملق بب بعينه وقال أتسأليني من أعراي ومن عسى يغريني غير خيانتك وفظاعتك ؟

إسمعي الآن . إنه كان لي إمرأة طاهرة حسناء أحبها وتحبني كما تعلمين فأثيت إلي يوم وأنت لا تتجاوزين الخامسة عشرة من عمرك الدنس واخذتني بيدي وأكرهتني على ان أنظر من النافذة المطلة على حديقة قصر في غلاسكو ورأيت إمرأتي جالسة بالقرب من أبيك وهو يعانقها فطلقت امرأتي وأصبحت منذ ذلك الوقت آلة بيدك للانتقام من أبيك .

ومضى على ذلك أربعة أعوام وأنا أساعد فرانز على قتله ، ثم مضت عشرة أعوام أخرى وأنا أطوع لك من البنان الى ان انقلبت عليك هذا الانقلاب .
واليك بيان السبب :

جاءني رجل ذات ليلة وقال لي إن امرأة تحضر وهي تريد أن تراك

قبل ان تموت .

وذهبت الى حيث كانت تقيم فوجدت انها امرأتى وانها مشرفة على الموت فنظرت الى نظرة قطعت قلبي وقالت : إنك طردتني يا بيب من منزلك كما تطرد الزوجة الخائنة ، ولكني كنت طاهرة عفيفة بريئة . فما أحببت ان أموت قبل ان أظلمك على سر عظيم وهو ان والدمس الن الذي رأيتني وإياه في الحديقة لم يكن عاشقاً لي بل كان أبي .

ثم أعطتني لفافة تقادم عهدا من الأوراق وقالت لي : إقرأ هذه الأوراق يثبت لك ما قلته .

فقرأتها وعلمت ان امرأتى كانت بنت أبيك من زواج غير شرعي وهي اختك يا ميلادي أعلمت الآن ؟

إنك لا تفقهين مرادي لأن قلبك الدنس لا يعرف غير الذنوب . أما أنا فقد ندمت على ذنبي القديم وذكرت انك انت السبب بالتفريق بيني وبين امرأتى ، فأردت ان أرجع أموال أبيك الى من هو أحق منك اي الى بنت اختك التي خنقتها في لندرا وهي فتاة تدعى جيبسي النورية وترقص في الشوارع فإذا رجعت اليها ثروتها كانت أغنى أغنياء الانكليز .

فهاجت ميلادي هياج الضواري وقالت ستموت ايها الشقي دون ان تراها على هذا الغنى .

ثم أطلقت عليه مسدسها ، فوقعت رصاصته بصدرة . فوقع صريماً تتدفق منه الدماء .

ثم نظرت الى فرايز وقالت : لقد أصبت إن الأموات لا يرجعون .

اما بيب فكان لا يزال قادراً على الكلام فقال لها : إنك يا مس الن ، قد أضفت جريمة جديدة الى جرائمك القديمة ، ولكن لا بد من عقابك وهو قريب .

فضحكت ميلادي وقالت : الملك تقوم ثانية من بين الأموات ؟

- كلا ولكن يوجد من يعرف سري بين الأحياء .

ورأى بب ان وجهها قد اصفر فقال لها . لقد بدت عليك دلائل الخوف
وإذا اردت ان تعلمي كل شيء فاعلمي ايضاً انه جاء الى قصرك امس غريبان
وامرت باستقبالهما فبات الرجل في الغرفة الحمراء وباتت المرأة في إحدى غرفك
فخدعت بها حين دخلت الى غرفتك وحسبتك اياها فمثلت امامها دور الخيال
وذكرت جميع ذنوبك .

فصاحت ميلادي صبيحة جزع اما بب فكان صوته يتلاشى فقال لها : ان
يوم العقاب قريب وسيكون هائلاً ايتهما الأفعى
ثم ادار وجهه كي لا ينظر اليها وقد خفت صوته واطبقت عيناه

* * *

فقال فرانز ميلادي لا تضطربي لمثل هذه الأمور التافهة ولنبرح المكان
قبل الصباح

- الى اين نذهب ؟

- الى باريس حيث ترين ولدك .

- لقد اصبت لنذهب .

ثم المحذرت دمعة حنو من عين تلك النمرة التي سفكت دم ابيها واختها ،
كأنما ذكر ولدها اعاد اليها قلب المرأة .

- V -

وبعد ان رحلت فاندا مع السير نيفلي بساعتين على قطار الاكسپرس الى باريس
كان روكامبول بطل هذه الرواية في شارع الكبوشيين في باريس يسير سراً

مستمعجلا تدل ظواهره انه ذاهب الى موعد ثم رأى مركبة اجرة فأوقفها وامر سائقها ان يسير به الى شارع سربنت .

فلما وصل رأى نويل ينتظره ، فكان اول سؤال بادره به قوله : هل اتت فاندنا ؟

فقال له نويل : كلا ايها الرئيس إني كنت انتظرها امس فلم تأت وذهبت اليوم الى المحطة ورأيت جميع الركاب دون ان اراها بينهم ولكنني علمت ان القطار خرج عن الخط قرب اميانس فلم يصب احد من الركاب بضرر غير ان بعضهم تركوا القطار وذهبوا الى اميانس وانا الآن واثق ...

وقبل ان يتم كلامه فتح الباب ودخلت منه امرأة فارتعش روكامبول حين رآها لأنها كانت فاندنا فسلمت عليه سلام المحبين وقالت له : وصلت منذ ساعة فأفرغت جعبة حيلي حتى تمكنك من الحضور لأن السير لجسم ليفلي بات يمالمي معاملة العشاق ويفار علي اشد الغيرة في حين ان شفتيه لم تلثا اطراف اصابعي بعد .

فابتسم روكامبول وقال : شرط ان تكوني علمت اسراره على الأقل .
-- كلام اقف على شيء منه بعد .

- ولكنني اريد ان اعلم تاريخ حياة جيبسي لأن السير جورج ستوي الذي انضم اليها لم يعلم حقيقته .

-- ولكنني علمت بعضه لأن الصدفة اوقفتني على شيء منه .

فاندعش روكامبول وقال . اوضحني ما تقولين .

-- ان جيبسي غنية وتقدر ثروتها بالملايين الكثيرة .

ثم قصت عليه جميع ما حدث لها من الحوادث في قصر روشربين ، وكيف انها جاءت مع السير جيمس ليفلي الى ذلك المكان من اميانس ومبيتها في إحدى غرف ميلادي وظهور الخيال وما علمت منه من الأمور الى ان اتت حديثها قائلة : إما ان اكون منخدعة او تكون جيبسي ابنة اخت مس

الن صاحبة تلك الملايين
وكان روكامبول مصغياً اليها بانتباه عظيم فقال لها: إذا كان ذلك فلا خوف
على جيبسي لقد وضعتها في محل امين وتولى مرميس حمايتها وهو يحرص عليها
اكثر من حرصه على نفسه .

— وما صنعت بالسير جورج ستوي ؟

— اقمته في احدى فنادق سانت جرمن وامرته ان لا يبرح الفندق في
النهار . غير اني مضطر الآن بعد ما سمعت منك هذه الحكاية ان لا أأذن
له بالخروج في الليل ايضاً ، حذراً من ان يراه السير جيمس نيفلي قبل
ان اعود .

— كيف الى ان تعود الملك راحل ؟

— نعم ، فلا بد لي من زيارة قصر روشربين ، والمباحثة قليلاً مع
ذاك الخيال .

وبعد ليلة كان روكامبول ينزل من قطار السكة الحديدية الى اقرب محطة
من قصر روشربين .

وكانت فاندا قد ارشدت روكامبول الى طريق القصر ووصفته له خير
وصف ، فكان يتوقع حين وصوله اليه ان يرى السكنينة سائدة من حوله
ولكنه رأى نقيض ما كان يتوقع . إذ رأى كثيراً من الناس واقفين
عند بابه ، وخدام القصر يقص عليهم ما حدث فيه لوكيله بب فيقول انه
كان خدام القصر سمعوا في الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، دوي
مسدس ، ولكنهم لم يجسروا على الدخول الى غرف مولاتهم ، غير انهم
سمعوا بعد ذلك ميلادي تنادي أحدهم فأسرع اليها فأمرته ان يسرع لها
جوادين ، فامتثل وهو مندهل لانه رآها مع رجل غريب لم يكن رآه في
المكان من قبل .

ثم رحلت ميلادي مع فرانز وعند الصباح تجاسر الخادم على الدنو من

غرف ميلادي فسمع انيناً فتقدم حتى اهتدى الى مصدر الانين ففتح الباب ووجد
 بب ساجماً بدمائه لكن قلبه لا يزال ينبض .
 ولما وصل روكامبول كان الخادم قد بلغ بحكايته الى هذا الحد فزحم الحضور
 واخترقهم الى الخادم قائلًا ألا يزال حياً ؟
 - نعم ولكنني لا اظنه يحى اكثر من ساعة .
 - سر بي اليه في الحال فاني طبيب .
 فدخل به الخادم الى القصر ، وظل الفلاحون المتجمهرون وقوفاً
 عند الباب .

- ٨ -

ولندع الآن روكامبول في ذلك المكان ، ونخبر شيئاً عن ابن ميلادي التي
 ارتكبت ما ارتكبتها من الجرائم حفظاً لثروته فنسمع الآن حكايته من فمه
 يتلوها لصديقي له في باريس .
 كان ابن ميلادي يدعى لوسيان وله صديق يدعى بول فكانا مختليين في غرفة
 من منزله ولوسيان يقص عليه حكايته قائلًا :
 إن ما اتصل اليه ذا كرتي اني عندما كنت في الخامسة من عمري كنت في
 قصر كبير لا اعلم في اي بلد على كثرة بحثي عنه حين بلوغي سن الشباب ولكنني
 اظن انه كان في المجلترا او ايكوسيا .
 ولا ازال اذكر امي فقد كانت صبية حسناء ، إذا رآها احد معي
 حسبها اخي الكبير . ولا اعلم كيف افترقت عنها واذا كان هذا الفراق
 برضاها ولكنني اذكر انها كانت تضمني الى صدرها وتبكي ، ولم ادر إلى الآن
 سبب هذا البكاء .

وبينا أنا ذات يوم نائم في القصر صحوحت فاذا أنا بيدي امرأة عجوز راكبة في قطار ينهب الأرض فقضيت إياماً أنوح وابكي ثم تناسيت أمي والفت الصغار الذين كانوا يلعبون معي .

وعندما بلغت العاشرة من عمري أرسلت الى مدرسة داخلية كان يتولاها استاذ كهل يحبني كما يحب ابنته ، فاقمت في تلك المدرسة وربيت في منزل ذلك الشيخ إلى ان بلغت السادسة عشرة من عمري وكنت في كل يوم اسأل الاستاذ وهو يدعى برتود عن أمي فيجيبني انه لا يعلم شيئاً من أمري ، وكان اخر ما قاله لي في هذا الشأن ان رجلاً الماني اللهجة دفعني اليه وجعل يرسل له كل عام خمسة الاف فرنك اجرة تعليمي ونفقاتي فعملت لك اللغات الشائعة وأحسننت تربيتك جهد ما استطعت .

وبعد عام ورد الى هذا الاستاذ كتاب الماني يقول فيه ان لوسيان قد أتم دروسه فأطلق سراحه وأعطته هذه الحوالة في طيه .

وكانت الحوالة على أحد المصارف الكبرى وقيمتها الف جنيه ولهذا الاستاذ الفاضل فتاة في الرابعة عشرة من عمرها وهي كزنبقة الحقول وقد كنت بها من الهائنين ، فلما أخذت هذه الحوالة ورأيت اني لم أكد ابلغ السابعة عشرة من العمر حتى كان ايرادي مائة الف فرنك في العام بفضل ما كان يردي لي كل ثلاثة أشهر من هذه الحوالات السرية جئت والد الفتاة واسمها ماري فبجئت له بغرامي بها ورجوته أن يأذن لي بزواجها فأبى معتذراً عن ذلك بحداثتي وما زلت به حتى رضي أن يزوجني بها متى بلغت ، وبلغت سن الرشد أي بعد ستة أعوام .

وأنت تعرف أيها الصديق تنمة حكايتي فاني تجولت سائحاً مدة عامين بصحبة استاذي ولما عدت انشأت منزلاً ودخلت في سلك أعضاء النادي باسم لوسيان دي هاس لأنني لا أعرف اسمي الحقيقي فجعل ذلك المكاتب السري الذي كان يكتب استاذي في عهد حداثتي يكتبني رأساً ويرسل لي في كل ثلاثة

أشهر ثلاثة الف جنيه بدلاً من الف فلم أعد محتاجاً إلى شيء من أسباب الراحة غير ان الذي نغص عيشي اني عدت من سياحتي في البلاد المصرية فلم أجد استاذي القديم برتود ولا ابنته ماري ولا المدرسة التي كان يدرس فيها فبحثت عنهما في كل مكان حتى يأتى الى ان أخبرني أحد رفاقي ان الاستاذ مات وان ابنته ماري تزوجت وكنت لا ازال متدلهاً في حبها فاندفعت مع تيسار السدخ والاسراف بغية النسيان فكنت أسكر وأقامر أتعرض لهوى كل حسناء حتى جرى لي مع إحدى بنات الهوى حادث غريب .

فقال له صديقه : ألعلك برحت باريس منذ عام واحتجبت عن الأنظار من أجلها ؟

- هو ذاك وأنا الآن من أسعد الناس .

- ألعل سعادتك من هذه الفتاة ؟

- كلا ، فاني هجرتها بعد أن ارسلت اليها كتاب وداع وفي طيه مئة الف فرنك .

- لقد أحسنت غير اني لا أعلم سبب انفصالك عنها قبل فتور حبها لك .

- كلا ، فانها كانت تهواني هوى لا يوصف وهي التي لم يدخل الى قلبها من قبل شعاع من أشعة الغرام. ولكنني لقيت ماري برتود التي أحببتها الحب الأول .

- ألقيتها أرملة ؟

- كلا ، فانها لم تتزوج ولا يزال أبوها حياً يرزق وهي الآن في العشرين من عمرها تقف النساء يجالها الطاهر وسأقترن بها بعد ثمانية أيام .

- ولكن كيف لقيت خطيبتك ؟

- انه حديث يطول شرحه ، فاشعل هذا السيكار وأجلس أقصه عليك .

ولنذكر شيئاً عن لوسيان قبل تنمة حكايته فقد كان في الرابعة والعشرين من عمره ممشوق القوام شديد الساعد أسود الشعر أزرق العينين، يبتسم ابتساماً يدل على السويداء ، وهو حلو الكلام حاضر النكتة ، كثير اللطف على بسالة فادرة ، فقد اتفق له مرة وهو في ألمانيا انه سمع أحد الضباط الالمانيين يطعن بفرنسا طعنًا شائنًا فدعى جميع فرقة ذلك الضابط إلى المباراة وبارز في يوم واحد ستة من رجالها ففاز عليهم جميعاً .

لكنه كان مع هذه البسالة والجرأة طاهر النفس رقيق الحاشية يحبه جميع أصدقائه حباً أكيداً لما يرون به من مخائل النجابة والسلامة .

ولما أشعل صديقه سيكارة وعاد إلى موضعه قال له لوسيان : أسمعت باسم تلك الفتاة التي تدعى جوزفين ؟

ومن لم يسمع بها فانها أشهر بنات الهوى العليا هي التي علمت بحبها ؟
نعم فقد اختطفتم ذات ليلة بل هي التي اختطفتمني فإن هذه الفتاة كانت تفتخر انها لم تهو أحداً في حياتها من عشاقها الذين كانوا يترامون على أقدامها وينتجرون من أجلها ، ولكنها أحببني حباً قوياً ، واعترفت ان هذا أول عهدا بالحب الصادق .

فعشنا عاماً أو يزيد ونحن لا نفترق لحظة ، ثم جاء دور الفتيور وشعرت ان جدوة غرامي أخذت بالحمود وفتح الصواب قلبي وعلمت ان هذه المومس ستقذف بي إلى الهاوية وجعلت أتهياً للانفصال خلافاً لما كنت أراه منها فإن تعلقها بي كان يزيد في كل يوم .

وقد أصبحت يوماً وشعرت أن حبها قد زال من قلبي بل وجدت نفسي أخافها وارتعد لذكرها ، فخرجت من ذلك المنزل المغزل الذي كنا فيه أطلب النزهة وما زلت أنتقل من شارع إلى شارع حتى انتهيت إلى حديقة عمومية

كان كثير من الصغار مع مربياتهم يلعبون فيها .
فوقفت أمامهم أتأمل جمال الحداثة ثم حانت مني التفاتة ، ورأيت شيخاً
احنت ظهره الايام ، يمشي متوكئاً على عصاه مشي المتعب الضعيف تصحبه
فتاة صبية .

وكان وقور الهيئة لطيف الملابس غير ان ملابسه كانت تسدل على الفقر
وكذلك ملابس الفتاة التي كانت تصحبه فان قبعتها بسيطة دون ازهار غير اني
عرفتهما للحال فانهما كانا الاستاذ برتود وابنته ماري .

ولا تسأل عن دهشتي فاني اسرعت الى استاذي القديم وكدت اخنقه عنقاً
وأنا أقول له : كيف بعثت بعد الموت فاني بكيمتك كثيراً ؟
ولم يكن اضطرابه أقل من اضطرابي فاضطر الى الجلوس في مقعد في الحديقة
وقال لي : كلا يا بني اني لم أمت ولكني لقيت من الامراض ما هو أشد من الموت
فنظرت الى ماري فاطرقت بعينيها وعند ذلك حكى لي الشيخ جميع ما
حدث له ولأبنته منذ خمسة أعوام وحكايته انه خسر ماله في مصرف اصاب
بالأفلاس ثم جعلت تلاميذه تترك المدرسة واحداً أحر واحداً حق اضطر الى
بيعها وبقي عامين يدرّس دروساً خاصة في المنازل الى ان أصيب بمرض اقعده
عن العمل فامتنع مرغماً عن التدريس واضطر الى الإقامة مع بنته في منزل
صغير فكانت تشتغل ١٠ ساعات في اليوم كي تقي أباهما شر العوز .

فتأثرت لحكايته وقلت لماري أين زوجك العله هجرك ؟
فذهلت الفتاة وقالت : ليس لي زوج ولم افترق لحظة عن أبي .
فضممتها الى صدري وقبلت جبينها وقلت لها : اخطأت فان لك زوجاً
وهو أنا .

ثم ركعت أمام استاذي القديم وقلت له : الملك نسيت وعدك لي ؟
- صديق لوسيان لقد عرفت الباقي إذن فانت ستزوج
- نعم بعد ثمانية أيام وإنما ذكرت لك امري كي تكون شاهدي في هذا
الزواج .

- ومن يكون الشاهد الثاني ؟

- لا أعلم ولكنني أرجو أن يكون ذلك الألماني الذي بت أظن أنه هو الذي يتولى شأني منذ حدوثي وهو يدعى الماجور هوف ولست أعلم متى أتى إلى باريس ولكنني عرفت أنه منذ أعوام وهو ينظر إلي في بعض الأحيان نظرات ملؤها الرفق والحنان فيحدثني قلبي أن هذا الرجل غير غريب عني .

- ألم تكلمه أبداً ؟

- نعم فكان يجيبني ببرود بل بقسوة ولكنني كنت أرى أنه يتكلف هذا البرود تكلفاً كأنه مكره عليه .

- إذن تعتقد أن الماجور هو الألماني الذي كان يعني بأمرك هما واحد ؟
- نعم ولهذا أرجو أن يكون شاهدي الثاني .

- أين تجده ؟

أحاب : في نادي اسبرج فإنه من أعضائه وسنذهب إليه في هذه الليلة .

- ليكن ما تريد وسأوفيك إلى هذا النادي .

وبينما هو يلبس قممته ويحاول الانصراف سمع دق جرس الباب الخارجي فقال لوسيان من ترى هذا الزائر فاني لا استقبل أحداً في هذه الساعة .

وبعد هنيهة فتح الباب ودخل رجل يناهز الستين من العمر فنظر إلى الشابين وقال : من منكما يا سيدي يدعى لوسيان ؟

- لوسيان هو أنا .

- لقد عهد لي يا سيدي مصرف ديفيس هامغري وشركاه أن أدفع لك مئة ألف فرنك وأعطيك هذا الصندوق الصغير وهذا الكتاب .

فاندهل لوسيان لأنه منذ عشرة أيام ورد إليه هذا المبلغ فأخذ المال والصندوق ثم فتح الكتاب فرأى ٣ أ. طر مكتوبة بخط دقيق يدل على أن يد أمرأ قد كتبتهما وقرأ ما يأتي :

« ولدي العزيز :

« قدم بالنيابة عني هذه الهدية التي تجدها في الصندوق الى خطيبتك وفي
طبي الكتاب مفتاح الصندوق »

(والدتك)

فاحمر وجه لوسيان وكان يرجو أن يعرف اسم والدته على الأقل ثم فتح
الصندوق الصغير فوجد فيه عقداً من الماس لم ير أبهى منه ولا تقدر قيمته بأقل
من نصف مليون فتمتد لوسيان والمحدثت دمة من عينه وقال . إذن امي لا
تزال على قيد الحياة فما يدفمها الى هذا الاحتجاب وما بالها تكتم حتى
اسمها عني ؟

ثم خطر له أن يسأل موظف البنك الذي جاءه بالحوالة والصندوق فقال له:
انك تستطيع الكلام يا سيدي أمام صديقي هذا إذا لا أكنتم عنه شيئاً من
اسراري .

فذهل الشيخ الصراف وقال له : ماذا تريد أن أقول يا سيدي ؟

– اتأذن أن اسألك كم بقي لك في خدمة هذا البنك الذي أنت فيه ؟

– أربعون عاماً .

– إذن أنت عرفت كل شيء ؟

– ماذا تعني يا سيدي ؟

– أعني انك ستقول لي كل ما تعلمه

فأبدى الصراف حركة انذهال صادقة وقال . أعيد عليك القول يا سيدي

اني لا افهم شيئاً مما تقول .

– إذن اصغ الى فستفهم ما أريد . انه يرديني من مصرفكم كل ثلاثة أشهر

مبلغ كبير فمن يرسل الي هذا المال ؟

– يرديننا من فرع بنكننا في لندرا .

.. ممن ؟

– لا أعلم

- ولكنهم في لندره يعلمون ؟
- لا أظن .
- ولكن مدير البنك يعلم دون شك ؟
- لا أستطيع أن أقول لك يا سيدي غير واحد ذكرته الآن وهو اني كنت منذ ٣٠ عاماً عاملاً في فرع بنكننا في لندرا ، وجاء رجل أعرفه دون شك إذا رأيته مرة ثانية لأنه لا يزال ممثلاً في ذهني ودفع إلى البنك مبلغاً عظيماً قسمه إلى قسمين متساويين فوضع أحد القسمين باسم غلام يدعى لوسيان يتربى في فرنسا والقسم الآخر باسم رجل هندي يدعى علي رجاء .
- وفي اليوم التالي جاء الهندي وقبض حصته من المال ، وفي العام الثاني جاء الرجل فوضع أيضاً مبلغاً جسيماً قدر المبلغ الأول نصفه للوسيان والنصف الآخر باسم علي رجاء ، وجاء في اليوم التالي وقبض المال الذي وضع باسمه .
- فسأله لوسيان : وفي العام الثالث ؟
- لم أكن في لندرا فقد نقلوني إلى مصرف باريس .
- أهذا كل ما تعلمه ؟
- أقسم لك اني لا أعلم غير ما ذكرت .
- فقال لوسيان : إذا أظهرت لك الرجل الذي أظن انه هو الذي كان يدفع المال في لندرا أتعرفه وتقول لي هذا هو ؟
- اني لم أقميد بالكتان يا سيدي
- إذن أعتمد عليك ؟
- دون شك ..
- فقال لوسيان في نفسه : إذا كان هذا الرجل هو الماجور هوف فلا بد له من أن يقول لي أين أمي .
- ثم ذهب الصراف ولبت الصديقان يتحدثان هنيهة وبعد ذلك افترقا على أن يجتمعا في المساء في نادي اسبرج .

وأرسل لوسيان كتاب الانفصال إلى عشيقته القديمة جوزفين وأرسل اليها تلك المكافأة المالية وهو يحسب انها سوف ترضى عن كرمه وتذكره بالخير ، وما علم ما أثاره هذا الكتاب في نفسها من العواصف فلانها بعد ان ورد اليها الكتاب أصابها مس من الجنون وكادت تبثلي باليأس ثم عادت إلى صوابها وجعلت تبحث عن الأسباب التي حملته على هجرانها ، وراقبته سرّاً حتى علمت انه يهوى ابنة استاذة القديم ، وانه عازم على الزواج بها ، فهاجت عوازل الحقد واستحال ذلك الحب القديم إلى كره دفين وعولت على الانتقام .

وكان لهذه الفتاة حظوة عظيمة لدى شبان باريس لفرط جمالها ووفرة دلالها وكثرة بذخها ، فلما خطر لها خاطر الانتقام عادت إلى عيشتها القديمة في باريس فانحذت لها قصرّاً شائعاً واشترت المركبات الجميلة ، فما تجولت منتزهات باريس يومين حتى ازدحم الأغرار على أبوابها والتف حولها العشاق .

وكان بين أولئك العشاق شاب جرىء يدعى المركيز روكرول علمت جوزفين بعد طول تردد عليها انه خير آلة لقضاء أغراضها فاخترته من بين عشاقها وجعلت قد له سبل غرامها حتى قتلتها ولم يعد يطيق الصبر عنها كل ذلك وهي تشغفه حباً وتقصيه عما يريد فتقلبه من هجرها ورضاها على أحر من الجمر

إلى أن أعياء أمرها وكاد يحن بها فخلاها ليلته وعرض عليها كل ما تطمع به أمثال أولئك النساء من مال وعقار وجواهر فابتسمت له جوزفين وقالت اني لا أطمع بمالك ولا أشك بصدق هواك ولكني سأكشف لك حقيقة أمري ، وأبرح لك ببعض سري وإنما اخترتك من بين عشاقى لما توسمت فيك من دلائل الحب الأكيد ولشعور نفسي بميلهم اليك ولكني لا أقول لك شيئاً إلا متى تعهدت لي بالموافقة على ما أريد وإلا فلا تطمع مني بمراد - سيدتي ان حياتي وقف لأمرك فمربي أن أموت أو أنتحر فاسفك دمى

على قدميك .

- اني لا أريد أن تموت بل أن تكون رسول الموت أما وقد رضيت بشرطي فاسمع . إني ما أحببت في عمري سوى مرة واحدة وهذا الرجل الذي أحببته وهجرت من أجله باريس ورضيت معه بعيش أشبه بعيش السجون أصبحت أكرهه بقدر ما كنت أهواه ولا يطيب لي عيش إلا إذا انتقمتم منه بالموت ، فقد لقيت منه ما هو أشد من الموت .

فقال المركيز : إذن ليمنت .

- ولكنك من الماهرين بأساليب المبارزة .

- وما يهمني ؟

- انه ماهر باطلاق الرصاص .

- وأرجو أن أصيب المرمى فإن الحب يشد ساعدي .

ثم ركع أمامها وقال : بالله اذكري لي اسمه فلم أعد أطيع الصبر .

- سأرسل لك اسمه .

- لماذا لا تقولين الآن ؟

- لي في ذلك مأرب ، قل لي أين انت ذاهب الآن ؟

- الى نادي اسبرج .

- إذهب الآن وانتظر فيه فسأرسل لك اسم هذا الرجل .

فقبل يدها وذهب وهو يتنهد فقد جعله غرام هذه المومس من المجانين

ولنعد الآن الى لوسيان فإن موعد التقائه بصديقه في نادي اسبرج كان في الساعة العاشرة ولكنه لم يحضر إلا في منتصف الليل لأنه ذهب لزيارة خطيبته فانستته مجالستها ذلك الموعد .

وكان عضواً في ذلك النادي وقد عرف لجميع أعضائه أنه ظريف وغني والظرف والغنى كافيان لاكتثار الأصدقاء من حوله .

ولما دخل إلى القاعة التي كانت غاصة بأعضاء النادي لاحظ أن قدومه أثر على

الحاضرين تأثيراً غريباً لم يفقه لم معني ولم يسلم عليه بينهم غير صديقه بول .
ورأى ان جميع الأنظار متجهة إلى المركيز دي روكرول لأنه كان واقفاً
بينهم موقف الخطيب يكلمهم عن أمور غريبة فاندھش لوسيان واصغى إلى
المركيز فسمعه يقول ما يأتي :

الحق أيها السادة ان مثل هذه الأمور لا يتفق حدوثها إلا في باريس فان
الرجل يأتي إليها بثروة لا يعلم الناس موردها فينتحل لنفسه اسماً إذ لا يكون
له أب معروف ويدعى من النبلاء فيقبل عليه الناس ويحوم حوله الأصدقاء -
والنبلاء وهو ليس من النبيل في شيء

فارتعش لوسيان لسماعه لأن كلامه كان ينطبق عليه .
وعاد المركيز إلى حديثه فقال : لوجاءكم رجل يوماً وقال لكم ان هذا الرجل
الذي يقيم بينكم منتحلاً اسماء الأعيان وما هو إلا مزور محتال وان المال الذي
لديه يورثه الخزي والعار وهو لكم من الأصدقاء فماذا تقولون ؟

وقال له أحد الحاضرين : انك جرئت شوطاً بعيداً أيها المركيز .
- لا بأس فاني قد أحسن إلى كثيرين بفضيحة هذا الرجل .
وكان لوسيان قد اصفر وجهه ولكنه كان ينظر إلى المركيز بسكينة فقال
له : من هذا الذي تريد فضيحتة ايها المركيز ؟

- هو رجل ينتحل اسماً لا حق له بانتحاله .
- يوجد كثير من الناس على هذه الشاكلة ؟
- نعم ، ولكن هذا الرجل غني لا يستطيع أن يظهر مورد ثروته وأظنه
ابن مومس ، إلا إذا استطاع أن يبرهن عكس ما اقول .
فوقف لوسيان عند هذا القول ولكنه لم يجب بشيء غير ان وقفته كانت
هائلة وبات جميع الذين سمعوا كلمات المركيز الأخيرة يتوقعون حدوث أمر
خطير بين الاثنين

وساد السكون بضع ثوان حتى اوشكت ان تسمع الأنفاس ، الى أن عاد
المركز الى الكلام فقال اني لا أتهم أحداً إلا وأنا مستعد لإعطاء من أتهمه ،
حق الدفاع .

فقال لوسيان : من هو الذي تتهمه ؟

فأجابه المركز ببرود . هو انت .

فوقعت هذه الكلمات من صدر لوسيان وقوع الشرارة في لغم بارود ،
فجحظت عيناه وارتحى صوته وقال : أيها المركز اني سأقتلك غداً وان كان
دمك لا يكفيني

-- هذا حق .

- نعم ولكنه أحب قبل ذلك ان تكشف النقاب عما قلته .

. سأفعل ما تريد . فاعلم انك لا تدعى لوسيان دي هاس ، بل
لوسيان فقط .

- وبعد ذلك ؟

- ليس لك غير هذا الاسم

- وبعد ذلك ؟

- أنك لقيط لا أب لك تعرفه ويعرفه الناس .

- إنك لا تعرف شيئاً من ذلك مثلي

- كلا بل أعرف انك ابن فتاة من بنات الهوى .

-- كفى !

ثم هجم عليه وصفعه على وجهه والتفت الى الحضور فقال إن هذا الرجل
كان امس من أصحابي ولم أسمي اليه مرة في حياتي . ولكن هذه الفضيحة التي
يتهمني بها لا تغسل إلا بالدماء . على اني عشت بينكم زمناً طويلاً فهل يذكر
واحد منكم اني أسأت اليه أقل إساءة ؟
فأجابه بعض الحاضرين : كلا .

وقال صديقه بول : إني أعدك من أشرف رجال النبل وقد أهنت فأنا أكون شاهداً لك في المباراة .

ثم التفت الى الحاضرين قائلاً : من منكم ايها السادة يريد ان يكون معي الشاهد الثاني ؟

فحدث عند ذلك اضطراب عظيم إذ لم يتقدم أحد للقبول .

فأوشك لوسيان ان يحن من يأسه ، وغطى وجهه بيديه وهو يقول : أماء اين أنت ! إني لا أجد بين هؤلاء الناس ، من يريد ان يكون شاهدي للانتقام لك ؟

وعند ذلك دخل رجل في الأربعين من عمره ، وعليه مظاهر الكتابة ، فاخترق القاعة ووقف بين الجمهور فأقبل كثيرون للسلام عليه وكانوا يدعونه الماجور أفاغار .

أما الماجور أفاغار ، أي روكامبول ، فإنه رأى علائم الاضطراب بادية عليهم فسألهم عما هم فيه فأخبره تول بجميع ما اتفق فتقدم روكامبول من لوسيان وقال له : أنا شاهدك الثاني يا سيدي . فصافحه لوسيان شاكراً ممتناً .

أما المركيز فإنه قال للوسيان : إن الرجل إذا صفع لا يستطيع ان ينام قبل ان ينتقم وهذا القمر يسطع نوره في السماء فيجعل الليل نهاراً . فما تقول في المباراة الآن ؟

— إني طوع لك .

— إن الحق حقي في اقتراح السلاح وأنا اقترح القتال بالسيف فلا نرجع حق يقتل احدهما الآخر .

— هو ما تقول فليكن ما تريد .

وبعد ربع ساعة كان المركيز وشاهداه ولوسيان يسيرون في المركبات الى الغابات .

فقال روكامبول للوسيان : إني لا أعلم الى الآن سبب المبارزة فهل لك ان تذكر لي السبب ؟
- إن المريكز اهان امي .

فاقتصروا روكامبول على هذا السؤال ، كما تقتضيه آداب اللباقة ، وقال :
فهمت

وسارت بهم المركبات حتى وصلوا الى ساحة القتال . فاقترع الخصمان على السيفين ووقفوا في موقف المبارزة الى ان أشار اليهما روكامبول بالمبارزة فأطبق كل منهما على الآخر وكلاهما باسل : جاع

ومرت بهما دقيقتان لم يكن يسمع في خلاهما غير صوت قرع السيفين ، ثم بدأ لوسيان بالحديث قائلاً . إن واحداً منا سيقتل قريباً يا حضرة المريكز ، أفتأبى علي في مثل هذه الساعة ، ان تخبرني عن السبب الذي دعاك الى إهانتي وقتالي ؟

- إن جورفين وعدتني بحبها إذا قتلتك .

ثم حمل عليه بسيفه حملة منكرة وطعنه ب صدره طعنة لجلاء فاخترق السيف صدر لوسيان ، لكنه لم يقع ولم يسقط السيف من يده .
وبينما المريكز يتأهب للدفاع والوقوف موقف الحذر انقض عليه لوسيان وهو يقول . ان جورفين لن توفي بوعدها

ثم طعنه بسيفه طعنة صائبة ، فاخترق حسامه قلب ذلك المريكز وسقط على الأرض قتيلاً . وعند ذلك تلاشت قوى لوسيان ، وجعلت الدماء تتدفق من صدره .

- ١١ -

ولنعد الآن الى روكامبول لنروي للقراء كيف اتفق وجوده في نادي اسبرج حين كان لوسيان محتاجاً الى شاهد ، ولا بد لنا لذلك من العودة الى قصر روشربين حيث دخل اليه روكامبول بصفة طبيب .
وكان الخادم دخل به الى الغرفة التي كان فيها بب ، فكان ملقياً على نفس السرير الذي كانت نائمة فيه ميلادي وهو بملابس الضباط الانكليز والقيود والقناع ملقياً على الأرض .

فدهش الخدم لأنهم لم يروا من قبل بب مرتدياً بهذه الملابس ، خلافاً لروكامبول فإنه ذكر حكاية فائدة ، فعلم لأول وهلة ان هذا الشخص يعرف حكاية جيبسي ، ويريد إرجاع المسال اليها ولا بد له من الوقوف على أسرارها ، وإتمام مشروعه .

ولم يكن روكامبول كاذباً في قوله انه من الأطباء ، فقد تعلم من استاذة القديم اندريا ، ومما جرى له من الحوادث في أيام غروره ، أكثر أنواع الجراحة . ففحص الجريح وعرف موضع الرصاصة ، فقال له الخادم :
أيموت ؟ ..

- لا أعلم . إذ ذهب واحضر لي ماء بارد وعصابات .

فامثل الخادم وغسل روكامبول الجرح ثم تحايل على الرصاصة فأخرجها ورأى ان الجريح قد اتقنت عيانه ببارق يشف عن الأمل بالحياة ورغبة في الانتقام فرجا خيراً وقال للخدم الثلاثة الذين كانوا مجتمعين في تلك الغرفة : يجب أن أبقى وحدي هنيئة مع الجريح .

فخرج الثلاثة وأقفل روكامبول الباب في أثوم ، ثم عاد الى الجريح فنظر اليه بب نظرة يتخللها الرجاء وقال : أتراني أموت ؟

- إن جرحك خطر ولكنه غير مميت فيما أراه . وفي كل حال ان الخطر

غير قريب .

وقد عرف روكامبول أنه يجب السرعة إذ قدر ان بب لا يعيش أكثر من ساعتين ، فقال له باللغة الإنكليزية إنني آت اليك أحمل أخباراً من جيبسي النورية .

فدعر بب عند سماعه اسم جيبسي وقال : ماذا تقول ؟ جيبسي !

- نعم إبنة اخت مس الن .

فزاد ذهول بب وقال كيف تعرف هذه الأمور ومن أنت ؟

- إنني رجل مثلك يريد إرجاع الأموال المختلسة الى أصحابها

- إذا انت تعرف جيبسي ؟

- دون شك لأنني أنقذتها منذ اسبوعين من ايدي الخناقين

فاصفر وجه بب وقال لا تذكر لي شيئاً عن هؤلاء الناس .

ثم ظهرت عليه مظاهر التردد كأنما داخله الشك بصدق روكامبول فقال له :

إنني لا أصدق ما تقول

فقال له روكامبول بلمهة الكتابة : لماذا لا تصدقني ؟

- لأن ميلادي أرسلتك الي كي تعلم كل شيء . لكنها لن تعلم شيئاً .

فأخذ روكامبول يده بين يديه وقال له بلمهة تشف عن الصدق : إذا ألا

تريد إتمام مشروعي ؟

فهز بب رأسه قائلاً . إن ميلادي وشركاءها قادرون ولا سيما فوانز القاتل

السفك الذي ينتحل لنفسه اسم الماجور هوف .

فعلق هذا الاسم بذهن روكامبول وقال له : أعتقد إذا اني من أتباع ميلادي

وأحد شركائها في الجرائم ؟

- نعم

- وإذا برهنت لك بعكس ما تعتقد أثنق بي ؟

- دون شك لكنني أريد البرهان .

إذا إسمع .

ثم حكى له ما اتفق لفاندا في قصر روشربين ، وكيف انه مثل أمامها دور خيال ، وهو يعتقد انه يخاطب ميلادي . فأيقن بب من صدق روكامبول

لكن بقي له شيء من الشك في مقاصده فسأله لماذا يملك امر جيبسي ولماذا تريد ان تخدمها هذه الخدمة ؟

فرأى روكامبول انه لا بد له من الكلام فقال له : ذلك لأنني أحب جيبسي حباً صادقاً ومن اجل ذلك أنقذتها من أيدي الخناقين ، بعد أن كادوا يحرقونها .

فراى عند ذلك كل أثر للشك من نفس بب وقال له : لقد صدقتك فيما تروي ولكن أنتحسب نفسك قادراً على مقاومة ميلادي ؟

-- إنني اذا وقفت على حقيقة أمرها عشت بها كما اشاء وأرجعت الأموال الى أصحابها .

- أقسم لي انك ترجع المال الى جيبسي ؟

- أقسم لك بالله العلي على صدق ما أقول .

فتنهذ بب وقال له : اني لا استطيع الكلام لضعفي ولكني كتبت جميع أسرار مس الن .

- اين وضعت ما كتبتته ؟

- في غرفتي وهي في الدور الأول ونعرتها عشرة وقد خبأت ما كتبتته تحت أول بلاطة بعد العتبة .

فدق روكامبول عند ذلك الجرس فأسرع اليه الخادم فقال له : إذهب بي الى الغرفة التي يبيت فيها المسيو بب .

فنظر الخادم الى بب ، فأشار اليه إشارة المصادقة . فمشى وتبعه روكامبول .

فلما وصل الى غرفة بب جعل روكامبول يفتكر بطريقة يبعد بها الخادم
كي لا يرى ماذا يصنع فقال له : ماذا تدعى ؟

- جاك .

- أنت من هذه القرية ؟

- كلا بل انا من ماينس .

- كم بقي لك في خدمة ميلادي ؟

- عامين .

- إنك ستصبح من غير خدمة .

فذر الخادم وقال : رباہ كيف ذلك ؟

- ذلك ان بب سيموت قريباً ، وميلادي لن تعود الى هذا القصر ،
وستقفل الحكومة أبوابه وتختتمها ولكن لا تباں فسألتخذك لخدمتي وتكون
معي في باريس وأضعاف راتبك ، على شرط اذا لقينا ميلادي في باريس
ترشدني اليها .

فسر الخادم سروراً عظيماً لأنه كان يتعنى من دهر طويل ان يرى باريس
فقال له : ان ذلك سهل ميسور يا سيدي ، وسأكون في خدمتك من المخلصين
الصادقين .

فأعطاه روكامبول مئة فرنك وأرشده الى المكان الذي يقيم فيه بباريس
ثم سأله : هل أبلغتم البوليس عن الحادثة التي جرت ؟

- كلا يا سيدي .

- إذن أسرع الى إبلاغه ، قبل ان يموت بب ، فتغدو انت ورفاقك
من المتهمين .

فلما حلا المكان بروكامبول أخرج خنجره ودنا من البلاطة التي أرشده اليها
بب فاقتلعها ورأى تحتها علبة صغيرة من الحديد الرفيع فأخذها وأرجع البلاطة
الى ما كانت عليه ثم عاد الى بب فأخبره بما فعل وأراه العلبة فقال له بصوت

خافت : نعم هذه هي وهذا مفتاحها
ثم أشار الى مفتاح صغير كان معلقاً في عنقه فأخذه وركامبول ووضعه مع
العلبة في جيبه وخرج فصار توأ الى محطة السكة الحديدية .
وبعد ساعة أقبل رجال البوليس وكان لا يزال في باب بقية رمق فلم يستطع
ان يظهر لهم الجريمة ولكنه تمكن من نفي التهمة عن الخدم .

وبعد هنيهة أسلم الروح فحملوه الى المستشفى وأقفلوا القصر فوضعوا الأختام
على أبوابه وتفرق الخدم فذهب كل الى قريته ما خلا جاك فإنه جعل يتأهب
للسفر الى باريس .

أما روكامبول فإنه صبر في المحطة الى ان أتى القطار ، فدخل اليه
ولما سار به فتح تلك العلبة ، فوجد فيها دفترأ مطويأ يظهر انه متقدم
لاصفرار أوراقه ، ورأى في أسفل العلبة مدالية عليها رسم صبية بالغة
غاية في الجمال ، وقد حفر تحتها هذه الكلمات : (مس الن في العاشرة
من عمرها) . ثم فتح الورقة الأولى من الدفتر ، فوجد عنوانه : (تاريخ
قاتلة أبيها) .

- ١٢ -

وفتح الدفتر وجعل يقرأ والقطار سائر فيه الى باريس ما يأتي :
في ليلة عيد الميلاد سنة ١٨٣٥ ، وهو العيد الذي يحله الانكليز كل الإجلال ،
كان الضباب كثيفاً حتى لم يعد يستطيع المارة الاهتداء الى سبيلهم . واضطر
البوليس ان يحمل المشاعل بدلاً من العصي لكثافة الظلام .

ولم يكن يوجد احد في الشوارع ما خلا فتاة في ريمان الصبي والجمال
كانت تسير بسرعة على غير هدى ، وهي باسطة يديها الى الأمام

كالميمان ، حذرا من أن تصطدم بشيء ، لأنها لم تكن ترى غير الظلام الكثيف .

وفيا هي تسير رأت خمارة مفتوحة فوقفت عند بابها وسألت صاحبها ان يهديها الى الشارع الذي تسير فيه . فأجابها صاحب الخمارة وهو يتأمل محاسنها وذكر لها اسم الشارع فشكرته وانصرفت .

ولكنها لم تسر خطوتين حتى خرج لها رجل كان في الخمارة ودنا منها قائلاً : اني خبير بشوارع العاصمة يا سيدتي فقولي لي اين تقيمين أقودك الى منزلك ؟

فنظرت اليه الفتاة وارتعشت لما رآته من ملامحه الجاذبة . فقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره اسمر اللون أسود العينين فوق الرقبة كان لابساً ملابس البحارة . غير ان نعومة يديه وأسلوب حديثه كانا يدلان على انه ليس من هذه الطائفة ولعله أصيب بما أصيبت به الفتاة من الارتعاش حين رآها فأراد ان يوصلها الى منزلها .

غير ان الفتاة حاولت الامتناع . فما أمهلها وتأبط ذراعها وقال لها : هلمي بنا فإني سأوصلك الى حيث تشاءين دون ان يكون عليك أقل خطر .

فجعلت الفتاة تضطرب وترتجف من الغريب وانها على اضطرابها وارتعاشها أنست به ولم تعد تبدي مقاومة فساء لها : اين تقيمين ؟
- في بيكاديللي

- إذا تعالي معي من هذا الشارع ، ولا تخشي مكروها ، لأنني من الأصدقاء .

- كيف تكون من الأصدقاء وانت لا تعرفني ؟

- هو ما تقولين غير اني حين رأيتك واقفة بباب الخمارة حاجت بي عاطفة لا تغلب وشعرت اني أكون عبداً لك لأول امر تصدرينه الي فتقي إنني

لك من المخلصين .

فتنهدت وقالت : ليس لي أصدقاء . وما أنا إلا فتاة شقية حرمت من إرثها .

— أنت حرمت من إرثك ؟ وكيف تحرمين منه ولك مثل هذا الجمال ؟
بالله يا سيدتي ، قولي لي عن اسمك ، لأن ملاحك تدل على أنك من الأسرات النبيلة .

— إني أدعى مس الن .

— وأنا من تحسبيني ؟ أتظنين اني بحار كما تدل عليه ملابسي ؟ كلا يا سيدتي ألمسي يدي تعلمي اني لست من البحارة .

فارتعشت مس الن حين شعرت بنعومة يده . وعساد الرجل الى الحديث فقال . سأخبرك في غير هذا المكان من انا ولكني أخبرك الان اني استطيع ان أخدمك أجل خدمة .

— وأنا أصدق ما تقول .

— إذا أخبريني عن السبب الذي حرمت من أجله .

— ذلك لأن لي أختاً أكبر مني ولأن أبي لا يحبني لاعتقاده ان امي ولدتي بالاثم فحرمني من إرثه وكتب جميع ماله لأخي الكبيرة .

— أرضيت بهذا الحرمان ؟

— إني رضيت به لأنني لا أستطيع منعه .

— وإن أذاك صديق من السماء ؟

فشارت في فؤاد الفتاة كوامن الحقد ، وقالت : ليكن هذا الصديق من جهنم أو من السماء ، فلإني أرضى به صديقاً إذا كان يساعدني فيما أريد .

— مس الن اني أحبك وأحب ان تكوني غنية قادرة . وسأسحق أعدائك تحت قدميك فقولي لي ماذا يدعى أبوك ؟

- يدعى الكومندور بروكنس
- حسناً ، ستورد اليك أخباري . والآن إننا وصلنا الى بيكاديللي ،
فنادي البوليس الواقف أمامنا ، يرشدك الى منزلك . أما أنا فسترينني
قريباً .

ثم عانقها طويلاً وقبلها في ثمرها فصاحت الفتاة صيحة اضطراب واحتجب
الرجل عنها في جنح الظلام .

ويظهر ان بب لم يعلم ما حدث بعد هذا اللقاء السري لأنه لم يذكر شيئاً من
ذلك في دفتره .

لكنه قال فيه انه بعد ذلك بعدة أشهر كانت مس الن مقيمة في قصر قديم
في ايكوسيا مع أبيها .

وكان أبوها عجوزاً ترمل ثم تزوج مرة ثانية وهو في الخمسين من عمره
بامرأة ماتت على أثر ولادتها مس الن ابنته الثانية ، وكان له ابنة من امرأته
الأولى تدعى مس أنا ، فكان يحب الكبرى بقدر ما كان يكره الصغرى ،
حتى كان يظن بعضهم ان السبب في كرهه لابنته الثانية ظنه انها ثمة حب
غير شرعي .

وكانت اختها تقيم في أجمل قصر من قصور أبيها في لندرا خلافاً لمس الن لأن
أباها كان يقيم معظم شهور السنة في ايكوسيا فيصحب معه ابنته مس الن كي
لا تتمتع بلامهي العاصمة .

ولم يكن في منزله كثير من الخدم إذ لم يكن فيه غير وكيله بب مع امرأته
وخادم غرفة يدعى فرانز أصله من الألمانين وثلاثة من صغار الخدم لم يكونوا
يخرجون من المطبخ .

وكان يظهر من فرانز انه شديد الإخلاص لمس الن على حدائث عهده في خدمة
هذا المنزل فكان يخرج كل يوم في وقت معين الى البوسطة ويعود برسالة إلى مس
الن فتقرأها وتبكي بكاء شديداً

وقد اتفق ليلة ان أباهما كان جالساً في غرفته وكانت مسر الن جالسة في القاعة وهي تتوجع وقد حاولت ان تبرح هذه القاعة فلم تستطع وصاحت صيحة عظيمة فوصلت صيحتها الى مسمع أبيها فجاءها وقال لها بلمحة تدل على الاستياء: ما هذا الصباح ؟

— اني مصابة بصداع شديد .

ثم بدرت منها صيحة اخرى فنادى ابوها فرانز كي يعتني بها ، فأقبل فرانز ونظر اليها نظرة سرية ، فامتنعت عن الصباح وتكلفت السكينة فقال لها أبوها : إن اختك ستزوج بعد شهر ، فاجتهدى ان تنال الشفاء في هذه المدة واذهبي الان الى غرفتك ونامي ، فقد حان وقت الرقاد .

ثم تركها وانصرف .

ولم يكذب يذهب حتى عادت الى التوجع والصباح فأسرع فرانز اليها قائلاً : عضي مندليك واخفي صوتك وإلا كنا من الهالكين .

— أظن ان الوقت قد دنا ؟

— نعم .

— ما هذا المصاب ؟ وهو . إنه لم يرجع بعد .

— إنه سيحضر بعد ثلاثة ايام .

وعند ذلك عادت الى التوجع والصباح فوضعت مندليها في فمها وعضته إخفاء لصياحها فجعلها فرانز وخرج بها الى غرفة في الدور الأسفل كي لا يصل صوتها الى مسمع أبيها .

وكان أبوها يكرهها كرهاً شديداً كما تقدم ، ولكنه يندم في بعض الأحيان إذا بالغ في الإساءة اليها ويشفق عليها فلما دخل الى غرفته بعد ان غادر ابنته وهي مصابة بصداع اليم كما كانت تدعي خلع ملابسه وصعد الى سريره فجعل يفكر بانفته ويندم لقسوته بحيث أرق ولم يستطع الرقاد

وفيا هو أرق يتأمل ، سمع أصواتاً متتابعة كانت تصل اليه شبه الأنين

فقام ولبس رداءاً طويلاً ، وأخذ بيده مصباحاً وذهب الى غرفة ابنته فلم يجدها فيها فأصغى فسمع ان الصياح صادر من الدور الأسفل .

فاضطرب ونزل في السلم فانتهى الى دهليز ، فمشى فيه الى الجهة التي يصدر منها الصوت ، حتى انتهى الى غرفة رأى نوراً فيها ، ففتح بابها ودخل فرأى ابنته في سريرها ، وفرانز واقفاً أمامها ، وهي تصرخ وتتوجع من آلام الولادة . فصاح صيحة هائلة وتراجع منزعجاً وهو يقول : تباً لك من شقية .

ولما وصل روكامبول بقراءته الى هذا الحد ، كان القطار قد وقف في محطة باريس ، فأعاد الدفتر الى العلبة ، وأعاد العلبة الى جيبه ، وخرج من القطار وركب مركبة وذهب الى المنزل الذي كان استأجره باسم المايجور أفاثار .

وكانت الساعة تدق مؤذنة بانتصاف الليل . فلم ينم بل انه وضع العلبة في موضع أمين ، وقال في نفسه يظهر من رواية بب ان فرانز والمايجور هوف واحد . وهذا المايجور عضو من أعضاء نادي أسبرج ، فلأذهب اليه .

- ١٣ -

وقد عرف القراء ما حدث لروكامبول حين وصوله الى هذا النادي فإنه بحث عن المايجور هوف ولم يجده فسمع آخر خصام لوسيان مع المركيز ورضي ان يكون شاهده .

وقد تقدم لنا الكلام ان المركيز قتل في ساحة المبارزة ، وان لوسيان أصيب بجرح في صدره ، فحمل شاهداً المركيز ذلك القتييل الى أهله وأخذ

روكامبول وبول الجريح الى بيت صديقه بول وبعد هنيهة أقبل الطبيب فغسل الجرح وضمده وقرر انه غير خطر ولكن الجريح لا يستطيع الخروج من البيت قبل شهر .

وكان روكامبول قد شعر بميل وانعطاف الى لوسيان وقد وقف على بعض حكايته من صديقه ، فأشفق عليه إشفاقاً شديداً حين علم انه كان عاجزاً على الاقتران بعد اسبوع .

وكان بول حائراً في أمره ، لا يعلم كيف يخبر خطيبة لوسيان بهذا النبأ المحزن ، فقال له روكامبول : أنا أتولى عنك هذه المهمة ، فأرشدني الى منزلها .

فدله على البيت الذي تقيم فيه .

وأقام روكامبول أمام سرير الجريح الى الصباح ، ولوسيان نائم نوماً هادئاً ولما فتح عينيه وجد روكامبول واقفاً أمام سريره ، فشكره بابتسامة لأن الطبيب منعه عن الكلام . فخطبته روكامبول قائلاً إنك نمت نوماً هادئاً وقد وثقت ان جرحك لا يحمل على الخوف فأنا ذاهب الآن ، وسأعود في المساء لعيادتك .

ثم تركه تاركاً عنده صديقه بول ، وذهب وهو يقول في نفسه : لقد اشتركت في هذه الحادثة فلأندفم بها الى النهاية ، وسأهتم بعد الفراغ منها بأمر جيبيسي

ولذلك لم يعد الى منزله بل سار مشياً على الأقدام في الشارع المؤدي الى بيت خطيبة لوسيان . فكان كلما سار بضع خطوات يقف مفكراً ويخاطب نفسه : إنني أرى شبهاً غريباً بين لوسيان وبين صورة ممثلة في ذهني لا أذكر صاحبها فمن عسى ان يكون شبيهه ؟

ومشى في شارع الجزائر ومنه الى شارع سانت اونوريه ، ثم انتهى الى شارع سورديير حيث تقيم ماري . وجعل يبحث عن نغمة منزلها ، ولكنه لم

يدخل الى هذا الشارع حق اذهل فجأة لأنه رأى رجلاً دخل الى الشارع أيضاً وجعل ينظر مثله الى نمر منازل فكان سبب انذهاله ، فعرف ان هذا الشخص كان الماجور هوف الذي أتى عنسد منتصف الليل يبحث عنه في نادي أسبرج ، وقد كان رآه مرة أثناء حوادث كارل مورليكس فخطب نفسه : ما شأن هذا الشخص في هذا الشارع ؟ وماذا ينبغي من الهجيء اليه في هذا الصباح ؟

أما هوف فإنه مر دون ان ينتبه الى روكامبول وكان يحمل علبة بيده وعليه دلائل الاهتمام .

وبقي يبحث عن النمر حتى اهتدى الى نمرة ١٧ ، فوقف وزادت دهشة روكامبول لأنه هو ايضاً كان يبحث عن تلك النمرة وهي نمرة البيت الذي تقيم فيه خطيبة لوسيان .

فتردد الماجور هنية ثم دخل وأسرع روكامبول في أثره ووقف وراء الباب فسمعه يخاطب البواب : أهذا البيت الذي تقيم فيه المدموازيل ماري برتود مع أبيها ؟

-- نعم

- أهى في منزلها الآن ؟

- نعم ولكنها نائمة

- إذا أعطها هذه العلبة

ثم سأله : في أية ساعة تخرج الفتاة من منزلها ؟

-- إنها تخرج في صباح كل يوم لتوصل شغلها الى العامل ولكنها بعد ان خطبت لم تعد تخرج البيت في الصباح .

- ألا تذهب الى النزهة في التويلري مع أبيها كل يوم بعد الظهر ؟

- نعم حين يكون الطقس صافياً .

- حسناً لا تقل لها إنني سألت عنها

ثم نفحه بدينار فحياء البواب الى الأرض .
وكان روكامبول قد سمع كل هذا الحديث فخطب نفسه إذا صدق حديث
بب أية علاقة لهذا الرجل مع خطيبة لوسيان ؟

ثم سمع ان الماجور قد أنهى حديثه مع البواب ، فأمرع الى الاختباء
وراء الباب . وعند ذلك خرج الماجور هوف وسار في طريقه دون أن
يرى روكامبول .

فخطب روكامبول نفسه : سأخبر ماري يخرج خطيبها بعد عودتي لأن المهم
الآن أن أقتفي أثر هذا الرجل .

فمشى الماجور وروكامبول في أثره حتى رأى مركبة فأوقفها وقال لسائقها .
سر بي الى الجران اوتيل .

فسمعه روكامبول وكان هذا كل ما يريد ان يعرفه ، لأنه إذا لم يكن
مقيماً في هذا الفندق فيكون ذاهباً ليرى شخصاً فيه ، وقد يمكن ان
يكون هذا الشخص ميلادي لأن فرانز كان شريكاً لها في قتل بب في
قصر روشربين ، وما دام موجوداً في باريس ، فلا بد ان تكون هي
أيضاً فيها .

وجعل روكامبول يمين في التفكير على يهتدي الى علاقة فرانز بخطيبة لوسيان
فلم يهتد الى مراد وفيما هو يجهد فكره خطر له خاطر ارتعش له إذ ذكر ما قرأه
في دفتر بب وهو ان مس الن ولدت غلاماً ففكر في نفسه : ألا يمكن ان يكون
لوسيان ابن ميلادي ؟

وكأنما هذا الخاطر قد أزعجه فجعل العرق يمصب من جبينه وهو يفنكر
في نفسه : أليكون مثل هذا الفتى الباسل إبناً لتلك النمرة الضارية التي تقتل أباه
وأختها كي تنهب نقود تلك المسكينة جببسي ؟ فشبه عند ذلك ميلادي بذلك
النذل الفيكونت كارل دي مورليكس وشبه ابنها لوسيان بابن أخيه ايمينور
الذي تزوج انطوانيت كما تقدم في الأجزاء السابقة

وخطر له أن يدخل إلى الجران اوتيل في أثر الماجور هوف لكنه فضل الرجوع إلى منزله لأنه ذكر أن لوسيان يشبه شبحاً غريباً ذلك الرسم المنقوش على المدالية التي وجدها مع دفتر بب في العلبة وقد قرأ تحت الرسم مس ألن في السادسة عشرة من عمرها .. فأحب أن يعيد النظر إلى هذا الرسم ليزيل من نفسه كل أثر للريب ولما عاد إلى منزله وجد ميلون ينتظره مع الخادم جاك الذي كان في خدمة ميلادي في قصر روشربين فدنا منه ميلون وقال له ان فاندنا قد حضرت مدة غيابك .

فاضطرب وسأله : متى حضرت ؟

- منذ عشر دقائق وقالت انها لا تعود اليوم ولكنها ترجو أن تحضر في نصف الليل مغتمة فرصة ذهاب السير جس إلى النساوي وقد تركت لك هذه الرسالة ، ففضها روكامبرل فاذا بها ما يأتي :

« يا رئيسي المعبود

« ان حب السير جس بدأ يقلقني ولكنه لم يتجاوز بعد حد الاحترام وهو لا يزال متكتماً ينكر معرفة جيبسي أتم الانكار ، ولكن لا بد لي من اغوائه وحمله على الافشاء .

وقد ورد اليه أمس كتاب عليه كثير من الطوابع الغربية ، ورده من الهند إلى لندرا ، فأرسله اليه عماله فيها فقرأه وأسرع إلى تحبثته في محفظته وهو حريص عليها فلا يضعها إلا في جيبه .

وأنت ايها الرئيس ماذا علمت ؟ إلى اللقاء في منتصف الليل » .

« عبدتك فاندنا »

أحرق روكامبرل هذه الرسالة بعد الفراغ من تلاوتها ، ثم ذهب إلى خزانة فاخرج منها العلبة التي كان فيها دفتر بب وأعاد النظر إلى المدالية ، فصاح صيحة دهن لأنه رأى الشبه تام بين لوسيان وميلادي ، فعلم عند ذلك السبب في سؤال الماجور هوف عن موعد خروج خطيبة لوسيان للزفة وان ميلادي

تود أن ترى خطيبة ابنها .
وعند ذلك نادى روكامبول ميلون وقال له : ألبس جاك ثياب يتنكر بها
ما أمكن ، ثم عد به إلي فاني في انتظارك .
فخرج ميلون وعاد روكامبول إلى دفتر بوب فقرأ فيه ما يأتي :

- ١٤ -

بعد أن ولدت مس ألن غلاماً بثمانية أيام قدم أبوها إلى غرفتها وهو مقطب
الجبين ، غير انه كان يظهر من ملامحه انه لم يكن يريد ان يندفع بالحدة ويخرج
عن حد الاعتدال فدخل إلى غرفتها وهي لا تزال في سريرها وطفلها في مهد
يجانبها فدنا منها وقال لها بصوت يتهدج مس ألن اني ما اتيت اليك لأوبخك
فان سلوكك لم يمسني إلا لأنيك تلقين باسمي ولا أريد أن يتلطح اسمي بالعار
وقد ارتكبت ذلة عظيمة ، ولكني لا أبحث عن شريكك بالجريمة ولا احاول
الجمع بينكما بزواج يغسل هذا العار ، فان زواجك لم يخطر لي في بال ،
ولذلك جئت أخبرك بين أمرين وهما أما ان تدخلني إلى الدير فتقضي العمر
بالتوبة والاستغفار ، أو يذهب بك وكيلى بوب الى فرنسا .

فاذا ارتضيت بالشرط الأول تعهدت بتربية غلامك كما يستحق ان يتربى
غلام لا يعرف ابوه ، وإذا اخترت الشرط الثاني وجب عليك تغيير اسمك
فيذهب بك بوب إلى المدينة التي تختارينها في فرنسا فيعطيك عند وصولك مائة
الف فرنك تستطيعين بها تربية غلامك كما تشائين .

فدلت مس ألن يدها متوسلة الى أبيها أن يصفح عنها غير انه صدها بعنف
وقال أن الطبيب الذي يتولى العناية بك أقسم لي بشرفه وعرض امرأته على
كتمان سرك وأكد لي أنك تستطيعين السفر بعد ٤ أيام فأنا امهلك ثمانية أيام

لا أزيدها ساعة فإن اختك ستحضر قريباً مع خطيبها ولا أريد أن يتدنس
بيتي بوجودك فيه أكثر من هذا الحد ؟
وعادت إلى التوسل ونادته بأبيها رجاء استعطافه فقال لها : لا تعودني إلى
ذكر اسمي أيتها الشقية فاني لست أباك .

ثم خرج وهو يهدير ويزبحر .
وبعد خروجه دخل فرنز فوجدها مندفعة في البكاء وهي تقبل طفلها
وتقول : ابي أبغض هذا الرجل الذي ينكر اني فتاته وأبغض تلك الأخت
التي يضجونني من أجلها ، وأبغض ..

وقبل أن تتم كلامها سمعت صوتاً يقول لها : لا تبغضي أكثر من هؤلاء
يا مس الن .

فالتفتت وصاحت صيحة فرح لا توصف لأنها رأت أن العناية قد لاحظتها
عيونها وبدلت خوفها بأمان وأرسلت لها ذلك الرجل الذي لقبته تلك
الليلة الهائلة .

اما الرجل فإنه أسرع اليها وعانقها عناقاً كثيراً ، ثم أخذ الولد من مهبه
فجعل يقبله ويقول ولدي !

وقد انقطع بعد ذلك بكاء مس الن وجعلت تنظر إلى زوجها نظرات
الاعجاب ثم قالت له الملك أتيت لانقاذي من هذا الرجل الذي ينكر
أني فتاته ؟

- جئت أنتقم لك .

فانقذت عيناها بنار الحقد وقالت : نعم انتقم لي كيف شئت وعلى أفعط
شكل فلا تروق لي حياة بغير الانتقام .

فاشار هذا الرجل عند ذلك إشارة إلى فرنز كي يخرج وقال له : احذر ان
يعود أبوها وإذا عاد ..

فابتسم فرنز وقد برق الخنجر في يده وقال : لا تخف فإنه لا يصل اليكم

- حيًا .. ثم خرج .
 وجلس الرجل فوق سرير مس الن وأخذ يدها بين يديه وقال أتريدين
 الانتقام ؟
 - لا أريد سواء .
 - أتكريهين أباك ؟
 - كما أكره الموت .
 - وأختك مس أنا ؟
 - أن كرهني لها لا يوصف فهي علة مصائبى .
 - ولكذك لا تعلمين إلى الآن من أنا ؟
 - أعرف انك جميل وقوي وأعرف أنى أرتعش لنظراتك واهتز لنبرات
 صوتك ، واني أحبك وأكون أسعد النساء إذا أتبع لي أن أعيش العمر
 عبدة لك .
 . ولكني لست انكليزيا .
 - كن كيف شئت فإني كرهت هذه البلاد التي يؤذن فيها الشرع للأب
 أن يحرم إبنته .
 - ولست مسيحياً أيضاً .
 - وماذا يهمني معتقدك فلك دينك ولي ديني .
 - العلك سمعت بملك الجمعية الهائلة التي نشأت في غابات الهند ودعيت
 جمعية الخناقين .
 - نعم ...
 - ان هذه الجمعية قادرة على ما تشاء فهي تسن الشرائع في الهند وتغرس
 الهول في نفوس الانكليز فاذا شاءت عدلت ، وإذا شاءت ظلمت ثم أنها تنثر
 المخاوف والموت من حولها وهي مطمئنة آمنة .
 فتنبهت مس الن وقالت : العلك من اعضائها ؟

- بل أنا رئيسها الأعظم الذي يدير حركاتها من الغابات في الهند وفي
عواصم البلاد

فأعجبت الصبية إعجاباً شديداً وقالت : كنت أرى من عينيك أنك ما
خلقت لتطيع بل لتطاع .

ثم طوقته بذراعيها وقالت له : مر يا سيدي ورئيسي بما نشاء أطيعك
طوع الاماء .

- احذري يا مس الن فلانك إذا رضيت أن أنتقم لك وجبت عليك
الطاعة المطلقة .

فنظرت اليه نظرة جمعت بين الافتتان والاعجاب وقالت سأطيعك
طاعة لا حد لها .

- ليكن إذن ما تريدن واعلمي الآن أني أدعى علي رجاء .

ولم يعلم أحد ما جرى بين رئيس الخناقين الأعظم وبين مس الن فلان بب
نفسه لم يعلم لأنه وضع كثيراً من النقط عند وصوله في حكايته إلى هذا الموضع
ففكر روكامبول هنيهة ثم قلب الصفحة وأتم القراءة ما يأتي :

بعد هذه الحادثة بأربع وعشرين ساعة كان والد مس الن جالساً في
غرفته وأمامه وكيله بب وهو يظهر له رغبته بسفر مس الن في القريب العاجل
لقرب قدوم ابنته الصغرى ، دون أن ينتبه إلى نظرات بب التي كانت تسفر
عن الحقد الدفين ثم سأله : أين إمرأتك يا بب فلاني لم أرها اليوم ؟

فارتعش بب واثقت عيناه ولكنه أسرع فكظم غيظه وقال : انها
سافرت يا حضرة الميبلورد في هذا الصباح إلى آدمبرج كي ترث عملاً لها توفي
منذ أيام ...

- ولكنها ترجع قريباً اليس كذلك ؟

وثار العواصف في فؤاد بب ونوى قتله منذ ذاك الحين ولكنه كظم
غيظه وقال ان في الباب يا سيدي الميبلورد غريب يريد مقابلتكم وهو يقول

- انه قادم من لندره يحمل أنباء من ابنتكم مسن أنا .
 فاضطرب الشيخ وقال له : اسرع بادخاله الي .
 ففتح بب الباب وأدخل ذلك الغريب وهو رجل في الخامسة والثلاثين
 من عمره ، طويل القامة براق العينين ، وقد كان الكومندور خدم في الهند
 وبحارها مدة طويلة فعرف من هيئة ذاك الرجل انه هندي انكليزي .
 ولما دخل هذا الرجل خرج بب فدنا منه الكومندور وقال له : اني اتيت
 لمباحثتك في بعض الشؤون .
 - أنت قادم من قبل ابنتي ؟
 - نعم ولا ، سيدي الميلورد ..
 فاندمل وقال كيف ذلك ؟
 - انك أقمت يا سيدي مدة طويلة في الهند وعرفت دون شك احترام
 بعض الهنود للآلهة كالي وأريد هؤلاء الهنود الذين يلقبونهم بالحناقين .
 فظهرت على وجه الميلورد علائم الاشمزاز وقسال : نعم عرفت هؤلاء
 الأوغاد الأشقياء .
 وكان هذا الرجل الهندي علي رجاء نفسه زوج مس الن فلم يحفل باشمزاز
 الشيخ وقال له : قد يكونون من الأشرار كما تدعيه ، ولكنهم إذا صدر اليهم
 أمر من رؤسائهم ينفذوه لا محالة ، وأنت تعلم يا حصرة الميلورد ان للآلهة كالي
 رغائب شتى ، منها انها تريد أن يضحى لها في كل عام بمض البنات الانكليزيات
 فتتنقش على صدورهن الوشوم ويقضى عليهن بالبتولية الدائمة .
 فاضطرب الشيخ وقال له : اني اعرف كل الأمور ، ولكني لا أعلم لمساذا
 تقولها لي ؟
 - لأن الآلهة كالي قد افتكرت بك .
 - بي أنا ؟
 - نعم فإن لك ابنتين إحداها تدعى مس أنا والثانية مس الن .

— وهذه الالهة قد ضححت مس الن ؟

فقال علي رجاء : كلا يا سيدي بل انها ضححت أختها
فأنقلبت سحنة للشيخ واتقدت عيناه الفائرتان بأشعة الغضب فانتهاز الهندي
وقال له : أخرج من هنا أيها الشقي .
فلم يتحرك علي من موضعه وقال له ببرود : اني اتيت لأبلغك ان مس أنا لا
يحق لها الزواج لأنها ضحيّة الالهة كلي وأن ثروتك يجب ان تعطى لأبنيتك
مس الن .

فنهض الشيخ من مكانه مغضباً وقال : خسئت ايها السافل فان ذلك لا
يكون ثم جعل يدق جرساً أمامه وينادي بب بصوت مضطرب .
ففتح الباب وبدلاً من ان يدخل بب دخل فرنز

وكان في يد فرنز حبل من تلك الحبال التي يستعملها الخناقون فأشار له علي
عند دخوله إشارة سرية فأطلق الحبل من يده على الشيخ فالتف على عنقه ثم
شد فسقط على الارض وهو يكاد لا يعي من الذعر .

أما علي فانه اسرع الى المغسلة فوضع قليلاً من الماء في كأس وأخرج من
جيبه زجاجة فصب بعض نقط منها في الكأس فوق الماء وجاء الى الشيخ
فركع فوق صدره وفتح له فمه ثم صب فيه الماء الممزوج بنفط الزجاجة فما
وصل المريخ الى جوفه حق صاح صيحة منكرة وسقط صريعاً لا يعي .

فنهض علي عنه وأمر فرنز ان يجلسه على كرسيه فأجلسه عليه فكانت
هيئته تدل على انه مات بالسكتة الدماغية .

وعند ذلك أخذ علي مفتاحاً كان معلقاً بسلسلة في عنق الشيخ وفتح به
صندوقاً من الحديد كان الشيخ يضع فوقه فيه اوراقه الخطيرة ففتش بين
الاوراق حق عثر بظرف مختم بختم الكومندور .

وكان هذا الظرف يتضمن وصية الشيخ التي حرم بها مس الن من الميراث
وهب جميع ثروته لبنته الكبرى ففتحها علي وقرأ الوصية ثم أدناها من نور

الشمعة فأحرقها وهو يضحك ويقول : أما وقد احترقت الوصية فان الارث
يقسم بين الاختين وسيكون لنا مع الأخت الكبرى شأن .
وفي الليلة نفسها ارسلت مس الن الى اختها مس أنا هذا التلفراف الآتي :
(اكاد أجن من الحزن .. ان والدنا توفي على كرسيه . احضري حالا
لتشييع الجنازة) .

« اختك الن »

فقال روكامبول : لقد بدأت أن افهم ثم أتم تلاوة دفتر بب وقرأ ما يأتي :
في صباح اليوم التالي أقبلت مس أنا مع خطيبها فوجدت اختها مس الن
منهوكة القوى من الحزن وعيناها جاحظتان من كثرة السكاء فكانت ساعة
مؤثرة وقد تظاهرت مس الن بالحزن الشديد حتى وهم الناس أنها كانت أشد
حزناً من اختها .

وقد حكم جميع الاطباء ان الشيخ مات بالسكتة وطلبت مس أنا تشريح
جثة أبيها وتحنيطها فاعترضتها مس الن انها سمعت أباها يقول مرات كثيرة انه
يحب ان تبقى جثته على حالها بعد موته فاذعنت اختها لها وأخذوا يهتمون
بدفنه واعداد مشهد حافل

وقد قرروا ان يكون الدفن في اليوم التالي فلفوا الجثة بالاكفان ووضعوها
في تابوت عظيم ووضعوا فوقه وسامات الكومندور ونقلوه الى اقرب كنيسة
فوضعوه فيها الى الصباح حيث يحتفلون بتشييع الجنازة .

وقد عينوا كاهناً لحراسة الجثة والصلاة عليها في الليل فأقام الكاهن يحرسها
وفي يده كتاب صلاته ثم شعر فجأة ان الكتاب سقط من يده فتراخت عيناه
وأطبقتا فنام نوماً عميقاً .

وعند ذلك دخل الى هذه الكنيسة رجلان وهما فرنز وبب يحملان مثالا
من الشمع يمثل هيئة الكومندور أتم تمثيل والبسائه نفس ملابسه الحمراء فوضعها
قرب التابوت ثم فتحوا التابوت ونزعوا الاكفان وأخرجوا الجثة فكفنا مثال

الشمع بأكفانها ووضعاه في التابوت وأقفلاه كما كان .
ولما فرغا حملا الجثة فقال فرنز ، يجب أن نسرع فان قلبه بدأ ينبض
ونخشى أن يستفيق .

فقال بب لتسرع إذن إذ لا يجب ان يستفيق إلا في المكان المعد له ثم
حملاه وذهبا به الى القصر في جنح الظلام .

وفي الصباح دفنوا مثال الشمع وهم يحسبون أنهم دفنوا الشيخ .
وكان علي رجاء قد اكتشف بارشاد مس الن قبوا في ذلك القصر ينزل اليه
بسلم يبلغ طولها ٣٠ درجة تحت الأرض فلما فتح الشيخ المسكين عينييه وجد
نفسه في حالة تقشعر لها الابدان فانه كان مقيد اليدين والرجلين بسلاسل من
الحديد وفي وسطه سلسلة غليظة مشدودة الى وتد في الجدار .

فحسب نفسه حالما لأول وهلة الى ان سمع صوت قيوده فلم يشكك انه في
يقظة وجعل يصيح صياح القانطين فلا يجيبه غير الصدى .

وبعد ذلك ببضع ساعات فتسح باب القبو ودخل فرنز يحمل ابريقا للماء
وقطعة من الخبز فقدمها له وقال بلهجة المتهمك : هذا ما ارسلته اليك ابنتك
المحبوبة مس الن

ولبت هذا الشيخ المنكود ستة أعوام في هذا القبو الى ان اشفق عليه
فرنز فخنقه .



أما ما جرى للاختين بعد دفن المثال فهو أن مس أنا كانت تعلم ان أباهما
جعلها وريثته الوحيدة في وصيته فبحثت بحثا طويلا عن الوصية فلم تجدها
فاقتسمت الاختان تلك الثروة الواسعة .

وبعد ستة أشهر أي بعد انقضاء أيام الحداد تزوجت مس أنا خطيبها فلما

صحت في اليوم التالي لعرسها وجدت صدرها موشوماً بنقوش غريبة وعرفت انها نقوش الخناقين فارتعشت لأنها لم تعلم كيف تمكنوا من وشمها وهي نائمة وفي المساء وجد زوجها مخنوقاً على قارعة الطريق فان الخناقين قتلوه كي لا تلد امرأته البنين فترملت في اليوم الثاني لزوجها ولكنها أحست بعد بضعة أشهر ان جنيناً يتحرك في أحشائها فولدت فتاة خشيت عليها من الخناقين فعمدت بتربيتها الى رجل من النور يدعى فيررا واحتجبت عنها كل الاحتجاب غير انها رأتها مرة ترقص في حفلة عمومية فهاجت بها عواطف الامومة وأغشي عليها وبعد ذلك ببضعة أيام خنقها الخناقون وهي تعانق ابنتها في منزلها فمادت ثروتها كلها الى اختها مس الن زوجة علي رجاء رئيس الخناقين الاعظم في الهند .

الى هنا انتهى دفتر بب وقد بقيت فيه مسائل غامضة مثل السبب الذي دعا ميلادي أي مس الن أن تعيش بعيدة عن ولدها غير ان روكامبول رجاء ان يحلبي هذه الغوامض بدهائه المعروف .

وقد أتم روكامبول تلاوة الدفتر الساعة الرابعة بعد الظهر وكانت أشعة الشمس تنفذ الى غرفته فقال في نفسه : ان الطقس جميل وفي مثل هذا الطقس تخرج ماري خطيبة لوسيان للنزهة ولا بد لميلادي أن تراها لتعرفها فنادى خادمة الجديد جالك وخرج واياه .

- ١٥ -

أما خطيبة لوسيان فانها بعد ان صحت من رقادها صعد اليها البواب وأعطاهم ذلك الصندوق الذي أحضره لها الماجور هوف فسألته عن الذي أرسله فقال لها : لا اعلم فحسبت انه هدية من لوسيان وأطلقت سراح البواب .

وكان هذا الصندوق من خشب الصندل ومفتاحه معلقاً به ، وذهبت به إلى غرفتها ففتحت به بيد تضطرب ووجدت به قطعاً من الدانتيل الثمينة مصفرة بما يدل على تقادم عهدها ، وأنها أثر عائلي قديم ووجدت في الصندوق أيضاً كتاباً معنوناً باسمها ففتحته وأسرعت بنظرها إلى التوقيع فاضطربت اضطراباً شديداً ، لأنها لم تجد توقيع لوسيان فنادت أباهاً وقرأت وإياه هذه الرسالة ، وهي كما يأتي :

(ابنتي المحبوبة ..)

« اسمحي لي أن أدعوك بهذا الاسم فإنك الملاك الذي أرسله الله لحراسة ولدي الحبيب . إني في باريس من عدة ساعات فقط ، ومنذ ثلاثة أيام لم أكن أطمع بالحضور إليها وقد أرسلت إلى ولدي مع رجل أئتمنه عقداً من المساس هدية لك ، ولا أ لم إذا كان لوسيان قدمه لك أو انه أبقاه إلى يوم العرس .

« أما أنا فإني أرسلت إليك هذه الدنتلا القديمة التي تجدينها في الصندوق لأنها كانت على الثوب الذي لبسته يوم عرسي ، وأنا لا أعلم إلى الآن والأسفاه إذا كان يؤذن لي أن أضم ولدي إلى صدري ، ولكني طامعة بهذا الرجاء ، وفي كل حال فإني أحب أن أرى تلك التي اختارها ولدي عروسة له ، وعلمت بعد الاستقصاء انك تخرجين للنزهة في التويلري مع أبيك ، فأرجو أو تذهبي اليوم حسب العادة ، لأن ولدة لوسيان تعرفك حين تمرين بها من دقائق قلبها) .

وكانت الرسالة موقعاً عليها باسم الن ففرحت ماري فرحاً لا يوصف وقالت : ما عسى أن يكون من لوسيان بعد أن يعرف أمه فإني أخشى أن يقتله الفرح

وأقامت مع أبيها وهي تناجي نفسها بأعذب الأملالي ، إلى أن دنت ساعة الأصيل ، وزهت سلطانته الكواكب في سماءها فلبست ثياباً بسيطة تزيدها جمالاً وسارت مع أبيها إلى النزهة في التويلري وقلبها يخفق خفوق الطائر ، لرجائها

أن ترى لوسيان ، فما رأت أحداً عند وصولها ، وجلست على مقعد من مقاعد الحديقة تراقب المتنزهين وتتوقع أن ترى من تحب من حين إلى حين .

وبعد أن استراح أبوها هنيئة نهض وإياها وجعلا يتنزهان بين أشجار الحديقة ، وعند ذلك وقفت مركبة بالقرب من الحديقة وخرج منها رجل و غلام وهما روكامبول وخادمه جاك الذي كان في خدمة ميلادي ودخلا إلى الحديقة وكانا متذكّرين تنكراً عظيماً ولا سيما جاك حذراً من أن تعرفه ميلادي ووقفوا في ظل شجرة وجعلا يراقبان القادمين إلى الحديقة .

وكان والد ماري قد تعب من المشي فجلس على مقعد مع ابنته وبعد هنيئة أقبلت مركبة وخرجت منها امرأة تناهز الأربعين وهي بارعة في الجمال ولا بسة ملابس تدل على بساطتها أنها من النبيلات نمشت تلك المرأة في الحديقة دون أن تراها ماري ، وجلست على مقعد في ظل شجرة بحيث كانت ترى كما تشاء دون أن تراها الفتاة .

وعند ذلك قال جاك لروكامبول : هذه هي ميلادي يا سيدي .
وتفرس فيها روكامبول حتى انطبعت صورتها في ذهنه وخرج مع جاك من الحديقة إلى المركبة التي كانت تنتظره خارجاً ودخل إليها معه وأرصى ستائر نوافذها ، ثم عمد إلى صندوق كان أبقاه فيها ففتحه وأخرج منه ملابس جديدة وتزيانها ، وخلع تنكره القديم ، وعاد إلى شكل الماجور أفاثار .

وعند ذلك خرج من المركبة وقال لجاك : اذهب الآن وحدك إلى المنزل وانتظري به .

وعاد روكامبول إلى الحديقة وهو بملابس الماجور أفاثار وذهب تواء إلى الفتاة وأبىها وقال لها بعد أن حياها الست الآنسة ماري برتود ؟

فاضطربت ماري وقالت نعم يا سيدي .

- إني صديق للوسيان .

وزاد اضطراب ماري وقالت : العمله قادم ؟

. كلا يا سيدتي ، لذلك أرسلني .

فدعرت ماري وقالت . رباه كيف أرسلك ولماذا لم يحضر ؟

- لا تضطربي يا سيدتي إذ ليس ما يدعو إلى الاضطراب والحكاية أنه
اختصم مع أحد أعضاء النادي فتبارزا وأصيب بخدش خفيف بعد قتل خصمه .

وصاحت ماري تقول ويلاه أهو جريح قل لي بربك أصيب بمكروه ؟
قل ولا تخف عني شيئاً بالله ؟

- لا تجزعي يا سيدتي فإنه جريح وجرحه بسيط .

وصاحت ماري صيحة ثانية ثم سمع روكامبول صيحة أخرى شديدة
والتفت فرأى أن هذه الصيحة خرجت من صدر ميلادي المختبئة في ظل
الشجرة وأنها أغمى عليها من الحنو والخوف . .

- ١٦ -

ولنعد الآن إلى فاندا ، فقد علم القراء أن السير جيمس نيفلي الذي استلم
رئاسة جمعية الخناقين من السير جورج ستوي فتن بها حين رآها وأنها كانت
توهمه ان روكامبول خدعها وخانها ، وانها لا تحب إلا بالانتقام وأن السير نيفلي
كان مندفعاً إلى الحضور معها إلى باريس بعاملين وهما عامل حبها ، والتفتيش
عن جيبسي التي اختطفها روكامبول من معبد الهنود في لندرا وهي فوق
المحرق .

ولقد علم القراء أيضاً كيف أنها باة ليلة في قصر روشربين ولم يعلم بسر
الخيال ولم يخطر له في بال أنه يقيم في قصر امرأة تخدمها جمعية الخناقين بملاء
الغيرة والاخلاص .

ولما وصل مع فاندا إلى باريس أقام وإياها في فندق اللوفر وهو أجمل

فنادقها ، غير أنه كان واسع الثروة فكره أن تقيم حبيبته في الفندق واشترى لها في اليوم التالي منزلاً جميلاً بما فيه من الرياش وأقام معها ، وركع أمامها وقال لها : هوذا قصرك أيتها الحبيبة فاحكي فيه وبي كما تشائين . فابتسمت له فأندا الطف ابتسام وقالت له : إذن أنت تحبني ؟

- إن سعادتي أن أكون لك عبداً ما حبيت .
- وأنا أوافقك في هواك ، لكن على شروط أحب أن تسممها .
- وأنا لا اشترط إلا أن أمتثل لشروطك فمري بما تشائين

- لقد قلت لك أنت لي شروطاً والحق اني لا أشرط غير شرط واحد وهو ان تنتقم لي فإذا انتقمتم كما أريد أحببتك حب الهائمين وصرت أنا العبدة وأنت السيد المطاع .

وكانت فاندنا في باريس منذ ثلاثة أيام ولكنها لم تستطع أن تخرج من المنزل إلا مرة واحدة ، فلما انتقلت مع السير نيفلي إلى المنزل الجديد لم يكن يفارقها لحظة فقالت له فاندنا في اليوم الثالث : إنك وعدتني أن تنتقم لي وأنت تعلم بانني لا أحبك إلا على هذا الشرط فما بالك تناسيت هذا العهد وإذا كنت تنفق ساعاتك بقربي فكيف تستطيع أن تعثر بهذا الشقي الذي اختطف جيبسي ؟

فابتسم السير نيفلي وقال لها : إن لدي قوماً يشتغلون بأمرى ويضحون أنفسهم لكلمة تخرج من فمي فهم ينفذون إرادتي وهم الذين يبحثون الآن عن هذا الرجل وينتقمون لك منه كما تريد

- ومتى يعثرون به ومتى يكون هذا الانتقام ؟
- بعد يومين أو ثلاثة أيام وأنا انتظر نتائج مساعيهم في هذا المنزل .

وتنهدت جزعاً وقالت : كيف أطيق الصبر ثلاثة أيام ؟ وفيما هم على ذلك دخل الخادم يحمل رسالة إلى السير نيفلي فارتعش حين رأى طوابع البريد الغريبة عليها ثم فضاها وقرأ ما فيها ووضعها في محفظة جيبه دون أن يطلع عليها فاندنا .

وعاد إلى فاندنا فحادثها بضع دقائق ثم قال لها : إني مضطر أن أذهب إلى إدارة بنك دافيد مبري .

أما فاندنا فإنها كانت تنظر خلسة إلى الرسالة حين كان يقرأها ولم تعلم من أمرها إلا أنها مكتوبة بلغة هندية وكانت الرسالة واردة إليه من كلكتا وهي كما يأتي :

« علي رجاء يأذن للمس الن ان تعرف والدها وعلى السير جمس نيفلي تأتي في أوروبا أن يبلغها هذا الأمر »

ولم يكد السير نيفلي يخرج من المنزل حتى أسرع فاندنا وركبت مركبة وانطلقت بها إلى المنزل الذي يقيم فيه روكامبول ولكنها لم تجده فيه كما تقدم وكتبت إليه تلك الرسالة التي أخبرته فيها بما علمته ووعدته أن تعود إليه في منتصف الليل وسلمت الرسالة إلى ميلون .

أما السير نيفلي فإنه لم يكن يكتب مس الن أي ميلادي إلا بواسطة بنك مبري فذهب إلى البنك وكتب إليها ما يأتي :

« إن وكيل علي رجاء يريد أن يرى الماجور هوف فليرسل الجواب إلى السير جمس نيفلي في شارع جبرائيل في الشانزليزه وليعين مكان الاجتماع » .

وبعد ربع ساعة ورد إليه الجواب الآتي

« ان الماجور هوف ينتظر السير نيفلي بين الساعة ١١ ومنتصف الليل في نادي اسبرج » .

وقد وصل هذا الكتاب إلى منزل السير نيفلي قبل عودته من البنك بمدة عشر دقائق وكانت فاندنا في المنزل فأخذ الخادم الكتاب من عامل البريد فدفعه إليها وانصرف .

فأسرعت فاندنا إلى شفرة رقيقة فحمتها وأدخلتها برفق بين طيات الظرف فانسال الغراء وانفتح الظرف دون أن يتمزق ورقه فاطلمت على الرسالة وأرجعتها إلى الظرف وأقفلته .

ثم أتى السير جس ففتح الرسالة وتلاها دون ان يهتدي الى ما فعلته فاندا . فلما أذنت الساعة الحادية عشرة خرج من المنزل وأخبر فاندا أنه سيعود متأخراً .

ولم يكتف يبرح المنزل حتى أسرع فاندا الى روكامبول ، حيث كانت ينتظرها وأخبرته بمضمون الرسالة فقال لها : حسناً فعلت وقد بلغنا المراد فيما أظن . ولم يبق علينا إلا ان نضع الخطة التي يجب ان ننتهجها . فاجلسي بجانبى واصفي لما أقول .

- ١٧ -

بينما كان روكامبول يشرح خطته لفاندا كان يجري في الشارع الأميركي أمور خطيرة لها علاقة عظيمة بمشروع روكامبول .

وكان يوجد في هذا الشارع قهـاوي ، وهي قهوة النعيم وقهوة الأبرياء وقهوة الألدورادو .

أما قهوة النعيم فكان يتردد اليها المتشردون الذين لم يمروا بعد في مهنة اللصوصية ولم يحصلوا على شهادتها . وأما قهوة الأبرياء ، فلم يكن يدخل اليها غير الذين سجنوا ست مرات على الأقل لجرائم مختلفة . وأما قهوة الألدورادو فكان يجتمع فيها كبار اللصوص ، ويحقق حضور مجتمعاتهم وحفلاتهم لصغارهم . فكانت تنفس كل ليلة ، بعد منتصف الليل ، بلصوص هذا الشارع .

وكان في هذا الشارع كثير من الأفراش والآبار التي نزلت مياهها . فكان هؤلاء اللصوص ينامون في الشتاء فوق الأفراش الدافئة ، وينامون في الصيف في تلك الآبار الرطبة . ولذلك كثر وجود اللصوص في

هذا الشارع .

ففي تلك الليلة التي كان روكامبول مجتمعاً فيها بفاندا ، كان بعض اولئك اللصوص في قهوة الالدورادو وبينهم فتاة تبعت في مباحث الغرام فاعترضتها رصيفة لها قائلة : أتعقدين أنت بالغرام يا زبلي ؟

- كيف لا أعتقد به ؟ ولو كنت تعرفين غرامي بغوستاف وشغفه بي لما اعترضت علي هذا الاعتراض ، لكنه سجين لا يستطيع الوصول الي هنا كي يثبت لك صدق الغرام أما أنا فإن إيمان قلبي بالحب لا يتزعزع وفوق ذلك إني أعرف من يحب الحب نفسه .

- كيف ذلك ومن هو هذا الأبله واين يجدونه ؟

- يجدونه في المنزل الذي كنت فيه وطرردوني منه لمعجزي عن دفع اجرة الشهر ، وما هو أبله بل هو متوقد الذهن تدل مخائله على النجابة والذكاء . وحكايته انه يهوى فتاة ما رأت عيناى أجمل منها لكنها مجنونة ، لا تطيق ان ترى سواه وتضحك وتبكي في حين واحد .
- العله يحبها الجنونها ؟

فقالت زبلي : لا أعلم لا أعلم ولكنه فقى جميل في الثامنة عشرة من عمره . ووالله ما حنت أم على ولدها حنو هذا الفقى على تلك الفتاة ، فإنه ينام عند قدميها ويبيت طول ليله ساهراً عليها وقد اشتدت أعراض جنونها في إحدى الليالي فرأيتته يبكي بكاء يقطع القلوب
فقالت السارقة : ويح لنفسى انى لو عثرت بمثل هذا العاشق لحبسته وأوثقته خوفاً من ان يسرقوه وماذا يدعى هذا العاشق المفتون ؟

- إنه يدعى باسم غريب ، لم أسمعه غير مرة من غوستاف ، وهو مرميس !

فلم تكذب تلفظ هذا الاسم حق برز رجل من بين الجمهور وقال إفدهوا لي كي أرى هذه الفتاة .

فتباعد الحضور احتراماً له وهم يقولون : هوذا باتير !

كل من طالع الأجزاء السابقة يعرف ان باتير هو زعيم تلك العصابة التي انتزعها منه روكامبول وخلف في قلبه الحقد الدفين . فكان باتير هذا لا يزال محترماً في تلك القهاوي ، غير ان الفتاة زبلي كانت حديثة العهد في المهنة فلم تحفل به احتفال اولئك اللصوص ودنا باتير من زبلي قائلاً لها : إنك تعرفين إذأ مرميس ؟

- نعم .

فاتقدت عيناه ببارق نفذت منه أشعة الحقد وأضاف : إني لم أر هذا الغلام منذ عهد طويل فهل تقولين اين يقيم ؟
- كلا إني أرى من عينيك انك تريد به شراً فلا أرشدك الى مكانه .

فقال بلمهجة المتوعد بل ترشدينني اليه
- كلا لآني خائفة عليه منك .

عند ذلك دنا منها صاحب القهوة وقال لها همساً : لقد أخطأت ايتمها الفتاة لا يجب معاداة رجل مثل باتير .

غير ان الفتاة كانت باسلة فلم تخف هذا الوعيد وقالت ، كلا إني لا أرشدك إلى مكانه .

فضم باتير يديه وهجم عليها يريد ان يضربها ، فتدخل صاحب القهوة بينهما قائلاً لباتير لا حاجة لضربها لأن الرجل لا يضرب المرأة اذا كان قادراً على نبيل مأربه بواسطة اخرى .

فاصفر وجه باتير وأجابه : إني أضرب من أريد .

ثم تقدم منها فاعترضه صاحب القهوة ايضاً وقال : إصنع إلي وتأن . إن هذه الفتاة قد دلت على مكان مرميس دون أن تريد .
- كيف ذلك ؟

- ألم تقل ان الفتى الذي يدعى مرميس يقيم في المنزل الذي كانت هي مقيمة

فيه وطردت منه لأنها لم تدفع الأجرة ؟
 فقالت زبلي ولكن لا يوجد بينكم من يعرف اين كنت أقيم ؟
 فبرزت لها عند ذلك ، إحدى الفتيات وقالت : إنك منخدعة ،
 أنا أعرف منزلك القديم ، لأنك كنت تقيمين في منزل خمار ، في شارع
 فيرلابو ، وهذا المنزل في وسط الشارع من الجهة اليسرى ، وبالقرب منه دكان
 بائع تبغ .
 فأنكرت زبلي كل الإنكار . غير ان باتير علم من اضطراب صوتها انها غير
 صادقة في إنكارها فقال لقد علمت الآن ما أريد ان أعلمه .
 ثم ترك الألدورادو وذهب الى سطح فرن فاضطجع قرب رفيق فسأله رفيقه .
 ماذا صنعت بالألدورادو ؟
 - علمت عنوان مرميس .
 فاستغرب الرجل هذا الاسم وقال من هو مرميس هذا ؟
 - لقد أصبت إنك لم تعرفني إلا بعد اعتزال الرئاسة .
 - نعم إنني لم أعرفك غير اني أرى من تحية الرفاق لك ادك كنت من قبل
 شيئاً مذكوراً .
 وتنهذ باتير وقال : وأأسفاه لقد انقضت تلك الأيام . وأنا احاول منذ
 ستة أشهر ان أولف عصابة ولا أظفر بمراد . فكان بعض اولئك اللصوص
 يعتذر بقوله ان مهنة اللصوص باثرة في هذه الأيام وبعضهم يجيب أية ثقة تريد
 ان تكون لنا برجل غلبه روكامبول وانتزع منه عصابته ؟
 فقال له اللص : وأي عجب لهذا ، إن روكامبول قد غلب كثيرين
 سواك ؟

فشارت كوامن الحقد في صدر باتير وأجاب : إنه سلبني رجالي ونفوذتي
 حتى صاحبة الحمار التي كنا نأوي اليها ، لأنني أردت ان أستدين منها
 ريالاً واحداً فأبت ولولم يتيسر لي سرقات صغيرة من حين إلى حين لمت

- من الجوع .
- هو ذاك ولكنك لم تذكر لي شيئاً عن مرميس .
- إنه غلام ربيته وعلمته أساليب المهنة فكان أذكى اص بين العصابة فسلبني إياه روكامبول .
- العلك تريد ان تدخل في العصابة او أنت تبحث عنه لتراه ؟
- فامتعض وجهه باتير وارتمت على بحياه علائم الحقد الوحشي وقال : أنا أخضع لهذا الرجل ؟ ولكني اريد ان أراه لأنتقم
- اصنع لي ايها الصديق اني ما عرفت روكامبول ولكني سمعت من أخباره ما يدعوني الى نصحك بعدم التعرض له
- قد أصبت . إنه قد يغلبني إذا كنت وحدي ولكني أجد أصحاباً يعينوني عليه وسوف ترى .
- ولم يزد باتير على ما قاله شيئاً . لكنه عاد الى الاضطجاع وجعل يراقب الداخلين والخارجين من الألدورادو ، حتى بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل .
- وانطفئت أنوار القهوة ، وتفرق من كان فيها ، فقام باتير وجعل يتأهب للذهاب فسأله رفيقه إلى أين ؟
- إلى حيث أقضي القضاء المبرم على روكامبول .
- فقال له : اني أعبد عليك النصيح ، فارجع عن التصدي لهذا الرجل إذ لست كفوءاً له .
- إن الأيام بيننا ومن يعيش يرى .
- ثم تركه ومضى .

- ١٨ -

سار باتير إلى باريس فجعل يمتاز شوارعها المقفرة في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، فلا يرى غير بعض المارة من حين إلى حين ولا ينتبه اليهم لانشغاله بروكامبول . وهو لو رأى أحدهم منفرداً في مثل ذلك الوقت وفي غير هذه الأحوال لانقض عليه وسلبه ما معه . غير ان انشغاله بالانتقام صرفه عن كل أمر سواه .

وما زال سائراً حتى بلغ إلى شارع بلوفند في الشارع الذي حبس فيه تيميلون انطوانيت وفاندا . وهناك وقف باتير عند أحد أبواب المنازل ووضع إصبعيه في فمه وصفر صغيراً خاصاً فلم يفتح الباب لكن النافذة المطلة على الشارع فتحت بعضها ، وأعاد باتير الصغير ففتحت النافذة كلها وسمع صوت يقول ها أنا قادم اليك ؟

وبعد حين فتحت الباب وخرج منه رجل وكان هذا الرجل تيميلون عدو روكامبول الألد الذي طالما ورد ذكره في الأجزاء السابقة .
 وكان ظهره قد انحنى وبدأت عليه دلائل الكبر وتغير وجهه حتى لو رآه روكامبول نفسه لما استطاع ان يعرفه .

وقد عاد هذا الداهية إلى باريس غير حافل بروكامبول ، لأنه لم يعد إلى تلك العاصمة إلا للانتقام منه ، لأن هذا الرجل لم يكن يحب في الوجود غير ابنته ولا يطمع إلا بالمال وقد ماتت ابنته وضاع ماله ، ولم يعد يتشوق إلا للانتقام من روكامبول .

وكان قد لقي يوم عودته باتير وهو يعرفه كما يعرف جميع اللصوص وسأله عن أحواله فقص عليه باتير جميع ما حدث له مع روكامبول . ولما أتم حديثه سأله : إذاً انت تذكره روكامبول ؟
 - كرهى له لا يوصف .

- وأنا أكرهه بعض الكره إذ بيني وبينه حساب قديم يجب تسديده فقل لي أين تبئت في الليل كي أجذك حين الحاجة اليك ؟
- على سطح الفرن في الشارع الأميركي .
- حسناً لا بد لنا ان نلتقي . ثم افترقا .

وبعد يومين علم تيميلون ان روكامبول في لندرا فسافر اليها ثم عاد منها بعد ثمانية أيام فلقني باتير وقال له : ان روكامبول عاد من لندرا الى باريس فابحث عنه في الليل والنهار وفي أية ساعة تقف فيه على أثره أسرع الى إخباري في شارع بلغوند .

ولذلك أسرع باتير الى موافاته في تلك الليلة حين علم مقر مرميس . ولما سمع تيميلون صفيره فرح فرحاً وحشياً لوثوقه من ان باتير قد اهتدى الى روكامبول ولما برز له من الباب سأله : أوجدته وأين هو ؟
- إني لم أجده ولكنني علمت اين يوجد مرميس .

ثم قص عليه كلمة كلمة جميع ما حدث له في الألدورادو وسر تيميلون من تقريره وقال له : إذن ان مرميس يقيم مع امرأة ؟
- كلا بل مع فتاة حسناء .

- إنها مجنونة ولا تتكلم غير الانكليزية .

- لا أعلم بالحقيقة من أمرها بعد غير ان زبلي تكلمت عنها هذا الكلام .

فاتقدت عينا تيميلون ببارق من السرور ووضع يده على كتف باتير قائلاً :
أظن انك اكتشفت اكتشافاً عظيماً .
- أحق ما تقوله ؟

- لم أعلم الحقيقة بعد ، ولكنني أظن انه يوجد في باريس او في لندرا من يدفع كثيراً من النقود ، للاستيلاء على هذه الفتاة التي تقيم مع مرميس ، وهلم بنا .

- الى اين ؟
- الى شارع فيرابو ألم تقل انها تقيم هناك ؟
- ليكن ما تريد غير انه يجب الحذر الشديد من مرميس لأنه يعرفني ويعلم
اني لا أحب رئيسه روكامبول .
- ولكنه لا يعرفني أنا . فقف انت بعيداً وأرشدني الى المنزل فهذا كل
ما أريد .
- إذن هلم بنا .

وسار الاثنان الى ذلك الشارع ، وقد نفذ تيميلون عنه غبار الشيشوخة
وقوم حب الانتقام عوج ظهره . فسار وهو يقول : إي روكامبول ! إن
ابنتي قد ماتت ، ولم أعد أخشاك وأنا أضحي حياتي مقدماً في سبيل
الانتقام منك !

- ١٩ -

ولنبسط للقراء الآن السبب الذي حمل روكامبول على إقامة مرميس
وجيبسي في شارع فيرابو ، فإنه حين عاد من لندرا الى باريس قال في نفسه :
إنني أحضرت اثنين يجب ان أبالغ في إخفائها وهما السير جورج ستوي الذي
أستعين به على السير جمس وطائفة الخناقين ، وجيبسي التي يجب ان أحجبها
عن السير جمس

أما السير جورج لا أجد له محلاً أفضل من شارع سانت جرمان ، لأن
الإنكليز لا ينتابون هذا الشارع . وإذا كانت فاندا قد أحسنت تمثيل دورها
لا بد ان تكون مثلتي لدى السير جمس بأني من أولئك الخناقين الذين يلبسون
أحسن الثياب وينتحلون أفضل الألقاب وينتابون أجمل الشوارع وأشهر

النوادي . واذا كنت قد اختطففت جيبيسي واتخذتها خلية لي كما يعتقد ، لا بد لي من ان اتخذ لها منزلاً جميلاً في الشانزليزيه ، او في شارع ملهوب . إذن يجب أن أقيمها في شارع لا يطرقه الا العوام ، إذ لا يخطر في باله اني اقيمها في مثله .

ولذلك أرسل نويل كي يبحث له عن منزل حقير في شارع يسكنه الفقراء واستأجر غرفتين في منزل خمار أقام فيها مرميس وجيبيسي .

وكان قد أصدر امره الى مرميس ان لا يفارق جيبيسي لحظة ولكن مرميس لم يكن في حاجة الى تلقي مثل هذا الأمر لأنه كان مشغولاً بحب الفتاة وقد استأجر اثنان من العصابة وهما مورت وشانون غرفة تحت غرفة جيبيسي وكانا يلعبان بالورق في حانوت الخمار ويراقبان .

أما جيبيسي فقد كانت مجنونة وجنونها لم يقلق روكامبول لاعتقاده انه متى عرف الداء وجد الدواء . وكان واثقاً ان جنون جيبيسي لم يكن ناجماً ، كما يتبادر الى الأذهان عما لقيت من الرعب يوم وضعها الحناقوق على المحرقة في معبدهم وأضرموا النار في الحطب ، بل ان جنونها كان لفرط شغفها بارنو نويل ولما لقيته بعد ذلك الحب من جفائه واحتقاره ، وكان خبيراً بمواطنف القلوب فقال في نفسه : ان هذا الحب القديم لا يدفعه غير حب جديد . ولذلك سر سروراً عظيماً حين باغت مرميس مع جيبيسي ورأى تلك النظرات التي تشف عن الغرام الأكيد .

ولم تكن جيبيسي تخرج من غرفتها ولا تقبل الطعام إلا من مرميس . وكان مرميس يعتني بها منذ ثمانية أيام اعتناء الأم بولدها ولا يكلمها إلا بالإشارة لأنه كان يجهل اللغة الانكليزية . فأحضر له روكامبول كتباً بهذه اللغة وقال له : إن جيبيسي لا بد لها ان يعود اليها الصواب ، فادرس لغتها فقد يروق لك ان تتحدثها بعد شقاها .

فجعل مرميس يدرس هذه اللغة بلء الاجتهاد وهو يرجو ان يعرف أن

يقول لها يوماً احبك

وكان ميلون وتويل يزورانها ايضاً فكانت لا تنظر الى تويل وتبتسم لميلون لانها لم تكن تعرف غير ميلون ومرميس .

وفي اليوم التالي الذي اجتمع فيه تيميلون بباتير وأرشده الى المكان الذي يقيم فيه مرميس مع جيبسي ، كان رجل ماراً في شارع فيرابو عليه ملامح المسكنة وهو يرتدي ثياباً بدت عليها آثار القدم ، فكان ينتقل من بيت الى بيت يحاول استئجار غرفة وفي يده قطعة من الخشب الأسود مكتوب عليها بحروف بيضاء هذه الكلمات : مكتب معد للتخديم .

وما زال ينتقل وهو لا تعجبه غرفة حتى انتهى الى منزل الخمار الذي تقيم فيه جيبسي ، فنادى البواب فبرز له الخمار نفسه وقال له : لا بواب عندي فماذا تريد ؟

— أريد غرفة أجعلها مكتباً لي .

— أتدفع مقدماً ؟

— نعم .

فدخل به الى الخمار ودخلا من باب فيها الى ساحة ، وصعدا سلماً مظلمة حتى انتهيا الى الدور الأول ، وهناك صف من الغرف فأخذ الخمار مفتاحاً ، وبينما هو يفتح إحدى الغرف نظر الرجل من ثقب قفل الغرفة المجاورة ورأى مرميس جالساً يقرأ أمام سرير جيبسي فعرفه للحال لأن هذا الرجل المتنكر بشكل شيخ الخدامين لم يكن الا تيميلون .

وبعد ان فتح الخمار بابها دخل تيميلون في أثره وتفحصها تفحصاً دقيقاً ، واعترض اعتراضات شتى حتى انتهى الأمر بقبوله ونقده اجرة شهر مقدماً قائلاً : سأحضر غداً أثاثي

ثم خرج وإياه وعلق لإعلانه على باب المنزل وانصرف .

وبعد ساعة عاد الى الخمار وقال له : أعطني مفتاح الغرفة لأنني احب ان

اقيس نوافذها كي أعرف قياس الستائر .

فأعطاه المفتاح وصعد تيميلون وحده ودخل الى الغرفة المجاورة لغرفة مرميس وجعل يتأملها فوجد ان الغرفتين لا يفصل بينهما غير جدار رقيق من الخشب ملصوق فوقه ورق ملون . فأغلق باب الغرفة وأخرج مدية من جيبه ، وأزاح الورق وجعل يثقب الخشب بلاء الرفق كي لا يسمع مرميس حتى اوشك ان يتم الثقب ثم قال في نفسه : كفى اليوم وسأعود غداً الى إتمام الثقب . وأعاد الورق الى ما كان عليه ونزل الى الحائوت ورد المفتاح الى الحمار وانصرف .

وفيا هو ذاهب رأى امرأة دخلت الى الشارع لابسة ثياب الخادومات فعرف للحال انها فاندا وقال في نفسه : إما ان يكون الشقاء قد بلغ منها فاضطرت الى الخدمة وإما ان تكون متنكرة بهذه الثياب .

ومشى الهويناء وهو يراقبها خلصة فمرت به دون ان تعرفه ودخلت حائوت الحمار فالتجملت له القوامض وقال : إنها دون شك رسول روكامبول الى مرميس .

كان يوجد بازاء الحمار دكان لبيع التبغ وتولى البيع فيه امرأة ثائرة فذهب تيميلون اليها واشترى مقداراً من التبغ وبادهها بالحديث وهي تن له التبغ فما صدقت ان رآته يريد المحادثة حتى اندفعت بكلامها كالسيل فما أبقت على شيء مما تعلمه عن سكان هذا الشارع .

وكان تيميلون يسمع حديثها وعيناه ناظرتان الى الحمار فرأى رجلين دخلا اليها من بابها الداخلي وجلسا يلعبان بالورق وعلم ان احدهما شانوات والآخر مورت ثم رأى رجلاً ثالثاً قد انضم اليهما وعرف انه ميلون ، وقال في نفسه : يظهر ان روكامبول شديد الحرص على تلك الفتاة ، فبعث جميع رجاله لحراستها .

وعند ذلك خرجت فاندا فقطع تيميلون حديثه مع المرأة على الكره منه

واندفع يقتفي أثرها حتى رأت مركبة في الطريق صعدت اليها وقالت للسائق :
سر بي الى شارع سانت لازار نمرة ٢٨ .

وكان تيميلون سمعها تدل السائق على هذا المنزل ، ولم يكن يوجد في
تلك الساعة مركبة غير هذه ، ولكنه رأى في الوقت نفسه ان مركبة من
مركبات الأومنيبوس ، التي تسير الى شارع سانت لازار ، قد دنت منه
وركب فيها . غير ان الاومنيبوس لا يدرك المركبات ، فتواتر مركبة فاندنا
عن أبصاره .

وكانت المسافة بعيدة الى ذلك للشارع الذي كانت فاندنا ذاهبة اليه .
غير ان تيميلون لم يبال بذلك البعد ، لأنه عرف نمرة المنزل . ولما وصلت
مركبة الاومنيبوس اليه رأى مركبة جميلة واقفة عند بابه ، وان امرأة
خرجت منه ، وقالت لرجل كان يصحبها : سأفعل ما تريد ، والى اللقاء
في هذا المساء .

وارتعش تيميلون لأنه عرف ان هذه المرأة هي فاندنا وقد خلعت تنكرها
ورجعت الى روائها القديم وقد زاد ارتعاشه حين رأى الرجل يعين المرأة على
الصعود الى المركبة ويقول للسائق : الى الشانزليزيه . إذ عرف انه المجاور
أفاطار ، أي روكامبول .

وقال في نفسه : لقد علمت الآن ان روكامبول يقيم في سانت لازار وان
جيبسي تقيم في فيرابو ، ومتى عرفت الى اين ذاهبة فاندنا أستطيع ان أعلم
اين يقيم السير جيمس نيفلي .

ثم سار به الامنيبوس الى الشانزليزيه حيث كانت فاندنا ذاهبة .

- ٢٠ -

ولندع تيميلون يقتفي أثر فاندا ، ولنقص على القراء ما حدث بين فاندا وروكامبول في الليلة السابقة حين اغتنمت فرصة خروج السير جس من المنزل ، وأسرعت الى سانت لازار لمقابلة روكامبول فقد قال لها حين خلا بها : لم يعد حاجة الى الاهتمام بمعرفة أسرار السير جس فقد عرفت حكاية مس الن أي ميلادي بالتدقيق وذهب وقت البحث ، وآن اوان العمل . إعلمي ان ميلادي قد قتلت اختها ونهبت مال ابنتها ويجب ان ترد الى ابنة اختها أي الى جيبسي الاموال المسروقة .

- ألا يجب ان نعرف اين توجد هذه الأموال ؟

- إن السير جس لا يعرف اين موضعها لانها بيد ميلادي والذي أراه ان الثروة لم تمس بل ايرادها كان يقسم الى قسمين تأخذ ميلادي قسماً ويرسل القسم الآخر الى خزينة الخناقين كي يستعينوا به على إخراج الاسكليز من الهند متى توفرت لهم الاسباب . لكنني لا أزال اجهل السبب الذي حمل علي رجاء علي هجر ميلادي ومنعها عن رؤية رلدها .

ثم قص عليها ما حدث أمامه في حديقة التويلري وقال لها : إن ماري برقود عرفت ان ميلادي والدته خطيبها ولما رأت ما أصاب ميلادي من الإغواء استعانت بي ، فحملتها الى مركبة سارت بنا الى منزل ماري ، واقتنعت ماري ونحن في الطريق ان جرح لوسيان سريع الاندمال ولما استفاقت ميلادي من إغمائها جعلت تبكي بكاء شديداً ، فقالت لها ماري يجب ان نذهب الى منزله لان رجود امه يقربه يجعل في شفاؤه .

فاضطربت ميلادي حين سمعها هذا الاقتراح وقالت : كلا ان ذلك محال إذ لا استطيعه ثم استعلفت ماري ان لا تذكر شيئاً من امرها امام لوسيان واسة لمفتني انا أيضاً نفس اليمين لاعتقادها اني من أصحاب ابنها .

- تعجبت فاندرا وقالت : كيف تأبى ان ترى ابنها وهو جريح ؟
- تليست هي تأبى هذا اللقاء لكن علي رجاء يمنعها عن الاجتماع بابنها لاسر
سنكشفه الايام .
- إذن انت موطد الملائق مع ميلادي .
- ومع الماجور هوف أيضاً ، لقد جددت معرفتي به حين أعدت ميلادي
الى الجران اوتيل .
- وعلى ماذا عولت الآن ؟
- لاني لم أر في صدر ميلادي غير عاطفة واحدة وهي حبها لابنها ويجب ان
نضربها في موضع ضعفها .
- كيف ذلك ؟
- افترض ان ماري برتود قد اختفت ، وان لوسيان علم ان
قد اختطفتمها .
- حسناً وبعد ذلك ؟
- نرشد لوسيان على ميلادي ونقول له هذه امك وهي وحدها تستطيع ان
ترشدك الى خطيبتك
وقالت فاندرا . ولكن ميلادي تثبت لابنها انها بريئة ، وانها لا تعلم اين
هي ماري .
- نعم .
ثم سكوت هنيئة وقال : أتظنين انه حين ترى ميلادي ابنها في حالة يأس
لاختفاء خطيبته وأتى أحدهم قائلًا لها : ماذا تدفعين اذا أنقذت ابنك وأعدت
له الصبية ألا تدفع له ثروتها ؟
- ربما .
- وهذا الذي أبتغيه
- ولكن كيف السبيل الى اختطاف الفتاة واين نضعها ؟

- ذلك سهل ميسور علي لا سيما ولي مثل هذه العصابة .
وسكنت فاندانا هنيئة ثم قالت : ايها الرئيس أعزمت علي ان تبقي مدة
طويلة مع السير نيفلي ؟

- الي ان يتم لي النصر الاكيد علي الحناقين وعلى ميلادي .
- ان ذلك يطول .
- بل هو أقصر مما تظنين .
- سأفعل ما تريد . إنما بقي امر أراك لم تفتن له وهو ان لوسيان وماري
شريفان وكلاهما نقي القلب طاهر السريرة ليس من الظلم ان نضربهما هذه
الضربة القاضية ؟

ووضع روكامبول يده فوق جبينه شأن المفكر المهموم وقال : لقد خطر
في بالي جيسع ما تقولين ، ولكنني رأيت ولا بد من إرجاع المسالين
لجيبسي ، ومتى عادت اليها فهي تعطي دون شك ابن ميلادي شيئاً من
هذا المال .

- ولكنها مجنونة ؟
- انها تشفى ولا خطر عليها من هذا الجنون .
- ليكن ما تريد والآن بماذا تأمر ؟
- ليس لدي اليوم شيء أقوله ولكن يجب ان أراك غداً .
وذهبت فاندانا . وفي صباح اليوم التالي عادت الي روكامبول فقالت له : لدي
أخبار عن علي رجاء .

ثم أخبرته ان السير نيفلي لم يعد في تلك الليلة الا قرب الفجر وكان معه
رجلان هنديان قدما من لندرا ، فخلا بهما في غرفة مجاورة لغرفتي ، وقد
ألصقت الي حديثهم ولم أفهم شيئاً لانهم كانوا يتكلمون باللغة الهندية ، لكنني
سمعتهم يذكرين اسم جيبسي مرات كثيرة واستنتجت من ذلك انهم وقفوا
على أثرها .

فقال روكامبول : لا بأس ، اذا كان الخنثاقون جاءوا الى مساعدته فلاني
لا أدهمهم يساعدوه .
- كيف ذلك ؟

فقام روكامبول الى خزانة وأخرج منها زجاجة فيها رشاش ابيض وأعطاهما
إياها وقال لها : يجب ان تسقي السير نيفلي هذا الخدر هذه الليلة وانه حين يستقر
في جوفه يسقط صريعاً فتضعين عند ذلك مصباحاً على نافذة الغرفة المشرفة على
الحديقة فأعلم ان الامر قد تم
- وبعد ذلك ؟

- إن البقية خاصة بي . إذهبي الآن ولكن قبل ان تعودى الى السير
نيفلي ، إذهبي الى فيرابو واسألني ميلون عن جيبسي ، واذا كان رأى ما
يوجب الخدر .

فامتثلت فاندنا وتنكرت بالشكل الذي رآها فيه تيميلون ثم خرجت وعادت
بعد ساعة فخلعت تنكرها وأوصلها روكامبول الى المركبة وقال للسائق : الى
الشانزليزيه . وهي الكلمة التي سمعها تيميلون .

- ٢١ -

بينما كان الماجور هوف عند ميلادي في الفندق الذي كانت فيه جاءه عامل
داني همبري برسالة السير حمس وكانت ميلادي تقول لفرانز : الى متى هذا
الصبر على ظلم علي رجاء . أياكون لي ابن وهو أبوه ويكون هذا الابن مريضاً
جريحاً معرضاً لخطر الموت ثم لا يأذن لي ان أراه ؟
فقال لها فرانز : انك تعلمين ان ثروتك مرهونة لارادة علي رجاء والخضوع
له فافتكري واحذري .

- لا أبالي إذا كنت فقيرة فاني أحب ان أرى ابني .
 - ولكنك إذا كنت فقيرة ألا يكون ابنك فقيراً مثلك ؟
 فردت هذه الكلمات الصواب الى ميلادي وقالت : يا للشقاء ولكني لا
 أعلم لماذا هذا الرجل يمنعني عن أن أرى ولدي وهو قد هجرني منذ خمسة
 عشر عاماً .

- أنا أعلم .

فدهشت ميلادي وقالت : أنت ؟

وقبل أن يجيبها دخل الرسول برسالة السير جس وتلاها فرنز وعرضها على
 ميلادي فقالت : من هو السير جس هذا ؟
 - هو وكيل على رجاء وخلف السير جورج ستوي .
 - أهو الآن هنا ؟
 - دون شك ، إنه يريد أن يراني .

ثم قام الى المائدة فكتب الى السير نيفلي تلك الرسالة التي فتحتها فاندا
 وأطلعت على فعوها كما تقدم وعاد الى ميلادي فقالت له : لقد قلت لي انك
 تعرف السبب في حرمانني من ان أرى ولدي .

- ولكني استمهلك في ايضاح السبب الى الغد وربما غنيت عن ذلك بعد
 مقابلة السير نيفلي .

فلم تجد ميلادي سبيلاً إلا الاحاح ، وفي المساء ذهب فرنز الى نادي اسبرج
 . وبعد حين جاءه الخادم برقعة زيارة السير جس فاستقبله في القاعة المعدة
 لاستقبال الغرباء

وبعد ان تبادل الاشارات السرية وتعارفا قال السير جس : اني حامل
 اوامر على رجاء .

فانحنى فرنز وقال بماذا يأمر الرئيس ؟

- انه يأذن لميلادي ان ترى ولدها .

فان هذا الرئيس الأعظم سيتخلى عن الرئاسة لأنه يتولاها منذ خمسة وعشرين عاماً ولا يميز نظام الخناقين تولى رئيس واحد اكثر من ربع قرن ، وأنا اقول لك هذا القول مقدمة للبحث في ثروة مس ألن فان نصف ايراد هذه الثروة كان يدفع حتى اليوم الى الخزينة الهندية ، ولكن علي رجاء متى تخلى عن السلطة يضطر الى التصفية .

قال فرنز : ماذا تريد بذلك ؟

— أريد انه يجب عليه ان يدفع للخزينة أصل المال وليس الايراد .
— ان مس ألن لا تحالف اعلي رجاء امراً .

— هو ما يرجوه ولكنني أعد نبأ آخر الى مس ألن وهو ان رئيس جميعيتنا الأعظم يجب عليه ان يكون عازباً مدة توليه الرئاسة ولكنه يحق له الزواج متى تخلى عنها ولا يزال علي رجاء يهوى ميلادي ويحب ولدها لانه ولده أيضاً .

فاضطرب فرنز وقال . ماذا تعني بذلك ؟

— أعني ان علي رجاء قادم الى اوروبا وهو يريد ان يتزوج ميلادي .

فارتعد فرنز وقال . هذا إذا رضيت ميلادي ؟

— ان هذا شأنها وليس شأني ولكن لا بد لي من ان اطلعك على امر وهو ان ميلادي وان تكن قد دفعت نصف مالها الى الخناقين مقابل قتل ابها فانها لا تزال تحتاج الى هذه الطائفة لصيانة النصف الآخر لأن الفتاة النورية أي جيبسي لا تزال في قيد الحياة وهي تستطيع مطالبتها بهذه الثروة كل حين .
— اني أعلم انكم تكلفتم جيبسي .

— ولكننا افلنت من ايدينا وعادرت انكلترا الى باريس .

— أجاأت وحدها ؟

— كلا بل مع رجل يحبها ويحميها وقد يمكن أن ينتقم لها لأنه رجل شديد فاضطرب فرنز اضطراباً عظيماً وقال : يجب ان تموت هذه الفتاة .
وأنا ما أتيتك إلا لمثل هذا .

- ٢٢ -

وافترق السير جيس نيفلي عن فرنز في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولكنه لم يعد إلى منزله إلا حين شروق الفجر، وقد عاد اليه مع الهنديين اللذين تقدم ذكرهما في حديث فاندنا، فأقام معها ساعة ثم صرفها ونام نوماً هادئاً إلى الظهر بينما كانت فاندنا مع روكامبول.

ولما صبحا أحضر له الخادم رسالة ففحصها وقرأ ما يأتي :
« إن رجلاً عاش زمناً طويلاً في اندرا يسأل السير نيفلي أن يقابله لأنه يستطيع أن يخدمه خدمات جليلة » .

ولم يكن السير نيفلي في ظروفه الحاضرة وورد مثل هذه الرسالة لمزقها دون أن يجيب عليها، غير أن الهنديان أبلغاه أنها يتسا من لقاء جيبسي فأمل خيراً بصاحب هذه الرسالة وأمر الخادم أن يدخله اليه .

وبعد هنيهة دخل الخادم بالرجل، ونظر السير نيفلي هذا الزائر فرأى عليه ملامح نبلاء الانكليز، وما شكك لحظة أنه منهم، أما الرجل فإنه حياء وفاجأه بقوله : أيها الميلورد اني أعرف أين هي جيبسي .

ولو فوجيء السير نيفلي بدوي مدفع لما بغت كما بغت بقول هذا الرجل وقال في نفسه : هب ان هذا الرجل عرف أين تقيم جيبسي فكيف عرف اني أهتم لها ؟

أما الرجل فإنه كان يتوقع منه مثل هذا الانذهال فوضع اصبعه على شفتيه وقال له - أوجد لديك غرفة معتزلة إذا خلونا بها لا يسمع حديثنا أحد؟ - لا يوجد في المنزل غير امرأة لا تعرف الانكليزية وأنا واثق منها كل الثقة .

فابتسم الرجل وقال - إذا كان الحذر واجباً فلئنا هو من هذه المرأة .
وارتعش السير وقال - أوضح لي ما تقول ..

فاستأذن الرجل السير نيفلي وأغلق الباب ثم عاد اليه قائلاً . أيها الميبلورد
أننا لسنا الآن في لندرا وإذا كان لديك في باريس عصابة من الخناقين فليست
هي الآن في هذا المنزل ، وإذا خطر لك أن تستعمل العنف فلا تجد من يعينك
لذلك أقول لك انك إذا خفت أو حملتني على الانصراف تفقد خير فرصة تعينك
على إيجاد جيبسي والاستئثار بثروتها التي قد تقالب بها يوماً من الأيام فاصنع إلى
حديثي ولا تلمي إذا حذرت من تلك المرأة التي تثق بها .

ولم يسع السير نيفلي بعدما رآه من هذا الشخص الواقف على داخل أسمره
إلا الاذعان له فقال : إننا في الدور الثاني من هذا المنزل والمرأة التي تخشاهما
مقيمة في الدور الأول ، ولا سبيل لها إلى سماع حديثنا .

– إذن اصنع فلاني أبدأ بذكر شيء عن أمورك فأبداً تدعى في لندرا السير
جس نيفلي ، وأنت زعيم جمعية الخناقين ، وقد خلفت بهذه الزعامة السير
جورج ستوي لعدم كفايته ، ثم انك اتيت باريس لسببين أحدهما لخدمة الجمعية
التي تمثلها والثاني غرامك بهذه المرأة المقيمة في منزلك .

وان هذه المرأة تدعى فاندانا وقد اخبرتك عنها ان عاشقها تحلى عنها
واختطف فتاة لورية تدعى جيبسي ، وأنت آت إلى باريس كي تنتقم لفاندانا من
عاشقها القديم ، لأنها لا تحبك إلا على هذا الشرط وكي تظفر بجيبسي ولذلك
أحضرت اثنين من الهنود كي يبعثا عن الصبية وعن خاطفها ، وخابت
مساعيها ومساعدك ، لأن هذا الشخص أعظم من الهنود ، وقد طالمنا عجز
عنه بوليس باريس .

فانداهش السير نيفلي وقال : من هو هذا الرجل ؟

– هو رجل يدعى روكامبول كان من كبار المجرمين ثم تاب توبة صادقة ،
أتريد أن أقص عليك بإيجاز ؟

– نعم ..

فحكى له حكايته وكيف هرب من سجن طولون وما جرى له البارون

مورليكس .

حقى إذا فرغ من حكايته قال له السير نيفلي :

— أهر الذي اختطف جيبسي ؟

— نعم ...

— العمله يهاها ؟

— كلا ، ولكننه يهوى تلك المرأة التي تهواها أنت .

— كيف يكون ذلك وهو قد هجرها ثم هجران ؟

— إني يا حضرة المبلورد أدعى تيميلون وقد عرفت روكامبول وفاندا حق العرفان وهما يسخران بك ، وفي كل يوم .

فاضطرب السير نيفلي وقال : إن هذا محال .

— بل هو الحقيقة وقد اجتمعما في صباح اليوم .

فضحكك جس ضحكة مرة ثم قال : إذا كان حقاً ما تقول فإنها مورتاً تموت .

وجعل يخطو في أرض الغرفة خطوات مضطربة وأثار الغضب الوحشي بادية بين عينيه ثم وقف أمام تيميلون وقال له : اني لا أعلم من أنت ولكن اصغ إلى ما أقول فاعلم أنه إذا كان ما تقوله حقاً فإن هذه المرأة تموت وأما إذا كنت كاذباً فأنت الذي تموت دونها .

فابتسم تيميلون وقال اني أرجو أن أعيش بعدها عمراً طويلاً ثم أرجوك أن تعلم يا سيدي اني ما أتيت اليك كي أخبرك فقط بما يندرك من الأخطار .
— إذن ماذا تريد ؟

— ان اتفق وإياك فقد قلت لك اني اعرف أين جيبسي وأنا أستطيع ان أسلمها لك وان أثبت ان روكامبول وفاندا لا يزالان متماشقان يتراسلان ويهزأون بك .

— إذن أنت قادم لتبيعي هذه الأسرار ؟

- ان الانتقام فوق المال .
- ثم اتقدت عيناه ببارق من الغضب وقال : إن روكامبول قتل ابنتي .
- إذن أنت تريد الانتقام؟
- إصفي الي يا حضرة الميلورد إني شديد الفقر ومع ذلك فاني لا أسألك من المال إلا قدر ما احتاج اليه من النفقة لانفاذ مشروعاتنا فاذا سلمت اليك جيبسي وعلقت روكامبول على المشنقة وأحببت أن تنعم علي بشيء من المال اسد به عوزي كنت لك من الشاكرين .
- وكان السير نيفلي قد تمرس بالافات ودرس أخلاق الأمم وعلم ان عاطفة الانتقام ، أشد العواطف الانسانية فوثق مما قاله تيميلون وقال له : لقد صدقتك ؟
- إذن نحن على اتفاق وانت راض ان اخدمك .
- نعم .. ولكنني أريد قبل كل شيء ، أن تبرهن لي عن اتفاق روكامبول وفاندا .
- هو ذاك وسأبرهن لك عن ذلك في منتصف هذه الليلة .
- إذن فان فاندا تموت .
- كلما عجلت بموتها احسنت فانها اعظم مساعدا لهذا العدو الشديد الذي يدعونه روكامبول ، ولا بد لي قبل انصرافي من ان انبهك إلى امر يا سيدي الميلورد وهو اني عندما كانت ابنتي في قيد الحياة لم اكن اخشى إلا روكامبول ، اما الآن فان روكامبول لا يخشى سواي ، ولهذا احذرك من ان تذكر اسمي امام أحد من الناس فاذا وصل اليه خسرنا كل شيء .
- كن مطمئناً فقد نسيت اسمك .
- هذا جل ما اتناه ..
- ثم ودعه وانصرف .
- أما فاندا فأنها لم تر تيميلون حين دخوله وانصرفه وأما السير نيفلي فانه بعد

انصراف تيميليون الذي ارسلته الاقدار لنصرتة ابلغ فاندا انه منحرف للصحة فلا يتعمش هذه الليلة ولكنه يتناول معها الشاي في الساعة التاسعة وأقسام في غرفته وهو يحاول اخفاء اضطرابه كي يتمكن من الاجتماع بها دون أن تظن به ظنون السوء .

وكذلك فاندا فقد كانت أيضاً شديدة الاهتمام بالأوامر التي اصدرها اليها روكامبول وهي « ان السير نيفلي يثقل علينا فاذا شرب هذا الرشاش ضعني مصباحاً على النافذة المشرفة على الحديقة وعلي الباقي » .

وكان لفاندا ثقة عظيمة بروكامبول ولكنها كانت تقول في نفسها ، كيف يستطيع اختطاف السير نيفلي من شارع الشانزيليزيه وماذا يريد ان يصنع به وكيف امهد له سبل هذا الاختطاف ؟

وبعد أن امعنت في التفكير أبعدت جميع الخدم بطرق مختلفة كي يخلو الجو لروكامبول وبعد حين جاءها السير نيفلي وكانت فاندا قد اعدت الشاي ووضعت في كأس السير نيفلي ذلك الرشاش الذي اخذته من روكامبول .

وكان السير نيفلي قد آلى على نفسه ان يقتل فاندا اذا ثبت له مساقاله عنها تيملون ولكنه آلى على نفسه أيضاً ان يحتفظ بمظاهر السكينة الى ان يأتيه تيملون بالبرهان فدنا من فاندا فقبل يدها حسب عادته ثم جلس حول مائدة الشاي فقالت له : أتريد كأساً من الشاي ؟
- دون شك .

فأخذت الابريق وصبت في كأسه وكأسها وهو ينظر اليها نظرات تدل على مبلغ افتنانه بها في حين ان العواصف كانت تائرة في قلبه ولم يرها مرة أجمل مما كانت عليه في هذه الساعة فثارت الغيرة في فؤاده ونسي ما عقد النية عليه من التزام السكينة فنظر اليها قبل ان يشرب جرعة من الشاي وقال لها بلهجة المتهمك : كيف حال صديقك روكامبول .

فاضربت فاندا بالرغم عن دهائها لهذه المباغطة وبدت عليها ملامح الذعر
بشكل ظاهر فلم يعد السير نيفلي محتاجاً الى برهان تيملون إذا قرأ خيانتها بين
عينها فاستل خنجره وهجم عليها وهو يقول . أيتها الخائنة انك خدعتيني
فاستعدي الموت .

- ٢٣ -

ورأت فاندا انه لم يعد لها مناص وان خنجر جس سيخترق قلبها فلا ينقذها
غير الصدفة والاتفاق ولكنها عاشت زمناً طويلاً مع روكامبول فتعلمت الحيلة
في مثل هذه المواقف واستعانت على عدوها بدهائها فوثبت الى آخر الغرفة
وسقط الرداء عن منكبيها فظهر من تحته كتفاها ونصف صدرها فوقفت يسد
السير جس وتراجع وهو ينظر مبهوتاً الى جمال هذا الصدر الذي لم يره قبل
الآن ثم ضحك وقد هاجت به العواطف الوحشية وقال : انك ستموتين دون
شك ولكني أحب ان يكون انتقامي تاماً ... ولم يتم كلامه .

فتنفست فاندا الصعداء وعلمت ان الوقت لا يزال لديها فسيحاً بما رأتها من
ظواهر افتنانه بها وركعت وقالت : ماذا يعني الموت والعار إذا كنت تنقذ
ولدي ؟

فاندهش السير جس وقال : ولدك . العمل لك ولد ؟

فضحكت فاندا ضحك القانطين وقالت : تحسب انه لو لم يكن لي ولد في
قبضة روكامبول اكنت اطيع مثل هذا الشقي السافل ؟

ثم كشفت صدرها وقالت له بلمحة المتوسل . افعل بي ما تشاء ثم اقتلني
بعد ذلك فقد استحققت القتل ولا أبالي بالموت ولكن عدني انك تنقذ ولدي من
قبضة روكامبول .

فانقلب السير جس انقلاباً غريباً حتى ان يده سقطت الى ركبتيه وهي لا تزال مسلحة بالخنجر فوقفت فاندأ وقالت له : إذا ابديت ان تجيب طلبي وتمدني هذا الوعد فاني انجو من قبضتك بالموت ثم ادنت من فمها خائفاً كان باصبعها فخدع السير جسم بهذه المظاهرة وحسب انه يوجد في خاتمها سم يقتل في الحال وهو لم يكن يريد قتل فاندأ فقط . . .

فعاد الى المائدة وجلس أمام كأس الشاي المعد له فقال لها : إذن لك ولد كما تقولين ؟

— نعم .

— التحيينه ؟

— وأية أم لا تحب ولدها ؟

قال : أتقولين انه في قبضة روكامبول وانك تخافين ان يقتل هذا الولد ؟

وكان يسألها هذه الأسئلة وعيناه تنظران الى كتفيها العاريتين وصدرها الجميل فيترايد هياجه بالتدريج وهي تنظر اليه نظرات توسل تفقن الجماد فتار في فؤاده جمر ذلك الحب الشائن ولوى على اجابتها الى سؤالها وادرك سؤاله منها ثم قتلها .

فقال : تكلمي بايجاز ماذا تريد ان اصنع بولدك .

فعلمت فاندأ انه قد حكم عليها بالموت وحاولت ان تطيل الوقت راجية ان تجد منفذاً للخلاص فقالت : اريد ان تنقذ ولدي فعدني وعد الصادقين .

— اني أعدك بذلك ولكنني أريد ان اعلم ان هو ؟

— ليس من يعلم مقره غير روكامبول

— وروكامبول ان يقيم ؟

— في شارع سانت لازار نمرة ٢٨ .

— أمذا كل ما تطلبينه إلي ؟

فنظرت اليه نظرة ساحرة وقالت نعم :

ولكن السير نيفلي لم يكن من الذين تلين قلوبهم هذه النظرات فقال لها :
 اننا الآن وحدنا في هذا المنزل فان جميع الخدم قد ذهبوا والمطر ينهمر في
 الخارج فلا يسمع أحد صراخك فاعلمي انه يجب ان تطيعيني ... وتموتي .
 ثم أخذ الخنجر وحاول أن يهجم عليها فقالت له : دعني أصلي واستغفر
 الله قبل أن تقتلني .
 وعادت إلى الركوع .

— انك تؤمنين بالآلهة وتعتقدين بالخلود إذن صلي ولكن أسرع بالصلاة .
 ثم أخذ كأس الشاي كأنه يريد أن يشغل نفسه كي لا يطول انتظاره
 وشرب ما فيه .

وبعد ذلك هجم بخنجره على فاندرا فصاحت صيحة يأس فألقى خنجره
 على المائدة وأوقفها وضماها إلى صدره وجعل يقبلها ويقول : إني أحبك
 وأبغضك في حين واحد .

غير ان فاندرا هبت لها قوة من السماء فتخلصت منه وصدمته صدمة قوية
 وأسرعت إلى المائدة فقبضت على الخنجر وقالت له : إذا دنوت خطوة فأنت
 من الهالكين .

وضحك السير نيفلي وقال : أتخسبين ان الخناقين يخشون خنجر امرأة ؟
 ثم تراجع إلى وراء وأخرج من جيبه ذلك الحبل الذي اشتهر باستعماله
 الخناقون ، وخافت فاندرا خوفاً شديداً وأيقنت أنها ماثلة لا محالة ، وأما السير
 نيفلي فإنه أطلق الحبل فالتف على عنق فاندرا ، فأطبقت عينيها وتأهبت للموت
 وهي تذكر ممساً إسم روكامبول .

على انها شعرت أن الحبل لم يضغط على عنقها ففتحت عينيها ورأت السير
 نيفلي واقفاً وقوف الصنم وقد اصفر وجهه لإصرار الأموات وهو يتمتم
 كلمات لا معنى لها ..

ثم أن أنينا مزعجاً ووهت رجلاه وحاول أن يشد الحبل كي يضغط

على عنق فاندا ، ولكن الحبل أفلت من يده وانقلب على الأرض صريعاً بفعل ذلك المخدر الذي وضعته له فاندا في كأس الشاي ..
ثم انطبقت عيناه وأخذ جسمه يهتز ويتشنج كأنه في حالة النزاع ولم يكن غير دقيقة حتى سكن جسمه وأصبح شبيهاً بالأموات .

وتنهدت فاندا تنهد المنفرج بعد اليأس وبقيت بضع دقائق مضطربة لا تعمل شيئاً غير النظر إلى هذا الرجل الذي كاد يقتلها ثم ذكرت روكامبول وذكرت معه الواجب وقامت إلى المصباح وأخذته عن المائدة ووضعت على النافذة حسب الاتفاق ، فرأت رجلاً يمشي في الحديقة ثم رأت رجلاً آخر ، فعملت انها روكامبول وميلون .

وبعد هنيئة دخل روكامبول إلى الغرفة وسألها : أقضي الأمر ؟
أجابته بلهجة المضطرب : نعم وها هو ملقى على الأرض .
ونظر اليه روكامبول ثم نظر إلى فاندا ، ورأى الحبل لا يزال في عنقها ، فذعر وقال : ما هذا ؟
- ثولا دقيقة واحدة لكنك من الأموات

ثم قصت عليه جميع ما حدث لها معه ، فقال لها : لا بأس انك لا تخشينه بعد الآن ..
- العله مات ؟

- كلا .. ولكنه في نفس الحالة التي كانت فيها انطوايت حين أخرجناها من سجن سانت لازار ، إذا كنت تذكرين ، لو كنت في الزمن القديم لكنت قتلته دون إشفاق ، أما الآن فقد آليت على نفسي أن لا أسفك دماً بشرياً إلا حين اضطر للدفاع عن نفسي .

- إذن على ماذا عولت وماذا تصنع به ؟

- سأسجنه في قهو منزل الحجار الذي تقيم فيه جيبيسي إلى ان استرجع ملايين جيبيسي ، وأحذره مرة ثانية وأضعه في صندوق وأشحنه إلى لندرا

بعنوان أحد الخناقين كما تشحن البضائع .

ثم التفت إلى ميلون وقال له : أسمع حركة ؟

.. لا ..

وقالت فاندرا : لا يوجد سوانا في المنزل فلاني صرفت الخدم لهذا الغرض.

.. أحسنت ..

ثم أمر ميلون أن يحمل السير جس وينتظره عند باب الحديقة ، فحمله ميلون وخرج به ممتثلاً .

وعاد روكامبول إلى فاندرا وقال لها : استودعك الله وسنتقابل غداً .

– كيف ذلك انتركني وحدي في هذا المنزل ؟

– نعم إذ يجب أن تبقي فيه ولا خطر عليك ..

– لماذا ؟

– ألم أقص عليك قصة المس الن ، إذن إعلمي ان علي رجلاه رئيس الخناقين الأعظم في الهند تجدد غرامه بميلادي بعد أن هجرها عشرون عاماً ، وهو يريد ان يتزوجها ، غير ان ميلادي تابى هذا الزواج لأنها استرسلت في هوى فرنز ، الذي يدعو نفسه الماجور هوف ..

وهي ستحضر غداً إلى هذا المنزل كي ترى فيه السير جس وهي لا تعرفه من قبل ولكنهما تعرف انه نائب علي رجلاه ، وغرضها من هذه المقابلة ان يحمل علي رجلاه على الرجوع عن قصده من زواجها وأريد أن تبقي في هذا المنزل كي تستقبلها .

– واذت اين تكون .

– اكون معك دون شك . وسأحضر اليك قبل الساعة الثامنة

صباحاً ..

ثم ودعها وقبل جبينها وخرج

ووقفت فاندرا في النافذة تشيعة بالنظر ، حتى توارى عن نظرها مع

ميلون ، وعادت إلى الغرفة وتنهدت تنهداً طويلاً قائلة : لقد سلمت الليلة من أشد الأخطار ..

ولم تكذب كلامها حتى سمعت صوتاً من ورائها يقول : إذا سلمت في المرة الأولى فلا تسلمين في الثانية .

والثفتت منذرة فرأت رجلاً وامرأة واقفين دون حركة على عتبة الباب ، أما الرجل فكان تيميلون ، وأما المرأة فكانت شيفوت التي جرحتها فائدا بالرصاص حين انقضت انطوانيت من مخالبها .

وعرفت فائدا للرجال وصاحت مستغيثة صيحة منكزة غير ان صياحها لم يبلغ الى روكامبول لأنه كان قد خرج من الحديقة .

- ٢٤ -

أما روكامبول فإنه سار في اثر ميلون ، وكان ميلون حاملاً السير جمس على كتفيه ، والقوه في مركبة كانت تنتظرهم بقيادة نويل ، فصعد اليه روكامبول وميلون ووضعوا السير نيفلي بينهما ، وأمر روكامبول نويل ان يسير بهم إلى منزل الخمار ، الذي تقيم فيه جيبسي .

وسارت المركبة بهم تقطع الأرض نهياً حتى وصلت الى منزل الخمار ، واخرجوا السير نيفلي ووضعوه في إحدى الغرف مؤقتاً ، ودخل روكامبول مع الخمار الى اقبية المنزل يتفقدانها ، ورأى بينهما قبواً تحت قبو آخر له باب سري على سطح ارض القبو الذي فوقه ، لا يظهر له اثر ، واختار روكامبول هذا القبو بعد ان فحصه فحوصاً دقيقة ، وأمر ميلون فانزل السير نيفلي اليه ثم أقفل بابه وقال إن هذا الرجل سيصحو بعد يومين وسترى إذا كان يبقى له شهية للطعام حين يستفيق .

ثم خرج الى الشارع وتبعه ميلون ، وكان نوبل لا يزال ينتظر في المركبة وسأله ميلون : اذهب معك ايها الرئيس ؟

- كلا ، ابق هنا وغداً لا تنس موعدنا في الساعة التاسعة .

وركب روكامبول المركبة قائلاً لنوبل : سر بي الى الجران اوتيل . وبعد ذلك بربع ساعة وقفت المركبة امام باب الفندق وهناك القهوة خاصة بالفندق ، ولم يدخل روكامبول اليه بل دخل الى القهوة حيث رأى فرنز وميلادي جالسين حول مائدة ، يشربان الشاي وهما منهما كانا عظيمًا ، بمحادثة يظهر انها كانت خطيرة جداً ، حتى انهما لم ينتبها اليه حين دخوله ولكنهما لورأياه لما عرفاه لأنه كان متشكراً بزي الانكليز .

وجلس روكامبول قرب مائدة مجاورة لمائدتها وطلب الى الخادم ان يأتيه بكأس شراب ويجريدة التيمس ، ولما جاءه بالجريدة ادناها من وجهه بحيث لم يعد احد يراه وجعل يومه انه يقرأ وهو في الحقيقة يسمع حديث فرنز وميلادي ولم يفته منه حرف .

وكانت ميلادي تقول لفرنز : ما اجمل ولدي لوسيان فإني ما كنت احسب انه جميل الى هذا الحد فإنه ابيض البشرة مثلي ولكنه حاد النظر براق العينين كأبيه .

ورد فرنز : بالله لا تذكرني إسم ابيه لأنني شديد الغيرة عليك منه .

وهزت ميلادي كتفها إشارة الى عدم اكترائها بعلي رجاء .

وقابع فرنز : لا تحاولي الانكار فإنك لا توالين تحبينه .

وضحكت ميلادي ضحكاً أزال من فؤاده كل شك وقال لها : ان الغيرة بقدر الحب .

- كن مطمئناً فإني لا انكر اني احببت علي رجاءه اصدق حب .

غير انه هجرني وتخلّى عني فتناسيت حبه حتى نسيتته ولو لم يكن والد ابني لما

ذكرته بلسان وكفى انه هجرني ٢٠ عاماً ، ولما فرغ من شؤونه السياسية قال في نفسه . إن لي ولداً وامراًة في اوروبا فلأذهب اليها .

والآن أعلم اني أحتقرك ، وعندما أذكر اني من النبيلات أذكر ايضاً انك كنت خادماً في منزل أبي . ولكن الجريمة جعلتنا متساويين . وانا أحتقرك واحبك في حين واحد ، لأنك الفتني دهرأ طويلاً فتممكن هوائك مني وجرى حبك في عروقي مجرى دمي وفي مفاصلي لأن يدي سفكت دم أبي وأنت كنت تقبل هذه اليد . إذن لا تغار علي بعد الآن لأنني لا أحب علي رجاء .

-- لا ريب عندي فيما تقولين ولكن علي قد يكون باقياً على حبك فلو خطر له أن يتخذك زوجة شرعية فماذا تفعلين ؟

- ماذا تظن أأتروجه ؟

- ربما .

فابتسمت إبتسام الأبالسة وقالت إصغ إلي يا فرانز ، إن علي رجاء لا يزال الرئيس الأعظم للخناقين ولديه جيش من أولئك الجنود السريين يستطيع ان يفعل بمساعدتهم ما يشاء ولكنه سيتخلى عن هذه السلطة كما يقال ، فإذا بقيت له لا بد له من البقاء في الهند فلا تخشاه . وإذا تخلى عنها وحضر الى اوروبا لا يبقى له شيء من وسائل النفوذ السرية ويصبح رجلاً عادياً كسائر الأشخاص فكيف تخشاه ؟

- ولكنه اذا عاد وطلب الاقتران بك أترفضين ؟

-- كلا بل أقبل .

فامتعض وجه فرانز وقال : كيف ذلك ؟

- إني أقبل كي يكون لولدي والد معروف . وأما البقية فهي عليك لأنك ذكي الفؤاد . وإذا عاد علي رجاء الى اوروبا يكون خالياً من كل سلطة كما تقدم إذ يكون قد اعتزل رئاسة الخناقين . وإذا كان الخنجر لا يخترق صدره فان

السم يمزق أحشاءه

وعقب هذا الحديث سكوت قصير دل على الرضي ثم عاد فرانز الى الحديث
قائلاً : على ماذا عولت ؟
- على ان أرى نائب علي رجاء .
- وماذا تقولين له ؟

- أقول له إني مستعدة لاستقبال علي رجاء للامتنال لما يريد . لكنني
أشترط شرطاً واحداً ، وهو قتل تلك النورية التي قد تطالبني بثروة أمها ،
أي أختي .

- ومتى عزمتم على مقابلة السير جيمس ؟
- غداً .

-- هل أصبحك اليه ؟
- كلا ، لأنني أذهب اليه وحدي في الساعة العاشرة .

فانحني فرانز إشارة الى الامتنال ، ثم شرب جرعة من الشاي ونظر الى
ما حواليه ، كأنه خشي أن يكون أحداً سمع الحديث . فلم ير أحد
لأن روكامبول كان قد توارى عن الأنظار ، وكانت الساعة الأولى بعد
منتصف الليل .

بعد ذلك ببضع ساعات اي في الساعة الثامنة من الصباح ، ذهب روكامبول
الى منزل السير نيفلي وطرق الباب ففتح له احد الخدم فقال له : السير نيفلي
في المنزل ؟

- كلا يا سيدي .
- والسيدة ؟
- هي أيضاً خارج المنزل
- كيف ذلك ؟

إنها خرجت من المنزل مساء امس ولم تعد بعد .

- في أية ساعة ؟

فاضطرب الخادم وقال : الحق يا سيدي اني لا أعلم شيئاً من الحقيقة ،
كسائر خدم المنزل لقد أذنوا لنا أمس بالانصراف ولما عدنا في الساعة
الثالثة من الصباح ، رأينا جميع الأبواب مفتوحة ، ولم نر السيد ولا
السيدة .

فارتعش روكامبول إذ كان يعلم انهم لا يجدون السير نيفلي ، ولكن اختفاء
فاندا لم يخطر له في بال فدخل الى المنزل والعرق البارد ينصب من جبينه وقلبه
منقبض أشد الانقباض .

- ٢٥ -

لنعد الآن الى فاندا ، لقد تركناها منذرة وقد رأت تيمبلون وشيفيوت
واقفين في الباب بعد ذهاب روكامبول .

وكل من قرأ الأجزاء الماضية يذكر ما كان في صدر شيفيوت هذه من الحقد
على فاندا حين أطلعت رصاصة على صدرها وأنقذت انطوانيت من قبضتها . وقد
عرف القراء في الجزء السابق ان روكامبول لقيها وهي تحمل تلك الطفلة الموشومة
وهي ابنة ناديا فضمامها الى حربه يوم جرد باتير من عصابته ، وعهد بالطفلة اليها
والى صاحبة الخمار .

فأقامت شيفيوت مع صاحبة الخمار ، بعد سفر روكامبول الى انكلترا ،
ثم وسوس الخناس بين المرأتين فاختمتسا ، واضطرت شيفيوت الى ترك
الخمار والطفلة .

ولم تكن شيفيوت قد خضعت لروكامبول إلا لما تولاها من الرعب فذهبت
في البدء الى خمارات باريس ، وعادت الى عيشتها السابقة ومشاركة اللصوص

الى ان طاردهم البوليس ، فالتجأت معهم الى الشارع الأميري ، وهناك لقيت
باتير فحككت له ما اتفق لها مع صاحبة الخماره وحكى لها اتفاقه مع تيميلون
وهي واثقة من فوزه ، لاسيا بعدما عرفت ان ابنته قد ماتت وبات حراً مطلقاً
لا يخشى روكامبول .

أما فاندانا فلما رأت هذين العدوين الشديدين واقفين بالبواب ذعرت
ذعراً شديداً وخطر لها ان تفر منها وتلقي نفسها من النافذة الى الحديقة
وأسرعت الى النافذة ، غير ان حبل السير جس كان لا يزال معلقاً في عنقها
وطرفه ملقى على الأرض فأسرع تيميلون ووضع رجله عليه وأسرعت شيفيوت
الى الخنجر الذي تركته فاندانا على الطاولة . أما تيميلون فإنه أخذ طرف
الحبل بيده وشده فضغط على عنق فاندانا ، واضطرت مكروهة الى ان تتبعه
حذراً من ان تختنق .

وقد حدث جميع ذلك بسرعة عظيمة فقال لها تيميلون : لقد قبضنا عليك
هذه المرة ولا سبيل لك الى النجاة بعد الآن .
ودنت منها شيفيوت وصفعتها صفقة شديدة صاحت لها فاندانا صيحة ألم
بصوت مختنق وحاولت شيفيوت ان تخنقها بيديها فحالت تيميلون دون قصدها
وقال إرجعي لا أريد ان تخنقها .

فاعترضته شيفيوت وقالت : من عساه يكون أولى مني بخنقها ولا يزال أثر
رصاصها بصدري ؟
- هو مسأ تقولين . ولكن الوقت لم يحن بعد ، وثقي اني لا أدع أحداً
يخنقها سواك .

وعند ذلك دخل باتير فقال لها تيميلون بلمهجة السيادة . أوثقا يديها وضعها
منديلاً في فمها كي لا تصيح ، لأننا سنجتاز مسافة شاسعة قبل الوصول الى
حيث نسير

وبعد ذلك بربع ساعة كانت فاندانا ملقاة في مركبة وهي موثوقة اليدين

والرجلين بحراسة شيفيوت وباتير فركب تيميلون بازاء السائق وسار بالمركبة الى جهة الشارع الأميركي .

ولقد وصفنا هذا الشارع للقراء ، وكان من شأنه في ذلك العهد الذي نقص فيه هذه الرواية انه كان ملجأ أميناً للصوص ، لأن الجنود طالما طاردتهم في ذلك المكان فكانت تندحر عنهم كل مرة بخسائر ، لكثرة ما كان فيه من العقبات والدهاليز الخفية التي يلجأون اليها ، ولما عجزت الشرطة عنهم تركتهم وشأنهم .

وقد اتفق مرة لتيميلون حين كان بوليساً سرياً ، انه اكتشف موضعاً في ذلك الشارع لا يعرفه أحد وذلك ان لصاً سرق مرة مبلغاً كبيراً من المال ، فقبضت الحكومة عليه ولكنها لم تعثر بالنقود . فأرسلت اليه تيميلون كي يغريه على الإقرار فاتفق معه على ان ينقذه من السجن ، ويقسم وإياه النقود اذا أرشده اليه ، فرضي اللص كي ينقذه كما وعد . فأعطاه مبرد لكسر قيوده وقال له : إذا أقبل الظلام وكسرت قيدك ، أسرع الى النافذة تجد حبلاً معلقاً فيها ، فتمسك به واخرج من السجن تجدني في انتظارك

وفي المساء كسر اللص قيده وكان الظلام حالكاً والنافذة على علو شاهق فخرج اليها واعتصم بالحبل فما نزل خطوة حتى انقطع الحبل بدهام تيميلون فانقلب يهوي الى الأرض وتحطم ومات وفاز تيميلون وحده بالنقود وبمعرفة ذلك المكان الخفي .

فلما وصلت المركبة التي يقودها تيميلون الى الشارع الأميركي سار بها الى منعطف خفي فأوقفها ونزل الى فاندا فحل قيود رجلها وقال لها : يجب ان تسيري معنا الآن الى حيث نريد واني لا اريد قتلك لكنك اذا حاولت الهرب قتلتك في الحال دون إشفاق .

فلم تجد فاندا اولى من الامتثال وسارت يخفها باتير وشيفيوت ويتقدمهم

تيميلون ليرشدهم الى الطريق .

وساروا نحو ربع ساعة حتى اقتربوا من الآبار فقال باتير: أعرف بشراً خفية
ألا تريد ان تراها ايها الرئيس ؟

فقال تيميلون : إن الآبار التي تعرفها انت يعرفها سواك ولا اريد أن يرى
أحد هذه الأسيرة الجميلة .

— الى اين اذن نسير ؟

— الى بشر الشيطان .

— إنها بشر شهيرة لا يذهب اليها أحد من الناس

— ذلك لأنه لا يوجد بينكم من يعرف مدخلها . أتعرف مدخلها أنت ؟

— كلا ولم أجد أحد من الرفاق يعرفه .

— اذن اتبعوني لأنني اقدم منكم في المهنة وأعرف ما لا تعرفون . وانت
ايتها الحسناء لا تنسي ما قلته لك ، لان حياتك موقوفة على إشارة
تبدو منك .

وسار بهم تيميلون في طريق مقفرة لا يسلكها أحد من الناس ، حتى
انتهى الى سور قديمة تهدم معظمها لتقادم عهدها .

فدخل منها الى حديقة مهجورة ذلت أغصانها ، فسار الى آخرها ووجد
هناك كثيراً من الاحجاب والأدغال بعضها فوق بعض ، فالتفت الى شيفيوت
وقال لها : إحصي جيداً على الاسيرة . وأنت يا باتير هلم معي الى إزاحة هذه
الأدغال والحجارة .

فاقترب باتير منه وتعاون الإثنان على إزاحتها فانكشف لهم فم بشر عميقها
نحو مترين، فألقى تيميلون نفسه فيها وأخرج من جيبه شمعة وكبريتاً فأثار الشمعة
وجعل يفتش في البشر ويمر يديه على جدرانها . فكان باتير وشيفيوت ينظران
معجبين وفاندا تنظر نظرة الرعب وقلبها ينذرهما بمصاب وان هذا الرجل يعد
لها عقاباً هائلاً لا يخطر إلا في بال الأبالسة

وعثرت يد تيميلون بالجدار بينما كان يبحث فرأوا ان ذراعاه قد دخلت في الجدار ، ثم شاهدوا حجراً ضخماً قد سقط وفتح فيه منفذ يكفي لمرور إنسان ، فعاد وعليه دلائل الفوز الى الطرف الاخير من البشر وقال لباتير : هات الاسيرة الآن .

فحمل باتير فائدا بين يديه وادلاها الى البئر بالحبل الذي كانت موقوفة به ، ولما بلغت الى البئر قال لها تيميلون . انزلا انتما الآن . فنزل باتير وتبعته شيفيوت فرأيا ان ذلك المنفذ الذي فتح في الجدار يؤدي الى سرداب طويل .

فقال لها تيميلون : احرصا على الاسيرة الآن .
فقالت له شيفيوت : أتريد ان أخنقها ؟
- كلام يحن الوقت بعد .

ثم دخل من المنفذ الى الدهليز قائلاً : اتبعوني .

فدخلت فائدا وتبعته شيفيوت وهي تنهال عليها بأقبح الشتائم وسار باتير وراءهم فكان تيميلون يتقدمهم ويده الشمعة فيضطر الى الانحناء من حين الى حين لقلعة ارتفاع قبة السرداب .

ثم وقف أمام باب ضخيم من الخشب ، وكان له قفل كبير مفتاحه فيه ، فأدار المفتاح ففتح الباب وهب منه هواء بارد يدل على شدة الرطوبة في هذا المكان .

فدخل تيميلون وتبعه جميعهم ووجدوا قهواً متسعاً لا منفذ منه وجعلت الجرازين والفيران تتراكض مندعة بين أرجلهم ، فقال تيميلون لفائدا بلهجة المتهمك : أرجو على الأقل ان لا تمس سيدتي في هذه القاعة ، لان لها رفاقاً فيها .

ثم أشار إشارة الى باتير فقلب فانسدا الى الارض وتعاون مع شيفيوت على تقييد رجلها وتركها ملقاة على ظهرها . فدنا تيميلون وأخرج الكمامة

من فيها وقال : لا بأس من ان تصرخي وتستغيثي فمسي ان ترسل اليك الاقدار
من يعينك

فنزرت فاندا نظرة احتقار وقالت له : اني لم أخف ولن أخافك فافعل
بي ما تشاء .

فقلت لها شيفوت : سيكون لك خير غذاء فكلي من هذه الجراذين الى
ان تأكلك .

فاضطربت فاندا وهالها ما سمعته من هذه الشقية فقالت . ليكن ما
يريد الله ، ولا بد لروكامبول ان يبحث عني ويحذني ، والويل لكم
ايها الاشقياء .

فقال لها تيميلون : وانا في انتظار ذلك أتمنى لك ليلة مباركة

ثم خرج مع رفيقيه فساد الظلام في القبو وسمعت فاندا صوت قفل الباب
وصرير المفتاح ثم سمعت خطوات اولئك الاشقياء هنيئة وانقطع بعد ذلك ولم
تعد تسمع غير صوت الجرذان .

ولما صعد تيميلون الى سطح البشر الاول ، وضعوا الحجارة والادغال على
بابه كما كانت .

وقالت شيفوت لتيميلون : لقد احسنت بهذا الانتقام غير اني كنت اؤثر
أن أخنقها بيدي .
- لماذا ؟

- لاننا نضمن موتها .

- نعم ولكنها اذا ماتت خنقاً تموت دون عذاب .

- لقد أصبت ايضاً ولكني أخشى ان يدركها روكامبول .

فضحك تيميلون وقال : وأنا ارجو ان يدركها روكامبول فقد نصبت
له الفخ .

... أي فخ تعني ؟

- فاندأ .

ثم سار الثلاثة في سبيلهم دون ان يوضح لها تيميلون مقاصده .

- ٢٦ -

في صباح اليوم التالي اي بعد بضع ساعات من زمن القبض على فاندأ والسير جس ، حيث وقع احدهما في قبضة روكامبول والآخر في قبضة تيميلون ، فتح صاحب الخمار التي يقيم فوقها مرميس وجيبسي خمارته جاء حاملان يحملان اثاث تيميلون ليضعاه في الغرفة التي استأجرها في منزله بصفة شيخ الخدامين .

وكان تيميلون يسير وراءهما متنكراً ، فدخل الى الخمار وطلب الى صاحبها ان يعطيه مفتاح عرفته فأعطاه المفتاح وقال له : لقد انتظرتك امس فلم تحضر .

فاعتذر له تيميلون عذراً مقبولاً ، ثم دعاه الى ان يشرب كأساً معه فرضي الخمار شاكراً وجلس الاثنان حول مائدة بينما كان الحمالان ينقلان الاثاث الى الغرفة

وفيا هما يتحدثان بدرت التفاتة من تيميلون الى سطح القبو المعد لتخزين الحمر فانتبه وجعل ينظر نظرة المراقب .

والعادة في ايام الشتاء حين تكثر الوحول ، ان كل خمار وتاجر وصاحب قهوة وغيرهم يضع الرمال في أرض دكانه او مخزنه كي لا يلوثها الداخلون اليها لوبالوحول فتظهر آثار اقدامهم على تلك الرمال .

وقد استلقت أنظار تيميلون انه رأى آثار أقدام مختلفة فوق سطح قبو الخمار ورأى أولاً آثار قدمين حافيتين فعلم انها قدما الخمار نفسه لأنه خلج

حذاءه حين النزول الى القبو ، ثم رأى آثار قدمين ضخمين ورأى بينهما آثار حذاء لطيف ، فدخلته الظنون وترك الحمار هنيئة بحجة مراقبة أثاثه وخرج الى الشارع .

وكانت الوحول لا تزال على حالها في ذلك الشارع من الليلة السابقة ، لأن الكناسين لم يكونوا قد أزاحوها بعد ، ورأى فوق تلك الوحول آثار الأقدام نفسها التي رآها على رمال سطح القبو . فاقترفاها ورأى أثر عجلات مركبة وقفت قرب منزل الحمار ولاحظ آثار الأقدام قد احتجبت عند هذه العجلات ، فأيقن ان الذين دخلوا الى القبو هم الذين قدموا بالمركبة .

وعاد تيميلون الى غرفته وأطلق سراح احد الجمالين وأعطاه اجرته وبقي الآخر وهو باتير الذي كان متنكراً بلباس جمال ، فقال له باتير : إني أنتظر أوامرك .

— صبراً لأرى إذا كان الطير لا يزال في القفص .

ثم قام الى الجدار وأزاح عنه الورق ونظر من الثقب الذي ثقبه فيه كما تقدم ، فرأى منه ان جيبسي لا تزال نائمة ، ورأى قرب سريرها مرميس جالساً حول مائدة عليها كتاب مفتوح وقد وضع رأسه بين يديه وجعل يقرأ في ذلك الكتاب ، لأنه كان يدرس اللغة الانكليزية كما أمره روكامبول باعتناء عظيم رجاء ان يتعلمها ويتمكن يوماً من محادثة من يحب فيها .

فسأله باتير ألا يزال في الغرفة ؟

أشار اليه تيميلون إشارة المصادقة ثم سد الثقب بقطعة من العجين كانت في جيبه وأعاد الورق الى ما كان عليه وعاد الى باتير قائلاً : إن الطير لا يزال في قفصه ولم يبق علينا إلا إيجاد السير نيفلي — من يعلم ماذا صنع به روكامبول

— أظن اني أعلم . لأن روكامبول قد جاء أمس مع ميلون الى هذا المنزل

ودخلا الى الحارة .

- كيف عرفت ذلك ؟

فضحك تيميلون وقال : إنك أيها الأب له لم تكن إلا لصاً ولكنك لم تخدم البوليس . لمصغ إلى الآن تعلم .

ثم ذهب وإياه الى آخر الغرفة فجلس كل منهما على كرسي وجعل تيميلون يكلم باتير همساً قائلاً : أتذكر اننا حين ذهبنا ليلة أمس الى منزل السير نيفلي رأينا مركبة واقفة قرب باب الحديقة .

- نعم .

- إن هذه المركبة كانت لروكامبول استخدمها لاختطاف الانكليزي ولم نكن نستطيع عند ذلك مقاومته لأنه كان مع رجاله وهو أشد منا فاكتفينا باختطاف فاندنا .

فقال باتير ، عند ذكر فاندنا : إني لا أزال على رأي شيفيوت بشأن هذه المرأة .

- ما هو رأي شيفيوت ؟

- ان نقتلها في الحال ونأمن شرها .

فهمز تيميلون رأسه وقال : لقد قلت لك ان لي مأرباً في الابقاء عليها ، فلا تجادلني .

وأخفى باتير رأسه إشارة الى الخضوع . وعاد تيميلون الى حديثه السابق وقال : إن روكامبول اختطف الانكليزي في مركبة ، وقد وجدت آثار عجلات مركبة قرب منزل هذا الحمار ، ورأيت في خمارته أثر حذاء ضخم عرفت مساميره في الأرض ، وهو حذاء ميلون دون شك الذي كان يحمل الانكليزي على كتفه ، ورأيت بقربه حذاء لطيف لا شك عندي ان صاحبه روكامبول .

- أتظن انهم جاؤا به الى هنا ؟

- بل أوكد .
- إذن إن الحمار شريك لهم .
- وهذا لا ريب فيه .
- أين تظن انهم وضعوا الإنكليزي ؟
- لم أعلم بعد وربما وقفت على الحقيقة هذا المساء . إصنع إلي الآن انه يجب ان تجتمع بشيفيوت .
- إنها تلتظرن في زاوية شارع مرتين .
- إذن اذهب اليها وسيرا معاً الى بشر الشيطان بالطعام الى فاندالاني لا أحب ان تموت جوعاً بل أحب ان تبقى في قيد الحياة لحاجتي اليها الآن ، ولا أظن ان الجرذان أكلتها
- وحاول باتير ان يعترضه فقال له تيميلون ببرود : ألا تريد ان تلتقم من روكامبول ؟
- أعندك شك في ذلك ؟
- إذن أعلم انك إذا خالفت أقل أمر من أوامري لا أكون مسئولاً عن شيء بل اني أفعل خيراً من هذا وهو اني أعقد الصلح مع روكامبول وأدعك تفعل ما تشاء .
- فماضطرب باتير لهذا الانذار وقال : كفى مر بما تريد .
- تذهب الى فاندال بسلامة من الطعام ، ولا تفارقها الا متى رأيته اكنفت من الاكل .
- .. أيجب ان أحل وثاق يديها ؟
- دون شك ولكنك تعيد وثاقها متى فرغت من الطعام ويجب ان تأخذ معك غدارة .
- لماذا ؟
- لقتل شيفيوت اذا تعرضت لفاندال بشيء من القسوة .

-- سأتمثل لما تريد .

ففكر تيميلون هنية ثم قال لباتير : أنظر الى هذه النافذة ، إنها تطل على الشارع ويجب ان تحضر اليه عند منتصف الليل . فإذا رأيت النافذة مفتوحة إخلع حذاءك واصعد الى غرفتي وادخل إلي كي نفتش عن الانكليزي .

فأتمثل باتير وانصرف لتنفيذ أوامر تيميلون . أما تيميلون فإنه بقي في غرفته الى الظهر وهو يراقب راجياً ان يرى روكامبول وميلون فلم يحضر أحد منها . وفيما هو يحاول الانصراف رأى اثنين من الحمالين يدخلان برميلاً ضخماً من الخمر الى قبو الخمارة والخمار يساعدهم لضخامة البرميل فعرض تيميلون مساعدته على الرجل فرضيها شاكراً .

وعاونهم حتى أدخلوا البرميل الى القبو وهو يراقب كل ما يراه . فلما وصل البرميل الى القبو المظلم أثار الرجل شمعة كي يستنير بها ويضعها موضعه فاندھش تيميلون لأنه رأى في أرض القبو الموحلة اثر الاقدام الذي رآه في الخمارة وفي الشارع .

وبعد ذلك صعدوا جميعهم الى الخمارة فراقب تيميلون باب القبو وشرب كأساً من الشراب مع الرجل وخرج ، فلما مشى هنية في الشارع حتى رأى ميلون قادماً الى الخمارة فقال في نفسه : إنه قادم للبحث عن فاندنا . ثم مضى في شأنه وهو يضحك ضحك الساخر .

وفي الساعة العاشرة من المساء عاد الى غرفته وأضاء الشمعة وفتح النافذة المطلة على الشارع ، وقال : لننتظر الآن الى ان تقفل الخمارة أبوابها ، ويتفرق الناس .

- ٢٧ -

وأقام تيميلون في منزله ينظر من الغرفة المطلة على الشارع فيراقب المارة ويعود الى الغرفة المشرفة على الحارة ، فيراقب زبائنهم . فكانت يسمع أقدام المقيمين في هذا المنزل يصعدون الى غرفهم للمبيت فيها ، وبقي على ذلك الى منتصف الليل فرأى صاحب الحارة أقفل باب خمارته المتصل بالشارع ، ودخل من الباب المتصل بالمنزل الى غرفة له عند مدخل المنزل العام فدخل اليها

كل ذلك جرى وتيميلون يراقب ما حوله كل المراقبة ، حتى اذا انتصف الليل وسمع غطيط النائم ، ذهب الى النافذة المطلة على الشارع فرأى باتير واقفاً ينتظره . فأشار اليه ان يوافيه الى الباب العمومي ، ثم خلع نعليه ونزل ففتح الباب برفق دون ان يسمع له أحداً حساً ، فدخل الاثنان غرفة تيميلون ، وجعلا يتعاهدان بصوت منخفض ، فقال تيميلون :

أرأيت الاسيرة ؟

- نعم .

- ألم تمت ولم تأكلها الجرذان ؟

- كلا ، لاني لم أر في حياتي أشد منها أعصاباً ، وأثبت جناناً بين النساء .

- كيف ذلك ؟

- ألا تعلم أننا أوثقنا يديها ورجليها والقيناها على الارض

نعم .

- ولكننا رأيناها واقفة ولا أدري كيف تمكنت من الوقوف .

- العلمها قطعت وفاق رجليها ؟

- كلا ، فقد كانت موثقة كما تركناها . لكن يظهر انها لقيت عناءاً شديداً

من الجرذان لقد لمحت في خدما أمر العض الموجه ولذلك بذلت جهدهما فوقفت
وسحقت بعض هذه الجرذان .

- أ كانت عليها علائم اليأس ؟

- كلا ، بل كانت هادئة رابطة الجأش . وقد حاولت شيفوت ان تسيء
اليها فمنعتها .

- وهل أكلت ؟

- بشبهة عظيمة فلاني حللت وناق يديها ، ولما انتهت من الطعام أعدت
الوثاق فما أبدت مقاومة .

- أبدر منها شيء يدل على أملها بالنجاة ؟

- لم تقل كلمة بهذا الشأن لكنها هادئة .

- سيان عندي كيف كانت غير ان المهم ان نسرع بالعمل .

- أعلمت اين هو الانكليزي ؟

- بالتقريب ، هلم بنا .

ثم قام تيميلون الى خزانة وأخذ منها حبلاً وضعه في جيبه وقال لباتير :
إعلم ان خطراً عظيماً يتهددنا لان جميع عصابة روكامبول يقيمون في
هذا المنزل ، وأخصهم من رجال عصابةك القدية ، فإذا شعروا بنا كنا
من المهالكين . ولذلك يجب الانتباه الشديد ولا سيما حين نزولنا الى السلم كي
لا يشعر بنا الحمار .

- سأكون على خير ما تريد ، وما زلت أرجو أن أنتقم من
روكامبول !.

- كل آت قريب

ثم أخذ من خزانته حلقة ضخمة فيها كثير من المفاتيح المختلفة وخرج من
الغرفة الى السلم ، فكان تيميلون يقف عند كل درجة ويصفي فلا يسمع غير
غطيط النائم .

فلما وصلا الى آخر السلم عطفوا الى قبو الخمار فجعل تيميلون يمد يده على الباب متمسكاً بقلبه حتى عثر به فقال لرفيقه : إن كسر هذا الباب سهل ولكنني أخشى ان ينتبه لصوته النائمين .

ثم أخذ المفاتيح من جيبه وجعل يحيرها في القفل بصبر عجيب حتى فتح ، ودخل اليه مع باتير وأقفل الباب ثم أضاء شمعه وجعل يفحص هذا القبو فحسباً مدققاً فلم يجد أثراً للأسير فطرق كل موضع في جدرانها على يحد باباً سرياً فلم يجد ، ففتح البراميل وأزاحها من موضعها فلم يعثر بشيء . ثم أرجعها الى ما كانت عليه وجعل يفحص الارض فرأى عليها آثار الاقدام واتبعها فرأى انها انتهت عند منتصف أرض القبو فقال في نفسه : لا بد ان يكون تحت هذا القبو قبو آخر . فأعطى الشمعة لباتير ووضع أذنه على الارض وأصغى إذ قال في نفسه إن الاسير منها بالغوا بشد الكرامة على فمه فإنه يستطيع الانين . لكنه لم يسمع شيئاً فماد الى تجربة اخرى وهي انه جعل يزيل الوحول والاعربة عن المكان الذي انتهت اليه آثار الاقدام فأنكشفت له حلقة ضخمة ففرح فرحاً عظيماً وتعاون مع باتير على رفع الحلقة فارتفع معها باب من الخشب كانت مغروسة فيه وانكشفت له من تحت هذا الباب بشر عميقاً نحو ثلاثة أمتار .

وعند ذلك أخذ الشمعة من باتير وأدناها من فم البشر فرأى جسماً ممدوداً على الارض لا حراك فيه فوقف شعر رأسه من الذعر لانه خشي ان يكون قتيلاً ، وإذا مات السير جس ضاعت أمانيه .

غير انه بقي له شيء من الرجاء فأخذ الحبل الذي أحضره معه . فلف بعضه على وسط باتير وعقده ، فقال له باتير ماذا تصنع ؟
- سوف ترى ، ثبت قدميك في الارض

ثم أمسك الحبل ونزل الى البشر والشمعة بيده ورأى السير جس ممدوداً فلمس جسمه فراه بارداً فوضع يده على قلبه فوجده ينبض فأجال نظره في القبو فرأى طاقة مفتوحة تنفذ الى المزاريب فانتبه للعسال وقال إنهم لم

يدعوا هذه النافذة مفتوحة إلا التماساً للهواء كي لا يموت ، فهو إذن غير ميت ، وإنما قد سقوه مخدراً فأصابه ما أصاب انطوانيت حين أخرجوها من سجن سانت لازار .

وحاول ان يستوثق من صحة ظنه ففتح فم السير جمس ونظر إلى لثته فوجدها حمراء وذلك يدل على الحياة فقال في نفسه : سنتم البحث في غير هذا المكان والمهم الآن اخراجه من هذا القبر .

وعند ذلك أخذ حبله الطويل فلفه تحت ذراعي السير جمس وعقده ثم تسلق على الحبل حتى بلغ سطح البشر فاستعان ببائير ونشلا السير جمس من البشر .

فلما رآد بائير اضطرب وقال : انه ميت وأية فائدة لنا منه ؟
- كلا ، ولو كانوا يريدون قتله لقتلوه في منزله ولم يتكلفوا عناء نقله إلى هذا المكان .

- ولكن جسمه بارد وقلبه ساكن ولا أثر للحياة فيه .

فضحك تيميلون ضحك المشفق وقال : يظهر جلياً انك لا تعرف شيئاً من أعمال روكامبول .

فدعر بائير ذعراً شديداً بدت لوائحه على وجهه فقال له تيميلون : ألعلمك كنت تحسب مخاصمة روكامبول من الأمور السهلة .
- كلا ، ولكن لم يخطر في بالي انه يحمي ويميت

- بل هو يفعل أكثر من ذلك فاذا كان الخوف قد تولاك فلا يزال الوقت فسيحاً لديك

فتحمس بائير وقال كلا ، ان ثقى بك أعظم من خوفي منه .

وعند ذلك ركع تيميلون أمام السير جمس وهو يعيد النظر اليه ، وكما حدق في وجهه رأى ان حالته تشبه الحالة التي كانت عليها انطوانيت فيزداد وثوقاً بحياته

وكان باتير يراقبه فلما رأى دلائل الرجاء على وجه تيميليون قال له :
إذن هو حي ؟

- دون شك .

- ماذا عزمتم ان تفعل ؟

- يجب ان نرجع كل شيء الى ما كان عليه فانهم لا بد ان يدخلوا الى القبور
ثم يجب ان نحمل السير جمس الى غرفتي .

فجعل الاثنان يصلحان الهرايميل وأعادا باب البئر الى موضعه وأرجعا
الوحول والثراب الى ما كانت عليه حتى اختفى أثر الباب فأمر تيميليون باتير
بحمل السير جمس فخرجوا من القبور واقفلا بابه وصعدا يجمس إلى غرفة تيميليون
دون ان يشعر بهما أحد .

وبعد ان وضعه فوق سريره قال باتير : انك تؤكده انه حي ولكنني ضائع
الرشد دون شك فكيف يرد اليه الصواب ؟

- لا حاجة إلى ذلك فهو يفتق من قلقاء نفسه .

- متى ؟

- انه شرب الخمر ليلة امس وسيستفيق ليلة غد كما جرى لأنطوانيت .

- وما يجب ان نصنع من الآن الى الغد ؟

- يجب ان نهم بروكامبول .

فالتقت عينا باتير بشعر الحقد ، وفتش تيميليون جيوب السير نيفلي فلقى
فيها اوراقاً مالية تبلغ قيمتها الف ريال فسر بها وقال : سنحارب بهذا المسال
روكامبول ويمجبنني من الانكليز انهم يدفعون نفقات الحروب ، ثم اخذ من
هذه الأوراق ٣٠٠ فرنك دفعها لباتير قائلاً : أذهب الآن كما اتيت وسأقفل
البواب الخارجي بعد ذهابك ، وفي صباح غد تذهب الى منزلي في شارع
بلفرنند ثم تقابل البواب وتعطيه هذا المال وتكلفه عني ان يشتري لي
برميلا من البارود .

- فمجبب باتير وقال له : ماذا تريد أنت - تصنع بالبارود ؟
 -- ستعلم ذلك فيما بعد .
 - أهذا كل ما تأمرني به ؟
 - كلا ، بل يجب أيضاً أن نذهب إلى امرأة عجوز تقيم في شارع فيلديو
 ولا بد أنك تعرفها .
 - ما اسمها ؟
 -- فيليبيت .
 - عرفتها ؟
 - إذن أرسلها إلي فأني بحاجة اليها .
 - ومتى يجب أن أعود ؟
 - في الليلة القادمة في مثل هذه الساعة ..
 وانصرف باتير لتنفيذ أوامره وبقي تيميلون وحده أمام السيرجيس .

- ٢٨ -

بينما كان تيميلون منصرفاً بكل قواه إلى الانتقام بعد أن ضحى حياته
 مقدماً في سبيله ، وبينما كان يعد الوسائل الجهنمية لبلوغه أمانيه كانت فاندرا
 لا تزال سجنينة في بشر الشيطانات .

وقد علم القراء كيف دخلت إلى هذا السجن ، وكيف أن تيميلون أوثق
 يديها ورجليها ، وأمر باتير حين أرسله بالطعام اليها أن يحميها من شيفيوت .
 وقد أقامت في تلك البئر يوماً وليلة كانا لديها كالأدهار لفرط ما لقيته من
 الهول في مطاردة الجرذان غير أنها لم تيأس وكانت تذكر روكامبول في ساعاتها
 الهائلة فتطمئن نفسها وتقول : اليس هو الذي أنقذ أنطوانيت من سجن لارار

فأماها وأحياما؟ اليس هو الذي أنقذ مدلين من مخالب مورليكس ، وقد ذهب للبحث عنها في أقصى سيبيريا؟ اليس هو الذي أنقذ جيبسي من النار وقد وضعها الحناقون على المحرقة؟ إذن هو ينقذني دون شك ولا خوف علي ان يقتلني تيميلون إذ كان هذا قصده لفعل ، وقد يكون مراده أن يميتني جوعاً ، لكنني أستطيع الصبر على الجوع أربعة أيام ولا بد لروكامبول أن يهتدي إلى سجنني في خلال هذه المدة فإنه يبحث عني الآن دون شك لأنه لم يجدني في منزل السير نيفلي .

وكانت قد الفت تلك الظلمات المكتنفة بها وتلك الجراذير التي كانت تجول بين قدميها ، ولم تكن تعلم المسكينة كم مضى عليها من الزمان في تلك البئر ، لأن الظلام كان سائداً فيها ، ولا ينفذ إليها نور النهار

وفيما هي على ذلك سمعت عن بعد أصواتاً ووقع أقدام ، ورأت أشعة من النور تنفذ إلى سجنها من خلال الباب ، وجاشت نفسها بالأمل وقالت : ألا يمكن أن يكون روكامبول قادماً لانقاذي ؟ ولكن ساء فألها لسوء حظها ، لأن الباب انفتح ورأت باتير داخلاً تصحبه شيفيوت فقالت في نفسها : لقد دنت الساعة ، وما هما قادمان إلا لقتلي ، فعملت على الدفاع بأسنانها لأنها كانت موثوقة اليدين والرجلين .

إلا أن باتير طمأنها بقوله : إننا قادمان بطعام العشاء لسيدتي الدوقة .

وقالت شيفيوت تباً لك من شقية ، لقد أكرهوني على أن أحضر لك العشاء وأنا لا أريد إلا أن أمتص دم عروقك .

وأجابتها فائدة بنظرة احتقار وأخرج باتير مسدساً من جيبه وقال لشيفيوت : إنك تعلمين أوامر الرئيس ولا تضطرينني إلى تنفيذها فيك أو أقتلك لا محالة .

وعضت شيفيوت شفتها من القهر وقالت : حسناً .. سأصبر

أما فائدة فلأنها استنتجت من ذلك ان تيميلون لم يحكم بموتها بعد وبالتالي

فهي تستطيع أن تأكل آمنة من أن يكون الطعام مسموماً .
وبينما كان باتير يحل وثاق يديها كانت شيفيوت تخرج الأكل من السلة وتضعه
أمام المصباح الذي جاءت به ، وكانت الجرذان تهرب متبعدة حين رأت اشعة
النور ، وشيفيوت تنهك على فاندأ وتشتتها بأفصح الألفاظ .

وكان هذا الطعام مؤلفاً من خبز وجبن ودهن خنزير ونصف زجاجة من
النبيذ وجعلت تأكل بشهية وهي غير مكترثة بما تسمعه من الشتائم وتمكنت
من أن تأخذ قطعة من الدهن وتجلس عليها .
ولما انتهت من طعامها أوثق باتير يديها وذهب مع شيفيوت وأقفل الباب
وانصرفا ، فعادت الظلمات إلى ما كانت عليه .

غير أن فاندأ بينما كانت تأكل والنور أمامها كانت تتظاهر بالاشمزاز من
شتائم شيفيوت وتنظر إلى جدران البشر نظر الفاحص فرأت أن جدرانها كثيرة
الثقوب والحفر ورأت في أعلى أحد الجدران ثقباً يشبه عش الطيور فخطر لها
في الحال خاطر الفرار .

وكان باتير قد أوثقها وأبقاها على ظهرها فوق الأرض غير أن يديها كانتا
مقيدتين وبقيت أصابعها معلقة دون قيد فجعلت تبحث بأصابعها في الأرض
عن قطعة الدهن التي اقتصدتها من الطعام حتى عثرت بها وجعلت تمسح بها واثق
يديها حتى إذ ابتها كلها فوق الوثاق
وعند ذلك انقلبت على بطنها بحيث أصبحت يداها بارزتين لأنها كانتا
مشدودتين وراء ظهرها .

وكان النور قد زال وانقطعت الاصوات فعادت الجرذان إلى الطواف حول
فاندأ ولكنها لم تنتهرها في هذه المرة بغية ارهاها وإبعادها بل أنها سكنت ولم
تتحرك كأنها أصبحت نائس بالجرذان .

وشم الجرذان رائحة الدهن فأقبلت تلمسه فوق وثاق يدي فاندأ فتلمس
الوثاق ثم تطلب المزيد فتقرضه بأسنانها الحادة كل ذلك وفاندأ صابرة لا تتحرك

والجرذان تلعب فوق ظهرها وتتلهي بقرص الوثاق لما رأت عليه من الدهن فلما أحسست ان الجرذان قد اكملت كثيراً من الوثاق حتى ضعف تحركت حركة عنيفة فتفرق الجرذان من حولها ثم شدت الوثاق فقطعته وصارت مطلقة اليدين وعند ذلك حلت بيديها وثاق رجلها وأصبحت قادرة على استعمال أعضائها وسحق الجرذان برجليها ولكنها لم تنزل أسيرة بسجنها المظلم .

وفيا هي مستندة الى الجدار تعمل الفكرة في طريقة النجاة شعرت ان الجرذان تتراكم وعلمت من صياحها انها منذرة كأنها فاجأها عذر ولم تكن تتوقع مفاجأته فرفعت عينيها في احدى زوايا البئر فرأت نقطتين تديران كالقنبر في نفسها لا شك انها عينا هرة وان الله ارسلها لي معيناً على هذه الجرذان

ولم يطل وقوف هذه الهرة فان فاندأ رأتها وثبت وتلا وثوبها صبيحة الجرذان فدنست فاندأ من الهرة وانتهرتها فهربت وتسلفت مقدار متر من الجدار ثم وقفت والتفتت فرأت فاندأ يريق عينيها وعرفت الطريق التي سارت فيها فتقدمت فاندأ أيضاً فصدت ووقفت في مركز أعلى فمدت فاندأ يديها ومشت الى الجدار الذي تسلفته الهرة حتى وصلت اليه .

وكانت جدران البئر كثيرة الثقوب وقد عرفت فاندأ ذلك حين كان باتير في البئر فأنها رأت الحفر على ضوء مصباحه .

وقد كانت رأت أيضاً شبه كوة في مرتفع الجدار فقالت في نفسها لا شك ان هذه الكوة منفذ الى الخارج خفي عن تيملون وإلا لما نفذت الهرة الى هذا المكان فوجه لديها أمل الفرار فأخذت تتسلق الجدار بصبر عجيب فتبحث بيديها عن الثقوب فاذا ظفرت بها تعلقت بها ثم جعلت تبحث برجليها عن ثقوب اخرى تركز عليها فاذا صعدت واستقرت تراح قليلاً ثم تعود قليلاً الى البحث عن ثقوب أعلى فتتسلقها وتلدش فيها يديها ورجليها .

كل ذلك والهرة تحتفي وتغيب فتشدها ببرق عينيها الى الطريق .

ولبثت على ذلك نحو ساعة وهي معرضة للسقوط في كل حين حتى أو شكت أن تبلى إلى آخر الجدار واختفى عنها أثر المنفذ ولكنها شعرت بأنفاس حامية تهب فوق شعرها فعلمت أنها أنفاس الهرة فزجرتها فهربت وولجت من المنفذ فاهتدت فأندا إليه ولم يكن غير هنيهة حتى نشبت يديها بأطرافه وأمنت السقوط .

وكانت هذه الكوة كبيرة يستطيع الإنسان أن يمر بها وهي منفذ دهليز طويل لا يزيد ارتفاعه عن متر فدخلت فأندا إليه وعللت نفسها بقرب النجاة فجعلت تزحف على بطنها فيه زحف الأفاعي فلم يطل زحفها حتى رأت نوراً خفيفاً يتجلى لها فعلمت أنه نور النهار .

وكان الدهليز كثير التماريج فجعلت فأندا تزحف على بطنها حتى رأت عن بعد عشرة أقدام ذلك المنفذ الذي يخرج منه النور ففرحت فرحاً لا يوصف ولم يعد لديها شك بالنجاة لا سيما وقد رأت أن الدهليز يرتفع سطحه ويتسع كلما دنت من المنفذ بحيث لم تعد في حاجة إلى الزحف وبلغت ذلك الثقب الذي يخرج منه النور ورأت أنه يشرف على بشر أخرى لا سطح لها لأنها رأت النور يتدفق فيه من جميع الجهات .

غير أن هذا الثقب كان ضيقاً جداً يستحيل على الإنسان أن يمر منه مهما كان نحيلاً ففحصته فأندا وصاحت صيحة يأس لأنها رأت أن المنفذ من صنع الطبيعة لا من صنع الإنسان وهو في صخر أصم لا يفيد في توسيعه غير الآلات ومن أين تجدها في سجنها الضيق .

ولكنها جعلت تنظر من هذا الثقب إلى البشر المشرف عليها فرأت في أرضها كثير من الرمال ومصطلي للنار وبعض أخشاب متفرقة وأباريق مكسرة فاستدلت من ذلك أن بعض اللصوص يلجأون إلى هذه البئر ويبيتون فيها فقالت في نفسها : أنهم قد يحضرون فأطعمهم بالمال فينقذوني وعند ذلك عاد إليها الرجاء بالنجاة .

ولبثت على ذلك عدة ساعات تستنشق هواء نقياً وهي آمنة من الجرذان ثم رأت ان النور جعل يضعف بالتدريج فعلمت ان النهار قد انقضى وبعد حين أقبل الليل وساد الظلام .

وقد خطر لفاندا أن ترجع على أعقابها وتعود الى البئر التي وضعت فيها حذراً من ان يعود تيملون ورجالهم فيفطنون اليها ولكنها سمعت عند ذلك حركة في البئر التي يشرف عليها المنفذ فعلمت انها وقع اقدام ثم رأت شبحاً أسود وسمعت صوت امرأة تقول : حبذا لو كان باقياً أثر للنار فان البرد يقتلني .

ثم رأتها تبحث في الرماد عليها تجد ناراً مخبوءة فرأت بقية من نار فنفتخت فيها ووضعت فوقها الاخشاب فرأت فاندا على لهيب النار وجه تلك المرأة وتهدت تنهد المنفرج بعد اليأس .

- ٢٩ -

وانعد الآن الى تيملون فلقد تركناه أمام السير نيفلي وهو لا يزال غائباً عن الصواب وكان ميلون أمر باتير ان يبحث له عن امرأة تدعى فيليديت ويرسلها اليه وان يعود هو نفسه اليه في الليلة القادمة .

كان ميلون قد وضع السير نيفلي في غرفة داخلية بعيدة عن السلم بحيث لو استيقظ وصرخ لما يتولاه من الاندهاش لا يصل صوته الى الخارج ويستطيع ميلون أن يظهر له كل شيء فاضطر لهذا السبب أن يبقى في المنزل الى ان يستفيق إذ لو صبحا ووجد نفسه منفرداً وفي الحالة التي كان عليها فلا بد له من الضجر والخروج من المنزل فينفذ الأمر .

وقد فات ميلون لأنها كانت بالسير نيفلي أن يأمر باتير بارسال الطعام الى فاندا وجلس بالقرب من الانكليزي يراقبه ويتوقع صحوه من حين الى حين .

أما فيليببيت التي كان ينتظر قدومها ، فقد كانت في بدء أمرها من بنسات الهوى ، فلما دالت دولة جمالها ، وانقطعت أسباب رزقها ، جعلت ترتزق من السرقة وقد خدمت تيميلون باخلاص في كثير من الأغراض .

وفي الساعة العاشرة من الصباح جاءت هذه المرأة الى تيميلون ، فأدخلها الى المنزل وأقفل بابه ، ودار بينهما الحديث الآتي ، فقال تيميلون : ماذا تصنعين ؟

— لا أزال أعمل بالمهنة التي تعرفها ، غير ان البوليس منتشر في كل مكان وقد ضيق علينا سبل الارتزاق .
— أين تبيتين في الليل ؟

— كنت أبيت في الأسبوع الماضي في الشارع الأميري .
— والآن ؟

— اضطرت الى المبيت في بشر في ضواحي هذا الشارع لكثرة ما لقيته من مطاردة الجنود ، وهذه البشر لم يحضر اليها أحد بعد واني أبيت فيها منذ ثلاثة أيام وحدي .

فأخذ تيميلون ورقة كبيرة بيضاء ورسم عليها طريق جميع الآبار التي يعرفها وقال لها : أنظري في هذه الخريطة ، ودليني على مكان البشر التي تبيتين فيها .

فنظرت اليها نظراً مدقاً وأرشدته الى المكان فأنذهل لانه علم انها تنام في بشر مجاورة للبشر التي سجن فيها فاندا وقال لها : ألم تجدي في أسفل هذه البشر ثقباً صغيراً تحت صخر أصم ؟
— لم ألاحظه .

— ولكنك بت فيه ثلاث ليال كما تقولين ، ألم تسمعي صوت امرأة تستغيث ؟

- كلا ومن اين تأتي الاستغاثة ؟
- من جوف الأرض !
- لم أسمع شيئاً وفوق ذلك إني أنا سكرى لا أعى على شيء .
- ولكن إن أردت ان نتفق على عمل ، أول ما أشرطه عليك أن لا تسكرى .
- أتريد أن أمتنع عن الشرب مدة طويلة ؟
- يومين فقط .
- فتنهدت وقالت : كيف أطيق الصبر يومين ؟
- متى علمت انك ستكسبين ٢٠٠ فرنك .
- إذا كان ما تقول إني أَرْضَى ولا أشرب غير الماء . قل ماذا تريد أن أصنع ؟
- عاد تيميلون الى الخريطة ودلها على المكان المسجونة فيه فاندا فقال لها :
- إنك تعلمين هذا المكان ألم تجدي هنالك سوراً او حديقة مخربة ؟
- نعم رأيتها ودخلت الى الحديقة أيضاً .
- ألم تجدي بها بشراً مغطاة بالأغصان والحجارة ؟
- نعم نعم ويخال لي إني أراها من هنا .
- إذن إعلمي ان هذه البئر يوجد تحتها بشر اخرى لها باب محكم الاقفال ، ولهذا البئر كوة في أعلى جدارها تنفذ الى سرداب يتصل بالبئر التي تنامين فيها ، واذا بحثت في بئر تجدين في أرضها ثقباً صغيراً يظهر لك منه السرداب ولكن هذا الثقب ضيق لا يمكن لجسم أكبر من جسم الهرة ان يمر منه وهو في صغر أصم بحيث لو أراد البناءون توسيعه بالآلات لما استطاعوا ذلك إلا بشغل يومين على الأقل .
- وقد سجنتم في هذا البئر امرأة لا بد ان تسمعي صوت استغاثتها .
- وإذا سمعتها تستغيث أوجب ان أسكت ؟

- كلا بل إنك مخرجين من بشرك وتذهبين الى الحديقة فتزيلين الأدغال وتزيلين الى البشر التي حبست فيها المرأة ، وتجدين باباً قوياً لا تستطيعين كسر أقفاله .

- وأية فائدة من ذهابي إلى هذا الباب ؟

- إنك تحاولين كسره ولا تستطيعين . عند ذلك تعلم تلك المرأة الموثوقة اليدين والرجلين إنك تريدن إنقاذها فتستغيث بك وتعهد اليك قضاء مهمة في شارع سانت لازار .

- أذهب الى حيث ترسلني ؟

- دون شك ، لكن يجب ان أراك في الساعة السابعة من صباح غد في زاوية هذا الشارع .

- أهذا كل ما تريد ؟

- نعم وبعد ان أراك تذهبين الى حيث ترسلك المرأة .

- ولكنك أنت الذي سجنك هذه المرأة ، فكيف تريد أن ينقذها سواك ؟

- إذهبي الآن في سبيلك وستعلمين كل شيء .

فامتثلت المعجوز وذهبت فعاد تيميلون الى غرفة السير نيفلي وهو يقول : سيكون روكامبول غداً في قبضتي .

- ٣٠ -

وقد عرف القراء الآن ان هذه المرأة لقيتها فانسدا في البشر لم تكن إلا فيليببيت .

وكانت هذه المعجوز قد حافظت على عهدهما مع تيميلون فلم تشرب قدحاً

مدة النهار بطوله ، فلما عادت الى البشر كانت صاحبة ، وقد ذهبت في البدء الى البشر التي دخلت منه فانداء ، فوقفت عند بابه مدة طويلة فلم تسمع صياحاً ولا استغاثة .

فعدت الى بشرها وجعلت تنفخ النار كما تقدم في حين ان فانداء كانت في الدهليز أمام الثقب المشرف على البشر .

وكانت فانداء تنظرها وهي تنفخ النار من الثقب . ولكنها لم تتبين وجهها لضعف نور اللهب ، فبعد ان ترددت هنيهة عزمّت على الركون اليها والاستغاثة بها فبدأت بالسعال كي تسترعي سمع المعجوز ، فسمعت المعجوز سعالها وتظاهرت بالاندهمال العظيم وقالت : من عسى يوجد في هذا المكان ؟

وأجابتها فانداء من الثقب وقالت : يوجد امرأة تعيّسه تكاد تموت من الجوع .

فأخذت المعجوز قطعة ملتهبة من الخشب وأدنتها من الثقب ورأت وجه فانداء وقالت لها : من أنت وكيف وصلت الى هنا ؟
- إني أسيرة في هذه البشر وقد برح بي الجوع .

وقد أدركت فيليبيت في الحال انها أسيرة تيميلون ، وانها تمكنت من حل وثاقها والبلوغ الى الدهليز . ولكنها تظاهرت بالاندهمال وقالت لها : كيف تمكنت من الدخول الى هذا الدهليز وهذا الثقب ضيق لا يمكن أن يمر به إنسان ؟

- إني لم أسجن بهذا الدهليز ، بل في بشر تتصل به . وإن في هذه البشر كثيراً من الجرذان فقضمت وثاق يدي ، وفككت بعد ذلك وثاق رجلي . وبعد البحث الطويل رأيت منفذا بلغت منه الى هذا المكان ، وكنت أرجو أن أستطيع النجاة ، ولكن الثقب ضيق ولا سبيل الى الخروج منه .

- ومن الذي سجنك ؟

- رجل يكرهني ويريد ان يميتني جوعاً .

فأخذت المعجوز قطعة خبز من جيبها وقالت : خذي وكلي فلأنك لا تموتين جوعاً بعد ان اهتمديت اليك . لكن ألا يوجد طريقة لإنقاذك ؟

- إنك عجوز لا تستطيعين كسر باب البئر التي سجنك فيها لكنك تستطيعين ان تدعي لي الرجل الذي يهواني .

- ألك عشيق ؟

- نعم وهو من كبار الأغنياء وسيمهيك مالا يكفيك الى آخر العمر .

فارتعشت فيليببيت كأنما خطر لها ان تخون تيميلون ، وكانت فاندرا لا تزال بالملابس التي كانت عليها حين اختطفها تيميلون ولم يكن قد خطر لهم تفتيشها فأخذت كيساً من جيبها وهزته فسمعت المعجوز رنين ماس فيه من الذهب ومدت يدها اليها ، فقالت لها فاندرا : إصفي إلي إنني لست متسولة واني كثيرة المال وكذلك عشيقتي ، لأنه من أصحاب الملايين . وإذا وصلت اليه وأخبرته بأمرتي وأنقذني أعطاك مائتي جنيه ، عدا ما أمنعه إياك أنا من الهبات .

فاضطربت المعجوز اضطرباً شديداً وذكرت ان تيميلون لم يعسدها إلا بخمسة عشر ديناراً ، في حين ان هذه المرأة تعدها بثروة عظيمة ، فقالت لها : قولي يا سيدتي اين هو عشيقك هذا ، لأنك تريدين ان أذهب اليه دون شك ؟

- نعم ، وهو يقيم في شارع سانت لازار نمرة ٥٢ ، واسمه الماجور أفاتار .

- إنه اسم غريب أخاف ان أنساه وأنسى اسم الشارع والنمرة .

فأخذت فاندرا ورقة من دفتر كان يجيبها وكتبت عليه باللغة الروسية بضعة أسطر وباللغة الفرنسية اسم الماجور افاتار ونمرة الشارع ثم أعطتها الورقة وقالت

لها : أسرعى اليه وإذا لم تجد فيه في المنزل تجد بين رجلاً ضخماً وهو خادم المنزل وهو يرشدك الى المأجور أفاطار .

- سأفعل ما تريدن وها انا ذاهبة في الحال ولكن ألا تعطيني واحداً من هذه الدنانير ؟

- كلا إنك اذا كان لديك دينار فلا تمرين بخمارة حتى تدخل اليها وتسكري قبل الوصول اليه ولكنك ستكونين راضية أتم الرضى بعد عودتك والآن قولي اين نحن من ساعات الليل ؟
- في الساعة ١١ .

فسرت فاندنا لأنهم لم يحضروا لها الطعام وقالت : لا شك انهم لا يحضرونه قبل الصباح لأنهم لو حضروا ولم يروها بحثوا عنها فوجدوها في الدهليز . فلما ذهبت المعجوز أقامت فاندنا ترجو وتمتظر .

أما المعجوز فلما صارت خاج البئر تنبته لما هي فيه وتنازعها عاملان عامل الاخلاص لتيميلون وعامل الطمع بالمال ، لأن تيميلون وعدما ان يعطيها خمسة عشر ديناراً لكن فاندنا وعدتها بمائتين . فعزمت في البدء على خيانة تيميلون ، لكنها ذكرت ان هذا الداهية كان يخدم البوليس فقالت في نفسه : إنني إذا خنته من أجل المال قبض علي وسلبني ما كسبته وعدت بالخسران .

وفيا هي واقفة هذا الموقف من التردد رأت رجلاً يدنو منها ثم سمعت هذا الرجل يناديا باسمها فعلمت انه صوت تيميلون وقالت له : كيف أتيت الى هنا العلك خشيت ان أخونك ؟

كلا ، ولكن حدث لي ما لم يكن في الحسبان ، بحيث تمكنت من مبارحة المنزل ، وأتيت أتجسس في هذا المكان والآن هل سمعت صراخها ؟

- بل سمعت ما هو خير من ذلك لأنها كلمتني ورأيتها .

فاضطرب وقال : هذا محال لأنك لا تستطيعين المرور من الثقب
- هو ما تقول ولكنها هي تمكنت من الوصول الى الثقب لان الجرذان قرضت
وثاقها فتسلقت الجدار الى الدهليز ووصلت منه الى الثقب ووعدتني باعطائي
مائتي دينار اذا أنقذتها .

فغير تيميلون خطته في الحال وقال : حسناً سنقتسم هذا المال .
- كيف ذلك ؟

- ذلك لأنني لم أقبض أجرة سجنها غير ٤٠ ديناراً .

فظننت المعجوز انها أدركت قصده وقالت له : إذن أذهب الى الرجل الذي
أرسلني اليه في شارع لازار غرة ٥٢ لانها أعطتني رسالة اليه ؟
- دون شك .

ثم أخذ منها الرسالة وجعل يقرأها على نور سيكارة كان يدخنها .

- ٣١ -

وقد عرف القراء ان تيميلون كان متقيداً بالبقاء أمام السير نيفلي ، إذ
كان يخشى ان يستفيق فجأة ويفتضح أمره . أما السبب في وجوده عند بشر
المعجوز ، فهو ان السير نيفلي قد استفاق قبل ان يلتقي تيميلون بالمعجوز
بساعتين .

وكان تيميلون قد أقام طول النهار قرب السير نيفلي وهو يفتح النوافذ من
حين الى حين وينظر الى السير نيفلي فيجده جثة باردة ، ويدكر ان انطوانيت
لم تستفق إلا بعد ٣ أيام ولا بد إذن للسير نيفلي ان يبقى على هذه الحالة يوماً
وليلة أيضاً .

غير انه كان يقول : إن الامزجة تختلف وإن بنية الرجال أشد من بنية

النساء فقد يصحو قبل هذه المدة .

وقد صحت ظنونه فإنه بينما كان يفكر بهذه الامور سمع فجأة تنهداً ضعيفاً خرج من صدر السير نيفلي ، فارتعش تيميلون وأسرع اليه فوجد ان شفثيه قد فتحتا بعد انطباقهما ، ووضع يده فوق قلبه فشعر ان النبض عاد اليه وعادت الحياة .

وعند ذلك أخذ قدحاً ووضع فيه خلا وغمس بأطراف منديله وجعل يدلك صدغيه ثم شفثيه ثم عينييه وكان في خلال ذلك قد خلع تنكره وعاد الى الهيئة التي عرفه بها السير نيفلي في منزله ولم يطل دلكه حتى فتح السير نيفلي عينييه ثم ابتسم وقال له كنت أعرف من أنت إذ عرفتك من صوتك .

فترجع تيميلون منذهلاً وقال : كيف ذلك ؟

— ذلك اني حين شربت ذلك المخدر فقدت كل صوابي ما خلا حاسة السمع فعلمت كل شيء وسمعت حديث فاندنا مع روكامبول وحديث روكامبول مع ميلون في المركبة التي نقلوني اليها وعرفت ايضاً اسم الشارع الذي نحن فيه وهو فيرابو وان جيميسي تقيم في هذا المنزل مع فقي يدعى مرميس ثم علمت ايضاً انهم وضعوني في بئر وأنت الذي أنقذتني منها .

والآن لنتحدث إذ عرفت إنني عالم بكل شيء لقد علمت من حديثك مع امرأة تدعى فيليببيت ان فاندنا في قبضتك .
فقال تيميلون نعم .

— ماذا عزمتم ان تصنع بها ؟

— أن أستخدمها شركاً لقنص روكامبول ثم أقتل الاثنين .

— متى ؟

— كنت أنتظر لتنفيذ ذلك ان تستفيق

— لماذا العلك محتاج إلي ؟

.. كلا .

فابتسم السير جمس وقال : إذن تريد أن تعرض علي شروطك .

فقال له تيميلون : لقد قلت لك أيها الميلورد منذ يومين ان خير جزاء لي هو قتل روكامبول ، ومع ذلك اني فقير وقد صرت شيخاً فإذا أردت أن تساعدني بشيء من المال ، يقيني شر العوز في شيخوختي ، أكون لك من الشاكرين .

- كم تريد ؟

- مائة الف فرنك ..

- سأعطيك هذا المال أهذا كل ما تريد ؟

- وتعطي أيضاً الذين خدموك قدر ما تريد ..

- ليعينوا أيضاً المبلغ الذي يريدونه فلا أبخل عليهم بشيء ، أبقى

شيء بعد ؟

- كلا ، سوى أمر واحد وهو اني أنبئك ان هذا المنزل غاص بأعدائنا

ويجب الحذر الشديد ، أما الآن فقد صحوت فقد وجب أن أبدأ بالعمل .

- إفعل ما تشاء .

وعند ذلك سمع صفيراً من الشارع فقال تيميلون : هوذا باتير قد حضر .

وقال له السير جمس : أهو الرجل الذي واعدته على المقابلة في هذا

المساء ؟

- نعم ..

- إذن أوضح لي أمراً لا يزال خافياً علي ..

- قل ما تريد يا سيدي .

- لماذا أمرت هذا الرجل أن يشتري برميلا من البارود ؟

فأجابه ببرود : كي أنسف به فاندرا وروكامبول ..

ثم عاد إلى التفكير وقال له : يجب الآن أن أذهب للقاء باتير .
- إفعل ما تشاء فلن من كانت له مهارتك لا يتعارض فيما يريد .

- ٣٢ -

ولنعد الآن إلى روكامبول ، لقد غادرناه حائراً مضطرباً في منزل السير
جيمس حين علم من الخدم أن فاندرا غير موجودة فيه ، وقد أجابه الخدم كلهم
جواباً واحداً وهو أنهم خرجوا من المنزل بالاجازة ولما عادوا اليه عند الفجر
لم يجدوا السيد ولا السيدة .

فقال لهم روكامبول عند ذلك : إني صديق حميم للسير جيمس نيفلي ، وأنا
قلقي مثلكم لاختفائه ، وإذا كان لا بد لي من إيجاده وإيجاد السيدة التي كانت
معه يجب أن تطيعوني ، ثم إني مراقب رغبة شديدة وينبغي لاكتشاف الحقيقة
ان لا يعلم أحد من سكان الشارع بشيء مما حدث

ووعده الخدم بالامتثال له وبالكتمان فدخل روكامبول إلى القاعة وأقام
ينتظر .

وبعد ربع ساعة جاء ميلون فقال له روكامبول : كنا نحسب ان الفوز لنا
فإذا نحن مغلوبون .

وحلق ميلون بعينيه وقال : لا أفهم ما تعني .
- أين فاندرا ؟

- يجب أن تكون هنا

- إنهم لم يروها في المنزل منذ الليلة الماضية ، ولا حاجة إلى القول أنهم
اختطفوها .

- من الذي اختطفها ؟

- هذا ما يجب أن نبحث عنه فاتبعني .
ثم مشي أمامه يتبعه ميلون الى غرفة فاندا ، وهي الغرفة التي تخدر
فيها السير جيس ، ففحص أرض الغرفة وقال له : أنظر ألا تجد فيها أثر العراك
والزعمال الموحلة

- نعم . .

- إنهم اختطفوها دون شك ، وقد رأيت هذه الأقدام عند الباب
الخارجي ، وأثر مركبة ذات أربع عجلات ولا بد أن يكونوا استخدموها
لنقل فاندا .

- إذا لم يكن الانكليزي الذي اختطفها فمن تراه يكون ؟
- أخشى أن يكون ذلك من صنع رجاله ، وقد أنفذوا خطة كانت
مقررة من قبل .

فقال ميلون إن ذلك بعيد ايضاً ، لأنه إذا كان الانكليزي أمر رجاله من
قبل كما تقول فلماذا لم يصبر على تنفيذ أمره وحاول قتلها ؟
فاقتنع روكامبول من كلام ميلون ولكنه قال : لا بد أن يكون الذين
دخلوا إلى هذا المنزل على اتفاق مع السير جيس وإلا كيف تمكنوا من الدخول ؟
- إنني لا أرى ما تراه لأنهم إذا كانوا على اتفاق معه كان يجب أن يفتح لهم
الباب بنفسه إذ لم يكن أحد من الخدم في المنزل وإذا كان ذلك ، لماذا لم يقبلوا
لنجدته حين اختطفناه ؟

- لقد أصبت أيضاً فمن تظنه اختطفها ؟

- أظنه ذلك الرجل الالماني الذي تدعونه الماجور هوف

ففكر روكامبول هنيهة ثم قال : إذا صح ظنك فإن هذا الرجل لم يفعل
وحده ما فعل ، ولا بد أن يكون لميلادي دخل بهذا الشأن ، وستحضر
ميلادي لأنها واعدت السير نيفلي على الاجتماع في هذا المنزل .
وفيما هو يقول ذلك سمع صوت جرس الباب الخارجي فأطل من النافذة

المشرفة على الحديقة ، ورأى امرأة نزلت من مركبة ودخلت وهي مبرقة
ببرقع كثيف فعلم روكامبول لفوره انها ميلادي وأسرع الى مناداة إحد
الخدم وقال له : ادخل بهذه المرأة إلى القاعة وسلمها ان تنتظر .
فامتثل الخادم وانصرف ..

أما ميلادي فقد كانت واثقة ان الذي يستقبلها هو السير جيمس نيفلي نائب
زوجها علي رجاء الهائل ودخلت دون حذر ولم تكذب تجلس في القاعة حتى
دخل روكامبول .

وانذهلت ميلادي حين رآته لأنها ذكرت في الحال انه ذلك الرجل الذي
قال انه صديق لوسيان وأوصلها إلى منزل خطيبته وقالت له : كيف اتفق
وجودك هنا يا سيدي الملك تعرف السير جيمس ؟

— انه عهد الي يا سيدي ان استقبلك .
فاضطربت ميلادي اضطراباً شديداً ولكنها اخفت اضطرابها وقالت :
تريد أن تقول يا سيدي ان السير جيمس اضطرب إلى الذهاب لبعض الشؤون
فعهد اليك ان تدعوني إلى الانتظار ؟

— كلا يا سيدي فإن السير جيمس سافر في هذا الصباح إلى لندن .
— إذا لم يبق لي إلا الرجوع من حيث أتيت .
— لا حاجة إلى رجوعك يا سيدي فإن لي سلطة السير جيمس بل لي سلطة
علي رجاء أيضاً .

فانذهلت ميلادي اندهالاً شديداً وقالت : ماذا تقول ؟
— لا يجب أن تنذهلي يا سيدي فإن لرئيس الخنابقين في الهند كثيراً من
النواب في اوربا ..

— ماذا تدعى يا سيدي ؟
— الماجور افاتار وسأذكر لك بأتم الإيجاز ، ما تعلمين منه اني واقف على
كل اسرارك فإن علي رجاء والد ابنك وادك اشتركت معه بقتل ابنيك وبينك

- وبينه أسرار كثيرة تقضي عليك بطاعته .
- فأيقنت ميلادي انه حقيقة نائب علي رجاء وقالت له : بماذا يأمر الرئيس ؟
- سأطعمك على أوامره بعد ثلاثة أيام وقد اذنوا لك امس برؤية ابنك فهل رأيته ؟
- نعم ..
- إذن بعد ثلاثة أيام في مثل هذه الساعة ترينني عند ابنك فتعلمين ما يريد علي رجاء .
- ونهضت ميلادي تحاول الانصراف فودعها روكامبول بلاء الاحترام حتى إذا وصلت إلى الباب قال لها : كلمة ايضاً يا سيدتي .
- ما هي ؟
- لا يوجد في باريس من يعرف شيئاً من علائقي مع الخناقين فإذا أردت السلامة لولدك فاحذري ان يعلم باجتماعنا احد .
- لا حاجة إلى توصيتي وسأكتمها كل الكتمان عن ولدي .
- لا اريد كتمانها عن ولدك فقط بل عن فرائز ايضاً .
- فاحمر وجه ميلادي وقالت : اتعرف هذا السر ايضاً ؟
- اني أعرف كل شيء فاحذري .
- ثم أعانها على الصعود إلى المركبة وعادت إلى الفندق .
- وعاد روكامبول إلى ميلون وقال له : إن هذه المرأة كانت تحسب انها تجدد السير جس ولا تعلم شيئاً من أمر فاندا .
- فقال ميلون : إذاً لا دخل لها في اختطافها .
- اني واثق كل الثقة ..
- ثم وضع رأسه بين يديه وجعل يفتكر .
- وقال ميلون : اصغ الي يا حضرة الرئيس ، إن فاسيليكا قد ماتت والسير نيفلي في قبضة يدنا ، وإذا كانت فاندا قد اختطفت فما اختطفها إلا تيميلون .

فاضطرب روكامبول اضطراباً شديداً وقال : ويحك ما هذا الاسم الذي ذكرته وكيف خطر لك هذا الخطر ؟

- ذلك لأن تيميلون العدو لك .

- هو ما تقول ولكنه غير موجود في فرنسا .

- من يعلم ؟

- وهب، انه الآن في فرنسا فكيف اهتدى إلى فاندرا ؟

- ألم تقل لك فاندرا ان السير نيفلي يحاول قتلها ؟

- نعم ..

- إذاً من الذي انبأ بخيانة فاندرا حتى اراد قتلها وقد كان مفتوناً بها ؟

واتقدت عينا روكامبول ببارق هائل من الغضب وقال : الويل له إذا كان قد تصدى لي

وهز ميلون رأسه وقال : اظن يا حضرة الرئيس ان تيميلون لم يعد يخشاك .

- لماذا ؟

- لأنه لم يعد لديه ما يخافه بعد موت ابنته .

ورجع روكامبول خطوة إلى الوراء وقال : انت واثق مما تقول ؟

- نعم وقد علمت ذلك حين كنا في لندرا .

وعاد روكامبول إلى التفكير إلى ان قال له ميلون : ارى يا سيدي ان

إذا كان تيميلون قد اختطفها فلا يجب ان نضيع الوقت بالتفكير فقد يخشى ان يقتلها .

وجعل العرق البارد ينصب من جبين روكامبول دون ان يحجب فقال له

ميلون يجب ان نخرج من هذا البيت كي نبحث عن تيميلون

- كلا يجب ان تبقى انت هنا فإنه إذا كان تيميلون قد اختطفها فهو حليف

السير نيفلي دون شك، ولديه مفتاح المنزل وهو غير عالم باختطاف السير نيفلي

فاذا كان ذلك فلا بد له من العودة إلى هذا المنزل ليراه .

— أصبت يا سيدي وسأبقى هنا ، وأنت ماذا تصنع ؟
— إني ذاهب للبحث عن فاندا .

مهما يكون الموليس حاذقاً فإنه يضل سعيًا حين بحثه عن مجرم لم يهتد إلى أثر من أثاره .
وكان روكامبول أمهر من أحذق بوليس في العالم كما دلت عليه أعماله إلا أنه في هذه المرة خفي عنه كل أثر ، فان ميلون نبيه إلى تيميليون غير أن مداخلته هذا الرجل لم تكن أمراً أكيداً ، ولا ريب أن فاندا قد اختطفقت ولكن لم يقد دليل لروكامبول أن الذي اختطفها هو تيميليون فرأى روكامبول أن يبدأ بالبحث عن فاندا .

فخرج من المنزل وكان أول ما رآه أثر دواليب المركبة التي عاد فيها تيميليون فرأى أنها قد دارت قبل مسيرها فعلم أنها سارت في جهة الشانزليزه

فلقي جمالاً كان يرود في ذلك الشارع فسأله ، أخبره الجمال أنه شاهد بعد نصف ساعة من منتصف ليلة أمس مركبة مرت بقربه وسمع رجل يقول لسائقها : سر بنا إلى رومانفيل من الشارع الخارحي ولم ينظر الجمال إلى داخل المركبة فلم يعلم من فيها .

فلم يستفد روكامبول شيئاً مما سمعه لأن هذه المعلومات كانت مبهمه فصار في سبيله ولكنه لم يبتعد قليلاً حتى ناداه العتال وقال له : ان مصابيح المركبة كانت حمراء وكان أحد الجوادين أبيض اللون والآخر أسود .

وهذان اللونان كثيرا الشيوع بين جياد المركبات غير أن روكامبول قال في نفسه : لا بد أن يكون قد استأجروا المركبة من هنا فلنرى .

وسار روكامبول إلى أقرب اسطبل فرأى تلك المركبة التي وصفها الجمال واقفة عند بابهِ وعلى دواليبها أثر وحول حمراء وبيضاء وهذه الوحول لا توجد

عادة في شوارع باريس ، فلا بد ان تكون هذه المركبة سارت الى الضواحي
ومرت قبل ذلك بتلك السواقي التي تنحدر فيها مياه المعامل القذرة .
ففتح روكامبول باب المركبة ودخل اليها وقال للسائق : اني استاجر
مركبتك بالساعة .

— إلى أين يريد سيدي ان أسير به ؟

— فنظر اليه روكامبول تلك النظرات الجافة الخاصة برجال البوليس وقال :
إلى ادارة البوليس . فأظهر السائق حركة اشمئزاز قنبه لها روكامبول وسار
بمركبته بالكراهة عنه .

فلما وصلت إلى الشانزليزه اوقف روكامبول السائق وقال له : اننا ذاهبان
إلى دائرة البوليس ولكن لا نصل اليها بوقت قريب كما تظن .

فانذهل السائق وقال : لماذا ؟

— لأنه يجدر بنا ان نذهب توأ الى رومانفيل .

فلم يكف روكامبول يتم جملته حتى بدت دلائل الذعر على وجه السائق فقال
روكامبول : يسرني انك فهمت قصدي كما أرى من اضطرابك فقفا قليلا ، ثم
خرج من المركبة وصعد الى جنب السائق وجلس بقربه وقال له سر الآن
فاني أحب ان احادثك في بعض الشؤون .

— ٣٣ —

إذا كان يوجد فئة بين الناس تخاف البوليس خوفاً اكيداً فهي فئة الحوذيين
ولعل ذلك لكثرة ما ترتكب من الهفوات ولشدة غلظتهم في معاملة من يركبون
مركباتهم ولذلك حسب السائق ان روكامبول من كبار رجال البوليس السري
فهلع قلبه خوفاً ولكنه أخفى اضطرابه قدر امكانه وحاول أن يتظاهر بالجمادة

قوماً منه ان ذلك يدفع عنه المظنة فقال له : ماذا تريد ان تحدثني به وما هذا السلوك الغريب ، رالى اين تريد ان تسير ؟
ونظر اليه روكامبول نظرة هادئة وقال له : لا تحاول الانكار مع مثلي فإنه لا يفيدك ، وإذا سرت بك إلى دائرة البوليس فإنك تقيم في السجن إلى أن ينتهي أمرك .

وقال له السائق بلهجة الخائف : لكن الأبرياء لا يسجنون .
— بشرط أن يثبتوا براءتهم ولا أرى ذلك سهلاً عليك على اني سأقص عليك أمرك بإيجاز كي لا تعود إلى الانكار ، فساعلم أنك أجرت مركبتك في الليلة الماضية .

— دون شك ، وما يعني عن تأجيرها إلا يجب أن أعيش ؟
— نعم ، ولكن ذلك يتعلق بالرجل الذي أجرته إياها ، فإذا كنت لا تريد أن تقول ماذا فعلت في الليلة الماضية فأنا أقول عنك إنك خرجت من شارع ماريليات .
— هذا الشارع الذي أقيم فيه .
— وانك ذهبت منه إلى رومانفيل .

فاضطرب السائق اضطراباً شديداً لم يبق لروكامبول أقل أثر للريب ، فتابع : وكان يوجد في مركبتك امرأة قيدوها ووضعوا الكمامة في فمها .
وتبدل اضطراب السائق باصفرار الوجه ، وتابع روكامبول : إن وجهك ينوب عن لسانك بالاعتراف ، فلنذهب الآن إلى رومانفيل قبل الذهاب إلى البوليس ، واحذر أن تسلك غير الطريق التي سلكتها أمس .
تقال له السائق : أرى يا سيدي انك من كبار رجال البوليس وأحذقهم ولا ينطلي عليك محال .

فابتسم روكامبول قائلاً : لقد حاولوا ذلك كثيراً ولم يفلحوا .
— لكنني أقسم لك يا سيدي إنني لا أعرف الرجلين ولا المرأة التي

- اختطفوها .
- إذا كان يوجد رجلان ؟
- نعم ..
- وإمرأة ؟
- إنك تعلم ذلك أكثر مني .
- ربما .. لكنني أحببت أن أمتحنك لأعلم إذا كنت صادقاً ، فقل لي الآن كيف كان هذان الرجلان ..
- أحدهما طويلاً ضخماً الجثة أبيض الشعر .
- أيدعى تيميلون ؟
- هو ما تقول فاني سمعت الرجل الذي كان معه يدعو بهذا الاسم .
- والآخر ماذا يدعى ؟
- إن اسمه غريب ، لأنني سمعت المرأة تدعوه باتير وهو يدعوها شيفيوت
- وجمدت عروق روكامبول من الخوف والاشفاق على فاندرا وقال في نفسه :
- ما عسى يكون مصيرها بين هؤلاء الأشقياء الثلاثة .
- وبعد صمت قليل قال للسائق : ان خلاصك موقوف على إخلاصك وإلا فالسجن يكون نصيبك لأنك اشتركت مع هؤلاء الأشقياء باختطاف امرأة وربما بقتلها .
- وصاح السائق صيحة رعب قائلاً : أقسم لك يا سيدي اني كنت أحسب الأمر أمر غرام .
- وقد تبين لروكامبول الصدق من مخائله وقال : سر بي الآن إلى رومانفيل وهناك أنظر في أمرك .
- وسار السائق في نفس الطريق التي سار بها ليلة أمس حتى وصل إلى المكان الذي وقف فيه تلك الليلة ووقف قائلاً : هنا أوقفوني يا سيدي ، وساروا بالمرأة .

ونزل روكامبول ورأى أثر اقدامهم جميعهم فعلم ان هذه الطريق مؤدية الى الآبار وقال في نفسه : أما ان يكونوا قد قتلوها وأما ان يكونوا سجنوها في احدى تلك الآبار فاذا كان الأول فقد أتيت بعد الاوان وإذا كان الثاني فلا فلا يزال الوقت فسيحاً لانقاذها وفي كل حال فاني لا استطيع الدخول الى هذا الشارع بهذه الملابس فصبراً الى المساء .

ثم عاد الى المركبة وقال للسائق : عد بي الى باريس فقال له السائق بصوت يضطرب ، الى أين تريد أن اسير بك يا سيدي ؟ قال : الى ادارة البوليس . وقد رأى روكامبول ما أصابه من الرعب فقال له : لا انكر انك اشتركت بالخيانة ولكني واثق انك اشتركت بها دون أن تعلم .

فرجا السائق بعض الخبر وقال : اقسم لك يا سيدي اني بريء .
- ذلك اكيد عندي ولكن قد نحتاج الى النظر في امرك فماذا تدعى واين تقيم ؟

- ادعى امبرواز جبرود واقم في شارع نقطة الذهب نمرة ٣ .
فأخذ روكامبول دفتره من جيبه وكتب ما قاله ثم قال له : سر بي الى الشارع الذي لقيتلك فيه وسوف نرى في امرك .

فتنهذ السائق تنهد الراحة وسار به الى قرب منزل السير نيفل فخرج روكامبول من العربة وقال له : انتظري ثم دخل الى المنزل فرأى ميلون لا يزال فيه فأخبره بجميع ما اتفق له .

- ميلون . إذن يجب ان تذهب الى الآبار في الحال .
- كلا ليس الان فان الاشقياء إذا كانوا قتلوا فاندأ فلا فائدة من ابجائنسا وإذا كانوا سجنوها فلا ينفع البحث عنها إلا في الظلام حيث تختلط مع اولئك اللصوص الذين يبيتون في تلك الآبار .
- لقد اصبت فماذا يجب ان اصنع الى المساء ؟

— يجب ان تبقي هنا فان تيملون لم يختطف فاندا من هذا المنزل إلا وله مأرب فيه فلا بد له من العودة اليه .

ثم تركه وعاد الى السائق وقال له : اذهب الآن في شأنك ولكنني اشير عليك ان تدعى انك مريض فترجع المركبة الى الاصطبل وتذهب الى منزلك فنقيم فيه .

— السائق ببساطة : لماذا ؟

— لأننا قد نحتاج اليك بصفة شاهد وكان يخلق بي ان ارسلك الى السجن غير اني اشفقت عليك لاعتقادي انك بريء ثم اشير عليك بأمر آخر وهو ان الصدفة قد تجتمع بأحد اولئك اللصوص فاحذر ان تخبرهم بشيء مما جرى وأعلم انه يوجد من يراقبك .

فبكي السائق لسروره بالنجاة وانطلق داعياً لروكامبول وهو يجذسه من كبار رجال البوليس .

- ٣٤ -

وفي المساء اجتمع ميلون وروكامبول فلبسا ملابس قديمة وتنكرا وذهبا الى الشارع الاميركي فدخلا الى احدى خمارته وطلبوا كأسين من الشراب وجعلوا يراقبان زبائن تلك الخمارة وهي خليط من اللصوص والمتشردين وفيما هما على ذلك دخلت امرأة وهي تبكي وتستنجد بأولئك اللصوص وتقول : لقد اوشك ان يقتلني هذا الخائن ولم أجد بين الرفاق من يدافع عني فلو لم اهرب لاجهز علي .

وقال لها أحد الحاضرين : من هذا ؟

— هو ليون الذي كان يتفانى في غرامي ورغب عني بحب زبلى الفتاة التي

تقيم في شارع فيرابو .
وانتبه روكامبول انتباهاً عظيماً عند ذكر اسم فيرابو وعادت المرأة إلى حديثها وقالت : أتعلمون كيف أصبت بهذه الخيانة . . إن هذه الفتاة التي تدعى زبلى جاءت إلى الشارع الأميركي منذ أسبوع لأن صاحب الخمار في شارع فيرابو ظردها من منزله ، وجعلت تقص علينا القصة وتروي لنا حديث غلام يدعى مرميس .

وكان بين الحاضرين باتير ، فأراد ان يعرف أين يقيم مرميس فأبّت ان تخبره ، وحاول ضربها ، ولكن صاحب الخمار تداخل وعرف العنوان ، ولا أعلم كيف اني اشقت على هذه الفتاة وتوليت حمايتها وصحبته إلى البشر التي أقيم فيه ، وفي اليوم التالي جاء ليون واخبرنا ان البوليس عازم على كسب الشارع فهربنا وأخذت زبلى ولم يمض ٣ أيام حتى ملكت قلبه فطردني وحلت هذه الغادة مكاني .

وفي هذه الليلة حاجني الحقد إلى الانتقام منها فما زلت أبحث عنها حتى عثرت بها في خمار قرب بشر الشيطان ، ولكن ليون كان معها وبدلاً من أن انتقم منها انتقم مني ، فإن هذا الخائن انهال علي بالضرب الأليم ، حتى أوشكت أن أموت ولم أجد من يحميني

ولما وصلت بحكايتها إلى هذا الحد أظهر روكامبول انه تمس حديثها ودنا منها قائلاً : أنا انتقم لك من هذا الرجل ، لقد راق لي جمالك .
ونظرت إليه الفتاة نظرة المنتقد وقالت : وأنت تروق لي أيضاً لأنك جميل ..

— نعم وقوي أيضاً ..

— إذاً أحبك بشرط أن تنتقم لي من ليون .
— بل أسحقه سحقاً ولا يعود بعدها إلى الخيانة .
والثف اللصوص حول روكامبول ولم يكونوا قد رأوه من قبل وجعلوا

يسألونه من هو ومن أين اتى فأجابهم : أنا منكم وقد اتيت من اميركا (اي من السجن حسب إصطلاحهم) .
ثم نظر الى الفتاة قائلاً لها : اتردين ان تسهبي معي الآن للبحث عن هذا الرجل ؟

- انتقم لي منه امامي ؟
- بلاريب ، بل انتقم لك من كل من يحاول الانتصار له .
ثم تأبط ذراعها وخرج بها وتبعهما ميلون وقال لها ومما على الطريق : اني سأنتقم لي ولك على السواء فإنك انت حاقدة على باتير .
- لا اظن انك تجده في المحل الذي نحن ذاهبون اليه ؟
- لماذا ؟
- لأنه منذ عدة أيام لم نره فيه .
- لا بأس وسنرى .

وسارت بهما تلك الفتاة حتى بلغت الى المسكان الذي وقفت فيه المركبة ، ورأى روكامبول آثار اقدام تيميلون فارتعش لاسيما حين رأى الفتاة تسير في الجهة التي سار فيها تيميلون .

وما رالوا يسرون حتى انتهوا الى الخهارة المحيطة ببئر الشيطان ومروا عدة مرات بهذه البئر المسجونة فيها فاندا دون ان يفتنوا لها إذ لم يكن احد يعرف مدخلها .

وقد ذهبوا الى كل تلك الخهارات فلم يجدوا ليون ولا زبلى حتى اضنكهم المسير وانتهوا قرب الفجر الى خهارة فدخلوا اليها وكانت الفتاة قد مسها الجوع ، فجعلت تأكل وتفرط في شرب الخمر حتى دب النعاس في اجفانها واطبقت عينها وقام روكامبول وتبعه ميلون ودفعها ثمن الأكل والشرب وخرجا من تلك الخهارة والمرأة نائمة فيها ، ولم تنتبه اليهما .

وعاد الاثنان الى منزل روكامبول فغيرا ملابسهما ثم ذهبا الى منزل السير

نيفلي وعلمنا من الخدم أنه لم يحضر أحد إلى المنزل فعاد روكامبول إلى منزله وأرسل ميلون إلى بيت الخمارة حيث تقيم جيبسي فأخبره الخمار أن فتاة تدعى زبلى جاءت إلى البيت وطلبت أن ترى مرميس وطردتها لعدم ثقي بها وعاد ميلون إلى روكامبول وأخبره بما كان ، فأمره أن يعود إلى الخمارة وأن ينتظر فيها عودة زبلى ، وإذا عادت وعلم منها ما تريد يرجع إليه ويخبره ، فامتل ميلون ومضى .

وأقام روكامبول ينتظر في منزله وكان يثق ثقة تامة بذلكاء فأندا ويقول في نفسه : انها إذا كانت سجيننة فلا تعدم وسيلة لاختباري .

ومضى النهار ولم يعد ميلون واستدل من ذلك ان زبلى لم تعد إلى بيت الخمار قبل الليل

ولما أوشك روكامبول أن ييأس سمع صوت مجادلة في صحن الدار وذلك ان امرأة كانت تريد ان تدخل إلى روكامبول والخدام يمنعها ، فأسرع روكامبول ليعلم سبب هذا الخصام ورأى فيليبيت بملابس المتسولات تحمل بيدها تلك الورقة التي كتبت عليها فأندا إلى روكامبول تخبره انها سجيننة بأمر تيميلون وتدعوه إلى ان يتبع حاملة الرسالة كي ترشده إلى مكانها .

ففرح روكامبول وجعل يتأهب للمسير مع فيليبيت .

- ٣٥ -

وانعد الآن إلى تيميلون ذلك إننا تركناه مع فيليبيت وقد أخذ منها الورقة التي كتبتها إلى روكامبول فقرأها ثم ردها إلى المعجوز .

وكان قبل ذلك غادر السير نيفلي بعد أن أوصاه بالخطر الشديد وذهب لمقابلة باتير فلقية ينتظره في عطفة الشارع وسأله : ماذا صنعت بالبرميل والفتيل ؟

هيات كل شيء، ووضعت كل المعدات في البشر .
 فنظر تيميلون في ساعته وقال : نحن في الساعة التاسعة الآن بحيث
 نستطيع أن نرى فيليبيت قبل ذهابها :
 ثم ذهب الاثنان فأقام باتير عند البشر المسجونة فيه فاندأ وذهب تيميلون
 الى البشر التي كانت فيه المعجوز فلقبها تتأهب للرحيل .
 ولم تكن المعجوز تعلم شيئاً من مقاصد تيميلون كما انها لم تكن تعرف شيئاً
 عن الماجور افاتار ، ولما أطمعته على رسالة فاندأ سر بها وقال : أرى ان
 التوفيق يخدمنا كما نريد .

- كيف ذلك وماذا يجب أن أصنع ؟
 - تذهبين بهذه الرسالة الى صاحبها وأنت تعرفين عنوانه .
 - اظن انه يعطيني المائة دينار ؟
 - بل اريب وسوف نقلسمها
 - أقسم بالله إذا وصل هذا المبلغ الى جيبي لأقضي بقية العمر بين الخمر
 والقناني فأصل السكره بالسكره ولا أستفيق ما حييت .
 وضعك تيميلون وقال : ستدالين ما تطمعين به على شرطين أحدهما أن
 لا تسكري سلفاً ، والثاني أن تطيعيني في كل ما أريد .
 - سأكون لك أطوع من بنانك فقل ما تشاء .

وأخذ تيميلون بيدها وقال لها : لقد بت عدة ليالي في هذه البشر دون
 أن تعلمي شيئاً من أسرارها ، فاعلمي ان هذه الثقب الذي كلمتي منه المرأة
 السجينة منحوت من الصخر الأصم لا يمكن توسيعه إلا بآلات ضخمة تستلزم
 وقتاً طويلاً وفوق ذلك فهو لا ينفذ الى البشر ، بل الى الدهليز ، إلا أنه يوجد
 في طرف هذه البشر التي تقيمين فيها منفذ آخر ينفذ الى البشر التي فيه السجينة
 من دون ان يعترضه الدهليز ، وهذا الثقب ضيق كالثقب الأول ، إلا انه
 منحوت من الحجارة الطرية المبنية وكل من كان معه مطرقة يستطيع توسيعه

- بأقرب وقت ، وإذا كان لديه حبل ادلاه الى البشر وبلغ ما يريد .
- أين هو هذا المنفذ فاني لا أراه ..
- هو في طرف البشر مغطى بالأدغال ، وإذا وصلت الى هذا الرجل الذي أرسلتك اليه السجينة تخبرينه انه يجب ان يحضر معه حبلًا ومطربة إنمسا اجتهدني ان تقبضي منه المال مقدماً ..
- لماذا ؟
- لأنني لا أعلم ما يتفق وقد هوي الى البشر عند نزوله اليها .
- فابتسمت وقالت : أظن اني فهمت قصدك .
- لا شك عندي بذلك وإذا فقدت جزائه ولا تفقدن جزائي إنمسا احذري هذا الرجل كل الحذر .
- وأنا انفقت نصف عمري في السجون .
- ثم افترقا فذهبت المعجوز الى روكامبول وذهب تيميلون الى باتير ولقيه ينتظره عند فم البشر وقال له : لننزل الى البشر فاني احب ان أرى المهمات التي احضرتها .
- ثم نزل الاثنان فأثار باتير مصباحاً وجعل تيميلون يفحص برميل البارود والفتيل فأدخل الفتيل بالبرميل ووضع البرميل عند باب القبو ثم قال : ان هذا البارود يكفي لنسف البشر وما يحاورها .
- العلك اعددت له لروكامبول ؟
- بلا ريب ، أما هو جدير بهذه الميثة ؟
- وبرقت أسرة باتير بأشعة الفرح واجاب : بورك فيك ، لأن هذا الانتقام لا يخطر في بال أحد من البشر .
- اما الآن فلم يبق علينا إلا امر واحد
- ما هو ؟
- ان نضم ايدينا في جيوبنا وننتظر .

- ننتظر من ؟

- ننتظر ان يقع الطير في الشراك .

- اني فهمت ما ستفعله بالتقريب ولكني لم اعرف طريقة الوصول الى قصدك ...

- صبراً وسترى كل شيء فان روكامبول لا يستطيع النجاة إلا إذا كان من الأبالسة ..

ثم قال لباتير : لا تفه بحرف ولا تكلمني إلا إذا كلمتك

أما فيليبيت فانها كانت وصلت الى روكامبول واعطته رسالة فاندرا كما قدمناه ، ونظر روكامبول الى هذه العجوز ، وعرف لأول وهلة انها من اولئك النساء اللواتي نزلن الى اقصى درجات المجتمع الانساني ولكنه امنن في الرسالة وعلم ان الخط خط فاندرا ، ولم يكثر بالرسول ، ثم انه يقن ان فاندرا في قبضة تيميلون ، وإذا تمكنت من إغراء من يحمل رسالتها فإن هذا الرسول لا يمكن الا ان يكون من اتباع تيميلون .

أما هذه العجوز فقد كانت متوقدة الذهن شديدة الدهاء ، حين لا تكون سكري وكأنا علمت ما يحول في خاطر روكامبول فقالت له بلهجة تبين منها الصدق : اني خاطرت يا سيدي خطراً عظيماً في سبيل الوصول اليك ، إذ لو علموا بخيانتك لقتلوني دون شك ولكن السيدة التي ارسلتني اليك قالت لي انك كريم وانك تمنحني مائتي دينار .

- اطمئني ، ستنالين هذا المال ..

وذكرت العجوز وصية تيميلون وقالت له : اني اؤثر يا سيدي ان اقبضه في العاجل .

- كلا ، اني لا ادفع لك شيئاً قبل إنقاذ السيدة التي ارسلتك

فستكتت العجوز ، لكن روكامبول علم من سكوتها انها لا ترشده الى مكان فاندرا إلا إذا رأت المال ، فقال لها اتبعيني .

ثم تقدمها الى غرفته وفتح درجاً كان فيه كثير من الأوراق المالية فأراها إياها وقال اتعرفين قيمة هذه الأوراق ؟

فهزت المعجوز رأسها وقالت : لقد جمعت كثيراً منها في أيام صباي .
واخذ روكامبول ٤ اوراق تبليغ قيمتها ٢٠٠ دينار ثم اقبل الدرج قائلاً لها : متى اوصلتني الى مكان الأسيرة اعطيتك هذه الأوراق .
ورأت المعجوز من صحة عزمه ان كل جدال لا يفيد فقالت له : لقد رضيت فہلم بنا ..

— الى اين نمضي ؟

— الى جوار الشارع الأميركي فقد حبسوا السيدة في بشر لا يتسدي اليها أحد وليس هذا كل الذي أريد ان أقوله لك إذ يجب التأهب لإنقاذها ولو كنت في عهد الشباب لما احتجت اليك وذلك لأن لهذه البئر ثقباً ضيقاً يقتضي لتوسيعه مطرقة ويد قوية ويقتضي لإنقاذها حبلاً طويلاً .

.. سنأخذ ما تحتاج اليه على الطريق ثم دخل الى غرفة أخرى فوضع في جيبه مسدسين وتسليح بخنجر وعاد فخرج وإياها وركبا مركبة فأمر السائق ان يسير بها الى شارع فيربوا .

ولما وصل الى الخهارة ترك المعجوز في المركبة ودخل فلقبي ميلون ومورت وامرأة عرف روكامبول انها مرتون وهي تملك المرأة التي كانت مع انطوانيت في سجن سانت لازار وكان معها ظهها وهو نايم تحت الطاولة فأسرخ الجميع لاستقباله وقال روكامبول لمرتون : ماذا تصنعين هنا ؟

.. أرسلتني فتاة تدعى زبلي كي أحذر مرميس من تأثير فانه يريد به شراً — لقد عرفت جميع ذلك .

ودنا منه ميلون وقال : أعرفت شيئاً عن فاندا ؟

— نعم . ثم نادى روكامبول الخهارة وقال له : احضر حبلاً متيناً طويلاً ومطرقة حالاً .

— أين تذهب أيها الرئيس ؟
 — لأنقاذ فاندنا .
 — إذن أتيت لتأمرنا ان نصحبك .
 — كلا ، إذ يجب ان تبقوا هنا فان تيميلون وباتير لا بد انهما يرودان حول المنزل ويجب الحرص على جيبيسي
 فقال له ميلون : ألا يكفي أيها الرئيس مورت والحمار ومزميس ومرتون لحراستها ؟ فدعني أصحبك في هذه المرة فأني خائف عليك .
 فأراه روكامبول المسدس والخنجر وقال متى كان هذا السلاح معي فلا خوف علي وإنما الخوف على جيبيسي فأحرصوا عليها ولا تغفلوا طرفة عين عنها .
 — إنما قل لي إلى أين أنت ذاهب .
 — إلى الآبار المجاورة للشارع الأميري .
 وعند ذلك جاء الخمار بالمطرقة والحبل فأخذهما وذهب إلى المركبة حيث كانت تنتظره المعجوز فصعد إليها وقال للسائق : سر بنا الآن إلى الشارع الأميري .

— ٣٣ —

أما فيليببيت فانها قلققت حين رأت روكامبول عطف على شارع فيربوا ودخل إلى الخمارة ولكن ما لبثت ان رأت عاده وحده حتى أطمأنت وقالت في نفسها : ماذا يهمني ان أعلم ما فعل في هذه الخمارة المهم عندي ان اتال الجراء من هذا الرجل او من تيميلون .

وسارت بهما المركبة فجعل روكامبول يسألها أسئلة مختلفة فحككت له ببساطة تاريخ حياتها وذكرت له كيف انها سمعت سعال فاندنا من الدهليز وهي

في البشر وكيف أنها رأتهما من الثقب ثم أنها وصفت له البشر والدهليز والثقب وصفاً دقيقاً وقالت : اني سمعت حكاية السجينة من فمها فعلمت انه لا يقدم على هذه الأعمال إلا تيميلون .

— أتعرفين إذن هذا الرجل ؟

— نعم ، وقد اشتغلت معه فيما مضى من زماني الى ان بات يخدم البوليس فانفصلت عنه وقد اتفقت مع السيدة السجينة على أن تعطيني مائتي دينار فأنا ارجو ان أعيش بهذا المال بقية ايامي .

ولما وصلت المركبة الى الشارع الأميركي أوقفها روكامبول فصرف سائقها وقال للعجوز : اتبعيني فاني أعرف الطريق الى بشر الشيطان ولكني لا أعرف مدخلها ، فسارت في أثره حتى وصل الى البشر الذي كان مختبئاً فيها تيميلون وباتير .

وعند ذلك تقدمته العجوز وقالت : قد وصلنا فاتبعني . فتبعها روكامبول دون ان يخطر له وجود اللصين في البشر ولو كان معه كلب مرقون لعلم بأمرها ولكن الكلاب امتازت عن الأنسان بحاسة الشم .

وعطفت العجوز عطفة فوصلت الى بشرها ونزلت اليه فنزل روكامبول في أثرها ودنا من الثقب فنادى فاندأ فأجابته بصيحة فرح لا تدرك وصفها الأقلام . وأمر روكامبول العجوز ان تشعل شيئاً من الأخشاب والأعشاب اليابسة ففعلت ورأى بنورها ان توسيع الثقب محال .

فقال له فاندأ : اني لم أدخل من هنا كما ترى ، ثم وصفت له البشر وبابه الخشبي والدهليز الذي هي فيه .

فقال لها روكامبول : إذا سأعود الى باب البشر فأكسره .

قالت العجوز : أن الباب متين ولا تكفي هذه المطرقة التي معك لكسره غير اني أجد طريقة اسهل واقرب من كسر الباب .
ما هي ؟

— انه يوجد في طرف هذه البئر ثقب آخر ينفذ رأساً الى البئر ولا يعترضه هذا الدهليز وهو من الحجارة اللينة بحيث يمكنك توسيعه بمطرقتك في أقرب حين ولديك حبل طويل تبلغ به بعد ذلك مرادك .
— لقد أصبت فأين هو هذا الثقب ؟
فكشفت المعجوز عنه الأدغال فرأى انها مصيبة فيما قالت .

فقال لفاندا : ارجعي الى البئر فساعمل برأي المعجوز .
— اسرع فان قواي قد تلاشت من السهر والجوع ، ثم جعلت تزحف في الدهليز حتى وصلت الى الجدار فنزلت متمسكة بشقوقه كما صعدت ولم تكبد تبلغ الأرض حتى سمعت صوت سقوط حجارة ضخمة فعلمت ان روكامبول قد وسع الثقب لا سيما وقد رأت كوة عظيمة قد فتحت في سقف البئر .
وكان روكامبول قد استعان بالمطرقة فبلغ ما أراده من توسيع الثقب وأيقن من صدق المعجوز فننادى فاندا من الثقب كي يعلم إذا كانت قد وصلت اليه فأجابته .

فقال لها : سأنزل اليك فإنك لا تستطيعين الصعود على الحبل .
ثم أخذ روكامبول ذلك الحبل الطويل المتين الذي أحضره معه وربط طرفه بصخر ضخم ، وشد وثاقه ، وأيقن من متانته وأمسك الحبل وجعل ينزل الى البئر .
وكان يجب على المعجوز أن تطلب اليه في هذه الساعة ما وعدها به من المال ، إلا أنها خشيت أن يفطن إلى الحيلة .

وعند ذلك سمعت المعجوز وقع أقدام في البئر فالتفتت ورأت تيميلون مشهراً بيده خنجراً ، وقد أسرع إلى الحبل المشدود بالصخر فقطعه ، وسمع على الفور صوت سقوط روكامبول على الأرض وصيحة صعدت اليه من أعماق تلك البئر .

وكان هذا الصوت صوت دعر فان المرء مهما بلغ من بسالته وجراته لا

يسمعه إلا الاندفاع حين يحدث ما حدث لروكامبول .
وقد أجاب صوته صوت آخر وهو صوت فاندنا فان زعرها كان أشد من
زعره ، وأسرعت إليه وقالت له : رباها ماذا أصابك العلك جرححت ؟
- لا أظن ولكنني طائش الفكر ضائع الرشد .

ثم جعل في ذلك الظلام الدامس يحرك أعضائه كي يعلم إذا كانت كسرت
ساقه أو رض جسمه ، ثم مشى بضع خطوات فأيقن أنه سليم لأن أرض القبو
كانت رطبة فلم يؤثر عليه هذا السقوط .
وعانقته فاندنا وهي تقول : لقد اجتمعنا أخيراً .

- نعم ، لكنني اسير مثلك وقد نصبوا لي فخاً وسقطت فيه كالأبله .
ثم ضحكك ضحك المحتقر نفسه قائلاً : انه لا يزال يوجد على بلاهي من
يثق بي .

وإن من كان مثل روكامبول يعلم في الحال إن انقطاع الحبيل لم يكن من
قبيل الصدفة بل كان خديعة مدبرة من قبل فقال : لقد خدعونا ولم نفطن لهم
ويجب علينا أن ننظر في وجوه النجاة .

وكان يحمل دائماً في جيبه علبة من الكبريت الشمعي فأخرجها من جيبه وأثار
عوداً من عيدانها وجعل يفحص المكان الذي هو فيه فرأى فوق رأسه في سطح
البئر منفذاً كبيراً وهو المنفذ الذي فتحه بيده كأثماً هو قد حفر قبره بيسده
وعلم لأول وهلة أن الصعود محال لأن المنفذ كان في وسط السقف

ثم أدار نظره ورأى باب البئر الخشبي الذي دخلت منه فاندنا ، ولكن
روكامبول ارتكب كل الأغلاط في تلك الليلة فانه ترك المطرقة قرب الصخر
الذي ربط فيه الحبيل ، ولم يبق له رجاء لكسر الباب سوى تلك الصخور التي
سقطت من القبة ، وأعطى علبة الشمع لفاندنا وقال لها انبري لي كي أرى
ثم أخذ حجراً ضخماً من الحجارة الثلاثة التي سقطت في البئر وصدم به
الباب الخشبي صدمة هائلة وهو يرجو ان يكسره ، لكنه رأى أن الحجر نفسه

قد تُحطَّم والنحل إلى تراب لشدة الصدمة ولتأنة الباب ، وعلم أن الحجر رملي لا فائدة منه ، وصدَم الباب بالحجر الثاني وأصابه ما أصاب الأول

وعند ذلك وضعت فانددا يدها فوق كتفه وأطعأت الشمعة وقالت له :
اصغ ألا تسمع ؟
... ماذا ؟

— حركة وراء الباب ..

فأصغى روكامبول فسمع صوتاً يشبه صوت المنشار في الخشب فقال لفانددا : قففي ورأيي ولا تبدي حركة ..

وكان صوت المنشار يتزايد ثم رأى نوراً يضيء من وراء الباب ثم رأى منشاراً يفتح كوة في باب البئر ودنا روكامبول من فانددا وقال : من يعلم فقد يكون مبلون قادمًا لانقاذنا . فلم تجبه فانددا بشيء .

وكان كلما بلغ المنشار من الباب يزداد النور ظهوراً ، إلى أن فرغت تلك اليد من اللشر وسقطت قطعة الخشب المنشور ففتح منفذ من الباب مستدير بقدر حجم الصحن ، وسطع النور في البئر على وجهي روكامبول وفانددا ، وسمع روكامبول في الوقت نفسه صوتاً يقول بلهجة الساخر : أي روكامبول ان هذا آخر- ما يكون هيننا وقد اتيح لي النصر عليك .

وعرف روكامبول للحال أن الصوت صوت تيميلون فأجابه : كلا ان وقت نصرك لم يحن بعد ، ثم أطلق غدارة من الثقب .

ودوى صوته دويًا شديدًا جعل يتجاوبه الصدى نحو عشر ثوان ، ثم انقطع الصوت وعادت السكينة إلى البئر ، وانطفأ المصباح الذي كان مع تيميلون فحسب روكامبول انه قتل .

إلا أن مدة هذا الرجاء لم تطل إذ سمع قهقهة تيميلون يضحك ضحك الساخر فتسلح روكامبول بالغدارة الثانية .

وكان تيميلون قد أحس رأسه حين خرجت رصاصة روكامبول بحيث أخطأه

فقال : انك كنت تصيب المرمى في غير هذا العهد ، أما الآن فان يدك ترتجف لدنو ساعتك .

فأطلق روكامبول عليه غدارته الثانية قائلا : خسئت أيها الشقي لأن ساعتي لا تزال بعيدة .

وعند ذلك سمع ان تيميلون قد صاح صيحة ألم قائلا : لقد أصبت .
فانقض روكامبول على الباب وأمسك بالنافذة التي فتحت فيه وجعل يهزه هزاً عنيفاً فلم ينل منه غاية تفرط متانته .
وسمع تيميلون يقول أيضاً : لقد أصبت حقيقه ولكني سأنتقم ياروكامبول فان ساعتك قد دنت .

ثم سمع صوت آخر قائلا : بل سننتقم كلانا .

فعلم انه صوت باتير وجعل يهز الباب هزاً عنيفاً دون فائدة قائلا : لم تحن الساعة بعد أيها الخاسر ؟

وكانت فاندا واقفة وراءه ولم تعلم كيف يريد ان ينتقم تيميلون ولكن قلبها كان ينذرهما بانتقام هائل

فقال تيميلون : اي روكامبول انك لم يخطر لك في بال اني أعود لككنك أخطأت فان ابنتي ماتت ولم أعد أخشاك ، فاقتهيت اترك واتبع خطواتك واحبطت مساعيك وذلك إنك اردت ان تتخلص من السير جس حذراً على جيبسي ، ولكني انقذت السير جس وهو سيق تسجل جيبسي . . اني اريد ان تعرف كل هذه الامور قبل ان تموت لأنك ستموت . نعم أيها العزيز انك ستموت أفطع موت .

وكان صوته يدل على تألمه وان جرحه كان بالغا فأخذ روكامبول علمبة الكبريت الشمعي من فاندا ورأى من الثقب باتير وتيميلون ووراءهما جسم لم ينتبه اليه وكان باتير يعين تيميلون على الوقوف وكلما وقف عاد إلى السقوط وصاح متألماً ، فان رصاصة روكامبول اخترقت فخذه .

ورأى تيميلون أن روكامبول ينظر اليه فصرخ : لا تفرح لشقائي فلذلك
ستموت شر موت . ثم زحف قليلاً إلى الجهة اليمنى بحيث ظهر برميل البارود
لروكامبول وأدرك قصد تيميلون الهائل وصاح صيحة رعب وانذعار .

أما تيميلون فإنه قال لباتير : إشعل الفتيل الآن واحملني وهلم بنا للخروج
من هذه البئر ، فنفذ باتير الأمر .

وكان تيميلون يتألم تألماً شديداً قائلاً لباتير : لنسرع بالرحيل كي لا يضجر
هذا العزيز روكامبول ، ووضع باتير الفتيل في البرميل وذهب إلى طرفه الآخر
وأشعله ، وكان هذا الفتيل يبلغ طوله نحو خمسة أمتار بحيث يقتضي له نصف
ساعة لتبلغ ناره للبرميل .

وبعد أن أشعل الفتيل حمل تيميلون على كتفيه وخرج به والاثنان يودعان
روكامبول بأفطع عبارات التهكم ..

وظل روكامبول ناظراً إليهما حتى تواریا عن أبصاره والفتيل يشتعل ببطء .
وبعد عدة ثوان سمع روكامبول صيحة كبيرة من تيميلون تلاها شتم قبيح
وأصغى مع فائدا فسمعا تيميلون يقول : تباً لك من خائن .

ورد باتير : ليس لدي حبل ، ولا أستطيع أن أصعد بك إلى سطح البئر ،
وليس الذئب ذنبي إذا كنت ثقیل الجثة مكسور الساق .

-- إذن أتركني هنا ؟

-- ذلك لا بد منه .

وكان صوته يدل على أنه بات خارج البئر فصرخ تيميلون . تباً لك من خائن
سافل ، ثم انقطعت الأصوات .

وسرى إلى نفس روكامبول بعض الرجاء قائلاً : لا بد له من إطفاء الفتيل
كي لا يموت معنا . إلا أن هذا الرجاء لم يلبث طويلاً ، لأنه شاهد تيميلون
يزحف زحف الأفاعي حتى وصل إلى البرميل فنام بقربه قائلاً بلهجة وحشية
تدل على الانتقام : إذن لنمت جميعنا .

وكان الفتيل لا يزال يشتعل فأيقن من صدق عزمه فضم فاندأ إلى صدره وتمتم : يجب أن نموت .

- ٣٧ -

بينما كان الفتيل يشتعل ، وبينما روكامبول وفاندا وقيميليون ينتظرون تلك الساعة الهائلة حين يصل إلى البارود ويحدث ذلك الانفجار ، كانت حوادث أخرى تجري في خمارة فيرابو

وقد علمنا أن روكامبول لم يشأ أن يصحب معه ميلون وأمره أن يتولى مع أفراد العصاة حراسة جيبيسي ، فلما خلا ميلون بأصحابه أخبرهم بأمر الرئيس قائلاً لهم : ان قلبه ينذره بحدوث مكروه .

وفما هم يتحدثون في الخمارة رأوا مرميس دخل اليهم وهو حافي القدمين وبلايس النوم ، ووضع أصبعه في فمه إشارة إلى وجوب الصمت فأيقنوا أن الأمر خطير وسأله ميلون عما جرى فقال له : لقد عذبوا بنساً وبالرئيس أيضاً ونحن غافلون كالأطفال . ثم التفت إلى الخمار وسأله : ألم تضعوا الانكليزي في البئر ؟

- نعم .

- ولكنه نجا ..

فدعر الحاضرون وقالوا : كيف ذلك وبأية طريقة فان الباب لا يزال مقفلاً .

- لا أعلم ولكننا لا نزال قادرين على أمره لحسن الحظ لأنه يقيم بيتنا في هذا البيت ، وفي غرفة هذا الرجل الذي يدعي أنه شيخ الخدامين وقد عرفت ذلك في هذه الساعة إذ سمعت جيبيسي تصيح وقد أظلمت السكابوس ، فأسرعت إليها ودخلت إلى غرفتها المظلمة فرأيت نوراً ينفذ من ثقب صغير في

الجدار الفاصل بين غرفتها وغرفة الشيخ الخدامين ، فخطر لي أن أعلم ما يصنع هذا الشيخ في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فصعدت على كرسي ونظرت من الثقب ، ورأيت الانكليزي بعينه جالساً حول طاولة وعليه علائم التفكير ، وإذا كنتم في ريبة مما أقوله فاخلموا نعالكم واصعدوا إلى الغرفة تروا ما رأيت وصعدوا جميعهم إلى الغرفة وجعل كل واحد منهم ينظر من الثقب فيرى السير جسس ويرجع منزعجاً .

ولما تحققوا بما قاله مرميس خرجوا من تلك الغرفة كي لا يسمع السير جسس حديثهم وجعلوا يتشاورون فقال ميلون ماذا يجب أن نصنع ؟ فأجاب مرميس : إن الأمر بسيط .
- كيف ذلك ؟

- ذلك ان الرئيس لم يسجنه في البئر إلا بغية إبعاده مؤقتاً فتمعالوا معي وأنا أقضي هذه المهمة .

ثم مشى إلى الباب فأوقفه الخمار قائلاً : إني لا آمن دهاء الانكليز وهذا الرجل قد يكون مسلحاً فاصبروا إلى أن أحضر مطرقي فإنها تقتل بضربة واحدة .

ونزل الخمار إلى خمارته ووقف ميلون ومرميس عند باب الغرفة ولما عاد الخمار بمطرفته قرع مرميس الباب فسمع صوت اهتزاز كرسي مما يدل على أن جسس وقف بعنف وصبر مرميس هنيهة ثم قرع الباب ثانية ولم يفتح فأوعز إلى ميلون بكسر الباب فصدمه بكتفه صدمة قوية فانفتح ودخل الثلاثة فرأوا السير نيفلي واقفاً وعليه علائم الذعر والرعب إذ عرف مرميس وميلون .

وعند ذلك أشار مرميس إشارة إلى ميلون فانقض على الرجل وضغط على عنقه حتى أوشك أن يخنقه ، وأسرع الخمار بمطرفته ورفعها فوق رأسه وهو يقول : إذا فهت بكلمة فأنت من الهالكين .

وأشار السير نيفلي بيده إلى انه يطيع فقال مرميس : دعه إذا يا ميلون فإننا سنتحدث قليلاً ، وأقفل الباب ، لكن مرتون دخلت مع كلبها قبل أن

يقفله وقالت : وأنا أريد أن أكون معكم .
ثم دنا مرميس من السير نيفلي قائلاً . لا حاجة بنا ايها الميلورد أن نسألك
عن اسمك فإننا نعرف انك تدعى السير نيفلي زعيم الخناقين في لندرا ، لكننا
نريد أن نعلم كيف أصبحت هنا وقد دفناك في القبر منذ يومين ؟

- إن معرفة ذلك بسيط فإن أصحابي أنقذوني .
- هذا لا يخفى علينا ولكننا نريد أن نعرف من هم هؤلاء الأصحاب ،
فاذا بحت لنا بأسماهم أبقينا عليك حتى يعود الرئيس فإنه لم يصدر إلينا أمر
بشأنك ولكنك إذا أصررت على الكتمان قتلناك ولا ينكر علينا الرئيس
هذا القتل .

فأصفر وجه نيفلي ولكنه أصر على الكتمان قائلاً . إفعلوا بي ما شئتم فاني
لا أعرف الذين أنقذوني .

فرد مرميس : إحذر فان وقتنا أقصر من تضييعه في المخابرات .
وقال ميلون - الأمر واضح فإنه لم يوجد في غرفة المستأجر الجديد إلا لأن
هذا المستأجر أراداه فيها .
فابتسم السير نيفلي وقال : ربما .

ولم يصدق الخمار هذا القول فسألهم : كيف يستطيع مثل هذا الشيخ عمل
مثل هذه الفعال ؟
ورد ميلون : لم يبق عندي ان هذا الشيخ شريك الانكليزي وانه عبث
بنا كلنا .

فنظر مرميس إلى السير نيفلي وقال له : قل لنا اسم هذا الشيخ .
فهز كتفيه قائلاً : لا أعلم .

- احذر من العناد وإلا قتلتك .
فاعترض ميلون قائلاً : كلا ان الرئيس لم يأمرنا بقتله .
- ولكن الرئيس قد يكون معرضاً لأشد الأخطار في هذه الساعة .

وبرقت عينا السير نيفلي بأشعة الفرح ، وعوى كلب مرتون وقد عض
ثوباً لتيميلون فقالت : لا شك ان هذا الثوب ثوب عدو .
وخطر لميلون خاطر فسأل الخمار أن يصف لهم هذا الشيخ ولما أتم الخمار
وصف شيخ الخدامين صرخ ميلون : انه قد يكون تيميلون .

وعند ذكر هذا الاسم نظر مرميس فجأة إلى السير نيفلي فرأى انه قد
بدرت منه حركة استدل منها على انه حقيقة تيميلون وجعل الكلب ينبج
نباحاً شديداً فقال مرميس : اني أشترك مع ميلون بظنه بل أثق ان هذا الشيخ
هو تيميلون بعينه ، وان الرئيس يصدق به خطر شديد ، فاذا لم يقل لنسا
هذا السير أين هو تيميلون قتلناه .

إلا انه أنكر فقالت مرتون : لا حاجة إلى ذلك فقد قال الرئيس لميلون
انه ذاهب إلى الآبار الكائنة وراء الشارع الأميركي ، وأنا أعرف طرق هذه
الآبار وكلي يقتفي أثر تيميلون .

-- إذا شدوا وثاقه ولتاخذ مرتون ثوب تيميلون فانه يعين الكلب على
اقتفاء أثره .

وقد عادت إلى مرميس تلك السيادة التي كانت له على العصابة في اندرا ،
وأمر بانزال السير نيفلي إلى القبو ، ووضعوه في برميل فارغ وهو موثق اليدين
والرجلين ، وأمر شانون بالوقوف بسلاحه أمام البرميل حتى يعودوا ، ثم
أمر الخمار بالوقوف أيضاً على باب غرفة جيبسي فلا يفارقه لحظة وبعد ذلك
أخذ مسدساً وخنجراً وكذلك ميلون وخرحاً تصحبهما مرتون وكلبها فركبوا
مركبة إلى الشارع الأميركي .

ولما وصلوا اليه أطلقوا سراح المركبة وأخرجت مرتون ثوب تيميلون
وأظهرته للكلب ثم قالت : ابحث عن تيميلون

ونبح الكلب أمامهم نباحاً شديداً ، واطلق أمامهم إلى جهة الآبار في
الطريق التي سلكها تيميلون وروكامبول والثلاثة يتبعونه وهم واثقون من

فوزه ، لأنه كان يشم التراب حيناً ثم يندفع بالسير بعد أن ينبج مما يدل على أنه عرف الأمر .

وظل هذا دأبه نحو ساعة وهو يسير بهم من بشر إلى بشر حتى انتهى إلى تلك الحديقة المسورة ودخل إليها فوقف عند فم البئر المسجونة فيه فاندأ فجعل ينبج نباحاً شديداً ، فدخلوا جميعهم إلى الحديقة وسمع مرميس اصواتاً مختلفة كأنها خارحة من جوف الأرض ، فوقف مع رفيقه على مسافة بضعة خطوات من فم البئر قائلاً لهما : اصبرا لنرى ما يكون من الكلب .

وفي الحال رأوا رجلاً خرج من فم البئر فلم يعترضه الكلب ، بل انه دفا من البشر وجعل ينبج ، أما الرجل فإنه حين صعد من البئر جعل يعدو كمن يحاول الفرار ، ولكن ميلون هجم عليه وقبض على عنقه ، فأسرع اليه مرميس ولم يكذب ينظر اليه حتى عرف أنه باتير زعيمه القديم

وحاول باتير التخلص من ميلون قائلاً له : دعني .

لكن ميلون صرعه إلى الأرض وركع على صدره وسأله : إذا اردت الحياة فقل لي أين روكامبول .

فلم يجب فوضع خنجره على عنقه ووخزه به وهو يقول : قل في الحال أو أغمدت في عنقك الخنجر .

لا أعلم أين هو .

كذبت أيها السافل ، ثم وخذته في عنقه ثم قابع قل أو اقتلك . فصاح باتير صيحة ألم وقال : إنه سيهلك وأنت أيضاً تهلك مثله إذا لم تدعني أهرب وتهرب معي .

فنظر اليه ميلون نظراً طائشاً وصاح به : أوضح ما قلت .

بعد خمس دقائق ينفجر البارود وتهلك جميعنا .

فدعر ميلون حتى انه رفع رجله من فوق صدره دون أن ينتبه فنهض باتير وحاول أن يهرب إلا أن ميلون قبض عليه بيد من حديد فجعل باتير

يصيح قائلاً : دعني أفر أو يقضى علينا جميعاً . وكان يتكلم وأسناناه تصطك من الخوف .

ولما رأى ان ميلون لا يتركه أجاب : ان روكامبول و تيميلون في هذا البئر ويوجد فيها تحت أقدامنا برميل من البارود فيه فتيل يشتعل وسينسف كل ما في هذا المكان .

ولم يكن مرميس قد فاه بكلمة إلى الآن فلما سمع حديث باتير صاح صيحة منكرة وأمرع إلى البئر فألقى نفسه فيها وكان الكلب قد سبقه منذ حين .

أما ميلون فارت عينيهِ جحظتاً من الغضب فقال لباتير : إنك لا تسمع صوت هذا الانفجار أيها اللشقي ، ثم أغمد خنجره في صدره فهوى إلى الأرض يتخبط بدمائه .

ومع ذلك فقد كان ذلك الفتيل الهائل مستمراً في اشتعاله وكان تيميلون مضطجماً بجانب البرميل ينتظر الموت بسكينة ، وجعل روكامبول يزع الباب هزاً عنيفاً دون أن يتمكن من كسره حتى سُمعت نفسه واوشك أن يخن من يأسه فانه كان يريد الموت لنفسه ، غير أنه كان يريد انقاذ فنادي تيميلون من كوة الباب وقال له : انا أعلم انك تريد موتي ولا أسألك العفو عني ، ولكن أبروق لك أن تدع هذه المرأة تموت ؟

ولم يجبه بشيء وعاد روكامبول إلى الحديث وهو ينظر نظرات الاضطراب إلى دنو النار من البرميل وقال لتيميلون : اني اقسم لك اني اغمد هذا الخنجر في قلبي إذا كنت تنزع هذا الفتيل

فضحك تيميلون وأجاب : انك خلقت حسن الطالع فقد تخطىء يدك قلبك . - انك لا تطفيء النار إلا متى وثقت من موتي .

وكان يقول له هذا القول بلمهجة المتوسل ، فأكبت فاندأ على عنقه وقالت : كلا ، بل أموت معك .

وعاد روكامبول إلى استعطاف تيميلون . لا انكر انك تكرهني كرهاً لا

ألومك فيه على قتلي ولكن أخلق بك أن تغمس يدك في جريمة قتل امرأة ؟
فأجابه تيميلون بلهجة المتهم : العلك أشفقت على ابنتي حين أخفتها من
الموت فأمتها من الخوف .

فأطرق روكامبول برأسه هنيهة ثم استل خنجره قائلاً : اني سأقتل نفسي
ومتى رأيتني قتيلاً فقد تشفق عليها وعلى نفسك .

غير ان فاندنا انقضت على يده واختطفته منه الخنجر وقذفته من ثقب الباب
فوقع بعيداً عن تيميلون وقالت : إن الموت معك أحب إلي من الحياة .
فأن روكامبول أنيناً مزعجاً وجعل تيميلون ينظر إلى النار تدنو تباعاً إلى
الهرميل ، وعند ذلك عانقت فاندنا روكامبول فجأة وقالت : أتسمع ؟
- ماذا ؟

- نباح كلب فوق سطح البئر التي نحن فيها .
وكان هذا الكلب كلب مرتون فانه بعد أن أزال الأدغال عن فم البئر
شم رائحة تيميلون فنباح هذا النباح ثم قالت ان قلبي يحدثني بانهم قادمون
لانقاذنا ..

- من تظنين هذا القادم ؟
- لا أعلم ولكني لا أزال أرجو .

ثم نباح الكلب نباحاً ثانياً ولكن نباحه كان بعيد المدى ، فنظر روكامبول
إلى الفتيل وقال : أمل باطل ، ولكنه ما لبث أن قال هذا القول حتى
رأى على نور الفتيل الضعيف شبحاً اسود انقض فبجأة انقضاض الصاعقة
على تيميلون .

فقال فاندنا : هوذا كلب مرتون فقد عرفته .
فقال روكامبول وقد رآه انقض على تيميلون : ولكنه لا يعرف كيف
يطفي الفتيل وأسفاه .

أما الكلب فانه نشب اظافره في عنق تيميلون فبحرى بينهما عراك هائل وحاول تيميلون ان يأخذ الحنجر الذي ألقته فاندأ فلم يمد اليه فجعل يدافع عن نفسه بيده ، ولكن الكلب كان ينهكه ايضاً فاذا نجا تيميلون منه هنيهة عاد إلى الوثوب عليه وارهاقه بالعض ، فكان روكامبول يرجو ان يقع حين وثوبه على الفتيل فينزعه من البرميل ولكنه كان محكم الوضع .

أما تيميلون فقد جاهد في وقاية نفسه من الكلب فلم يفلح ولم يمر به هنيهة حتى تغلب عليه الكلب وانقطع صوت تيميلون فان الكلب خنقه ، فقال روكامبول : اننا نموت وقد انتقم لنا على الأقل .

وكان الفتيل قد قرب من البرميل فلم يبق بين النار وبينه غير قيد اصبعين ، فقال روكامبول : لقد انقطع كل رجاء ، وركع وجعل يصلي الى الله ملتصقاً بالصفح عن ذنوبه .

وركعت فاندأ امامه وقالت : أحبك فاذا لم نلتقي في الحياة التقينا بعد الموت وعزائي اني أموت بين يديك .

ولم يبق غير مقدار دقيقة واحدة لاشتعال البارود . وعند ذلك سمع الأثنان صوت جسم هبط إلى ارض البشر وصوت رجل يقول : لقد زال الخطر .

وكان هذا الرجل مرميس فانه اسرع الى الفتيل فانزعه من البرميل . وعند ذلك شعر روكامبول ان فاندأ اغشى عليها بين يديه فقال : ان الله لم يأذن لي ان أموت فلا شك انه لم يصفح عني بعد .

- ٣٨ -

بعد يومين من هذه الحوادث التي رأيناها ، أي بعد اربعة أيام من اختطاف فاندا من منزلها ، جعل خدم هذا المنزل يتشاورون فيما يفعلونه حينما قنطوا من عودة السير جس وفاندا ، فاقترح اخدم ابلاغ البوليس ، وقال اخر بل السكوت اولى فان اسيادنا قد يعودون وربما ساءتهم معرفة البوليس باحوالهم ، وطال الجدل بينهم حتى ارتأى اخدم مرقعة ما خف وغلا من المنزل وتركه وشأنه إلى ان يعود اصحابه ، فلقني هذا الفكر استحساناً من الجميع وعولوا على انفاذه .

وفيا هم يتناقشون في أي الحاحات يسرقون ويعدونهم ويتفقون على اقتسامها إذ طرق الباب فاضطربوا جميعهم واسرع اخدم الى الباب وفتحه ، فدخلت فاندا وعليها علائم عدم الأكرات كأنها برحت المنزل منذ ساعة حتى انها لم تسأل الخدم إذا كان احد قد جاء في غيابها فنقض رجوعها خطة هؤلاء الخدم لأنها سواء كانت خلية السير جس او حليته فانها كانت السيدة الأمرة في البيت ، ولا يسع الخدم إلا الامتثال لها ، فدخلت توأ إلى غرفتها ونادت الخادمة فأمرتها ان تعينها على خلع ملابسها .

وبعد ذلك بساعة وقفت مركبة عند باب المنزل وخرج منها روكامبول فدخل وعرف الخدم انه صديق السير جس وكانت علائم السكينة بادية عليه مثل فاندا كأنها لم يلقيا شيئاً من الأخطار منذ يومين .

اما روكامبول فانه دخل إلى الدار دخول صاحبه ، ولم يسأل هذه المرة عن السير جس بل قال للخادمة :

— هل السيدة في قاعة الاستقبال او في غرفتها ؟

— بل في غرفتها

فذهب توأ إليها فقبل يدها وجلس بقربها

وخلا الخدم بعد ذلك الى بعضهم وكلهم مستغربون مما رأوه . فاتفق رأيهم على ان السيدة كانت خلية الانكليزي فاستبدلته بالفرنسي وقرروا ان لا بد من الطاعة وحمد الله لعدم تسرعهم بنهب المنزل .

أما رو كامبول فإنه خلا بفاندا ودار يمينهم الحديث الآتي فقالت فاندا : لا أزال أياها الرئيس أحسب نفسي حاملة ، لفرط ما مر بنا من الغرائب في هذه الأيام .

-- الحق إننا نجونا من خطر لم أجد أشد منه فيما مضى من عجائب حياتي . ولولا ان أدركنا مرميس لكننا من الهالكين .

-- الحمد لله فقد صفى لنا الجو ولم نعد نخشى تيميلون ولا باتير .

-- إن تيميلون قد مات ، وباتير أصيب بجرح بالغ ، وهو إما ان يلقى حتفه كما يقول الطبيب ، وإما ان يعيش معنوها . وفي الحالين لا يخشى أن يروح بأسرارنا .

-- ألا تقول لي الآن ، أياها الرئيس ، لماذا أردت ان أعود الى هذا المنزل ؟

-- لأن المنزل لك وعقد شرائه مسجل باسمك .

-- والسير نيفلي ماذا تصنع به ؟

-- يقيم معك في هذا المنزل .

فانذهلت فاندا وقالت : كيف ذلك ؟ أما عزمتم على ان تبقيه في قبو الخمار ؟

-- كلا بل يقيم معك ويكون في أسرك بحراسة ميلون .

-- والخدم ؟

نطلق سراحهم بعد ان نمطيهم راتب شهر على سبيل المكافأة ، ونستبدلهم عند ذلك بنويل ومورت وشانوان وميلون وموتون ومرميس وجيبسي . فيكون جميع من في المنزل أعوانا لنا بل يكون لنا جيش نجعل

مركز العام في هذا الشارع .
 فلم تفهم فائدا المراد من كل هذا وقالت له : وبعد ذلك ؟
 - كيف تسأليني هذا السؤال ؟ ألا تعلمين ان مشروعا لم يتم شيء منه بعد
 وهل قبضنا على ملايين جيبسي ؟
 - أصبت ولكن كيف السبيل إلى هذه الأموال ؟
 - إنه سر من أسراري لا أستطيع ان أبوح به الآن

- ٣٩ -

ولنعد الآن الى السير نيفلي . لقد تركناه مقيداً في البرميل بحراسة أحد
 أفراد العصابة فلما عاد مرميس وميلون الى الحفارة أخبر مرميس الحمار وحارس
 نيفلي جميع ما اتفق لهم ، وكان السير يسمع الحديث فيأس يأساً شديداً حين
 علم ان تيميلون قد مات وهو المعين الوحيد الذي كان يعتمد عليه في إنقاذهم
 من روكامبول .

وبعد ان فرغ مرميس من حكايته قال إن الرئيس لا يحضر إلى هنا
 ولكنه يأمر ان ينقل هذا الانكليزي الى القبو ، الى أن يصدر بشأنه
 أمر جديد .

فامتثلوا لأمر الرئيس وأخرجوه من البرميل الى القبو . وأقام فيه
 ثلاثة أيام لم ير في خلالها غير ميلون ، إذ كان يأتيه مرتين في اليوم ،
 فيحل وثاقه ويقدم له الطعام الى ان يفرغ من الأكل فيشد وثاقه كما كانوا
 يفعلون بقائدا .

وبقي على ذلك ثلاثة أيام ، وفي الليلة الرابعة جاء ميلون ومرميس ونويل
 فأخرجوه من القبو ووضعوه في صندوق كبير معد لنقل البضائع بعد ان شدوا

وثاقه ووضعوا الكمامة في فمه ثم حملوه على مركبة نقل الى الذي تقيم المنزل فيه فاندا وهناك أدخلوا الصندوق إلى المنزل ثم فتحوه وأخرجوه منه فوجد نفسه أمام روكامبول .

فقال له روكامبول : أسألك العفو يا حضرة المبلورد ، لأن رجالي قد تعودوا الغلظة .

ثم أشار الى ميلون ففك قيوده وخرج وبقي روكامبول وحده مع السير نيفلي فسأله . أتريد ان نتحدث الآن ؟
- ليكن ما تريد ، فلا أحب إلي من هذا .

- لكن لا بد لك قبل ذلك من أن تأكل لانك جائع دون شك ، وكذلك لا بد لك من تغيير ملابسك ، وهذه غرفتك لا تزال على ما كانت عليه فادخل اليها

فشكره السير ودخل الى تلك الغرفة فأقفل بابها وكأنا قد جال في فكره خاطر الفرار . فأحكم إقفال الباب من الداخل ووضع الزلاج بحيث لا يمكن فتح الباب من الخارج إلا بعد كسره . ثم أسرع إلى النافذة وفي نيته ان يشب منها إلى الحديقة ، لكنه تراجع مبهوتين إذ وجد ان قضبان الحديد قد وضعت فيها خلافاً لما كانت عليه من قبل فعلم انهم حسبوا لفراره حساباً وجعل يفكر في وسيلة أخرى .

وكان من عادته ان يضع مفتاح الخزانة التي يضع فيها ملابسه تحت آنية من الخزف على المفصلة ، فرفع الآنية ووجد المفتاح فقال في نفسه : لا شك أن الخزانة لم تفتح لان المفتاح لا يزال في موضعه .

ثم فتح الخزانة وغير ملابسه المتسخة بملابس نظيفة ، وأخرج منها مسدساً وضعه في جيبه بعد ان تيقن ان رصاصاته لا تزال فيه ولما رأى ان لا سبيل الى فراره من هذه الغرفة اعتمد على مسدسه وخرج الى روكامبول فوجده جالساً حول المائدة وميلون يضع عليها الطعام فجلس بازائه وانصرف ميلون فجعل

روكامبول والسير نيفلي يا كلان .
وبعد ان أكل بعض الطعام وشربا زجاجة من الخمر قال له روكامبول :
إسمح لي يا حضرة الميلورد ان أبسط لك الحالة كي تفهم ما أريد فإنك في لندرا
زعم الخناقين .
- نعم ولا أزال مقلدا هذا المنصب .

بورك لك فيه . لكن يظهر ان الخناقين لم يكثرثوا لفقد زعيمهم ، ثم
إني نزعت جيبسي من قبضة السير جورج ، فمزلت أنت من منصبه لأنه لم
يحسن توليه .
- هذا أكيد .

-- أما السير جورج فإنه برح لندرا دون أن تعلم ، وكنت أقل منه كفاءة
لهذا المنصب لأنك سقطت في الفخ الذي نصب لك ، ووثقت من كره فائدا
لي وتدهلت في حبها فعميت عن الرشد ، وتبعتهما الى باريس وهنا بدأت
حوادثك المكدره .

فأجابه بحفاء وبعد ذلك ؟
- أسألك الصبر يا سيدي ، إدلا بد لي من إتمام أقوالي كي أصل إلى ما
أريد ، لأن الأقدار دفعت اليك في باريس مساعداً علمت دون شك كيف
كانت عقباة ، فأصبحت وحدك لا نصير لك غير اولئك الخناقين الذين
لا يحضرون لنجدتك ، وبالتالي فإنك ستكون أسيري الى آخر العمر . إلا إذا
خطر لي ان أقتلك وأريحك من الأسر الطويل .

أما وقد أظهرت لك حالتك فإسمح لي ان أعرض عليك شروطي علمها
توافقك . واعلم ان السير جورج كان شديد التعصب يحسب ان روح أبيه
كامنة في جسم سمكة حمراء فكان يخدم الإلهة كالي لانه كان يعبدها . أما
أنت فإنك أوفر منه عقلا وأكثر دهاء وأنت تخدم هذه الإلهة بالظاهر ، وأما
في الحقيقة فإنك تخدم أغراضاً سياسية تحجبها بحجاب الدين . وإنك لم تحاول

خندق جيبسي وإحراقها لأنها لم تكن عذراء كما كانت تقضي به عليها أحكام الإلهة كالي ، بل لأن لهذه الفتاة النورية ثروة عظيمة تريدون اختلاسها .

فاضطرب السير نيفلي وقال : أتعرف أيضاً هذا السر ؟

- هذه هي الثروة التي سرقته مس الن بالاتفاق مع عشيقتها علي رجاء رئيس الخناقين الأعظم في الهند على أن تقتسم بين الاثنين . أما مس الن فقد ظفرت بها وستكون في قبضي حيناً أريد .
- أحق ما تقول ؟

- دون شك . ألا تذكر ذلك القصر الذي بث فيه ليلة مع فاندانا في بيكارديا ، إن هذا القصر كان لمس الن وأنت لا تدري ، وقد باتت فاندانا في إحدى غرفها حيث جاءها الخيال بب خادم أبيها ، فكلم فاندانا وهو يحسب أنه يكلم مس الن وعدد لها جميع ذنوبها . أعلمت الآن كيف اطلعت على هذا السر ؟

فاصفر وجه السير نيفلي وقال له ماذا تريد بهذا الكلام ؟

- أريد بها إني سأكره مس الن على رد الثروة بواسطة ابنها وأريد منك أن لا تعارض في شيء ثم اني توليت بحمايتي جيبسي النورية وناديا إبنة الجنرال الروسي وأحب ان أتفق معك .
قل شروطك .

- هي ان يرجع الخناقون عن مطاردة الفتيات ، وفي مقابل ذلك أطلق سراحك فتعود إلى انكسكرا . وأقسم اني لا أتدخل بعد ذلك في شؤونك .

وكان السير نيفلي يسمع كلام روكامبول وهو غائص في لجج التفكير فقطع روكامبول تصوره وقال له : لا تؤاخذني يا سيدي إذا ألححت عليك إذ لا بد لي من معرفة حقيقة عزمك في القريب العاجل .

فأجابه السير نيفلي : لا حاجة الى الانتظار لأنك ستعلم حقيقة أفكارى في الحال وهي رفض شروطك لسببين أحدهما انى لا أستطيع عصيان على رجاء الآخر لاني وطنت النفس على الخروج من هنا .

فقال له بلهجة الهازيء لكن خروجك من هنا لا يكون من النافذة فيما أظن .

- كلا لى أعلم انك طوقت جميع النوافذ بالحديد لكنى لا أجد ما يمنعنى عن الخروج من الباب .

ثم وقف فجأة وقد توقدت عيناه كالجر وأخرج المسدس من جيبه . فوثب روكامبول مسرعاً الى الباب ، فقال له السير نيفلي : إفتح هذا الباب أو أطلق النار عليك .

فظهرت عند ذلك علائم الخوف على روكامبول وصاح مستغيثاً بميلون فقال له السير نيفلي : إنه يصل اليك لكن بعد ان تموت .

ثم أطلق المسدس فلم تخرج رصاصته ولم يسمع غير صوت الكبسول ، فأطلق طلقة ثانياً ثم ثالثاً ، فكان نصيبها نصيب الأول . وعند ذلك سمع السير نيفلي قهقهة روكامبول ، فعلم أنه قد عبث به وسقط المسدس من يده وكان روكامبول قد صنع بمسدس السير جمس كما فعل به زامبا من قبل فى رواية « القادة الاسبانية » .

وبعد ان ضحك روكامبول ضحكاً طويلاً نادى ميلون فلما جاءه قال له : أرى أنه صار ينبغى أن نتخلص من هذا الرجل فأيقن نيفلي هذه المرة أنه بات من الهالكين .

٤٠ -

ولنعمد الى لوسيان ابن ميلادي الجريح ، فنقول انه عرف أمه فكانت معرفته بها داعية الى التمجيل في شفائه . فلما دخل في دور النقاهة تقرر ان يتزوج خطيبته ماري برتود بعد أسبوعين ، وكان سروره عظيماً في البدء ثم انقلبت مظاهر هذا الفرح الى مظاهر السوידاء ، وذلك لانه أراد أن يعرف أباه كما عرف أمه فقالت له أمه : إكتفي بأبك علمت امك واعلم انه يستحيل علي الآن ان أصرح لك باسمي وباسم أبيك .

- أهو حي على الاقل ؟

- نعم ولكني أخشى انك لا تراه في الحياة .
فأطرق لوسيان برأسه وانقطع عن سؤالها .

وكان فرانز كثير التردد عليه وكلما زارته أمه صاحبها اليه . فاتفق مرة انه باغته وهو ينظر اليها نظرة لا تدل على انها نظرة خادم او عشيق . فلما خلا بأمه قال لها . لقد عرفت أبي وهو الماجور هوف - أقسم لك يا ابني أنك منخدع .

فعلم لوسيان أن فرانز عشيق أمه وزاد بلباله منذ ذلك اليوم

أما ميلادي فقد كانت تتنازعها عوامل كثيرة . فبينما هي فرحة بلقاء ولدها إذ تنكش ويضيق صدرها كأنما قلبها كان ينذرها بمصاب اليم فكانت هذه الظواهر كلها تزيد في هواجس لوسيان .

وبينما كانت يوماً عند ولدها إذ دخل الماجور أفاغار عائداً فحيها أمام ولدها تحية لا تدل على أن بينهما شيئاً من العلائق وأقام هنيئة ثم انصرف بعد ان قال لميلادي سرّاً : إني أنتظرك قرب الباب الخارجي .

وأقامت ميلادي عند ولدها مدة وجيزة ، ثم ودعته وخرجت الى الشارع فوجدت روكامبول ينتظرها في مركبة فصعدت الى جانبه وأمر السائق

أن يسير الى المنزل الذي تقيم فيه فاندأ .
وكانت ميلادي لم تر روكامبول منذ ٤ أيام وهي معتقدة كل الاعتقاد انه
وكيل علي رجاء فقال لها : لقد طال غيابي عنك يا سيدتي لكني كنت في لندرا
وأنا قادم منها الآن .

فاضطربت ميلادي ولم تجسر ان تسأله إذا كان لقي علي رجاء
وظلت المركبة سائرة حتى وصلت الى المنزل فترجل روكامبول وساعدها على
النزول ثم دخل الاثنان الى قاعة الاجتماع فجلس كل منهما بازاء الآخر ودار بينهما
الحديث الآتي فابتدأ روكامبول :

- قلت لك يا سيدتي إني قادم من لندرا .

- العلك رأيته فيها ؟

- من هو ؟

- علي .

- كلا لكنه سيكون في باريس قبل ٨ أيام .

ورأى روكامبول ان وجهها قد اصفر ، حتى باتت شبيهة بالأموات ،
فقال لها : إسمحي لي يا سيدتي ان أخبرك عما جرى في لندرا كي تعلمي ماذا
أريد منك .

- تكلم .

- لقد تغيرت الوزارة في لندرا يا سيدتي ، فتمين لوزارة البحرية
والمستعمرات رجل ملء قلبه الحزم والثبات والبسالة ، فاتفق مع حكمدار الهند
وهو لا يقل حزمًا عنه على إبادة هذه الجمعية السرية التي يدعونها جمعية
الخناقين وهي هذه الجمعية الهائلة التي يوجد بين أعضائها كثيرون من أشرف
الانكليز أنفسهم .

فقال له ميلادي بلهجة الهازي : إذا قد قضوا عليها بالإبادة .
- نعم يا سيدتي ، وقد صرح الوزير انه سيضطر الى محاكمة كثير

من النبلاء . لأن أسرار هذه الجمعية التي يتولى رئاستها علي رجاء قد انفضحت .

— من الذي فضحها ؟

— هو رجل عرف تاريخ حياة علي رجاء وماضي مس الن بركنس .

فأظهرت ميلادي علائم القلق غير أن روكامبول اندفع في حديثه قائلاً :
وان هذا الرجل عرف أيضاً السبب الذي وشمّت من أجله بنات بعض نبلاء
الانكليز بإشارات سرية وكرست للالهة كالي .

— أحق ان هذا الرجل يعرف كل هذه الاسرار ؟

— نعم . وقد باح بها للوزير فوعد الوزير بمعاينة الآثمين .

— إن ذلك صعب لعدة أسباب أحدها ان هذه الجمعية متسعة متشعبة في
جميع الأقطار .

— هو ما تقولين . وليس لها على امتدادها وتشعبها غير رئيس واحد وهو
علي رجاء .

— ثم ان علي رجاء لا يقيم في لندرا .

— نعم لكنه سوف يحضر الى باريس .

— وماذا يستطيع البوليس الانكليزي أن يصنع في هذه العاصمة
الفرنسية ؟

— لا يستطيع ان يصنع شيئاً . لكن الرجل الذي باح بأسرار الجمعية للوزير
الانكليزي تعهد له ان يسلمه علي رجاء .

— دون إذن حكومة فرنسا ؟

— دون شك حق ان البوليس الفرنسي نفسه لم يعلم ان علي رجاء جاء
الى باريس .

— هذا الرجل قد تطرف بوعده ولا أظنه يلاقي غير الفشل .

فتبسم روكامبول قائلاً : إنه لم يقتصر في وعده على هذا الحد بل انه وعد

أيضاً بتسليم مس الن .

فاضطربت ميلادي وقالت . كيف ذلك أيسلمني أنا ؟

- نعم ياسيدي إن لديه أوراقاً تثبت ان مس الن قد قتلت أباه الكومندور
بالاشتراك مع علي وخادم كان يدعى فرانز .
- هذا مستحيل إذ لا سبيل الى الاثبات .

- إنك مخطئة لأن لديه برهاناً عظيماً ، وهو مذكرة كتبها المسيو
بب وكيل مس الن فوصلت الى هذا الرجل وفيها كل ما يحتاج اليه من
البراهين القاطعة .

فلم تكترث ميلادي لهذه البراهين وقالت له : أظن ان لك سلطة علي رجاء
فتستطيع تلافي هذا الخطر .

- إنك مخطئة يا ميلادي لأن الرجل الذي سيسلم علي ومس الن وفرانز
وزعماء الحناقين هذا الرجل يا ميلادي هو أنا .

فصاحت ميلادي صيحة منكرة ونظرت الى روكامبول نظرة ملؤها الرعب
كأنما هوة عميقة هائلة قد انفتحت بينها وبين روكامبول .

ثم خطر لها ان هذا الرجل هو حقيقة وكيل علي رجاء لكنه يحاول تجريرتها
فبقي لها شيء من الأمل .

غير ان روكامبول ضرب على هذا الرجاء وأضاف : لقد كان لك يا سيدتي
أخت تدعى مس أنا .

فاضطربت ميلادي وأجابت : أتعرف هذا أيضاً ؟

- نعم وإنك خنقتها .

- لست أنا التي خنقتها بل علي .

- إنك وعلي واحد اليس كذلك ؟

فأطرقت برأسها ولم تجب . أما روكامبول فماد الى حديثه قائلاً : وإن
أخذك ماتت عن فتاة تدعى بجيبسي ، وهذه الفتاة الحق بإرث أموال أهلها

التي اختلستموها .

فوقفت ميلادي ، وقد اتقدت عيناها بنسار الغضب وقالت : كلا هذه
الثروة لولدي .

فضحك روكامبول قائلاً : أواثقة أنت مما تقولين ؟

- قلت لك انها لولدي لأني اشتريتها بحياة ملؤها الجرائم واليأس .

- إني كنت أنتظر منك هذا الإقرار .

- وأنا لا أفهم ما تقول لأني لا أستطيع حل الألغاز .

- إذاً إصفي لي إني موضح لك ما خفي عنك إعلمي ان ابنك شريف جميل
باسل وهو لا يغمس يده بهذه الثروة المدنسة وإذا قيل لابنك لوسيان ان هذه
النقود التي ستنفقها على زواجك وهذه الهدايا التي ترسلها الى عروسك وهذا البذخ
الذي تعده لها ولك وجميع هذه الأموال قد وصلت اليك من الجريمة فماذا تظنين
أذه يجيب ؟

ورأى روكامبول انها أنت أنيناً مزعجاً وأخفت رأسها بين يديها فقال لها:
إصفي لي إن الموقف خطير وإني أحب الاتفاق معك .

فنظرت اليه وقالت : على ماذا تريد الاتفاق ؟

- إني أعرف كل تاريخك ولدي ما أحتاج اليه من البراهين لإثبات جرائمك
ولا أسهل علي من تسليمك الى الحكومة الاسكليزية غير اني لا أفعل هذا إلا حين
أقنط من الاتفاق معك

فقالت له بلمهجة المتهم : أراك يا سيدي كثير الإشفاق فهل تريد أن تخبرني
سبب هذه الرحمة ؟

- نعم ، والسبب هو ابنك ولو لم تكوني ام لوسيان لما وجدت في قلبي ذرة
من الرحمة

- إذاً لا تسلمي الى الحكومة

ثم نظرت نظرة سرية الى ما حولها ، كأنها قد خطر لها خاطر الفرار

فابتسم روكامبول وقال . إطمئني يا سيدي فليس في نيتي أن أحبسك عندي . لكنك تحطئين كل الخطأ إذا خرجت من هنا قبل أن نتفق الاتفاق النهائي .

- قل ماذا تريد مني ؟

- إذك شديدة الجراءة والدهاء وإذا وقفت أمام المحاكم فقد تنكرين كل ما يتهمونك به كل الإنكار . نعم ان القضية لا يكثرثون لإسكارك ويحكون عليك لكن ابنك قد يبرئك لما يسمعه من شد إنكارك وهذا ما أريده بل أريد أن يكون لك قاضياً واحداً وهو ابنك .

فارتعشت ميلادي وقالت . كلا ، إنك لا تبلى بقسوتك الى هذا الحد .

- بل أعمل أعظم من ذلك إذا لم ترجمي الثروة المسروقة .

- أأجرد ابني وأجعله من الفقراء ؟

- ذلك لا بد منه

- بل ذلك لا يكون ما دام بي عرق ينبض .

- إصفي إلي أيتها السيدة ، إن أباك الكومندور بركنس قد مات عن ثروة عظيمة ، وقد أوصى بهذه الثروة كلها لأختك مس أنا فأصبحت كلها بيدك .

- ان ما تقوله قد يكون أكيداً غير انه يوجد ما تجهله .

- ما هو ؟

- هو اني خبأت هذه الثروة في موضع لا يمكن ان تهدي اليه الحكومة ولا أنت ولا علي رجاء الذي لم يقبض الى الآن غير نصف ايراد تلك الثروة الطائلة .

- لأنكر إني لا أعلم موضع الثروة ولأجل ذلك رأيت ان أستخدم الطريقة الوحيدة التي تحملك على الإقرار

فتظاهرت بنفاذ الصبر وقالت : تريد ان تخبرني ان هذه الطريقة هي ولدي .

— نعم إذ لا أجد أفضل منها لان ابنك متى علم جميع جرائمك ينتحر دون شك ويؤثر الموت على العار .

فصاحت ميلادي صيحة تبين منها ضعفها ، غير أن مظاهر هذا الضعف تبدلت في الحال ، وقالت : ومن يضمن لك ان ابني يصدق ما تقول ؟

فتنهذ روكامبول وقال : إن إقناعه منوط بي ، والآن أنظري يا سيدتي الى الليل فقد أخذ يبسط جناحيه ، ولا أحب ان يخطر لك اني ناصب لك فخاً لأن أمثالنا يتحاربون وجهاً لوجه ولا يستعملون الغدر ويستخدمون أفضل ما لديهم من الأسلحة .

— لقد عرفت سلاحك فاعلم اني لا أخشاك .

— وأنا محضتك خالص النصح وأمهلك الى الغد .

— وإذا أبليت غداً إجابة سؤالك ؟

— يعلم ابنك كل شيء ولا تقع التهمة إلا عليك .

— إذاً الى الغد .

ثم وقفت تحاول الذهاب فنادى روكامبول ميلون قائلاً له : أحضر مركبة للسيدة .

وبعد ربع ساعة كانت ميلادي سائرة الى الفندق وقلوبها ملؤه الحقد والبأس ، ولكنها كانت مصممة على ان لا ترجع فلساً من تلك الثروة المخصصة لابنها .

ولما ذهبت دخلت فاندا الى غرفة روكامبول وقالت له : اني لم أفهم شيئاً أيها الرئيس مما فعلت .

أجابها : إن ساعة العنف والإكراه لم تحن بعد ، لأن ميلادي شديدة

العناد والكبرياء ، فهي قد تصعد من تلقاء نفسها الى درجات المشنقة ولا تخبرنا بكان ملايين النورية ، ونحن لا نحتاج الان الى رد هذه الملايين .

-- ٤١ --

في الوقت نفسه الذي خرجت فيه ميلادي من عند روكامبول الى الفندق الذي كانت تقيم فيه في شارع اماريسان ، كان قطار باريس قد وقف في المحطة فنزل منه رجل نحاسي اللون أسود العينين والشعر غير ان الشيب كان قد وخط بعض شعره فكان يظهر في رأسه شبه النجوم وله أسنان ناصعة البياض ولحظ براق .

وكان يصحبه رجلان لهما ذات لونه النحاسي وهما حسنا الملابس على أنهما لم يكونا غير خادمية .

وكان الرجل قادماً من الاستانة الى باريس بطريق البر فاجتاز الدانوب وفيينا والمانيا وهو مسافر يجواز تركي كتب فيه اسمه رستق باشا .

وكان أحد هذين الرجلين اللذين يصحبانه يشغل عنده وظيفة ترجمان ، فلما نزلوا من القطار ، أحضر مركبة وأمر بنقل الأمتعة اليها ، ثم أمر السائق ان يسير بهم الى الجران اوتيل ، وهو الفندق الذي تقيم فيه ميلادي وفرانز .

وبعد هنيهة وصلت المركبة الى الفندق فخرج منها رستق باشا وأمر أن يعدوا له أفضل مكان في الفندق ولم يكن يتكلم الا بواسطة الترجمان إذ كان يظهر انه لا يعرف كلمة من اللغة الفرنسية .

وبينا كان خدام الفندق ينقلون أمتعته وخادماه منشغلان بإعداد الغرف

التي عينت له جعل رستق باشا ، او هذا الهندي الذي يدعى انه من الأتراك ،
يتنزه ذهاباً وإياباً على رصيف الشارع .

وكان على ادعائه انه من الأتراك لابساً ملابس الاوروبيين فلم ينتبه أحد اليه
ولم يزعجه المارة بشيء .

وبعد حين جاء الخادم وأخبره ان الغرف قد تهيأت فأشار له ان ينصرف
وبقي يتنزه على الرصيف وينظر الى المركبات التي تدخل كل حين الى هذا
الفندق الكبير .

وفيا هو على ذلك إذ رأى مركبة قد دخلت الى الفندق ورأى فيها امرأة
صفراء الوجه تدل هيئتها على انها في اضطراب شديد فارتعش حين رآها وقال
باللغة الانكليزية : هذه هي مس الن .

وعند ذلك أسرع ووقف وراء المركبة بحيث لا تراه حين خروجه .
أما ميلادي ، وكانت هي نفسها عائدة من عند روكامبول ، فلأنها لما
خرجت من المركبة ، أسرع اليها أحد خدام الفندق فقالت له : هل عاد
الماجور هوف ؟

— كلا يا سيدتي إنه لم يعد بعد

وكانت ميلادي شديدة الاضطراب ، وعلائم القلق والحيرة بادية على
وجهها ، بحيث انها لم تنظر الى أحد من الذين كانوا حولها ، ولم تر
ذلك الغريب الذي كان واقفاً وراء المركبة وعيناه تتقدان فإنه لم يكف
يسمع اسم الماجور هوف يخرج من شفتمها ، حتى اضطرب واصفر وجهه
اصفراراً شديداً .

أما ميلادي فلأنها صعدت والخادم أمامها الى غرفتها وخلت الى نفسها .

وقد كانت أظهرت شيئاً من الجلد أمام روكامبول غير انها حين أتت ودها
فكرت في أمورها فعلمت انها شديدة التعقيد لا تحل إلا بارتكاب الجرائم الهائلة
أو بالتخلي عن المال .

ثم افتركت أن ولدها إذا عرف آثامها أنكرها واحتقرها وأنف من مالها ، بل ربما أفضى به اليأس إلى الانتحار كما قال لها روكامبول فهاجتها عواطف الحنو وأوشكت أن تجن من اليأس .

ولكنها عادت إلى التفكير بهذه الثروة التي لم تنلها إلا بعد إهراق الدماء وأنها أودعتها في مكان خفي لا يمكن أن تنالها يد مغتصب ، فعز عليها تسليمها لاسيا وقد عودت ولدها عيشة البذخ والترف وقالت له حين عرفته انك أغني غني في فرنسا ، فكيف تستطيع أن تقول له الآن انك أفقر فقير .

وقد علمت من محادثتها مع روكامبول انه خصم شديد عنيد لا يسلم من يخوض معه في مجال الأخطار ، فإذا لم يسرع خصمه بالتأهب كان من الخاسرين لا محالة .

ولم يكن لديها غير رجل واحد يستطيع أن يخدمها في مثل هذه المهمات وهو فرانز ، فأسرعت إلى الاجتماع به ولكنها وجدت انه لم يعد بعد إلى إلى الفندق كما تقدم .

أما فرنز أو الماجور هوف فإنه كان يقيم معظم الليل في النادي مع اللاعبين ولا يعود إلا بعد انتصاف الليل .

وكان جميع من في الفندق يعلمون اتصال فرانز بميلادي ، ونادت ميلادي الخادم الذي لقيته حين وصولها وإمرأته أن لا ينام قبل عودة الماجور هوف ، وان يخبره حين عودته انها بانتظاره .

وانصرف الخادم وفتحت ميلادي نافذة غرفتها ووقفت تستنشق الهواء البارد لإخماد آثورة غضبها المتوقد في فؤادها .

ولبثت على هذه الحالة نحو ساعة وهي تفكر في طريقة تعينها على الفرار من روكامبول وانقاذ ولدها منه وأمنها مطاردته فلم تجد لذلك وسيلة .

وفيا هي على ذلك سمعت وقع أقدام في الرواق المتصل بغرفتها فقالت في نفسها . هوذا فرنز قد عاد ، ثم سمعت بابها يطرق فأذنت للطارق بالدخول

وعند ذلك فتح الباب ودخل منه رجل لم تكذ تراه ميلادي حتى ذعرت
 ذعراً شديداً. وكاد يغمى عليها من الخوف..
 أما هذا الرجل فلم يكن روكامبول ولا فرنز بل كان ذلك الرجل الذي
 انتحل لنفسه اسم رستق باشا فتقدم من ميلادي ببطء وهو مشبك يديه فوق
 صدره قائلاً لها : أعرفتيني يا مس الن ؟
 فوهت ركبتها وسقطت على كرسي كانت واقفة بالقرب منه وهي تجيب :
 علي رجاء ..
 فاستل علي خنجرأ لأن هذا الهندي المتنكر كان علي رجاء رئيس الخناقين
 الأعظم في الهند وأجابها : نعم أنا هو علي رجاء وقد أتيت لعقاب الخائنين .

- ٤٢ -

وكان علي رجاء ينظر اليها نظرات هائلة ويدنو منها والخنجر مشهريده
 وهي تنظر اليه مبهوتة وأسنانها تصطك من الخوف .
 ثم دعا منها أيضاً وقال : أي مس الن أين ضاعت تلك العمود والمواثيق ،
 وكيف نكشت بذلك الايمان .. انك لا تجيبين بحرف ولكني أعرف كل شيء
 فإن قلبك قد ملكته لسواي وأنت تكبرهيني الآن ..
 فركعت أمامه وقالت : أسألك العفو .
 -- لا عفو عندي ولا رحمة وسيكون الموت عقابك وعقاب فرنز ولكني
 أريد أن أعرف قبل ذلك أين ولدي ..
 وقد تهديج صوته حين قال ولدي وبدت فيه لهجة الحنان كأنما هذه اللفظة
 كانت ماء على جمر غضبه المتوقد .

أما ميلادي فكانت تنظر اليه برعب ، لكنهما على رعبها كانت تبدو عليها

ملاحم الاعجاب به ، لأن شمس الهند المشرقة لم تؤثر على جماله ، ولم تحدث تلك الأعوام الطويلة أقل أثر في جبينه فكان لديها كما نظرت له لأول مرة .
وعاد علي إلى القول : أين ولدي ؟

وكان الخنجر لا يزال في يده غير ان لهجة حنوه طمأننت ميلادي فقالت له :
انه في باريس أراه كل يوم وهو يعبد أمه عبادة .
والقى علي خنجره كأنه يخشى أن تسبقه يده إلى الانتقام وكانت ميلادي لا تزال راكعة فقالت له لا أنكر أن زلتي عظيمة ولكنني أرجو أن يكون عفوأك أعظم ، فأبلك هجرتني عشرين عاماً لم أرك فيها ولم تكتب لي في خلالها حرفاً ، بل كنت تصدر إلي أوامرك الهائلة بواسطة عبيدك . ألم تمنعني كل هذا الدهر الطويل أن أرى ولدي ؟ ألم أعش هذا العمر معزلة عن الناس كما يعيش النساك ، وأنا أنتظر عودتك دون أن يتحقق هذا الرجاء ؟
- لم يكن أمري بيدي وأنت تعلمين المنصب الذي كنت فيه .

- أما أنا فقد كنت وحدي مستزسلة إلى الأحزان تتمثل لي ذلوبي ، ويقتلني تقريع الضمير ، وليس لدي صديق ائتمس به وأفرج بعشرته همومي وقسدت تركت لي في خدمتي رجلاً أنت جعلته شريكاً لي في الجريمة وهو رجل شقي سافل غير انه كان عارفاً بأسرار جوائي فلزمني لزوم ظلي وتدلله بغرامي .

ثم زحفت على رجليها إلى علي رجاء وقد شعرت ان حب هذا الرجل قد عاد إلى فؤادها ، وعادت سلطته القديمة ، وهو الرجل الذي أغرت فرنز على قتله ، وقالت له بلهجة القنوط . نعم إني كبرت جراح نفسي أعواماً طويلة ، لكن هذا الرجل الصبور تغلب علي علي رجاء . في ساعة ضعفت فيها نفسي ونكثت بعهودي وخنت عهدك المقدس ، فأنا أستحق أقطع موت فاقتلني كما تشاء ، لكنني التمس منك أن تأذن لي قبل الموت أن أرى ولدي .

فأوقفها علي بيده ونظر إليها نظراً طويلاً وهي منكسة الطرف وقال لها :
انك لا تزالين جميلة

وعلمت ميلادي انها نجت من قبضته .
أما علي فقد تابع بعد سكوت طويل . اني أريد قتل هذا الرجل وسأقتله
لا محالة .

فأطرقت ميلادي برأسها إلى لأرض وقد تخلت عن المايجور هوف
وعاد علي إلى الحديث فقال : إني الآن حر وقد سلمت سلطتي الهائلة التي
طالما أقصتني عن أوروه فلم أعد أدعى علي رجاء زعيم الخناقين ، بل أنا أدعى
الآن رستق باشا فلا تستطيع حكومة الهند والحكومة الانكليزية وصولاً إلى
وأنت غنية وأنا غني وقد أثبت للبحث عنك .

- إلى أين تريد أن تذهب بي ؟
- إلى البلاد الأميركية فإن سفينة لي تنتظرنني في الهافر .
- وولدنا ؟
- يسافر معنا ..

- ولكنه شاب جميل عازم على الزواج ..
- إذن تسافر خطيبته معنا ..

وبينما كان علي رجاء يخاطبها كانت تتذكر ما قاله لها المايجور أفاتار
والشروط التي عرضها عليها قبل ساعة فأخذت يد علي رجاء بين يديها وقالت
له بصوت مضطرب دل على مبلغ خوفها أنظن يا علي انك حر ؟
- دون شك

- ولكنك منعقد فقد يقبضون علينا ونصبح أسيرين بعد يومين.
- ومن الذي يأمرنا ؟

- تقبض علينا الحكومة الانكليزية فتحاكمك بصفتك زعيم الخناقين ،
وتحاكمني أنا لقتلي أبي

فضحك ضحكاً عالياً وقال : انك تعلمين ان الحكومة الانكليزية عينت
جائزة عظيمة منذ أعوام كثيرة لمن يأثمها برأسي ، ولا يزال هذا الرأس مركباً

على هذا البدن كما ترين
- ولكن خطر اليوم غير خطر أمس .
- كيف يكون هذا الخطر وكيف يقبضون علي وأنا مسافر بجواز عثماني
وأدعى رستق باشا ؟

- إنك منخدع فليست الحكومة التي تقبض عليك بل الماجور أفاتار .
ثم قصت عليه جميع ما جرى لها مع روكامبول ، ولما أتمت حديثها ضحك
علي رجاء قائلاً : اوجد من يحسر على التعرض لي ؟ إذا سأسحقه سحى الزجاج
- وهو يسحقك .

وغضب علي ولكنه ما لبث أن عاد إلى السكينة فقال : تقولين أن هذا
الرجل أمهلك ٢٤ ساعة للفتكير .
- نعم ..

ولكننا سنكون خارج باريس قبل هذه المدة أنا وأنت وولدنا وخطيبته .
وفيما كان علي يتكلم ، سمع وقع أقدام في الرواق ثم قرع باب الغرفة
فاصفر وجه ميلادي ثم فتح الباب ودخل منه الماجور هوف أي فرانز
فاضطربت ميلادي اضطراباً عظيماً وغطت وجهها بيديها .

- ٤٣ -

وقد اضطرب فرانز أيضاً حين دخوله لأنه يعرف نفوذ ذلك الهندي الهائل
أما علي فإنه وثب مسرعاً إلى الباب فأقفله ووقف بينه وبين فرانز حذراً
من فراره .

أما فرانز فإنه نظر نظرة الفاحص إلى ميلادي فأتطرق بنظرها إلى
الأرض ، وعلم أن الهندي قد عاد إلى تسلطه على قلبها .

ودنا علي رجاء من فرانز وقال له ايها العبد الزنيم انك تجاسرت علي رفع عينيك إلى المرأة التي أحبها فوجب أن تموت .
ثم أسرع إلى الأرض والتقط ذلك الخنجر الذي رماه حذراً من أن تبتدره الحدة فيطعن به ميلادي .

غير أن فرانز لم يكن هيباً وقد دبت الحماسة إلى قلبه بحضور ميلادي ، وكان هو أيضاً ضخم الجثة عريض المنكبين شديد العضلات كعملي فاستسل خنجره وقال لعلي : انك مخطيء فما أنا بعبد وما أنا بخادم .

فقال له علي بلمهجة المحتقر إذا أنت ماذا ؟
- أنا رجل رفعتني ميلادي اليها وسأوى الحب بيني وبينها في كل مقام .
فلم يجبه علي ، ولكنه التفت إلى ميلادي وسألها : اتسمعين ما يقوله هذا الرجل .

وأطرقت ميلادي بعينها دون ان تجيب فقال لها علي : إن هذا الرجل يفتخر بأذك تحبينه فقولي له انه سافل منحط لا يستحق منك نظرة رفق .

وقال لها فرانز : قولي إذن لعلي رجاء أن شفتي تقبل شفتيك منذ عشرة أعوام ، وان الحب قد الف بين قلوبنا فكنا نقسم السراء والضراء وكنا روحاً واحدة في جسمين .

وسكنت ميلادي ولم تجسر على النظر إلى واحد من هذين الرجلين اللذين سيقتتلان من أجلها ، اما فرانز فإنه هز الخنجر بيده وقد غضب لصمتها وقال : أرى ان هذا الرجل قد أخافك يا الن وقد تهددك بسلطته السرية الهائلة ولكني لا اخشاه ولا اخشى هذه السلطة .

وكأنما هذه الكلمات قد اذكرت ميلادي ما كانت تعلمه من بأس علي رجاء ووازنت بين قوة الرجلين ورجحت في تصورهما كفة علي ثم ذكرت انها ابنة أعظم نبلاء إيكوسيا ، وانها قد انغمست في حب خادم لها فنظرت إلى فرانز نظرة ساحقة وقالت له : ايها العبد الزنيم انك كاذب فما انت إلا من أسفل الخدم

وما أحببتك في حياتي بل انا احتقرك .
وصاح فرانز صيحة منكرة وطاش رأسه وانقادت عيناه ثم انقض بخنجره
على ميلادي وقال إنك ستموتين قبله ابتها الفاعرة الخائنة .
ولكنه قبل ان يتمكن من الوصول اليها وطعنها الطعنة القاتلة سمع صوتاً
في الغرفة يشبه الصغير ثم شعر ان حبلاً قد التف على عنقه وجذبه فسقط على
الأرض لا يعي .

وقد اطلق على عنقه هذا الحبل علي رجاء وهو سلاح الخناقين الهائل ولما
رأى علي ان فرنز سقط على الأرض سقوط الأموات اسرع إلى ميلادي وهي
توشك ان تجن من الرعب فتأبط ذراعها وقال لها هلمي بنا الى ولدنا
لنأخذه ونهرب .



رمع ذلك فإن روح فرنز لم تفارق جسمه الذي لا يتحرك ولا يعلم إذا كان
مات او بقي حياً بعد ان التف ذلك الحبل الهائل على عنقه غير ان روحه
الخالدة لم تضمحل ، ولم تفقد حاسة الحقد والغيرة فحدثت أعجوبة يستحيل
تأويلها ، غير انها لم تكن دون مثيل روى العلماء كثيراً من هذه الحوادث
العجيبة .

ذلك ان روح فرانز اجتازت الفضاء وجعلت تقتفي اثر علي رجاء وميلادي
خطوة خطوة .

ولا يعلم كم امضت في طوافها واقتفائها اثر هذين العدوين .

وقد مضى الليل واقبل النهار ودخل الخدم الى تلك الغرفة التي تركتها
ميلادي فوجدوا المايجور هوف طريحاً في ارضها لا حراك فيه واسرعوا الى
احضار الطبيب ، ولما فحصه قال انه ميت .

وكان يوجد في الفندق في ذلك الحين رجل روسي جاء لزيارة احد النازلين

في الفندق ، ولما ذاع خبر موت الماجور هوف تقاطر جميع من كان في الفندق الى غرفته وبينهم الروسي ، ودنا من فرنز ففحصه وقال للطبيب : اظن يا حضرة الدكتور انك مخطيء فإنه لم يمت بعد .

واستاء الطبيب وقال له باحتقار : العلك يا سيدي من الأطباء ؟
— إني أدعى الماجور افانار وانا طبيب حين تدعوني الصدف الى ممارسة هذه الصناعة . ثم تركه ودنا من سرير فرانز وقال : إني سأحيي هذا الميت .

- ٤٤ -

في هذه الليلة نفسها شعر لوسيان بعد ان ذهبت امه بحزن شديد تولد عن اسرار مولده الخفية وكتان امه عنه حقيقة مولده واسم ابوه .

وكان لوسيان قد نسي هذه المشاغل قبل شهر لانشغال فؤاده بحب خطيبته وكان يرى المستقبل باسماء له ، ولكنه بعد ان لقي امه اظلم هذا المستقبل في عينيه وقد حاول تلك الليلة أن ينام فلم يستطع إطباق جفنيه ولم يصدق طعم الرقاد وعادت اليه الحمى كما كانت في أول عهد جرحه .

ودقت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وهو يتقلب على فراشه منكش الفؤاد ، كأنما قلبه كان ينذره بأمر هائل ، وفيما هو على ذلك سمع جرس الباب الخارجي يندق فاضطرب قلبه لعله أن هذا القادم بعد منتصف الليل لم يحضر إلا لشأن خطير .

وفتح أحد الخدم الباب الخارجي وبعد هنيهة رأى ان باب غرفته قد فتح ودخلت منه امه فقال لها : لقد علمت انك انت القادمة حين طرقت الباب ، فإن قلبي كان يحدثني بقدمك لشأن خطير .

— لقد صدق حديث قلبك يا بني فأني ما اتيت في هذه الساعة المتأخرة

إلا لتوديعك وداع الأبد .

وصاح لوسيان وأخذ يدها بيديه فضغط عليها ضغطاً شديداً وقال : كيف
تفارقيني فراق الأبد وأنا لم أكد أعرفك ، تريدني لي الموت يا أماء ؟
- أريد أن تكون أسعد انسان في الأرض .
- كيف أكون سعيداً وانت تنذريني بهذا الفراق الأبدي . واي فرق
بينه وبين الموت ؟

- إنك ستعيش سعيداً مع امرأتك فتسلو فراقى وهذا ما قدر لي يا بني
فاني ما أتيتك في مثل هذه الساعة لتوديعك واخبارك بما اشكل عليك من
أمري فانك لم تعرف سوى اني امك حتى انك تجهل اسمي .
ولقد قلت لك انك لن تعرف أباك إلى الأبد ولكني لا أريد في مثل هذه
الساعة الرهيبة ساعة للفراق الأبدي ان ادع في فؤادك أقبل أثر للريب بي
يدعوك إلى احتقاري .

- انا احتقرك يا أماء وانت عندي أجل النساء وكفى انك امي .
- اصنع لي يا لوسيان ان اباك حي وهو يحبك كما أحبك ، بل هو الآن
في باريس .

فوئب لوسيان من فراشه وقال : ايكون ابي في باريس ولا أراه ؟

- لا سبيل إلى أن تراه فانه سيبرح باريس قبل الفجر فلا يراك ولا تراه
إلى الأبد ، ولا تعجب لذلك يا بني فاني مسافرة معه قبل الفجر ، ولهذا اتيت
لتوديعك بعد منتصف الليل ، ثم يجب ان تعلم يا بني ان أباك لا يحضر إلى
المدينة التي تقيم فيها ولا يراك ، وان امك لا تفارقك هذا الفراق الذي لا
لقاء بعده ، إلا وقد حكمت عليها الأقدار هذه الأحكام الجائرة .

ثم اندفعت في البكاء فكاد لوسيان يحن من اشفاقه وجعل يقبل امه
ويبكي معها ، فسحت ميلادي دموعها وقالت : ان اباك يا لوسيان قد حكم
عليه بالاعدام .

وانذعر لوسيان حتى اوشك أن يسقط على الأرض ، ثم عاد اليه رشده وسكينته وقال : أريد ان اعرف الحقيقة مهما كانت ومهما كان وقعها شديداً علي .

— نعم يا ولدي يحق لك ان تسأل معرفة هذه الحقيقة ، فاسمع الآن تعلم كل شيء . اني انكليزية وابوك هندي ، اما انا فاني من اشرف اسرات ايكوسيا واما أبوك فهو احد أبناء ملوك الهند الذين اغتصب ملكهم الانكليز .

وتنفس لوسيان الصعداء وقال : إذا ان ابي لم يكن من المجرمين . — ان أباك اعظم ببيل وقد اراد الانكليز ان يستعبدوه كما استعبدوا سواء فأبى نفسه الكبيرة حمل الضيم ، ودافع دفاع اليأس عن عرش أجداده وقا تل قتال المستبسل المستميت وطالما كسر جيش الانكليز شر انكسار لأنه كان يقود الهند بنفسه إلى ان خاضته الأقدار وخسر معركة كبرى وقع فيها اسيراً بأيدي الانكليز ، وأرسلوه الى لندنرا وقد عرفته واحببته واحبني حباً يشبه العبادة .

وكان أبي حاكماً في الهند وقد أقام في تلك البلاد دهرأ طويلاً ، وكان يحتقرهم ويكرههم اشد الكره ، ولو علم بحبي له لكان قتلي لا محالة . غير ان كره أبي للهنود لم يمنعني عن حب هذا الفتى واتفقنا على الزواج وعقد زواجنا بالسر كاهن من الكاثوليك .

فهرقت أسرة لوسيان بأشعة الفرح وقال : إذا ان ولادتي شرعية ولا شك في نسبي .

— هذا لا ريب فيه يا بني ، لأن امك لا ترتكب إثماً غير انك ابن رجل مضطهد ، ولنعمد الآن إلى حكاية ابيك فانه تمكن من الفرار من لندنرا بعد زواجنا على باخرة تجارية فحملته إلى الهند وهناك جمع بقايا جيشه وعاد إلى مقاتلة الانكليز وقتلهم ٣٠ عاماً كان يتراوح في خلالها بين الانتصار والانكسار فتارة يدهر اعداءه الى شاطئ البحر وطوراً يدحرونه فيعتصم في الجبال .

إلى ان قنط الانكليز منه فجعلوا يرسلون لقتاله الجيش تسلو الجيش حتى
أفنوا جنوده واضطر إلى مبارحة الهند والكف عن القتال لاحتاق جنده
ولما علمت الحكومة الانكليزية بفراره عينت جائزة عظيمة لمن يقبض عليه
وبشت العيون والأرصاد في كل مكان فهمي تقبض عليه اينما وجدته .

فسألها لوسيان : أيمكن القبض عليه وهو في فرنسا ؟
- نعم ، فان القبض عليه لا يكون مباشرة لأنه يوجد في باريس عصابة
تنتظر قدومه للقبض عليه بالسر .

- أكانوا يعلمون انه سيحضر إلى باريس ؟
- نعم فانهم كانوا يعلمون انه له فيها ولد وامرأة ..
ففرح لوسيان وقال : إذن سأراه ..
- كلا ، لأنه يسافر في هذه الليلة إلى الهافر وهناك سفينة تنتظره للذهاب
به إلى اميركا حيث يكون آمناً من الانكليز ولهذا جئت اليك كي أودعك
الوداع الأخير ..

- إذا انت تسافرين ؟
- لا بد لي ان اتبع زوجي .
فطوق لوسيان عنق امه بدراعيه وقال : كيف ابقى هنا وحدي وماذا
يتمني من السفر معك ؟

- أنت تسافر معنا إلى اميركا ؟
- بلا ريب ..
- وخطبتك ؟
- تسافر معنا ..
- اقظنها ترضى بالسفر ؟
- انها ترضى بكل ما ارضاه .
- أعلم انه يجب ان نسافر بعد ساعة ؟

- لا شيء يحول دون سفري وسفر خطيبتي فان ساعة تكفيننا للتأهب .
وعند ذلك سمعا مركبة وقفت عند باب المنزل فقالت ميلادي : هوذا قد
جاء ليسير بي . ثم طرق الباب الخارجي ففتح ودخل منه علي رجاء فاجتاز
حديقة المنزل وصعد اليه فقالت له ميلادي ابشر يا بني فستري اباك

وبعد ذلك بخمس دقائق كان هذا القاتل السفاك يضم لوسيان إلى صدره
وعلائم الحنو بادية بين عينيهِ وكانت ميلادي واقفة بالقرب منهما تنظر
نظرات الإعجاب إلى الولد وابيه وحسب لوسيان ان اياه من ابطال التاريخ؟
وان امه من ملائكة الطهر فصاح صبيحة فرح وقال : اني اسافر معكما الى
اقصى مكان في المعمور .

فقالا : اذا هلموا بنا فان الوقت غير فسيح
وأسرع لوسيان الى لبس ملابسه وخرجوا جميعهم الى منزل خطيبته ماري
وأخبرها لوسيان بجميع ما اتفق فوافقت على السفر وخرجت معهم فصاروا
جميعهم الى الهافر .

أما ميلادي فكانت في جميع تلك المدة مضطربة اشد الاضطراب لغوفها
من روكامبول ولم تكن خائفة من أن ينعمهم عن السفر بل كان معظم خوفها
من ان يرى لوسيان ويقول له ان هذا الرجل الذي حسبته من ابطال التاريخ
هو من ابطال اللصوص وتلك الأم التي حسبتها من ملائكة السماء هي قاتلة اختها
وابيها ، وهي شيطان بصورة انسان .



ولنعد الآن الى فرانز ، لقد تركناه فاقد الرشد في الجران اوتيل بين طبيب
يقول انه ميت لا رجاء منه وبين روكامبول الذي كان يثبت انه من الأحياء .
وقد خرج الطبيب مستاء وبقي روكامبول وكثير من الناس في الغرفة فقال
لهم روكامبول اني احتاج ان اكون وحدي مع هذا العليل ، فخرج الجميع

ولم يبق في الغرفة إلا روكامبول وفرنز .
وأخذ روكامبول مسحوقاً وأذابه في كأس ماء ثم اجلس فرانز في سريره
وفتح فمه وسقاه ذلك المسحوق وجعل يفرك صدغيه بالخل ولم تمض هنيهة حتى
اهتز فرنز في السرير ثم زاد الاهتزاز وجعل يتنهد .

غير انه لم يستيقظ ولم يفتح عينيه ولكن شفتيه تحركتا وخرجت منها
لفظة ميلادي بصوت ضعيف يشبه الهمس فأقفل روكامبول باب الغرفة من
الداخل وأقبل يصغي إلى كلماته لوثوقه انه مصاب بالنوم المغناطيسي وسمعه
يقول بصوت متقطع دون أن يفتح عينيه : أي ميلادي اني اعلم ان هربت وإلى
أين رحلت ، ولكن الأرض مهما اتسعت فلا يمنعني اتساعها عن طوفها
والوصول إليك .

ولم يخطئ روكامبول فإنه كان في حالة النائم ذلك النوم المغناطيسي وذكر
في الحال باكارا وتلك الفتاة اليهودية التي كانت تنومها فتعلم منها أسرار أندريا
وروكامبول فدنا من فرانز ووقف أمامه كما يقف من يحاولون التنويم وجعل
يشير إلى جبهته تلك الاشارات الاصطلاحية ويمد يده من فوقها دون أن يلمسها
وكان فرنز يظهر مقاومة الجواد العاصي على مروضه إلى ان ظهرت منه إشارة
الغضوع فوضع عند ذلك روكامبول يده على جبينه وقال له : أأمرك ان تنظر .
وأظهر فرانز جهداً عظيماً يدل على انه يمثل بالرغم عنه ثم قال : اراها
أرى الاثنين .

فقال روكامبول : من هما ؟

- ميلادي .

- حسناً ، ومن الثاني ؟

- علي رجاء فان الاثنين قد برحا باريس .

فاضطرب روكامبول وقال : متى ؟

- هذه الليلة ..

- إلى أين ذهبنا ؟
- إلى البحر .
- ألا ترى سفينة ؟
- نعم ...
- ما نوعها ولونها ؟
- من نوع الابريق مدهونة بالدهان الأسود ..
- ومن ترى فيها ؟
- ميلادي
- العلمها وحدها ؟
- كلا فهي مع علي رجاء و .
- أوجد معهم أحد أيضاً ؟
- نعم رجل وامرأة ..
- أتعرفهما ؟
- فسكتت فرنز هنيهة ثم قال : نعم عرفتتهما فهما لوسيان وخطيبته واني اراهما الآن .
- العمل السفينة متأهبة للسفر ؟
- كلا .. فان مراسيمها لا تزال في البحر .
- ولماذا لا تسافر ؟
- لشدة اضطراب البحر ولأن من يعهد اليه لإخراج السفن من الميناء يأبى الخروج بها حذر الأنواء .
- فقال روكامبول في نفسه : هذا كل ما أريد معرفته .
- وعند ذلك وضع يديه على جبهة فرانز وقال له : أمرك ان تصحو وتنهد فرانز لفوره تنهداً عميقاً وفتح عينيه فأجال في الغرفة نظراً حائراً إلى ان وقع نظره على روكامبول

أهذا انت يا حضرة الماجور وكيف أتيت الى هنا بل كيف أنا نفسي موجود في هذا المكان ؟

وأجابه روكامبول : اجتهد ايها الصديق ان تتذكر ما جرى لك ليلة أمس وانا اتم تذكارك ..

وصاح فرانز صيحة منكورة وقال : نعم ذكرت ذلك الرجل ..
ثم توقف عن الكلام فقال له روكامبول : تريد ذلك الرجل الذي أطلق حبلى الخناقين على عنقك وخنقك ، انهض وانظر في المرأة اثر الخنق في عنقك .
فصفر وجهه فرانز واجاب : تباً له من شقي .

— ان هذا الشقي هو علي رجاء زعيم الخناقين ووالد لوسيان وعشيق ميلادي الأول .

وذعر فرانز وسأله : كيف تعرف هذا ؟

— اسمع ايضاً .. ان ميلادي وعلي رجاء برحا باريس

— متى برحاها فاني أدركهما ولو ذهبا إلى اقصى المعمور .

— ان ادراكهما سهل لأنني اعلم إلى اين ذهبا .

— كيف عرفت ذلك وإلى اين ذهبا ؟

— أسألك المَعذرة ايها الصديق فانك انت الذي قلت كل ذلك لأنني نومتك يوماً مغناطيسياً .

وبينما قرنز ينظر إلى روكامبول نظرات الانذهال قال له روكامبول : اعلم انك مدين لي بالحياة فان احد الأطباء حكم انك ميت منذ ربع ساعة ولو لم اعترضه واتعرض لحيائك لكانوا دفنوك حياً فأنا قد خدمتك خدمة جليلة ، غير اني سأخدمك خدمة أجل من هذه وهي القبض على علي رجاء وعلي ميلادي التي لم تعد تهواك فاسمع الآن ما أريده .

ثم خلا به روكامبول نحو ساعة ودار بينهما حديث طويل لم يعلم به أحد

- ٤٥ -

كانت فـاندا لا تزال مقيمة في ذلك المنزل الذي سجن فيه السير جمس وأقام معها عصابة روكامبول .

وقد لبثت في هذا المنزل ١٥ يوماً لا تخرج إلا للنزهة في حدائقه إلى أن جاءها روكامبول فدخل تَوّاً إلى غرفتها وقال لها لقد جئتُك بتعليقاتي .

- كيف ذلك العلك عازم على السفر أيضاً ؟

- نعم ..

- إلى أين ؟

- لا أعلم الآن ، ولكنني سأعلم بعد يومين وسأصحب معي في سفري هذا ميلون ومورت ونويل .

- وأنا ؟

- تبقي هنا مع مرميس لحراسة جيبسي .

- والانكليزي ماذا تريد أن تصنع به ؟

- سأصعبه معي .

ثم قرع الجرس فأتى ميلون فقال له : تأهب للسفر بعد ساعة .

- أأسافر معك ؟

- نعم ..

ثم التفت روكامبول إلى فاندا وسألها : كيف حال جيبسي ؟

- إنها ستشفى بعد اسبوع ويعود اليها صوابها وهي قد تعلقت بي بعد قدومها إلى هذا المنزل فلا تفارقني لحظة .

- ومرميس العله فقد سلطته عليها ؟

- كلا لقد وثقت انها تحبه

- إذا عاد اليها صوابها فأني أريد أن تتزوج مرميس لأنه أهل لها

– والملايين ماذا جرى بها ؟
– إني مسافر للحصول عليها .

ثم مد يده إلى جيبه وأخرج منها غلافاً ضخماً مختوماً وأعطاه لفاندا وقال لها : خذي الآن هذا الغلاف وإذا لم أعد بعد ثمانية أيام فافتحيه واعلمي بكل ما فيه ، لأنه يتضمن تعليماتي . واضطربت فاندا كأنما خشيت أن يصاب روكامبول بمكروه جديد وقالت له : سأطيعك في ما تريد ولكن كيف لا تمود بعد ثمانية أيام ؟
– اني مسافر إلى الهافر .

– إلى انكلترا ؟

– لا أعلم إلى أين تكون وجهتي إلا بعد أن أبلغ متن السفينة .

وأطرقت فاندا برأسها ولم تلح بالسؤال . أما السير جيمس فإنه كان لا يزال في القبو موثق اليدين والرجلين وكان ميلون يحضر له الطعام مرتين في اليوم فيجعل وثاقه إلى أن يأكل ثم يعود إلى شدة ويدعه في ظلمات القبر .

وقد كان السير جيمس استرسل إلى اليأس في بدء أمره وحاول الانتحار مراراً فلم يفلح ، ثم استسلم إلى الأقدار وذهب ما أصابه من اليأس فلم يعد يكثر لما هو فيه .

وأقام في هذا السجن الضيق خمسة عشر يوماً إلى أن فتح يوماً باب القبو ورأى ميلون داخلا اليه غير أن ميلون لم يكن وحده هذه المرة فقد كان يصحبه رجل لم يلبث السير جيمس أن رآه حتى ارتعش إذ عرف أنه فرانز ، أي الماجور هوف خادم ميلادي الأمين

أما فرانز فإنه أخذ كيساً من جيبه مملوءاً من الذهب ودفعه إلى ميلون وقال : خذ جزءاً خدمتك . فأخذ ميلون الكيس وتظاهر بالسرور فأيقن السير جيمس أنه أغراه على خيانة روكامبول .

أما ميلون فإنه تركهما وانصرف ، فنظر السير نيفلي نظرة ابتهاج إلى فرانز وسأله : أنت هنا وكيف أتيت ؟

- أتيت لأبعدك فقد أغريت هذا الخادم الذي نيطت به حراستك وأنت حر الآن

- وروكامبول ؟

- ليس في المنزل .

ولكن هذا المنزل غاص بخدومه .

- إنك مخطيء أيضاً لأنهم قد برحوا المنزل كلهم ولم يبق فيه أحد وكل ذلك بفضل ميلون .

ثم فك قيوده وقال له : هلم بنا لأن الوقت ضيق .

- أخرج من هنا ؟

- نعم ثم نبرح باريس على الأثر وإذا أردت ان تكون حراً فلاني أطلب اليك ان تقسم لي ميمناً ان تطيعني مدة ٤٨ ساعة طاعة لا حد لها مهما كانت أوامري غريبة

- لاني أطيعك وأقسم لك على ذلك مهما كانت أوامرك لأني شديد الظماً إلى الحرية .

- إذاً إتبعني .

فتبعه السير نيفلي وخرج الاثنان خارج المنزل وكانت مركبة تنتظر على الباب ففتح فرانز المركبة وقال للسير نيفلي : أدخل .

- إلى أين نحن ذاهبان ؟

- إلى محطة السكة الغربية ، حيث نساfer في قطار نصف الليل إلى الهافر .

- وماذا نصنع في الهافر ؟

- نساfer منها إلى انكلترا

فاتقدت عينا السير نيفلي بأشعة الحقد وقال : كنت أود ان أنتقم من
روكامبول قبل السفر .

- إننا سذنتقم هناك لأن روكامبول في انكلترا .

فلم يخطر للسير نيفلي أن فرانز قد انفصل عن ميلادي وانضم الى روكامبول
وسافر وهو آمن مطمئن لا تدور الخيانة في باله .

- ٤٦ -

كان منظر ميناء الهافر غريباً في بابه لان السفن لم تخرج منذ أسبوع من
حوضه لكثرة العواصف والأنواء ، ولأن هذه السفن لم تجد مرشداً يحس
أن يخرج بها من الميناء ، فكانت الخارات والفنادق المجاورة للميناء غاصة
بالبحارة .

وكانت السفن تراقصها الرياح فوق المياه ، فيخشى عليها وهي داخل الميناء
ان تقطع مراسيها لشدة هياج البحر ، وندر وجود الناس على الأرصفة لشدة
عصف الرياح .

وهناك خمارة تدعى الفتاة المتوحشة ، كان فيها نحو ثلاثين رجلاً كانوا
ينظرون فيها من خلال الزجاج الى سفينة هندية تدعى سيوا ، وقد استلقت
أنظارهم لجمال رونقها ، وجعلوا يتحدثون فيها وقد افتتح الحديث بـ
قديم بينهم أحتت ظهره الأيام ، فكان يقول إن البحر هائج وهذه
العواصف لا تهدأ قبل ثمانية أيام على الأقل ، ولا يمكن لهذه السفينة الهندية
ان تخرج من الميناء .

فقال له أحد البحارة : رأيت ربانها ، فإننا لا نراه يفارقها ولم ينزل
مرة الى البر !

- نعم رأيت في السفينة نفسها وأما الربان الثاني فقد جاء في صباح اليوم الى هذه الخمارة لشحن ما تحتاج اليه السفينة من المؤونة ، ولكنه لم يتجاوز هذه الخمارة وما ذهب مرة الى الأسواق لأنهم يحضرون له جميع ما يحتاج اليه في الميناء وهو يتكلم بالانكليزية والفرنسية وأخاله يتقن جميع اللغات لأنني رأيت يكلم الهنود أيضاً .

وكان بين الحضور رجل في أذنيه حلقتين كبيرتين من النحاس ، فكان يسأل البحارة أسئلة مختلفة عن الميناء ومخارجها ، فيعلم منهم كل أمورها بالتدقيق .

ولبثوا على ذلك الى ان غابت الشمس ، فتفرقوا جميعهم وذهب كل في شأنه وبعد ساعة عاد ذلك الرجل الذي كانت في أذنيه الحلقتان وطلب الى صاحبة الخمارة ان تحضر له العشاء فقالت له : أتريد ان تأكل وحدك أم تحب ان يكون لك رفيق ؟

- بل أود ان يكون لي رفيق فمن هو هذا الرفيق ؟
- هو ربان السفينة الهندية الثاني وقد صعد الى الغرفة العالية .
- إذا سأصعد اليه .

ثم صعد الى الغرفة فلم يكذب يراه الربان حتى حياه تحية المرؤوس للرئيس فأقبل صاحب الحلقة الباب وقال له : كل شيء تهيأ ؟

- نعم على ما يرام .
- ألم يعرفوهم ؟
- لم يعرفوا أحداً منهم لان ميلادي مرت ثلاث مرات بالقرب من فرانز فلم تعرفه .
- ولا ميلون ؟
- وكذلك ميلون فقد صبغ وجهه بلون نحاسي وصبغ شعره بلون السواد فلم يعد يعرف

— أأنت واثق من بقية البحارة ؟

— ثقني من نفسي .

— إني مسرور منك يا نويل ، لأنك تبرهن لي عن ذكائك منسند

عهد بعيد .

فقال له نويل : لقد أقمت عشرة أعوام ، يا حضرة الرئيس ، في

خدمتك .

— أترى اننا نستطيع السفر غداً ؟

— إن البحر شديد الهياج ، ولكن الذي أراه أنه يجب السفر في

القريب العاجل .

فقال له روكامبول ، وكان متنعراً بشكل الهنود وواضعا تلك الحلقة في

آذانه : وأنا ايضاً أرثي رأيك ولا أبالي بالمواصف فقد الفتها ، ولا يعارض

علي رجاء في السفر لأنه لا ينتظر غير المرشد . وسيحصل غداً على المرشد لان

هذا المرشد هو أنا .

فضحك الاثنان وجعلاً يا كلان .

— ٤٧ —

كان الظلام مدلهماً ، والهواء زمهريراً ، والسفن ترقص فوق الأمواج

المضطربة فتلتطم بالقوارب ، وقد أقفرت الأرصفة من الناس لاشتداد

المواصف .

وكان على ظهر تلك السفينة الهندية التي تقدم ذكرها ، رجلان واقفان قرب

الدفة يتحدثان بصوت منخفض وهما نويل وميلون .

وكان كلاهما متنعرين أتم التنكير بحيث لو دخلا الى شارع فيرابو وهما بهذا

- الذي لما عرفهما أحد .
- وكان ميلون يسأل نوبل كيف حدثت هذه المعجائب وكيف أصبح هو الربان الثاني لهذه السفينة .
- فقال له نوبل :- اصنع إلي إلي إني موضح لك كل شيء .
- إني مصغ كل الإصغاء والذي أعلمه انك سافرت مع الرئيس الى انكلترا منذ ٣ أسابيع .
- نعم في اليوم التالي لإنقاذه من البئر .
- هو ما تقول لكن لماذا سافر الى لندرا ؟
- إنه ذهب لمقابلة وزير البحرية في المستعمرات فقال له ان الحكومة الانكليزية عيملت جائزة لمن يأتيها بعلمي رجاء رئيس الخناقين الأعظم فاعطني هذه الجائزة ثم أخبره بأمور كثيرة عن الخناقين . ويظهر ان الوزير وثق به ثقة عظيمة فإنه أعطاه جميع ما طلبه في الحال وعين له كثيراً من الرجال يمتثلون لأمره فأتينا توأ من بريتون الى هنا .
- إني لم أفهم شيئاً بعد .
- اصنع إلي فستعلم كل شيء . إنهم أعلموا الرئيس في الوزارة بأمور كثيرة . مثال ذلك : إنهم أخبروه ان سفينة هندية بحارتها من الهندود ، يقودها الربان الثاني ، ستحضر من الهافر كي يسافر فيها الربان الأول الى نيويورك .
- فسأله ميلون : العمل الربان الاول هو ذلك الرجل الذي جاء صباح أول أمس ؟
- هو بعينه ولكن كما رأيت لم يحضر وحده بل جاء بعائلته التي سترافقه في هذا السفر
- ولكنني لم أعلم بعد كيف اتصلت بهذه السفينة الهندية وصرت ربانها الثاني رصرنا نحن عصابة روكامبول بحارتها ؟

إن الامر بسيط فقل لي أذكر كيرشي والسير جورج ستوي ؟

- نعم .

- إن كيرشي أطلع روكامبول على بعض أسرار الخناقين . وأطلعته على بقيتها السير جورج ستوي وهو حاقداً على السير جيمس نيفلي وعلي رجاء حقداً لا يشفيه غير القتل .

- إنني أعلم كل ذلك .

- فاستعبد روكامبول السير جورج ، ولا بد لك أن تعلم ان السير جورج قد عزل من منصب رئاسة الخناقين في لندرا ، لكنه بقي في الظاهر رئيساً . وبقيت له تلك الاشائر والاصطلاحات السرية الخاصة بالرؤساء . فلما وصلنا الى لندرا أرسل روكامبول الى السير جورج تلفرافاً يأمره فيه بالحضور فحضر وأرسله روكامبول الى هذه السفينة الهندية التي كانت في مياه لندرا فعرف الربان الثاني بنفسه فاستقبله بملء الاحترام والخضوع .

ولقد فاتني أن أخبرك بأمر آخر وهو ان علي رجاء حين برح الهند كتب الى السير جورج ستوي مصدراً اليه الاوامر ولما كان السير جورج قد استبدل بالسير نيفلي أرسلت هذه الاوامر من لندرا الى السير نيفلي في باريس . غير أنه كان في قبضة روكامبول ، فوقعت هذه الاوامر بيد روكامبول وأطلع عليها السير جورج .

أما السير جورج فإنه حين قابل الربان الثاني علم منه انه لا يعرف علي رجاء ، وكان منصب الرئيس يدعو الربان الى طاعته في كل شيء . فأمره أن يركب مع ثمانية من بحارة قارب السفينة . فامتلأ وركب السير جورج معهم ، فتولى هو نفسه قيادة القارب ، ولم يكن باقياً في السفينة غير أربعة من البحارة .

فسار السير جورج بهذا القارب الى سفينة تجارية إنكليزية ، كانت راسية في محل معتزل فأنزلت السفينة كثيراً من القوارب الغاصة بالرجال ،

فأحاطوا بقارب السير جورج وأسروا الربان الثاني والبحارة الثمانية وحبسوهم
مقيدين في السفينة

أما السير جورج فإنه بقي في القارب وبقي معه إثنتان من بحارة تلك السفينة
الانكليزية وهما مورت وأنت يا ميلون وأنا .

أما السفينة الانكليزية فقد كانت أرسلتها الحكومة بطلب روكامبول وعادت
بالربان والبحارة الهنود الى الميناء وسلمتهم للحكومة . أما السفينة الهندية
فسارت بقيادتي الى الهافر ، ولما وصلنا الى هنا اخترت من نحتاج اليهم من
البحارة من ميناء الهافر وقيدنا البحارة الهنود الاربعة وهم الآن يشنون ويتوجعون
في عنبر السفينة .

أعلمت الآن كيف احتال روكامبول على علي رجاء وكيف بات هذا الرجل
في قبضتنا ؟ فإنه هو الذي أوصى عملاءه أن يرسلوا الى ميناء الهافر سفينة
تلتظره فيها ، فأرسلوا له هذه السفينة وأخبروه ان اسمها سيوا ، فلما
وصل من باريس الى الهافر رأى السفينة سيوا فنزل اليها وحبس نفسه فيها
دون ان يدري .

- متى نسافر ؟

- غداً .

- وروكامبول ، أيعون معنا ؟

- إنه متشكر بزي المرشد الذي جاء صباح اليوم .

فدهش ميلون وقال : إني لا أرى أقدر منه على التشكر لاني حدثت فيه كل
النهار فلم أعرفه .

فوضع لوبل إصبعه على فمه وقال له : اسكت هذه ميلادي قادمة .

- ٤٨ -

وكانت ميلادي قد صعدت من غرفتها الى ظهر السفينة ، وتبعها علي رجاء فتأبط ذراعها ووقف وإياها على مسافة بعيدة من ميلون ونويل بحيث يتعذر وصول صوتيهما اليهما ، غير ان الهواء كان يهب من جهة ميلادي الى جهة ميلون ونويل فيحمل اليهما حديثهما وهذا ما سمعاه :

قالت ميلادي : أظن يا علي اننا نستطيع السفر ؟

- هون شك .

- وهذا البحر ألا ترى أمواجه يبلغ زبدها الى ظهر السفينة ؟

- إن المرشد الذي جاءنا في الصباح يشهد اننا نستطيع الخروج من الميناء ومتى خرجنا منها وبلغنا الى عرض البحر تهدأ الامواج وتسكن الرياح لانها في الموانئ أشد منها في عرض البحار .

- آه لو تعلم كم اود السرعة في الفرار .

- ألا توالين تخافين هذا الرجل ؟

-- إني أخافه أشد خوف حتى ان شعري يقف عندما يخطر في بالي وهو

مثل لي في كل خيل .

- لا تخشين أيتها الحبيبة بأساً ، فلا تمر بضع ساعات حتى نأمن من

كل خطر .

فسكنت ميلادي هنيهة ثم قالت : أأنت واثق من الرجلين الذين تركناهما

في باريس ؟

- كما أثق بنفسي .

- أظن أنهما يستطيعان بالتوكيل الذي أخذه منا ان يقبضا تلك المبالغ

الطائلة المودعة في بنك دافيس همفري ؟

- دون شك .

— أأنت واثق أيضاً أنها يحملان هذه الاموال البينا في نيويورك .
 — ليس لي أقل ريب ، لانهما من عبيدي المخلصين .
 فنظرت ميلادي الى السماء وقد بدأت تظهر منها أشعة الفجر فقال لها علي:
 إطمئي سنبرح الهافر بعد ساعتين .

فظهرت عليها علائم السرور وقالت : سنأمن روكامبول بعد ساعتين ،
 ولو كنت تعلم ما لقيته في هذه الايام الثلاثة من العناء ، لعزيتني لخوفي من
 هذا الرجل الذي أنقذ جيبسي من المحرقة ، فقد خيل لي انه وقف على أثرنا
 وكنت كلما رأيت قارباً يسير في مياه الميناء أحسب انه قادم فيه .

— ما هذا الجنون ؟ أفقدت ثقتك بي الى هذا الحد ، أنسيت أني
 علي رجاء ؟
 فسكتت ميلادي ولم تجب لان قلبها كان ينذرهما بمصاب اليم ، فكانت
 عرضة لتأثرات هائلة .

واستأنف علي الحديث وقال : إني أخبرت لوسيان ان السفينة ستبحر
 عند الفجر لانه يجب ان يكون على ظهرها حين إبحارها كي يودع فرنسا
 الوداع الاخير .

— إذا سأذهب اليه انا ، فقد رأيت نوراً نافذاً من غرفته مما يدل على انه
 غير نائم .

ثم تركته ونزلت الى غرفة لوسيان فوجدته متكئاً على فراشه يتأمل في
 ماضيه ومستقبله ، وفي ذلك الاب الذي بقي عشرين عاماً لا يعرفه ، ثم
 لما عرفه علم انه محكوم عليه بالاعدام ، واضطر الى الفرار معه الى البلاد
 الاميركية .

فلما رأى أمه داخلة اليه قال لها : أدنا وقت السفر يا أماه ؟
 — نعم فإننا نبرح الميناء بعد ساعة ولا يزال الوقت فسيحاً لديك إذا أردت
 الرجوع مع خطيبتك الى باريس .

- لاني أحب باريس لاني ربيت فيها ولكن الواجب يقضي علي ان أكون مع والدي. وما زالت خطيبتي راضية بهذا السفر فاني لا آسف لبعدي عن فرنسا ما زلت مع خطيبتي ووالدي .

فقبلته قبلات ملؤها الحنو وقالت : هلم بنا إذا الى ظهر السفينة فقد بدأوا بنشر قلعها .

وبعد ذلك بساعة كانت هذه السفينة الهندية تسير في الميناء خارجة الى عرض البحر بقيادة روكامبول الذي كانوا يحسبونه مرشد الميناء .

وكان روكامبول يصدر الأوامر الى البحارة بمهارة لا تبقي مجالاً لأقل ريب لأنه من كبار العارفين بفنون البحر . فسمارت بهم السفينة وجميع ركبها على ظهرها حتى خرجت من الميناء ، فجعلوا ينزلون الى غرفهم تبعاً فلم يبق غير علي رجاء ، وكان واقفاً ينظر الى اضطراب الأمواج غير مكترث لأخطارها بعد وثوقه من النجاة من روكامبول ، إذ لم تخطر له الخيانة في بال لان جميع البحارة كانوا يشيرون إشارات الحناقين التي تعلموها من روكامبول ويستحيل ان يخون أعضاء هذه الجمعية رئيسهم الأعظم .

أما ميلادي فلأنها كانت لا تزال موجسة خوفاً شديداً وقلبها يحدثها انها لم تنج بعد من أخطار روكامبول

وبينما كانت في فراشها عرضة لمثل هذه الهواجس والتصورات ، سمعت صوتاً يشبه الأنين . فأصغت وعلمت انه غير صوت الصواري وغير أنين الرياح بل هو أنين إنسان خارج من أعماق السفينة . فاضطربت اضطراباً شديداً وهمت بالصعود لاختبار زوجها ، ولكنها رأته جاء من نفسه كي يطمئن عليها فأخبرته بما سمعت فذعر علي وأصغى الى هذا الأنين ، فعلم انه أنين قوم من الهنود ، إذ كانت تصل الى مسمعه كلمات متقطعة باللغة الهندية لبعده المسافة .

فداخله الشك وقال : كيف حبس هؤلاء الهنود في عنبر السفينة ، دون

أن أعلم ؟

فقال له ميلادي ، تنبه فان قلبي ما أنذرني بمصاب إلا وكان المصاب واقعاً لا محالة .

فعاد علي الى ظهر السفينة فوجد البحارة في مواضعهم والمرشد ، أي روكامبول ، يصدر الأوامر ونويل ، أي الربان الثاني ، في موضعه عند الدفة فلم يلتبه أحد لصعوده غير روكامبول .

وكان الهواء زمهريراً ، ونويل قد صبح وجهه ويديه بلون الهنود . فبينما كان علي يراقبه وهو غير منتبه اليه هبت نسمة شديدة كشفت قميصه عن صدره ، فظهر لملي انه ناصع البياض خلافاً للون وجهه ويديه فأجفل وقال في نفسه : إن هذا الرجل متنكر وهو من أهل الغرب ولكن كيف يمكن ان يحل محل الربان الثاني المرسل إلي من كلكوفا ؟

وقد أيقن انهم خانوه فأخذ المسدس من جيبه وهم باطلاقه على نويل لكنه أعاده فجأة الى جيبه وقال : الخيانة قد حدثت ، وجميع بحارة السفينة تحت امره مدبر المكيدة وقد حبسوا البحارة الهنود دون شك ولا بد لي قبل كل شيء أن أرى اولئك البحارة الأصليين فأنتقم من العنبر واقف على أسرار المكيدة فأستعين بهم على مقاومة أصحابها .

ثم رجع أدراجه وروكامبول يراقبه دون ان يعلم . فنزل الى السفينة وذهب الى العنبر فأصغى لأنين الهنود جلياً ورأى الباب مقفلاً فجعل يتمعن الفكرة في وسيلة لفتح الباب .

وفيا هو يبحث عن آلة يتمكن بها من كسر الباب رأى فجأة رجلاً قد وقف أمامه فصاح صيحة الرعب وتراجع منذراً الى الوراء كأنما رأى ميتاً قد بعث من قبره .

أما هذا الرجل الذي خرج الى علي رجاء من بين البراميل المكسدة في العنبر فقد كان الماجور هوف ، أي فرانز ، الذي توهم انه قتله بحبله وانه بات

من الأموات .

أما علي رجاء فإنه قبل ان يتصل الى منصب زعيم الخناقين الأعظم كان من عصابة الخناقين وقد نال شهرة خاصة باطلاق الحبل على العنق ، فما أطلق حبله على عنق رجل إلا قتله لا محالة ، فكيف أمكن لفرانز ان يسلم من حبله وقد رآه بعينه صريخاً على الأرض؟ وهب انه سلم من الحبل فكيف اتفق وجوده في هذه السفينة ؟

غير ان لأهل الشرق الاقصى إعتقاد بالارواح لا يتزعزع ولا يزول من نفوسهم مهما استنارت هذه النفوس بالعلم والمعرفة . ولما كان علي موقناً ان فرانز قد قتل رجع اليه اعتقاده الهندي وأيقن انها روح فرانز قد ظهرت أمامه فتراجع منذعراً حتى التصق بالجدار وهو يقول : إلى الوراها أياها الخيال الى الوراها ! .

وكان علي متسلحاً بمسدس وخنجر فلم يخطر له ان يطلق المسدس او يستل الخنجر لو وثقه انه أمام روح فرانز والسلاح لا يؤثر بالارواح .

غير ان اعتقاده ما لبث ان تززع حين سمع صفير فرانز ، ورأى رجلين قد أسرعوا اليه فأنقضوا جميعهم على الهندي فجندلوه وجردوه من سلاحه . وكان اللذان أقبلا لنجدة فرانز ميلون ومورت .

وكان ميلون قد ركع فوق صدره وقال له : إني مأمور بقتلك إذ صبحت أقل صباح .

وقال فرانز لميلون ضع ركبتيك فوق صدره ولكن لا تطبق فمه ، لاني أمنعه عن الصياح ولكفي لا أمنعه عن الكلام ، إذ قد يخطر له محادثتي .

فرفع علي عينيه الى فرانز وقال له : إذا أنت حي ولم يقتلك الحبل .

- كلام أمت كما تراني .

- ألدبك أوامر بشأني ؟

— ربما .

— من الذي أصدر اليك هذه الاوامر ، العلم الربان الثاني ؟

— كلا بل هو مرشد السفينة .

فارتعش علي وعلا عند ذلك أنين الاسرى فقال له فرانز ، الملك تستغرب هذا الأنين ؟

فأجابه علي : قبحت من خائن لقد علمت كل شيء إنك واصحابك قد استوليتم على سفيني .

— هي الحقيقة بيمينها .

— وهؤلاء الأسرى هم خدامي الهنود الأمناء ، ولكن الهنود مشهورون بالصبر ولا بد لهم من كسر الباب والهيء لنجدي وإنقاذي .

فقال له فرانز بلمهجة الساخر وعند ذلك تأمر بشنقنا ، غير أنه بقي أمر لم تعرفه يا حضرة الرئيس ، وهو ان بحارتك الاثني عشر قد أصبحوا أربعة فقط فاذا تخلصوا من أسرهم لا يستطيعون مقاومتنا .

— تباً لكم أيها الأشقياء العلمكم القيتهم في البحر ؟

— كلا بل أرسلناهم في سفينة إنكليزية إلى لندرا .

فأن علي أنين القناطين وقال : ويحك أيها الخائن ماذا فعلت ؟ ومن هو هذا الرجل الذي تخدمه ؟

— هو نفسه سيخبرك باسمه .

ولم يكف فرانز يتم حديثه ، حتى دخل مرشد السفينة ، بعد ان عهد بقيادتها الى نويل ، فقال لعلي رجاء إذا كنت تريد ان تعرف من أنا ، فاعلم اني ادعى أمام « ميلادي » الماجور أفاتار ، وأما أمامك فإني ادعى روكامبول .

ثم أشار الى ميلون بالنهوض عن علي وامر علياً بالوقوف فقال له : إنك انت وميلادي قد اشركتما بسرقة ثروة فتاة قد توليت

حمايتها فهل تريدان إرجاع هذه الثروة الى صاحبها ؟
 فأتقدت عينا علي يحمر الحقد وأجاب : كلا لا نرجعها ما زال لنا
 عرق ينبض .
 - إذا اضطر الى عمل عملا يكسبني مثل هذه الثروة المختلسة وهو القبض
 من حكومة الهند الجائزة التي عيبتها لمن يقبض على علي رجاء .
 فاصغر وجه علي من الرعب وقد أدرك حرج الموقف غير انه لم يجب بحرف
 فقال رو كما بهول لعصابته : أحكموا وثاق هذا الرجل وضعوه في السجن مع
 السير جيس نيفلي .
 ثم تركهم وصعد الى ظهر السفينة ، بينما كانوا يقيدون يديه ورجليه
 بقيود الحديد .

- ٤٩ -

لما صعد علي رجاء الى ظهر السفينة غادر ميلادي في غرفتها مضطربة
 الحواس لما سمعته من أنين الأسرى ، ولو كان حدث لها مثل هذا منذ
 عشرين عاماً لما اكرثت له لأن ثققتها بعلي في ذلك العهد كانت فوق كل
 حد . غير ان علياً أصبح كهلاً ، وهو وإن كان لم يزل وحشي الأخلاق غير ان
 الأيام قد أخذت إقدامه وثباته وقد باعته ميلادي مرات فرأته يقف ويتردد
 في كل امر خطير ، فضعفت تلك الثقة به واشتدت مخاوفها .

ومع ذلك لم تسرح غرفتها بل لبثت فيها تنتظر عودة علي ، الى ان
 مضت ساعة دون ان يعود ، فزادت هواجسها وصعدت الى ظهر السفينة
 كي تبحث عنه ، فرأت جميع البحارة في مواقفهم ما خلا المرشد . وبحشت
 عن علي فلم تجده ، فنزلت الى غرفته فرأت بابها مفتوحاً ، ورأت رجلاً

جالساً فيها أمام مائدة وظهره متجه الى الباب فما شككت انه علي ودخلت وأغلقت الباب .

وعند ذلك التفت الرجل فذعرت ميلادي ذعراً شديداً واوشكت ان تسقط على الأرض لأن الرجل الذي رآته كان مرشد السفينة ، ولكنه لم يكن اصفر الوجه ولم يكن في أذنه حلقة ولم يكن مسترسل الشعر بل كان بوجه الماجور أفتار الذي القى في قلبها هذا الرعب . فالتفت اليها روكامبول وقال بهرود : إني انتظرك يا سيدتي منذ حين .

ولما رأى ما كان من انذعارها قدم لها كرسيّاً وقال : اجلسي يا سيدتي واطمئني فإنك في حاجة الى صفاء الذهن فلقد نصحتك في باريس خالص النصيح فلم تكترثي لنصحي لأنك توهمت انك تستطيعين النجاة من قبضي مع علي رجاء شريكك في الجريمة فبرحتما باريس تحت جناح الظلام وصحبتا لوسيان وخطيبته واباها .

فأطرقت ميلادي برأسها دون ان تجيب وبقيت واقفة ، فقال لها روكامبول : إسمحي لي يا سيدتي ان اخبرك عما جرى بإيجاز كي تعلمي سرج موقفك

ثم قص عليها ما عرفه القراء من استيلائه على السفينة بمساعي جورج ستوي وإرسال ثلثي بجاتها الى لندن ، الى ان علمت انه هو الأمر النهائي في السفينة وان بجاتها لا يخالفون له امراً فقال لها : والآن لقد عزمتم على الوفاء بوعدي فأسلم علي رجاء وعامله السير جمس الى الحكومة الهندية ومس الن قائلة ابيها واختها الى الحكومة الانكليزية لترى رأيها في عقابها .

وكان ميلادي لم تثق بحديث روكامبول فقالت له : انت تدعي ما لست قادراً عليه لأنك لا تعلم من هو علي رجاء

فابتسم روكامبول وقال لها : إنك مخطئة يا سيدتي فإن علي رجاء الذي تعتمدين عليه هو الآن مقيد بقيود الحديد وملقى في عنبر السفينة مع اولئك

البحارة اللذين كنت تسمعين انينهم .

فارتعدت ميلادي ثم قالت : كلا ان هذا محال وانك من الكذابين .
فنادى روكامبول عند ذلك فرنز وقال له : تعال أيها الماجور واثبت
لميلادي اني من الصادقين

فدخل فرانز ولما رآته ميلادي اوشكت ان تجن وحاولت الفرار غير
انها وجدت ان فرانز أقفل الباب من الداخل ، فركعت أمامه وقالت له :
أسألك الرحمة والعفو .

أما فرانز فانه ضحك ضحكاً شديداً وقال لها : لا يحق لي يا سيدتي ان
ارحمك وأعفو عنك فليس امرك في يدي ، وما انا صاحب السلطة في هذا
المكان . انك تخليت عني وانضمت الى علي رجاء ، فانضمت انا الى اعدائك
واصبحت عبداً لهم لا اخالفهم فيما يأمرن

فجمعت ميلادي تنظر نظرات الذعر والرعب الى هذين الرجلين وهي لا
تعلم من سيكون القاضي عليها .

وعاد روكامبول الى الحديث فقال لها : لقد عرضت عليك يا سيدتي طرق
الخلاص والعيش عيشة سعيدة إذا كان ضميرك يساعذك على هذا العيش فابيت
وتصامت عن نصائحي .

فعدت إلى ميلادي/حيتها وقالت : كيف أقبل وأنت تريد نهب ولدي ؟
- كلا ، لا أريد نهبه بل أريد تجريده من ثروة ليست له .
- ان هذا محال ولو قطعت ارباً فليس من يعلم هذه الثروة إلا أنا فلا تصل
اليها يد مغتصب .

فانبرى لها فرنز وقال : لقد اخطأت يا ميلادي فاني أعرف موضعها أيضاً.
إرتعشت ميلادي وقالت أنت ؟
- نعم ، فاني عشت معك عشرين عاماً فما فاتني سر مر اسرارك وأنا اعلم
الآن انه إذا عرض على السير جوهن ماك فرسون المقيم في ادنبرج هذه

المذالية المعلقة بمنقك يعطي حاملها تلك الثروة المودعة في بنك مهبري دافيس وشركاه .

فاضطربت ميلادي اضطراباً عظيماً وجعلت تنظر إلى الأثنين نظرات غر وقع في فخ وتقول ولدي .. انهم يريدون نهب ولدي .

فقال لها روكامبول أخفضي صوتك لئلا يسمع لوسيان .

- وإذا سمع ؟

- نضطر الى ان نطلعه على الحقيقة .

- ولكنه لا يصدق اقوالك .

- ربما كان ما تظنين ولكنه لا يلبث بعد بضعة اشهر حين يحكم عليكم القضاء بالشنق امام سجن نوجات ان يصدق ما قلناه .

فاختلجت ميلادي وركعت أمام روكامبول وقالت انك يا سيدي لا أثر للرحمة في قلبك .

فأجابها بصوت يتهدج انك مخطئة يا ميلادي ولكنها مهمة يجب علي قضاءها ، فاعلمي الآن ان الوقت ضيق وقد دنونا من شواطئ إنجلترا فهل تريدن المضايقة ؟

- ماذا تعني بها ؟

- أعني اني اكتب جرائك وأدع لك حب ولدك وابقى لك شيئاً من هذه الثروة التي سأرجعها الى صاحبها .

- أتفعل هذا ؟

- ليس لي حق التصرف بهذا المال ولكني اثق ان ابنة اختك توافقني على ما أفعل .

- وبعد ذلك ؟

... هذه شروطي وهي ان تعطيني هذه المذالية المعلقة بمنقك وعندما نصل الى إنجلترا تخرجين من السفينة مع ابنك وخفيته وأبيه وميلون خادمي

الأمين ، فيأخذ ميلون المدالية ويبقى معك في إنجلترا الى أن يقبض المال ويعود معك الى فرنسا حيث تقيمين فيها مع ابنك وهو لا يعلم شيئاً من سابق أعمالك وعند ذلك يعطيك ميلون من هذه الثروة مليوناً وهو يكفيك للعيش مع إبنك وامراته عيشة سعة

فأطرقت ميلادي برأسها الى الأرض وهي لا تزال مترددة ثم رأت ان لا حيلة لها ولا رجاء بالمقاومة فانزعجت المدالية من عنقها ودفعتها الى روكامبول وهي تتنهد وتقول : وعلي رجاء ؟

فأخذ روكامبول المدالية وقال : إنك لن ترينه بعد الآن ؟
- كيف ذلك ؟

-- إني سأذهب به الى كلكتوتا وأسلمه الى حاكم الهند .

ثم التفت الى فرانز وقال له : أرى ايها الماجور اننا قد دنونا من الشاطئ فاصعد الى الربان الثاني وقل له ليعد القارب .

فخرج فرانز وقالت ميلادي : لكن كيف تفرق ولدي عن أبيه ؟
فابتسم روكامبول وأجاب : سوف ترين لقد أعددت كل شيء .

فأحنت رأسها وجعلت الدموع تتساقط من عينيها .

وبعد ساعة أنزلوا القارب الى البحر وأنزلوا فيه جميع أمتعة ميلادي ولوسيان وخطيبته بأمر روكامبول .

وكان روكامبول أمر ان يقدم الشاي للوسيان وخطيبته ، فوضع فيه مخدراً حتى إذا شربه مع خطيبته تخدروا جميعهم وناموا . أما ميلون فإنه لما تم نقل الأمتعة عاد الى روكامبول قائلاً : لقد تم كل شيء .
- إذأ لقد حانت ساعة الفراق .

فتنهد ميلون وسأله : العلك تسافر ايها الرئيس سفيراً طويلاً ؟
- لا أعلم

- ولكننا نلتقي بعد ذلك على الأقل ؟

- لا أعلم أيضاً ، إسمع الآن تعليماتي وخذ هذين الكتابين الى لندن فاعطهما الى مس سيسيليا وهو يتضمن الشكر لها عن مساعدتها لي على مقاومة الخناقين وحسن توصيتها بي لدى وزير البحرية ، والثاني للطبيب كرشوف الألماني الشهير .

ثم تصحب ميلادي ولا تفارقها إلا حين سفرها ، وبعد ذلك تذهب الى ايكوسيا ومعك هذه المداوية فتقبض من الرجل الذي أخبرتك عنه جميع ثروة جيبسي ثم تعود الى فرنسا .

- وماذا عسى تستفيد جيبسي من هذه الثروة وهي مجنونة ؟

- إني واثق من شفائها ومق شفيت فإنها تتزوج مريس وهو ينفق ريع هذه الثروة في أحسن وجوه الخير .
فقال له ميلون بصوت يتهدج من الخنو : إاد قلبي ينذرني بأنك مفارق أوروبا فراق الأبد .

- وأنا أيضاً أعتقد بالأقدار مثلك ، وقلبي يحدثني إني لا أموت إلا في باريس . واصغ إلي يا ميلون: إني كنت شر الناس ثم تبت ، ولكن الله لا يقبل توبتي إلا إذا كرست ما بقي لي من حياتي لصنع الخير . وقد كنت حسبت بعد حادثة فاسيليك ان مهمتي قد انقضت فحاولت الراحة بالانتحار لكنني نجوت فكانت تلك الحادثة وحادثة نجاتي من لغم تيميلون أعظم برهان على ان الله لم يرد لي الموت وان مقاوتي للخناقين في لندن وباريس يجب ان أتمها في الهند مقر هذه الطائفة

فغطى ميلون وجهه بيديه وبكى ثم التفت اليه وسأله : ألا تصحبني معك أيها الرئيس ؟

- كلا إذ يجب أن تبقى في أوروبا لتنفيذ أوامري .

ثم دفع اليه غلافاً ضخماً مختوماً كتب فوقه اسم مريس وقال له والآن قد حان الفراق أيها الصديق فأستوعك الله .

فأخذ ميلون يد روكامبول فقبلها وغسلها بدموعه وهو يقول: قل يا سيدي الى اللقاء ، واسأل الله معي ان نلتقي .

وبعد ذلك ببضع دقائق أنزلوا الى القارب لوسيان وخطيبته وأباها وهم مخدرون لا يعون على شيء . ثم نزلت في أثرهم ميلادي فقال لها روكامبول: لقد أمرت ميلون ان يدفع لك مليوناً بعد شهر . فنظرت اليه نظرة ملؤها العظمة والكبرياء .

فقال لها : لا ينبغي يا سيدي أن تنظري إلي هذه النظرات ، بل يجب ان تحمدي الله الذي أنعم عليك بابن باسل شريف كان السبب في إنقاذك من عقاب الله وعقاب الناس . لأن الله لا يعاقب الأم المجرمة كي لا ينسحق قلب ولدها البريء .

فلم تجبه ميلادي بحرف ونزلت الى القارب ، واندفع بهم إلى البحر بقيادة ميلون .

أما روكامبول فإنه التفت الى نويل وقال له : سر بنا الآن في طريق الهند .

- ٥٠ -

بعد ذلك بأربعة أشهر كانت جيبسي مع فاندا جالستين على مقعد في حديقة ذلك المنزل الذي أخذته فاندا من السير جيمس نيفلي ومعها رجل هو ذلك الطبيب الألماني الذي أرسل اليه روكامبول كتاباً الى لندرا مع ميلون يدعوه فيه الى معالجة جيبسي .

وكانت فاندا تحدث الطبيب بصوت منخفض لا تسمعه جيبسي فتقول :
أتظن يا حضرة الطبيب ان جيبسي قد شفيت من مرضها ؟

- كل الشفاء .

- ألا ترى خطراً عليها بارجاع الشاب الذي تهواه ؟

- بل ان وجوده معها الآن يبعد عنها كل خطر في المستقبل .

فقامت فاندرا لفرورها ونادت ميلون وقالت له : اذهب في الحال الى مرميس
وقل له يحضر .

وكان الطبيب أمر بإبعاد مرميس عن جيبسي مسدة معالجتها ، فأقام في
منزل خارج المدينة ، وقد تغيرت حالته في هذه المدة وتبدلت أخلاقه فباتت
مظاهره وطباعه تدل على الخير بعد ان كان من زمرة اللصوص .

فلما وصل اليه ميلون وأخبره بوجود عودته الى جيبسي أوشك ان يحن
من فرحه . فلما صدق ان سمع حديث ميلون حتى غادر المنزل غير مكترث به
فامتطى جواده وأطلقه ينهب الأرض الى منزل من يحب .
وكانت فاندرا تنتظره عند باب الحديقة فلما وصل اليها ترجل ، فأخذت
فاندرا بيده ودخلت به الى المكان الذي كانت فيه جيبسي .

فلما رآته جيبسي قادماً من بعيد ارتعشت ثم احمر وجهها والطبيب بعيد
عنها يراقب حق اذا وصل اليها مرميس مدت اليه يدها وقالت : اجلس يجاني
ايها الصديق فلم أعد مجنونة ، وأنا الآن اذكر كل ما مضى ، فإنك انت الذي
أنقذت النورية المسكينة وأنت الذي جئت بي الى فرنسا وأنت تحرسني مسدة
جنوبي وتسهر علي سهر الأخ على اخته .

ثم جذبتة اليها وقبلت جبينه وقالت له بصوت يضطرب : هذا دليل
امتناني وعربون حيي لك .

وكان الطبيب وفاندرا واقفين على مسافة بعيدة عنهما يراقبانها ، فقال
لها الطبيب : إن الخطر قد زال ولكنه قد يعود ، إلا إذا أسرعتم
بمعقد زواج هذين العاشقين ، فلما جيبسي إذا صارت أما زال عنها
كل خطر .

-- سنسرع جهد الإمكان لا سيما وان هذه هي إرادة الرئيس .
وقد تنهدت فاندأ حين ذكرت روكامبول ، فإنها منذ خمسة أشهر أي منذ
غادر باريس لم تره ولم يصل إليها شيء من أخباره

* * *

مر على ذلك شهر والعاشقان مقيمان في منزل واحد ولكنهما لم يتزوجا ،
وعاد الطبيب الألماني الى محل إقامته في لندرا وشفيت جيبسي شفاء تاماً إلا من
غرامها بمرميس فلإنها بلغت بحبها إياه حد الهيام

على انها كانت تبدو دائماً بمظاهر السويداء على ما هي عليه من الغنى والجمال
والصبوة والشباب . فلم تكن فاندأ ومرميس يعلمان سر هذه الكآبة .
وقد سألتها فاندأ مراراً كثيرة ، فكانت تندفع في البكاء ولا تجيب بحرف .
وكانت حين تباحثها بقرب زواجها بمرميس تنهداً عميقاً وتسكت فسرت
هذه الكآبة الى مرميس والحزن أقرب جار للياس .

وبينا كان مرميس جالساً يوماً مع فاندأ يتحدثان بكآبة جيبسي ، قطب
مرميس جبينه وقال . لقد عرفت الآن سر هذا الحزن وهو ان جيبسي لا تزال
تهوى السير أرثر نويل .

— إنه فكر بعيد عن الصواب ، فإن جيبسي تحترق عاشقها القديم . والمرأة
لا تحب من تحترق .

— من يعلم ، إن الطباع تختلف !

— ألم ترها كيف اضطربت حين رأتك ، وكيف قبلت جبينك وقالت
لك أحبك ؟

— نعم ، ولكن هذا الحب قد يكون حب إخاء وإن قلبها لا يزال يهوى
السير أرثر .

- أيمكن ان تهوى هذا الذي أهانها وتحلى عنها في ساعة الخطر ؟
فأصفر وجهه وقال بلهجة الراضى : كل شيء ممكن !

وكان اضطراب مرميس يحمل على الاشفاق . ولم يزل لفاندا بعض السيادة عليه فقالت له : إن كل ما تقوله مبني على الظنون . إذهب الليلة الى منزلك ولا تبديت معنا ، وأنا أقسم لك إنني سأقف على الحقيقة ، وأطلعك عليها صباح غد .

فامثلت مرميس صاغراً وركب جواده وانصرف .

ولم يكدر مرميس يتوارى عن أنظارها حتى ذهبت الى غرفة جيبسني وطرقت بابها فأذنت لها جيبسني بالدخول بصوت يضطرب ، ولم تكن قد رقدت بعد بل انها كانت تكتب . فجلست فاندا قريبا وأخذت يديها وقالت لها : أتحبين مرميس يا جيبسني ؟

فصبغ وجهها بسلون الاحمرار وقالت : إن حبي له فوق كل حب ، وكل جوارحي تهواه .

- إذا كان ذلك ما تقولين ، فما هذا الحزن عند قرب موعد زواجكما ؟ وما لورد خديك قد ذبل كأنك مكروهة على الزواج ، بل كأنك مقدمة ضحية على هيكله ؟

فنظرت جيبسني الى فاندا نظرة تشف عن فؤاد ملؤه اليأس وقالت : انك يا سيدتي أحسنيت إلي إحساناً عظيماً وعاملتني بحنو الأمهات منذ عرفتك ، فهل تسمحين لي بمثل هذه المعاملة بضع ساعات ؟

- ماذا تريدين بهذا القول ؟

- أريد ان أستملك الى صباح غد ، فإذا عدت إلي غداً صباحاً تعلمين حقيقة السر الذي أشكل عليك .

وكانت تتكلم هذا الكلام بلهجة القانطين ، وقد اتقدت عينها فجأة فخشيت فاندا أن يعاودها الجنون ، ولم تلح عليها بالسؤال . فقامت على

أن تعود إليها في الصباح ، فعانقتها جيبسي عناقاً طويلاً وضمتها إلى صدرها ضمّاً شديداً .

وأحست فاندا بدمعتين حارّتين سقطتا على عنقها فخرجت فاندا من غرفتها وهي تخشى أن يكون قد عاد إليها الجنون ، وباتت تلك الليلة على أحر من الجمر خوفاً عليها حتى أنها جاءت إلى غرفتها مرات لتتفقد ههنا فرأت أنها أطلقت مصباحها ولم تسمع لها حساً .

وعند الصباح جاء ميلون إلى فاندا قائلاً لها : لقد شاهدت هذه الليلة جملاً في الحلم ، وما شاهدت هذه الرؤيا مرة إلا فجمعت بموت محب

فتركته فاندا وذهبت إلى غرفة جيبسي حسب الاتفاق وطرقت بابها فلم تجب ، فالت القرع ولم يجيبها أحد وكان المفتاح في قفله ففتحته ودخلت ، فوأت جيبسي في سريرها بملابسها ورأت يديها منبسطتين فوق صدرها فحسبتها نائمة ، غير أن ميلون دخل في أثرها ونظر إلى جيبسي وقال : رباء ماذا أرى ؟ إنها ميتة لا رجاء فيها .

- ٥١ -

ولم يخطئ ميلون لأن جيبسي كانت ميتة . فأخذت فاندا يدها فوجدتها باردة ولكن آثار السكينة بادية على وجهها كما أنها هي قد ماتت فجأة دون نزع . وكان قرب السرير مائدة رأت فاندا عليها كتابين أحدهما بعنوان فاندا والآخر بعنوان مرميس ، وبالقرب من الكتابين خاتم كانت جيبسي تلبسه دائماً وتقول انه وصل إليها من النور الذين ربوها ، ولهذا الخاتم وعاء يشبه القبة ويظهر بظهر الفص فرأته فاندا مفتوحاً فأيقنت انه كان فيه سم زعاف وان جيبسي شربت هذا السم .

وبينما كان ميلون يعول ويصيح كانت فاندرا تفض غلاف الكتاب المعنون باسمها بيد تضطرب وقد اصفر وجهها فقرأت ما يأتي :

« أسألك العفو يا سيدتي فما تكتمت عنك إلا لأني لم أجسر أن أبوح لك بمكنونات قلبي .

« إني أموت ياساً وغراماً . لقد أحببت مرميس هذا الفق الباسل الذي كنت بالأمس تدعيه خطيبي حباً ليس بعده حب فما تجامرت على أن أكون امرأته لأني أحببته أصدق حب .

« إن جيبسي النورية تستطيع أن تتزوج أي رجل يريد زواجها كيفما اتفق غير أنها إبنة مس أنا ، إبنة أعظم نبيل بين الانكليز ، فإذا أرادت أن تتزوج من تحبه وجب عليها أن تكون نقية كالزهرة طاهرة كالملك ولم تكن جيبسي النورية على شيء من هذه الطهارة فإنها كانت ترقص في الحانات وكانت عشيقة أرثر نويل .

« إني إذا تسميت باسم أسرتي عرفني من حضر رقصي ، وإذا تزوجت مرميس فقد يراني أرثر نويل ، وكلا التذكارين مؤلم شديد فرأيت أن أخلص منهما بالموت .

« إني أهب كل ثروتي لمرميس بعد الموت كما وهبته قلبي في الحياة .

« وأعتد عليك يا سيدتي في تبريد لوعته وتخفيف أشجانه وشفائه مما سيصيبه من اليأس ، فأنت خبيرة بطب القلوب . وهو فق فقد تشفين فؤاده بتوالي الأيام .

« ورجائي أن يتناساني وأن يشغل فؤاده بحب سواي ، فإنه غني جميل وسيجد فؤاداً للغرام في قلوب الفتيات .

« هذه أمني تلك الفتاة المسكينة ، التي ستموت بعد هذه السطور ، وأسأل الله أن يحقق هذه الأمني ، فاستودعك الله يا سيدتي ، وداعاً أبدياً .

« والتمس منك المغفرة والتمس غفران الله لي ، وأختم كتابي معتمدة عليك
بتعهد مرميس » .

(جيبسي)

وسقط هذا الكتاب من فاندا ووقفت تتأمل وجه تلك الفتاة النائمة فوق
سرير الموت نوم الطفل في مهده . ثم توجهت لها وقالت : هنيئاً لك فقد عذبت
في الحياة واسترحت بالموت .
وقال ميلون : ما زلت أعتقد انها لم تشف بعد حتى صدق ظني وأسفاه إن
انتحارها لهذه الأسباب لا يدل على عقل رجيح .

وبينا كان ميلون وفاندا راكعين أمام سريرها بصليان معاً وقع حوافر
جواد وقف عقد الباب وعلما ان القادم هو مرميس فأسرع ميلون الى خارج
ووقف في طريقه قائلاً له : لا تدخل .
والمرء ساعات تصدق فيها أحاديث قلبه كل الصدق حتى يصبح كالأنبياء
فصرخ مرميس يقول : إن جيبسي ماتت ا

ثم دخل بالرغم عن ميلون إلى غرفة الميتة فوجدتها مسجاة على السرير ووجد
فاندا راكعة تصلي .
وإن من اليأس ما تنفذ له الدموع وينحبس به اللسان ، وهذا ما أصيب به
مرميس ، فإنه لم يفه بكلمة ولم يذرف دمعاً ، بل أخذ الكتاب المهنون
باسمه ففضه وتلاه .

وقد تضمن هذا الكتاب وداعاً يقطع القلوب . ورجت فيه جيبسي من
حبيبها أن يقبل ملايينها ، وأن ينفق منها باسمها ما استطاع في سبيل
الخير . ثم التمس منه في الختام أن يشغل فؤاده عنها ، وأن يعيش
سعيداً .

فلما أتم تلاوة الكتاب أخذ يد جيبسي الباردة فقبلها وخرج من غرفتها
الى غرفته دون ان يفوه بكلمة ، وأخرج من خزائنه مسدساً وضعه على

صدغه بملء البرود وأطلقه ، ولكن يداً شديدة حولت يده عن صدغه ، فوقعت رصاصة المسدس في الجدار فاخترقته ، وكانت هذه اليد يد فاندأ .

فلما رآها مرميس غضب لتعرضها له فقال لها : دعيني أموت ، لا رجاء لي بعدها في الحياة .

وحاول ان يطلق النار على نفسه أيضاً ، غير ان فاندأ تمكنت بمساعدة ميلون من تجريده من المسدس وقالت : لا يحق لك الموت ، لان الرئيس لا يريد ان تموت !

فاصفر وجه مرميس عند ذكر روكامبول وقال : الرئيس ... وماذا يريد الرئيس ؟

— إنه ترك لك كتاباً متى قلوته تعلم ما يريد .

ثم أعطته كتاباً ضخماً مختموماً كتب على غلافه هذه الكلمات :

« إن هذا الكتاب يحتوي على تعليماتي لمرميس ، ولا يحق له ان يضطلع عليها إلا إذا غبت عاماً كاملاً عن باريس » .

بعد بضعة أيام من الحوادث المتقدمة ، نشرت جريدة الهافر هذا الخبر الآتي :

بينما كانت السفينة ماري وربانها قونديران قادمة من جزيرة الاتحاد الى الهافر وجدت قرب جزيرة القديسة هيلانة زجاجة مختومة ففحصت ختامها ووجدت فيها الكتب الأربعة الآتية وهي :

« كتب هذا الكتاب في السفينة سيوا المسافرة الى الهند بقيادة الربان أفاتار تحت راية إنكليزية . وقد كشف على مظهر السفينة في الساعة السابعة من مساء ١٤ يوليو سنة ٨١ .

« إن المطافيء تشتعل منذ ٤٨ ساعة لإطفاء النار الملتهبة في السفينة . ، فقد لعبت في عنبر الزاد ولا تزال تشتعل ببطء .

« إن الرياح هادئة والبحر يشبه بسكونه البحيرات والسفينة لا تستطيع السير لسكون الرياح .

« ونحن نبعد الآن خمس وأربعين مرحلة عن السنغال ومنذ أمس وقفت السفينة ولم تعد تسير .

« وقد عللنا أنفسنا عند ظهر أمس بشيء من الرجاء ، فإننا رأينا سفينة تسير في عرض البحر على مسافة بعيدة منا ، فأطلقنا مدفعاً إشارة إلى ما نحن فيه من الخطر . ولكنهم لم تقف وسارت تخسرق المياه حتى قوارت عن أنظارنا .

« لا تزال النار تشتعل وستصل بعد أربع وعشرين ساعة الى مستودع الذخائر فتنسفنا وينتهي الأمر .

« في ١٥ يوليو الساعة السادسة صباحاً .

« ساد اليأس في السفينة فإن المطافيء لم تفلح وأنهم ككت قوى البحارة فانقطعوا

عن العمل وهم ينتظرون الموت بسكينة .
« وعادت الرياح الى الهبوب ولكنها هبت متأخرة فإن السفينة لا تجتاز
أكثر من ميلين في الساعة وهي تبعد عن الشاطئ ٤٠٠ ميلاً .

« الدخان الأسود يخرج من العنبر ، وقد قربت النار من مستودع الذخائر
ولا حيلة لنا بعزله ، ونحن ننتظر أن تنسف بنا السفينة من حين
إلى آخر .

« إذا وصلت هذه السطور الى أوروبا فارجو من يقرأها أن ينشرها في
الجرائد السيارة ، فإن اسم أفاتار لا يعرفه غير القليل من الناس ولكن يوجد في
باريس من يهتم له .

« في اليوم نفسه . الظهر .

« رأينا مركباً شراعياً فأشرنا اليه بإشارات الخطر ، ولكنه توارى عن
أبصارنا دون أن يرانا . فأنزلت الى البحر القارب الوحيد الذي معنا فلم يسمع
هذا القارب الصغير غير ستة أشخاص ونحن ١٩ رجلاً في السفينة ، فأمرتهم
أن يقتربوا دوني على من ينزل في القارب ، لان الرابن يجب ان يبقى في
السفينة إلى آخر ساعاتها ، فأصابته القرعة ستة من البحارة ، فنزلوا الى
القارب وهم يبتعدون الآن عنا ويبكون أترام يصلون سالمين الى البر ؟ ان
الله وحده يعلم .

« في اليوم نفسه . الظهر أيضاً .

« القارب يبتعد ونحن نشيعة بالنظر . توارى الآن عن أبصارنا فلم نعد نراه .
تفقدنا النار بالنظر فعلمنا انها ستصل الى مستودع الذخائر بعد ساعة فتنسفنا
مع السفينة ليكن ما يريد الله . »

« الرابن الأول : أفاتار »

« الرابن الثاني : نويل »

إنتهى تقرير روكامبول الذي كان موجوداً في الزجاجاة وقد أضافت جريدة
الهافر على هذا التقرير ما يأتي :

« كانوا يتحدثون أمس في قهوة الأميرالية أن السفينة مويت سمعت في الساعة
العاشر من ١٥ يوليو دويماً شديداً وهي قريبة من السنغال فحكم ربانها ان هذا
الدوي صوت انفجار حدث في سفينة دون شك ولكنه تعذر عليه أن يعلم
مسافة بعد الانفجار عن البر » .

انتهت رواية « ماديدين النورية »

ويليها الجزء العاشر من روكامبول « البستانية الحسنة »

الجزء العاشر

البستانية الحناء

البدستانية الحسنة

- ١ -

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل كان بعض فتيان الباريسيين الاغنياء مجتمعين في ناد لهم يدعونه نادي كريفيس .

وكانوا جالسين في القاعة العمومية يتحدثون بشأن اختفاء دي مورفر أحد أعضاء هذا النادي فانه احتجب منذ عامين ولم يعلم أحد كيف كان اختفاؤه .

وكان بينهم فق يدعى كازمير وهو حديث الدخول في هذا النادي فأشكل عليه فهم هذه الحكاية فقال للمتحدثين : عفواً أيها السادة فاني حديث العهد ببنيتكم فهل يتفضل علي واحد منكم بتفصيل هذا الاختفاء الغريب ؟

فانبرى له الفيككونت دي مونتيجرون وقال : اني أنا ادخلتك الى هذا النادي وأنا اقص عليك ما تتوق اليه من معرفة اختفاء دي مورفر فاسمع .

ان غاستون دي مورفر كان في السادسة والثلاثين من عمره وهو أديب جميل حلو الحديث وافر الثروة وكان طلق الوجهة فرح القلب فلم يحزن مرة ولم يتدله بغرام ولم يحدث له في ادوار حياته الآمنة ما يدعوه الى الانتحار - ومع ذلك العله انتحى ؟

- ليس من يعلم شيئاً من أمره وحكايته انه خرج ليلة من هذا النادي مع

شارل هدفوت ابن الصراف الشهير فذهبا ماشيين الى شارع مدلين فشارع سيرسنس حيث يقيم المركيز دي مورفر وهناك افترقا على ان يلتقيا في اليوم الثاني فذهب شارل في شأنه ودخل المركيز الى منزله .
وقد اخبر بواب منزله في اليوم التالي انه اعطاه حين عودته تلك الليلة كتاباً أرسل اليه ففضه وقرأه وقد بدت عليه علائم التأثر فالقي الغلاف على الارض ووضع الرسالة في جيبه ثم خرج لفوره من المنزل وقال لبوابه : اني لا أعود في هذه الليلة .

وفي اليوم التالي لم يحضر ثم توالى الأيام دون أن يعود فتدخل البوليس في أمره ونشرت الجرائد خبر اختفائه وأرسلت صورة المركيز الى جميع الانحاء فذهبت كل هذه المساعي ادراج الرياح وقد أرسلت عائلته عمالاً على نفقاتها الى انكلترا وروسيا والولايات المتحدة كي يبحثوا عنه فلم يفتدوا الى أثر من آثاره ولم يعلموا إذا كان ميتاً فيبسيكي أو كان حياً فيطمع بلفائه .

- وهذا الكتاب الذي ورد اليه فكان علة اختفائه ، ألم يعثروا به ؟
- انهم لم يعثروا به بل عثروا بالغلاف فعلموا ان خطه خط امرأة .
- إذن كان عاشقاً دون شك فكيف تقولون انه لم يعشق ؟
- انه كان يحب احدى فتيات المسارح كما يحب الرجل جواده وقد كلفته كثيراً من النفقات ولكنه كان واسع الثروة .

- ألم يكن منغمساً بالدسائس ؟
- ذلك ما لا يعرفه أحد غير ان طرق عيشه لا تدل على شيء من هذا .
- أحد اللاعبين : أنا لا اعتقد انه انتحز .
- دي منتجوون : وأنا اعتقد هذا الاعتقاد أيضاً وحقيقة رأيي في هذا الاختفاء الغريب انه ناتج عن جنابة هائلة وان يداً اثيمة قد عشت به فقد كثرت هذه الجرائم في باريس منذ عشرة اعوام وكلها خفية هائلة تكتنفها الاسرار فلقد اتفق انه بينما كان العمال يهدمون منزلاً رأوا في أحد اقبيته هيكلاً

من عظام الانسان ولا يبعد ان يكون المريكيز مورفر حبس في قبه من هذه
الاقبية السرية فيتحدث كهول باريس في مستقبل الأيام حين ينقض البناء
ويقولون هذه جثة المريكيز الذي طالما خاضت الجرائد في سر اختفائه القريب
وعند ذلك نهض أحد الحضور وقال : لقد مر بنا عام يحملته ونحن لا
نتحدث في كل ليلة إلا بمحدث هذا المريكيز فتنقبض صدورنا لنكتبته ولا نحلم في
الليل إلا بالجرائم والآثام فبالله إلا رجعت عن هذا الحديث الحزن وهلم نتحدث
بغرام صديقنا مريون عاشق البستانية الحسنة .

فوافق الجميع على هذا الرأي وقال مونتيجرون للعضو الجديد : ان
غوستاف مريون الذي سنتحدث بأمر غرامه وهو فق حلو الشائل واسع الثروة
هشق البستانية الحسنة منذ عهد قريب ولا يزال ساعياً لاسترضائها .
- ومن هي البستانية الحسنة ؟ فاني ما سمعت بها قبل الآن .

- لم نعلم شيئاً من امرها قبل ثمانية أيام وغاية ما علمنا انها بائنة زهر تقيم
في شارع بلقي ويقول عاشقها مريون انها لو ظهر في الاوبرا لكشف جمالها جميع
تلك الشموس الساطعة فيها .

- العله تحبه ؟

. كلا ويظهر انها لا زوج لها ولا عشيق فانها دائماً تلبس السواد فيزيدها
جمالاً وجميع خدامها يحترمونها كل الاحترام وليس بينهم من يعلم موطنها فان
مريون قد انفق الى الآن عشرين الف فرنك في سبيل معرفة شيء من أحوالها
أو اغواء أحد خدامها فلم يفر بمراد .

فقاطعه أحد الحضور وقال . لقد فاتتك اخبارها يا مونتيجرون فان مريون
تمكن امس من اغواء أحد خدامها وهو الخادم الوحيد الذي ينام في منزلها
فاعطاه مائة دينار وأخذ منه مقابل ذلك مفتاح الحديقة ومفتاح المنزل وعليه
أن يجد وسيلة للوصول اليها فقد قال هذا الخادم انه منذ دخل في خدمتها لم
يراه اذنت لرجل بالدخول الى منزلها

- إذن ما عساه يصنع ؟
- انه اختار أربعة من اصدقائنا وأنا منهم كي نرافقه في هذه الليلة الى منزل الحسنة فنقف في الطريق موقف الحراس ويدخل هو الى المنزل .
- مونتيجرون . ولكن البوليس ايها الصديق منتشر في كل مكان حتى في شارع بلفي .
- وماذا يهمنا من البوليس فاننا سنقف خارج المنزل وهو يدخل اليه فاذا رضيت تلك الحسنة ان يخطفها كان ذلك من حسن توفيقه وإذا أبت واستغاثت هربنا فما علم بأمرنا أحد .
- مونتيجرون ، إذا كان ذلك كما تقول فانا اذهب معكم أيضاً .
- وفيما هو يقول هذا القول دخل مريون الذي يتحدثون عنه فقال . عافاك الله يا مونتيجرون فأصحبك معنا فالتفت جميع الاعضاء عند ذلك فرأوا مريون داخلا فقال له أحدهم : ماذا تقول يا مريون أجد ام انت مازح ؟
- بل أقول الجد وقد جئت بركبة تلتظرني عند الباب وهي تسع خمسة أشخاص فمن أحبني فليتبعمني
- مونتيجرون ضاحكاً : أيجب أن يكون معنا سلاح .
- كما تريدون أما أنا فان مسدسي لا يفارق جيبى .
- فقام عند ذلك الخمسة الذين عولوا على الذهاب فلبسوا قبعاتهم وخرجوا الى المركبة الواقفة عند باب النادي وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل فقال لهم مريون : اننا نصل الى منزل هذه البستانية الحسنة بعد نصف ساعة ، وفي الساعة الثالثة نجتمع على المائدة كلنا في القهوة الانكليزية فدعا الرفاق له بالنصر وركبوا المركبة فسارت بهم الى شارع بلفي وهم يضحكون ويمازحون مريون .

- ٢ -

وكان الظلام مدلهماً والبرد شديداً ، والهواء زمهريراً ، غير أن هؤلاء
الفتيان لم يكونوا يكثرثون لمثل هذه العوارض الجوية وقد التهب في أحشائهم
نيران الخمر الممتق .

وما زالت المركبة سائرة بهم حتى وصلت إلى بلقي فأوقفها مريون فقال
له مونتيجرون : العلنا وصلنا .

- كلا ، ولكن صوت المركبة في هذا الشارع المقفر قد ينبه أنظارها
ولمّا أريد أن أباغتها فلم بنا لسير على الأقدام فإن البيت قريب .
وقال مونتيجرون : إني لا أرى شيئاً فأين هو ؟

- أنظر أمامك إلى هذا النور الضعيف فإنه ينبعث من غرفة رقادها .
- ألا يوجد منازل مجاورة له !

- كلا . إن أقرب منزل منه يبعد عنه مئة متر على الأقل ، فهو يعتبر في
معزل عن البيوت .

ونزل شبابنا الخمسة من المركبة وساروا في هذا الشارع ، الوحل إلى الركب
حتى وصلوا إليه ، ورأوا حديقة كبيرة تكثفها والسكينة سائدة في جميع
جهاته ، ولم يروا غير نور ضعيف ينبعث من النافذة في الدور العلوي .
وقال مريون : قفوا هنا أيها الرفاق وادعوا لي بالتوفيق ..

ثم أخذ مفتاحاً من جيبه وسار إلى باب الحديقة ، ففتحه ودخل واجتاز
رواقاً فيها إلى باب المنزل ، فأخرج مفتاحاً آخر من جيبه وفتحه .

كان الظلام شديداً ولديه علبة من الكبريت الشمعي ، فأنكشف له على نورها
سلم فرش فوق درجاتها بساط ضيق ، وصعد على هذه الدرجات فكان البساط
يخفي صوت وقع أقدامه حتى انتهى إلى آخر السلم فوصل إلى الرواق ورأى

في آخر الرراق نوراً فأطفأ شمته ومشى مخففاً وطأه كما يشي اللصوص وهو يسترشد بهذا النور .

ولما وصل الى حيث ينبعث النور رأى غرفة نصف بايها الأعلى من الزجاج فقال في نفسه : هذه غرفة رقادها فلنرى .

وعند ذلك مشى الى الباب بملء الحذر ، ونظر من زجاجه الى داخل الغرفة فلم يكده نظره يستقر ، حتى وقف شعر رأسه وانصب العرق البارد من جبهته ووقف الريق في حلقه ، وانقلب الى الوراء وقد صاح صيحة رعب بصوت مختنق .

ذلك أنه رأى هذه الغرفة مفروشة بالأثاث الأسود كغرف الأموات ورأى في وسطها سرير فوقه جثة وأمام هذا السرير امرأة واقفة تنظر الى الجثة والدموع تنهمل من عينيها .

أما المرأة فكانت البستانية الحسنة ، وأما الجثة فكانت جثة رجل عرفه مريون حالاً إنه المركيز غوستاف دي مورفر الذي اختفى منذ عام وذهبت مباحث البوليس وأهله أدراج الرياح بعد ان بحثوا عنه عاماً كاملاً في جميع أنحاء الأرض .

- ٣ -

ولم يكن مريون قد أغمى عليه حين سقوطه ، ولكنه كان قد أصيب بشلل في جسمه وعقله لهول ما رآه . فلم تمد ساقاه تحملانه وانعقد لسانه ولم يعد يستطيع الوقوف بعد سقوطه .

ثم رأى أن الباب قد فتح وخرجت منه تلك الفتاة التي رآها واقفة أمام جثة المركيز . ولم تكن تبكي بل كانت عيناها تتقدان كالبحر وكانت صفراء

الوجه مضطربة الأعصاب تدل هيئتها على الغضب الشديد حتى ان جالها قد استحال الى قبج وكاد مريون ينكرها .

فدننت منه وقالت له بلهجة الامر : قم .
فنهض مريون لفوره وقد أثرت به نظراتها النارية أشد تأثير فأخذت يده وجذبته الى تلك الغرفة السوداء وهي تقول . ما زلت تريد فادن وانظر .

وكانت تجذبه الى الغرفة بعنف وتعيد عليه هذا القول بلهجة التهكم فما مر بهذا الفتى ساعة رعب أشد من هذه الساعة ، فأدار وجهه ولم يستطع أن يرى فجذبته أيضاً الى الشموع الموقدة حول الجثة وقالت له : قلت لك أنظر ألم تأت الى هنا كي تقف على أسراري ؟

فنظر مريون عند ذلك الى الجثة والرعب ملء فؤاده . فأيقن انها جثة المركيز ورأى أن هذا المركيز لا يزال بملابسه التي كان يلبسها يوم اختفائه ، ولكن صدرته كانت مفقودة وقيصه مفتوحة تكشف عن صدره . فرأى في ذلك الصدر جرحاً فوق الشدي الأيسر ورأى الدم عليه فلم يدر اذا كان أصيب بخنجر فمات غدراً واغتيالاً أو أصيب بسيف فمات موت الأشراف .

وكان يرى من أثر الدم وهيئة الوجه أن المركيز لم يميت إلا منذ بضع ساعات فكيف اتفق ذلك والبوليس يفتش عنه منذ عام ، وماذا حدث لهذا المركيز في مدة سنتين كاملتين وهو لم يقتل إلا منذ ساعات ؟ إن ذلك مما تحار في إدراك كنهه العقول .

وكان ينظر الى جثة المركيز مورفر والبستانية الحسناء واقفة بالقرب منه تفقد من عينيها لهباً وتقول لمريون بلهجة التهكم : ما بالك خائفاً ؟ ولماذا لا تدقق النظر ؟

فكانت أسنانه تصطك من الرعب وقد خاف من هذه المرأة الحية أكثر مما خاف من ذلك الرجل الميت .

ثم أخذت يده فجأة وهزته بعنف ونظرت اليه نظرة هائلة فقالت له :

والآن أصغ إلي ..

فحاول مريون ان يتكلم فتلجلج لسانه وتمتم ببعض كلمات لا معنى لها ، فقالت له : قلت لك إصغ إلي ، فانك تأتي كل يوم إلى منزلي منذ شهر بحجة شراء الزهور ، ثم لم تر ميلا مني اليك فأغويت أحد خدمني وتمكنت بفضل من الوصول إلى هذا المكان وكنت تحسب انك آت لترى امرأة حسناء تهواها فوجدت جثة قتيل ، هل شفتك هذه الجثة من ذاك الغرام .

ولما رأت انه لم يحبها بحرف قالت له : أشفق عليك لأنك لا تزال في مستقبل العمر وغرور الصبى ، ولو لم أكن آليت على نفسي أن لا اسفك دماً بشرياً إلا في سبيل الدفاع لما كنت الآن في عداد الأحياء ، فاذا شئت ان تحمى سعيداً وتبلغ سن الكهولة فأقسم لي بهذه الجثة انك لا تبوح بحرف مما رأيت .

فكان مريون يرتجف ويضطرب دون ان يجيب ، فهزته هزاً عنيفاً دل على شدة أعصابها وقالت له بلمهجة المتوعد : قلت لك أقسم بهذه الجثة .

فخيل لمريون من لهجتها أن حياته بين أيديها وأنها إذا فاهت بكلمة بات من الأموات وكان فتي لم يتجاوز العشرين من عمره فزاد اضطراباً ولكنه لم يقسم فهزته مرة ثالثة ونظرت اليه نظرة هائلة تبين منها صدق وعيدها وقالت له : قلت لك أقسم ..

فوضع مريون يده مكرهاً فوق الجثة وقال بصوت مخنق : أقسم على الكتمان .

وعند ذاك أطفأت جميع الأنوار بغتة كأنما يداً سحرية أطفأتها وساد الظلام في تلك الغرفة ، فأوشك مريون أن يجن من رعبه لما هاله من هذه الأسرار ، ثم شعر ان يدها مسكت يده وسمعها تقول له : اتبعني فتبعها وهو لا يعرف أين يسير حتى وصلت إلى سلم فنزلت أمامه وهي تقوده كما يقاد العميان ، ولما بلغت آخر السلم فتحت باباً وأخرجت مريون وعادت فأقفلت الباب .

وكان هذا الباب موصلًا إلى الحديقة فلم يمش مريون خطوتين حتى شعر أن قواه قد تلاشت فسقط مغمياً عليه لا يعي على شيء .

- ٤ -

بعد ذلك بمدة ٤٨ ساعة كانت أعضاء نادي كريفيس مضطربين اضطراباً عظيماً فانهم لم يروا مريون ولا رفاقه الأربعة منذ يومين فسهروا ليلتهم بطولها منتظرين قدوم واحد منهم يخبرهم بما جرى فلم يحضر أحد .

وكان أحد الأعضاء ذهب إلى منزل مريون ومونتييجرون وبقية الرفاق فأجابه البوابون انهم لم يعودوا إلى منازلهم منذ ليلتين .

وطال تحدثهم في سبب اختفائهم فقال أحد الأعضاء : أرى ان هؤلاء المجانين قد أصيبوا بمكروه فاني ضعيف الثقة بجسارة وشجاعة مريون وعندي ان لهذه المرأة التي ذهب اليها زوجاً او عشيقاً وان هذا العاشق ألقى مريون من نافذة المنزل حين دخوله اليه .

فقال أحدهم : أن ذلك ممكن الحدوث .

وقال آخر : انهم إذا ألقوه من الشباك لا يموت ، ان للعشاق وللسكران إلهاً يحرصهم فاذا صح ذلك فقد يكون أصيب بجرح او برضوض فنقل إلى أحد المنازل المجاورة ولكن ماذا حدث لرفاقه الأربعة كما تعلمون ؟

فقال أحدهم : أن معظم سكان شارع بلفي من الأسافل ، فقد يتفق انهم أساؤا اليهم او جرى بينهم خصام فشوهوا وجوههم وخجلوا أن يظهرهم امامنا بمظاهر الخذلان .

وعند ذلك سمعوا صوتاً يقول . لقد أخطأت ايها الصديق ، فالتفتوا وصاحوا جميعهم هوذا مونتييجرون

أما مونتييجرون فقد قال لهم : لقد أخطأتم أيها الأصحاب فان أهل بلقي لم يشوهوا وجوهنا ولم يسيئوا إلينا كما ظننتم ..

- ومريون ماذا جرى له ؟

- انه مجنون ..

- العله جن جنون غرام ؟

- كلا . بل أنه جن جنونا مطبقاً ، وأرجوا أن لا تضحكوا أيها السادة فاني لا أقول ما أقوله على سبيل المزاح بل هي الحقيقة بعينها وأوردها لكم بلء الأسف .

فانكمشت نفوسهم وبدت على وجوههم علائم الحزن وحمل مونتييجرون يحدثهم بما جرى لهم وأخبرهم كيف ذهبوا إلى منزل البستاني الحسناء وكيف دخل مريون وحده إلى ذلك ، ثم أخبرهم كيف أن النور انطفأ بعد أن دخل بنصف ساعة دون أن يسمعو صوت استغاثة ، فقلنا لقد فاز مريون فيما أراد وان هذه الحسناء كانت تخدعه بمظاهرها لنفورها للاستزادة من هيامه لما رأت من حداثة سنه .

وعزمنا عند ذلك على الرحيل ، لكنني أردت قبل ذلك أن أخبر الخادم أننا عدنا إلى شؤوننا كي يخبر مريون بانصرافنا عند انصرافه .

وكان باب الحديقة مفتوحاً فدخلت إليها ومشيت إلى الباب ولكنني ما سرت بضع خطوات حتى عثرت بجسم ملقى على الأرض فنظرت وإذا هذا الجسم جسم صديقنا مريون وهو بلا حراك .

فصحت عند ذلك صيحة رعب وأسرع الرفاق إلي حين سمعوا صياحي ، ووجدنا مريون مغمياً عليه ولم يكن في جسمه أثر جرح أو رضوض ، فأشكل علينا سبب هذا الأغواء ، وخطر لنا أن نطرق باب هذه المرأة وأن نكسره إذا أبت أن تفتح لنا ، غير أن الحكمة تغلبت على حدقتنا لحسن الحظ فقلنا يجب أن نهتم بصديقنا قبل كل شيء ، ثم نعلم منه بعد أن يستفيق علة هذا الاغواء ،

فمنهج في أعمالنا مناهج الحكمة ، وفوق ذلك ، فإنه هو الذي أساء إلى نفسه بدخوله إلى منازل الناس في ظلام الليل دخول اللصوص ، وإذا دخلنا دخوله عرضنا أنفسنا للأخطار ..

واستقر رأينا أن نخرج مريون من الحديقة فحملناه وخرجنا به إلى الشارع ففعلنا كل ما استطعناه ولم نتمكن من أن نرجع إليه هداً ، ولولم نكن نشعر بدقات نبضه الضعيف لحكنا أنه من الأموات .

وكان الفجر أوشك أن يلوح وخشنا أن يرانا أحد من البساتين فيقف البوليس على أمورنا ، فحملنا مريون إلى المركبة وسرنا به إلى فندق الرأس الأسود ووضعناه فوق سرير واستدعينا له طبيباً فأقام ساعة يعالجه بالدعك وشم الأرواح المنعشة حتى فتح عينيه وجمد الدم في عروقنا لأنه جعل ينظر إلينا نظراً ثاماً ولم يعرف أحداً منا .

وكانت أسنانه تصطك من الرعب وبلغ منه الهديان شر مبلغ ، ثم جعل يبكي ويضحك في حين واحد ويقول : إياكم أن تذهبوا إليها .
ودام هديانه متصل إلى مساء أمس فخف ما به وعادت إليه السكينة ، وكنا لا نزال حول سريره ، وعرفنا جميعنا ودنوت منه عند ذلك وحاولت أن أسأله عما جرى له فعاد إليه رعبه القديم وقال : إحدروا من الذهاب إليها .

- سنمتثل ، لكن قل لنا على الأقل ماذا جرى لك ..

- لا أستطيع أن أقول شيئاً ، لقد أقسمت يميناً محرمة ..

ثم عاد إليه الهديان ، ولم يعد يحدثنا بشيء

وجاء الطبيب ففحصه فحسب مدققاً وقال : انه مجنون وأخشى أنه لا يشفى من هذا الجنون .

وقاطع أحد الأعضاء مونتيجرون وقال له : أظن أنكم أبلفتم البوليس بما جرى ..

فهمز مونتيجرون كتفيه وقال : إن من يعمل ما عملناه ويدخل البيوت كما

دخل إليها مريون لا يسمعه الافتخار بعمله ، ولا ينظر البوليس إلى عمله نظرة استحسان .

— هو ما تقول ، ولكن لا بد أن يكون في هذا المنزل سر هائل ذهب بصواب مريون ويحسن الوقوف على هذا السر .

— وأنا أرى رأيك ، ولكنني أقسمت أن اكتشف هذا السر بنفسني قبل البوليس ، وأن أدخل منزل البستانية الحسنة بالرضى أو بالعنف مهما كابدت في هذا السبيل من الأخطار .
— أتقضي هذه المهمة وحدك ؟

— كلا ، بل يصحبني من يريد منكم لكنني لا أقبل غير واحد .
فأقبل كل واحد منهم يقول أنا لها ، حتى اضطروا إلى الاقتراع فأصابت القرعة ذلك العضو الجديد الذي يدعى كازمير ، فدنا من مونتيجرون وسأله : متى تريد أن أذهب إلى هذه السيدة ؟

— الآن فإن مركبتي تنتظرني عند باب النادي .
وقال لهم : استحلّفكم بالشرف أيها الأصدقاء أن تكتتموا هذا الأمر كل الكتمان إلى أن أعود .
فأقسم له الجميع كما طلب وخرج لفوره مع كازالير إلى النادي

- ٥ -

وكانت هذه الحادثة قد أهاجت فضول مونتيجرون فعزم على اكتشاف سر الحسنة غير مكترث لما هنالك من الأخطار ، ورأى أن رفاقه الثلاثة الذين ذهبوا مع مريون قد ذعروا ذعراً شديداً لما رأوه من جنونه ، فلم يكشفهم بقصده ولكنه أخذ مفتاحي الحديقة ومنزل البستانية وذهب إلى النادي كي

يختار رفيقاً له في هذه الرحلة ، فأصابته القرعة كازمير كما تقدم .
وخرج وإياه فركبها المركبة التي كانت تنتظره وسلاحه بخنجر فسارت بهما
المركبة حتى بلغت إلى ذلك المنزل .

وكانت السكينة سائدة والمصباح ينير في نافذة الغرفة كما كان في تلك الليلة ،
وأخذ مونتيجرون أحد المفتاحين من جيبه ففتح باب الحديقة وقال لكازمير
اتبعني ، فتبعه وسار بين الأشجار مائة خطوة فرأى مونتيجرون شبحاً
أسود يدلو منه ، فهمس في أذن صاحبه وقال له : انتبه .

ووضع يده على قبضة خنجره .
أما الشبح الأسود فإنه ما برح يتقدم حتى تبين لمونتيجرون أنه رجل ،
ثم سمع صوت هذا الرجل يقول من هنا ؟
فلم يجب ، فدنا الشخص أيضاً ورأى مونتيجرون وكازمير فقال لهما :
من أنتم ؟

فانقض عليه مونتيجرون فجأة انقضاض الصاعقة وضغط على عنقه حتى
كاد يخنقه وهو يقول : إذا فهمت بكلمة فأنت من الهالكين .

فدعر الرجل وقال بصوت مخنق رحماك لا تقتلوني إذا كنتم من اللصوص .
- اني أعرف كثيراً من الخدم يقتصدون .
- ولكني أقسم لك بكل مقدس اني لست منهم .
غير ان اضطراب صوته كان يدل على أنه كاذب في ادعائه الفقر

وذكر مونتيجرون ان صديقه مريون قد رشاه بمائة دينار مقابل اعطائه
المفتاحين فقال له إذا لم يكن لديك غير المائة دينار التي أخذتها من
مريون لكفى .

فاضطرب الخادم وقال . أتعرف هذا ؟
- بلاريب ، والبرهان اني فتحت باب الحديقة بالمفتاح الذي بعته إياه .
وغير الخادم خطته للغور وزالت عنه آثار الرعب فقال : أسألك العفو يا

- سيدي لقد حسبتك قبلاً من اللصوص ولكني أرى سيدي من النبلاء
- إذن علمت السبب في مجيئي إلى المنزل .
 - علمت بعض الشيء ..
 - إذاً اجمع حواسك واستشر نفسك .
 - ماذا يريد سيدي ؟
 - أريد أن أخبرك بين أمرين ، إما ضربة خنجر أو مائة دينار .
 - لا شك أن سيدي يمزح ، لأنه يعلم يقيناً أن المائة دينار خير من طعنة خنجر ..
 - اتختر المال ؟
 - بل لا ريب ..
 - إذن تكلم ..
 - ماذا يريد سيدي معرفته ؟

فمد مونتيجرون يده إلى النافذة التي يشع فيها النور وقال له : ماذا يوجد فوق ؟

فأجابه الخادم بصوت يضطرب : إني يا سيدي أب خمسة أولاد لا معين لهم إلاي ، وقد بعث المفتاح إلى المسيو مريون فنهج مناهج المجانين ، أما أنت يا سيدي فيظهر انك من العقلاء ، فإذا أسديتك نصيحة رجوت أن تعمل بها وتقبل نصيحي .

- ما هي هذه النصيحة ؟
- هي يا سيدي أن تعود إلى منزلك فان الليلة باردة والضباب كثيف ، وأخشى عليك من الزكام .

فغضب مونتيجرون وقال : ويحك أيها الشقي أهذا وقت المزاح والحديث عن الطقس ، قل لي ما أسألك عنه أو أقتلك شر قتل . ثم عاد إلى الضغط على عنقه وانذاره بالخنجر .

فلما شعر الخادم بوخز الخنجر عاد إليه ذعره فقال . ليسألني سيدي عما
يشاء أحبه .

— لمن هذا المنزل ؟

— للسيدة .

— من هي هذه السيدة ؟

— ليس هنا من يعرف اسمها ، فان جميع أهل الشارع يدعونها البستانية
الحسنة ..

— كم بقي لها هنا ..

— عامين ..

— من أين أتت ؟

— لا أعلم ..

وكانت لهجة الخادم تدل على الصدق ، فأشار مونتيجرون بيده إلى النافذة
التي ينبعث منها النور وسأله : أهذه هي الغرفة التي تبئت فيها تلك السيدة ؟
.. أظنها غرفتها .

— كيف تظن ؟

— ذلك لأنني لم أصعد إلى الدور العلوي من هذا المنزل ولم يصعد إليه أحد
غيري من الخدم أو العمال ، الذين يشتغلون عند سيديتي في النهار وكل ما
أستطيع أن أقوله لك هو ان شارل مرسيه بات من المجانين .

— من هو شارل مرسيه هذا ؟

— هو فتى من فتيان باريس توله بحب سيديتي فجاء وتسلق جدار الحديقة
ثم أسند سلعاً الى جدار المنزل وتسلق درجاته إلى هذه النافذة التي ترى النور
ينبعث منها .

— وماذا جرى له . العلمها القته من السلم ؟

كلا .. ولكنه نزل من تلقاء نفسه وقد جمد الدم في عروقه ووقف

وجعلت عيناه فجبن لساعته ولا يزال مجنوناً إلى الآن .
 - ولكن ماذا رأى في تلك النافذة ؟
 - لا أعلم ، لكن سيدي يحسن عملاً اذا عاد من حيث أقى .
 - كلا ان ذلك لا يكون ..
 - إذن ألا تزال مصرأ على الدخول الى المنزل ؟
 - دون شك ويجب عليك ان تكون في مكانك والويل لك إذا خطر لك
 أن تتبعني .

- لا خطر علي يا سيدي فاني لا اجسر على الدخول الى هذا المنزل .
 - إذا وجدتك في مكانك بعد ان اعود اعطيتك مائة دينار .
 - ستجدني ان شاء الله جالساً تحت هذه الشجرة في انتظارك .

وقد كان خطر لمونتيجرون ان يبقى كازمير في الحديقة حارساً على
 الخادم غير ان كازمير أبى ألا ان يدخل واياه ففتح مونتيجرون باب المنزل
 ودخل يتبعه كازمير كما دخل مريون منذ ليلتين ثم اقفل الباب من الداخل
 ووضع الزلاج كي يأمن دخول الخادم في أثرهما وصعد درجات السلم الى الدور
 العلوي حتى انتهيا منه الى ذلك الباب الزجاجي فاطل منه ونظر من خلال
 زجاجه فذعر ذعراً شديداً لأنه رأى نفس ما رآه مريون أي جثة الماركيز
 دي مورفر ولكن البستانية الحسنة لم تكن في تلك الغرفة السوداء

ورأى كازمير ما كان من اضطراب رفيقه فدنا من الباب وصاح صيحة
 رعب حين رأى تلك الجثة فشد مونتيجرون على يده وقال اسكت :

وكان مونتيجرون شجاع القلب فلم يتر به بضع ثوان حتى عادت اليه
 سكينته فتفرس بالجثة ملياً ثم همس في اذن رفيقه وقال لقد عرفت الآن
 السبب في جنون مريون فانه رأى هذه الجثة وعرف انها جثة الماركيز دي مورفر
 ونحن الآن لم نكتشف سرأ بل اكتشفنا جريمة هائلة ويجب ان نستقصي
 الى النهاية .

وكان الباب الزجاجي مقفلاً فحاول ان يفتحه فلم ينجح فقال : مهما يكن من النتيجة فلا بد لي من الاستقصاء الى النهاية
ثم رفس الباب بشدة فتحطم زجاجه وفتح .
غير انه حدث عند ذلك ما يشبه السحر فان الشموع التي كانت موقدة حول الجثة اطفأت فجأة وساد في تلك الغرفة ظلام خفيف .
ولم يبال مونتيجرون بما حدث فجرد خنجره وقال لرفيقه : جرد خنجرك ثم تأبط ذراعاه ومشى الاثنان الى الجثة لكنهما لم يمشيا خطوتين حتى صاح مونتيجرون صيحة منكرة ذلك ان الارض قد هبطت تحت قدميه فسقط مع رفيقه في هوة لم يرها .

- ٦ -

وشتم مونتيجرون شتماً قبيحاً وقال بصوت جلي يدل على انه لم يسقط من علو شاهق : ما هذه الاسرار التي تكتنفنا في عالم السحر ؟
فاجابه كازمير وقد سقط بالقرب منه ، بل نحن في حكايات الف ليلة وليلة .
- مونتيجرون : أصبت بكسر او رض ؟
- كلا فاني سليم وأنت ؟
- وأنا أيضاً .
- ولكن اين نحن ومن أين سقطنا ؟
- لا أعلم ولكننا سنعلم ثم فتش في جيوبه فوجد علبة كبريت فأثار عوداً منها ونظر مع رفيقه الى ما حواليه فوجد كثيراً من الاواني مرصوفاً بعضها قرب بعض قد زرعت فيها الازهار الشتوية ثم رأى مستوقداً ووجد فوقه شمعة قد ذاب نصفها فاسرع اليها وأثارها وجعل الاثنان ينظران بحلأ الى المحل

الذي سقطا فيه فوجدا انها في غرفة تشبه الحديقة وفيها ازهار غريبة لا توجد في اوروبا.

ثم نظرا الى السقف الذي هبطا منه فوجدا ان ارض الغرفة العليا السقي خسفت بهما كانت من الخشب وانها كانت شبه باب يفتح بلوالب سري فلما أدير اللوالب فتح الباب الى الجهة السفلى فسقطا .

وجعل يفحص الغرفة والحديقة. فوجد فيها باباً متيناً لا يمكن فتحه إلا بمفتاحه أو بالآلات الضخمة ونافذة لم يهتد الى طريقة فتحها فخطر له ان يكسر برغياً من براغيها ثم يمالج رواقدها الخشبية بخنجره فيكسرها ويفر منها الى الحديقة الكبرى .

غير انه وجد بعد الفحص ان هذه النافذة من الحديد وانها كانت مدهونة بلون الخشب فلم يبق لديه غير رجاء كسر البرغي

ثم خطر له ان يرجع كما سقط لأنه رأى طاولة فوضعها قرب الجدار وصعد فوقها ومد يده فلم تبلغ السقف وكان الجدار مصقولاً فلا سبيل الى تسلقه فلم يجد منفذاً للخلاص إلا بكسر البرغي فاخذ خنجره وكان كازمير ينير له ويحاول كسر البرغي فانكسر الخنجر فاستعمل خنجر كازمير فانكسر ايضاً فقال : لا سبيل الى كسره إلا بمبرد ومن اين نجنيء به في هذا السجن

فطن كازمير ان لديه مدية ذات شفرات كثيرة وان احدى شفراتها مبرد فعرضها على مونتيجرون فسر بها سروراً عظيماً وأخذ يبرد البرغي بصبر عجيب .

وكان كازمير يحمل الشمعة فقال لرفيقه : ان نورها لا يدوم أكثر من نصف ساعة فقد التهب معظمها .

— لا حاجة لي بها الآن فاطفئها ومتى اتممت كسر البرغي عد الى انارتها فاطفأها كازمير وعاد مونتيجرون الى كسر البرغي .

ولبت على ذلك نحو ربع ساعة وعلائم الفوز تبدوا له كل ما اشتغل حتى

اوشك أن يفوز بمرامه فقال له كازمير : ألا تشعر بما أشعر به فاني أشعر بدوار عظيم ؟

- كلا وربما كان ذلك من رائحة الازهار . فتجلد فان الفوز قريب .

فجلس كازمير على احدى اواني الزهر وقد زاد دوار رأسه فلم يستطيع الوقوف وجعل مونتييجرون يبرد البرغي فلم تمر به هنيهة حتى شعر هو أيضاً بنفس الدوار فقال : لقد أصبت يا كازمير فقد أصابني ما أصابك فاني أشعر ان الأرض تدور بي .

فلم يحبه كازمير بحرف فخاف مونتييجرون وسقطت المديّة من يده وقال لكازمير : أتر الشمعة فاني لا أرى شيئاً في هذا الظلام فلم يحبه أحد فايقن ان رفيقه قد فقد الحس ومشى في تلك الغرفة يبحث عنه فمثر به وسقط فوقه فجعل يصيح صياح المختنق ثم حاول أن ينهض فلم يستفق ثم اطبقت عيناه فلم يعد يشعر بشيء .

وعند ذلك فتح باب سري في تلك الغرفة لم يكن مونتييجرون وكازمير قد اهتمدا اليه ودخل منه رجل وامرأة أما المرأة فقد كانت كانت مقنعة ولكن مونتييجرون لو رآها لعلم أنها البستانية الحسناء وأما الرجل فقد كان ذلك الخادم الذي لقيه مونتييجرون في الحديقة منذ ساعة وحذره من ان يتبعه

فقال الخادم للبستانية : اننا لو تركناهما في هذه الغرفة يا سيدتي لما استفاقا الى الأبد .

- كلا فاني اقسمت أن لا أسفك دماً بشرياً إلا حين الاضطرار فقل هل أعددت المركبة ؟

- نعم فانها عند الباب منذ ربع ساعة .

- احضر ورفيقك واحمل هذين الجنونين الى أحد شوارع باريس المقفرة فانها إذا تذهقا الهواء المطلق يستفيقان من هذا الغماء .

- إذا لم تحذري يا سيدتي فان فجييع ما تجريه لا ينتهي بسلام . فهزت

كتفيتها وقالت له بلهجة الأمر ، أصدع بما أمرت
ثم تركته وانصرفت فأمر الخادم رفيقه فحملوا مونتيجرون وكازمير
وخرجوا بهما الى المركبة التي كانت واقفة عند باب الحديقة .

- ٧ -

بعد ذلك بيومين كان رئيس البوليس السري جالساً في مكتبه في الساعة
الثامنة من الصباح وهو منهمك في تلاوة كثير من الرسائل التي وردت اليه في
ذلك اليوم وكلها مكتوبة بالأرقام الاصطلاحية ، وهو رجل حاد البصر تدل
هيئته أنه خلق لهذه المهمة وهو يدعى المسيو ليبرافيه .

وكانت الحكومة تثق به ثقة شديدة لما أظهره من الحذق في الأعمال
الخطيرة الدالة على مهارته ، فلما انشأت قلم البوليس السري ، وهو حديث العهد
في فرنسا عهدت اليه برئاسة هذا القلم فحقق الظن به .

غير انه من يوم توليه هذا المنصب الدقيق لم يرد عليه مشكلة أصعب من
مشكلة اختفاء الماركيز دي مورفر ، فانه لم يدع محلاً في باريس لم ينقبه وأرسل
عماله السريين إلى جميع أقطار الدنيا فلم يعلم شيئاً من أمر هذا الاختفاء الغريب
إلى أن قنط من إيجاد فترك البحث عنه ، ولكن دلائل الهم كانت بادية عليه
لما أصابه من الفشل في هذه المهمة .

وفيما هو منهمك في تلاوة التقارير السرية إذ دخل اليه حاجب بابيه وأعطاه
رقعة زيارة مكتوب عليها اسم الفيكونت دي مونتيجرون وقال له : إن
صاحب هذه الرقعة يا سيدي يرجو أن تأذن له بمقابلتك .
- ليصبر قليلاً .

- انه يلح يا سيدي بالدخول ويقول ان الأمر خطير .

فانتهره الرئيس وقال قل له أن يصبر إلى أن أفرغ مما أنا فيه .
فخرج الخادم وعاد رئيس البوليس إلى مطالعة التقارير .

وقد رأى بين هذه الرسائل المكدسة على طاولة رسالة علم من طابع غلافها
إنها من لندرا ، ورأى في زاوية من زوايا الغلاف علامة سرية فارتعش وأسرع
إلى فخذ هذا الغلاف فسقطت منه صورة فوتوغرافية ما لبث أن تبينها حتى
قال بلمهة الدهش : هذا هو بعينه .

وكان هذا الرسم يمثل رجلاً في الثلاثين من عمره ، بل يمثل جثة رجل
جالس على كرسي وقد مال رأسه إلى كتفه الأيسر وفوق ثديه الأيسر طعنة
خنجر أو سيف ..

ففتح رئيس البوليس درجاً وأخرج منه رسماً شمسياً يمثل رجلاً واقفاً حاملاً
قبعته وأثار الصعقة بادية عليه ، ثم جعل يقابل بين الرسمين فرأى أنهما واحد
وأن كليهما يمثلان المركز دي نورفر ، فوضع الرسمين على الطاولة وأخذ الرسالة
المرسلة من لندرا فتلا فيها ما يأتي :

« أن هذه الجثة التي أرسلت اليك رسماً في طي هذا الكتاب وجدت
أمس في خمارة الملك جورج ، في وينغ ، وهذه الناحية من شر النواحي
في لندرا .

« وصاحب الخمارة يدعى كالكراف ، كما يدعى الجلاد في لندرا ، ويقال
أنه ابن عمه ، وللخمارة شهرة غريبة يخافها الناس خوفاً شديداً ، حتى أن
البوليس يخافها ولا يجسر على الدخول إليها بعد منتصف الليل وقد اتفق مرات
كثيرة أن البوليس كان يدخل إليها فلا يخرج منها ، لذلك لم يكتشفوا هذه
الجثة إلا بما أذاعه صاحب الخمارة وهذا ما قاله :

« كان رجل فرنسي نجمل اسمه يأتي كل ليلة إلى هذه الخمارة وتصحبه
امرأة إيرلندية ، وافرة الجمال ، وكان ينفق معها جانباً من الليل في تلك الخمارة
على معاقرة الشراب .

« ولم يكن يكلم أحداً ولا يسيء إلى أحد ، ولم يروه مرة في حالة سكر ولكنه كان مفتوناً بتلق الارلندية .

« ومن الغرائب ان تلك المرأة كانت ترتدي ثياب تدل على الفقر في حين أنه كان يرتدي خير الثياب ، وينفق في تلك الخمارة بلاء السخاء ، فلم يدفع غير الذهب .

« ففي ليلة أول أمس (كما يقول صاحب الخمارة) تخاصم الرجل الفرنسي والمرأة الارلندية ، فجأة فطعنته بخنجر ، وقد حاول صاحب الخمارة أن يقبض عليها ، غير انه كان يوجد كثير من البحارة فحاولوا دون قصده وساعدوها على الفرار .

« هذا ما رواه صاحب الخمارة إلى بوليس تلك الناحية فأخبرني البوليس وذهبت إلى الخمارة فرأيت الجثة وعرفت في الحال انها جثة غوستاف دي مورفر الذي نبحث عنه منذ عهد بعيد ، ومع ذلك فقد رأيت أن أصوره وأرسل اليك الرسم وأكتب لك ايضاً عما أعلمه .

« مانويل »

ولما فرغ رئيس الشرطة من قراءة هذا التقرير دخل الحاجب ايضاً وقال : ان الفيكيونت مونتييجرون يا سيدي يقول أن لديه أموراً خطيرة خاصة بالمركيز دي مورفر يجب أن يطلعك عليها .

فاهتز الرئيس حين سمع هذا الاسم وقال : ليدخل في الحال .

ثم وضع الرسم طي التقرير وخبأه في الدرج وعند ذلك دخل مونتييجرون فأحسن استقباله وسأله عما يعلم فقال له : اني يا سيدي كنت من أصدقاء المركيز دي مورفر الذي نبحث عنه منذ عوام دون أن نجده .

غير اني عرفت باتفاق غريب ان صديقي قد مات مقتولاً وقد رأيت جثته بعيني منذ ٤٨ ساعة

فقال له الرئيس : الملك قادم يا سيدي الفيكونت من لندرا ؟
 - كلا ففاني لم أبرح باريس ..
 - ورأيت جثة الماركيز دي مورفر ؟
 - نعم ..
 - متى ؟
 - منذ ٤٨ ساعة كما قلت لك ..
 - أين ؟
 - على مسافة مرحلتين من باريس في بيت كائن في الخلاء .
 فاضطرب الرئيس ثم فتح درجه وأخرج الرسم الذي جاء من لندرا فعرضه
 على مونتييجرون وقال : أتعرف صاحب هذا الرسم ؟
 - هو هو بعينه وقد رأيته في الحالة التي رسم فيها .
 فنهض الرئيس نهضة الحائر وقال : أسألك المصدرة يا سيدي الفيكونت
 فان ما ترويه لي يدعو الى الجنون .

- ٨ -

وجعل كل منها ينظر إلى الآخر منذهلاً فيقول الرئيس : ما هذه الحكاية
 التي يرويها الفيكونت ويقول مونتييجرون : ماذا يدعو سرد روايتي إلى جنون
 رئيس الشرطة ؟ إلى أن افتتح مونتييجرون الحديث فقال : ارى ان الشرطة
 قد زارت هذا المنزل بينما كنت مغمياً علي لاختناقى برائحة الأزهار ودليل
 ذلك انه وجد الجثة وأخذ رسمها .

فقاطعه رئيس الشرطة فجأة وقال : لم ارسل احداً إلى هذا الشارع ولم
 يكبس أحد هذا المنزل ولم افهم كلمة مما تقول .

فتراجع مونتيجرون مبهوتا وقال : إذا كنت يا سيدي لم تجد الجثة كما تقول فكيف وصل اليك رسمها ؟

فبهت رئيس البوليس ونظر اليه نظر الفاحص وقال : إني لا أرى مع ذلك عليك شيئاً من دلائل الجنون .

— كلا والحمد لله لست من المجانين .

— ولا أنا أيضاً .

— هذا ما أرجوه لك .

— ولكنني أرى أننا كلانا من المجانين .

— كيف ذلك يا سيدي ؟

— تقول انك رأيت جثة المركيز دي مورفر ؟

— نعم .

— في بلقي قرب باريس ؟

— نعم .

— من هي صاحبة المنزل ؟

— هي امرأة يدعونها البستانية الحسنة ، ولا يعرفون لها غير هذا الاسم .

— وهذه الجثة ؟

— هي نفس الجثة التي يمثلها الرسم ، وقد رأيت الجرح بعيني فوق الثدي الأيسر .

فجمع رئيس البوليس هده وقال له لنفرض يا سيدي الفيكونت أنني لم أقل شيئاً ، فلا تهتم لكلامي ولا لاندهالي ، بل قص علي جميع ما اتفق لك بالتفصيل

فحكى له عند ذلك مونتيجرون جميع ما حدث من غرام مرقوت بالبستانية الحسنة ، وما أصيب به من الجنون . ثم قص عليه ذهابه الى ذلك

المنزل مع كازمير الى أن هبط به سقف الغرفة وأغمي عليه وعلى رفيقه من رائحة الأزهار وأنه حين استفاق من إغمائه وجد نفسه في منزله على سريريه والطبيب واقف يعالجه . فعلم ان البوليس لقيه في شارع مقفر مع رفيقه مغمياً عليها ، ففتش جيوبها وعرفها من رقاع الزيارة فحملها الى منزلها ثم قال له : إني أقمت في منزلي الى المساء وزارني صديقي كازمير وأخبرني بما جرى له فاتفقنا على ان نخبر البوليس بما كان ولهذا أتيت اليك .

وكان الرئيس مصغياً اليه كل الإصغاء فلما أتم حديثه فتح الدرج وأخذ الرسالة التي وردت اليه من لندرا وعرضها على مونتيجرون .

ولما أطلع مونتيجرون على هذه الرسالة ، ذهل ذهولاً شديداً فقال له الرئيس : أرأيت يا سيدي ؟ أيمن أن تكون جثة الماركيز في لندرا وباريس في وقت واحد ؟

— إني أقسم لك بشرفي اني رأيت جثة الماركيز ، كما هي ممثلة في هذه الصورة !

— حسناً ولكن هذه الصورة أما هي صورة الماركيز ؟

— دون شك .

— تقول أنك رأيت جثة الماركيز ؟

— نعم .

— أتذكر في أية ساعة ؟

— عند منتصف الليل .

فوضع الرئيس إصبعه فوق أحد سطور الرسالة الواردة من لندرا وقال له : إقرأ ألم يقل عاملي أنه صور الجثة ليلة اول أمس ، ثم ألم تكن ليلة اول أمس ليلة الخميس ؟

فظهرت علائم الاضطراب على مونتيجرون وقال : لا أعلم ما أقول ! إلا إذا اتفق وجود رجل يشبه الماركيز هذا الشبه بالوجه والتقاطع والثياب وبالوت ميمة

واحدة في ليلة واحدة يجرح في موضع واحد . لقد صدقت يا سيدي لا شك ان واحداً منا مصاب بالجنون .

— هذا ما أراه . ولكن قل لي أيضاً أنت واثق من أنك رأيت المركيز نفسه ؟
— كل الوثوق .

فجعل كل منهما ينظر الى الآخر وهو لا يدري ما يقول .

وعند ذلك رن صوت آلة تليفرافية كانت في غرفة رئيس البوليس ، فقام الرئيس الى الآلة وعلم ان التلغراف وارد اليه من لندرا إذ كان له سلك خاص يتصل من غرفته الى تلك العاصمة . فحل رموزها وهو كما يأتي :

« لندرا — السبت في الساعة الثامنة صباحاً »

« نقلت الجثة مساء أمس الى المحل الذي يعرض فيه القتل المجهولون وكان يحرسها نفران من البوليس فشربا مخدراً ممزوجاً بالتبغ وهما لا يعملان فناهما ، وسرقت الجثة . التفاصيل بالبريد » .

(مانويل)

فلما تلاها الرئيس عرضها على مونتيجرون وقال له : إقرأ ! ثم قال له بعد أن قرأها ، إني أشتغل في مهنتي هذه منذ عشرين عاماً فما وردت علي جنابة أعقد من هذه الجنابة !

فقال له مونتيجرون : ألا تنوي يا سيدي تفتيش هذا المنزل قبل أن يرد اليك كتاب عميلك ؟

— دون شك وسأذهب وإياك في الحال وما دام يوحد جثتان لابد لنا أن نظفر بواحدة !

بعد ذلك بساعتين كانت مركبة تجتاز شارع بلقي، فوقفت عند باب منزل البستانية الحسنة فخرج منها المسيو ليرفيه رئيس البوليس السري واثنان من رجال البوليس وهم متنكرون بالثياب الرسمية السوداء .

وكان وراء مركبتهم مركبة جميلة فيها مونتيجرون وصديقه كازمير .

فطرق الرئيس باب المنزل ، وهو ينظر نظرة الفاحص الى الحديقة المحيطة به ، فوجد كثيراً من العمال يشتغلون بقطف الأزهار وتنسيقها وجعلها طاقات معدة للبيع ، وبينهم رجل ضخم الجثة يسير ذهاباً وإياباً ويلقي عليهم الأوامر . فلم ير الرئيس في ظواهر هذا المنزل شيئاً يدل على الريبة .

فلما طرق الرئيس الباب أسرع اليه الرجل الضخم. ففتح الباب وحيى الرئيس وجاعته بلء الاحترام لاعتقاده أنهم من الزبائن .

فقال له الرئيس : إننا نريد أن نرى صاحبة المنزل .

- لا شك يا سيدي أنكم من زبائن مدام ليفيك .

فحفظ الرئيس هذا الاسم في ذاكرته وقال : نعم إننا من زبائننا ولكننا نحب أن نراها .

- عفواً يا سيدي ، الملك لم تضطلع على النشرة التي أذاعتها هذه الأرملة أمس فإنها أعلنت انسحابها من الأعمال وباعتني كل حداثتها وتخلت لي عن هذا المنزل .

فقطب الرئيس حاجبيه وقال ماذا تدعى أنت ؟

- خادمك بوليدور كروسيجان

- إذن أنت خلفت مدام ليفيك ؟

- نعم يا سيدي

- متى ؟

- إن عقد الشراء قد تم بيننا منذ خمسة عشر يوماً ولكنني لم أستلم المنزل وحداثقه إلا أمس .

- ومدام ليفيك العلمها باقية في المنزل ؟

- كلا يا سيدي فإنها برحته ليلة أول أمس إلى باريس فإذا شئت أعطيتناك عنوانها فلإنها تقيم في شارع تامبل نمرة ٦٩ .
ثم تنهد الخيبة رجائه فيهم إذ كان يعتقد أنهم قادمون لشراء الأزهار .

فتأبط الرئيس ذراعه وسار به إلى الحديقة وقال له : أرى أنه يجب أن أخبرك من أنا فلإني أدعى ليمرفيه ، أي رئيس البوليس السري
فارتعش بوليدور وقال بلمهجة دلت على براءته : ماذا عملت يا سيدي وأي شأن لي مع البوليس ؟

- لإني تبيننت براءتك من عميليك . وأنا واثق من أنك لا دخل لك فيما اضطرني إلى زيارة هذا المنزل وقد يسوءني إزعاجك . غير أنني لا أجد بداً من إجراء واجباتي .

- واجباتك ؟

- نعم .

- وكيف ذلك ؟

- ذلك أنه يجب علي تفتيش هذا المنزل .

تفتيش منزلي أنا ؟

- أي تفتيش هذا المنزل الذي كنت أحسب إني أجد مدام ليفيك فيه
لذلك أسألك أن لا تدع أحداً يعلم ما أنا آت لأجله وأن تستقبلني استقبال صديق
توياً على هؤلاء العمال .

فاحمر وجهه وتندى بالعرق ، وقال بصوت يضطرب إني يا سيدي مقيم
في هذه الناحية منذ ثلاثين عاماً فليس فيها من لا يعرفني ولم أعمل في حياتي ما

يحمل على الشك

— لقد قلت لك إني واثق بك ويظهر أنك أسأت فهم كلامي . إني لا أبغي قفتميش منزلك بل منزل المرأة التي يدعونها البستانية الحسنة ونعم إنك اشتريت منها المنزل وذلك لا يمنعني عن قفتميشه .

— لماذا تريد قفتميشه ؟

— لحدوث جريمة فيه

فاضطرب الرجل اضطراباً شديداً وقال . إذا صح ما روي لك عن حدوث جريمة فليست مدام ليفيك التي ارتكبتها لأنها من أشرف النساء .
— الملك تعرفها منذ عهد بعيد ؟

— إني أعرفها منذ عشرة أعوام . وقد توفي زوجها بين يدي ، فإنه كان من أصدق إخواني . وإذا أردت يا سيدي بعد هذا التأكيد أن تفتش المنزل ، فإني أؤمّنك اليه ولكنك لا تجد فيه شيئاً ، لأنني لم أحضر أفاتي إليه بعد .

— لا بأس فهو واجب لا بد من قضائه

فمشى بوليدور الى المنزل وتبعه رئيس البوليس والبوليسان ومونتيجرون وكازمير ، فلما فتح الباب وصعدوا السلم المؤدي الى الدور العلوي قال رئيس البوليس لمونتيجرون . هذا هو السلم الذي صعدت اليه ؟
أجابته : هو بعينه . وإذا شئت مشيت أمامك إلى الغرفة التي كانت فيها الجثة .

— إفعل !

فمشى مونتيجرون حتى بلغ تلك الغرفة ذات البواب الزجاجي ففتح بابها وولج اليها فتبعه الجميع . لكنه لم يجد الجثة بل وجد أن جدران تلك الغرفة التي كانت موشحة بالسواد زال السواد عنها وبرزت بلون أزرق جميل كانت تزيد أشعة الشمس جمالاً .

فاستاءه ومنتيجرون أشد الاستياء وخشي أن يشكك رئيس البوليس في روايته . لكن استيائه لم يطل فقال للرئيس لا شك أن البستانية الحسنة بعد خروجها من المنزل لم تترك الذي نبحث عنه في هذه الغرفة ولكن الذي أراه أن إخراج الجثة من منزل ليس بالأمر اليسير ولا بد لهذه الجثة التي رأيناها ان تكون باقية هنا في محل خفي .

فدعر صاحب المنزل وقال بلهجة المستنكر جثة في هذا المنزل ! فنظر اليه رئيس البوليس نظرة الفاحص فما وجد في ملامحه غير الصدق فقال له : نعم كان يوجد جثة في هذا المنزل .
- ولكن أين كانت ؟

- في هذه الغرفة التي نحن فيها وكانت مغطاة بوشاح أسود وكذلك جدران هذه الغرفة .

- إني لم أر هذه الغرفة إلا كما ترونها الآن .

فقال الرئيس لمونتيجرون : أذكر أنك قلت لي أن أرض هذه الغرفة قد سقطت بك ، فسقطت إلى حديقة تحت هذه الغرفة ، وأغمي عليك من رائحة زهورها .

- هو ما قلته لك وأظن أن أرض الغرفة مقسومة الى قسمين قسم ثابت وقسم يتحرك ويفتح بلولب أو غير ذلك
- وأنا أرى ما تراه فلنبحث عن سر هذا الباب

وجعلوا كلهم يبحثون في أرض تلك الغرفة الخشبية فلم يهتدوا إلى طريقة فتح الباب ، ولكن رئيس البوليس لاحظ أن الألواح الخشبية المبسوطة في أرض الغرفة جديدة ، فخطر له أن البستانية الحسنة قد وضعتها قبيل خروجها من المنزل لإخفاء آثار الباب . فأمر من معه في المنزل ان ينزعوا تلك الألواح ، فنزعوها وظهر تحتها أرض خشبية قديمة .

وبعد البحث الطويل وجد في اسفل الجدار لولباً صغيراً مصبوغاً بلون

أرض الغرفة بحيث لا تراه العين فما أوشك أن يديره حتى خسف قسم من أرض الغرفة فجأة ، وسقط مونتيجرون وكازمير دون ان يصاب أحد بمكره لأن العلوم يكن شاهقاً . فسر رئيس البوليس وأسرع فوثب إلى حيث سقطت جماعته ، فلما اجتمعوا كلهم في أرض تلك الغرفة الجديدة التي هبطوا إليها ، شاهدوا في زاوية منها سحفاً فآزاحوه فوجدوا وراءه ذلك السرير الذي رآه مونتيجرون ، وعليه تلك الجثة التي أصيب مريون من أجلمها بالجنون .

أما رئيس البوليس فإنه اضطرب اضطراباً شديداً إذ أيقن أنها جثة المركيز دي مورفر ولكنه ما لبث أن دنا منها ولمسها بيده حتى صاح صيحة اندهال فأسرع اليه مونتيجرون وقال ماذا ؟

- ما هي جثة إنسان ، بل هي جثة من الشمع . وقد هزأت بنا هذه المرأة كما تشاء .

ولقد أصاب الرئيس ، لأن هذه الجثة كانت تمثالاً من الشمع يشبه المركيز أتم الشبه ، وهي من تلك التماثيل العجيبة التي تفتخر بها المعامل الأنكليزية .

- ١٠ -

« من البوليس مانويل الى رئيس البوليس السري المسيو بيرفيه

« يا حضر الرئيس

« أرسلت اليك أمس نبأ برقياً لا أجد بداً من إتمام تفصيله بهذا الكتاب
أنت تعلم تعصب الشرائع الانكليزية بتسليم المجرم إلى حاكمه الشرعي وتسليم

جثة القتيل قبل عرضه في محل خاص .

« وقد كتبت اليك إني لقيت جثة الماركيز دي مورفبر وأرسلت اليك رسمها ولكنني لم أستطع إستلام الجثة لأن الشريعة تقضي بعرضها في مكان خاص يدخل اليه من أراد .

« وقد عرضت الجثة فعرفها أحد اللوردية وقال : إنه من أصحاب الماركيز وعرفتها أيضاً امرأة فقالت ان الماركيز كان مقيماً في منزلها فكتبت عنوان هذه المرأة ، وفي المساء ذهبت اليها وأدخلتني الى الغرفة التي كانت يبيت فيها الماركيز . فرأيت في المستوقد كثيراً من الأوراق الممزقة والمحروقة ، فجمعت منها بعض قطع لم تصل اليها النار ، وضممتها إلى بعضها فاتضح لي منها هذه الكلمات : (. وعد لي أيها الحبيب ، لقد عفوت عنك وسأحتك) .

« ورجعت من عندها إلى دار الحكومة ، وحصلت على الأذن بنقل الجثة إلى فرنسا في اليوم التالي ، ثم ذهبت لإعداد معدات السفر . وفي الصباح دخل علي البوليس الانكليزي وقال لي بلمهجة المضطرب : إن الجثة قد سرقت

« أما تفصيل سرقة الجثة فهو : أنها كانت موضوعة في غرفة لها نافذة تشرف على البحر ، وكان يتولى حراستها بوليسان إنكليزيان وفيما هما جالسان أمامها يدخنان ، تناقلت أجفانهما وناما نوم تخدير فتسلق سارقوا الجثة إلى نافذة الغرفة ، فكسروا روافدها وأنزلوا الجثة إلى قاربهم وهربوا بها .

« أما البوليسان فلم يستفيقا إلا في الصباح ، ووجدوا الجثة قد سرقت .

« واتضح بعد التحقيق أن التبغ الذي كانا يدخنان منه كان فيه مادة مخدرة ، فقبض على بائع التبغ . وقد شغلت هذه الحادثة جميع بوليس

لندرا ، فلم يهتم الى شيء بعد ولكننا لا نزال نرجو أن نحمد الجنة وسأخبرك
غداً بما يكون . »

« مانويل »



ولنعد الآن الى رئيس البوليس ، فإنه عندما ظفر بهذا الوجه الشمعي الذي
خدع به كل من رآه وحسب انه وجه المركيز دي مورفر ، أمر البوليسين
الذين كانوا معه بحراسته ومراقبة صاحب المنزل فلا يأذن له بالخروج . ثم خرج
من ذلك المنزل مع مونتييجرون وكازمير وهو يقول لهم : إني سأقبض على هذه
المرأة ، فلما أن يكون هذا الشخص الذي دلنا على منزلها صادقا فيكون بريئا
أو يكون كاذبا فيكون شريكاً لها في الجريمة .

وذهب مع رفيقه الى المنزل وسأل البواب عن البستاني الحسنة فأجابه :
إنها سافرت وقالت إنها لا تعود إلا بعد ثمانية أيام .

فأخذ الرئيس مفاتيح المنزل منه بعد أن أخبره بصفته ، ودخل مع
مونتييجرون وكازمير فلما دخلوا إلى غرفة النوم وجدوا صورة المركيز
دي مورفر معلقة بالجدار وهو بشياب الفلاحين ، ثم رأى رئيس الشرطة رسالة
مختومة فوق منضدة وعليها هذا العنوان « إلى الفيكونت دي مونتييجرون »
فدفعها اليه ففحصها وقرأ ما يأتي :

« إن هذا الكتاب سيصلك دون شك ، بل ربما أخذته بيدك من الموضع
الذي تركته فيه فلذلك أردت ان تميط الحجاب عن أسراري ولما أعجزك الأمر
استعنت برجال الشرطة ، ولكنك لن تقف ولن يقف الشرطة على شيء من
دخائل سري وسيذهب جهدك وجهدهم عبثاً باطلاً لا فائدة فيه لا سيما وأنه لا
يوجد بينكم من يعرفني إذ لا يوجد بين عصابتيكم غير رجل واحد رأي وجهي
لكنه أصبح من المجانين

« والآن إسمح لي يا سيدي الفيكونت أن أسديك نصيحة وهي انك غني ولا تزال في مقتبل الشباب فارجع عن قصدك من اقتفاء أثري أو أصيبك بنكبة تنقص عليك الحياة .

« أما البوليس فسيمفرغ جهده في البحث عن دي مورفر الميث أو الحبي ، ثم يرى أنه لا يظفر بمراد ، فيمسل ويرجع عن البحث . فاقصد بالبوليس ذلك خير لك

« وإني لا أنصحك هذا النصيح إلا لما أعلمه من صداقتك مع المركيز دي مورفر ، فاقبل النصيحة . أما أنا فلإني سأبرح باريس ولا أعود اليها قد أعود وقد نلتقي كل يوم عشرين مرة وفي عشرين مجلس ولا تعلم من أنا . وفي الختام أعود ما بسدأت به من النصيح ، فاقبله من امرأة أحببت صديقك وتدلعت بفراشه .

« البستانية الحسنة »

وفتش رئيس الشرطة بعد ذلك كل المنزل تفتيشاً دقيقاً فلم يعثر على أقل أثر لهذه البستانية . وأفرغ جهده بعد ذلك فلم يظفر بالجنة ولا بالمرأة . وذاع هذا الخبر في العاصمة فاضطرب له الناس وحاد الشرطي مانويل من لندرا بعد أسبوع دون أن يقف على شيء .

ومر على هذه الحادثة عام فتناساها الناس وكفت عنها الشرطة . غير أنه أشيع بعد عام أنهم شاهدوا المركيز دي مورفر حياً في بلاد الهند واتفق عند انتشار هذه الإشاعة أن إحدى المركبات صدمت الشرطي مانويل فسحقته ، والح وهو في حالة النزاع ان يرى رئيس الشرطة في المستشفى وأسرع اليه الرئيس ولم يعلم أحد اذا كان حديثها خاصاً بالمركيز دي مورفر لأن هذه المداولة بقيت في طبي الكتمان .

يذكر قراء الجزء السابق ، أي رواية ملايين النورية ، أن روكامبول ترك رسالة لمريميس تتضمن تعليماته وأمره أن لا يفتحها إلا إذا مضى على سفره عامان دون أن يعود .

وقد كان مضى على سفره إلى الهند نحو عامين دون ان يعلم أحد شيئاً مما حدث له ، ولم يعلم أحد في أوروبا ، إذا كانت السفينة التي ذهبت به وبالأسرى الهنديين التهمتها النار أو سلمت ، وإذا كان روكامبول بقي حياً أو ابتلعته الأمواج .

وكانت فاندا ومريميس متلازمين لم يفترقا ومعهما ميلون وكانهم ينتظرون عودة الرئيس بفارغ الصبر ولا يتحدثون إلا بأمره .

وكان ميلون أشدهم جزعاً عليه وأعظمهم يأساً من لقائه فكان يهز رأسه بعض الأحيان ويقول : إنه مات وأسفاه دون شك .

فتجيبه فاندا : إن هذا محال وأنا واثقة انه لا يزال من الأحياء . أتريد أن تعلم ما يحملني على هذا الوثوق ؟

. كيف لا أريد وأنا أكاد أجن من يأس ؟

- إني عصبية المزاج شديدة التأثير ، ومن أعظم الناس قبولاً للنوم المغناطيسي وإذا كثرت هواجسي بالذين أحبهم ظهروا لي في الحلم بالحال التي يكتنون فيها .

- وهل رأيت روكامبول في حلمك ؟

- رأيته نحو عشر مرات منذ فراقه

فهز ميلون رأسه وقال . إنها أضغاث أحلام ، لا تظهر خفياً ، ولا تبين غيباً .

- لو كان يوجد هنا من يعرف طريقة التنويم المغناطيسي ، لنومني أمامكم

وأظهرت لـسك أين يقيم روكامبول ؟ وماذا يصنع الآن ؟ وإذا كان في نيته أن يعود

فتنبه مرميس لقولها وقال : إذا كنا لا نحتاج إلا إلى منوم لمعرفة حقيقة حالة روكامبول ، فلن الأمر سهل ميسور لأنني أعرف أين أجسد هذا المنوم .

— إذهب يا بني واثني به .

ففرع مرميس جرساً وأسرع إليه أحد الخدم وقال له : قل للسائق ليهمي لي المركبة في الحال .

وكان مرميس قد تغيرت أخلاقه وحالته بعد موت جيبسي ، فبات من الذين يشار إليهم بالبنان لحسن أدبه ولين أخلاقه وشرف طباعه . وإن حبه لجيبسي ونكبته بفقدائها وملازمة فانداله كل ذلك أدبه خير تأديب وقد زال اليأس من قلبه ولم يبق من آثاره غير ظواهر السويداء وإن القنوط لا يتمكن من قلب الفتى وهو لم يتجاوز العشرين

وقد كان أتم دروسه في مدة هذين العامين ، أي في غياب روكامبول ، فتخرج على أشهر الأساتذة بفضل ثروته وبات جميع أصحابه ومعارفه من النبلاء وخيرة المتأدبين

وكانت النساء تتوددن إليه ، والأوانس يخطبن وده لأدبه وجماله وماله ، غير أن قلبه لم يكن يتسع لغرام بعد نقده من يحب فكان إذا مال فؤاده إلى التهلك أو دفعه غرور الصبى إلى الاسترسال إلى الملاذ تمثلت له تلك الفتاة التي كان يهاوها وعاد إلى الاكتئاب وكبحت هذه الذكرى جماع ذلك الغرور (راجع رواية ملايين النورية) .

ثم إنه كان يحترم روكامبول احترام الآباء ، وكان يعلم أنه عهد إليه بمهمة سرية مختومة لا بد له من قضائها . وإن هذه الثروة التي خلفتها له جيبسي لا يحق له أن ينفقها إلا في وجوه الخير فكان يقتصد منها كل الاقتصاد إلا في حين

إغاثة ملهوف أو إعانة بائس مسكين .

هذه هي حالة مرميس الذي استحال بفضل روكمبول من حال الى حال ، وقد تركناه ذاهباً الى المنوم المغناطيسي ، وهو رجل أميركي اشتهر بهذا الفن شهرة واسعة في باريس ، ولما وصل اليه أخبره بالغاية التي جاء من أجلها فخرج وإياه وعاد به الى فاندا .

ولما استقر به المقام قالت له فـاندا : إفحصني يا سيدي لنرى إذا كنت خاضعة للتنويم .

ففحصها وقال لها : بل أنت أشد الناس خضوعاً له .

— إذا نومي وأذن لمرميس ان يسألني ما يشاء أثناء نومي .

فأجلسها المنوم على كرسي كبير ووضع يديه فوق يديها ، وجعل ينظر اليها تلك النظرات الخاصة . ولم يمر حين وجيز حتى أطبقت عينها وانحنى رأسها وتنهت تنهداً عميقاً فعلم الأميركي ان التنويم قد تم وقال لها : أنظري .
إني أريد ان تنظري .

فارتعشت فاندا هنيئة وظهرت على وجهها علائم المقاومة ثم زالت هذه العلائم فجأة ففتحت شفيتها وقالت : أرى ...

وكان العرق ينصب من جبين مرميس وميلون لوثوقها أنها سيعلمان ما حدث لروكمبول .

وبدأت فاندا بالكلام وجعلت تفوه بكلمات متقطعة مبهمه مضطربة كأنما نفسها كانت في عراك لاغتصابها حجاب تلك الظلمات السرية التي تكتمف روح النائم حين طيراتها الى عالم الأرواح واجتيازها تلك المسافات الشاسعة على بقائها متصلة بجسم النائم .

ثم انقشع الاضطراب عن وجهها وانبسطت نفسها ، وظهرت عليها علائم الهدوء والسكينة وبات كلامها واضحاً جلياً لا يداخله شيء من الابهام وقالت : إني أراه .

— من هو الذي ترينه ؟

— هو .

فأشار مرميس إلى المنوم إشارة مفادها اننا نعرف الذي تعنيه ثم همسن في أذنه قائلاً : سلها أين هو .

فقال المنوم : أين ترينه ؟

— إن السماء مرصعة بالكواكب ، ومع ذلك فهي قائمة سوداء .. البحر شديد .. وهذه الرياح التي تثير الأمواج كأنها من نار .. إنها تهب من الغرب .. خط الاستواء غير بعيد .. إن شرار السفينة تكاد تمزقه الرياح والأمواج تنشق أمامها فتسير في وديانها . هذا هو .. إنه جالس في مجلس الربان رابط الجأش عالي النفس ..

إنه يحسن قيادة السفن كما يحسن قيادة الرجال .. الرياح موافقة وكل شيء منتظم في السفينة .

ثم سكنت فقال لها الأميركي : قولي ماذا ترين أيضاً ؟

— لا شيء سوى الضباب ...

وعادت الى السكوت .

وقال الأميركي همساً لرميس : إن الحالة ستتغير بعد قليل لنصبر .

وبعد عدة دقائق عادت فائدا الى الارتعاش ولكن علائم الرعب الشديد ارتسمت فجأة فوق وجهها وصاحت صياح المستغيث وقالت : رباه !

فقال لها المنوم : ماذا ترين ؟

— النار في السفينة .. إنها ناشبة في العنبر . ويلاء .. إنها ستصل إلى مستودع البارود ..

ثم سكنت هنيئة وعادت فقالت : لا تزال النار تتأجج .. إنهم أنزلوا القارب إلى البحر .. نزل فيه الناس . إنهم يبتعدون عن السفينة المحترقة ...

— وهو ؟

— هو لا يزال باقياً في السفينة .. اني أراه واقفاً على سطحها يشيع القارب بالنظر . رباه . ان لسان النار يندلع . قرب اللهب من مستودع البارود . ثم تحركت حركة عنيفة فوق كرسيها وصاحت بصوت هائل . الانفجار . فجعل الأميركي ومريس وميلون ينظر كل منهم إلى الآخر نظرات الذعر غير ان فاندا انقطعت فجأة عن الارتعاش واشرق وجهها بنور البشر وتنهدت تنهداً طويلاً دل على الارتياح .

فقال لها المنوم : ماذا رأيت ؟

— اني ما رأيت ولكني أرى .

— ماذا ترى ؟

— أراه .. انه يسبح في المياه مستعيناً بخشبة كبيرة من بقايا السفينة .. طلع النهار . لا يزال يسبح .. البحر هاديء .. هوذا سفينة قد ظهرت في عرض البحر وهي تدنو منه . ها هي وصلت اليه فأزلت القارب .. واطرباه ! انه نجا .

فصاح ميلون ومريس أيضاً صيحة فرح ، اما فاندا فانها صمتت ولم تعد تفوه بكلمة فقال ميلون يجب أن نوقظها .

فاعترضه مريس وقال كلا ، إذ يجب ان نعلم أين هو فلا يكفيننا انه حي . ثم أشار إلى الأميركي ان يسألها

فوضع الأميركي يده فوق جبهتها فمادت سلطته عليها وقال لها . أنظري فاني أريد أن تنظري .

فاختلجت فاندا ، ولكن وجهها ظهرت عليه علائم الارتياح مما يدل على انها ترى أموراً تسرها ، ثم قالت : انه فوق صهوة جواد أبيض مسرج بسرجه مذهب وهو يسير يجاذب فارس يلبس لباساً أحمر وعلى كتفيه رمانات من ذهب وامامها رجال ملابسهم حمراء أيضاً وهم يسرون امامها بالموسيقى ووراءها جنود مختلفة الملابس وهم قادمون من معركة قاتل فيها « هو » قتال الأسود

والجميع يسرون في حقول خضراء .
فقال مرميس : هذه بلاد الهند دون شك .
وقال لها الأميركي : إلى أين هو ذاهب ؟
- لا أعلم ، فإن الليل قد هجم والشمس قد توارت في الحجاب ولكن لا
أزال اسمع صوت الموسيقى .
فالتفت عند ذلك الأميركي إلى مرميس وقال له : ان السيدة قد تعبت
وصار يجب ان تستفيق .
- كما تريد .
فوضع الأميركي يديه على رأسها وذراعيها وكتفيها وحركها تباعاً ففتحت
عينيهما وأجالت في الحضور نظراً حائراً ثم ذكرت ما كانت هي فيه فقالت
ماذا جرى للرئيس ، أما هو حي ؟
قالوا : بلى .
- أين هو ؟
- في الهند .
- ألعلي قلت اذا كان يعود ؟
فقال لها الأميركي : كلا ، فقد تعبت وسأنومك مرة أخرى .
فنظرت فاندا إلى مرميس نظرة سرية مفادها اننا لا نستطيع أن نتكلم
بحرية بوجود هذا الرجل .
وبعد حين ذهب مرميس بالأميركي فقالت له فاندا : لا تنس يا مرميس ان
غد موعد فتح كتاب روكامبول .
- سأحضر في الساعة الثامنة من صباح غد ، ثم انصرف مع الأميركي .
فقالت فاندا لميلون : أوثقت الآن يا ميلون ان روكامبول لم يمت ؟

أما مرميس فانه أوصل الأميركي بركبته إلى منزله ثم أمر الخادم ان يعود بالركبة إلى المنزل وسار مساشياً يتنزه في شوارع باريس ويفتكر بروكامبول وبوعده فتح الرسالة وبما عسى أن يكون قد عهد اليه من المهمات .

وكانت الساعة الحادية عشر مساء وقد راقى السماء واعتل النسيم وكثر المتنزهون في الشوارع فبينما كان يسير قرب الأوبرا شعر بيد وضعت فوق كتفه فالتفت فرأى الفيكونت مونتيجرون .

وكان هذا الفيكونت قد رجع عن البحث عن المراكز مورفر لياسه من لقائه فحيا صديقه مرميس وقال له : لقد أحسنت بالتنزه فان الهواء عليل .

— نعم فإن هذه الليلة تشبه ليالي الربيع فيحسن استنشاق هوائها .
— بشرط أن يكون الفكر نقياً كسمائها طليقاً كهوائها ، ثم تنهد .
فقال له مرميس : ما بالك تنهد أيها الصديق العليلك فوجئت ببناً محزون ؟
— كلا ، ولكنه الغرام يا مرميس فقد بدء به قلبي حين تفرغ منه القلوب .
— كيف ذلك فاني لا أفهم ما تقول ؟
— إن التمثيل في الأوبرا ينتهي عند منتصف الليل ولا يزال الوقت فسيحاً لاطلاعتك على سري ، تعالى معي أيها الصديق إلى هذه القهوة المجاورة للأوبرا أبيع لك بأسراري

— ليكن ما تريد فليس لي شاغل يمنعني عن أن أذهب معك .
وذهب الاثنان إلى القهوة فجلس مونتيجرون في مكان يرى منه كل من يخرج من الأوبرا ، ويدخل اليها ثم بدأ حديثه مع مرميس فقال . اني كنت من سن العشرين إلى الثلاثين أبعد رفاقي عن الاندفاع بتيار الشهوات فكنت انفق دخل ثروتي بالحكمة والسداد ، وأنهى نفسي عن كل غي ، ولا أشغل قلبي بهوى حسناء حذراً من مقبات الغرام ، ولا أتجاوز المدى في شأن من الشؤون

حذراً من العواقب ، ولكني حين تجاوزت سن الطيش والغرور جريت في
حلبة هاتين اللفتين كأنهما من حقوق الصبي ، وكأني ندمت لتجاوزي عن
هذا الحد فجعلت أنغمس في كل ملذة وأتداخل في كل شأن ، ألا تذكر حكاية
المركين دي مورفر ؟

– اتعني بها حكاية اختفائه ؟

– نعم ، فقد شغلت نفسي عامين لم يكن همي فيها إلا اختراق حجب
هذا السر ..

– الملك وقفت على الحقيقة ؟

– كلا ، وفوق ذلك فقد أوعزت إلي عائلته نفسها أن انقطع عن الابحاث
وذلك ان لهذا المركين وريثاً فجاءني في صباح يوم وقال لقد قابلت رئيس
الشرطة وافقنا على عدم البحث عن ابن عمي المنكود واعتباره من الأموات ،
ورجائي أن تكف مثلنا عن البحث عنه .

– الملك امتثلت وامتنعت ؟

– لم أجد بداً من الوقوف عند حدي لاسيما اني مللت البحث ويشتت من
لقاء ذلك الصديق ، لكفي كنت تعودت المشاغل والقت الاهتمام فرأيت ان
قلبي بات بحاجة إلى شاغل جديد .

– أوجدت هذا الشاغل ؟

– دون شك إذ أصبحت من العشاق .

فابتسم مرميس وقال : من هي هذه الفتاة التي ملأ حبها فراغ قلبك ؟

– اسمح لي ايها الصديق قبل ذكر اسمها أن اخبرك كيف أعيش منذ شهر
أي منذ باض وفرخ هذا الحب في قلبي فساني احضر ثلاث مرات في الأسبوع
إلى الأوبرا إذ أجد التي أحبها فيها ، وإذا رأيتها أخال ان دقائق قلبي تبلغ
مسامع الناس ، فاذا أشرق الصباح امتطيت جواداً ومررت به مرتين أو
ثلاثاً من تحت نوافذ منزلها في الشانزليزه دون ان أطمع برؤياها ، فانها

تكون نائمة ، ولكن يرضيني ان أرى نوافذ غرفتها ، وأقنع حينئذ أن أرى من يراها .

ثم اني أذهب كل ليلة لا تمثل فيها الروايات في الأوبرا إلى المنزل الذي أعرف انها تقضي السهرة فيه ، فألقاها ولا أكلها ، ولم أكلها مرة إلى الآن ولكن عيني كانت تنوب عني فتعرب عن غرامي بأفصح لسان ولا أدري إذا كانت فهمت لغة عيني وعلمت انها رسول قلبي ، ولكني لو سئلت الحياة بساعة من قريبا لرضيت وما أسفت على الحياة .

فقال له مرميس بلهجة الكتابة : إذن أنت مريض هوى ؟

— مجنون غرام لا يرجو الرشاد وصريم وجد لا يود أن يستفيق .

— إذا ان هذه المرأة بارعة في الجمال ؟

— لا أعلم فان عين الحب لا ترى جمال المحبوب ، وليس الجمال رائد الهوى إلى القلوب غير انها ذات عينين ساحرتين .

إذا نظرت قلباً خلياً من الهوى تقول له كن مغرمًا فيكون فهل تريد أن تراها ؟

— دون شك ، إذ لا موضع في قلبي لهيام العميون .

— إذا اذهب الآن إلى الأوبرا وانظر إلى اللوج الأول تجدها طالعة فيه بين الجميلات طلوع القمر بين النجوم وانك تجد بقربها رجلاً ينيف عمره على الخمسة وأربعين وهو زوجها .

— أهو فرلسي ؟

— كلا ، بل هو إسباني .

— إذا هي إسبانية مثله ..

— كلا ، بل أظنها روسية والحقيقة انه ليس من يعلم شيئاً من امرها ، فانها جاءت باريس منذ شهرين ولا يعلمون من أين أتت ولكنها تزور أشرف البيوت وما جرت حفلة في سفارة إلا ودعيت اليها

فنهض مرميس وقال : لقد هجرت فضولي فأنا ذاهب لأراها في الحال .
أتريد أن تكون معي ؟

— كلا بل أبقى هنا وستجدني عند عودتك في مكاني .
— كما تشاء ..

ثم تركه وانصرف توأ إلى الأوبرا وجلس في لوجه الخاص به وكان مجاوراً
للوجه ، فلما رآها ذهل لجمالها الباهر وكانوا يتحدثون عنها في اللوج المجاور
للوجه فأصغى إلى الحديث دون أن ينقطع عن النظر إليها .

- ١٣ -

وقد رأى مرميس من جمال هذه المرأة ما يفتن الزهاد فعذر صديقه
مونتيجرون لافتتانه بها وأصغى إلى ما يتحدثون عنها باللوج المجاور للوجه .
وكان اثنان مقيمين في هذا اللوج وهما يتحدثان باللغة الانكليزية ، غير انه
كان قد أتقن هذه اللغة منذ عهد حبه لجيبسي ، فلم تفته كلمة من حديثهما
وسمع ما يأتي :

قال أحدهما إذن أنت لا تثق ايها الصديق بزواج دون ريميو ؟
— على الاطلاق .

— ولكنه رقص أول أمس في السفارة الاسبانية ؟

— على أي شيء يدل رقصه فيها ؟

— يدل على انه زوج هذه المرأة إذ لا يحسر ان يصحب خليلته إلى بيت
السفير ويدعي انها امرأته .

— إذا كان دون ريميو حقيقة تزوج هذه المرأة فهو إذن زوجها الرابع .
— كيف ذلك ؟

- ذلك اني عرفت أزواجها الثلاثة ، وان هذه المرأة ليست روسية ولا انكليزية كما يتوهمون ، بل هي فرنسية وأنا وأثق انها ولدت في باريس ومع ذلك فقد رأيتها أول مرة في لندرا .

- متى كان هذا ؟

- منذ خمسة أعوام وكانت في ذلك العهد زوجة اللورد هرنج فادعت، أنها تزوجته في لندرا وكانت تعيش في لندرا عيشة رخاء كما هي عائشة هنا .
- وكانت تدعى اللادي هرنج ؟

- كما تدعى هنا دونا روميو وكما تدعى في الاسمانه البرنسس كولوتين وفي مرسيليا مدام كاتلان .

- إن ما تقوله عجيب يبعد تصديقه أيها البارون .
- ولكنه الحقيقة بعينها وأنت تعلم اني تركت باريس منذ عهد بعيد فلا أزورها غير مرة أو مرتين في العام ولا تطول زيارتي اكثر من يومين فقد لا تراني في المرة لأني مسافر غداً .
ولذا رأيتك ؟

- يصفر وجهها وتغرد كالأموات .
- العمل ذلك لما تعلمه من علائقك مع أزواجها ؟
- كلا بل لعلائقي معها فقد وقفت على الكثير من أسرارها .
- لقد هجت فضولي أيها البارون .
- ولكنني أقسمت ان لا أبوح بشيء مما عرفته من أسرارها .
- الست بصديقك المخلص ؟

ومن أجل انك صديقي أريد ان أكتفم عنك ما عرفته عن هذه المرأة كي لا تلقى بسبب ذلك ما يسوءك على اني سأخدمك بقدر ما أستطيع فهل أنت حقيقة مغرم بها ؟
- ومن ذا الذي يراها ولا يهواها ؟

- إذن فاسمع أن الفصل الأخير من هذه الرواية سينتهي تمثيله وسنخرج قريباً من الاوبرا فتتأبط ذراعي وتقف عند الباب الى أن تمر .

-- تريد بذلك أنها تراك وتراني معك ؟

- نعم ..

- وبعد ذلك ؟

- عليك أن تسعى لمقابلتها في المسرح والمتنزهات أو المنازل فاذا اجتمعت بها قل لها اني احبك يا سيدتي وأنا صديق البارون س .

- انتظن اني اظفر برضاها بعد هذا ؟

- ربما . وقد قال البارون هذه الكلمة وهو يبتسم ابتسام الساخر فلم تخف الابتسامة عن مرميس كما انه لم تفتنه كلمة من هذه المحادثة فلما انتهى تمثيل الرواية سبق الرجلين الى باب الاوبرا ووقف ينتظر .

وبعد هنيهة أقبل البارون س . ورفيقه ثم جاءت بهما دونتا روميو وهي متكئة على ذراع زوجها فجعل مرميس يحدق بها وبالبارون .

أما هذه المرأة فانها عند بلوغها الى الباب رأت فجأة هذا البارون فاصفر وجهها ووضعت منديلها في فمها كي تكتم صيحة دهش خرجت من صدرها ثم نظرت نظرة بغض هائلة الى البارون وسارت مع زوجها فاقتفى مرميس أثرها

- ١٤ -

وما مشى مرميس في أثرها خطوات حق وجدت الفيكونت مونتيجرون واقفاً في عرض الطريق وقد اصفر وجهه حين رآها مرت أمامه ووهت قواه حق اوشك ان يسقط .

وكانت هي قد ركبت المركبة مع زوجها وابتعدت فشغل مرميس بصديقه

مونتييجرون عن لحاقها فانه حين رآه مقبلاً اليه تحول لون وجهه من الاصفرار الى الاحمرار .

فقال له مرميس : ماذا أصابك الملك رأيته ؟

فتأبط مونتييجرون ذراعه وجره بعنف الى القهوة وهو يقول : تعال معي فاني أظن ان صوابي قد فقد واصبحت من المجانين .

فاضطرب مرميس للهجة كلامه وقال له : ماذا دهاك وما دعاك الى الجنون ؟
— انها ابتسمت لي حين مرورها

— لك أنت ؟

— نعم أيها الصديق فاذني أشعر ان البراكين النارية تتأجج في صدري . انها نظرت إلي وابتسمت لي وما كنت اطمع بأكثر من هذا الابتسام .

— إذن أي سبب يحملك على الجنون فان ابتسامها لك دليل رضاها عنك وغاية ما يقال عنك انك رجل سعيد

— نعم غير ان من فرح النفس ما يقتل .

ثم نظر اليه محققاً وقال : أنت مخلص لي يا مرميس ؟

— اعندك شك في اخلاصي ؟

— إذن لا تدعني وحدي فاني أخشى على صوابي وتعالم معي الى القهوة—
فتمتشي ونبقى فيها الى ان يطلع الصباح . أتريد ان نبقى معي ؟

وكان مونتييجرون في أشد حالة من الاضطراب فما وسع مرميس مخالفته وقال له : هلم بنا ولكني لا أجد داعياً لهذه الاضطراب بعد ان ابتسمت لك

— بل ان هذا الابتسام يرعبني .

— لماذا ؟

— لأنها قد تدألني بعده حياتي وثروتي وشرفي فأبذلها .

فابتسم مرميس وقال : انه ثمن فاحش .

وفيا هما جالسان حول مائدة يأكلان ويشربان دخل اليهما الخادم يحمل

رسالة على صينية من الفضة وقال : لقد اتى الآن خادم الى القهوة وسأل إذا كان الفيكونت مونتيجرون يتعشى هنا فلما اجبناه بالايجاب دفع الينا هذه الرسالة وقال يجب ابصالحا اليه في الحال .

فاصفر وجه مونتيجرون و اشار مرميس الى الخادم ان ينصرف ثم نظر الفيكونت الى الرسالة وهي لا تزال على الصينية كأنه لا يجسر ان يفتحها فاختلج وارتعش وقال : لا أجسر ان افصحها .

مرميس : ماذا اصابك أمن اجل ابتسامة تبلغ هذا الحد من الضعف ؟

- ولكنك لا تعلم من أتت هذه الرسالة التي لا اجسر على فتحها .

- اتحسبها منها ؟

- دون شك فخذها وافتحها عني .

فأخذ مرميس الرسالة وفتحها وقرأ بصوت منخفض ما يأتي « إذا كان الفيكونت دي مونتيجرون لا يزال شجاعاً كما يعهد به أهل باريس فليحضر في الساعة الثانية بعد منتصف الليل الى وراء كنيسة العذراء يوجد مركبة ذات جوادين »

ولم تكن الرسالة مذيلة بتوقيع فقال مونتيجرون : انها منها دون شك فقد انبأني دقائق قلبي .

- العلك نويت الذهاب اليها ؟

- كيف تشكك في ذلك ؟

فقطب مرميس جبينه وخيل له ان هذه الرسالة شرك نصب لصديقه ولكنه لم يظهر له شيئاً من ريبة فنظر مونتيجرون في ساعته وقال : يجب ان انتظر ساعة أيضاً ستكون كالادهار

فأجابه مرميس : لا بأس فسننتعاون على قتلها ولكني لا اعلم بعد ذلك ما ينبغي ان اصنع فلقد عاهدتك ان ابقي معك الى الصباح فاذا ذهبت الى هذا الموعد فماذا أفعل ؟

٠ تنظرني هنا .

٠ وإذا لم تعد ؟

٠ إذا لم أعد الى الساعة السادسة فانت مطلق السراح .

سأنتظر كما تريد ولكنني أرجوك ان تأخذ معك هذا المسدس من قبل الحذر
فاننا في أيام المرافع والحذر في مثل هذه الأمور محمود .
فأخذ مونتيجرون المسدس من مرميس ولما دقت الساعة الثانية ركب
مركبته وسار الى كنيسة العذراء .

أما مرميس فانه لبث في تلك القهوة فجعل قارة يتلهمى بالالعاب وقارة
بقراءة الجرائد حتى بزغ الصباح ودقت الساعة السادسة فلبس قبعته وحاول
الانصراف ولكنه رأى ان باب الغرفة التي كان فيها قد فتح فجأة ودخل
مونتيجرون وعيناه تتقدان كالبحر فقال لمرميس . اني سأتبارز بعد ساعة في
الغابات وأنت شاهدي فلم بنا الى صديقي كازمير .
٠ ولكن قل لي على الأقل من هو خصمك قال : هلم فسأخبرك باسمه على
الطريق فان المركبة تنتظرنا على الباب وفيها السيوف .

حين خرج مونتيجرون من القهوة الانكليزية وغادر فيها مرميس كان شديد
الاضطراب حتى انه خشي ان يلقاه أحد اصدقائه في الطريق فيعلم امره او
يشنیه عن قصده فركب مركبة مقفلة حتى إذا وصل بها الى قرب كنيسة العذراء
اوقفها ونزل منها فصار الى وراء تلك الكنيسة فوجد المركبة التي وصفت له
بالرسالة وقفة في انتظاره .

فمشى مونتيجرون الى تلك المركبة مشية السكران وهو يخشى كلما دنا
منها ان يسقط لتزايد اضطرابه فلما وصل اليها برز منها رأس امرأة مبرقع
بجحاج كثيف فلم يعرفها مونتيجرون إلا من دقات قلبه .
ثم شعر ان يداً ناعمة مسكت يده وسمع صوتاً رخيماً يقول له اصعد
فامثل مونتيجرون وصعد الى المركبة وهو بين حي وميت .

وكان السائق قد تلقى الاوامر من قبل دون شك فاطلق عنان الجياد فسارت الى جهة الشانزليزه .
وعند ذلك بدأت المرأة الحديث فقالت : اني اعلم يا سيدي الفيكوونت انك باسل وانك تهواني .

— ماذا تريدن يا سيدتي اتردين ان اموت من اجلك ؟
— بل اريد ان تخاطر بحياتك الثمينة عندي . ثم نظرت اليه نظرة من تحت نقابها اخترقت صميم قلبه فقال : اني مستعد يا سيدتي ان ابذل في سبيل رضاك اكثر من هذه الحياة
— إذن اعلم يا سيدي ان مبارحتي بباريس غداً وعدم رجوعي اليها الى الابد منوط بك فعليك يتوقف بقائي في هذه العاصمة وانت وحدك تستطيع ان تحملني على حبك .

وقد قالت هذا القول بلمهجة اولئك الاسبانيات اللواتي يعرضن حبهن على البواسل جزاء الانتقام لمن عن اهانة . فبرقت اسرة مونتييجرون بأشعة الفرح وقال : مري يا سيدتي افعل ما تريدن

— يوجد رجل تجاسر على اهانتني بعد ان يش من رضاي فاستحال حبه الى كره وتبدل غرامه بمقد عظيم دفعه الى الانتقام مني فهو يخلق التائم والاكاذيب وكلما رأته في بلد هربت منه ولكنه لا يلبث ان يعلم المكاف الذي قررت اليه فيدركني فيه

فأجابها مونتييجرون بملء البساطة ، إذن سأقتل هذا الرجل .
— ان زوجي غيور وحشي ولكني لا أحبه ولا أريد أن اعتمد عليه بانتقامي
— اذكري يا سيدتي اسم هذا الرجل وعلي البقية .

— ان هذا الرجل باسل شديد الميل الى الخصام لا يهرب عدواً ولكنه إذا علم اني انا التي سلحت يدك بأبي مبارزتك ولو اهنته كي لا يفوته الانتقام مني حتى انه قد يهرب منك ولا يخشى العار .

فتحمس مونتيجرون وقال : تباً له من نذل جبان .
 - اقسم لي انك ستجد حجة تمنع بها عن ذكر اسمي .
 - اقسم لك اقدس قسم .

فضغطت على يده ضغطاً لطيفاً وقالت إنك إذا قتلت هذا الرجل أصبحت عبدة لك وتركت كل شيء في هذا الوجود من أجلك وسرت معك الى أقصى مكان في الارض

فطاش رأس مونتيجرون من الوعود وقال : اذكري لي اسمه يا سيدي بالله .
 فأظهرت المرأة شيئاً من التردد ثم قالت : وإذا كان هذا الرجل من أصحابك - لا أبالي .

- وإذا كان من أصدقائك المخلصين ؟
 - انه الآن ألد عدو لي بعد أن تجاسر على إهانتك .

- إذا فاعلم يا سيدي إن هذا الرجل الذي أهانني والذي أريد له الموت ، والذي سأبعمك قلبي بالانتقام منه هو البارون هنري س .
 فارتعش مونتيجرون لأن هذا البارون من أصدقائه وهو من أعضاء نادي اسبرج ، وكان يعرف عنه انه غريب الأطوار ، سافر أسفراً كثيرة منذ عدة أعوام ، ثم انقطع إلى الإقامة في أراضيه فلم يكن يزور باريس إلا في القليل النادر ، لكنه إذا زارها فلا بد له من الحضور إلى النادي .

ولم يكن بين البارون وبين مونتيجرون علائق وداد متينة ، بل كان يعرفه كما يعرف جميع أعضاء ذلك النادي فلما ذكرت له اسم البارون تنهد تنهد المنفرج وقال لها : سأقتله يا سيدي أو يقتلني .
 فأوقفت المركبة عند ذلك وقالت لمونتيجرون : إذن إلى اللقاء بل إلى الغد فاني أرجو أن أراك .

- أين أراك يا سيدي ؟
 - في نفس المكان الذي رأيته في الليلة وفي الساعة ذاتها .

ثم أعطته يدها فجعل يلهمها بقبلاته الحارة وقالت له : إذهب بأمن الله
فان روحي تحميك .
وخرج مونتيجرون من المركبة وهو يكاد يفقد الرشد وجعلت عينه تتلقت
الى المركبة فمضى بعدت عنه تلفت قلبه .
ووقف حيناً وقفة الحائر المضطرب ثم تاب اليه رشده فسار ماشياً كي تطول
المسافة ويجد وقتاً لتقرير الخطة التي يجب أن ينهجها مع البارون هنري .
وما زال سائراً حتى وصل إلى نادي اسبرج فوجد أعضاء يقامرون
ويلعبون الباكارا ، وكان البنك بيد البارون هنري عدوه الجديد .

- ١٥ -

وكان اللاعبون منهمكين في المقامرة وجميع أعضاء النادي مشتركون به
فكان كلهم يربحون ما خلا أصعب البنك أي البارون هنري فان الخسارة
كانت مختصة به وحده ، فكان حين دخل مونتيجرون منقبص الصدر لفداحة
خسارته مقطب الحاجبين ، على انه كان وافر الثروة ، ولكنه كان من أولئك
الذين تؤثر بهم خسارة القمار أشد تأثير فكان يتململ ويقول : أف لهذه الليلة
ما أنكد بخي فيها فاني لم أربح مرة واحدة .
ثم لما رأى ان الخسارة مستمرة قال : اني أطلب تغيير هذا الورق فهو
شؤم علي .

فنظر اليه الحاضرون يحملتهم نظرات الانكار فقال لهم : ما بالكم
تنظرون الى هذه النظرات ألا يحق لي تغيير الورق ؟ اني لا أطلب إلا حقي .
فانبرى مونتيجرون من وراء اللاعبين وقال : أرجوكم أيها السادة أن
تعذروا حضرة البارون فانه صار من أهل الاقتصاد .

وقد ضحك أثر هذا القول ضحك تهكم واستهزاء فقطب البارون حاجبيه وقال : كيف تقول يا حضرة الفيكونت اني بت من أهل الاقتصاد ؟ فأجابه بلهجة المتهمك : هذا ما يقوله الناس يا سيدي وأنا أرويه عنهم . - الملك تحسب الاقتصاد جريمة ؟

- كلا ، بل هو واجب ولا سيما على من يكون في حالته . فنظر اليه البارون ببرود وقال : ماذا تعني بما تقول ؟ - لا أقول شيئاً إذ ليس ذلك من شأني . - أتريد بما قلته اني اصبحت فقيراً فاضطرت إلى الاقتصاد ؟ - كلا بل اني أعتقد انك لا تزال من كبار الأغنياء . - إذاً ماذا أردت بما قلت ؟ - أردت به يا عزيزي البارون اني سمعت الناس يتحدثون انك محتاج إلى حفظ مروتك لورثائك . - أما ورثائي فليس لي وارث غير ابن أخت هو أغني مني وأنا أرجو أن لا يرثني إلا بعد دهر طويل . - وأنا أرجو معك هذا الرجاء غير ان الناس لا يقصدون بورثائك هذا الورث . ؟

- ماذا يقصدون ؟ - يقولون يا سيدي انك عشت زمناً طويلاً في أراضيك . - ذلك لأنني أحب الحلاء وأفضل العيش في اللورين . - ولأن بنات اللورين بارعات في الجمال . فظهرت على البارون علائم نفاد الصبر وقال : ما هذا الهزم يا فيكونت ، وأي غرض لك فيه ونحن في مقام اللعب ؟ - إذا كان لم يرق لك فعد إلى اللعب وافترض اني لم أقل شيئاً . وكان مونتييجرون يشفع كل كلمة بلهجة تهكم ظاهرة فوقف البارون هنري

وقال : كلا فانك جريت شوطاً بعيداً ولم يعد بد من التوضيح .

— أي إيضاح تريد ؟

— أريد أن تقول لي من هم هؤلاء الورثة .

— ولكنك تعرفهم اكثر مني أم تريد ان يعرفهم جميع الحاضرين ؟

وقد قال هذا القول وهو يبتسم ابتسام التهكم والهزء بحيث اتضح للجميع الحاضرين انه يقصد مخاصمة البارون بانتحال الأسباب .

فاصفر وجه البارون وقال : نعم ، أريد أن يعلم جميع الحاضرين وجميع الناس .

— إذا ، ليعلموا ان وراثتك خادمة مثلك وأولادها .

فوقع هذا القول على البارون وقع الصاعقة وقال بصوت متهدج من الغضب إنك كاذب تمام وما هذه الفرية إلا من مخيلتاتك .

أما مونتيجرون فانه أخذ قفازه بلاء البرود وضرب به البارون وهو يقول : إن كلمة كاذب كبيرة يا بارون وسأعيدها إلى صدرك .

فأخذ البارون القفاز عن الأرض فوضعه على المائدة وقال : إنك تجدني يا فيكونت في الساعة السابعة من هذا الصباح في الغابات وأحضر معك سيوفك وغداراتك إذ يجب أن يموت أحداً أو كلانا في هذا الصباح .

— هو ما تقول وسألاقيك في الموعد المعين .

ثم خرج من النادي والناس حائرون لهذا الخصام .

وجعل الحاضرون يستغربون إعتداء الفيكونت الظاهر ويسألون البارون هنري عن الأسباب إلى أن أقسم لهم بأنه لا يعلم شيئاً من أسبابه وان الفيكونت كان كاذباً فيما اتهمه به ، فكفوا عن سؤاله وعادوا يلعبون إلى إلى الصباح فخرج البارون هنري وذهب إلى صديقين له من الضباط وطلب إليهما ان يكونا شاهديه ، وسار الثلاثة الى الغابات والبارون يفكر ويقول في نفسه : لقد فاتني أن أسأل أصدقاء مونتيجرون إذ كان مصاباً بداء الغرام

فاني أخاف ان يكون لتلك المرأة يد في هذا الخصام .
وعند الساعة السابعة وصل مونتيجرون مع شاهديه مرميس وكازمير فوجد
البارون ينتظره مع شاهديه .

- ١٦ -

عندما خرج الفيكونت مع مرميس من القهوة الانكليزية الى بيت كازمير
حاول مرميس ومها على الطريق ان يقف على سر صديقه والسبب الذي دعاه
الى المباراة فلم يحبه الفيكونت ولكنه قال له بعد الحاحه : افرض اني اتي
مع زوج امرأة احبها .

فأضل هذا الجواب حساب مرميس وظن ان مونتيجرون ذهب لمقابلة
المرأة فباغتتها زوجها واضطر الى مبارزته ، ولكنه كان يقول في نفسه :
العل ذلك خيانة أم هو فخ نصبته تلك المرأة التي سمع ما كان يقول عنها
البارون هنري في الأوبرا .

وحاول مرات كثيرة ومها على الطريق ان يقف على الحقيقة ولكنه لم يظفر
براده الى ان وصلا الى بيت كازمير فدعاه الفيكونت وذهب الثلاثة في
مركبة الى الغابات .
وحاول كازمير ايضاً ان يستجلي الحقيقة فما لقي غير ما لقيه مرميس
من الخيبة .

ولما دنوا من المكان المعين للمبارزة قال مونتيجرون لشاهديه : اني
أسألكما ان تقسماني بشرفكما انه مهما كانت نتائج هذه المباراة فلا تحاولا
البحث عن أسبابها .

فقال كازمير : إذا انت تريد ان تكون نتيجة هذه المباراة قتل احدا ؟

- دون شك وكل ما أطلبه اليكما أن تقسما لي هذا القسم كي أقاتل مطمئن البال .

فاقسما له ..

وبلغت المركبة بهم الغابات فوجدوا مركبة في انتظارهم تقل ضابطين والبارون هنري فلم يعلموا أيهم خصم صديقهم مونتيجرون حق نزلوا من المركبة ورأى مرميس أن الخصم هو البارون هنري صاحب الحديث عن المرأة في الأوبرا فالتفت منذعراً الى مونتيجرون وقال له مشيراً الى البارون : أهذا هو خصمك ؟

- نعم ...

- إذا كان ذلك فاني أسألك أن تسمع ما سأقوله لك قبل المبارزة .

فنفر الفيكونت وقال : أية فائدة من ذلك ؟

- لو لم تكن هذه المباحثة واجبة لما طلبتها اليك .

- وإذا كنت لا أريد ؟

- إني التمسها منك التماساً .

فأقلت منه وانضم الى الجماعة وهو يقول : ارجوكم ايها السادة الاسراع .

غير ان مرميس لم يقنط من صديقه فدنا منه وقال له بصوت منخفض : لقد علمت الآن لماذا دعتك هذه المرأة الى مقابلتها فانها لم ترد بذلك غير حملك على قتل البارون هنري .

- حسناً وبعد ذلك ؟

- لا يحق لك أن تبارزه .

فضحك مونتيجرون ضحكاً عالياً وقال : العلك ! تطلب إلي ان استرضيه

ونحن في ساحة المبارزة ؟

فتنهد مرميس وأيقن انه لا رجاء له بإقناعه فتركه وشأنه .

أما مونتيجرون فانه دنا من كارمير وقال له : إصغ إلي ، واسمع إرادتي الأخيرة ، إني أريد ان تكون شروط المبارزة ان لا ينفصل أحدا عن الآخر إلا بالموت .

فأطرق كازمير وكانت شروطاً هائلة وخلاصتها ان يقف كل من الخصمين على مسافة ثلاثين خطوة من رفيقه ويطلق عليه رصاصتين وإذا لم يسفر القتال عن قتل أحدهما عادا إلى إتمام المبارزة بالسيف .

وكان مرميس مصفر الوجه ينذره قلبه بمصاب اليم ، فوقف المتبارزان في المواقف الممينة . وأشار أحد الشهود ببدء المبارزة ، فتقدم البارون هنري خطوتين وأطلق غدارته ، فلم يتحرك مونتيجرون لأن الرصاصة مرت من فوق رأسه فأخطأته ولم يطلق غدارته لأنه انتظر أن يطلق خصمه غدارته الثانية .

وبعد لحظة أطلق البارون غدارته الثانية ، فسقطت يد مونتيجرون التي كان يقي بها رأسه فجأة الى جنبه ، لأن رصاصة البارون كانت قد اخترقتها .

فأخذ مونتيجرون غدارته بيده اليسرى وأطلقها على خصمه فلم يصبه . فصاح صيحة غضب وأطلق الثانية فاضطرب البارون لكنه لم يقع . فأسرع الشهود ورأوا ان رصاصة مونتيجرون قد اخترقت ساقه وقال أحدهم : كفى ! إنكما لم تعودا تصلحان للقتال .

أما مونتيجرون فأبى وقال . إننا نتم المبارزة بالسيف حسب الاتفاق . فقال له مرميس : إن يدك اليمنى قد أصيبت ، ولا تستطيع إدارة السيف بها .

— لا بأس ، فلني أحسن استعمال اليسرى ، إلا إذا كان البارون قد عجز عن القتال .

فأجابه البارون بسكينة : كلا إني لا أزال أستطيع الوقوف .

ولم يجد الشهود سبيلاً إلى معارضتهما ، فأعطوا كلاهما سيفاً وعادا إلى القتال .

وجرى بينهما قتال هائل طال زمنه لمهارة الاثنين في قتال السيف .

وفيا ما يتقاتلان ، وقد أخذ منها التعب كل مأخذ ، سمع الشهود صيحتين في حين واحد .

وذلك أن مونتيجرون هجم على خصمه هجمة منكرة فاخترق بحسامه صدر خصمه . ولكن سيف خصمه اخترق صدره أيضاً عند هجومه ، فسقط الاثنان على العشب في حين واحد .

- ١٧ -

في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم الذي حدثت فيه تلك المباراة الهائلة ذهب مرميس إلى نادي أسبرج فوجد جميع أعضائه يبحثون في سر هذه المباراة الخفي وكلهم منقبضوا الصدر لأنهم علموا ان مونتيجرون قد مات والبارون في حالة النزع .

وكان مرميس قد بقي أمام صديقه مونتيجرون إلى ان ذهب روحه وقد توسل اليه قبل موته بالدموع كي يخبره شيئاً عن المرأة التي سببت قتله ، فأبر بقسمه ولم يبح بحرف ولكنه قال له قبل الوفاة : خذ خصلة من شعري بعد موتي وأرسلها إلى تلك المرأة فإنك تعلم أين تقيم . ثم مات وهو يناجيهما فكان آخر كلمة قالها : أحبك .

فهاج فضول مرميس لأنه أيقن أن تلك المرأة التي كانت سبب المباراة هي نفس المرأة التي سمع البارون هنري يتحدث عنها في الأوبرا . ولكنه أحب أن يعلم من هي . فجاء إلى نادي أسبرج عله يقف على شيء من

تاريخها .

وكان الأعضاء يتحدثون عن هذه المباراة كما قدمناه ، فاتفقوا جميعهم على القول أنه لم يكن بين المتبارزين سبب ظاهر يدعو الى القتال إلى ان قال أحدهم : إن السبب فيه المرأة وان كليهما كانا يعشقانها .

فأجابه مركيز من الأعضاء : وأنا أرى ذلك محالاً لأن البارون هنري لم يكن مقيماً في باريس ولا يزورها إلا نادراً .

— ليس في ذلك ما ينفي غرامه بإحدى نساءها .

— إنه كان يهوى الفتاة جورجيت ، ولكنه جفاها وتناسى غرامها منذ عامين .

— قد يكون عالماً بامرأة من البيوت الكريمة .

— ولكن المأثور عنه انه لا يفتاب المنازل ، واذا جاء باريس لا يذهب إلا إلى الأوبرا وهذا النادي .

فتدخل عنده ذلك مرميس وقال : أما أنا فإني أؤكد لكم ، أيها السادة ، ان سبب هذا القتال لم يكن إلا المرأة ، لأن مونتيجرون كان من عشاقها

فقال المركيز : من هذه التي كان يعشقها ؟

— هي امرأة حسناء لا أعرف اسمها ، ولكنني رأيتها وعلمت أنها واعدته على اللقاء في الليلة الماضية . وقد بقيت معه الى الساعة الثانية من الصباح ، أي إلى حين فارقتي وذهب للقائها ، وعاد في الصباح ينذرني بتلك المباراة .

فقال له المركيز تقول أن مونتيجرون ذهب للقائها في الساعة الثانية ، وفي هذه الساعة كان البارون هنري في النادي معنا ، ولم يفارقنا إلا بعد خصامه مع مونتيجرون . فكيف اتفقت هذه الغيرة والعاشقان لم يجتمعا لدى المرأة ؟

– هو ما تقول غير ان البارون هنري كان في الأوبرا عند نصف الليل وكنت أنا في لوج مجاور للوجه فسمعتهم يتحدثون عن تلك المرأة التي يعشقها مونتيجرون .
– إذأ من هي هذه المرأة ؟

– لا أعلم ! ولكني سمعت البارون يذكرها بكل سوء ، وأنا واثق من صدقه في ما قاله عنها لأنها كانت السبب الوحيد في تلك المجزرة . ثم اني أعتقد انه يجب ان نلتقم لمونتيجرون ، وأن نعاقب هذه المرأة أشد عقاب ، ولهذا أتيت اليكم .

ونظر الجميع إلى مرميس نظرة اندهال وقال له الماركيز : كيف نلتقم منها ونحن لا نعرفها ؟

– لكن البارون يعرفها وهو لم يميت بعد .
– بل إن جرحه يميت وهو في حالة الاحتضار لكنه لم يفقد الرشد .
– إذأ ليذهب بي أحدكم اليه لأنني أثق انه يخبرني باسم تلك المرأة متى أخبرته بما عرفته عنها .
– أنا أذهب بك اليه فإن منزله قريب .

وعند ذلك خرج مرميس والماركيز من النادي ، وبعد عشر دقائق وصلا الى منزل البارون وطلبا مقابلته ، فقال لهما أحد أصدقائه : لقد جئتما بعد فوات الأوان والأسفاه .

فاضطرب مرميس وقال : العله مات !
– كلا لكنه يحتضر فلندعه يموت بسلام .

– ولكن يجب ان نلتقم له بعد الموت لأنه مات ضحية خيانة امرأة وكلمة تصدر من فمه تكشف لنا السر وتمهد لنا سبل الانتقام فدعني بالله أراه فقد أسمع منه هذه الكلمة .

وكان مرميس يكلمه بلمهجة المتوسل فلم يسمعه إلا إجابته إلى ما أراد فأخذه

بيده ودخل به إلى البارون .

وكان البارون في حالة النزع غير انه لم يفقد رشده فلما رأى مرميس عرف أنه كان شاهد خصمه فابتسم له وتمم كلمة شكر .

أما مرميس فلم يه دنا منه وقال له : لقد كنت يا سيدي البارون في الأوبرا ليلة أمس فسمعتك تذكر امرأة دون روميو ، وان مونتيجرون كان يحب تلك المرأة .

فاتقدت عينا البارون كأنما قد نفّض عنه غبار الموت وأصغى إليه كل الاصغاء فقال له مرميس إن هذه المرأة يا سيدي هي التي سلحت مونتيجرون ودفعته إلى مبارزتك فاستحلفك بالله يا سيدي أن تذكر لي اسم هذه المرأة كي تنال عقابها قبل ان تعاقب في السماء .

فتأثر البارون تأثراً لا يوصف حين سمع أقوال مرميس واستوى جالساً في سريره واتقدت عيناه بلهب ثم انطفأت تلك الشعلة فجأة وسقط ميتاً لا حراك فيه ولكنه قبل ان يموت خرجت من فمه تلك الكلمة مع نفسه الأخير وكانت تلك الكلمة « البستانية الحسنة » .

- ١٨ -

وكان مرميس يعرف شيئاً من تاريخ هذه المرأة منذ عام ، فإنه عرف من أعضاء نادي كريفيز حكاية هذه المرأة مع المركيز دي مورفر الذي أعجز الشرطة أمر اختفائه كما تقدم في أول هذه الرواية. فلما سمع من فم البارون حين موته اسم تلك المرأة الهائلة ارتعش ارتعاشاً عظيماً ، غير ان البارون لم يذكر الاسم إلا لمرميس فلم يسمعه إلا لتلميذ روكامبول .

أما المركيز الذي صحب مرميس والأطبا الذين كانوا في ذلك المنزل فإنهم

لم يعملوا إلا أن البارون قد توفي . فلما خرج اليهم مرميس من غرفة الميت قال لهم لقد أتيت بعد قوات الأوان .

وبعد هنيئة برح ذلك المنزل مع المركيز

وكان مرميس يقول له وهما على الطريق : إني واثق من انه لو علم البارون ان موثيجرون يريد مبارزته من أجل تلك المرأة لأكره خصمه بكلمة واحدة ان يرجع عن هذا القتال وأن يضافحه مصافحة الأصدقاء .

- ومن هي تلك المرأة السرية ؟

- إصغ إلي أيها المركيز ألا ترى على وجهي علائم الاضطراب ؟

-- نعم وأرى أيضاً علائم العزم الأكيد على أمر يحول في خاطرك .

- هو ما تقول ايها المركيز ، لقد أقسمت يميناً منذ خمس دقائق أمام جثة البارون .

- وما هذه اليمين ؟

- هي ان أنتقم لموثيجرون وللبارون .

- ولكن كيف تلتقم لهما ؟

- أقسم لي بالشرف ان تبقي ما أقوله لك طي الكتمان ؟

- نعم أقسم .

-- إذأ أعلم ان البارون قبل ان يموت ذكر اسماً وهذا الاسم سيرشدني بإذن الله الى كشف جريئة هائلة .

- العلك محتاج إلي ؟

- لا أحتساج إلى مساعدتك الآن ، ولكنني إذا احتجت اليها أذهب اليك .

- وأنا أكون سعيداً لخدمتك .

- إذأ إلى اللقاء ايها المركيز .

- ألا تذهب معي الى النادي ؟

- فلا .
- وإذا سألوني عما جرى فماذا أقول لهم ؟
- قل إنه مات حين دخولنا اليه . فلم نقف منه على شيء
- ثم افترق الاثنان فعاد المراكز الى النادي أما مرميس فانه نظر في ساعته وقال : لا تزال أمامي ساعتان لفض رسالة روكامبول .
- ثم ذكر ان مونتيجرون أعطاه خصلة من شعره كي يعطيها بعد موته لتلك المرأة ، فقال : لا يزال الوقت فسيحاً لدي ، فلأذهب اليها بهذه الحجة .
- وركب مركبة من مركبات الأجرة ، فأمر سائقها ان يذهب به الى الشانزليزيه رقم ٦٩ .
- وبعد حين وصلت المركبة الى ذلك المنزل ، فأطلقها مرميس وجعل يفحص ذلك المنزل الذي وقف أمامه ، فشاهد منزلاً جميلاً كأنه في وسط حديقة تكتنفها أشجار باسقة ، ولم ير غير نور واحد ينبعث من خلال إحدى النوافذ .
- وعول مرميس على الدخول وطرق الباب ، فأقبل خادم وفتح له . فلما رآه الخادم أظهر الاندهال ، وقال بأدب : أظن ان سيدي مخطئاً ضل عن القصد .
- كلا اليس هذا منزل دون روميو فيجيير ؟
- نعم .
- العمل دون روميو في المنزل ؟
- كلا يا سيدي فهو في النادي .
- والسيدة ؟
- هي في المنزل ولكنها لا تقبل زيارة أحد حين غياب زوجها
- فأخرج رقعة زيارة وقال له : إذهب بها الى السيدة ، فتى وصلت اليها

تستقبلني دون شك .

ثم دخل الى الحديقة غير مكترث للخادم ، ولكنه بدلاً من ان يعطيه رقعة زيارة باسمه أعطاه رقعة من رقاع مونتيجرون .

فسار بها الخادم الى سيدته وهو يتبعه حتى دخلا الى المنزل فسبقه الخادم الى غرفة السيدة فأعطاها الرقعة ثم عاد اليه وقال له : إن مولاتي تنتظر سيدي الفيكونت .

فدخل مرميس الى تلك المرأة التي قتلت رجلين بكلمة من فمها ، فوجدها جالسة على مقعد حجري ، فنظرت اليه نظرة تدل على السلامة وقالت له : يسرني أن أراك يا سيدي الفيكونت مونتيجرون ، لأن زوجي دون روميو طالما حدثني عنك

فقال في نفسه لقد بدأت تمثل دهاشاً فلنحذر . ثم دخل وأخذ يتعمق في وجهها فوجدها مبتسمة ساكنة ولم يبد عليها شيء يدل على التأثر .

وبعد ان جلس قالت له . لقد عرفت يا سيدي ، ما دعاك الى هذه الزيارة ؟

— كيف عرفت ذلك يا سيدتي ؟

— لقد أخبرني زوجي انه ربح منك في النادي ليلة البارحة مبلغاً كبيراً ، وانك آت لوفائه حسب العادة المتبعة بينكم فلان دين القمار يجب وفائه قبل مرور ٢٤ ساعة عليه .

فلما رأى مرميس تماديها في التنكر أراد أن يضع لها حداً فقال : لقد اشتد بيننا سوء التفاهم يا سيدتي .

— كيف ذلك ؟

— ذلك لأنني لست الفيكونت مونتيجرون

فوقفت وقالت له بلهجة الأنكار : إذا لم تكن الفيكونت مونتيجرون فمن أنت ؟

- صديق له
- إذا أنت قادم من قبله .
- دون شك يا سيدتي ، ثم أخرج من جيبه محفظة صغيرة فأخرج منها
خصلة الشعر التي أعطاه اياها الفيكونت وقدمها لها ، فتظاهرت بالاندهال
العظيم وقالت : ما هذا المزاح ؟
- اني لا امزح يا سيدتي ، فان الفيكونت تبارز في صباح اليوم مع
البارون هنري .

فلم تظهر المرأة شيئاً من علائم التأثر وقالت : من هو البارون هنري ؟
- هو رجل كان قبل هذه المباراة من اصدقاء خصمه
- ولماذا تبارزا ؟

- من أجل امرأة كان البارون يقول انها من شر النساء وكان الفيكونت
يحبها حب جنون .

- وما كانت نتيجة المباراة ؟
- مجزرة يا سيدتي ، الفيكونت مات بعد ظهر اليوم .
- والبارون ؟
- مات منذ ساعة .
- انك تروي لي خبراً هائلاً يا سيدي ، أحقيقة ان هذه المباراة
كانت مجزرة ؟

- اصغي إلي يا سيدتي ان الفيكونت عهد إلي قبل موته أن أذهب إلى تلك
المرأة فأقول لها انه مات سعيداً لأنه مات من أجلها وكلفني أن أقص خصلة من
شعره وأعطيها لهذه المرأة . ثم قدم لها خصلة الشعر .

فتراجعت المرأة إلى الوراء ونظرت إليه نظرة هائلة ثم قالت : لا شك انك
منخدع يا سيدي فما أنا تلك المرأة التي مات من أجلها الفيكونت .
- ولكنه ذكر اسمك يا سيدتي .

- هذا محال
- ألسنت امرأة دون روميو ؟
- دون شك .
- إذا أنت هي المرأة التي مات من أجلها الفيكونت .
- فقالت له بلمهجة دلت على اضطرابها : ان موعد رجوع زوجي من النادي قد اقترب واننا وان كنا في زمن المرافع فقد لا تعجبه منك هذه الممازحة التي جسرت عليها .
- قلت لك يا سيدتي اني لا أمزح وإذا شئت برهاننا على ما أقول فاعلمي ان الفيكونت كان له صديق يدعى الماركيز مورفر .
- فاضطربت المرأة اضطراباً خفيفاً وقالت : اعذرني يا سيدتي فاني غريبة لا أعرف أعيان العائلات الفرنسية .
- اصبري يا سيدتي فان هذا الماركيز قد اختفى ويظنون انه قتل
- فظهرت عليها علائم نفاذ الصبر وقالت له . ماذا تهمني هذه الأمور ؟
- ألم أقل لك ان الماركيز كان صديق الفيكونت ؟
- حسناً وبعد ذلك ؟
- لقد كان الماركيز المختفي او المقتول صديق آخر يدعى البارون هنري
- ولاحدى النساء يبدأ في اختفائه بل في قتله على الأرجح .
- فوقفت عند ذلك وقالت : يظهر لي انك تختل الشعور فحوادثك قد تراكت حتى بت مكرهه لأسألك ارجاءها إلى الغد .
- كلمة أيضاً يا سيدتي قبل أن تطرديني ، ثم وقف بينها وبين البسابق كي يحول عدم خروجها وقال : هذه المرأة التي سببت قتل الفيكونت ومورفر قد ذكر لي البارون هنري اسمها الحقيقي قبيل وفاته وهذه المرأة تدعى البستانيانة الحسناء أي أنت يا سيدتي .
- فتراجعت منذرة إلى الوراء وقالت : من أنت أيها الرجل ؟

- أنا هو الرجل الذي سيربح الأرض من شرورك وينتقم للموت بالموت .
فذعرت البستانية حين رأت الخنجر يلعب في يد روكامبول .

- ١٩ -

وكان ذعر البستانية شديداً فقالت له بصوت يتهدج : رحماك لا تقتلني .
ثم ضمت يديها وجعلت تنظر اليه نظرة المتوسل فقال لها : ليس الفضول
الذي جاء بي اليك ولكني أقسمت يمينا لا بد لي من البر بها ..

- ماذا تريد مني ؟

... أريد أن أعلم

- ماذا ؟

-- إذا كنت حقيقة تلك المرأة الملقبة بالبستانية الحسنة .

- نعم أنا هي .

- إذا أنت تعلمين ما حدث للمركيز دي مورفر ؟

وركعت وقالت : لا تسألني عن هذا المركيز .

- بل أريد أن أعرف كل خفي من أمره أو أقتلك في الحال شر قتيل .

وكانت علائم الرعب بادية في وجهها حتى أيقن مرميس أنها باقت في
قبضة يده فقال لها . أدنا الآن في الغرفة وفيها نافذة تشرف على الحديقة
فإن خطر لك أن تستغيثي قتلتك وهربت من النافذة قبل أن يصل
اليك أحد .

فعمضت يديها من اليأس ثم قالت . ولكن أسرار هذا المركيز ليست
أسراري ..

- سيان عندي فقد أقسمت ان أعلم أين مات المركيز وكيف مات

ولا بد لي أن أعرف كل شيء .

ولما تبينت هذه المرأة صدق العزم من لهجة مرميس وعلمت من انقاد عينيه أنه يقتلها لا بحالة إذا أصرت على الانكار قالت له ان حكاية المريكز مورفر طويلة يا سيدي ، وقد كتبتهما بحملتها ووضعتها في هذه الخزانة التي تراها وهذا مفتاحها .

ثم أخرجت مفتاحاً صغيراً كان معلقاً في عنقها فدفعته اليه وقالت : إذا كنت غير واثق بي فافتحها بيدك .

فأخذ مرميس المفتاح وذهب إلى باب الغرفة وأقفله من الداخل وعاد إلى الخزانة ففتحها . فقالت له . ألا ترى درجاً صغيراً في الجهة اليمنى ؟

- نعم . .

- افتحه تجد فيه تلك الأوراق .

ففتحه دون حذر ولكنه ما لبث ان فتح حتى خرج منه دوي شديد ، وبرزت من جوف الجدار المسندة اليه الخزانة آلتان من الحديد امتدتا كالذراعين طوقتا بعتة مرميس ثم انضمتا عليه فلم يعد يستطيع حراكاً .

وذلك ان هذه الخزانة كانت من تلك الخزائن التي اخترعوها للوقاية من اللصوص فوضعت فيها تلك الآلة السرية للقبض على السارق وجعل الدوي للتنبيه اليه فإذا فتح الدرج يضغط على لولب فيه متصل بالآلة السرية فتتمدد الذراعان الحديدان ويلتفان على من يعثران به .

ويوجد كثير من الصناديق الحديدية التي توضع فيها أموال المصارف إذا فتحت على غير طريقته المعروفة خرج منها رصاصة قتلت السارق غير ان خزانة البساتنة الحسنة كانت آلتها معدة للقبض على السارق والتنبيه اليه فقط دون اذيتة .

ولما علم مرميس بالمكيدة وأحس بتلك الآلة الضاغطة صاح صيحة منكورة أجابته البساتنة عليها بقهقهة الساخر .

وبينما هو يحاول التخلص من هذا القيد الشديد عبتاً دنت منه وقالت له .
إنك أصبحت يا سيدي في قبضة يدي وبكلمة واحدة تخرج من في يقضى
عليك ولكفي أشفق على شبابك وأسديك النصيحة نفسها التي اسديتها إلى
مونتيجرون من قبلك وهي « لا تتدخل في شؤوني »

ونظر مرميس إلى وجهها فوجد عليها علائم الهزء ولكنه رأى عينيها
تتقدان وكان الخادم قد سمع دوي الآلة فأقبل وطرق الباب فقالت له البستانيّة
من داخل الغرفة : عد إلى شأنك فلست محتاجة اليك .
ثم ذهبت إلى النوافذ فأقفلتها إقفالاً محكماً وأسدت عليها الستائر ودنت
من الجدار فضغطت على لولب ، ففتح باب سري لم يره مرميس من قبل
وخرجت منه .

وبقي مرميس وحده يحاول التخلص من قيده فلا يستطيع وقد انهكت
قواه ، ودخل الرعب قلبه ، ثم رأى نوراً قد اتقد فجأة بالقرب منه وجعل
يخرج منه دخان أبيض كدخان تبغ فيملأ الغرفة ثم يتكاثف ويصبح
كالغيوم المتلبدة

وأنسدهل لهذا الدخان الفجائي وراه يدنو وهو يحمل رائحة عطرية تملأ
خياشيمه ، ثم تكاثف الدخان وأحاط به ، فسر برائحته العطرية ووجد بها
لذة عجيبة سكنت غضبه ، وكان شأنه شأن من يعالج همهم بشرب الراح ،
فلا يشرب بضع كاسات حتى تنجلي الغمامة السوداء عن مستقبله ويراها بلون
الورد إذ ينظر إليه من خلال أقذار الخمر .

ثم جعل ذلك النور الذي رآه قد اتقد فجأة يضمف ويأخذ بالانحد حتى
أصبح كالخمر ، ثم انطفاً ولكن الدخان كان لا يزال يتكاثف وهو يتنشق
رائحته بملء الارتياح ويشعر بتخدير جسمه تبعاً .

وبعد ربع ساعة أطبقت عيناه فأطلقت الآلة الحديدية سراحه وارتدت
إلى موضعها . غير انه لم يخطر له الفرار في بال ، وانطرح في أرض الغرفة

وجعل يتلذذ بتلك الرائحة العجيبة وقد استرخت مفاصله وانحلت قواه ومع ذلك فقد كان يشعر أنه اسعد إنسان

- ٢٠ -

وكان مرميس في حالة سكر شديد تشبه حالة متعاط الحشيش فكانت عيناه مطبقتين ولكنه لم يكن قائماً ، بل كان يشعر بكل ما يجري حوله . وقد حاول أن يقف مرتين فلم يستطع ولكنه أفرغ جهده في المرة الثالثة فمضى خطواتين وهو يتأيل حق وصل إلى الكرسي الذي كانت جالسة عليه البستانية فسقط أمامها خائر القوى وعاد إلى حالته القديمة .

ثم شعر فجأة ان الدخان قد تبدد وشعر بنور جديد دخل إلى الغرفة ففتح عينيه ولم ير شيئاً ولكنه شعر أن جميع حواسه منصرفة إلى البستانية الحسنة وان تلك المرأة التي هجم عليها بخنجره قد تمثلت له بجمال باهر يدهش الأبصار فأغمض عينيه وقال : ما أجل هذه المرأة ولم يجب أن تحب ؟

وعند ذلك سمع وقع خطوات في الغرفة ففتح عينيه ورأى البستانية تدنو منه وهي تبسّم ابتساماً يفتن العابد ، فجلست على الكرسي وهو منطرح تحت قدميها وقالت : ألا تظن انه يجب أن يحبني الناس ؟

– نعم فانك أجل امرأة على الأرض ولعلك هاربة من السماء .

فأخذت يده بين يديها وقالت له بدلال : وأنت ألا تحبني ؟

فلم يدر ماذا يجيب ، وحاول ان ينهض ويطوق عنقها بذراعه فلم يستطع الوقوف .

– أرى انك تحبني ، فكيف أحببتني أما كنت منذ نهاية عازماً على قتلي ؟

— لا أعلم سوى اني أحبك ، مري أطع فاني أصبحت من عبيدك ..
وطوقته البستانية بذراعيها وقالت : إنك فتى جميل باسل تستحق أن
تحل في قلبي ولكفي أحب أن أعلم لماذا تريد أن تنتقم لمونتيجرون ؟

وكأنما هذا الاسم قد أثر تأثير الكهرباء بمرميس فاقطدت عيناه ببارق من
الصواب وحاول أن يجمع هده ، لكن المخدر كان مؤثراً به شر تأثير فقال :
مونتيجرون من هو هذا الرجل فاني لا أعرفه ؟

وعلمت البستانية أن جسمه قد تخدر تماماً ولا سبيل إلى الوقوف على
الحقيقة منه ، وعادت إلى مداعبته والهزء به إلى أن أطبق عينيه وطار فكره
إلى عالم الأرواح



ولما استفاق مرميس من هذه السكرية وفتح عينيه شعر بهواء بارد ورأى
انه كان نائماً على أرض رطبة ، وتطلع إلى ما فوقه ورأى السماء ملبدة بالغيوم
وأن الفجر قد انبثق ، وكل ما كان يراه من آثار البستانية قد زال .

وقد وجد نفسه مستلقياً على ظهره في أرض يبنون فيها منزلاً ، وقد رض
جسمه ووجد أن حواسه لا تزال مضطربة من آثار ذلك الدخان الذي كان
يستنشقه فأسكره تلك السكرية التي أضاعت رشاده .
ونفض وجعل يحرك أعضاؤه حركات عنيفة كي يعيد اليها لينها العادي
ثم خرج من ذلك المكان الرطب الذي نام فيه ليلته فافتش الأرض والتحف
السماء .

وكان أثناء سيره يذكر ما مر به من الحوادث فذكر قتل مونتيجرون
والبارون هنري ، ثم ذهابه إلى البستانية الحسناء وتلك الآلة الحديدية التي
قبضت عليه وجعلته عاجزاً عن الدفاع ، ورائحة الدخان العطرية ونظرات
تلك المرأة التي كان منظرها تحت قدميها ، فثار غضبه وهاج فؤاده وقال :

ان هذه المرأة قد عبثت بي كما عبثت بمونتيجرون والبارون هنري ودي مورفر
غير اني تلميذ روكامبول وسترى هذه الحسنة ما يكون مني .
وما مشى بضع خطوات حتى اهتمدى إلى طريقه فصار تواء إلى منزل فاندرا .
وكانت فاندرا تنتظره بفارغ الصبر فقالت له : كيف تسأخرت إلى الآن
الملك نسيت كتاب الرئيس ؟
- لقد أصبت فقد كان موعد فتحه أمس في منتصف الليل فاعذرني فليس
الذنب ذنبي .
ثم جلس بقربها دون أن يخبرها بشيء مما جرى له وفض ذلك الكتاب
المحتوي على أوامر روكامبول .

- ٣١ -

ان الغلاف الذي فضه مرميس كان محتويًا على رسالة وكراس ضخمة فوضع
الكراس على حدة وقرأ الكتاب وهو كما يأتي :

« يا أصحابي .
« اني بعد دقائق قليلة أكون قد برحت باريس إلى الهند فاذا صدق حسابي
عدت من تلك البلاد بعد عامين على اني إذا لم أعد فمليكم أن تنفذوا إرادتي
فاصفوا إلي .
« إنك يا فاندرا كنت سيدة عظيمة ثم هبطت إلى الحضيض قبل ان أعرفك
« وأنت يا مرميس كنت لصاً سفاكاً قبل ان التقي بك واهديك
« وأنت يا ميلون إنك الوحيد بيننا الذي لم ترتكب إثماً فيما مضى من
أيامك الطاهرة ، ولكنك أصبحت مثل رفيقك شريكاً لروكامبول الذي
انقلب من الشر إلى الخير ويجب أن تعمل ما يعملونه .

« إني عندما هربت من سجن طولون أيها الأصحاب علمت ان الله لم يطلق حريقي إلا على ان انفق كل ساعة من ساعات حياتي في صنع الخير استغفاراً عن زلاتي ، وانتما يا فاندوا ويا مرميس قد اذنبتما مثلي وتبتما توبة صادقة مثلي فوجب عليكم ان تضحيا حياتكما في سبيل الخير مثلي ، فإن حياتنا لم تعد لنا ، بل لكل بائس منكود وشقي مظلوم .

« إذا اسمعوا ، إني بينما كنت أمس أعد معدات سفري جامي كتاب دون توقيع فقرأت فيه ما يأتي :

« (إذا كان الرجل الذي يدعو نفسه روكامبول والماجور أفنثار لا يزال نصير المظلومين وعدو الظالمين فليتفضل بالحضور إلى شارع منيلونتان نمرة ١٦ حيث يجد أتعس انسان في الوجود) .

« فلما تلوت الكتاب ذهبت مسرعاً إلى ذلك الشارع ولما بلغت المنزل أسرع الي غلام صغير هزيل تدل عيناه على الذكاء وسألني هل أنت يا سيدي الذي يدعونه روكامبول ؟

« - نعم ..

« إذن اتبعني فان امي كانت واثقة من حضورك .

« ثم سار أمامي فتبعته إلى غرفة صغيرة في آخر دور من أدوار المنزل ودخل الغلام إلى الغرفة وقال هوذا روكامبول يا أماء .

« ودخلت في أثره ووجدت سريراً خشبياً في زاوية الغرفة وعليه امرأة صفراء الوجه هزيلة الجسم تدل عينها على الضنك ، غير ان آثار الجمال النادر لا تزال بادية عليها .

« وجعلت تلك المرأة تنظر الي وتبتسم ثم مدت الي يدها وقالت لم يكن عندي شك بحضورك . أما أنا فقد خيل لي اني أعرف هذه المرأة منذ عهد بعيد ، ولكنني لم اذكرها ، ولما رأني أحقق بها هذا التحديق قالت لي انك لم تعرفني ، ولكنني عرفتك ، ألا تذكر الفيروزة يا روكامبول ؟ (راجع

رواية التوبة الكاذبة) .

« فاندملت وقلت : انت هي الفيروزة ؟

» - نعم إنك عرفتني منذ عشرة أعوام حين كان عمري ٢٠ عاماً .

» ولكن ماذا أصابك وكيف بلغت إلى هذا الشقاء ؟

» - ان حديشي طويل لا يستطيع ان اقصه عليك لأني أشعر بدنو الأجل

لكني كتبت جميع حكايتي

» ثم مدت يدها الى تحت وسادتها وأخرجت هذا الدفتر الذي ترونه في

طبي الغلاف واعطتني إياه وقالت : اتعلم اني كنت آخر خليفة للمركيز « دي

مورفر » ؟

» فاندملت اندهالاً عظيماً لأني كنت عرفت اختفاء هذا المركيز ، فابتسمت

وقالت : لقد كنت خاطئة كما كنت انت وارثكبت ذنوباً هائلة كما ارتكبت

انت ولكني تبث توبتك ، وبث ارجو عفو الله ولا أبالي بالموت ولكني مشفقة

على هذا الصغير الذي اوصلك إلي .

» العله ابنك ؟

» - كلا ، انه يمتقد اني امه ولكنه ابن المركيز دي مورفر

» - ولكن المركيز دي مورفر قد اختفى .

» نعم . .

» - العله قتل ؟

» - كلا . .

» ولكنه مات .

» - كلا فإنه لا يزال حياً يرزق

» - إذاً اين هو وماذا جرى له ؟

» - إقرأ هذا الدفتر تعلم منه كل ما تريد

» واعطتني الدفتر وقد اصفر وحدها وغارت عيناها فقالت : اني واثقة من

اني سأموت هذه الليلة .

« - بل تعيشين عمراً طويلاً وسأهتم بك كل الاهتمام .

« - بل أقصر همك على هذا الغلام ، أما أنا فاني سائرة الى الأبدية ، أما ترى الموت يحول بين عيني ؟ فاقسم لي بالله انك تقرأ ما كتبتة في الدفتر وانك تنتقم للمظلوم .

« ولما أقسمت لها قالت : لقد أصبت باعتمادى عليك . ثم مدت يدها إلى شاكرة واغرورقت عيناها بالدموع .

« أما أنا فقد رأيت علائم الموت بادية بين عينيها وانها لا تعيش إلا بضعة ساعات ولكنني مع ذلك احضرت لها طبيباً وممرضة وقلت لها اني سأعود صباح غد لأراك .

« ثم خرجت من عندها ومعها الدفتر .

« وفي صباح اليوم التالي أعددت معدات السفر الى الهافر وذهبت لعيادة الفيروزة ، ووجدت انها قد ماتت في الليل ، وكان الغلام واقفاً يبكي فدفعته الى بواب المنزل نفقات دفنها ، واخذت الغلام الى دير للراهبات في شارع البوسطة فوضعت فيه ودفعته عنه راتب ثلاثة اعوام مقدماً وقيدت اسمه بدفاتر الدير باسم « مكسيم لوران » ، فقبلوه بهذا الاسم .

« والآن إذا فتحتم كتابي بعد مضي عامين ، اي إذا لم اعد من الهند قبل انقضاء هذه المدة فاعلموا انه يجب عليكم ان تفعلوا ما عهد الي بفعله وإذا كنتم قد فتحتم هذا الكتاب فاعلموا اني قد مت في الهند وخلفت لكم هذه المهمة إرثاً تتقاسموه على السواء فاحذروا من التهاون في قضائها فاني أقسمت يميناً للفيروزة قبل ان تموت »

« روكامبول »

- ٢٢ -

لما تلا مرميس كتاب روكامبول دفعه الى فاندا وقال لها اقراني .
فقرأته فاندا بصوت مرتفع امام ميلون ، فتحمس ميلون وقال : لنفعل
ما يريد الرئيس
فقال مرميس : اظن اني بدأت بانفاذ اوامر الرئيس دون ان اعلم .

فقال له فاندا : كيف ذلك ؟

- اصفيا الي فسأوضح ما قلت : ان هذا الكتاب الذي قرأناه الآن
يدل ، على ان هذا الدفتر الذي لم نقرأه بعد ، خاص بالمركيز دي مورفر ،
وقد رويت لهم في العام الماضي حكاية اختفاء هذا المركيز ، وما كان له
من التأثير .

ثم ازيد كما على ما تعلمانه ان صديقه مونتيجرون قد بسدل جهده للوقوف
على اثاره فلم يفز ، وقد قتل هذا المسكين امس في مبارزة ، والذي قتله صديق
له يدعى البارون هنري .

فقلت فاندا : وما سبب المبارزة ؟

- ان مونتيجرون كان يهوى امرأة تكره البارون هنري .
ومن هي هذه المرأة ؟

- هي تلك البستانية الحسنة التي وجدوا في منزلها ، منذ ثلاثة
اعوام ، مثالا من الشمع يشبه المركيز دي مورفر شهما عجيبا خدع به رئيس
البوليس نفسه .

- إذا هذه المرأة مقيمة في باريس ؟

- نعم ، وقد انفقت جانباً من الليل بقرنها

ثم حكى لها جميع ما اتفق له تلك الليلة مع البستانية الحسنة التي انتحلت لنفسها اسم دون روميو .

ولما انتهى من سرد حكايته قال لفاندا : والآن فاني استشيرك فيما يجب ان افعله : فهل ينبغي ان نقرأ هذا الدفتر الضخم ، ام نستوثق قبل قرائته إذا كانت البستانية لا تزال في باريس .

فقالت فاندا : اني ارى الرأي الأخير اولى بالاتباع فاننا نستطيع ان نقرأ الدفتر في كل حين .

فقال عند ذلك مرميس لميلون : هلم معي لتغير زيننا ونذهب الى بيت البستانية .

وامتثل ميلون ودخل الاثنان الى الغرفة وبعد ربع ساعة خرجا منها وهما متنكران اشد التنكر . بحيث ان فاندا نفسها ، أوشكت ان لا تعرفها .

فقال مرميس : ان هذه الحسنة التي كنت عاشقها بالأمس إذا عرفتني بعد هذا التنكر لا اكون من تلامذة روكامبول .

ثم سار مع ميلون الى بيت البستانية فقال له على الطريق : إنك ستقول في ذلك البيت الذي نحن ذاهبان اليه اني ابن اخيك ، واني من الماهرين في سوق المركبات ، وقد بلغك ان دون روميو محتاج الى سائق لمركباته فجئت بي لادخالي في خدمته . وفي خلال الحديث نعلم إذا كانت البستانية الحسنة باقية في باريس أم لا .

وذهب الاثنان حتى وصلا الى ذلك المنزل فقرع مرميس بابه الخارجي ففتح الباب واستقبلها الخادم وسألها عما يريدان .

ـ بلعنا ان الدون روميو محتاج الى سائق ، اليس كذلك ؟

ـ لا اعلم

- اني جئت كي أعرض عليه خدمة ابن أخي هذا فانه من حذاق الماهرين
في هذه الصناعة

- ان سيدي قد خرج الآن من المنزل على جواده .

- متى يعود ؟

- في الساعة الحادية عشرة .

وعند ذلك فتحت نافذة الغرفة المشرفة على الحديقة وبرز منها وجه
البستانية الحسناء فראها مرميس وقال لميلون بلفظة اصطلاحية : هذه هي ،
فראها ميلون أيضاً .

ثم خرج الاثنان وقالا للخادم : اننا سنعود حين عودة سيديك . ولما بعدا
بضع خطوات عن المنزل قال مرميس لميلون : يجب أن تبقى هنا لمراقبة المنزل .
- وإذا خرجت منه ؟

- اتبعها إلى حيث تسير فلا يفوتك اثرها ، أما أنا فاني عائد إلى فاندا .
ثم تركه وانصرف .

وجلس ميلون فوق حجر ضخم على بعد عشرين خطوة من المنزل فكانت
بابه ظاهراً له بحيث لا يخرج أحد منه دون أن يراه . ولبت على ذلك ساعتين
ورأى الخادم خرج كثيراً فكان يغيب حيناً ثم يعود دون ان يلتصقه اليه .

ثم رأى فارساً وصل إلى باب المنزل فترجل عن جواده ودخل وقد تمعن
به ميلون فوجده رجلاً قوياً يبلغ الأربعين من العمر أسمر الوجه تدل ملامحه
على انه من الأسبانيين .

فلما رأى ميلون انه دخل إلى المنزل ورآه ممتطياً جواداً أيقن انه دون
روميو نفسه ، فاقبل إلى البواب ففتح له وقال . انك تريد أن ترى دون روميو .
- نعم ، فاني أحب أن أعرض عليه خدمة ابن أخي .

- أين هو ابن أخيك ؟

- لقد طال عليه الانتظار فأرسلته يتجول في باريس ، ولكنه سيعود قريباً

فأرجوك أن تذكرنا أمام مولاك
- بل ستكلمه أنت ، فإنه سيخرج قريباً مع السيدة ، ألسنت أنت حوذاً
كأبن أخيك ؟

- نعم .

- إذا لم يكن لديك عمل فقد وجدت لك عملاً

- كيف ذلك ؟

- ذلك ان سائق مركبات سيدي مريض والذي يسوق مركبته الآن يخشى
منه لاسيما وان الجياد قوية فاذا جمحت لا يستطيع كبحها .

فقال ميلون في نفسه : أن مرميس أمرني أن أقتني أثر هذه السيدة أين
ذهبت وهذه خير فرصة لاقتناء أثرها دون مشقة . ثم قال للخادم : اني
اعتزلت هذه المهنة منذ عهد غير بعيد ولكنني سأعود اليها راجياً أن تروق
خدمتي لسيدك فيعين ابن أخي .

- إذن تعال معي إلى الأصبطل لإعداد المركبة . فامتلأ له ميلون .

وبعد ساعة كان ميلون جالماً مجلس السائق في مركبة البستانية الحسنة
وبقربه خادم . ثم أقبل دون روميو والبستانية الحسنة وصعدا إلى المركبة

فسأل ميلون الخادم إلى أين يريدان الذهاب ؟

- إلى سانت مالديه ، فانها استأجرا منزلاً في الغابة للمصيف فيه وأرسلت
اليه العمال لاصلاحه فهما ذاهبان لتفقد الأعمال
فقال ميلون في نفسه : لم يبق سبيل للخوف من سفر هذه البستانية وهي قد
استأجرت منزلاً للمصيف

وأطلق أعنة الجياد فانطلقت تنهب الأرض من شارع إلى اخر حتى بلغ بها
إلى منزل مهترل تحيط به الأشجار من كل الجهات ، أوقفه الخادم عند بابه
وقال : لقد وصلنا .

ثم نزل وفتح باب المركبة فخرج منها دون روميو والبستانية ودخلا إلى

ذلك المنزل .

وكان بالقرب من ذلك المنزل حانة يختلف اليها العمال حين فراغهم ، فأشار الخادم لميلون اليها وقال له : هلم بنا إلى هذه الحانة نشرب كأساً من الخمر فان سيدي لا يخرجنا من المنزل قبل ساعة .
- حباً وكرامة . ونزل ميلون من المركبة فتركها عند باب المنزل وسار مع الخادم إلى الخمارة فدخلوا اليها .

وكانت تلك الخمارة مقفرة لا يوجد فيها غير صاحبيتها وهي عجوز شيطاء ، فطلب اليها الخادم زجاجة بيرو وجلس حول مائدة مع ميلون يشربان .

ولم يفرغوا من شربها حتى دخل اثنان من العمال إلى الخمارة ، ثم دخل عامل آخر ، ثم تلاه اثنان أيضاً فجلس جميعهم حول المائدة التي كان جالساً عندها ميلون والخادم .

وعند ذلك قامت تلك العجوز إلى باب الخمارة فاحسكت اقفالها من الداخل فداخل الريب قلب ميلون وقال لرفيقه : لماذا تقفل المرأة هذا الباب ؟
- سوف تعلم أيها الرفيق .

ثم أشار إشارة إلى أولئك العمال الذين دخلوا فانهضوا فجأة على ميلون وألقوه على الأرض بالرغم عن دفاعه الشديد وقوته الهائلة .

٢٣ -

وبينما ميلون قد وقع في الفخ كما تقدم كان مرميس قد ذهب إلى فاندا وجعل يقرأ دفتر الفيروزة الضخم ، وكان عنوان هذا الدفتر (الميت الحي) وهو منقسم إلى أبواب وفصول كالكتب المعدة للطبع .
ففتحه مرميس وبدأ يقرأ ما يأتي :

الفصل الأول من كتاب الفيروزة

في ليلة اشتدت انواؤها من ليالي الشتاء الباردة سنة ١٨٢٣ وقفت مركبة في شارع لوفوا ونزل منها رجل وكان هذا الرجل متشعاً برداء كبير فدفع أجرة السائق وأطلق سراحه .

ثم سار في ذلك الشارع ، وهو كلما سار خطوة يلتفت إلى الوراء كأنه يخشى من يقتفيه إلى ان اجتاز شارع لوفوا ودخل في شارع شابانيس فوقف عند المنزل رقم ١٤ وطرق بابه .
ففتح له البواب ودخل في رواق مظلم انتهى منه إلى سلم .

وكان البواب قائماً عند الباب ففتحه دون ان ينهض عن مضجعه وقال :
من الداخل ؟ فلم يجبه الرجل ، واستمر في صعوده السلم وحسب البواب انه من سكان المنزل وانه تأخر في أحد المراسح ، وتركه وشأنه وعاد إلى النوم .

أما الرجل فانه حين انتهى من صعود السلم سار في رواق طويل إلى باب كان ينبعث منه نور ضعيف .

وكان مفتاح الباب في قفله من الخارج ، ففتحه ودخل إلى ردهة وجد في يمينها ويسرتها بابين ففتح أحد هذين البابين ودخل منه إلى غرفة معدة للنوم وسمع منها أنيناً .

غير ان هذا الأنين انقطع حين سمع صاحبه وقع أقدام الرجل . ثم سمع هذا الرجل صوت امرأة تقول بلهجة مضطربة تدل على الألم الشديد : أهذا أنت يا أرمان ؟

ولم يجب الرجل بحرف ولكنه دنا من السرير الذي كانت المرأة قائمة فيه وأزاح الستائر .

ولم يكن من نور في الغرفة غير نور اللهب المنبعث من المستوقد ، ورأى الرجل على هذا النور الضعيف امرأة تعض يديها وعلى وجهها علائم الألم الشديد . وعادت المرأة فقالت : أهذا أنت يا أرمان . ويلاه من هذه الساعة ،

فاني أحسبها ساعتي الأخيرة . ثم جعلت تعض اللحاف كي تمتنع عن الصراخ .
أما الرجل فإنه خلع عنه الوشاح فجأة وكان يستروجه ، فلما رأته المرأة
ذعرت ذعراً أنساها آلامها وصاحت صيحة منكبرة ارتجت لها حوائب الغرفة .
غير أن الرجل لم يدعها تصيح غير هذه الصيحة فضغط على عنقها بيده وقال
لها إذا ففت بكلمة واحدة قتلتك دون إشفاق .

وكان خوفها عظيماً حتى أنها نسيت ما هي فيه من آلام الولادة ، لأن
هذا الرجل الذي رأته لم يكن أرمان الذي كانت تنتظره بفارغ الصبر .
ولما رأت هذا الرجل وما كان منه جمد الدم في عروقها وقالت له :
اهذا أنت ؟

أما هو فإنه ذهب إلى الباب واقفله من الداخل وعاد إليها فقال بصوت
الهازيء المتهكم اني أعلم شيئاً من علم الطب والجراحة ، وسأعنيك عن الطبيب
الذي ذهب أرمان لاحضاره .

وقالت له اقتلني كما تشاء لأن ذلك من حقك لأنني خنتك وأنا امرأتك ،
ولكن لا تهزأ بي بالله في هذه الساعة
- اني لا أهزأ ولا يدور المزاح في خاطري وأنا في هذا المقام بل اني أعيد
عليك ما قلته لك وهو اني لم بفن الطب والجراحة وسأنوب عن الطبيب الذي
تنتظرينه كما سترين .

- او اه اني اقرأ بين عينيك صورة العقاب بموتي ..
وأجابها ببرود : انك نخطئة ايها السيدة ، فلا اريد لك الموت .
- أين أرمان ، ولماذا لم يعد ؟

- لأنني قتلتها ، فهو لن يعود
فاضطربت اضطراباً شديداً ونهضت وهزت هزاً عنيفاً ذلك الرجل الذي
كان زوجها فخائته وانت تستر زلتها في بيت حقير . واتقدت عينهاها بلهب
الحقد وجعلت تهزه وتقول له : تبا لك من قاتل سفاك .

غير انه لم يغضب لما سمعه من اقرارها ، بل جلس على كرسي أمام سريره
وقال بملء السكينة : لقد عدت يا سيدتي اليوم من اسبانيا ، ولم يعلم احد من
الناس بعد اني في باريس ، وجميع الناس هنا يحسبون انك الآن مقيمة في
أراضينا في نورمانديا ..

ثم ان زلتك لم يعلم بها أحد بعد ولا يجب ان يدري بها احد ويقول
ان الدوقة دي فنسترانج خانة زوجها وولدت بالاثم والخيانة .

وهي خيانة يا سيدتي لا يعلمها غير ثلاثة في الوجود وهم ارمان وانت وانا
أما أرمان فقد قضى السهرة بقربك ، ولما شعرت بقرب الولادة أسرع
لأحضار الطبيب ، لكنني لقيته في الطريق قبل ان يصل اليه وتصديت له
وقلت : اني عالم بكل شيء

ففهم ما أردت وذهب معي إلى مكان معتزل وتبارزنا ولقي الموت من
حسامي جزاء بغيه ، ولكنه تمكن من ان يخبرني قبل مماته بما انت فيه
وارشدني إلى مكانك .

بقي ذلك الخادم الذي اخبرني بسر خيانتك ، لكنني سأصعبه معي إلى
اسبانيا وهناك اتخذ الاحتياطات اللازمة كي لا يعود ، ولا يبقى من المطلعين
على هذا السر غير انا وانت ، فلا تروق لك الفضيحة مهما صغرت نفسك بهذه
الحياة فلا تبوحين بسر تكون فضيحتك بعده اكثر من فضيحتي . واما انا فاسي
رجل كثير الطموح إلى المعالي فلا اشغل نفسي بالاهتمام بخائنة وقد صغرت في
عيني فلا اتداني إلى الانتقام منك . إذا بقي اني لا اقتلك .

وانت الآن مقيمة في هذا المنزل متنكرة باسم غريب فاتخذي ما تجدينه
صالحاً من الاحتياطات لتعودي غداً إلى قصرنا في شارع سانت دومنيك دون
أن يعلم أحد شيئاً .

وكان الدوق يقول لها هذه الأقوال بملء السكينة ، غير ان تلك المرأة كانت
قد اشتدت عليها آلام الولادة فلم تفقه حديثه .

اما الدوق فقد كان عارفاً بفن التوليد كما قال فأخذ يمالج امرأته إلى ان ولدت في الساعة الثانية من الصباح مولوداً ذكراً واغمي عليها .
ولف الدوق الطفل بملاية السرير وخبأه تحت وشاحه وانصرف . فلما استفاقت الدوقة من اغماؤها لم تجد زوجها ولا ذلك المولود .

الفصل الثاني من كتاب الفيروزة

بعد شهر من هذه الحادثة الغريبة التي وردت في كتاب الفيروزة كانت فرقة من الجنود الفرنسية تحتل قرية من جبال كاتولون تدعى اوجاكا .
وكان احتلالهم لهذه القرية اثر الحرب الثانية التي نشبت مع اسبانيا سنة ١٨٢٣ .

وكانت هذه الفرقة مؤلفة من فصيلتين من الفرسان بقيادة الكولونيل فنسترنج ، وهو الدوق دي فنسترنج الذي جرى له مع امرأته ما روينا في الفصل المتقدم .

وكان هذا الدوق يناهز الثلاثين من العمر شديد القوى عرف بالقسوة وقد خدم في روسيا في عهد الامبراطورية الأولى وجرد السلاح على مواطنيه الفرنسيين ، ولم يكن الجيش الفرنسي يميل اليه غير انه كان معروفاً بالشجاعة فلم ينكرها عليه أحد .

على انه مع شجاعته كان ذكي الفؤاد حسن التدبير شديد الصرامة في تنفيذ النظام العسكري ، وإذا غلب لا يعرف قلبه الرحمة بالمغلوب .

وكان قد احتل قرية اوجاكا في الصباح فأصدر امره باعدام اثني عشر رجلاً من اهلها اتهموا باجراء حرب المناوشات ومشاكسة الفرنسيين ، ولم يمهلم غير يوم وليلة ، فقبض على هؤلاء المساكين وزحوا في سجن مظلم

كانت تتولى خفارتة الجنود ، إلى ان تحين ساعة الاعدام ، وهي في فجر اليوم التالي .

وكان بين هؤلاء الأسرى شيوخاً وفتياناً ، حتى انه كان بينهم غلام لا يتجاوز خمسة عشر ربيعاً جاءت أمه باكية معولة وانطرحت على قدمي الدوق تستعطفه ابناً ، فرفسها هذا الدوق الوحشي برحله وأمر أن يكون ابناً اول المقتولين .

وكان أيضاً بين أولئك الأسرى رجل يناهز الأربعين ، صبغت أشعة الشمس وجهه الأبيض بلون الذهب ، فصار يشبه وجوه العرب ، وهو يدعى مينوس .

ومن صفات هذا الرجل ان عينيه كانتا تدلان على الجرأة والميل الى الفتك وهو عصبي المزاج أنوف قليل الكلام وقد انطرح في زاوية من السجن بعيداً عن رفاقه لا يكلم أحداً وإذا كلموه لا يجيب .

وحكايته انه لم يكن من أولئك الاسبانيين الذين يدافعون عن بلادهم ، ولم يكن أعداؤه تلك الجنود الفرنسية بل كان ربيب الجبال وعدو الهيئة الاجتماعية بأسرها والناس يحملتهم ، فقد كان من مشاهير زعماء اللصوص .

وكان السبب في أسره ، أنه كان يهوى فتاة في تلك القرية ، فكان يزورها في كل ليلة ، ولم يكن أحد من رجال عصابته يعتدي على القرية إكراماً لها .

وكانت الفتاة قد أحبتة أيضاً حباً شديداً ، ثم علمت انه أحب سواها . فأضمرت له الشر وعزمت على الفتك به ، إلى ان حانت لها الفرصة يوم احتلال الفرنسيين لقريةها . فسقته مخدراً ممزوجاً بالخير ، وذهبت الى قائد الفرقة فوشت به انه من الخوارج .

فلما صحا وجد نفسه مقيد الرجلين ، مكتوف اليدين ، في سجن مظلم وبقره كثير من الأسرى المقيدن .

وقد علم كما علم بقية الأسرى أن موعد إعدامه عند الفجر . وكان جميع رفاقه قد ناموا في الليل واستسلموا الى الأقدار . أما هو فلم يغمض له جفن طول ذلك الليل .

وفيا هو يفكر في مصيره ، فتح باب السجن ودخل اليه جنديان فرنسيان ، وبهد أحدهما مصباح ، فأيقظ النائمين وقال لهم : من منكم يدعى مينوس ؟

فانبرى له اللص قائلا : هو أنا ، فماذا تريد ؟

فدنا منه الجندي ففك قيد رجله وقال له : قم واتبعنا .

فأجابه مينوس قائلا : إلى أين ؟. العلما تريدان شنقي قبل أن يطلع الصباح ؟

— كلا ولكننا ذاهبان بك الى قائدة لانه يريد ان يراك .

فمشى مينوس بين الجنديين وهو موثق اليدين حتى وصلا الى حيث يقيم الدوق فلسترنج فدخل شامخ الرأس غير مكترث بما رآه من دلائل العظمة ، فنظر اليه الدوق وقال : أريد أن أعفو عنك ؟

فانذهل مينوس وقال : إني أريد العفو دون شك ، إذ لم أقنط بعد من الحياة ولكن لماذا تريد أن تعفو عني ؟

— لأنني محتاج اليك .

— قل إذن شروطك

وكان يوجد في الغرفة التي كان فيها الدوق مهد فيه طفل لا يزيد عمره عن شهر ، وهو الطفل الذي ولدته امرأته فأشار بيده الى المهد وقال لمينوس : انظر هذا الطفل ، إنني أكرهه كرها لا حد له حتى إني أريد له الموت ، ولكني لا أحب ان أقتله .

— إذأ تريد ان تعتمد علي .

— نعم ، ولكن إصنع لي . أتعلم ما أريد منك ؟ وكيف انك تشتري

حريتك ؟ ذلك اني أريد أن تأخذ هذا الطفل إلى الجبل الذي تقيم فيه ،
فترهبه بين رفاقك اللصوص . وتأتي كل عام إلى بوسطة بايون ، وذلك في
يوم عيد الميلاد ، فتجد كتاباً باسمك يحتوي على مئتي ليرة ، نفقات
الطفل .

فانذهل مينوس وقال : إذن لا تريد قتله ؟

— كلا ، بل أريد ان تعلمه مهنتك وتجعله لصاً مثلك . فقد يأتي يوم يحكم
عليه فيه بالشنق .

— وإذا نجح من المشنقة ؟

— إنك تأتي في كل عام إلى البوسطة فتقبض النفقات التي أرسلها إليك إلى
أن يبلغ هذا الطفل ٢٠ عاماً فيأتي ويجد كتاباً باسمه .
— رضيت وسأفعل ما تريد .

— أقسم لي على الوفاء ؟

— أقسم بما تشاء

— حسناً ، فخذ الطفل ، وأرسل معك بعض الجنود كي يخفروك
إلى الجبل

ثم نادى أحد الضباط فأمره بإرسال مينوس والطفل مخفوريين إلى الجبل .
وبعد ساعه برح مينوس تلك القرية وهو يحمل بيديه ذلك الطفل الذي ولدته
إمرأة الدوق دي فلسترزنج وبلغ أمر اختفائه جميع أهل باريس

الفصل الثالث من كتاب الفيروزة

مر على هذه الحادثة ١٤ عاماً واللام يربو بين عصابة مينوس .
وكان ذلك في عام ١٨٣٧ ففي أحد أيام فبراير من هذا العام ، كانت

مركبة بوسطة قادمة من بيوت ، فوصلت في الصباح الى قرية أوجاكا التي تقدم ذكرها

وكانت سياسة البلاد قد تغيرت في هذا العهد ، فوضعت الحرب الأجنبية أوزارها ، وثابت منايها الحروب الداخلية . فانقسم الاسبانيون قسمين قسم تحزب للدون كارلوس وأراده ملكاً على الاسبان ، وقسم مال إلى تأييد الملكة ايزابيلا ، ولكل من الحزبين زعيم شديد يدفع البلاد في تيار الحرب الأهلية .

ولذلك كان السفر في اسبانيا شديد الخطر على المسافرين فلما وصلت المركبة إلى أوجاكا دنا منها أحد الضباط وأزاح ستارها فوجد فيها امرأة ناحلة مصفرة يظهر انها مصدورة ، وبقرها غلام يبلغ الخامسة عشرة وعلى الاثنين دلائل النعمة والترف .

فسأل الضابط تلك السيدة عن البلدة التي تسافر اليها . فقالت له : إني أدعى المركيزة دي مورفر وهذا ولدي يدعى بعد قتل والده ، المركيز غوستاف دي مورفر (هو ذلك المركيز نفسه الذي تقدم خبر اختفائه في أول هذه الرواية) ونحن مسافران ياسيدي الى قاديس للاستشفاء بهوائها من دائي كما وصف لي الأطباء .

— إني أدعو لك بالشفاء العاجل يا سيدتي ، غير ان الطريق غير آمنة ، وسأعطيك جواراً يقيك اعتراض الجنود غير اني لا آمن عليكما مكر اللصوص في الجبال إذ لا بد لكما من اجتيازها ، ومن يربها لا يسلم من قبضة مينوس إلا بفدية عظيمة .

فاصفر وجه المركيزة وظهرت عليها دلائل الخوف . ورأى ولدها علائم خوفها ، فاتقدت عيناه وقال : ما بالك خائفة يا أماء وأين أنا ؟ ألا أستطيع أن أحميك ؟

فتنهدت وقالت : لا أنكر بسالتك يا بني . ولكن ما عساك ان تصنع مع

عصابة لصوص ؟
ثم استأنفت الحديث مع الضابط وقالت : من هو مينوس هذا ؟ وكيف
السبيل لا تقائه ؟

— إنه يا سيدتي زعيم لصوص هائل . وقد عقد حزبنا اتفاقاً معه ،
فهو لا يمتددي على جنودنا ، ونحن لا نخفر المسافرين الى الجبال التي
يقع فيها .

— وإذا وقعنا في شركه فهو يطلب فدية كما تقول .

— نعم ولكنها فدية جسيمة فهو لا يقنع بالقليل .

— وإذا عجزت عن دفعها ؟

فأطرق الرجل برأسه دون أن يجيب . وكان جنسدي واقفاً معه يسمع
الحديث فقال : من لم يدفع الفدية يا سيدتي يقتل دون إشفاق .

فنزلات المركيزة مع ولدها من المركبة الى الفندق الذي وقفت أمامه وهي
مفكرة مهمومة ، وكانت صاحبة الفندق علمت بأمرها فدنت منها وقالت لها
بصوت منخفض : إنك إذا بت يا سيدتي هذه الليلة في فندقي فقد أرسدك إلى
طريقة تمنقذك من هذا الأخطار .

فرضيت المركيزة شاكرة وأقامت يومها في غرفتها ولم تخرج منها .
ولما أقبل المساء ، وترصعت سماء تلك القرية بالكواكب اللامعة ،
تفرقت الجنود ، ولم يبق في ذلك الفندق غير صاحبتهم والمركيزة وابنها
وبعض الخدم

وعند ذلك دخلت صاحبة الفندق الى غرفة المركيزة وقالت لها : لقد
وعدتك يا سيدتي أن أسهل لك سبل الوصول إلى قاديس دون خطر ، وها أنا
سأفي بوعدتي .

ففرحت المركيزة وقالت . كيف ذلك ؟

— إننا في هذه القرية يا سيدتي نحب اللصوص ، فان زعيمهم مينوس لم يسيء

الينا بشيء .
وكانت صاحبة الفندق جميلة وهي في ريعان الشباب ، فأدركت المريضة
قصدها وابتسمت فقالت الفتاة : إن هؤلاء اللصوص لا يأتون الى قريتنا في
النهار بل يأتون في الليل للادخار والتموين فيتقاضى الجنود عنهم لما بين الفريقين
من الاتفاق .

– نعم لقد عرفت أمر هذا الاتفاق من الضباط .
– وان بيدرو يأتي كل ليلة الى هذا الفندق .
– من هو بيدرو هذا ؟
– هو نائب الزعيم مينوس في رئاسة العصاة وان الزعيم يحبه كما يحب
الغلام برديتو .
– ومن هو برديتو ؟
– هو غلام تبناه مينوس منذ ١٤ عاماً .

فالتفت المريضة الى أمه وقال لها باحتقار : أياكون هؤلاء اللصوص أولاد
كسائر العائلات ؟
فنظرت اليه أمه نظرة الموبخ ، وعادت صاحبة الفندق الى الحديث
فقالت : لا بد أن يأتي بيدرو هذه الليلة ، ومتى أتى طلبت اليه أن
يحميكما فيفعل

– أنستطيع عند ذلك اجتياز الجبل آمين ؟
– إذا وعد بيدرو بحمايتكما فلا خطر عليكما ، وسأحمله على أن يعد ، صبراً
إن زمن حضوره قد دنا
وبعد هنيهة سمعت صاحبة الفندق وقع حوافر جواد فاجر وجهها وقالت :
هوذا قد حضر .

ثم أخذت مصباحاً ووضعت على النافذة ، إشارة إلى أنه يستطيع
الدخول الى الفندق . فلم يمض زمن وجيز حتى فتح باب الغرفة ودخل منه

هذا اللص .

وكان هذا اللص فقي يبلغ الثلاثين من العمر ، رشيق القوام ، حلو الشائل ، تدل عيناه على السلامة ، وعلى أنه لم ينحدر في سلك اللصوص إلا لأسباب أكرهته على امتحان هذه المهنة السافلة . ولما رأى المركيزة وابنها قطب حاجبيه ، ولكنه ما لبث ان أرتاح لرؤيتهما لما رأى عليهما من مخائل النبيل والدعة .

أما صاحبة الفندق فلإنها خرجت به من تلك الغرفة وتداولت معه هنية ، ثم عادت الى المركيزة وقالت لها : إن بيدرو رضي يا سيدتي أن يتولى حمايتكما وأقسم لي على الوفاء بالقديس يعقوب حامى اسبانيه ، لكنه يقول انه يجب ان تسافرا الآن لان الزعيم مينوس عازم على الغارة على الضواحي عند الفجر .

— أية علاقة لغارته بسفرنا ؟

— ذلك لانك لا تستطيعين اجتياز الجبل آمنة إلا بجواز من مينوس . ويريد بيدرو أن يدركه قبل الفجر للحوال على هذا الجواز .

فوافقت المركيزة على السفر ونفحت صاحبة الفندق بمبلغ من المال جزاء إخلاصها . وبعد حين سارت المركبة بها وبولدها وهي واثقة ملء الثقة بيمين هذا اللص

الفصل الرابع من كتاب الفيروزة

وسارت بهم المركبة فكانت المركيزة وابنها جالسين في داخلها ، بيدرو جالسا بجانب السائق .

وبينما كانت المركبة تسير في ظلام الليل في تلك الطرق المقفرة دار بين

المركية وابنها الحديث الاتي ، فقال المريكز :
- إنني قد بلغت السادسة عشرة من عمري وصرت رجلاً ، اليس كذلك
يا أماء ؟

فتنهدت والدته وقالت : نعم يا بني .
- إنك تستطيعين الآن ان تخبريني بكل شيء
فبدت عليها علائم الاضطراب وقالت ماذا تعني بهذا القول ؟
- أحب يا أماء ان أعرف .
أريد ان أعرف كيف مات أبي لاني حين كنت صغيراً وكنت أسأل يجيبوني
إنه في الجيش .
- وهو كذلك يا بني ، فقد كان ضابطاً في الجيش .

- وبعد ذلك قيل لي انه قد مات .

- وهذا أكيد أيضاً .

- ولكن كيف توفي ؟

فتنهدت المريكزة وسكنت . فقال لها بلمهجة احترام : بالله لا تخفي الحقيقة
عني يا أماء ، فقد علمت ان أبي قتل غدرأ ، وإنما أقول غدرأ لأن الأطباء
وإن كانوا قروا أنه قتل بضربة سيف ، غير أننا لم نعاثر على الشهود
ولا الخصم . وأنا أنتظر يا أماء أن أعرف الحقيقة منك ، لذلك تعلمينها
دون شك .

فتنهدت والدته أيضاً وقالت : إن دائي قد استفحل يا بني ، وأنا أعلم ان
ساعات حياتي باقت معدودة وكنت أنتظر الى ان تبلغ العشرين من عمرك لأبوح
لك بهذا السر ، غير اني لا أعيش وأسفاه الى ذلك اليوم ولا أجد بسداً من
الاباحة لك بالسر .

- تكلمي يا أماء ، فإنني لا أبلغ غير الخامسة عشرة من عمري ،
ولكنني أعد نفسي في مصاف الرجال ، ولا بأس من إطلاعي على الحقيقة

قبل الاوان .

— اني يا غوستاف أبكي أباك منذ أربعة عشر عاماً ، وكنت أعبد عباداً مع انه كان مسيئاً إلي ، واعلم يا بني انك ولدت بعد ان مضى على زواجنا عامان ، كنا في خلاهما أسعد خلق الله ، لتبادل الحب بيننا . وكنا عائشين كالحمامتين في قصرنا في مورفان ، وكنا نحسب حدائقه جنات أعدت لنا .

ثم انتهت إجازة أبيك فعاد الى منصبه في الجيش وعدت معه الى باريس . لما مر بنا ثلاثة أشهر حتى أصبحت أتعس امرأة في الوجود . ذلك ان امرأة اخرى جذبت فؤاد أبيك وحلت في قلبه مكاني .

ودام ذلك نحو عام وأنا مقيمة حول مهدك متأسية بقربك لا أراك تبسم لي حتى أتوجع لشفاء أبيك . وكان لا يحییء الى المنزل إلا في آخر الليل ثم انقطع عنه عدة أسابيع لم أره فيها مرة .

وفيا أنا ساهرة ذات ليلة وقد ثارت هواجسي لاحتجابه ، وبزغ الفجر وأنا جالسة أبكي قرب مهدك ، سمعت طرق الباب الخارجي فأوجست شراً ، وقلت : من عساه يحییء في هذه الساعة ؟

ثم أسرع الى المنافذة المطلة على الباب فرأيت البواب يفتح ثم رأيت جنوداً يتقدمهم بوليس دخلوا بعده وتلام أربعة رجال يحملون جثة وضعوها فوق حمل وكانت الجثة جثة أبيك .

وهنا لا أذكر لك ما أصابني من اليأس . فسألت البوليس عن القاتل فقال انه لا يدري . وذهبت الى الملك وانطرحت على قدميه والتمست منه لإجراء التحقيق فأصدر أوامر مشددة ، وبحث البوليس ثلاثة أشهر فلم يهتدوا الى القاتل .

غير ان رئيس البوليس جاءني مساء يوم وقال لي : إن زوجك يا سيدتي لم يقتل غيلة بل أثر مبارزة .

— ومن كان خصمه ؟

— زوج المرأة التي كان يهاها .

فقال المركيز : لكن ألم يخبرك رئيس البوليس عن اسم هذا الرجل ؟

— كلا لأنه أبى ان يخبرني لكنني عرفت من سواه .

— بالله إذاً أذكره لي

وفما كانت تحاول إخباره إذ وقفت المركبة فجأة وأحاط بها كثيرون من لصوص الجبال وجميعهم مسلحون .

وكان هؤلاء اللصوص قسماً من عصابة مينوس ، والمكان الذي وصلت اليه المركبة محطتهم الأولى فلما عرفهم بيدرو وثب من المركبة ، وأسرع اليهم قبل ان يطلقوا نيرانهم ، فعرفهم بنفسه ، فامتلوا له وأذنوا للمركبة بمواصلة السير . فاطمأنت المركبة وعادت إلى حديثها فقالت لابنها ما يأتي :

— مر على مقتل أبيك يا بني خمسة أعوام ، ففما أنا مقيمة في قصرنا في باريس ذات يوم ، جاءني خدام عجوز بيضت السنون شعره ، وقال لي : يوجد يا سيدتي امرأة على فراش الموت ، تحب ان تراك قبل وفاتها ، لامر خطير .

وتفرست في وجه الخادم فرأيت علائم السلامة تجول بين عينيهِ فقلت له : من تكون هذه المرأة ؟

— لا أستطيع أن أذكر لك اسمها ، وإنما تريد أن تستغفر منك قبل الموت !

— أين هي ؟

— في بيت قريب من هنا إذا شئت يا سيدتي سرت بك اليه .

وكان يتكلم بلهجة المتوسل المستعطف ، ودلائل الصدق بادية في حديثه ، فما وسعني إلا الامتثال له ، لا سيما وقد خطر لي ان هذه المرأة قد تكون هي

التي سببت قتل أبيك لأنها تقول انها تريد أن تستغفر مني . ولم يسيء إلى أحد سواها .

فأمرت الخادم ان يسير أمامي وتبعته حق وصلنا الى ذلك المنزل ففتح بابهُ بفتحاح كان معه ودخل بي إلى منزل كبير سرنا به من رواق الى ردهة فالتفتنا الى غرفة أدخلني اليها وانصرف

ورأيت في تلك الغرفة امرأة مضطجعة فوق سرير ، فكانت آثار الجمال بادية عليها ، غير أن دلائل قرب الموت كانت ظاهرة على وجهها المصفر .

فلما رأيته اقعدت عيناها كأنما قواها قد عادت اليها وقالت لي : حسناً فعلت يا سيدتي المريضة بقدمك إلى لآني أنا هي تلك المرأة التي كان يهاها زوجها ، وأنا الدوقة دي فنسترنج .

فنظرت إلى تلك المرأة التي كانت السبب في قتل أبيك نظرة شفت عما في قلبي من الاحتقار ، وكأنها أدركت معنى هذه النظرة فقالت لي . رحماك لا تنظري إلى هذه النظرات ، إني على فراش الموت .

فتهميت هذا الموقف وزالت من قلبي آثار الضغينة فمدت يدي إلى يدها وقلت لها : إني غفرت لك فموتي بسلام وعسى ان يغفر الله لك .

فاغرورت عيناها بالدموع وقالت : أشكرك خالص الشكر يا سيدتي ، ولكنني لا أموت قبل ان أطلعك على سر هائل

– تكلمي يا حضرة الدوقة إني مصغية اليك .

ثم دثت منها لما رأيت من خفوت صوتها كي لا أحملها مشقة الكلام فقد كان صوتها خفت وتجمعت كل دقائق حياتها في عينيها .

واعترفت لي عند ذلك بكل ما حدث وقالت : إنه حين سقط المريضة قتيلا من سيف الدوق فنسترنج ، كانت تعاني آلام الولادة في منزل استأجرته خاصة لسترزلتها . وجاءها زوجها بعد ساعتين ولدت بمحضوره غلاماً هو

في الحقيقة ابن المركيز دي مورفر لا ابن زوجها الدوق ، فهو يا بني أخوك من أبيك .

فارتعش المركيز وقال : إذا لي أخ ؟

فأجابته أمه : لا أعلم إذا كان لا يزال حياً أو أنه بات من الأموات لأن الدوقة لم تكن تعلم حقيقة أمره قبل وفاتها لأنها عندما ولدته أغمى عليها ولما استفاقت من اغماؤها لم تجد زوجها ولم تجد الطفل وقد طالما سألت زوجها الدوق عن الطفل فلم يجبها بحرف .

واتقدت عينا المركيز بأشعة الغضب وقال : أرجو على الأقل أن يكون هذا الدوق باقياً في قيد الحياة .

- دون شك ، وفوق ذلك لقد ترقى في مراتب الجندية حتى بلغ الى رتبة جنرال

- ليكن مارشالاً إلي لا أدعوه إلا بقاتل أبي .

- هو ذاك يا بني . إن أباك قتل دون ان يلتقم له أحد .

- سأكون أنا هذا المنتقم ، يا امساء ، وإني أقسم لك على ذلك بترية أبي .

وفيما هو يقسم هذا القسم وقفت المركبة لإحاطة اللصوص بها في محطة ، فأسرع اليهم بيدرو وعرفهم بنفسه ، وتابعت المركبة سيرها لكنها عادت الى الوقوف بعد ربع ساعة .

وفي هذه المرة دنا من المركبة أحد هؤلاء اللصوص ففتح بابها وقال باللغة الأسبانية : من أنتم ؟

وقد انعكست أشعة مصباح المركبة على وجهه ، فلم تلبث أن رآته المركيزة حتى صاحت صيحة دهش ممتزجة بالعرب وذلك ان هذا الوجه الذي رآته كان وجه غلام في الرابعة عشر من عمره أسمر الوجه أسود الشعر براق العينين وكان يشبه ولدها المركيز شَبهاً عجبياً لا يتفق إلا بين الأخوين .

وكذلك الغلام فإنه لما رأى المركيز صاح مثل تلك الصبيحة لانه رأى ما
رأته المركيزة من الشبه العجيب .

الفصل الخامس من كتاب الفيروزة

كان مينوس قد شاخ لتقدم الأيام به وابيض شعره ، ولكن رونق الشباب
كان لا يزال جاثلا بين عينيه ولا يزال لصوته الرنان لهجة السيادة لانه يتولى
منذ ٢٠ عاماً السيادة المطلقة على الجبل .

فكان الاسبانيون يحملتهم يخافونه ، حتى قواد الأحزاب . فكان
كل منهم يخطب وده كي يضمه اليه ويستعين بمصائبته على خصمه ، فتردد
مدة طويلة في الأمر ، ثم قرر ان يكون مستقلاً .

ومن أقواله الماثورة في هذا المعنى ان الملوك لا يستحقون أن نقاتل لأجلهم
وان مهنة نهب المسافرين أشرف من مهنة القتال من أجل الملوك . فبقي لصاً
مع افتخاره بان الملوك تسكتبه وتسترضيه .

وكان في جباله يشبه الملوك في عواصمهم ، إذ كان له بلاط وحاشية
وأعوان .

وكان في عهد شبابه كثير الشغف بالنساء وله في كل قرية حظية . وقد
اتفق مرة ان عصابته عثرت بستة من البدو وأربع نساء من البدويات بينهن
فتاة في الرابعة عشرة من عمرها وفتاة في العاشرة فقتل الرجال الستة وتزوج
إحدى المراتين على الطريقة النورية وهي كسر الابريق وأمر رجاله أن يقتلعوا
على المرأة الثانية .

أما الفتان فإنه أنعم بواحدة منها على نائبه بيدرو فأبى قبولها مدعياً انه
مولع بحب سواها فاتخذها الزعيم لنفسه وأدخل في ذلك الجبل مبدأ تعدد

الزوجات . أما الفتاة الصغيرة التي عمرها ١٠ أعوام فإنه جعلها خطيبة لبرديتو .
ولنذكر الآن من هو برديتو .

يذكر القراء تلك الليلة التي كان فيها مينوس سجيناً في قرية أجاكا يتوقع
تنفيذ إعدامه عند الفجر وكيف ان جنديين أتيا به الى الدوق دي فنسترنج
فأعطاه طفلاً وعهد اليه ان يريه مقابل إنفاذه من الاعدام .

وكان برديتو ذلك الطفل فتبناه مينوس وكان يذهب في عيد الميلاد من كل
عام الى بوسطة بايون فيجد كتاباً باسمه وفي طي الكتاب نفقة هذا الغلام التي كان
يرسلها الدوق .

وقد وفي الدوق بما وعده به من إرسال النفقة وكذلك مينوس فقد أبر بيمينه
وربى الغلام كما أراد الدوق فقد قال له حين دفعه اليه : أريد ان تجعله لصاً
مثلك فجعله كما أراد ولم يخل بشيء من الوصية .

وافضى الأمر بيمينوس انه بات يحب برديتو كإبنه ، وعلمه جميع أسرار
مهنه باخلاص ، فشب الغلام على القسوة والجرأة ، وما بلغ الـ ١٤ من سنه
حتى فاق معلمه

وكان حين يقضي مينوس بقتل اسير لم يدفع الفدية ، يبادر برديتو
الى مينوس ويلتمس منه ان يأذن له بقتله ، إذ كان يجد لذة عظيمة
بسفك الدماء .

وكانت تلك الفتاة النورية التي جعلها مينوس خطيبة لبرديتو فتاة
متوقدة الذهن بارعة الجمال تدعى روميا وكانت معجبة بخطيبها كل الاعجاب
حتى أنها كانت تصحبه في غزواته ، وتبدي من دلائل التفنن والدهاء على
حدائث سنه ما يدل على انها خليقة بهذا اللص وأنه اهل لها . فكانت
مينوس يحب الخطيبين حباً مفرطاً لاعتقاده انها زرع يده وانها يدعيان
الى المباهاة .

وكثيراً ما كان يتفق ان مينوس يضطجع في ظل شجرة فتجلس روميا

عند قدميه وتنشد له أناشيد البدويات حتى ينام متلذذاً بصوتها الرخيم .
لذلك كان برديتو وروميا الوحيدين بين اهل العصابة الحائزين على ثقة الزعيم
وحنوه فكانا يدلان عليه كل الادلال ويحكمان في ذلك الجبل كما يريدان دون ان
يرد لهما حكم

ففي تلك الليلة التي كانت فيها المركيزة تجناز الجبال مع ولدها في مركبة
بحماية بيدرو كان مينوس جالساً بظل شجرة يعد خطة غزو ضيعة مجاورة ،
وأسر شيخها طمعاً بثروته . فاختر من رجال العصابة من يصلح لهذه الغزوة
وأمر نائبه بيدرو الذي كان يذهب كل ليلة الى ضيعة اجا كا ان يعود قبل الصباح .
وقبل الصباح كان مينوس قد صحا من رقاده وجعل ينتظر عودة بيدرو
فجاءه برديتو وهو تام العدة والسلاح فقال له مينوس : لماذا تأهبت هذا التأهب
الملك تريد ان تراقب الغزاة ؟
وكانت روميا واقفة بجانبه فقالت : وانا اذهب معه .

فحاول مينوس ان يمنعها قائلاً : إنه قد تحدث معارك اخاف عليك فيها إذ
لا بد من تبادل إطلاق الرصاص .
فاتقنت عيناها وقالت . إنه مشهد جميل وهذا جل ما اتقى ان اراه .
وقال برديتو : الا تصحب اللبوة الأسد يا ابي في طلب القنص ؟
- إذا اذهبا يا ولدي وكونا حذرين .

فذهب الاثنان وبعد ذلك بربع ساعة عادت روميا وحدها الى مينوس ،
وكانت عيناها متقدتين بلهب وشعرها منبوش تعبت به الرياح وعليها علائم
الهياج الشديد .
فاضطرب مينوس عندما شاهدها ، وقال لها : ما هذا الهياج ؟ ولماذا
عدت وحدك ؟

- إن برديتو وبيدرو يتخاضمان .
- لماذا ؟

- لأن بيدرو يريد حماية امرأة و غلام عثرنا بهما في مركبة وان برديتو يريد قتل أحدهما فيمنعه بيدرو .
- لماذا يريد قتله العله لم يدفع الفدية ؟
- كلا انه لا يريد قتله لهذا السبب ..
- إذا لماذا يريد قتله ؟
- لأن الغلام المسافر يشبهه شبيهاً عجيباً .. ثم قالت بكبرياء : ويحق لبرديتو أن لا يشبهه أحد من الرجال
- فارقعش مينوس لذكر هذه المشابهة وقال : هلمي معي إلى محل الحادثة فاني أريد أن اتحقق بنفسي

الفصل السادس من كتاب الفيروزة

لما وصل مينوس إلى حيث كانت المركبة دهش دهشاً عظيماً لما رآه من التشابه بين المركيز وبين برديتو ولم يشكك أنهما أخوان .

وقد رأى الاثنان ينظر كل منهما إلى الآخر نظرات العداء والحقد ويحاول الهجوم على خصمه لو لم يكن بيدرو حائلاً بينهما يمنع الخصام والمركيزة واقفة تضطرب اضطراب الربشة في مهب الريح ، وهي لا تدري ما يكون .

وكان برديتو يقول للمركيز : بأي حق أيها السكاب الفرنسي تشبهني ؟

فيقول المركيز : لا أعلم أي اتفاق سيء جعل بيننا هذا الشبه ولكنني أمتنعك أن تمد يدك الي ..

ولم يكن للمركيز سلاح غير نظراته ولكن هذه النظرات الدالة على الغضب والاحتقار كانت تهيج برديتو كل الهياج ولولا بيدرو لأطلق عليه النار .

وكانت المركيزة تتوسل إلى أبائها أن يعود إلى المركبة فيجيبها بيدرو

ويقول لا تخشي يا سيدتي فقد وعدتكما بالسلامة ووعدني مقدس لا ينكس .
وعند ذلك دخل مينوس بين اللصوص وقال . ما بالسك وماذا جرى ؟
وابتعد اللصوص حين سمعوا صوت زعيمهم بلء الاحترام حتى أن برديتو
نفسه انقطع عن انذار المركيز .

فتقدم بيدرو وقال إني وجدت يا حضرة الزعيم في قرية أجاك هذه السيدة
وابنها وهي مريضة كما تراها ، وعف لها الأطباء الذهاب إلى قاديس استشفاء
بها ، وقد أخذت جوازاً من زعيم حزب دون كارلوس ومن زعيم حزب
الملكة اليزابيث غير انها لا تستطيع اجتياز الجبال إلا باذن منك .

فقال مينوس الملك توليت حمايتها ؟

- نعم ..

- أتعهدت لها بحمايتها ؟

- نعم يا حضرة الرئيس وأقسمت لها

فنظر الزعيم إلى برديتو نظرة تأنيب وقال يجب احترام العمود يا ابني .
فتراجع برديتو منخذاً صاغراً ولكنه التففت بعد أن تراجع بضع خطوات
وتهدد المركيز بنظرات هائلة فأجابه المركيز بنظرة احتقار .

أما مينوس فإنه دنا من المركيزة وقال لها اطمئي يا سيدتي فان نائبي قد
تعهد بحمايتك وستخرجين من هذا الجبل آمنة كما دخلت اليه .

فالحنت المركيزة شاكرة وعاد مينوس إلى التأمل بالمركيز فقالت له
المركيزة : أراك تعجب نفس اعجابي لما تراه من الشبه بين الغلامين فهل هذا
الغلام ولدك ؟

- كلا ..

- من أين أتى اليكم وكيف اتفق وجوده بينكم !

- ذلك سر لا سيدتي لا أستطيع الاباحة به وقد تعهدت بكتامنه للرجل
الذي عهد الي بهذا الغلام .

.. لا أحاول اكتشاف أسرارك يا سيدي ولكني التمس منك أن تخبرني في أي عهد دفع اليك هذا الغلام .

– منذ أربعة عشر عاماً وكانت طفلاً في المهد .

فذكرت المركيزة ما قالت له الدوقة دي فنسترنج وقالت : لقد عرفت الحقيقة الآن فان الرجل الذي دفع اليك الغلام هو فرنسي يدعى الدوق دي فنسترنج وهو برتبة كولونيل في الجيش .

– يسوؤني يا سيدتي اني لا أستطيع أن أبوح بشيء .

فقالت له بلهجة المتوسل : بقيت لي كلمة واحدة عن هذا الغلام أرجو أن تأذن لي بقولها .

– العله ابنك ..

– كلا ، بل هو ابن زوجي ، وقد خلفت له أمه ثروة عظيمة في فرنسا فإذا رضي ان يسير معي إلى فرنسا لاستلام تلك الثروة أعترضه ؟

فارتعش زعيم اللصوص وامتعض لون وجهه وبات فريسة الاضطراب الشديد ، فانه كان يحب برديتو حب الآباء للأبناء ، ولكنه تغلبت عليه عوامل المروءة فقال : كلا يا سيدتي ، لا أعترضه وأذن له بالذهاب معك إذا شاء .

بعد ذلك بساعتين أمر مينوس أن يعدوا مركبة المركيزة وابنها وأمر بيدرو أن يخفروها مع عشرة من أعوانه إلى آخر الجبل ، وجعلت المركيزة تنظم برديتو بواسطة مينوس فقالت له : اني أعرف اهلك فإذا رضيت ان تسير معي إلى فرنسا تغدو من النبلاء الأغنياء .

فنظر اليها باحتقار وقال : لماذا تريدان أن أسير معك ؟

– لأنني كنت صديقة لأبيك ..

– ليس لي أب غير مينوس .

فقالت له بلطف : انني عرفت أمك يا بني .

فهز كتفيه وقال : ولكنك لست أمي في كل حال لأن الانسان لا يكره أمه وأشعر اني أكرهك وأكره ابنك أشد الكره .
ثم نظر إلى المركيز نظرة حقد فأجابه المركيز بملها وكان كليهما كان يقول للآخر : سوف نلتقي .

ولما رأت المركيزة أن لا رجاء لها بحمله على السفر أمرت المركبة بالمسير وانطلقت تجري بخفارة بيدرو .

الفصل السابع من كتاب الفيروزة

بعد خمسة أعوام على هذه الحوادث التي بسطناها كان شاب وصبية يظهر من ملابسهما انهما من الأسبان يدخلان مدينة بايون في يوم من أيام الصيف الشديد الحر وطافا في شوارعها حتى انتهيا إلى مطعم فدخلا اليه .
كان الشاب في الثانية والعشرين من عمره ، والفتاة في السابعة عشرة ، وكلاهما جميل الوجه ، غير ان جمالهما كان مختلفاً ، فكانا يستلقتان اليهما أنظار الناس .

وكان الفتى طويل القامة أبيض الوجه اسود الشعر ، براق العينين تدل عيناه على القسوة والشراسة ، على انه بالرغم عن ملابسه الدالة على الفقر المدقع فانه كان يمشي مشية المعجب بنفسه المحتقر لأبناء جلوسه كأنما كل ما في الوجود تحت مطلق سلطانه .

وكانت الفتاة تسير متوكلية على ذراعه وهي شقراء الشعر يتدفق النور من محياها وقد لوحث الشمس وجهها فصبغته بأشعتها الذهبية ، ولها عينان سوداوان تنفثان السحر وتبسطان نفوذهما في كل قلب وهي ربة القوام عصبية المزاج أحسن ما فيها ان كل ما فيها حسن .

وكان الناس ينظرون اليها معجبين بهذا الجمال فينظر اليهم الفتى نظرات وحشية كأنه يخشى عليها العين من تلك العيون .

وجلس معها حول مائدة في ذلك المطعم وجاءها الخادم ليسألها ما يأكلان فقال الفتى : خبز وجبن وخمر ، وقد قال هذا القول بلهجة المباشرة كأنه طلب أمن مأكولات المطعم ، وامثل الخادم وأحضر لهما ما طلبا

وجلسا يأكلان ويتحدثان فقال الفتى : يا روميا أرى هؤلاء الناس كثيرو الفضول فلنتحدث بلغة النور التي علمتني إياها أيام الحداثة .

--- ليسكن ما تريد يا برديتو فإني بعد موت مينوس لم أعد أحب سواك فأنت حبيبي وسيدي

فتنهذ برديتو متأسفاً على زعيمه وقال لقد سلبتنا إياه الأقدار وكنت أرجو ان يكون معنا في هذه المدينة .

فقامت الفتاة : ليست يد الأقدار التي سلبتنا إياه بل يد الخيانة فانه كان يشق يجواني كل الثقة ، فضائه ، وباح بسر قدومنا إلى الجيش الملكي .

— لقد صدقت وان نجائنا نحن كانت من العجائب .

--- هو ذاك فان رجال عصابتنا ابعدوا بين قتيل واسير ، اتظن انهم شنقوا مينوس ؟

— دون شك فانه حاول ان يقتل نفسه ولكنهم طوقوه وأعدموه شنقاً .

— ان بيدرو كان أشد منه حظاً فانه قتل في ساحة المعركة .

فقاطعها برديتو وقال لها بعنف : لا تذكر لي اسم هذا الرجل .

— الملك لا تزال حاقداً عليه ؟

— دون شك إذ لولاه لما منعني مينوس عن قتل ذلك المركيز الفرنسي الذي يشبهني .

— تريد به أخاك ؟

— لا اعلم إذا كان أخي ، ولكن الذي اعلمه اني إذا لقيته في أى مكان

قتلته لا محالة ..

- أعلمت السبب الذي يدعوك إلى هذا الخقد عليه والسعي لقتله؟
- كلا ولكنني اشعر اني اكرهه كرهاً لا حد له حتى اني قد التذ بص عروقه وشرب دمانه .

- إذا فساأكرهه انا ايضاً نفس الكره واتمني له الموت
- بل لا بد لي من قتله متى ظفرت به فان حياته قد طال .
- ارى هذا الكره دليلاً على انكما اخوان .
- قلت لك لا اعلم ولكنني سأعلم هذه الحقيقة بعد ساعة .

فانذهلت روميا وقالت . كيف ذلك ؟

- إصني الي ، فانه منذ عشرين عاماً ، اي منذ ولادتي كنت يحضر مينوس في كل عام مرة إلى بايون فيأخذ كتاباً يحتوي على مبلغ كبير من المال لنفقاتي ، ولأجل هذا اتيت بك إلى هنا مشياً على الأقدام كي استعلم عن امر هذا الكتاب

- ايعطونك الكتاب ؟
- دون شك فانه سيكون هذه المرة ممنوناً باسمي
- كيف علمت ذلك ؟

- من مينوس ، فان الرجل الذي دفعني اليه في عهد طفولتي قال له : سأرسل لك نفقاته باسمك عشرين عاماً وبعد ذلك ارسل اليه كتاباً باسمه يتضمن تعليماتي .

- اتظن ان الكتاب يحتوي على المال حسب العادة ؟
- هذا ما ارجحه ، لكن اهتمامي بهذا الكتاب ليس من اجل المال ، بل لأنني ارجو ان اقف منه على اسرار مولدي ، بل ارجو ان تصدر لي الأوامر فيه بالتفتيش على ذلك الفرنسي الذي يشبهني واقتله .
- إذا هلم بنا إلى البوستان .

ونادى برديتو الخادم فدفع له ثمن الطعام وانصرف مع روميا وهو يقول لها : هذا آخر فلس بقي لدي .

وخرجوا من المطعم تشيعهما الأبصار .

ووصل الاثنان إلى البوسطة فلقيا موزع البريد جالسا قرب شباكها يطالع جريدة فنظر إلى برديتو بازدياء وقال له : ماذا تريد ؟

- اني ادعى برديتو ابن مينوس ولا بد ان يكون لديك كتاب باسمي فاني جئت اطلبه .

- لديك اوراق تثبت انك صاحب هذا الاسم .

... كلا .

- اذهب من حيث اتيت إلى ان يتيسر لك الحصول على هذه الأوراق . ثم عاد إلى مطالعة الجريدة دون ان يكثر له ، فتداخلت عند ذلك روميا في امره وقالت للموزع وهي تبتسم خيرا ابتسام : اننا لا نعرف احداً يا سيدي في هذا البلد وقد جئنا من محل بعيد وكابدنا كثيراً من المشاق فلا سبيل لنا إلى الرجوع

فلما رأى الموظف ذلك الجمال الفتان رق فؤاده وعاد إلى برديتو وقال له : اعد ذكر اسمك .

فذكر له اسمه ، فأخرج الموظف غلافاً ضخماً واعطاه إياه فشكرته الفتاة وخرجت بخطيبها .

وخرج الاثنان إلى الشارع فذهبا إلى منعطف مقفر وفتح برديتو الكتاب فتناثر منه اوراق التقطتها روميا وفرحت بها فرحاً لا يوصف إذ وجدت انها اوراق مالية .

إما برديتو فانه اخرج الكتاب من الغلاف وقرأ ما يأتي :

(ان الغلام الذي تبناه اللص مينوس إذا وصل إليه هذا الكتاب يجب عليه ان يخلع ملابسه الاسبانية ويتزيا بزي الفرنسيين ثم يذهب إلى فندق تولوز

فبستأجر خير غرفة فيه .

وفي طي الكتاب ، كتاب آخر مختوم فاذا لم يحضر اليه أحد بعد ثمانية أيام فليفتح الكتاب الثاني ويطلع على ما فيه) .

وكان الكتاب خالياً من التوقييع ، لما قرأه أمام روميا قال لها : ماذا تشيرين عليّ أن أفعل ؟

— أرى انه يجب ان تمتثل لما جاء في هذا الكتاب .

فوافقها برديتو على ذلك وذهب الاثنان إلى أشهر محلات بيع الملابس فاشتريا أفضلها وخلعا ثيابهما الرثة ثم انطلقا بذلك الزي الجديد إلى الفندق الذي ذكر لهما في الكتاب فنزلا فيه وجعل كل يوم يخرججان إلى النزهة بأجل المركبات فتحوم عليهما الأبصار كالنطاق .

إلى أن قال برديتو لروميا في ليلة : لقد حان لنا أن نفتح هذا الكتاب ونرى ما فيه .

— كلا ، إذ لم يبق لنا في هذا الفندق غير ثمانية أيام وموعد فتحه غداً ، فلنصبر إلى الغد .

وقبل أن تتم كلامها دق باب الغرفة التي كانت فيها مع برديتو فقام برديتو إلى الباب ففتح فظهر له رجل طويل القامة وخط الشيب رأسه وقد وضع في عروة سترته زراً أحمر إشارة إلى انه من اصحاب الرتب فدخل إلى الغرفة وقال لبرديتو أنا هو ذلك الرجل الذي قننتظره .

الفصل الثامن من كتاب الفيروزة

لندع هذا الرجل يتباحث مع برديتو وروميا في فندق تولوز في بايون ، ولنعد الى باريس فنقول :

كانت المركيزة دي مورفر قد توفيت مصدورة لم يحدها نفعا هواء قاديس
وكان ابنها المركيز دي مورفر قد بلغ الحادية والعشرين من عمره .

وكان غنياً جداً تقضي عليه تلك الثروة والحرية بالجري في مضمار الشباب
غير انه لم يكثر بملهي الصبى ولم يفتنم اللذات بل كانت دائم الهم كثير
التفكير لأنه كان أقسم على أن ينتقم من قاتل ابيه ، لم يتيسر له البر باليمين
ولبت الدوق فنسترنج في قيد الحياة تكثفه المهابة والاحترام .

ولم يكن ذلك جيباً من المركيز فقد كان مشهوداً له بالبسالة غير ان السبب
في ذلك انه يوم وفاة امه لم يكن قد بلغ بعد سن الرشاد فذهب الى منزل الدوق
وكان يعيش في الشاغلينه عيشة العزلة فلقمه وقال له لقد دفنت يا سيدي أمي
التي ما قتلها غير الحرن على أبي الذي قتلته أعلمت السبب في قدومي اليك ؟
- نعم فانك تريد الانتقام لأبيك ومعرفة السبب في قتله .

- دون شك .

- ان طلبك حق لا سبيل الى مراجعتك فيه غير اني اسألك الأذن بإبداء
ملاحظة بسيطة وهي انك لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرك بعد .
- وماذا يهمك عمري ؟

- يعني إذ لا يحق لي أن أبارزك قبل سن البلوغ ، فاذهب وعد إلي بعد
خمسة أعوام تجدي طوعاً لأمرك .
فعلم المركيز أن الدوق مصيب في اعتراضه فتركه وانصرف .

وبعد خمسة أعوام أي في اليوم الذي جاء فيه برديتو وروميا الى بايون بلغ
المركيز سن الرشد فدفع اليه الوصي أمواله وسلمه حساباته ووصية أمه ففتح
الوصية وقرأ فيها ما يأتي .

(اكتب يا بني هذه السطور من قاديس فلا تقرأها إلا حين بلوغك سن الرشد
أي حين يكون الموت اقصاني عنك وحكم علينا بفراق الأبدي .
واني أطلعك على كل شيء حين اجتيازنا الجبل ولكني أخبرتك عن مقابلي

مع الدوقة دي فنسترنج وهي على فراش الموت ، راعلم الآن بقيقة حديث
هذه الدوقة :

أنها اعطتني قبل وفاتها اوراقاً مالية أودعتها باسمك عند وكيل أعمالك
وقالت ان الولد الذي سلبني إياه الدوق دي فنسترنج هو ابن زوجك الماركيز
أرمان دي مورفر فاقسمي لي باسم هذا الماركيز الذي أحببناه كلانا وبكيناه
انك تفعلين كل ما أطلبه اليك .

فلما اقسمت لها قالت لي اني بعت جميع ما لدي وحولت ثروتي إلى هذه
الأوراق المالية التي اعطيتك إياها وهذه الأوراق تبلغ قيمتها ثلاثة ملايين
فرنك صومي لأبي ، فأسألك ان تبحثني عنه فاذا وجدته فادفعي اليه هذا المال
وإذا وثقت من موته فان هذه الأموال ترجع اليك وتكون ملكاً حلالاً لك
ولا ينك من بعدك

إذا فاعلم يا بني بأنك رأيت كما رأيت انا ذلك اللص الذي عهد بتربيته
إلى مينوس وهو ابن الدوقة وابن أبيك ، فمتى فتحت كتابي هذا فابحث
عنه جهداً وادفع اليه هذه الأموال وإذا وثقت من موته فاحفظ الأموال
لنفسك) .

هذا هو الكتاب الذي كتبته الماركية قبل وفاتها ، فلما اطلع عليه الماركيز
قبله باحترام وقال : سأصدق بأمرك يا أماء ولكي قبل ذلك يجب أن
انتقم لأبي .

ثم وضع الكتاب في محفظة بين أوراقه وخرج من منزله إلى منزل الدوق
دي فنسترنج فسأل البواب عنه فقال : انه مسافر .

- إلى أين ؟

- لا أعلم .

- متى يعود ؟

- بعد شهر ..

- حسناً ، سأنتظر عودته .

وعاد من حيث أتى ..

وفي المساء ذهب إلى النادي وجعل يطالع الجرائد فاستلقت نظره المقطع الآتي وهو :

(تمكنت الحكومة بعد الجهد من القبض على مينوس زعيم اللصوص الشهير وجميع عصابته فقتل بعضهم بالبنادق وقتل الآخرون شنقاً بحيث لم يبق أحد من أولئك اللصوص واستراح الناس من شر تلك العصابات التي تعيثُ فساداً في جبال اسبانيا منذ ٢٠ عاماً) .

فأيقن الماركيز ان برديتو قد هلك مع رجال العصابة وقال : إذا قد أصبحت تلك الملايين لي .

الفصل التاسع من كتاب الفيروزة

ولنعد الآن إلى برديتو الذي غادرناه مع روميا والدوق دي فلسترنج في فندق طولون ، فإنه حينما دخل عليهما هذا الرجل الأشيب وقال لبرديتو : أنا هو الرجل الذي تنتظره .

حاولت روميا تأديباً أن تخرج من الغرفة كي تخلي لهما المكان فمنعها الدوق وقال لها : ابقِي بيمننا يا ابنتي فانك الفتاة التي طالما كنت أبحث عن مثلها كي تكون عوناً لهذا الصديق العزيز فاجلسي بيننا واسمعي حديثنا .

وكان يقول هذا القول بلهجة الساخر وهو يبتسم ابتسام الأبالسة وينظر إلى برديتو نظرات كهربيته فلم يستطع مقاومته على الرغم ما عرف به من الجسارة .

ثم جلس بجانب روميا وأخذ يدها بين يديه وقال لها . إن جمالك فتان

تستطيعين أن تغوي به كل قلب
فأضطرب برديتو ونظر اليه نظرة وحشية فقال . لا تقل لها مثل
هذه الأقوال .

فأجابه بلمهجة الساخر : لماذا يا بني ؟
- لأنها إذا خانتني فلا يكون جزاؤها غير القتل .
- لقد أحسنت ولكننا لا نريد الآن البحث في هذه المواضيع .
- إذا ماذا تريد ؟
- لقد قلت لك اني أنا الرجل الذي تنتظره .
- ولكنني لم أعلم من هذا القول من أنت .
- أنا الرجل الذي عهد بك إلى مينوس منذ ٣٠ عاماً .
- إذا أنت المركيز دي مورفر ؟
كلا ..

- لقد حسبت أنك أبي .
- كلا لم يكن لي هذا الشرف
- إذا لماذا عهدت بي إلى مينوس وكنت تدفع نفقاتي في كل عام !
- هذا سري .

- إذا كنت تكتم عني هذا السر فلماذا أردت أن تراني ؟
فارتعش الشيخ وقال لقد كانت تمر بي ساعات ارتاب فيها بفساد أخلاقك
فلقد كنت أفتفي أثارك منذ ولدت إلى اليوم وعلمت من نفسك فوق ما تعلمه
منها إلى أن بلغت العشرين من سنئك وصرت من مشاهير اللصوص والسفاكين
حق أو شككت أن تقتل أخاك .

- إذا أنت تعرف اني ابن المركيز دي مورفر ؟
دون شك .
- أي أخو ذلك الفتى الذي يشبهني كل الشبه ؟

- هي الحقيقة بعينها ..
- فقال له برديتو بلمجة وحشية ارتعش لها الدوق : اني إذا لم أقتله فليس الذنب ذنبي ، ولولا مينوس لما كان الآن في عداد الأحياء .
- أكنت تكرهه إلى هذا الحد ؟
- بل وددت لو شربت دمه
- ألا تزال تكرهه الآن ؟
- لا أزال على كرهه ما زال بين جنبي قلب ينبض .
- ولكن هذا الفقى لم يسيء اليك بشيء .
- إنني رأيته مرة فأثار الحقد في نفسي عليه والبغض مثل الحب قد يكون من أول نظرة .
- إذا لو علمت أن هذا الفقى قد اختلس ثروتك فماذا كنت تصنع ؟
- هو سرقي ؟
- دون شك وقد اختلس منك ثروة عظيمة تقدر بالملايين .
- ففتح برديتو سترقه فظهر من تحتها قبضة خنجر هائل وقال : إنني اذا التقيت به أغمدت هذا الخنجر في قلبه .
- فابتسم الدوق وقال : اني لا أمنعك عن قتله غير ان الوقت لم يحن بعد .
- ماذا تريد بهذا القول ؟
- أريد انك محتاج الآن إلى إتمام تربيته .
- كيف ذلك ؟
- لأن طعنة الخنجر لا يقدم عليها غير العوام فلإنها تقتل الخصم بلحظة فتريحه ، وما هكذا يكون الانتقام .
- وكيف تريد أن اقتله ؟
- أريد ان تبيت المرمى دي مورفر . لكن بعد نزع طويل هائل ترتعد لذكره الفرائص .

- يبدو انك تكرهه مثلي ..
- بل إن كرهه له فوق كل حد .
- ولما هذا الكره ؟
- لأنه ابن الرجل الذي ثلم عرضي ودنس شرفي .
- إذأ قد عرفت من أنت فأنتك زوج أمي .
- هو ما تقول ..
- فنظر اليه برديتو نظرة مستطيلة وقال : أرى اننا خلقنا لنتفق
- لأنني لم اقتصد في تربيتك يا ولدي العزيز . أريد بعد أن أفسدت نفسك وجعلتك من أقطع اللصوص أن أنير فكرك وأهذب عقلك فأنتك الآن لص جاهل ، وأنا أريد أن تكون ممتازاً على أقرانك في كل شيء .
- وبعد ذلك ؟
- بعدها أخبرك بذلك الانتقام الرهيب الذي أعدته لأخيك المرميز دي مورفر .
- ثم أخذ الدوق يد روميا وقال لها وأما أنت أيتها الحسناء فاني اريد أن تكوني بين العالم مثال الهول فتلقني الذعر في القلوب وتزرعين الابتسام فتجني الجثث فأنتك خير امرأة صالحة لالقاء المفاسد والشرور فاستعدي للسفر فأنسا مسافرون غداً جميعنا .
- إلى أين .
- إننا سنطوف اوروبا واني قد تبليتكما منذ اليوم فأنتما ولدي .
- وفي اليوم التالي برح الدوق دي فلسترنج وبرديتو وروميا مدينة بايوت إلى ايطاليا .



لما وصلت فاندا ومرميس إلى هذا الحد من كتاب الفيروزة توقف مرميس

هنيهة عن القراءة ونظر إلى الساعة وقال : لقد بلغت الساعة الأولى بعد الظهر ولم يعد ميلون بعد وأظنه باقياً في موقفه يراقب البستانية الحسناء .

وجعلت فائدة تقلب صفحات الكتاب وتقول : إننا لم نعلم أمراً جوهرياً مما طالعناه إلى الآن .

فقال لها مرميس : لقد أخطأت فاني علمت منه أمراً خطيراً وهو أن البستانية الحسناء هي نفس روميا

– وأنا أرى رأيك

– إذا لنتم قراءة الكتاب

قالت فائدة : أظن ان الأولى بنا أن نعلم ما فعل ميلون في مراقبته البستانية الحسناء .

– اني واثق من أنه لا يزال في موقفه .

– إذا عد إلى القراءة .

فأخذ مرميس الدفتر وقرأ ما يأتي .

الفصل العاشر من كتاب الفيروزة

وبينما كان الدوق دي فنسترنج مسافر إلى إيطاليا مع برديتو وروميا ، كان المركيز دي مورفر ينتظر بصبر عودة قاتل أبيه ولكن الوقت الذي عينه الخادم لعودته انقضى دون أن يعود الدوق ثم مضى شهر وتلاه آخر الى ان مضى عام ولم يعد .

وكان المركيز قد أفرغ جهده في سبيل البحث عن عدوه فلم يعلم مكانه .

ثم أشيع في باريس ان هذا الدوق قد مات ولكن هذه الاشاعة لم تثبت ، فلم يعمل عليها المركيز الى ان ورد الى باريس جريدة اسمها اوريان اي الشرق

وهي جريدة عثمانية فقرأ فيها الباريسيون ما يأتي .

خرجت الباخرة مركيز من ميناء كندا أمس مستظلة بالراية العثمانية وثار عاصفة شديدة أغرقتها بمن كان فيها على مسافة ١٠ أميال من الشاطئ .

وقد حدثت هذه المفاجعة في الليل وكان الضباب كثيفاً فموت بها باخرة حين غرقها وحاولت انقاذ ركابها فلم تستطع ففرق جميع البحارة والركاب وكان فيهم كثير من أهل الوجاهة والشهرة بينهم الجنرال الفرنسي الدوق دي فنسترنج الذي كان مسافراً إلى ازмир لأسباب صحية ولا شك أن فقـسـد هذا الجنرال سيكون له دوي شديد في فرنسا فقد كان من مشاهير رجال الجيش .

ولما اطلع المركيز دي مورفر على هذا النبأ تنفس الصعداء وقال لقد عاقبه الله عني فالحمد لله .

وصفاً باله بعد ذلك وجعل يعيش عيشة هادئة مطمئنة وهو واسع الثروة بما خلفه له أبوه وقد زاد ماله بثروة برديتولا اعتقاده ان هذا اللص قد شق فضم ماله إلى أمواله .

وقد بدأ بالتجول والسياحة فساح نحو أربعة أعوام في جميع أنحاء الأرض ثم عاد الى باريس وعاش عيشة راضية لا تكدرها الهموم ، ولا تعكر صفوها الحوادث ، الى ان بلغ الثامنة والعشرين من عمره فنفذت إلى قلبه أشعة الغرام وغيـرت عيشه كل التغيير .

وحكاية غرامه انه كان عائدأ في إحدى الليالي من النادي إلى منزله فلما وصل الى الشانزليزه سمع صوت امرأة تستغيث وهي في مركبة قريبة منه كان يراها على ضوء القمر فأسرع ورأى رجلين واقفين عند بابها يحاولان ارغام المرأة على النزول منها .

وكان السائق قد اركن الى الفرار لأنها تهددها بالقتل وكانت المرأة تصيح مستغيثة منها وقد ملأ الخوف قلبها .

ولم يكن لدى المركيز من السلاح غير عصا في داخلها حربة فجردها من

غمدها وهجم بها على الرجلين فدافعا في البدء وطعنه أحدهما بمخنجر فخدش كتفه خدشاً صغيراً ثم تركاه مع المرأة وهربا .
فلما آمن المركيز كيدهما أقبل على هذه المرأة فرآها تضطرب اضطراباً عظيماً وقد بللت دموعها ثيابها .
وكانت صبية بارعة في الجمال وقد زادهما الخوف والبكاء جمالاً فقالت له بصوت حنون : اشكرك يا سيدي الف شكر فقد انقذتني من مخالب الموت ولولاك لما أبقي علي هذان الرجلان
- ماذا كانا يبغيان منك يا سيدتي العلمها يريدون سرقة ما عليك من الحلى .

فهزت رأسها وقالت : كلا فان احدهما زوجي الثاني أخي
- لا بأس عليك اني سأقوى حمايتك فلهي معي نذهب سيرا على الأقدام ،
فان سائق المركبة سيعود اليها .

فامتثلت وتأبطت ذراعه فسار وإياها
أما هذه المرأة فانها ابنة تاجر في انفرس وقد تزوجت جوهرياً هولاندياً
فسلب الزوج مهرها بعد أن عاملها اسوأ معاملة ثم تخلى عنها .
وكان لها اخ طلبت اليه ان يحميها فجاءها الى باريس لأن زوجها كان فيها وكانت لا تزال تحبه فاعتقدت ان اخاها سيصلح بينهما .

غير ان اخاها كان فاسد الأخلاق فاتفق مع زوجها على قتلها لاتهامها بالخيانة ، ودس لها السم في الطعام فلم تمت إلى ان لقيها هذه الليلة في الشانزليزه فجاهر بقصده وحاول قتلها وكاد يقتلها لو لم ينقذها المركيز .
هذه هي حكايتها التي قصتها عليه فصدقها ورأى انه لم يعد له بد من حمايتها فعرضها عليها فقبلتها شاكرة وأتت معه الى منزله .

الفصل الحادي عشر من كتاب الفيروزة

وأحبها المراكز حباً عظيماً وأحبته فاستأجر لها منزلاً معتزلاً وجعل يزورها فيه وولدت منه غلاماً ولم يكن يكدر صفوهما مكدر .
وقد مضى على عهد حبهما عام لم يلق الحبيبان فيه غير الغبطة والنعم الى ان جاءها ليلة وراها واجفة جازعة وقرأ بين عينيها صورة الرعب الشديد فقال : ما بالك ايها الحبيبة وما أصابك ؟

– لقد خفت يا غوستاف خوفاً شديداً هذه الليلة فاني رأيت رجلان يدوران حول المنزل وينظران اليه نظرات منكرة ، فما شككت أنهما يريدان قتلي .

– ان ذلك محال فانك لا تخرجين من هذا المنزل المعتزل ولا سبيل لهما اليك وبعد أفلمست أنا جنبك ومن يحسر ان يمد اليك يداً ؟ .
– انهما إذا رأياني يغتبان الفرصة ويقتلاني دون اشفاق وانا احبك يا غوستاف حباً لا يحيط به وصف كاتب ، ولكفي بت ميالة إلى الهرب .

فارتعش وقال : لماذا ؟

– لأن لي سراً خفياً أحب ان يبقى طي الكتمان .
– اني اقسم لك بشرفي اني لا اسألك عن سرك ولا اسمع اقل سمعي للوقوف عليه .

– وانا واثقة من قولك ولكفي ارجوك ان تنقذني فلست آمنة على نفسي في هذا المنزل

– من تخشين امن زوجك ؟

– لقد خدعتك ايها الحبيب قبل ان احبك فليس لي زوج .
– اذن تخشين من الذي كان يحبك ؟
– لم يكن لي عشيق وقد اقسمت لي انك لا تسألني عن سري .

- وانني اجدد القسم .
- إذا ، اذا كنت تحبني فائقذني .
وكانت تقول هذا القول واسنانها تصطك من الخوف فارتعش الركيز وقال لها : ولكن ممن تريدن ان انقذك ؟
- لا أستطيع ان اقول ..

- اتريدن ان ابقى معك في الليل والنهار فلا افارقك لحظة ؟
- كلا بل يجب ان اسافر من هنا وان تحبني في مكان خفي خارج باريس .
وكان الركيز يحبها حباً شديداً ولا يطيق بمعادها ، فاتفقا على ان يعودا الى بلجيكا فتمتقيم فيها اسبوعاً ثم تعودا متنكرة فيطردان الخدم بعد ان يذيعوا ان العاشقين قد انفصلا وان العشيقة قد سافرت ، وتعود الى المنزل بزي جديد ، ويعينان خدام جدد فيعتقد الذين تخشاهم ويحول عنها الخطر .

وفي الحال تظاهرا امام الخدم بالانفصال فأعطاهما امامهم مئة الف فرنك تمويهاً عليهم انه ارضاها بهذا المبلغ من المال ثم ركبتا القطار في الليلة نفسها وسافرت الى بلجيكا .

وبعد اسبوع عادت الى المنزل نفسه وهي متنكرة بزي الانكليزيات واحضرت معها خادمين انكليزيين وعاد الركيز معها الى عيشهما السابق وهو يحسب ان كل خطر قد زال .

وقد احترم الركيز يمينه فلم يسألها شيئاً عن أمرار حياتها وغاية ما كان يعلمه عنها انها تدعى جوليا وانها لا عائلة لها ، وان اللذين كانا يريدان قتلها لم يكونا زوجها واخاها .

ولكن جوليا على ما كانت فيه من الأمن كانت تخشى دائماً هذين الرجلين وتقول : انها إذا عثرا بي فلا بد لهما من قتلي .
وكان الركيز يأتي ممتطياً جواده فاتفق انها بينما كان ليلة بانتظاره في النافذة

سمعت صغيراً فهلعل قلبها ثم رأت شبحاً أسود ظهر في الحديقة على اثر الصغير
فتراجعت خائفة إلى الغرفة وأيقنت بوقوع المصائب .

أما هذا الشبح الذي رآته جوليا فقد كان يدنو من النافذة وهو شبح رجل
معتدل القامة خفيف الحركات ، فانه حين وصل إلى النافذة وثب اليها كما يشب
النمر وولج منها الى تلك الغرفة التي كانت فيها جوليا بين حية وميتة لما تولاهما
من الرعب .

وكان رعبها شديداً حتى انها لم تفتن الى دق الجرس ومساعدة الخدم به ،
وعقد لسانها فلم تستطع أن تستغيث ولكنها ركعت أمام الرجل الذي كان
يتهددها وقالت : رحماك لا تقتلني .

أما الرجل فقد كان مشهوراً خنجراً بيده فنظر اليها نظرة هائلة وقال لها :
أبحث عنك أيتها الخائنة منذ عام .
فجعلت تستجير به وتقول : رحماك لا تقتلني .

— كيف لا أقتلك أيتها الخائنة وقد هزأت بنا ونكشت بعمودك .
— اني لم أجسر على تنفيذ اوامركم .
— لماذا ؟

فنهضت بعد ان كانت جاثمة ورجعت إلى الراء وقد عادت اليها جسارتها
فقالت : اقتلني كما تشاء فاني أؤثر الموت على أن أكون آلة لتنفيذ أغراضكم
السافلة .

— ولكن لماذا لا تجسري على تنفيذها ؟
— لأنني أحبه .

فزأر هذا الرجل زئير الوحوش الضارية وقال : انت تحبينه ؟
— وسأحبه ما بقيت في قيد الحياة .

فبرق الخنجر بيده وهوى عليها وكاد يطعن أحشاءها بخنجره ولكنه صاح
فجأة صيحة دهش وتوقف عن قتلها إذ رأى بقربها مهد طفل فان انين الموجه

وقال : لقد عرفت السبب الآن ..

وكأنما جوليا أدركت قصده فأسرعت إلى طفلها وحومت حول مهده كأنها تريد أن تحميه .

وكان هذا الرجل برديتو تلميذ مينوس وشقيق الماركيز دي مورفر فقال : لقد علمت السبب الآن وسيكون هذا الطفل الذي حملك على خيانتنا رهينة عندنا إلى ان تعودني إلى الوفاء .

وكان الخنجر قد سقط من يد برديتو حين انذهاله لرؤية الطفل فلما علمت جوليا قصده التقت الخنجر عن الأرض ووقفت بين برديتو وطفلها وهي تقول : ادن منه الآن إذا استطعت .

فضحك برديتو ضحك الساخر وقال : اني استطيع قتلك متى شئت ولكني أحب ان أحادثك قبل استعمال القسوة فقد أصبحت أما كما يظهر .

— انك ترى ولدي الذي أدافع عنه .

— وانت تحبين مورفر ؟

— أعظم حب .

— أهكذا تبين بقسمك ويمثل هذه الخيانة يكون وفاء الوعود ؟

— لا انكر اني وعدتكم ان اكون آلة بيدكم لتنفيذ أغراضكم ولكني ما

حسبت قلبي يهوى الماركيز .

— أظن ان هذه هي المرة الأولى التي عرف قلبك فيها الغرام .

فأطرقت جوليا هنيئة ثم رفعت رأسها وقالت : اني لا أعلم ما كنت فيه حين سافقتي الأقدار اليك ورمتني بين أيديكم ولا انكر اني كنت فتاة سافلة لا اتردد في الاتفاق مع امثالك على ارتكاب كل منكر فأقمت مع الماركيز ثمانية أيام وأنا عازمة على تنفيذ مقاصدكم ثم ...

— ثم أحببته اليس كذلك ؟

— نعم أحببته وأحبه وسأحبه إلى آخر ساعة من حياتي .

- ستحبينه كما تشائين ولكن لا بد لك من الامتنال لنا .

- هذا محال ..

- ولكني اراه سهلاً ميسوراً ، اليس هذا ابنك الذي اراه ؟

-- إذا كنت تجسر على الدنو منه فافعل .

فهمز برديتو كتفه إشارة إلى الاحتقار وقال : دافعي بخنجرك ما تشائين فاننا إذا لم نأخذ ابنك اليوم أخذناه غداً وهو يكرهك على الخضوع لنا مقي بات في ايدينا .

قال هذا وتقدم منها خطوة فوقف فجوليا في موقف الدفاع فقال لها : أجيبي اتخضعين لنا ؟

- كلا .

-- لم يبق علي لوم ، فقد حذرتك .

ثم انقض عليها انقضاض الصاعقة غير مكترث لخنجرها فجعلت تصيح وتستغيث وتضربه بخنجرها بيد مضطربة وجرحته بذراعه وكتفه جراحاً اسالت دمه على ثيابه فهاج برديتو لمنظر الدماء وحمل عليها حملة منكرة وهي تصيح وتطعنه حق قبض على وسطها والقها إلى الأرض .

وعند ذلك سمع وقع خطوات الخدم وقد أسرعوا منذرين لصياح مولاتهم وجردوا من خنجرها ، وأغمده في صدرها وهو يقول : انك لا تبوحين بشيء على الأقل .

ثم أسرع إلى النافذة فهوى منها إلى الحديقة وتوارى عن الأنظار .

أما الخدم فقد جاءوا بعد فوات الأوان فلم يستطيعوا القبض على القاتل ووجدوا سيدتهم غارقة بدمائها ويدها ممدودتان إلى مهد طفلها كأنها تحاول ان تحميه حتى بعد الموت .

الفصل الثاني عشر من كتاب الفيروزة

بينما كانت خادمة غرفة جوليا تحاول إنهاضها، وثب أحد الخدم من النافذة في أثر القاتل وجعل يستغيث، ولكن المنزل كان معزلاً فلم يسمع صياحه أحد وكان برديتو قد احتجب .

أما جوليا فلإنها كانت لا تزال حية فلما سمعت صياح الخادم قالت لخدمتها: نأيه لا فائدة من صياحه .

وكان الدم ينصب غزيراً من جرحها، فتمكنت الخادمة من إنهاضها فأجلستها على كرسي وقالت لأحد الخدم: أسرع واثبتنا بطبيب .

فأوقفته جوليا وقالت إن جرحي قاتل لا تنفع فيه حيلة الأطباء فاففلوا النوافذ والأبواب واصغوا إلي

وكان الطفل نائماً في مهده نوم الملائكة فقالت جوليا: إني قد أعيش ساعة بعد فاجتهدوا أن تسدوا الجرح بما يمنع سيل الدماء .

فأخذت الخادمة منديلها وضمت جرحها، فنظرت جوليا نظرة حنو إلى طفلها وقالت لمن حولها من الخدم أحرصوا عليه كل الحرص إلى أن يعود المراكز دي مورفر ولا تفارقوه لحظة حتى يأتي .

وكان صوتها يخفت وبدأت قوتها تتلاشى فنظرت إلى الخادمة وقالت لها: إنك تجدين في عنقي مفتاحاً صغيراً، وهو مفتاح صندوق صغير في غرفتي فإذا مت إنزعيه من عنقي واعطيه للمراكز، وقولي له إنك تجد في الصندوق إيضاح السر .

وكان هذا آخر ما قالته فتلاشت قواها وتجمعت حياتها في عينيها التي كانت تنظر بهما طفلها النائم ثم أطفئ نظرها وأطبقت عيناها فأدركتها الوفاة وعادت تلك الروح إلى مبدأها .

وجعل كل من أولئك الخدم ينظر إلى رفيقه نظرات تدل على الرعب،

وكانوا حديشي المهد بخدمتها ، فلم يتعلقوا بها بعاطفة الاخلاص . غير انهم كانوا شاعرين بشغل وطأة تبعة هذه الحادثة عليهم ، فجعلوا يتساءلون عما يجب أن يصنعوه .

فقالوا إن سيدتنا أوصتنا بالحرص على الطفل ، وهو ما يدل على ان الطفل معرض للخطر . وإذا بقينا بقربه ، ألا نتعرض نحن أيضاً لهذا الخطر ؟

فاعترضتهم الخادمة وقالت : لقد وعدنا هذه السيدة القتيلة أن نحمي طفلها وان لا نبرح هذه الغرفة حتى يأتي المركيز .

فخرج الخدم حين رأوا تحمسها وحملوا القتيلة الى سريرها وعادوا الى الغرفة التي كان فيها الطفل . فلم يطل انتظارهم حتى سمعوا وقع حوافر جواد فأيقنوا أنه جواد المركيز .

ودخل المركيز الى ذلك المنزل وهو يتوقع أن يرى جوليا في الدار ، فلم ير أحداً .

وكان الخدم حين حملوها الى غرفتها مروا بها من الدار ، فسالت دماؤها عليها . ولم يكن هناك نور فشعر المركيز ان قدميه تدوسان فوق مادة سائلة . فأخذ علبة الكبريت من جيبه وأشعل عوداً من عيدانها ، فرأى الدم وصاح صيحة منكرة وجعل ينادي جوليا فلم يجبه أحد .

فأسرع عند ذلك الى غرفتها ، وفتح بابها بيد تضطرب ، فوجد شمعتين منارتين حول سريرها ، ورأى حميسته مسجاة على السرير مائتة لا حراك فيها . فأيقن ان أحد هذين الرجلين الخفيين قتلها ، فتهدد الساء بقبضته وأقسم على الانتقام من قاتلها وكانت ساعة يأس هائلة .

ثم جاءه الخدم وأخبره بما كان وأعطته الخادمة مفتاح الصندوق فأمر الخدم ان ينصرفوا الى غرفهم وأخذ الصندوق ففتحه وأخرج منه كتاباً مختوماً مكتوباً على غلافه هذا العنوان

(إن هذا الكتاب الى غوستاف دي مورفر الذي طالما أحببته بعد وفاتي ولا يحق له فتحه ما زلت في قيد الحياة) .
 وجلس المركيز على كرسي بجانب سرير القتل ، وفض الكتاب وقرأ فيه ما يأتي

(حبيبي غوستاف)
 كنت كل ليلة حين تفارقني أخاف ان لا يكون بعد الفراق لقاء فينقبض صدري ويستولي علي رعب شديد .
 إني محكوم علي بالقتل ، أيها الحبيب ، وإنما هم يريدون قتلي لأنني عصيتهم فيك .
 ألم تسمع بشلك الجمعيات السرية التي كانوا يدعونها في المصور الوسطى بجمعيات القضاة الأحرار ؟

إن قوانين هذه الجمعيات كانت تقضي بإعدام كل من لا ينفذ أوامرها إذا ما عينته لقتل عدو لها .
 وأنا أصبت بهذا الحكم لأنهم أمروني بقتلك ولكنهم لم يريدوا ان تموت موتاً سريعاً بل موتاً بطيئاً سرياً فعصيتهم وكنت أقسمت لهم على تنفيذ أوامرهم فنكثت بهذه اليمين .

وبدلاً من ان أقضي عليك ذلك القضاء الهائل أحببتك وعبدتك وكان قلبي يحدثني اني سأموت من أجلك وفي سبيل هواك .
 ولقد خدعتك يا غوستاف شهراً كاملاً وكذبت عليك لأنني لم أكن تلك المرأة المسكينة التي يضطهدها زوجها وأخوها كما قلت لك ، لان ما حدث يوم لقيتني في الشانزليزيه لم يكن غير فجع نصبناه لك

ويا ليتك لم تمر تلك الليلة في تلك الساعة ويا ليتني لم أراك فمن يراك ولا يهواك وانت علي ما عرفتك به من النبل والجمال ؟
 اني كنت من شر خلق الله نفساً وأدباً، فلما أحببتك ظهرت نفسي من آثامها

وتمثل لي ذلك الاثم الفظيع الذي عهد الي تنفيذه بأقبح الصور . فأنتفت من الجرائم كأنني لم ارتكبتها في حياتي .
ولو علمت ماضي سيرتي وكيف اتصلت بأولئك الذين استخدموني لقتلك العجيب مما طرأ علي من الانقلاب .
وهذه خلاصة سيرتي فاسمعها :

لاني في جميع ما رويته لك من الأكاذيب لم أكن صادقة إلا فيما رويته لك عن أصلي فأني بلجيكية وقد ولدت حقيقة في بروكسل .
وبدء سيرتي أن أحد الألمان اختطفني وأنا في السادسة عشرة من عمري وكان يحبني حب جنون فأنتفق علي أموالاً كادت تذهب بثروة أهله .

وكان في مقتبل الشباب فلما رأى أهله ما فعل بسببي فصلوه عني وحبسوني في أحد السجون عامين .

ثم خرجت من السجن فعدت الى بلدتي فقيرة معدمة ولم يكن لي أهل ولا أصدقاء ، فنزعت منازل الفساد وسرت أقبح السير . فبدأ سواد تاريخي منذ ذلك العهد .

ثم برحت بروكسل الى باريس ، وبرحت باريس الى هولاندا مع رجل كان يعيش عيشة السعة ويدعو نفسه الكونتيت وحقيقة أمره انه كان رجلاً يهودياً من فيلنسيا برع براءة عظيمة في سلب باعة المجوهرات .
وكان لديه عصابة منظمة لا تحالف أمره ، فتسير معه الى عواصم أوروبا ويرتكبون فيها أقبح المنكرات .

وقد كنت خليفة هذا الرجل ولكني كنت أجهل جرائمه وأحسب أنه حقيقة من الأشراف فكان يحسب الناس انني امرأة له .
فاتفق أننا كنا مرة في لاهاي ، فذاع خبر سرقة محل من أعظم محلات باعة الألماس .

ولم يكن من سبيل الى الظن بالكونتيت لاتصاله بالعائلات الكبرى

ورفعة منزلته ولكن أحد رجال عصابته خائنه ، إذ لم ينل ما يستحقه من الغنيمة ، فهرب من هولاندا بعد أن ترك كتاباً لرئيس البوليس يخبره فيها بتفاصيل السرقة .

وفي اليوم التالي كبس البوليس المنزل الذي كنا فيه فوجد المجوهرات المسروقة وقبض على هذا الكونت الكاذب وعلى من معه ، فحاولت إثبات براءتي ولكنهم لم يصفوا إلي وبعد التحقيق علموا أن هذا الكونت يهودي من لصوص فيليسيا وإني شقية من بنات الهوى .

وقد صدر الحكم علي وعليه بالسجن وبالكفي في الكتف إشارة إلى جرائمنا إنما كان الحكم علي شديداً لا يحتمل ، فقد كان منه انه بعد ان يكوي كتفي بتلك الإشارة الخاصة بالمجرمين ، أنفى الى إحدى المستعمرات وأزوج على الكره مني بأحد المجرمين المنفيين ، وهو حكم هائل لو وجدت سبيلاً للانتحار حين صدوره لفعلت .

والعادة في هولاندا ان تسفير المجرمين الى المنفى يجري مرة كل ثلاثة أشهر وقبل السفر بليلة يحضرون آلة السكي الى السجن فيحتمونها بالنار ويكون المجرم الذي يريدون تسفيره أمام المسجونين .

فأقمت في ذلك السجن أحد عشر اسبوعاً أنتظر ذلك العقاب الهائل في سجن فسد هواؤه ، وقل الطعام فيه . فكنت في أسوأ حالة من القنوط . غير ان رفيقاتي في ذلك السجن المظلم ، كن يقضين النهار والليل ضاحكات لاعبات ، يترنن بالأغاني والأناشيد ، كأنهن في حفلة طرب ، بل كن يتغزلن بأولئك الأزواج الذين سيتزوجن بهم في المنفى ، كأنهن سائرات الى نعيم .

أما أنا فكنت إذا تمثلت يد الجلاد يكوي كتفي ، وما سألاقيه في المنفى يحمد الدم في عروقي من الرعب وفيها أنا على هذه الحال أرسلت الى الأقدار شيطانة بصورة إنسان فعرضت

علي إنقاذني من السجن على ان أعدها بقتل رجل أعرفه .

ولما وصل المركز الى هذا المقطع من الكتاب خيل له انه سمع وقع خطى في الحديقة فقام الى النافذة وأطل منها فلم ير أحداً فحسب نفسه واحداً لا اضطرابه وعاد الى الكتاب يتم تلاوته فقرأ ما يأتي :

إن هذه المرأة التي اقترحت علي هذا الاقتراح كانت تلقب المصرية ، وهي في الثانية والعشرين من عمرها بارعة الجمال ، وكانت مسجونة مثلي ومحكوم عليها كما كان محكوماً علي . إنما لم يعلم أحد منا نوع جريمتها التي سبقت من أجلها الى السجن .

ولما جاء مأمور السجن ، وأبلغنا ان موعد كي أكتافنا غداً ، شعرت بخوف هائل ، وتمكن مني الذعر فجعلت أبكي بكاء شديداً وأعض كفي من اليأس .

فدنت مني تلك التي يلقبونها بالمصرية ، وقالت لي وهي تبتسم : يظهر انك خائفة .

كيف لا اخاف وموعد تنفيذ العقاب غداً ؟

فتمننت بي هنيئة ثم قالت لي : إنك بارعة في الجمال ولا بد ان تكوني فتلت كثيراً من القلوب .

فأجبتها : ولكني سيقضى علي غداً ! ولا احسب اني أحيى الى تنفيذ العقاب .

بماذا تكافئيني إذا انقذتك من السجن ؟

— أهبك حياتي واسفك من أجلك دمائي بشر ان لا يسمني الحلال وان لا ينفوني الى مستعمراتهم فيروجوني بأحد اللصوص .

فنظرت إلي نظرة طويلة ثم قالت : ألدبك سر مقدس تقسمين به فلا تنكثين ؟

— ليس لدي أقدم من تذكاري امي التي توفيت حين ولدتي .

— تريد النجاة ؟
— لا أريد سواها ولكن من عساه ينقذني ؟
— أنا !

فنظرت اليها نظرة اندهال ، ثم غلب علي الشك بأمرها وحسبتها تهزأ بي . فعدت الى البكاء وقلت لها : ولكنك سجيننة مثلي فكيف تستطيعين إنقاذي ؟
— إنني انقذك وأنقذ نفسي

وقد قالت لي هذا القول بلهجة تبينت منها الجذ فأجبتها : إذا اشترطي علي ما تشائين . إنني أرضى بما تقترحين .
— أقسمين على الوفاء ؟
ورفعت يدي وحارلت ان أقسم فأوقفتني وقالت : لا تقسمي الآن إذ يجب ان نعلمي قبل القسم ما أريده منك .
— تكلمي إنني مصفية اليك .

— لي عشيق يهواني ويفار علي غيرة شديدة حتى انه ليقتلني اذا نظرت الى سواه ، وأنا أهواه كما يهواني . غير ان له عدواً شديداً نغص عيشنا وقد اقسمنا على قتله .

ولكن طريقة الموت التي أعدها له لا تتم الا عن يد امرأة تحمله على الوقوع في شرك هواها وهي ميتة بطيئة هائلة .
وقد عرضت نفسي لهذه المهمة فرفض طلبي باحتقار وقال لي : انه اذا لمس يدك فإنني اقتلك قبله .

ولنما رفض طلبي لشدة غيrote علي وشغفه بي . فهل تريد ان تكوني تلك المرأة التي نطلبها ؟

فارتعشت لهذا الاقتراح وقلت : ما هذه الجريمة التي تعرضينها علي انما عزيمة هائلة ؟

فقلت لي ببرود . اذا أبيت الامتثال لنا اني أجد كثيرات يقبلن بشرطي
بين هؤلاء السجينات واني امهلك ساعة فاختاري بين ما نعهده لك الحكومة من
المقاب وبين ما اعده لك من النجاة .

فاضطربت ونازعت نفسي الى ان تمثل لي ذلك الجلاد بناره فذعرت وهانت
لدي الجرائم .

وبعد ساعة عادت تلك المرأة وقالت : ان الصباح اوشك ان ينجلي وقرب
وقت مجيء الجلاد فوافقيني على النجاة قبل فوات الأوان .

فتغلب الرعب على عواطفني وقلت : اني ارضى بما تريدن .
ثم أقسمت لها على الوفاء والخضوع مدة سنتين لها ولعاشقها وشيخ هو
صديق العشاق فقلت لي : إذا قري بالآ ، فستخرجين من هذا السجن
بعد ساعة .

فانذهلت وقلت : كيف يكون خروجنا ؟

-- انه سهل ميسور . فإننا رشونا السجن بالمال الجزيل وسوف ترين اننا
نخرج منه دون ان يعترضنا احد كما يخرج المرء من منزله .

وقد وفت بوعدها فلما غادرتني هنيئة ثم عادت إلي وقالت : أسرعي فقد
حان موعد قدوم الجلاد .

فاضطربت لذكر هذا الاسم وخرجت معها متأبطة ذراعها الى ردهة
السجن فلم يعترضنا احد ثم دنونا من السجن وانا لا أصدق بالنجاة ، ورأيت
السجن قد غص نظره كأنه لا يرانا

فخرجنا وقد بدأت اشعة الصباح تنجلي ، وركبنا مركبة وانطلقنا بها الى
الميناء وركبنا قارباً صغيراً وسرنا به الى سفينة شرعية كبيرة كانت متأهبة
للمسير فاستقبلنا فيها عاشق تلك المرأة . وسارت بنا السفينة الى فرنسا فبلغناها
بعد ثمانية ايام .

وبعد شهر عزم اولئك الأشقياء على قتلنا فظيعاً ، لا يخطر في

بالأبالسة .
أتريد ايها الحبيب ان تعرف كيف كانت طريقة هذا القتل الهائل ؟
إذا فاسمع

* * *

وكانت الصفحة قد انتهت عندما وصل بالقراءة الى هذا الحد . وبينما هو يقلب الصفحة التي بعدها ليقف على حقيقة هذا السر الرهيب سقط فجأة على قفاه

وذلك ان الشمعتين اطفئتا ، وسمع دوري غدارة ، وشعر بمادة مائية أصابت وجهه . فسقط على الأرض طائش الرشد ، وأفلت كتاب جوليا من يده .

وعند ذلك دخل رجل من النافذة المفتوحة ، فأسرع الى المركز والتقط الكتاب ثم عاد مسرعاً من حيث أتى قبل ان يشوب المركز الى رشده ويتمكن من النهوض .

أما ما أصاب المركز فقد كان مؤلماً وغريباً في حين واحد . ووجه الغرابية فيه أنه سقط على الأرض بقوة غير منظورة إلا انه لم يرها . واسا كونه مؤلماً فإنه شعر ان جميع جسمه كأنه قد احترق بمياه غالية ، وأحس بمادة أكالة قد دخلت في عينيه .

وقد أصيب بألم شديد حتى أنه بقي عدة دقائق ضائع الرشد لا يعي على شيء ولم يستيقظ من إغمائه إلا بعد ربع ساعة . فشعر باختناق وشم رائحة في هواء الغرفة تهيج القوي .

وكان اول ما فعله أنه أسرع الى النافذة . وهي لا تزال مفتوحة ، فاستنشق الهواء النقي وعاد اليه صوابه فافتكر بما حدث له وأيقن ان ذلك من نتائج مادة

أطلقت عليه ففعلت هذه الفعال .
وحاول أن يدنو من المستوقد ليقرع الجرس فلم يستطع للاشاة قواه ،
ولأن هذه الرائحة المقيئة قد زادت فلم يجد بداً من الالتجاء الى النافذة التماساً
للهمواء النقي
وكانت الغرفة المقيم فيها مشرفة على الحديقة والخدم يبيتون في غرفة لهم في
تلك الحديقة . فنادى أحدهم بصوت أبج فأجابه فقال له إصعد الى حالاً بمصباح
فلانور عندي .
فأثار الخادم مصباحاً ، وصعد به الى مولاه . ولكنه ما خطا خطوة
في تلك الغرفة ، حتى حدثت أعجوبة أخرى ، ارتعدت لها فرائض
المر كيز والخادم .
ذلك انه حدث انفجار عظيم والتهبت النار تلك الغرفة فجاء كأنما كانت
مملوءة من الغاز ، فعلقت النار بشعر الخادم وملابسه فترك المصباح وهرب منذعراً
وهو يصيح صياح الألم لا يلوي على شيء .
ثم علقت النار بعده بالمر كيز دي مورفر ، لكنه لما رأى ان الغرفة يحملتها
قد التهمت وأنها أصبحت كالنور ، أسرع والقى بنفسه من النافذة الى الحديقة
فوصل اليها سالماً وأطفأ ما علق بشيا به من النار .
لكنه على ما أصابه من هذه الكوارث الفجائية لم يفقد رشده ففكر بطفله
وركض الى الغرفة التي كان نائماً فيها ، فوجده في مهده ورأى الخادمة جالسة
بقربه وهي لا تعلم ما حدث .
فأخذه من مهده وخرج به فتبعته الخادمة ، ولو تفاقل عنه هنيهة لذهب
فريسة للنار .
وامتد اللهب بسرعة من غرفة الى غرفة حتى التهم المنزل يحمله وباتت
تلك القميلة المسكينة كتلة من رماد .



وقد مضى زمن طويل على تلك الحادثة الماثلة التي خفي سرها على المكينز الى أن ذهب عنه تأثير وراق باله فذكر أنه قرأ مرة في إحدى الصحف الهولندية عن اختراع علم من سر ذلك الحريق .

وهذا الاختراع هو ان احد علماء هولندا اكتشف طريقة لصيد الطيور بالبنادق دون ان تقتل او تجرح او تصيب بأذى .

وذلك انه يحشو البنادق بالبارود حسب العادة المعروفة ، ثم أنه بدلاً من أن يضع فوق هذا البارود قطعاً من الورق والقماش حسب المعتاد ، يضع قطعة من الشمع تسد مخرج البارود سداً محكماً ، ويملاً أنبوبة البندقية من الماء ثم يسد فم الأنبوبة بقطعة أخرى من الشمع . فتتمنع القطعة الأولى اتصال البارود بالماء ، وتمنع القطعة الثانية خروج الماء من أنبوبة البندقية ، قبل إطلاقها .

ثم يخرج بعد ذلك الى الصيد ، فاذا رأى طائراً أراد صيده وحفظه سالماً ، صوب عليه البندقية وأطلقها ، فينفجر البارود ويترد بقوته المياه . فتخرج شبه إعصار وتسقط على الطائر ، فتضيق رشده ، وتبل أجنته فلا يستطيع الطيران ويسقط على الأرض . فيأخذه الصياد حياً بفضل هذه الحيلة الغريبة .

* * *

فلما ذكر المكينز دي مورفر هذا الاختراع ، أيقن انهم أطلقوا عليه بندقية حسب الطريقة نفسها . ولكنهم بدلاً من أن يضعوا فيها ماء وضعوا مادة غازية . فلما أطلقوها انتشر الغاز بالغرفة ، ثم دخل الخادم بالمصباح فالتهب .

غير أن هذه الحيلة لم تخطر له في تلك الليلة لشدة ما أصابه من الاضطراب فلم يكن يعي على شيء

ولقد تقدم لنا القول ان هذا المنزل الذي كان يقيم فيه المريكز مع جوليا كان معتزلاً في شارع مقفر . فلما أنقذ الطفل من الحريق خرج به الى الحديقة وتطلع الى المنزل ورأى ان النار قد علقت بجميع جوانبه ولم يجد سبيلاً لاطفائها فهرع مع الخدم الى الخارج وجعلوا يصيحون ويستغيثون فأسرع الناس لنجدتهم .

ولكن النار كانت قد التهمت المنزل بحملته ، وجعلت تأكل نفسها إذ لم تجد ما تأكله .

أما جثة جوليا فقد ذهبت طعمة للنار ، كأنما الأقدار أرادت كتان سر مقتلها الذريع . وعاد المريكز دي مورفر الى منزله في باريس وقد أخذ منه الاضطراب كل مأخذ .

ثم أطلق سراح الخادمين الانكليزيين والخادمة الذين كانوا في خدمة جوليا ، بعد أن أنعم عليهم بالمال الجزيل ، وسألمهم كتان سر مقتل سيدتهم

قالت الفيروزة : وفي اليوم التالي عهد المريكز بطفله الى مريض ، فعنيت بهذا الطفل دون ان تقف على سره الهائل ، الذي لا يزال الى الآن ، من الألغاز الخفية .

الفصل الثالث عشر من كتاب الفيروزة

إني أكتب هذا الكتاب لك يا روكامبول ، لأنك موضع ثقتي . وأنت رجائي الوحيد .

انك علمت ماضي حياتي حين كنا ننغمس سوية في حمأة الجرائم والآثام ، وحين كنت وإياك آلة لتنفيذ أغراض اندريا السافلة .

وأنت تذكر دون شك تلك الضربة الهائلة التي ضربتنا إياها بأكارا فكانت
السبب في توبتنا الصادقة .
وأما أنا فإني جننت بعد تلك الضربة الشديدة فنقلوني الى مستشفى المجانين
وأقمت فيه خمسة أيام .

ثم قدر لي الشفاء فخرجت تائبة مستغفرة ، التمس عفو الله عن ذنوبي
السابقة ، وأرتقي بالعمل الشريف . وإن تلك الحسنة التي كانوا يلقبونها
بالفيروزة والتي لعبت بفرناند روشي وليون رولاند ، والتي كانت تجرح
خطرات التسميم خديها ويدهمي الحرير بنانها ، باقت عاملة فقيرة تشتغل الليل
والنهار فتعيش من كسب يديها وتنفق ما زاد عنها على الفقراء لا يشارها عيشة
الصلاح على عيشة الفجور .

إن ما لقيته من المتاعب والمشاق لم يؤثر على جمالي فكانت أبذل كل جهدي
أحجب هذا الجمال فلا أتألق بملبس ولا احفل بزيينة . ولكن كل ذلك لم يمنع
ازدحام العشاق فكانت رسائلهم ترد الي من كل صوب فلم أكرث لأحد منهم
لاعتقادي ان قلبي ماتت فيه عواطف العشق .

وكان يجوار منزلي أرملة تناهز الأربعين ، وعندها غلام في الثانية أو
الرابعة من سنه ، فاستحكت اواصر الصداقة يملنا . وكنت احسب في البدء
أن الغلام ولدها ولكنها أخبرتني انه ليس ولدها ، وانها لا تعرف اسمه ولا
أهله لان رجلاً عهد به اليها وعين لها نفقته مائة فرنك في الشهر فكانت تعيش
ولياها من هذه النفقة .

وكان يجيئها في الأسبوع رجل شاب ، يرتدي بلباس العمال ،
فيتفقد الغلام

وقد قال لهذه الأرملة : إني لست والد الطفل لكن أهله عهدوا إلى بمراقبته
والاعتناء بأمره وهم من غير هذه البلاد .

وكنت أزور جارتني في كل يوم فاتفق مرات كثيرة إني رأيت عندها ذلك

الرجل فكنت أتمن به وأتفرس في وجهه فلا أرى هيئته نوافق ملابسه الرثة ، وعلمت من يديه الناعمتين انه من أهل الترف وليس من اهل المهن في شيء . وإنما كان متذكراً بأزياء العمال لغرض من الأغراض خفي علي في ذلك الحين .

وكان صبح الوجه جميل الطلعة رشيق القوام حلو الحديث ولا يتسع المقام الآن لتفاصيل الحب فأقتصر على القول اني شعرت بعد ستة شهور اني جذبت اليه وانت قلبي تنبعت فيه تلك المواطف القديمة فأحببت هذا الرجل ، وهو الماركيز دي مورفور .

وكان الماركيز قد اسف اسفاً شديداً على جوليا وبكاها زمناً طويلاً ، ثم دملت الأيام جرحه وتحول حنانه الى غلامه . وبقي مفكراً مهموماً لانه كان يخشى على الغلام من الذين قتلوا امه ولهذا كان يتنكر بملابس العمال حين يتفقدده كي لا ينبه اليه أنظار اولئك الاعداء الذين لم يعرفهم فلا يعرفون مكان الطفل .

وبعد عام كنت اراه في خلاله معظم الايام ، فقد ماتت تلك الأرملة وعهد بغلامه الي ، فعشت معه وأحبني حباً شديداً ، وباح لي بجميع تلك الاسرار التي بقيت خفية ، ولو لم ينتزعوا منه كتاب جوليا لزال الخفاء عن كل هذه الغوامض

وكان كلما كبر الولد ونما يزيد قلق الماركيز عليه ، ويكثر اهتمامه بمستقبله وقد قال لي يوماً . اصنعي لي ، إن الذين قتلوا امه هم أعدائي ، وذلك لا ريب فيه عندي .

غير انني لا أعرف هؤلاء الاعداء فاني اعرف انه كان لي عدوان لدودان ، وهما الدوق دي فلسترنج وبرديتو وكلا الاثنين ماتا . فإن احدهما مات غريقاً والآخر أعدم شنقاً . فلا بد إذ أن يكونوا غير هذين العدوين وقد يكون أعدائي محيطين بي وانا لا اعلم اذ لا أعرف لي عدواً غير هذين .

وان لي ثروة عظيمة ولست بمزوج ، فإذا مت فجأة وقتلت دون ان اكتب

وصيقي يرث هذه الثروة الطائلة اقارب بعيدون عني يتسمون باسم عائلي لكني لا اعرف منهم احداً .
ولذلك اتخذت الاحتياطات اللازمة حق اذا مت فجأة لا يصبح ولدي من غير مال .

فقلت له : ماذا فعلت ؟

- انني اخذت ثروة الدوقة دي فنسترنج وأضفت اليها كل ما لدي من المال بحيث لم أبقى غير ما عندي من المنازل والاراضي .

وقد بلغ هذا المال الذي جمعه اربعة ملايين فرنك وكله اوراق مالية فخبأته في مكان لا يستطيع احد ان يدري به إلا انا وانت واني احب ان ادلك على المكان كي تدفعي المال لولدي اذا اصبت بمكروه .

وكانت الساعة العاشرة حين كان يقول لي ' هذا القول وكان الغلام نائمًا فقال لي : هلمي معي الى منزلي في الشانزليزيه فقد خبأت المال فيه .

وكان عندي خادمة شديدة الاخلاص فعهدت اليها بالطفل وسرت مع المركيز فركبنا مركبة وذهبنا الى منزله في الشانزليزيه .

الفصل الرابع عشر من كتاب الفيروزة

وكان للمركيز قصر في ذلك الشارع له باب خاص في شارع سيرسنس لا يدخل منه سواه ويكتنفه حديقة متسعة الارحاء .

فدخل بي المركيز من الباب الخاص واجتاز بي الحديقة ثم دخلنا الى المنزل ولم يكن فيه احد فسر المركيز وقال : يسرني ان لا يراك احد عندي كي لا ينتبه احد الى ولدي .

ثم دخل بي الى غرفة متسعة فأثار شمعة كانت على المستوقد وقال لي : يوجد

في هذه الغرفة ؛ ملايين فرنك أتعلمين اين هي ؟

- اين لي ان اعلم العلمها في هذه الخزانة ؟

- كلا .

- أفي هذا الدرج ؟

- كلا ولكنك تقضين العمر باحثة على هذا المال في هذه الغرفة دون ان

تهتمي الى مكانه .

ثم اشار بيده الى آنيتين من الاواني التي توضع فيها الاغراض المنزلية وقال

لي : ان المال في إحدى هاتين الآنيتين فابحثي عنه .

- في أيهما ؟

- لا أعلم ، ان الخدم يغيرون مواضعها في كل يوم .

فدنوت من احدهما ورفعت منها صندوق الصفيح الذي توضع فيه الأزهار

فلم ار تحته شيئاً .

ابتسم وقال لي ابحتي عليك تجدين .

حسبت انه يوجد أيضاً صندوق سري فعددت يدي وجعلت أبحث راجية

ان أظفر بلولب سري فلم أظفر بشيء .

وكان يجانب الآنية عمودان من الخشب ملتصقان بها بالظاهر فدنا المركز

من أحد العمودين فضغط على زر يشبه طابع المسمار فانفصل العمود عن الآنية

فأخذته المركز وقال لي : ان هذا العمود مثقوب من الداخل وقد خبأت فيه

المال فانظري ..

ثم ضغط على زر آخر في العمود ففتح غطاء الثقب فمد يده وأخرج لفافة من

الأوراق المالية قيمتها ؛ ملايين فرنك وبعد ذلك ردها إلى موضعها وأرجع

العمود إلى جانب الآنية فالتصق بها كما كان .

فقلت له : لقد أجدت غاية الاجادة باختيار هذا المكان لتخبئة المال إذ لا

يخطر هذا الموضع لأحد في بال ولكننا لنفرض انك مت ذلك الموت الفجائي

الذي تخشاه الا يبدأون بوضع الاختام على منزلك ؟

- دون شك .

- ألا يستولي وراثتك على ما فيه فكيف انال هاتين الانيتين ؟

- لقد اخطأت ، اني توقعت كل شيء وذلك اني كتبت وصيتي فاوصيت بجميع أملاكي وأطيانى لعائلي التي تسمى باسمي ولكني وهبت كثيراً من اصدقائي هدايا مختلفة مثال ذلك اني وهبت مكتبتي للفيكونت مونتيجرون وبمجموعة أسلحتي للبارون هينسون وهبتك أنت هاتين الانيتين باسم حنة دلاكور الملقبة بالفيروزة فتمنى أطلع وراثتي على هذه الوصية يقنعون بأموالي ويسلمون هذه الهدايا لأصحابها فتأخذي الانيتين وفي احدهما المال .

- لقد علمت الآن ، وقاك الله ما تخشاه ولا أصابك بمكرهه .

ومر على ذلك العهد عدة شهور وكان الولد يشب وينمو والمركيز يبدأ ويطمئن إلى ان ورد اليه ذات يوم كتاب من لندرا اضطربت له حواسه فدفعه إلى بعد تلاوته وقرأت ما يأتي :

(بينما المركيز دي مورفر يتنعم بمذاقه امناً مطمئناً في باريس وهو يعتقد انه ليس عليه واجب بقضيه نجد عدوه الهائل وعدو كل اسرته يهزأ به وهو مقيم في انكلترا على أتم الهناء والغبطة .

أن المركيز دي مورفر حسب أن الدوق دي فنسترنج قد مات وأكلته أسماك البحار ولكنه اخطأ في زعمه فان هذا الدوق لا يزال حياً يرزق ، وقد أوهم المركيز دي مورفر انه مات كي ينجو من انتقامه .

فاذا كان المركيز دي مورفر لم يندس اليمين التي أقسمها لأمه قبل موته واذا كان لا يزال راغباً في الانتقام لأبيه فليبرح باريس في الحال وليسرع الى لندرا فاذا وصل اليها فليذهب تواً الى خيارة الملك جورج في ناحية وينغ وليقل لصاحب هذه الخيارة واسمه كالكراف أنا ذلك الذي كتب اليه أن يحضر وهو يخبره عند ذلك أين يقيم الدوق دي فنسترنج وكيف يحده)

وكان هذا الكتاب دون توقيع فلما قرأت ما فيه حدثني قلبي أن هذا الكتاب فسخ نصب للمركيز وقلت له : أياك أن تذهب الى لندنرا انذهل لكلامي وقال : لماذا ؟

- لآني أخاف أن يكون الكتاب مكيدة .
لم يكثر لكلامي وقال إذا كان الدوق حياً كما يقولون في هذا الكتاب لا بد لي من الانتقام لأبي .
وقد بكيت كثيراً وتوسلت اليه أن لا يسافر فلم يجد البكاء ولم ينفع التوسل وسافر في الليلة نفسها .

وفي اليوم التالي وردني منه هذه الرسالة :
(الكتاب زور وكالكراف لم يفهم شيئاً مما قلت له ولم يسمع في عمره اسم الدوق دي فنسترنج سأعود في هذه الليلة واكون غداً في باريس) .
ولكنه لم يعد في اليوم التالي كما قال وتوالت الأيام وكنت أعد ساعاتها دون أن يعود .

وبعد ثمانية أيام بينما كنت مسترسلة إلى عوامل اليأس إذ دخل علي المركيز فصحت صيحة لم تكن صيحة فرح لعودته ، بل صيحة زعر لرؤياه فاني وجدته قد نحل حتى بات كأنه خيال نفسه

الفصل الخامس عشر من كتاب الفيروزة

ولقد قلت ان مورفر قد نحل وبات خيلاً وهي حقيقة لا مجاز فيها فإن لون وجهه كان يشبه الأموات ، وإذا مشى يسقط لضعفه ولا تستقر قدماه ، وقد شخص بصره واسترخت شفتاه .

ولما رأيت على هذه الحالة زعرت زعراً شديداً وقلت بالله قل لي ما دهاك ؟

ولكنه لم يحبني بل ذهب إلى الغرفة الثانية التي كان فيها ولده .
وكان الغلام نائماً فدنا منه وجعل ينظر اليه ويتأمل وجهه دون أن يفوه
بكلمة كأنه كان يلتمس من النظر إلى ولده قوة تعينه على الكلام .
وبعد حين عاد إلى وعينه مفرورتان بالدموع قد يده لمصافحتي وقال :
اغفري لي .

— عن أي شيء تريد ان أغفر لك ؟

فارتعش المركيز وقال : لا أعلم ..
ثم ابتسم ابتسام الأبله وعاد فقال : لا أعلم . اني مجنون . لا تسأليني
عن شيء الآن .. أخبرك بكل شيء .
ولم تعد ساقاه تحملانه فسقط على كرسي واهي القوى .

وأقام في منزلي مدة شهر لم يخرج منه ، وكان ذلك في زمن صيف ومعظم
أصحابه يرحلوا باريس للاصطياف فلم ينتبه أحد لاحتجابه وكان الناس يعتقدون
أنه لا يزال في باريس .
وبعد شهر عاد اليه هداه وعادت معه العافية فزال آثار البلاءة والجنون ،
وانطلق لسانه بالكلام فقال لي يوماً : اتعلمين أيتها الحبيبة اني كنت في عداد
المجانين ؟

فنظرت اليه ولم أجسر على سؤاله .

— نعم إنني كنت مجنوناً وكان جنوني من الغرام حتى نسيتك ونسيت
ولدي بل اني نسيت نفسي ولم اذكر اسمي .

والآن فقد زال والحمد لله ما كنت أشكوه على اني لا أزال اعتقد ان هذه
المرأة ليست من البشر ولا شك أنها من الأبالسة فقد سحرتني .
فاضطربت لكلامه ورأى مني دلائل الاضطراب وقال اطمئني أيتها
الحبيبة فسأخبرك بكل شيء كي تعلمي ان جنوني قد زال وعاد إلى الصواب
وهذه خلاصة ما رواه من قصتها .

انه سافر إلى لندرا من باريس في الساعة الثامنة مساء فبلغ اليها في الساعة الخامسة من الصباح واستراح هنيهة وأكل ثم ركب مركبة وأمر السائق ان يذهب إلى وينغ .

وقد ذهل السائق حين رأى رجلاً تدل ملابسه وملاحه انه من الأعيان يحاول الذهاب إلى تلك الناحية التي لا يذهب اليها غير الرعاع وقد زاد اندهاله حين أمره المركيز ان يذهب به إلى خمارة الملك جورج ، لأن هذه الخمارة كانت مشهورة لدى الخواص والعوام ، لا ينتابها غير اللصوص وكبار المجرمين .

غير انه لم يسمعه إلا الامتثال فأوصله إلى باب تلك الخمارة ودفع له المركيز أجرته وأطلق سراحه

ودخل المركيز إلى الخمارة فذهب توأ الى صاحبها كالكراف (الذي تقدم ذكره في الروايات السابقة) فقال له : أنت كالكراف صاحب هذه الخمارة ؟

- نعم يا سيدي .

- إذا أنا هو الرجل الذي تنتظره ..

وقد قال له نفس العبارة التي قرأها في الرسالة الواردة اليه .

أما كالكراف ظهر منه الاندهاش وقال له : اني لا انتظر أحداً يا سيدي .

فأخذ المركيز الرسالة من جيبه واطلعه عليها .

فزاد اندهاشه وقال . انه لا يعلم شيئاً من هذا الحديث .

- ولكن ألا تعرف الدوق دي فنسترنج ؟

- هذه أول مرة يا سيدي سمعت فيها هذا الاسم .

وكان يتكلم بلهجة تدل على الصدق لم تدع أقل مجال للشك بصدقه .

وعاد المركيز الى الفندق الذي كان نازلاً فيه وارسل الي ذلك التلغراف

الذي ذكرته من قبل .

وأقام في غرفته بقية يومه إلى أن حان موعد السفر ، وذهب إلى المحطة كي يعود إلى باريس فوجد القطار قد سافر فاضطر للانتظار الى الصباح .

وعاد إلى الفندق وقال في نفسه : لا ريب أن هذا الدوق لا يزال حياً وقد أجده في خماره الملك جورج ، فإن الرجل الذي كتب لي هذا الكتاب قد يكون أراد أن يخبر الكراف بما كتبه لي ثم حال حائل دون قصده ، إذ لا يعقل ان يكتبوا لي مثل هذا الكتاب كي أحضر فلا أجد أحداً ولا شك ان كاتب هذا الكتاب عارف بجميع أمري ولا بد إذن ان يكون في الأمر سرأ سأكتشفه في الخماره .

وكان يعلم انه لا بد له من التنكر إذا أراد الذهاب إلى تلك الخماره فإن من يذهب اليها من كرام الناس في الليل كان الخطر عليه شديداً وذهب إلى بائع ملابس فاشتري بدلة بحار قديم ثم خلع ملابسه ولبسها وبعد ساعة كان في تلك الخماره الهائلة .

ولما وصل اليها وجدها غاصة بالشاربين ورأى من فظاعة أولئك السكارى وروائح شرابهم ماهاله ولكمه صبر راجياً ان يقف على شيء من أمر الدوق فجلس على مائدة وطلب من الخادم أن يأتيه بكأس من الشراب .

الفصل السادس عشر من كتاب الفيروزه

وكان المركيز لا يرى شيئاً من حوله حين دخوله لكثرة دخان التبغ المتكاثف في تلك الخماره .

ولكن نظره لم يلبث ان الف ذلك الدخان فجعل ينظر إلى زبائن الخماره فلم يجد بينهم غير بحارة ولصوص ومومسات وكلهم يشربون ويضحكون فلم

ينتبه أحد منهم اليه لأنه كان متنكراً بملابسهم حتى ان صاحب الخماره نفسه
تظاهر انه الخدع بتنكره فلم يلتفت اليه .

وكان بين النساء فتاة ارلندية شقراء الشعر ذات جمال فضاح استلفتت اليها
جميع العميون .

وكانت تغني غناء بدوياً بصوت رخيم ، فيصفق لها الحضور تصفيقاً عظيماً
لافتنانهم بها وبصوتها ، والمركزيز ينظر اليها مع الناظرين دون ان يفهم كلمة
من أناشيدها

وكان يتطلع اليها ويشعر باضطراب كأنما عينها قد سحرته وجذبته
فؤاده بمغناطيسهما .

وكانت ظواهر الفتاة تدل على انها متسولة وانها تغني في تلك الخماره
للارتزاق . فكانت لا تنقطع عن الغناء إلا لشرب كأس يقدمه لها أحد
المفتونين بها ، فتتنظر اليهم نظرات تدل على عدم الاكتراث حتى إذا رأت
المركزيز نظرت اليه نظرة خاصة كأنما قد راق في عينيها فتكهرب جسمه
لهذه النظرات .

ثم تعود إلى الغناء فإذا انشدت نغماً حنوناً شففته إلى المركزيز فكان يفيض
من طرفه كأنه لا يطيق احتمال تلك التطلعات .

وطال غناؤها وتواترت تطلعاتها واشتد اضطراب المركزيز حتى انه حاول
الفرار خوفاً من عواقب جمالها الفتان فتحفز للقيام وكأنما أدركت قصده
فنظرت اليه نظرة تشف عن غنج ودلال فلم يطق الوقوف وعاد إلى الجلوس
حيث كان .

وتابعت الارلندية غنائها ورأى المركزيز أن يقتدي بالحاضرين فطلب كأساً
ثانية من الشراب فجاءه الخادم بما طلب واشعل له سيكارة دون ان ينتبه
المركزيز إلى نظرة سرية تبودلت بين الارلندية وبين الخادم .

ولما جعل يدخن بها أحس أن تبغها أشد مما كان تعود فلم يبال وجعل

ينظر الى الفتاة بشوق واعجاب .

ثم احس بالمحطاط عام في جسمه كان يتزايد بالتدريج كأنما هذا الانحطاط قد تولاه من تأثير عينيها ، أو من مخدر وضع في شرابه أو في النار التي أشعل منها سيكارتة .

ولم يطل به العهد على هذه الحالة حتى احس بطنين في اذنيه وتثاقل جفناه فبذل جهداً عظيماً كي يتمكن من فتح عينييه ولكنها اطبقتا وغلبه النعاس فسقط ذراعاه على المائدة ونام ، وقابعت الفتاة غنائمها وحسبه الحاضرون قد سكر ولم يكثر به أحد .

غير ان نومه لم يكن نوماً طبيعياً فإن عيناها كانتا مقفلتين ولم يكن يستطيع حراكاً ، ولكنه كان يسمع كل حديث يدور حوله ويفقه كل معانيه في حالة صحو تام .

ثم انقطعت الارلندية عن الغناء وأعلن الكراف لزائنه ان الليل قد انتصف فأمر باطفاء المصابيح وانصرف الزبائن واحداً بعد واحد واحس المركز أنه بات وحده في هذه الخمارة وحاول جهده كي يتمكن من الحركة وفتح عينييه فلم يستطع وكان كالتائم أصيب بكاپوس .

ثم سمع الكراف يقول ، لندعه نائماً .

فقال له الخدم : اليس الأولى بنا ان نلقيه خارج الخمارة ؟

ثم سمع صوتاً يقول كلا فإني سأخذه انا .

فارتعش المركز اذ علم ان هذا الصوت صوت الارلندية .

ثم أحس ان يداً قوية أوقفته وسمع الارلندية تقول : اني أعطيك مائة

جنيه إذا أوصلته إلى شاطئ التاميز حيث تنتظرني مركبتي

فبذل المركز كل ما أمكنه من الجهد كي يستفيق فلم يستطع وقال في

نفسه : اني 'حالم لا شك وإلا فكيف تكون هذه المتسولة على ما رأيتها من

الفقر ، ثم تهب مئات الدنانير ويكون لها مركبة ولا ريب إنني حالم مصاب

بكابوس وعند ذلك احس انه محمول على كتف كالكراف وانه خرج من الخماره فاستنشق الهواء النقي .

الفصل السابع عشر من كتاب الفيروزه

وكان المركيز على هذه الحال وهو لا يدري إذا كان حالماً أم مخدر .
وأحس ان كالكراف وقف وسمع الارلندية تقول : قد وصلنا .
فوضعه في المركبة التي كانت تنتظر عند شاطئ التاميز وكان سمعه قد رق وانجلى وانصرفت اليه قوى حواسه يحملتها وكان يسمع كل شيء وهو نائم نوم الأموات لا يستطيع حراكاً .
وسمع صوت السائق يقول : اين تريد ان تذهب ميلادي ؟
فأجابته الارلندية : إلى القصر .
فانطلقت المركبة تنهب الأرض يجيادها المطهمة .
أما المركيز فقد كان اندهاله عظيماً من هذه الحادثة الغريبة فانه رأى هذه الارلندية في أشد حالة من الفقر ، ثم رآها تهب صاحب الخماره مئة جنيه ثم رآها تركب مركبة فيدعوها السائق ميلادي ، وهو لقب النبيلات فكيف هذا التناقض وما كان غرضها بالننكر وأي شأن لها في اختطافه ؟
كل هذه الغرائب اشكلت عليه وشغلته حتى انه تئى لو خسر كل مساله وتمكن من فتح عينيه .
ولكن التخدير كان بالغاً منه اقصى حدوده وظلت المركبة تسير نحو عشر دقائق فوقفت وسمع المركيز ان بابها قد فتح وأحس ان شخصاً وقف بباب المركبة ودار بينه وبين الارلندية الحديث الآتي :
قال الرجل : ماذا فعلت ؟

- هذا هو فقد أتيت به .

- العلك خدرته ؟

- دون شك فانظر اليه .

- نعم هو بعينه .

فقال المركيز في نفسه اذكر اني سمعت هذا الصوت ولكنني لا اذكر أين ومضى .

وعاد الرجل إلى الحديث فقال : لو تعلمين مقدار غيرتي لما اقدمت على اختطافه .

- ما هذه الحماسة ؟

- ليس ما أقوله حماقة فاني موقن انه سيهواك .

- ربما ..

- وأنت ؟

فأجابته الارلندية ضاحكة ضحكك الساخر من قوله ثم سكنت هنيهة وقالت : يجب علي قضاء هذه المهمة التي لا يقدم على قضائها أحد .
فأن الرجل أنين المومع وقال : انما لا تنس إنك إذا نقضت عهدك أقتلك شر قتل ..

فضحكت أيضاً وقالت : اني لا أخافك .

وعند ذلك أطبق باب المركبة فمادت إلى سيرها

فزاد اضطراب المركيز لإزدیاد الاشكال وشدة تعقد هذا اللغز إذ لم يذكر هذا الرجل الذي كلمها ولم يعلم ما يريد ولم يدرك ما قصده من هذا التهديد .
وكان المركيز شجاع القلب غير انه أحس بخوف شديد في تلك الساعة فذكرني وذكر ولده .

وظلت المركبة تسير حتى وقفت عند باب فأحس ان الباب قد فتح وان رجلين أقبلا اليه فأخرجاه من المركبة وحمله فصعدا به سلماً حتى انتهيا إلى

قاعة مفروشة بالطنافس فوضعا على مقعد فيها وخرجوا بأمر الارلندية .
وعند ذلك سمع الارلندية تعزف على البيانو وتغني ذلك الغناء البدوي نفسه
الذي كانت تغنيه في خمار الملك جورج .
وبعد حين أحس المركيز أن حواسه بدأت تعود وكان أول ما عاد اليه
حاسة الشم ، فشم رائحة عطرية وجد بها لذة خاصة غريبة .



وهنا توقف مرميس عن القراءة وقال : لقد عرفت هذه الرائحة .
فقال له فاندا : كيف ذلك ؟
- عرفتها حين كنت في أسر البستانية الحسنة فانها تنتج عن ضباب كثيف
تخرج منه هذه الرائحة العطرية المسكرة ولا شك عندي الآن ان هذه
الارلندية المتسولة هي نفس تلك المرأة التي يراقبها ميلون ، أي البستانية
الحسنة بعينها .

فقال له فاندا : ربما صح قولك فأتى القراءة لنرى .
فعاد مرميس إلى القراءة وتلا ما يأتي :

الفصل الثامن عشر من كتاب الفيروزة

وكان الدخان يتصاعد في تلك القاعة التي كان فيها المركيز ويتكاثف
فيحيط به . ويلاً خياشيمه ورثته ، فيرد اليه الحياة ويشفيه تباعاً من ذلك
التخدير .

وبعد أن عادت اليه حاسة الشم عادت اليه حاسة النظر ففتح عينيه ورأى
ضباباً كثيفاً رطباً شفافاً فكان يرى من خلاله جميع موجودات تلك القاعة .

وقد رأى انه في قاعة بديعة مفروشة بأثمن الأثاث الشرقي ورأى مصباحين جميلين موضوعين فوق المستوقد .

وكانت الارلندية لا تزال جالسة على البيانو تعزف عليها تلك الألحان البدوية ، ولكن المركيز كان نائماً على مقعد وراءها فلم يروجهها وجعل يقول في نفسه : أيمكن ان تكون هذه المرأة تلك الارلندية التي لقيتها في خماره الملك جورج ؟

اني سمعت صوتها وأناشيدها فهي ذات الأناشيد التي سمعتها في خماره الملك جورج .

والصوت نفس صوتها الرخيم ، ولكن ما هذا الثوب الذي تلبسه وما هذا الجلال الذي تبدو فيه وما هذه القاعة التي أنا فيها ؟

ثم قال بصوت مرتفع وقد اشكل عليه حل هذه الألغاز ولكن أين أنا ؟

فسمعت الفتاة صوته وانقطعت عن الغناء ثم التفتت اليه فصاح صيحة دهش عظيمة وقال : هي .. هي !

وقد رأى تلك المرأة التي خلبت لبه ، لكنه لم يجدها تلك الارلندية ذات الثياب الخلفة الرثة بل رآها بظهر السيدات العظيمات وقد لبست ثوباً من الحرير الأبيض يشف عن معصمين كالمرمر وصدر كالعاج وهي تبتسم ابتساماً يفنئ الذسك فلم يتألك عن الدهشة وتريد ذكر تلك المحاسن .

كان الدخان قد تسكاثف واحس برائحة عطرية تنبعث منه فتعذر دماغه وحدث له نشوة الشارين .

أما الارلندية فإنها اقبلت اليه بتيه ودلال فمدت له يدها المترفة الناعمة وقالت السلام على المركيز .

فارتعش المركيز حين لمست يده كأنه قد مس آلة الكهربية فوثب عن المقعد وركع أمامها وقبل يديها وجعل ينظر اليها نظرة هيام ويقول لها : ما أبدع هذا الجمال !

فابتسمت له وقالت : لقد سمعت من غيرك هذا القول .
ثم أخذت كرسيًا فأدنتها منه وجلست بقربه فقالت له : ربما ظننت أنك
حالم ولكنك في أتم اليقظة فانك نمت في خمارة كالكراف واستفقت عندي .
- إني لم أكن نائمًا يا سيدي .

- هو ما تقول فانك كنت تسمع مدة رقادك كل ما كان يقال حواليك
وقد ذهلت حين علمت ان هذه الارلندية الفقيرة تهب المئات ولها قصور
ومركبات .

- هو ذلك ولكني لا أفهم شيئًا من جميع الألفاظ .
ثم جعل ينظر اليها نظرات دهش وحيرة تشير إلى ان كل ما يجري حواليه
هو فوق عقول البشر .

فابتسمت له وقالت : ألم تقرأ قصة الف ليلة وليلة ؟
- نعم .
- إذا افترض اني السلطانة شهرزاد ، وانك بدلاً من أن تقرأ حكاية مكتوبة
ترى حكاية ممثلة . ولا تسألني كيف عرفت اسمك وكيف جئت بك الى هنا فإن
جهدك يذهب سدى .

- إن جمالك الفتان يشغلني عن كل سؤال .
- إذا أنا جميلة في عينيك ؟
- بل انت حورية هربت من السماء .
- ألا تخشى ان أكون من الأبالسة ؟
- كوني كما تشائين فأنت أجمل من تقع عليه العيون .

وكان الضباب لا يزال يتكاثف ، وسكر المركيز يتزايد . فوضعت
يدها بين يديه وقالت له : أحبك .. نعم أحبك منذ عهد بعيد ، وأنت
لا تدري

فانذهل المركيز وقال : أنت تحبينني ؟

- نعم أحبك حباً ليس بعده حب .
- ولكنني لم أرك مرة قبل اليوم .
- لقد أخطأت ايها الحبيب فقد رأيتني في اسبانيا .

فانكشف المركز في الحال حجاب الماضي وتمثلت تلك الارلندية لعينيه فتاة صغيرة فذكر تلك النورية التي رآها في عصابة مينوس مع برديتو حين كان ذاهباً مع أمه الى قاديس

وكأنما تلك الفتاة عرفت من عينيه فكره ، فقالت له . أرى من عينيك انك قد عرفتني ، فإنني روميا النورية خلية برديتو . ولكن برديتو كان أخاك ، وكان يشبهك كل الشبه . وهو قد مات وأنا أحبك . أعلمت الآن ؟

ثم طوقت عنقه بذراعيها وقبلته قبله عاشق وهي تقول . ان برديتو قد مات ولكنني أقسمت يميناً لحياله .

فقال المركز وقد تمكن منه السكر . ما هذا القسم الذي أقسمته ؟

فأجابته : أقسمت ان لا أستسلم لك إلا بعد مرور عامين على وفاته ، وقد كاد ينقضي هذا الزمن ، فلا أنكث بيمني إذا استرسلت في هواك .

وكان المركز ينظر اليها نظر المفتون دون أن يجيب فقالت : واعلم أيها الحبيب إنني من بنات ذلك الشرق الذي تكثرفيه الأوهام ويتغلب الخيال على الحقيقة . فاهم نشرك معاً في التدخين بهذه النرجيلة . خذ ، إنها ذات أنبوبتين .

ثم وضعت أحد الأنبوبتين في فمه وقالت له : لشرب ، إني أريد .

ولم يبق للمركز إرادة لدى هذه الفتاة فجعل يدخن فيملاً دخان الحشيش والأفيون رقتيه .

وذهبت روميا وغادرته صريع سكره في تلك الغرفة ، وكانت يخال له

وهي بعيدة عنه ، انها معانقة له . فيقبل الهواء وهو مطبق العينين لسكره ،
ويعتقد انه يقبلها ويخاطبها بأرق الفاظ الغرام .

الفصل التاسع عشر من كتاب الفيروزة

قالت الفيروزة : إني أنا التي أخبرت المريكز عن مدة أسره في قبضة روميا
ولولاي لما عرف شيئاً من هذا ، لان الأفيسون قد أثر به تأثيراً شديداً وأصل
صوابه . فكانت تمر به الساعات دون ان يشمر وهو لا يعلم اذا كان حبه لروميا
في البقطة أم في الحلم ، ولا يدري اذا كانت هذه المرأة حقيقة أم خيال . وهذا
ما يحدث لكل من يشرب الأفيون .

وكان كلما صحا من سكره يعتقد اعتقاداً راسخاً ان روميا تحبه ، ثم تعود
وتسقيه من ذلك السم الزعاف فيعود الى غيبوبة السكر .

وبقي على ذلك سبعة أيام وهو لا فرق عنده إذا حضرت أم غابت لأنها كانت
ممثلة له بكل نجيل ، تناغيه بلفظها الحنون وتشنف سمعه بصوتها الرخيم ، وفي
هذه الأيام السبعة لم يذق طعاماً ، لأن من يشرب هذا النوع من المسكرات قلما
يتناول الطعام .

وكانت روميا تنزع الأنوبة من فمه من حين الى حين ، وتطعمه حبة مصنوعة
من مادة مخدرة فلم يذكر انه دخل الى فمه غير هاتين الحبتين في جميع
تلك المدة .

ثم انقضى هذا الحلم في صباح يوم ، إذ صحا عند الفجر فشعر ببرد شديد
ورأى نفسه ملقياً على أرض كثر فيها الجليد وهو بملابس البحارة على مثل ما
كان عليه في خماره الملك جورج .

والمعجب ان اللصوص لم يسلبوه عدة نومه ، وهو ما يعد عجباً في لندرا .

فقد كان في جيبه مائة جنيه ذهباً وأوراق مالية ، وكان لابساً ساعة بسلسلة من الذهب فبقيت في جيبه ولم تعد اليها يد السارقين .

غير ان المركيز لم يذكر شيئاً من ذلك ، فإنه بعد ان مر به سبعة أيام لا يتغذى إلا بالحشيش والأفيون أصبح معتوهاً أبه ، فلم يذكر عند صحوه غير روميا وبقي يناجيها وهو يعتقد انها لا تزال وإياه .

ومر في ذلك الحين بوليس ورأى ظواهر بلامته وسمع أقواله ، فحكم عليه بالجنون . وسار به إلى دائرة البوليس فحكم البوليس بجنونه ايضاً ، وقرر إرساله الى المستشفى .

غير انه اتفق وجود طبيب في الدائرة رأى المركيز فعلم حالته وأنكر جنونه ، وأثبت لرئيس البوليس أن ما أصابه كان من تأثير الأفيون ، ولا حاجة الى إرساله للمستشفى . وانه إذا أرسل الى منزله شفي من تلقاء نفسه بعد بضعة أيام .

فوافق الرئيس على قول الطبيب وفتشوا جيوب المركيز علمهم يحدون أوراق تدل على اسمه فوجدوا جواز سفره وعرفوا الفندق الذي كان مقيماً فيه فأرسل اليه وعرفه صاحب الفندق .

وفي الليلة نفسها أرسلوا معه من أوصله الى فرنسا فخفف السفر شيئاً من اضطراب دماغه . ولما وصل إلى باريس كان لسانه قد انطلق بالكلام ، فدل الرجل الذي كان يرافقه على منزلي وجاءني به وقد علمت كيف وصل .

قالت الفيروزة : والآن ايها العزيز رو كما بول لم يبق لدي شيء أخبرك به سوى تمنة ما جرى للمركيز .

وذلك انه مرت ستة أشهر فشفى المركيز أتم الشفاء وعاد اليه صوابه ، بل عاد اليه زهو القديم ، ولكن خوفه على ولده كان يزيد لاعتقاده أنه له أعداء يريدون قتله واختطاف ولده . فكان يزورني كل يوم ليتفقده عندي

وكان يذهب الى النادي ، ويحضر سباق الجياد ، ولا يفوته تمثيل رواية جديدة . غير اني كنت ألاحظ منه أثر انكماش في نفسه ، على ما كان يبدو من ظواهر ارتياحه ، فقلت له مرة : ما بالك هاجساً العلك لا تزال تفتكر بهذه المرأة ؟ .

فقاطعتني وقال لي بعنف : ربما ا .

ثم تركني وانصرف وفي اليوم التالي عاد وهو يتسم ، فلم أذكر له تلك المرأة بعد ذلك .

ومضى على ذلك عدة أيام . الى أن جاءني ليلة وعليه ملامح الاضطراب الشديد ، فنظرت اليه نظرة رعب وما جسرت على سؤاله . ثم رأيته انكمف على تقبيل ولده بلهف ، فلم أجد بداً من سؤاله عن هذا الاضطراب فقال لي : إنني رأيتهما .

فدعرت وقلت : من هي التي رأيتهما ؟

— روميا ! وقد مرت بي مرور البرق في الشانزليزيه وهي في مركبة مقفلة فعرفتها وهي هي بعينها .
فما جسرت على ان أجيبه . ولبثت أنظر اليه نظرات تشف عما داخل قلبي من الرعب .

ولكنه لم يكثرث بي وعاد الى حديثه فقال : نعم هي بعينها ! وقد حاولت أن أقتفي أثرها بجوادي الى الشارع الملوكي ، وهناك احتجبت عن نظري . . إنها دون شك في باريس ... ولكن باريس متسعة فأين أجدها ؟

فاضطربت لقوله وقلت له : ايها التعس كيف تهتم بلقاءها العلك نسيت ما أصابك منها ؟

وكأنما عادت اليه ذكر ذلك الجنون فدعر وقال : كلا إنني لن أراها ولا أهتم بها .

وأقام في المنزل ثلاثة أيام لم يخرج منه لحظة الى ان قال لي لقد شغيت الآن
 تماماً ولم يعد علي أقل خطر من هذه المرأة .
 وكنا في ذلك الوقت في زمن الربيع فقال لي : أتريدان ان نسافر ؟
 - إلى أين ؟
 - نسوح في اوروبا أو نذهب الى جبال سويسرا كما تشائين .
 فتلقيت اقتراحه بالسرور لحذري من ان يرى تلك المرأة مرة ثانية في باريس
 وقلت أسافر معك الى حيث تشاء .
 - إذآ تأهي للسفر فسنسافر غداً .
 ثم تركني وانصرف الى النادي .
 وكان آخر العهد به وأسفاه ، فقد جاء الغد وتعاقبت الأيام دون ان يعود
 وفي ذلك العهد شاع خبر اختفائه الغريب

الفصل الأخير من كتاب الفيروزة

لقد سمعت يا روكامبول دون شك بخبر اختفائه وعلمت ان البوليس بحث عن
 المركيز في جميع انحاء المعمور ، فلم يهتد الى أثره
 وسيضيع كل جهد في البحث عنه ، إذ ليس من يعلم حقيقة ما جرى له
 إلآي ، ولكنني كنت مضطرة الى الكتان ، لاني كنت أقسمت يميناً محرجة
 للمركيز دي مورفر أن لا أذكر لأحد ولا اتكلم عنه أمام أحد ، وذلك
 لفرط خوفه على ولده ، إذ لو علم أعداؤه علائقي معه لوجدوا الولد ما عدموا
 وسيلة للفتك به
 ومضى شهر على اختفائه دون ان أقنط من رجوعه .
 على اني كنت واثقة من انه في قبضة روميا ، ولكنني كنت مترددة بين ٣

مسائل وهي هل تقتله بطريقة السكر ؟ وهل يحبها حباً أكيداً ؟ وهل مات برديتو حقيقة ؟ فلم يتيسر لي حل مسألة منها .

وكان الولد يسألني كل يوم عن أبيه فلا أدري بماذا أجيبه .
إلى ان ورد إلي بعد عهد بعيد ، كتاب علمت من طابعه انه من مرسيليا ، وعلمت من خطه انه من المريكز . ففضضته بيد ترتعش من الفزع وقرأت ما يأتي :

« أسألك العفو أيتها الحبيبة ، فإن الأقدار قد عبثت بي ، وبرائ روميا قد نشبت في ، لأن تلك المرأة التي أخشاها وأعبدتها قد تمكنت مني كما تشاء . وأنا لا أعلم اذا كانت ملاكاً أرسل من السماء ، أو شيطاناً رجيماً قد ذفنه جهنم .

قد أفرغت كل جهد الافلات من قبضتها ، فما وجدت الى ذلك سبيلاً وهي تقودني الى حيث تشاء ولكني لا أعلم الى اين

إن باخرة تنتظرننا في الميناء سندسافر عليها غداً . وقد سألتها متى نعود الى باريس فقالت : بعد عامين

لاني تركت ولدي ، وقد تمكنت من ان أكتب اليك هذا الكتاب السري خفية عن روميا لانها منعني عن الكتابة وانها لا تريد ان يعلم احد اين انا وإذا كنت ميتاً او في قيد الحياة

ولا بد ان تقلق الحكومة وأصعابي لاحتجائي ، فإني اتخذت كل الوسائل لإخفاء آثارني .

على ان الحكومة لا تهتم بالبحث عني إلا بعد عدة أيام ، لكن يجب عليك السرعة في كل حال .

إن الحكومة ستبحث عني دون أن تجدني ، فيحسبونني ميتاً ويضعون الأختام على منزلي فابجشي في جيب سترتي تجدي مفتاح حديقة منزلي ، فخذيه واذهي الى المنزل وترقي خروج الخدم منه فادخلي وخذي المال من آنية الزهر

التي أرشدتك إليها .
 وإنما أرجوك ان تسرعي بأخذ المال لأنني أشعر ان هذه المرأة قد ملكت
 فؤادي وتملكت عواطفني ولا بد لي من ان أبوح لها بكل أسرارني لأنها تريد ان
 تقف مني على كل شيء .
 أودعك وداعاً قد يكون أبدياً ، فاندبني بخفي العائر واشفقي علي ،
 وأحبي ولدي ،

(غوستاف)

وكان هذا الكتاب يا روكامبول آخر ما وقفت عليه من أخبار المركيز ،
 لكنه يكفي لحلي على الاعتقاد بأن المركيز لم يميت . أما هذا الكتاب الذي أرسله
 إلي فقد وصل الى إدارة البريد في ٢ أبريل ولم يصلني إلا في ٣٠ يونيو . وكانت
 الاختتام قد وضعت في خلال هذه المدة على منزل المركيز ، فلم أتمكن من
 الحصول على المال .

ولم يكن عندي غير ٣ آلاف فرنك وبعض المجوهرات فعشت بها عامين مع
 ذلك الغلام .

وقد تمكن مني الحزن على هذا الحبيب وبأست من لقائه وساعد الحزن
 واليأس ما كنت أعانيه من شظف العيش فمرضت وشعرت بدنو الأجل .

وأقمت عامين أنتظر رجوعه دون جدوى ، وكنت أخاف أن يكون
 قد مات . ولكن صوتاً سريعاً كان يحدثني بأن المركيز حي ، غير انه
 يعذب عذاباً شديداً يفضل عليه الموت ، وإنه لا يستطيع إنقاذه غير انت
 يا روكامبول .

فإذا تمكنت يا روكامبول من الحصول على الآيتين من منزل المركيز دي
 مورفر ، فافعل فإنك تضمن بذلك مستقبل الغلام وتطمئن نفسي فتهباركك
 من العالم الاخير .

الوداع فإني متوكة عليك ، .
 (الفيروزة)

هنا انتهى كتاب الفيروزة ، ولكن يد روكامبول قد خطت عليه هذه الحاشية وهي :

(إن الاختام لا ترفع عن منزل المركيز دي مورفر إلا متى ثبتت وفاته ثبوتاً قضائياً .

أما ابن المركيز فهو آمن الآن شر العوز ، ولا حاجة إلى التعميل لنيل مال أبيه ، ولا بأس من الصبر مدة عامين ، ثم نسمى بالحصول على الآيتين) .

فلما تمت قراءة ذلك الكتاب الغريب جعل مرميس ينظر الى فاندا وهي تنظر اليه ، فقالت له : إننا لم نقف على شيء مهم من هذا الكتاب .
- لكنني علمت منه امرأ لم يعد لدي به ريب على الاطلاق .
- ما هو ؟

- هو ان روميا والبستانية الحسناء شخص واحد
- وبعد ذلك ؟
- أما وقد باتت البستانية الحسناء في أيدينا فسنكرهما على إخبارنا بما حدث للمركيز .

وبينما هو يقول هذا القول فتح الباب فجأة ودخل منه ميلون مصفر الوجه ممزق الثياب وعليه علائم الذعر فقال : لقد أخطأت يا مرميس لأن هذه المرأة لم تقع في قبضة يدك .

فدعر مرميس وقال ماذا تقول ؟

- إن الطير قد فر من القفص

ثم جلس ميلون على كرسي وهو منهوك القوى بينما كان مرميس وفاندا ينظران اليه نظرات الاندهال .

- ٢٣ -

وكانت تلاوته كتاب الفيروزة قد طالت الى الليل في حين ان مرميس كان يسرع بغية الوقوف على النتيجة .

وكان له ثقة تامة بخضوع ميلون فلم يخطر له في بال ان ميلون يبرح المركز الذي عينه فيه لمراقبة البستانية الحسنة .

فلم يجد مع فائدة كلمة يقولها حين رأى ميلون على هذه الحالة وجعل كل منها ينظر الى الآخر .

ثم افتتح مرميس الحديث وقال له ماذا دهاك يا ميلون ؟

وكان ميلون شديد الاضطراب يتكلم ويتلعثم فلم يفهما حكايته إلا بعد الجهد وهذا بيان ما حدث له :

يذكر القراء أنه بينما كانت البستانية الحسنة مع زوجها يتفقدان الأعمال في ذلك المنزل الذي استأجراه للمصيف كما قدمناه ، دعا خادم المركبة ميلون الذي كان يسوق جيارها كما قدمناه ، إلى شرب كأس من البيرة في خمارة مجاورة للمنزل .

ويذكر القراء انه حين دخل ميلون مع الخادم الى الخمارة ، وشرب وإياه الكأس الأول أشار الخادم إشارة خفية الى العمال الذين كانوا في الخمارة فانقضوا على ميلون والقوه الى الأرض وقيدوا يديه ورجليه بالرغم عما أظهره من الدفاع الشديد .

وكان في تلك الخمارة قبو مظلم ، فأنزله اليه وربطوا فيه بمنديل ثم تركوه وانصرفوا . فبذل كل ما لديه من القوة للتخليص من قيوده ، فلم يفلح .

على أنه تمكن من تمزيق المنديل بأسنانه فانطلق صوته وجعل يصيح مستغيثاً مستنجداً . فلم يجبه غير الصدى ولم يسمع صراخه غير الذين قيدوه

لكنهم لم يقيدوه لينجدوه .
 ومضى النهار كله وهو ملقى في أرض القبو والزبد يخرج من شذقيه دون
 أن يجد وسيلة للخلاص .
 ولما أقبل الظلام رأى نوراً ينبعث من سلم القبو ثم رأى صاحبة الخمار قادمة
 اليه وفي يدها مصباح .
 فلما رآها ميلون هاج ثأره وصاح بها صيحة أرعبتها فتراجعت عنه قليلاً
 وقالت له : إن الصباح لا يجديك نفماً وخير لك ان تسمعي .
 فأنقطع ميلون عن التهديد وسألها : ماذا تريدن ؟
 أجابته . إنهم هزأوا بك وأساءوا اليك ، ولكنني أستطيع نفعك ، إذا
 كنت تريد .
 فحملق ميلون بعينيه وقال : الملك تفكين قيودي ؟
 - ذلك منوط بك .
 - كيف ذلك ؟
 - إني يا سيدي امرأة فقيرة لا أكسب رزقي إلا بشق النفس ولذلك أَرْضَى
 بالكسب كيفما اتفق مهما اختلفت وجوهه فإذا جاءني رجل وعرض علي مائتي
 فرنك فكيف أستطيع الرفض ؟
 - العلمهم دفعوا لك المال مقابل حبسك إياي في قبو خمارتك ؟
 - هو ما تقول يا سيدي . ولكن كان الشرط بيننا ان أبقىك في السجن
 الى ان تغيب الشمس ثم أطلق سراحك فأنا الآن قادمة لفك قيودك ورجائي أن
 لا تسيء إلي .
 فاحتدم ميلون غيظاً وقال تباً لك من شقية كيف لا تريدن ان لا أسيء
 اليك بعد ما بدر منك ومن أصحابك ؟
 - ذلك مو كول اليك فاذا كنت عازماً على ضربني فإني أبقىك هنا وأعود
 الى شأني .

فشعر ميلون انه أخطأ بوعيده وقال لها : لا بأس فكي قيودي وأنا أتعهد
أن أمي البك .

— لا أقنع بالتعهد بل أريد منك يميناً .

— إني أقسم بالله اني لا أمد اليك يداً .

— إني أثق بيمينك لأنني تبينت من عينيك علائم الصلاح ولكن الحرص واجب
في كل حال .

فاضطرب ميلون وقال : ما هذا الحرص ؟ العلك رجعت عن حمل
قيودي ؟

— كلا ، ولكنني سأحل قيد رجلك . ولست في حاجة الى إطلاق
يديك لتمشي .

ثم أخذت مقصاً وقطعت الحبل الذي كان يوثق رجليه فوثب ميلون واقفاً .
أما صاحبة الخمارة فقد كان خوفها عظيماً من ميلون فهربت منه حذراً من ان
يسحقها برجليه .

أما ميلون فلم يكثر لها ، إذ كان كل اهتمامه منصرفاً الى البستانية
الحسنة ليعلم اين هي فصعد الى الخمارة بسكينته ولقي صاحبته فيها فقال
لها : سيان عندي الآن إذا أطلقت يدي او أبقيتهما مقيدتين . ولكني أرجوك
أن تقسولي لي إذا كنت تعرفين من هم هؤلاء الناس الذين أساءوا إلي
هذه الإساءة .

— إني لم أكن أعرف أحداً منهم أمس وقد جاءني في صباح اليوم رجل بناء
وقال لي : أريد ان ابني العجوز ان تكسي ٢٠٠ فرنك ؟

فسألته ما يجب ان أعمل مقابل ذلك ؟

أجابني : لا شيء سوى ان تدعينا نفعل في خمارتك ما نشاء وان تسمح
لنا بقبو الخمارة .

فقال ميلون : ولكن السيد والسيدة اللذين كنت أسوق مركبتهما ماذا

حدث لهما ؟

- ألم يكونا سيديك ؟

- كلا .

- لأنني لم أعرفهما وما رأيتهما من قبل .

- وهؤلاء العمال الذين قيدوني ؟

- إنهم لم يشتغلوا في ذلك البيت قبل اليوم .

- من هو صاحب البيت الذي يشتغلون فيه ؟

- نبيل من أهل سانت جرمان .

- ماذا يدعى ؟

- الدوق دي فنسارنج .

فعلم ميلون انه لا يستطيع ان يستطلع منها فوق ما علم ، فقال لها
بلهجة تبيلت منها الصدق : إنني لا أريد بك سوءاً لأنك كنت مكرهة على
التغاضي عن هؤلاء الأشرار ، وان يجيبي ٥٠ فرنكاً فاذا حلت وثاقي أعطيتك
هذا المال .

فاطمأنت العجوز لكلامه وحلت وثاق يديه وأبت أن تأخذ المال مكتفية
بما كسبته فغادرها ميلون وأسرع الى الشارع وركب مركبة وسار بها الى منزل
البستانية الحسنة .

ولما وصل اليه نظر الى نوافذها فلم يجد أثراً للنور ، فطرق الباب ففتحته
امرأة وقالت له : ماذا تريد ؟

- أريد ان أكلّم سيدة المنزل .

- انا هي يا سيدي .

ولما رآته ينكر عليها هذا القول ، تبسمت وقالت له : العلك تريد
محادثة تلك الاسبانية ، التي كانت مستأجرة منزلي بأثاثه ، ولكنها
سافرت مع زوجها ، في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم ، في القطار المسافر

الى بلجيكا

فانصرف ميلون عنها وقد انتقم وجهه بظلمة اليأس وعاد بمركبته الى فاندا
ومرميس حيث لقيهما على ما وصفناه .

فلما سمعت فاندا حديثه انصرف فكرها الى روكامبول فقالت : إنه مضى
على سفره عامان وهو لم يعد الى الآن .

فتنهذ مرميس وقال : لو كان الرئيس هنا لما لقينا هذا الفشل ولما وقعنا
بهذا الاشكال .

وفيا هو يقول هذا القول طرق الباب الخارجي طرقة يدل على قدوم زائر
فارتعش الثلاثة كأنما قلوبهم قد اشتركت بعاطفة واحدة .

- ٣٤ -

وسكت الثلاثة هنيهة ، وكل منهم ينظر الى الآخر نظرات تشف عن
الرجاء بأن يكون القادم روكامبول . فلأنهم كانوا يعتقدون ، بعد ان
قامت فاندا ذلك النوم المغناطيسي ، أن روكامبول لا يزال حياً وقد حان
موعد رجوعه .

وكان اول من تكلم معهم مرميس فقال : العله الرئيس عاد اليينا ؟

ثم قام مسرعاً الى الباب ففتحه ودخل ذلك الزائر ، فرأى أنه لم يكن
روكامبول ، ولكنه كان رجلاً لابساً ملابس الأوروبيين وهيئته تدل على انه
من الهنود .

وكان بيده كتاب مختوم ، فالحنى امام مرميس وحياء تحية شرقية ،
ثم دفع اليه الكتاب . فما اوشك ان قرأ العنوان حتى صاح صيحة
دهش ، إذ عرف من خطه انه من روكامبول ، وكانت فاندا وميلون قد أقبلتا

في أثر مرميس
وكان الكتاب معنونا باسم فاندنا ورميس فأخذته فاندنا وأسهرت الى
فضه فقرأته وهو كما يأتي :

« أيها الرفاق
إنكم قد اطلعت دون شك على كتاب الفيروزية وعرفتم الآن من هي هذه
المرأة التي تدعى البستانية الحسنة وعلمتم ضرورة البحث عن المركيز دي مورفر
فابحثوا فقد دنت ساعة العمل .
إنك يا مرميس وانت يا فاندنا جديران بأن تكونا من أعواني فاعملا يداً
واحدة مع ميلون .

إن الرئيس من ورائكم وهو ساهر عليكم فلا تخافوا ،
(روكامبول)

ولم يكن لهذا الكتاب تاريخ ولم يكتب فيه المكان الذي صدر منه ، فلم
يعلموا اذا كان ورد اليهم من باريس او من أقاصي الهند .
فنظرت فاندنا الى الهندي وقالت له بلطف : اين روكامبول ؟ العمله
في باريس ؟

فلم يجيبها الهندي بحرف
فهز مرميس ذراع ذلك الهندي وقال له بصوت يتهدج : بربك قل لنا اين
هو الرئيس ؟

فرفع الهندي عينيه وهز كتفيه إشارة انه لا يفهم ما يقول .
فقال له مرميس : أتفهم اللغة الانكليزية ؟

فهرقت عين الهندي وأشار برأسه إشارة إيجاب فقال له مرميس : أين هو
روكامبول ؟

فلم يجيبه الهندي ، ولكنه أشار اليه إشارة علم منها أنه إما أن
يكون غير عارف بقر روكامبول ، أو انه يعرف اين هو ولكنه لا يقدر

أن يقول
غير ان مرميس لم يكتف بهذه الاشارات فقال له : ما بالك لا تجيبنا
الملك أخرس ؟

وعند ذلك فتح الهندي فمه فذعر الثلاثة ذعراً شديداً إذ رأوا هذا المنكود
مقطوع اللسان
ولما رأوا هذا المنظر الهائل قال له مرميس : من قطع لسانك ؟ العلم
الانكليز ؟
فأشار الهندي إشارة نفى .

فقال مرميس ام هم الخناقون الذين شنعوا بك هذا التشنيع ؟
فأشار الهندي إشارة إيجاب ، ثم أشار اشارات اخرى فهم منها مرميس ان
الخناقين أو شكوا ان يخنقوه وان نجاته منهم كانت من المعجائب .
فقال له مرميس : من الذي انقذك من محالبهم ؟
فوضع الهندي يده على كتاب روكامبول إشارة على انه هو الذي أنقذه فقال
مرميس : والآن ألا تريد ان تقول لنا اين هو الرئيس ؟
فأشار إشارة نفى ، ثم رسم علامة الصليب على فمه فعملوا انه اقسم يميناً
على الكتمان .

فقال ميلون . كفى لا تسألوه ولنحترم يمينه وإرادة الرئيس .
فقالت فاندا بيأس : كيف ذلك ؟ أياكون الرئيس قريباً منا ولا نستطيع
أن نراه ؟

أما الهندي فانه انحنى امامهم وانصرف .
فقالت فاندا : لا بد لي ان أعرف اين ذهب .
ثم دخلت مسرعة الى غرفتها فلبست قبعتها وخرجت في أثر الهندي لكنها
لم تدركه إذ كان قد توارى عن الأنظار .
فقال لها مرميس حين عودتها : لقد أخطأت في اقتفاء آثاره لان الرئيس لم

يكتب لنا إلا لأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يرانا فلنمثله ونبدأ في كشف الظلمات عن سر اختفاء المركيز دي مورفير .

والآن ، فان فاندنا ومرميس قد وقفا على كتاب الفيروزة فعلمنا منه حقيقة أمر البستانية الحسناء واتصالها بالمركيز انما بقيا جاهلين ما جرى لهذا المركيز وهو ما طالما سعى اليه البوليس وأهل باريس .

وسنتولى كشف هذا السر للقراء فنعود بهم إلى عهد عامين من قبل أي منذ خرج المركيز دي مورفير من نادي أسبرج إلى منزله فاعطاه البواب ذلك الكتاب الذي يذكره للقراء فاختلفى بعده ذلك الاختفاء .

- ٢٥ -

عندما تناول المركيز الكتاب من يد البواب وتعمن في عنوانه ارتعش إذ رأى خطه يشبه خط ذلك الكتاب الذي ورد اليه قبل ذلك بشهرين من لندرا .

ورأى من الطابع أن الكتاب وارد من لندرا أيضاً فزاد اضطرابه وأسرع إلى فضه فنظر إلى التوقيع فقرأ اسم روميا .
وقد اصفر وجهه حين قرأ اسم هذه المرأة ولم ينس بعد ما أصابه منها وقرأ الكتاب وهو كما يأتي :

(حبيبي غوستاف

غداً يمر عامان على موت برديتو فاصبح حرة وحق لي أن أهواك .
إذا كنت لا تزال تهواني اخرج من منزلك دون أن تدع أحداً يعلم إلى أين أنت ذاهب واذهب الى شارع مدلين تجد في اول منعطف منه مركبة اجرة ذات جوادين احدهما اسود والآخر أبيض ونمرة المركبة ١٧٦٣ اصعد اليها

وقل للسائق أن يسير بك الى شاليون فلا يمر بك بضع دقائق حتى تغدو بين
ذراعي من تحبك الى الموت) .

(روميا)

وبينما كان المركيز يقرأ الكتاب كان البواب قد ذهب الى غرفته فلم ير
اضطراب المركيز .

فلما أتم تلاوته تردد حيناً وذكر الفيروزة وابنه ونازع قلبه حبهما وحب
روميا فكان الفوز لهذه الفاتنة فنادى البواب وقال له : اني ذاهب وقد لا
أعود قبل صباح غد ، ثم ذهب الى حيث دفعت به الأقدار .

وكان يمشي بخطوات سريعة مضطربة وهو كأنه مصاب بحمى حتى وصل
الى المكان الذي عينته له روميا فوجد تلك المركبة بعينها وعرفها من جواديبها
ونمرتها فدنا من السائق وقال له : الى شاليون .
علم السائق انه هو الرجل المنتظر وقال له : تفضل .

وصعد الى المركبة فصعد المركيز وسارت به تقطع الأرض نهياً وكانت
المركبة محكمة الأقفال وزجاجها مدهون بدهان أبيض منعه أن يكون شفافاً
بحيث لم يعلم المركيز الى أين يذهب به السائق غير انه لم يكثرث لشيء من
ذلك لشغفه بتلك المرأة ولاعتقاده انها مكتنفة بالأسرار ، وما زالت المركبة
تسير حتى شعر بعد نصف ساعة انها وقفت ، ثم سمع صوت فتح باب كبير
فدخلت منه المركبة وأقفل بعد دخولها وعند ذلك وقفت ودنت خادمة من
بابها وفتحته وقالت له : تفضل واتبعني يا سيدي المركيز .

فخرج المركيز من المركبة فرأى انه بوسط حديقة باسقة الأشجار وفي نهاية
الحديقة منزل جميل ، ثم سار في أثر الخادمة فصعدت به الى الدور الأول
من المنزل وأدخلته الى قاعة ، ثم قالت له : تفضل يا سيدي فارت السيدة
ستحضر قريباً .

فجلس المركيز على مقعد من مقاعد تلك القاعة وأجال فيها نظر الفاحص

رذهل مما رآه إذ أن هذه القاعة كانت تشبه القاعة التي كان فيها مع روميا في لندرا شبيهاً غريباً ، كأنها قد نقلت من لندرا إلى باريس ، وأغرب ما رآه مصباحان كانا على المستوقد ، كانت تنبعث منهما نفس تلك الرائحة العطرية المسكرة التي شمها وسكر منها في قاعة لندرا .

ولما ملأ الدخان رثتيه وبدأ السكر يتمكن منه دخلت روميا فلم يراها أبجل مما رآها في تلك الساعة وأسرع إليها وهو يتهادى من سكره ، فابتسمت له ابتساماً أضاع رشده ، وجلست معه على مقعد واحد فنظرت إليه نظرة عاشق مفتون وقالت وهي تبتسم : اني لا أستطيع أن أحبك قبل الغد في مثل هذه الساعة .

وركع المركيز أمامها وقال : كيف أصبر إلى الغد ولماذا ؟

— إن غداً سيكون يوم مرور عامين على وفاة برديتو ، ألم تقرأ كتابي ؟
— قرأته وأنت تقولين فيه غداً أكون لك ، ألم يكن تاريخ الكتاب أمس ؟
— هو ذاك ولكني لم أعتبر تاريخ كتابته ، بل تاريخ وصوله إليك .

فقبل يدها بلهف وقال : إن ساعات هذا الغد تعد بالأعوام والعصور ومن لي بهرورها .

وكان السكر قد تمكن منه وبدأت دلائله بتلثم لسانه وانقاد عينيه ، ولم يكذب يقول هذا القول حتى افلتت منه فجأة وقالت بلهجة المضطرب : ويلاه ان خوفاً شديداً .

فاضطرب المركيز وقال على م الخوف أيتها الحبيبة ومن مخافين ؟

— لا أستطيع أن أقول ... كلا لا يجب أن تعلم ... ولكنني لا أستطيع أن اكتم أمراً عنك .. ويلاه يخال لي انه معنا في هذه الغرفة ... اني أشم رائحته .. اني أشعر بأنفاسه تحرقني . وأرى نظراته تنفذ إلى قلبي كالسهم .

فاضطرب مورفر وقال : من هو هذا فلاني لا أرى أحداً .

- برديتو .
- ألم تقولي لي انه مات منذ عامين ؟
- عامان ينقصان يوماً .
- إذا اطمئني فإن الأموات لا يبعثون في الأرض .
- إن هذا اعتقادهم أهل الكتب المنزلة ، أما أنا فلست منكم واعتقادي ان الغيرة إذا اشتدت تبعث العشاق من القبور
- ولكن برديتو ليس له قبر .
- كيف ذلك ؟
- ذلك انه شئق ولم يدفن فكان قبره بطون العقبان .
- فزاد اضطراب روميا ووقفت منزعرة وقالت : اني أشم رائحته .. انه هنا . إن أنفاسه تهب على شعري .
- اطمئني أيتها الحبيبة فإن الأموات لا يتنفسون .
- هوذا عيناه تنظران إلي نظر الحقد والوعيد .
- إن الأموات لا ينظرون فاهدأي .
- إني أراه ، بل أسمع دقات قلبه .
- قلت لك اطمئني أيتها الحبيبة فإنها خيالات تمثلها لك الأوهام ومضى كان للأموات قلوب تنبض ؟
- ثم هاج اضطرابها ، وهاج ثائر غرامه فقام اليها وضمها إلى صدره ضمّاً عنيفاً وللحال اصفر نور المصباحين ، وسمع في تلك الغرفة قهقهة شديدة لم يعلم المركيز مصدرها لأنها كانت تسمع من كل مكان .
- فقابلت روميا هذا الضحك السري بصياح الرعب ثم انطفأت الأنوار وانقطع الضحك
- وظهر فجأة في تلك الغرفة لهب أحمر تحول بعد ظهوره إلى لون بنفسجي ثم أبيض ، وظهر في وسط هذا اللهب خيال أسود .

وكان هذا الخيال خيال برديتو وسمعه المركيز يصيح بروميا ويقول لها
احذري أيتها الخائنة .

- ٢٦ -

كان المركيز باسلا ، ولم يكن من أهل الأوهام ، ولكنه شعر بأن الدم قد
جمد في عروقه لما تولاه من الرعب ، فأفلتت روميا من يده دون أن يمنعها ،
وصاحت صيحة منكرة وهربت فتبعتها صوت الخيال يقول : إحذري
ايتها الخائنة .

ثم تحول النور الأبيض إلى نور بنفسجي ، ثم احمر ، ثم تلاشى ، فسادت
الظلمة في الغرفة ، واختفى الخيال ولم يبق غير ذلك الدخان وتلك
الرائحة العطرية .

وجعل المركيز ينادي روميا ، ولكنها لم تجب وحاول أن يخرج من الغرفة
ولكنه لم يستطع ، فإن ذلك اللهب انبعث منه عند انطفائه رائحة كهربائية
قضت على حواسه ، فما مشى خطوتين حتى سقط على الأرض وجعل ينسادي
روميا فلم يجبه أحد .

ثم اشتدت عليه تلك الرائحة فأغمي عليه وأطبقت عيناه .
ولما استفاق من إغمائه زالت رائحة الكهرباء ورأى أشعة المصباح قد
نفذت إلى الغرفة وأحس بتخدر دماغه ، غير أنه كان مالك الرشد فقام إلى
إلى النافذة ففتحها وجعل يتنشق الهواء النقي .

وكانت تلك النافذة تطل على الحديقة التي رآها حين دخوله إلى المنزل وهي
عالية الأسوار ، فلم ير ما بعدها ، وعند ذلك تذكر تلك الليلة الغريبة التي
مرت به ، وذكر ذلك الخيال الذي ظهر له بين اللهب ، وأنه خيال برديتو .

ولم يكن لديه شك أن برديتو قد مات شتقاً مع عصابة مينوس فلم يسمعه إلا أن يعمل ظهور هذا الخيال كأعجوبة أراد الله بها أن يعاقب روميا على خيانتها .

ولقد يتفق للمرء في بعض أحواله أن فكره يضطرب حتى لا يعلم إذا كانت الحقيقة قد استحالت إلى حلم ، أو أن حلم هو حقيقة الحياة ، وهذا ما أصاب المركيز ، غير أنه ذكر تماماً كل ما حدث له في تلك الغرفة ، وأنه حين ظهور الخيال كان يضم روميا إلى صدره .

وفيا هو على ذلك إذ فتح الباب وظهرت روميا ، وصاح المركيز صيحة فرح أما النورية فقد كانت مصفرة الوجه تدل عيناها على بكائها ، فدنّت منه وقالت له : إني أكاد أجن مما حدث .

— إذن إن ما حدث كان حقيقة ولم أكن من الخالين .
— كلا أيها الحبيب فإننا لم نحلم ، وإن برديتو بعينه ظهر لنا ولا بد لنا بعد الآن من هذا الافتراق .

فركع المركيز أمامها وقال : أي افتراق تعنين فلإني أهواك ولا يفرق بيننا غير الموت

— وأنا أيضاً أهواك ولكنني أخشى برديتو .

— ما همنا الخيال أيتها الحبيبة فإن برديتو من الأموات .

— ألا تخاف الأموات أنت ؟

— إني أهواك ولا أخشى غير فراقك .

ففكرت هنيهة ثم قالت . اذكر إني سمعت في حدائتي عجائز قبيلتي تقول أن الأموات يلتمسون الأذن أحياناً بالخروج من القبور ولكنهم لا يستطيعون الذهاب إلا إلى محل معين ، وقد ظهر لنا برديتو في هذا المنزل فاذا تركناه وصح قول العجائز فهو لا يستطيع أن يدركنا في موضع آخر . إذن لنهرب .

- إلى أين ؟
— إلى حيث تريدن .
ففكرت هنيهة ثم قالت : إني أعرف مدينة لا أجد أبدع منها كأنها خلقت
للعشاق
— الملك تريد بها نابولي ؟
— هي بعينها فمتى تريد ان نسافر اليها ؟
— اليوم بل الآن لأنني لا أطيق أن أراك على هذا الاضطراب .
فهزت رأسها وابتسمت ابتسام الحزين ثم قالت : ان خيال برديتو قد انذرنا
وربما لقيت حتفي بجحك فإذا كنت أخاطر من أجلك بحياتي بل إذا كنت أهيك
هذه الحياة الاتهني أنت مثل هذه الهبة ؟
— دون شك .
— إذن أريد أن تبرح باريس دون أن تدع أثراً يدل عليك ودون أن
يعلم أحد من اهلك واصحابك أين انت فإذا وافقتني على ذلك نبرح باريس
هذا المساء إلى أن اتخذ كل احتياطاتي .
فوافقتها المركيز على كل ما ارادت ، وفي الليلة نفسها أمرت المركيز أن
يتنكر ، ففعل وذهب الاثنان إلى المحطة فسافرا إلى مرسيليا ، ولما وصلا اليها
لم يذهبا إلى فنادقها ، بل ذهبت به إلى منزل صغير معتزل مشرف على البحر
وقالت له : ان السفينة التي ستسير بنا إلى نابولي تنتظرنا في هذه الميناء .

- ٢٧ -

إن من كان الشقاء قسمته لا يرى إلا الشقاء كيف سرى ، وهذا ما
أصاب المركيز دي مورفر فقد ذهب الحب برشده فعمي عن مكائده هذه

المرأة وبات آلة بيدها تديره كيف تشاء ، فشغلته عن الافتسار بالفيروزه وأنسته ولده .

وكانت روميا قد تركته وحده في ذلك المنزل بحجة انها ذاهبة لتنفق— السفينة التي سيسافرا فيها وأقفلت عليه الأبواب .

فلما خلا المركيز في ذلك المنزل عاد اليه هداه وذكر ابنه ومع ذلك لم يخطر له خاطر الفرار من روميا لشدة شفقه بها ولكنه ذكر المال الذي عينه لابنه وقال في نفسه لا بد للفيروزه ان تستولي على هذا المال ، فان هذه الرحلة قد تكون آخر رحلاتي ، فكتب عند للفيروزه ذلك الكتاب الذي تقدم ذكره ، ولم يصلها إلا بعد شهر ، أي بعد فوات الأوان .

ولما كتب الكتاب أخذ يفكر في طريقة إرساله إلى البوسطة ، إذ لم يكن يستطيع الخروج من المنزل ، ففتح نافذة مطلة على الشارع ورأى سائساً يسير الهويناء ، وتبين في وجهه علامة السلامة والوفاء ، فناداه والقي إليه ذلك الكتاب مع قطعة من الذهب وكلفه أن يضع الكتاب في إدارة البريد ، فأخذ السائق الكتاب فرحاً بالعطية مثنياً على كرمه وانصرف .

وبعد هنيهة عادت روميا فعاد المركيز الى نسيان ولده وكل ما في الوجود حتى إذا أقبل الليل قالت له : إننا سنسافر في الليلة في السفينة ، وسنبحر المنزل بعد ساعة .

— كما تشائين أيتها الحبيبة فاني لا أخالف لك امراً .

وبعد ساعة قامت به إلى النافذة وقالت له . انظر إلى النور الأحمر انه نور السفينة التي سنسافر عليها .

ثم سمعت صفير ، فأخرجت صفارة من جيبها وصفرت بها ثم قالت له : ان هذا صفير القارب الذي جاء لنقلنا إلى السفينة فلم بنا الآن .

وخرج الاثنان من ذلك المنزل إلى حيث كان القارب فنزلا به ونحرا بها إلى السفينة فلما وصلا اليها رأي المركيز على ظهرها شيخاً عجوزاً ذو لحية طويلة

بيضاء ظهر لحة ثم اختفى فقال المركيز : إني رأيت هذا الشيخ فمن هو وأين رأيتَه ؟

وكان جميع البحارة قد أسرعوا إلى استقبال روميا باحترام عظيم يدل على أنها السيدة المطلقة في تلك السفينة ، وكانوا ينظرون إلى المركيز نظرات الاندهال ويكلمون سيدتهم بلغة سرية لم يفهمها المركيز .

فسارت روميا إلى غرفة فسيحة مفروشة بأفضل الأثاث وقالت له هذه غرفتك . ثم أقفلت الباب وقالت له هلم بنا إلى العشاء .

وبعد ساعة كان المركيز صريع سكر وغرام لا يستفيق فقرعت روميا جرساً فدخل ذلك الرجل ذو الاحمية البيضاء الذي رآه المركيز حين صعد إلى السفينة وهو يبتسم ابتسام الأبالسة .

وجلس الرجل أمام روميا وقال لها . إننا نستطيع أن نتحدث الآن فإنه لا يستفيق إلا بعد ساعتين .

— أنت واثق أنه لا يسمع حديثنا كما كان يسمعه حين اغيائه في لندرا .

— نعم فلن نخدر اليوم غير نخدر امس

فنظرت روميا إلى هذا الشيخ نظرة تهكم وقالت له إن الخدمة بأوامرك مجيدة يا أبي فلنك لست من البشر ، بل انت شيطان في صورة إنسان .

فهز كتفيه وقال إني أنتقم إذ لا أجد بداً من الانتقام .

— انتقم كما تشاء فإن هذا الرجل لا يهمني شأنه ، ولكن كل ذلك يقضي علي بالخدر منك .

— لماذا ؟

— اصغ الي تعلم فقد كنت تحب امرأتك حباً قوياً ، وقد هفت امرأتك فولدت برديتو من هذه الهفوة ولذلك يكون انتقامك من برديتو وليس من مورفر .

— هذا ما يلوح لك بالظاهر وأما بالحقيقة فلا ونعم ..

اني قتلت مورفر الذي كان والد برديتو ، ووالد هذا المركيز الطريح
عند قدميك ، ولكنني لا أقتصر على قتل الرجل الذي دنس شرفي ،
ولا يشفي آلامي غير الانتقام من أسرته يحملتها كي لا يبقى من يدعي
مورفر بالوجود .

فقلت روميا : لا أنكر عليك يا حضرة الدوق حق الانتقام غير ان
انتقامك من عائلة مورفر لا يمنحك أن تكره برديتو أيضاً ، فهو ابن تلك الزلة
التي دعت إلى كل هذا الانتقام .

فقال لها الدوق دي فنسترنج : هو الحق ما تقولين فإني كنت أكره
حبيبك برديتو من قبل كما أكره الآن هذا المركيز ولم أخفقه يوم ولادته لأنني
أردت أن أعد له عذاباً هائلاً ، لذلك عهدت به إلى مينوس وقلت في نفسي ،
اما أن ينشأ شريف العواطف فيلقى شر عذاب لوجوده مع اللصوص ، واما
ينشأ لصاً مثلهم فلا يكون نصيبه غير المشنقة .

وكان مينوس يخبرني بكل حوادثه وعلمت منه يوماً انه التقى بالمركيزة
وابنها في الجبل ، وما كان من تباغض الغلامين فخطر لي انتقام جميل وهو ان
أثير أحقاد برديتو على أخيه ، ثم أجمع بين الاثنين فيمزق كل منهما الآخر ،
ولكنك حلت أنت دون هذا المشروع .

فاندهشت روميا وقالت : أنا ؟

- نعم انت فإني حين توليت تربيته وتربية برديتو رأيت انكما
متساويان بفساد المبدأ ، وانكما متحابان فكرهت أن افرق بينكما وزال من
قلبي كره برديتو .

فنظرت اليه روميا نظرة المراتب وقالت : احق ما تقول ؟

- دون شك فقد حصرت بغضي بالمركيز ، وانت تعلمين اني لا أريد ان
يموت موتاً بسيطاً ، بل أريد ان يكون موته بطيئاً هائلاً ونزعاً شديداً
طويلاً لا ينتهي .

فضحكت روميا وقالت : إنك اعظم سفاك رأيتنه في حياتي يا أبي ،
وسأفعل ما تريد .

— وأنت أعظم شيطانة عرفتها ولو لم ينقص عهد شبابي لأحببتك .
ثم صب من زجاجة شراب في كأسين وشرب وإياها فقالت له روميا :
أيجب أن نبدأ الليلة ؟

— دون شك ، ولكن متى أصبحنا في عرض البحر فقد أمرت الربان
أن يسير بالسفينة عند انتصاف الليل .
ثم كشف ساعته وقال : اي بعد ربع ساعة .

— متى يفيق المركيز ؟

— بعد ساعتين .

وعند ذلك قرع الباب قرعاً خفيفاً فقالت روميا : ان الطارق برديتسو
دون شك .

— ليدخل فلا بأس من دخوله .

ودخل برديتسو وكان لا يزال يشبه المركيز شهاً عجيباً فقال اني جائع .
فقالت هوذا الطعام معد فكل .

فنظر اليها نظرة منكرة وقال : اكرهك اليوم بقدر ما كنت أحبك
أمس .

فارتعشت روميا وقالت . لماذا تبغضني ايها الحبيب ؟

— لأن فم هذا الرجل النائم قبل شفتيك .

— ما هذه القيرة التي لا محل لها ألا تعلم اني لا احب سواك في هذا الوجود

فجلس برديتسو معهم على المائدة فصب لنفسه كأساً وشرب ، ثم أخذ
سكيناً عن المائدة وجعل يتطلع الى الدوق وإلى روميا وإلى المركيز النائم
تطبيقات ملؤها الحقد وقال يحول في خاطري فكر هائل .

فقال له الدوق بهرود ما هو هذا الخاطر ؟

- هو ان اقتلكم جميعاً .
فارتعشت روميا اما الدوق فلم يظهر عليه شيء من علائم الاضطراب
وقال : إنك إذا قتلت هذا الرجل فلا تكون قد انتقمتم .
- حسناً ولكني أكون قد سكنت ثائر غضبي .
- وإذا حملك الغضب على الفتك بروميا ، فإنك تيأس بعد قتلها
لأنك تهواها ..
- هذا ممكن .
- وأخيراً ان قتلتنى أنا تحرم أموالى الطائلة التي سأورثك إياها .
فسكن هذا القول غضب اللص وقال : لقد أصبت .
ثم القى السكين إلى الأرض .
وعند ذلك شعروا بأن المائدة ترجع فعملوا ان السفينة رفعت مراسيمها
وقامت من الميناء .

- ٢٨ -

ولبت المركيز نائماً ساعتين كما قال الدوق ثم انتبه من تلقاء نفسه كما ينتبه
من ينام نوماً طبيعياً .
ولما استفاق وجد روميا بقربه ولم يكن في الغرفة غيرهما فسابتسمت له
وطوقت عنقه ببديها ، فقال لها : العلي كنت نائماً ؟
- نعم ايها الحبيب فقد شربت كثيراً من الخمر الاسباني المعتق فأفضى بك
الافراط في شربه إلى النوم .
- كيف ذلك العلك كنت معي ؟
نعم فلم افارق مكاني .

ثم شعر ان السفينة تسير فقال . ان السفينة تمخر في البحر فهل هي سائرة بنا الى نابولي ؟

فابتسمت له ابتساماً خلب لبه وقالت : إنها تسير بنا الى حيث تشاء فانت الأمر هنا ايها الحبيب .
.. بل انت الأمرة الناهية لأنني عبد هذا الجمال

— إذا أردت أن أتولى انا إدارة هذه الرحلة ، ذهبت بك الى بلاد الشرق ، بلاد أجسادادي ، فنسير الى مصر وتركيا ، ونشاهد أزمير والاسطانة ، ونجتاز بلاد المعجم ونبلغ الى شواطئ الكونغ . أتوافق على هذه الخطة ؟

— إني اريد ما تريدن أيتها الحبيبة .

ثم جذبها اليه بلطف يريد ضمها فشمع فجأة ان أرض الغرفة قد انشقت وظهر منها ساحة متسعة الأرجاء ..

فصاحت روميا صيحة ذعر وأفلتت من يديه ، ونظر المركيز الى تلك الهوة التي فتحت أمامه فرأى ذلك المنظر الذي رآه في منزل روميا في باريس ، أي ذلك اللهب الذي يبدو أحمر ثم يصبح بنفسجياً ثم أبيض ، ويظهر من خلاله خيال برديتو .

وكانت روميا تصيح صيحات منكرة والمركيز يحاول ان يضمها اليه لكنها هربت وانطفاً مصباح الغرفة فلم يعد يراها .

ثم حدثت أعجوبة أعظم من تلك وهو أنه رأى روميا واقفة تحت ذلك اللهب الذي كان ظاهراً فيه برديتو وقد مسخت مسخاً فصارت قامتها لا تتجاوز نصف ذراع ورأى برديتو يشير اليها بيده إشارة المنتقم وسط ذلك اللهب ويقول لها بصوت يتهدج من الغضب : « هذا هو انتقامي أيتها الخائنة ، فلتكوني عبرة لسواك » .

ثم احتجب الخيال وتحول اللهب الى دخان انبعثت منه رائحة كريهة ،

ضيققت أنفاسه ، فأسرع يريد الهرب من تلك الغرفة . فاصطدم بجسم ملقى على الأرض وأغمي عليه لقوة هذه الرائحة فسقط بين ذراعي روميا التي تحولت من جسمها المسوخ الى جسمها العادي .

وعند الصباح صبحا من رقاده وهو مضطرب الحواس محموم ، فكان يذكر حادثة الليل كحلم مزعج . وقد وجد نفسه في سرير من أسرة السفينة فلم يعلم اذا كان ما رآه حلاماً او حقيقة . ولكنه كاد يقتنع انه كان حالماً حين رأى روميا على ظهر السفينة بهيئتها العادية .

فلما رآته روميا أقبلت اليه تبتسم وتقول : لقد أطلت الرقاد .

فنظر اليها منذهلاً وقال . إذاً لست انت ؟ .

— ماذا ؟

— لست من الأقزام ؟

— بل إني على عكس ما تقول فأني من طويلات القوام

— لكنني رأيت مع ذلك في هذه الليلة . .

— ماذا رأيت ؟

— رأيت برديتو قد مسخك وحولك الى قزم .

فاصفر وجه روميا وقالت : برديتو ؟

— نعم فأني حين كنت هذه الليلة معي أضحك الى صدري فقد ظهر لنا برديتو في

السفينة كما كان يظهر في باريس .

— إني ما رأيت شيئاً .

— عجباً ألم تري أمس خيال برديتو ؟

— كلا وجميع ما شاهدته انك تعشيت ونمت .

— أعلم اني نمت ولكنني صحت بعد هذا النوم .

— كلا إنك ما صحت الى الآن .

— كيف ذلك ألم تكلميني عن الحمر الأسباني ؟

— ألم أقل لك شيئاً ايها الحبيب فقد كنت نائماً نوم السكرى حتى اضطرتت الى الاستعانة ببهرين لنقلك الى فراشك .

وكانت روميا تتكلم بلهجة صادقة ، حتى وثق المركيز كل الوثوق انه كان حالماً .

ومضى ذلك النهار والسفينة سائرة حتى أقبل الليل ، وجلس المركيز مع روميا على مائدة العشاء ، فشربت وشربت ثم صبت له آخر كأس بقي في الزجاج وجعلت تناديه وتشاغله حتى وضعت له في الكأس نخدراً ، فما استقر شرابه في جوفه حتى تشاقلت عينيه وسقط على الكرسي لا يعي . غير أن إغمائه في هذه المرة كان شبيهاً بإغمائه في لندرا ، أي انه كان فاقداً كل حواسه ما عدا حاسة السمع .

فذكر تلك الليلة التي سقط فيها صريعاً في خماره كالكراف ، حين كانت الارلندية تغني ، وسمع ان الباب قد فتح ودخل منه رجل فقال : أهو نائم الآن .

فعرف انه صوت برديتو .

ثم سمع روميا تقبله وتقول له : إنك غطىء يا برديتو فاساءتك إلي ، لأنني لا أحب سواك .

— إذا كان ذلك فلماذا لا تؤذنون لي بقتله في الحال ؟

فارتعش المركيز لانه كان يسمع كل ما يقال أمامه . ثم سمع صوت ذلك الشيخ ذي اللحية البيضاء ، يقول وهو واقف على عتبة الباب : هلم ، أيها العاشقان الجميلان ، الى سطح السفينة ، فقد دنونا من شواطئ ايطاليا الجميلة ، لأن لديكما فرصة كافية . إذ لا نعود الى تمثيل دور الخيال إلا بعد ساعتين .

فخرج العاشقان وصعدا الى ظهر السفينة .

أما الدوق فإنه بقي في الغرفة ودنا من المركيز ووضع فمه عند أذنه وقال له : أيها المركيز ، إنهم يهزأون بك .

- ٢٩ -

ولا تحيط وصف كاتب بما كان يكابده هذا المركيز من العناء حين كان يسمع كل هذه الأقوال فقد كان يسمع ويفتكر ويعي كل شيء لكنه لا يستطيع أن يتكلم ولا أن يفتح عينيه .

ولم يقتصر الدوق على ما قاله له ، بل أنه جلس بقربه وجعل يتلو عليه الحديث الآتي :

- أيها المركيز أنك حين صعدت الى السفينة رأيتني ، وخشيت أن تكون قد عرفتني بالرغم عن هذه اللحية الطويلة البيضاء التي غيرت كل ملامحي . ولكن ظهري بعد ذلك أنك لم تعرفني ، فلا بأس لي الآن من أن أعرفك بنفسي فاسمع :

أيها المركيز اني ذلك الرجل الذي دنس أبوك عرضي فقتلته . أنا الجنرال الدوق دي فنستيرج الذي جثته يوماً تريد مبارزته انتقاماً لأبيك ، فأبيت مبارزتك حتى تبلغ سن الرشد .

ثم غادرت باريس وأظهرت أمام العالم أجمع اني مت غرقاً في البحر تموتاً عليك . ولكني لا أزال حياً ، وكذلك برديتو ابن ابيك وابن امرأتي فإنه لم يعدم شقاً كما تتوهم ، فتحالفت وإياه على قتلك ، كما اني أقسمت على قتله أيضاً ، وهو لا يعلم ويحسب اني له من المخلصين . ولكنك أنت ستقتل هذا اللص لا أنا فاصغ إلي .

إنك الآن نائم نوم تخدير ، لأنني وضعت لك في الشراب مخدراً تعلمت

صنعه في الشرق ، وهو يخدرك ساعتين دون ان تفقد حاسقي السمع والإدراك .

أما روميا وبرديتو فانهما يعتقدان انك نائم الآن كما كنت نائماً أمس ، أي انك لا تسمع ولا تعي وستعود اليك روميا بعد ساعة ، فمتى فتحت عينيك تجدها بقربك وسترى أشعة الحب تنقد في عينيها وتراها تبتسم لك الطف ابتسام وتناديك بأعذب الألقاب .

ثم يعود تمثيل دور الخيال على ما عهدته ، فيتقد اللهب ويظهر منه خيال برديتو ، وعند ذلك ترتعد روميا وتفر منذرة ، فمتى ابتعدت عنك رأيتها قد مسخت قزماً .

إنها لا تمسخ أيها المركز ، ولكنها تظهر لك بهذا المظهر الغريب بفضل انعكاس أشعة المرآئي ، وهي طريقة مشهورة لا بد أن تكون قد عرفت من قبل ، أعلمت الآن أيها المركز كيف يظهر لك الخيال وكيف تمسخ روميا ؟

وهنا نصيحة أيها المركز تلعبها اذا شئت وهي انك عندما تفيق من إغمائك تجد مسدساً محشواً بقربك فإذا ظهر لك الخيال وهربت روميا منك فأطلق المسدس على برديتو واقتله قبل ان يقتلك .
ثم ضحكك ضحكاً عالياً وتركه وانصرف .

أما روميا وبرديتو فكانا واقفين على ظهر السفينة ينظران الى الشواطئ الإيطالية متعجبين بجمالها وكان برديتو يقول لروميا: لقد ندمت لاتفاقي مع هذا العجوز الذميم

— لماذا أيها الحبيب ؟

— لأنني أكابد عناء شديداً من الغيرة ، فإن فم هذا الرجل قد قبل شفتيك .

— كيف تسوءك هذه القبة وانت تعلم ان قلبي لك ؟

- لأنني لا أطيق ان أنظر هذا المركيز يقبلك ويضمك .
- ما هذه البلاهة ؟
- ليس ما أقوله بلاهة فقد بت أخشى ان تختم هذه الرواية بما يجعلها فاجعة
- إذ لا أطيق الصبر فقول لي متى نفرغ من تمثيلها ؟
- لا أعلم .
- ألم يقل هذا الشيخ الذي بعناه حياقنا وأجسامنا بيع السلع ؟
- كلا إنه لم يطمعني على نواياه .
- وعند ذلك ظهر لهما الشيخ وقال : إنكما لن تعلموا ولا تريان ختام الرواية ،
- والآن إن الوقت قد حان إذ دقت الساعة الثانية .
- فقال روميا : أنا نازلة .
- ثم تركتهما ونزلت الى غرفة المركيز .
- وكان المركيز قد بدأ يصحو من رقدته ، فطوقت عنقه بذراعيها وقالت له :
- أيها النائم الأبدي ألا تنفك عن عادة النوم بعد العشاء ؟
- فصحا المركيز عند كلامها كل الصحو وقال : أسألك العفو فهذه آخر ليلة
- أنام فيها .
- أحق ما تقول ؟
- أقسم لك .
- فجعلت تناغيه وتداعبه كما فعلت أمس ، ثم ظهرت فجأة مناظر أمس
- فانكسر المصباح وخسفت الغرفة وظهر اللهب في وسطه برديتو وجعلت روميا
- تمثل الذعر وتصيح صيحة الرعب .
- غير ان المركيز ذكر في الحال ما قاله له الدوق وهو نائم ، ومد يده
- فعثرت بالمسدس ، فأخذه في الحال وأطلقه على برديتو الظاهر بين
- اللهب ، فوقعت الرصاصة في قلبه ، وصاح صيحة منكرة وانقلب قتيلًا
- على الأرض .

ثم حاول المركيز ان يطلق رصاصة ثانية على روميا . لكن روميا ما لبثت ان رأت برديتو قتيلاً ، حتى هاجت هياج اللبوة ، وسبقت المركيز فجردت خنجرأ وانقضت عليه انقضاض الكواسر فطعنته به طعنة هائلة وهي تزجر زجرة الأسود . وحاولت ان تشفعها بطعنة أخرى كي تجهز عليه . لكن بحارة السفينة هجموا عليها ، وجردوها من الخنجر ، وقيدوا رجلها ويديها بأمر الدوق .

- ٣٠ -

مضى عشر ساعات على هذه الحادثة كانت روميا في خلالها مقيدة اليدين والرجلين وهي قصيح وتعمل وتطلب ان ترى جثة حبيبها برديتو فلا يجيبها غير صدى الغرفة التي كانت مسجونة فيها .

وكان الدوق خبيراً بفن الجراحة ، فكان يسمع عويل روميا ولا يكثر لها لأنه كان مهتماً بتحنيط جثة برديتو . فإنه أخذ الجثة وحفظها منعاً لانهالها ثم نزع الرصاصة منها وجعل الجرح المستدير مثلث الزوايا حتى يحسب من رآه انه جرح خنجر او سيف لا جرح رصاصة

وبعد ان انتهى من تحنيطه جاء بموسى وحلق له لحيتته ولم يبق له غير شاربيه فقصصها على شكل شاربى المركيز دي مورفر . وكان المركيز يشبه اللص شهباً غريباً كما تقدم . فلما حلق لحية اللص أصبح اللص تماماً بحيث لا يشك من رأى جثته انها جثة المركيز .

أما المركيز فقد كان مصاباً بالحصى من جرحه وهو ضائع الرشد ، فذهب الدوق الى سريره وجعل ينظر اليه بفرح وحشي ويقول : لأنى لم أبل غير نصف انتقامي بل أقل من النصف لان برديتو مات دون ان يتألم . ولا مشاحة ان

هذا اللص كان ابن الجريفة لكنه لم يكن يدعى مورفر .
وما أوشك ان ذكر هذا الاسم حتى اضطرب صوته وقال : إذا كنت لا
أعتقد بخلود النفس فكيف أكون انتقمتم ؟

لكنني أعتقد بخلود الأرواح ، وان أرواح المائتين تهم بالفضاء وتحوم حول
من كانت تحبهم فتفرح لسرورهم وتحزن لأحزانهم . ولا شك ان روح تلك الحائنة
حائمة الآن حول جثة ولدها برديتو ، وروح هذا اللص حائمة حول سجن روميا
وكلاهما في عذاب .

ثم ترك المركيز وشأنه وذهب الى روميا فقال لها كففاك أينما وعويلا فقد
كنت أحسبك قوية ولكني أراك تبكين بكاء الأطفال .

- كيف لا أبكي أيها الشقي وقد قتل برديتو . وأي رجاء لي بعده
بالحياة ؟

فهمز الدوق كتفيه وقال : أتموتين قبل ان تذتقي ؟

- لقد انتقمتم بقتل القاتل .

- إنك منخدعة لان المركيز لم يمت .

- ولكنه سيموت لانني طعنته بخنجر مسموم .

فضحك الدوق وقال إنك منخدعة أيضا أيتها الحبيبة فقد بدلت خنجر
المسموم حين كنت نائمة بخنجر مثله غير مسموم ولذلك لم يمت المركيز بل انه
سيحيى لان جرحه غير خطير .

فأنت روميا أنين الموضع وكادت تفتن الدوق بنظرات حقدتها غير أن
الدوق لم يكتثر لنظراتها وقال لها : أتعدين موت المركيز السريع انتقاماً ؟
إننى لا أرى رأيك أيتها الحسناء وعندي انه يجدر بك ان تقتليه كل يوم بالعذاب
حتى تروي غليلك .

- ربما كنت مصيباً .

- وأنا واثق من انك تعملين برأيي ، لا سيما متى علمت أن للمركيز

غلاماً يرث منه أربعة ملايين . فتمتعي بهذه الثروة ، وانتقمي من صاحبها
كما تشائين

ثم تركها مقيدة اليدين والرجلين وصعدت الى ظهر السفينة ، فأخذت
نظارة مكبرة ونظرت بها الأرض التي أشرفت عليها السفينة ، وهي أرض
جزيرة مالطة .

ورأى ان السفينة كادت تصل اليها فنادى الربان وأمره ان يعد القارب
لنزوله الى البر ففعل . ثم وقفت السفينة وأنزل القارب فأنزلوا فيه أمتعة الدوق
وبعد ذلك قال الدوق للربان : بعد ساعتين تحمل وثاق روميا وتقول لها ان
السفينة ومجارتها تحت أمرها .

ثم أمر الدوق بحارة القارب ان يسيروا به الى مالطة ، منفصلاً عن
السفينة . واستمرت السفينة في سيرها الى الشرق ، وهي تحمل جثة
برديتو المهنطة ، والمركيز المحموم من جرحه ، وقد بات في قبضة تلك
المرأة الهائلة .

- ٣١ -

ولنعد الآن الى باريس لنرى ما فعل مرميس وفاندا فإنها أقسمت ان يخضعا
لأوامر روكامبول ويحدا جثة المركيز

في اليوم التالي لفراغ فاندا ومرميس من تلاوة كتاب الفيروزة ، عقدت
تلاميذة روكامبول اجتماعاً في منزل فاندا ، وجعلوا يتباحثون في طريقة
الشروع في العمل .

وقد افتتحت فاندا الحديث فقالت : إن لدينا ثلاثة أمور يجب علينا إجراؤها
أولها وأخصها الحصول على الآئيتين اللتين وضع فيهما المال

فقال مرميس : إن هذه المهمة من أصعب المهام وأدناها الى السرعة أما وقد أمر الرئيس بتنفيذها فلم يعد بد من الامتثال .

— والأمر الثاني ضرورة إيجاد تلك المرأة . والثالث تفقد الغلام الذي قال روكامبول أنه وضعه في دير في شارع البورصة ، فقد مضى على إقامته فيه عامان وقد يحدث كثير من الأمور في عامين .
— لقد خطر لي الآن ان أعارضك
— كيف ذلك ؟

— ذلك انه يجب ان يكون اول ما نهتم به هو البحث عن الغلام ، ونرى إذا كان أحد قد بحث عنه قبلنا لأنني أخشى ان تكون البستانية الحسنة قد وقفت على جميع أسرار الماركيز ، ومنها سر هذا الغلام . والذي أراه هو أنه يجب ان يذهب ميلون في الحال الى هذا الدير ، فيسأل رئيسه اذا كان أحد قد سأل عن الغلام ، من قبل الذي وضعه في الدير ثم يخبرها بأنها ستحضر اليوم سيدة شقراء تدفع ما تأخر دفعه من نفقات الغلام وتخرجه من الدير .

— إذا كان ذلك فلماذا لا يخرججه ميلون ؟

— ذلك لأن هذا الغلام قد كابد كثيراً من المشاق والخاوف ، فبات كثير الحرص ، ولا شك انه يطمئن الى امرأة ويثق بها أكثر من ثقته برجل .

فوافقه فاندا وذهب ميلون فقال مرميس : أما أنا فسأعلم من الآن الى الظهر أين يوجد منزل الماركيز دي مورفر .

— والبستانية الحسنة ؟

— إطمئي فسأجدها في باريس بالرغم عن اتساعها .

أما ميلون فإنه لبس خير ملابسه وذهب توأ الى الدير فاستقبلته الرئيسة خير استقبال وصالته عما يريد فقال لها : إني أت بشأن الغلام الذي عهد اليك

منذ عامين .

- من الذي عهد به إلي ؟

- رجل أنا وكيله .

- ماذا يدعى ؟

- الماجور أفاتار .

- حسناً إن الغلام عندنا وهو في أتم العافية ويتقدم في الدروس كل يوم
لفرط ذكائه

- ألم يسأل عنه أحد في هذين العامين ؟

- كلا ولماذا تسألني هذا السؤال ؟

- لا أعلم ا فقد أمروني ان أسألك فامتثلت ثم أمرت ان أخبرك ايضاً ان
والدة الغلام ربما حضرت اليوم لدفع حسابه وإخراجه وهي شقراء تناهز الخامسة
والثلاثين من العمر .

- ليكن ما تريد . ولكنني أشفق ان يخرج هذا الغلام الذكي من ديرنا قبل
إتمام دروسه لانه أذكى جميع من لدينا من البنين .

وعند ذلك دق جرس مؤذناً بخروج الأولاد من غرف الدرس الى الحديقة
للرياضة فأطلت الرئيسة من النافذة وقالت لميلون تعال وانظره فانه على ذكائه
العظيم وافر الجمال .

فدنا ميلون من النافذة ورأى الغلام على ما وصفته له وهو بين ١٢ و ١٣ من
العمر فانطبع رسمه في ذاكرته .

بعد ذلك بساعة جاءت الى هذا الدير مركبة عليها إشارة النبلاء وخرجت
منها امرأة جميلة شقراء ، فقابلت رئيسة الدير وقالت : إني والدة الغلام الذي
أخبرك وكيلي منذ ساعة إني سأحضر لأخذه .

ثم أخرجت ورقة مالية قيمتها الف فرنك ، فدفعتها لها وسألت
إحضار الغلام .

فأمرت الرئيسة باحضاره ، فجعلت تقطعه ضمّاً وتقبيلاً وهو منذهل مما يراه لأنه لم يكن رآها من قبل فقالت له : إني امك يا بني وقد فارقتني طفلاً فنسيتني هلم بنا الآن الى أبيك .

ثم أخذته بعد ان ودعت الرئيسة وشكرتها وخرجت به الى مركبتها وبعد ساعة ايضاً جاءت امرأة اخرى شقراء ، وطلبت الغلام باسم الماجور أفتار . وكانت هذه المرأة فناندا فلما علمت ان الغلام خرج من الدير صاحت صيحة منكرة وعلمت انه بات في قبضة البستانية الحسنة .

- ٣٢ -

أما مرميس فإنه ذهب الى النادي حين ذهب ميلون الى الدير فاجتمع باصحابه وجعلوا يعاتبونه لانقطاعه عنهم يومين فاعتذر اليهم بما يحده من الحزن على الفيكونت مونتيجرون والبارون هنري .

فقال له أحد الحضور : إننا جميعنا لا نزال آسفين غير أن جميع أحزان العالم لا تخرج الأموات من قبورهم ، والعاقل من شغل عنهم بالأحياء . على ان هذه الفلسفة لم تمنع الحضور عن البحث في هذه الحوادث فقد خاض بها مرميس حتى وصل الى المركيز دي مورفر فقال : لا تزال مسألة هذا المركيز من المشاكل التي لم يحلها أحد

فأجابه ذلك المتفلسف : لا أرى حاجة الى حلها بعد ان حلها الموت .
- ولكنهم لم يعثروا على برهان يثبت موته
فأجابه صديق له يدعى البارون فيليب وقال وأي دليل أعظم من إيجاد جثته .

– إنهم لم يحدوا جثته بل وجدوا تمثال شمع .
– ولكن في لندرا .

– يدعون أنهم وجدوا جثة تشبهها ، ولكن لم يثبت شيء . لذلك لا أزال
أعتقد ان المركيز دي مورفر حي إلى أن يثبت موته . وقد أتيت اليوم خصيصاً
لأكلكم بشأنه .

فنظر الجميع اليه باندهال ، فقال مرميس : ان دي مورفر قد اختفى
منذ خمسة أعوام ، ولا بد أن تكون أزيلت الأختام عن منزله للاطلاع
على وصيته .

فقال البارون : إن موعد فتحها غداً .

– أعرفت وريته ؟

– نعم فهو ابن عم له يدعى بوكدر موزفر وهو من أصدقائي

– إذا أسألك يا حضرة البارون ان تعطيني كتاب توصية له .

فاندهل البارون وقال : أي شأن لك مع هذا الرجل وهو غريب عن باريس
لا يعرف أحداً فيها ؟

فابتسم مرميس وقال : هو سر من أسراري ، وقد تعلمونه في
مستقبل الأيام .

فكتب له البارون وذهب الى حيث يقيم ابن عم المركيز .

وكان هذا الرجل في الخامسة والأربعين من عمره وكان من قبل ضابطاً في
الجيش ثم اعتزل الخدمة وأقام في أرض له في الريف فكان يعيش من ريعها القليل
عيشة القانمين على انه كان وافر الأدب كثير الظرف . فلما جاءه مرميس
وأطلعه على كتاب البارون استقبله خير استقبال وقال له : إني طوع لك فيما
تريد فمرني يا سيدي بما شئت

– علمت انك ستترث تركة المركيز دي مورفر .

– نعم . إن أباه ابن عم أبي ولكفي لم أرد في حياتي وما كنت أتوقع مثل

هذا الارث فإن موته لم يثبت بعد ولا يحيز لي القانون ان أرث التركة بل يحق لي أن أتصرف بريعها الى ان تمضي سنوات هينة .

-- اني ما تشرفت يا سيدي بزيارتك إلا بشأن هذا الارث لاني واثق ان المركيز قد كتب وصية وهو قد أوصى بثروته لأقربائه أي انت يا سيدي لكنه وهب بهذه الوصية بعض الهبات .

- إذا كانت هذه الوصية موجودة كما تقول لا بد من احترامها وتنفيذ كل ما فيها ولا استطيع ان أحقق شيئاً قبل الغد حين ترفع الاختتام عن المنزل ، فاذا شئت يا سيدي إحضر اليه ظهر الغد
- سأحضر يا سيدي

- أتأذن لي يا سيدي ان أسألك اذا كنت من أصدقاء المرحوم ابن عمي ؟ وهل عرفت بهذه الوصية منه ؟
- كلا ولكنني آت من قبل امرأة كانت خلية له وقد منحها بوصيته هبة أحب أن تبقى عندها تذكاراً منه .
- ثق يا سيدي إني لا أخل بحرف من هذه الوصية وغداً نلتقي فأسلمك تلك الهبة .

فشكره مرميس ثم ودعه وانصرف وهو يقول في نفسه : إن الذي نسعى اليه هو نيل الآيتين ، وقد ماتت الفيروزة . ولكن فاندنا نقوم مقامها وتسمى باسمها الوارد في الوصية فإنه لا يوجد بين أصدقاء المركيز من كان يعلم بحبه الفيروزة .

ثم ذهب الى فاندنا فلم يجدها إذ كانت ذهبت الى الدير .

- ٣٣ -

وقد وجد ميلون فأخبره بما فعل بالدير ، وإن فاندنا ذهبت لاحتضار الغلام . فانتظر ساعة فلم تعد ثم ساعتين ثم ثلاثاً ، حتى سئم الانتظار وخشي أن تكون أصيبت بمكروه . فقال له ميلون ، أتريد أن أذهب إلى الدير لأرى ما حدث لها ؟

- كلا فلننتظر الغروب فإذا لم تعد ذهبت وإياك .

وغابت الشمس دون أن تعود فاندنا ، فزادت هواجس مرميس وذهب مع ميلون إلى رئيسة الدير ، فألقاهما جازعة مضطربة ، ووصفت له المرأة التي سبقت وأخذت الغلام ، فعلم من وصفها أنها البستانية الحسناء ، وأيقن أن فاندنا تتبعها . فخرج من الدير مع ميلون وهو لا يعي من فرط غمه واضطرابه .

وكان الظلام قد أقبل والهواء بارداً والشارع مقفراً والمطر ينهمر غزيراً ، فوقف مرميس خارج الدير يعمل الفكر في طريقة البحث عن فاندنا ، غير مكترث للأخطار .

وفياً هو ينظر يمنة ويسرة رأى خماراً قرب الدير فحدثه قلبه أنه قد يقف على أثر فاندنا من تلك الخمارة فرأى فيها جماعة من البنائين يسكرون ، ورأى صاحبة الخمارة تنظر إليه نظرة خاصة فدنا منها وجعل يحادثها أحاديث مختلفة وهي تنظر إليه نظرات تدل على أنه وصف لها من قبل .

وفطن مرميس لهذه النظرات فقال لها : أنك تستطيعين أن تفيديني بعض الافادات .

- سل يا سيدي ما تشاء .

- أجيء إلى هذا الدير المجاور لخمارتك كثير من الناس ؟

- نعم وذلك في يومي الخميس والأحد

- وفي غير هذين اليومين ؟

- ينذر قدوم الزائرين ، غير أنه جاءت اليوم امرأة جميلة شقراء فدخلت اليه وخرجت بفلام جميل ، وبعد ساعة جاءت امرأة أخرى شقراء فدخلت الدير وخرجت منه بسرعة وعليها علائم الاضطراب الشديد ، فغابت نحو ساعة وعادت

فعلم مرميس انها فاندا فقال . العلهما عادت الى الدير ؟

- كلا ، ولكنهما عادت إلى الشارع ودخلت هذه الخمارة .

ثم نظرت اليه نظرة الفاحص وقالت له : اسمح لي يا سيدي أن أسألك عن اسمك .

فاطمأن مرميس وذكر لها اسمه فقالت له . إذا أخذ هذه الرسالة فهي لك من هذه المرأة .

فأخذ مرميس الرسالة وعلم من عنوانها انها خط فاندا ففضها وقرأ ما يأتي :
« ان الفلام اختطفته البستانية الحسناء ، ولكنها تركت أثراً لا أزال اقتفيه ، فإن أحد المحالين رأى مركبتها وقفت عند كنيسة سانت جنيفاف ، فدخلت إلى الكنيسة مع الفلام . ثم عادت وركبة وإياه في المركبة وأمرت السائق أن يسير إلى سانت مانديه .

وأظن انها ذهبت إلى المنزل الذي ذهبت اليه ابنت ميلون فأخذت مركبة وسرت في أثرها إذ لا بد لنا من استرجاع الفلام .

وربما عدت في المساء إلى منزلي ولكنني قد لا أعود ولما كنت واثقة من حضورك مع ميلون إلى الدير للسؤال عني تركت هذه الرسالة في الخمارة لتعلم اين أنا فاذا مضت الساعة التاسعة دون ان أعود أيقن اني في خطر وأسرع إلى انقاذي في سانت مانديه . »

(فاندا)

فلما قرأ مرميس الرسالة دفع لصاحبة الخمارة عشرين فرنكاً ثم خرج إلى ميلون وكان ينتظره في مركبته ، فأطلعه على الرسالة ثم قال له : يجب ان نهج منهاج الحكمة في هذه المشكلة ، فإن فاندنا إما أن تكون حقيقة قد اقتفت آثار البستانية ، وعند ذلك فلا بد لها من الفوز لذكائها وجراتها ، وإما ان يكون الحمال قد خدعها فسقطت في فخ نصبته لها تلك الداهية .

- إذاً لنسرع الى سانت مانديه .
- كلا بل نرسل سائق مركبتنا إلى منزل فاندنا ليعلم إذا كانت عادت اليه ، ونحن نرود في هذا الشارع ، فإن قلبي يحدثني اننا سنقف فيه على شيء لم يكن في الحسبان .
ثم أمر السائق ان يذهب الى المنزل فيتفقد فاندنا ويعود اليه في الحال ، فامتثل السائق وسار مرميس وميلون في ذلك الشارع .

وكان الشارع خالياً من الناس لانهمار الأمطار فسارا حتى وصلا إلى مدرسة الحقوق ورأى مرميس ثلاث مركبات للاجرة واقفة هناك ، فما لبث ان مر بها حتى ارتعش ففتح بابها فجأة وقال للسائق : إذا كنت غير مأجور فسر بنا إلى الشانزليزه .

فامتثل السائق وتأهب للمسير ، فدخل مرميس وميلون ، وسارت المركبة ، فهمس مرميس باذن ميلون قائلاً : لقد عثرنا بواحد من عصابة تلك المرأة الهائلة .

فانداهل ميلون وقال كيف ذلك ؟

- الا تذكر ذلك الاسباني الذي كان يظهر انه زوج البستانية ؟
- نعم .

- انه نفس السائق الذي نركب مركبته الآن فاصبر ولا تفه بحرف بل اصنع الي فان البستانية علمت ان فاندنا ستجيء بعدها إلى الدير لأخذ الغلام وانا واثق الآن ان هذا الحمال الذي رأته فاندنا كان جاسوس البستانية وانها سقطت

في الفخ ، ولكن هذا الفخ لم ينصب لها وحدها بل نصب لنا ايضاً بدليل وجود هذا السائق المتنكر في هذا المكان .
فقال ميلون : ولكننا إذا ركبنا المركبة نكون قد دفعنا بأنفسنا الى الفخ .
- هذا ما يظهر لك ولكن اصبر وسترى .

وسارت المركبة بهما من شارع الى شارع حتى دخلت في شارع مقفر لا يمر به احد عادة في الليالي المظلمة فقال مرميس لميلون : لقد دنا الوقت فانتبه .
ثم نادى السائق وأمره بالوقوف فامتل ، فأخرج مرميس عنسد ذلك ووضع على صدغ السائق وهو يقول : احذر ان تفوه بكلمة او اقتلك في هذا الشارع المقفر شر قتل

ثم وثب ومسدسه بيده الى جانب السائق وهو نفس الاسباني الذي كان يصحب البستانية الحسنة الى الأوبرا فيحسب الناس انه زوجها وقال له :
إذا أردت السلامة فلا بد لك من الامتثال .

وبانت على الاسباني علائم الذعر وقال : ماذا تريد أن أفعل ؟
- أريد ان تترك مكانك وتنزل الى المركبة فتقيم فيها مع رفيقي .
ثم نادى ميلون وقال : انتبه لهذا الرجل واذا بسدرت منه بادرة اقتله دون اشتفاق .

فنزل السائق وهو يضطرب من الخوف فقبض ميلون على عنقه باحدى يديه ، وجرد خنجره باليد الثانية ، ودفع مرميس المركبة فسارت تنهب الأرض حتى وصلت الى منزل فاندأ فدخل الثلاثة اليه دون ان يبدي الاسباني شيئاً من المقاومة .

ثم دخلا به الى غرفة فأثار مرميس شمعتين وأقفل الباب ونظر الى الاسباني فقال : اظنك تعلم ان من كان من امثالنا وسقط في قبضة خصمه لا يشتري سلامته الا بالاعترار .

ثم كشف ساعته وقال: اني امهلك ثلاث دقائق لتقول لنا أين هي البستانية وأين هي فاندا وماذا كنت تصنع قرب الدير وأنت متنكر بزي سائق .

وكان الأسباني قد ملك روعه في هذه المدة وقال له: وإذا أبيت ان أجيب .
- اننا في شارع كثير السكان فلا أقتلك بالرصاصة كي لا يسمع الناس دوي المسدس ولكني أقتلك بهذا الخنجر .

نظر اليه الأسباني نظرة يأس وقال : اني مائت في الحالين فاذا كتمت عنك الحقيقة تقتلني وإذا بحت بها قتلوني .

- من هم الذين يقتلونك ؟

- رجال عصابتها فانهم يقتلونني بأمرها دون إشفاق .

- ولكني سأحميك .

فاثقت عينا الأسباني بأشعة الأمل ، ثم انطفأ هذا الشماع فجأة وقال : لا شك عندي انك تحاول حمايتي ، ولكن لا يستطيع انسان مقاومة هذه الداهية .

- سترى بعد اقرارك كيف أستطيع أن أحميك ، والآن فقد أوشكت الدقائق الثلاث أن تنقضي قبل أن ينفذ فيك العقاب ، ثم سار إلى ميلون فجرد خنجره ووقف فوق رأس الأسباني ينذره بالقتل .

فاستعد الأسباني وقال : سأعترف بكل شيء ، انما هي التي أقامتني في المركبة قرب الدير .

- متى ؟

... بعد أن اختطففت الولد .

... ماذا كان قصدها ؟

- انها كانت عالمة ان امرأة غيرها ستحضر إلى الدير لتطلب الغلام فلما أتت تلك المرأة إلى الدير وخرجت منه قانطة من لقاء الغلام رأت حملاً على الطريق وهو من أتباع البستانية الحسنة ، سألته فأرشدتها كما تلقن ولم يكن في

ذلك الشارع غير مركبتي صعدت اليها وأمرتني أنت أسير إلى حيث أرشدها
الحمال أي إلى سانت مانديه حتى إذا وصلت بها إلى محل معين مقفراً وقفت
المركبة فخرج رجلان من اتباعنا كانا كامينين في منعطف فدخلا إلى المركبة
وربطا فم المرأة كي لا تستغيث وسارت بهما إلى سانت مانديه .

فقال مرميس : وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك أمرتني أن أعود إلى موقعي الأول قرب الدير وأن أراقبكما
لأنني أعرفكما وما كنت أحسب انكما تعرفاني وأنا متذكر حتى إذا عرفت ما
تريدان ان تصنعا أعود اليها وأخبرها

— إذن هي الآن في سانت مانديه ؟

— نعم مع الغلام والمرأة الشقراء .

— ماذا تصنع بهما ؟

— لا أعلم .

— إذا لا بد لي من اخبارك ان الدقائق الثلاث قد انقضت .

فاضطرب الأسباني لهذا الانذار وقال : ولكني يا سيدي لست سوى خادم
بسيط استخدمتني تلك المرأة لأغراضها غير اني لا أفهم أسرارها .

فقال مرميس بهرود : يسؤني ان تكون جاهلاً لهذه اسرار ، ثم أشار الى
ميلون وقال له : أقتل هذا الرجل إذ لم يبق لنا فائدة فيه ، فلم يكذب كلامه
حتى صاح الاسباني وقد رأى بريق خنجر ميلون : رحماك يا سيدي فاني
أعترف بكل شيء وأقسم لك على الصدق فيما أقول .

فجلس مرميس بازائه وقال اني مصغ اليك فقل ما تعلم ..

- ٣٤ -

وكانت هيئة الأسباني تحمل على الاشفاق وتدل على انه سيضعي بكل شيء
للفرار من الموت فتطلع الى مرميس وقال له : أتحميني وتحبسن في منزلك
إذا أخبرتك بكل شيء ؟

- نعم ...
- إذا فاعلم إن البستانية الحسناء تدعى روميا .
- قد علمنا ذلك من قبل .
- وهي عشيقة برديتو الذي قتله المركيز دي مورفر ..
- ماذا جرى لهذا المركيز ؟
- انه معها ..
- إذا فهو حي ؟

- انه حي إذا صح أن يدعى من كان في حالته من الأحياء فإنه معتوه
مجنون يتقلب بين الفرح والكآبة ، ويمزج بين الضحك والبكاء ، فهو يموت في
كل يوم ألف مائة لفرط ما يلقاه من العذاب الذي لا نهاية له ، وسيكون
لابنه ، والمرأة التي قبضت عليها ، نفس نصيبه ، ولو عثرت بك لعذبتهك
نفس العذاب .

- ولكنها لم تظفر بي بعد .

- وأنا أشير عليك أن لا تدخل معها في معترك ، وإذا لم تقبل نصحي ،
وقدر لك الظفر بها فاقتلها قتل الحيوانات المفترسة ولا تعاملها كما تعامل النساء
فانها ليست من الناس .

فقال له مرميس : سأقتلها دون شك ، ولكن يجب أن أعرف أين هي قبل
أن أقتلها .

- قلت لك انها في سانت ماديديه .

- وحدها .

- كلا ، بل هي مع رجلين من النور يخضعان لها كل الخضوع ، ولكني أعرف طريقة تمكنك من قتلها دون ان يستطيع النوريان حمايتها ، وهي ان هذا البيت الذي تقيم فيه مزدوج ، أي انه ذو دورين ، يظهر الدور الأول منه للعميون ، وأما الدور الثاني فهو في جوف الأرض لا يراه أحد ، ولا يهتدي إلى مدخله أحد ، فلو قضيت العمر باحثاً عن مدخله لما علمت ان تدخل اليه ، وذلك انه يوجد في حديقة المنزل بئر لا ماء فيها ، وفي أسفل البئر سرداب سري يدخل منه إلى ذلك المنزل ، ولكن البئر كائنة في وسط الحديقة ، وهي عميقة وفيها جميع معدات الاستقاء ، فلا يخطر في بال أحد انها باب هذا المنزل السري .

ثم يوجد هناك سر آخر وهو أن باب السرداب يقفل دائماً من الداخل فلا يفتح إلا متى سمعت البستانية كلمة اصطلاحية تلقنها للجميع أعوانها كل يوم ، وهي تباليغ هذه المبالغة في الاحتياط كي لا يأخذها أحد على غرة ، ولا يعلم مدخل المنزل إذا سقط اتفاقاً في البئر .

فسأله مرميس : وما هو هذا الاصطلاح ؟

- انك متى وصلت الى البئر تقف عند فمها وتصفّر ثم تصبر هنيهة إلى أن تسمع صفيراً من داخل البئر مثل صفيرك ، فإذا سمعت هذا الصفير تقلد صوتي وتقول هذه الكلمة الاصطلاحية التي لقننا إياها اليوم وهي - الانتقام - وعند ذلك ترى جوف البئر قد استنار وترى البستانية قد خرجت اليه من الباب ، فإذا كنت تجيد الرماية أطلقت عليها مسدسك وقتلتها .

ولما سمع مرميس قول هذا الرجل جعل يفكر وكان يتراوح بين ان يأخذ معه الاسباني لتحقيق صدقه وبين أن يدعه مقيداً بحراسة ميلون إلى أن استقر فكره على الرأي الأخير فسأله : كم يقتضي من الوقت للذهاب إلى سانت مانديه والرجوع منها .

— ساعتين .

— بل أمهلك أربع ساعات فاذا انقضت ولم أعسد فأنت رجل ميت لا محالة .

ودخل مرميس إلى إحدى الغرف فجاء بحبال وأمر ميلون أن يقيد رجلي الاسباني ويديه ويقيم جنبه ولا يفارقه لحظة ثم كشف ساعته وقال لميلون: نحن الآن في الساعة العاشرة من المساء فاذا حانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ولم أعد فاقتل هذا الرجل دون اشفاق .

فامتل ملون وقيدته وجلس بقربه ، أما مرميس فانه أخذ مسدسين فسلح سائقي مركبته باحدهما وذهب وإياه إلى سانت مانديه وهو يرجو أن يظفر بالمستأنية وياخذ أسراها .

أما ميلون فانه أقفل الباب من الداخل بعد ذهاب مرميس ثم وضع كرسيه عند الباب وجلس عليها وعيناه تراقبان الاسباني المقيّد وتنتظران إلى الساعة من حين إلى حين .

وكان الاسباني ملقياً على ظهره وقد منعتته قيوده من الحركة ، فمضت ساعتان ، ثم ثلاث دون ان يعود مرميس فثارت هواجس ميلون وبدأ يقطب حاجبيه .

وعند ذلك ذابت الشمعة التي كانت تنير الغرفة وانطفأت فقام ميلون إلى غرفة ثانية لاحضار شمعة ثانية وهو آمن على الأسير لأنه مقيّد أشد التقييد ، غير ان هذه الفترة الوجيزة كانت كافية للاسباني فانه بذل جهداً عظيماً فانقلب على بطنه بشدة ، وكان في صدره زجاجة صغيرة فانكسرت لصدمة الانقلاب وسال ما كان فيها على الأرض ففاحت رائحة شديدة كاد يخنق بها ميلون عند رجوعه فأخذ علبة الكبريت من جيبه وحكها على العلبة كي يشعل الشمعة ، فما لبث أن ظهر نورها حتى ظهرت فجأة تلك المعجبة الغريبة التي قرأها في كتاب الفيروزة فان هذا السائل الذي سال من زجاجة الاسباني التهب على

الفور فالتهمت الغرفة يحملتها ولفحت تلك النار المستعرة ميلون فصاح صيحة الم وذعر ، واحترق وجهه ولحيته وشعره وخرج مندعراً من الغرفة الى الرواق .

ولما رأى اللهب يتبعه وأنه علق بجميع البيت جعل يصيح مستنجداً ولكن المنزل كان خالياً من الخدم فان مريس كان يتوقعان حدوث أمور خطيرة فيه فأطلقا سراحيهما كي لا يعلموا بشيء مما يجري ولم يبقيا غير السائق والسائس لشقتيها من رفقاتهما .

ثم ذكر ميلون انه لا يوجد في المنزل سواء ورأى البيت أصبح أتونا فنتسي ذلك الأسير الذي كان مقيد وسط اللهب وأسرع إلى الشارع يصيح بصوته الجمهوري مستغيثاً من النار .

فتجمع الناس من حوله وبعد هنيهة اتصل الخبر برجال المطافيء فأسرعوا بمضخاتهم واستمروا يعالجون النار بالمياه وغيرها من وسائل الاطفاء إلى الساعة الثالثة حيث تمكنوا من إطفائها وانصرفوا .

وعند ذلك ذكر ميلون ذلك الاسباني فقال في نفسه : ما عسى أن يكون جرى له ، العله تمكن من قطع حباله بواسطة النصار فنجا ، أم أصبح قريسة اللهب ؟

فصعد إلى الغرفة التي تركه فيها فوجد جميع أثاثها رماداً ، ولم يجد أثراً للاسباني ..

وأقام ميلون وحده في ذلك المنزل الذي اكتمته النار فذكر تلك الرائحة التي شمها حين دخوله إلى غرفة الأسير ، وأيقن ان ذلك كان من صنعه ، وأنه احتمال هذه الحيلة للنجاة ، فأيقن بالتالي ان مريس اصابه ما اصاب فاندا ، وكل ذلك بخطئه وعدم احتراسه ، فجلس على عتبة الباب الخارجي ووضع رأسه بين يديه وهو يكاد يحن من يأسه ، ثم جعل يمزق ثيابه من القنوط ويبكي بكاء الأطفال ، وفيها هو على ذلك شعر بيد وضعت فجأة على كتفه فالتفت وهو

يوشك أن لا يرى فانقبض ووقف على الفور كأنما آلة كهربائية قد حركته
وصاح صيحة فرح غريبة خرج معها اسم روكامبول . .
عاد روكامبول بعد سفره الطويل ، وراه ميلون رأي العين فجعل يقبل
يديه وينظر اليه فيضحك ويبكي في حين واحد .



ولنترك الآن روكامبول وميلون ونقص على القراء ما جرى لمريس حين
ذهب إلى منزل روميا متبعاً تعليمات ذلك الاسباني الخائن فنقول :
ذهب مرميس مع سائق مركبته إلى منزل روميا فدخل معه إلى الحديقة
وذهب توأ إلى البشر كما أرشده الاسباني فوقف عند بابها واشعل عود كبريت
والقاء في جوف البشر كما أرشده الاسباني فوقف عند بابها واشعل عود كبريت
والقاء في جوف البشر ليتأكد إذا كانت خالية من الماء فسقط وظل مشتغلاً
بحيث أيقن مرميس ان البشر لا ماء فيها .

ثم أشعل عوداً ثانياً من ذلك الكبريت الشمعي وانحنى به على البشر وجعل
ينظر إلى أسفله ورأى أمراً يشبه أثر الباب فأيقن من صدق تعليمات الاسباني ،
وانه اضطر إلى خيانة البستانية الحسناء لاشفاقه على نفسه من الموت .

ثم أخذ صفارة من جيبه وصفر بها كما قال له الاسباني فما مرت دقيقة
حتى خرج من جوف البشر صفير يشبه صفيره ، فتراجع مرميس خطوة عن
فم البشر كي لا يرى ، وحمل بيده مسدسه ، ثم قلد صوت الاسباني وقال
كلمة السر وهي (الانتقام) ورأى على الفور ان جوف البير قد استنار وان
يداً برزت من بابها السري تحمل مصباحاً ، ثم تلا ظهور اليد ظهور رأس ،
وحدد مرميس بالرأس ، ورأى بنور المصباح رأس روميا وأيقن ان الاسباني
لم يكذب بشيء مما رواه .

وعند ذلك صوت مسدسه على الرأس وأطلق النار ودوى في جوف البير

وانطفأ المصباح ، وسمع مرميس صبيحة ألم فنفق فؤاده خفوقاً شديداً ليقينه
انه قتل المرأة . .

ونظر مرميس إلى ما حوله وإلى المنزل المبني فوق الأرض ، فلم ير
فيه أثراً للنور ، فالتفت إلى الخادم وقال له : إني سأنزل إلى البئر ، إلا تزال
مصمماً على ان تتبعني ؟

— دون شك .

— إذا سأقدمك ثم تنزل بعدي .

وكان للبئر خرزة معلق فيها حبل يصل إلى أسفل البئر ، فتعلق مرميس
بالحبل ونزل عليه ، ثم تلاه السائق ، فأشعل مرميس شمعة ورأى باباً مفتوحاً
يدخل منه إلى سرداب طويل ، ورأى أثر الدماء متصلاً في ذلك السرداب ،
ولكنه لم ير جثة البستانية فقال في نفسه : لا شك انها دخلت إلى داخل
وهي في نزع الموت .

ثم التفت إلى السائق وقال له : إذا كنت خفت فان الوقت لا يزال فسيحاً
لديك فاصعد وعد من حيث أتيت
— انك تحتقرني يا سيدي فما أنا من اللذين يرهبون في مواقف الشدة .
— إذا هلم بنا وليحرسنا الله .

ثم دخل الاثنان إلى ذلك السرداب وفي يد كل منهما مسدسه .
وكان مرميس يتقدم السائق في الدهلز ، وكلما اطفئت الشمعة أثار غيرها
فيرى أثر الدم متصلاً ، ولكنه ما تقدم ٢٠ خطوة وهو يمشي مشي الحذر المتأني
حتى سمع صوتاً غريباً يشبه صوت هدم منزل ، ورجع إلى الوراء فاندعر إذ
رأى قبة السرداب قد سقطت حجارة من ورائه بحيث سدت الطريق وبات
يستحيل عليه الرجوع وأيقن في الحال ان سقوط القبة لم يكن من قبيل الصدفة
والانفاق بل انها هدمت خاصة كي يقطع على الرجلين خط الرجعة ، فلم يمد
يشعل الشمعة ، واستمر سائراً أمام السائق في الظلمات وهو يقف مصغياً منصتاً

من حين إلى حين ويقول في نفسه : لا شك ان البستانية قد أصيبت بجرح خفيف ولو كان جرحها بالغاً لما تمكنت من اجتياز هذه المسافة .
ثم احس فجأة بتنفس إنسان بالقرب منه فوقف ، فانقطع التنفس وقال للسائق : ألا تزال تتبعني ؟

- نعم .

فقال مرميس في نفسه : يجب ان اعلم أين انا .

وأخذ علبة الكهريت الشمعي من جيبه ولم يكن باقياً فيها غير ثلاثة عيدان ، فأثار احدها ونظر ، ورأى السرداب طويلاً لا نهاية له ورأى الأرض مفروشة بالرمال وعليها بعض نقط من الدماء ، ومد نظره الى آخر ما يتصل اليه من السرداب فلم ير من أثر روميا غير نقط دماؤها . فقال لرفيقه : لم يبق في العلبة غير عودين

- ابقهما يا سيدي إلى حاجة أشد من حاجتنا الآن الى النور .

وكان السائق طويل القامة فكان يضطر إلى السير منحني الظهر في السرداب وفيما كان مرميس سائراً أمامه سمع فجأة صوت رعب وألم فالتفت وقال منزعجاً ماذا حدث ؟

فلم يجبه السائق فقال له اين انت وما حدث لك ؟

ولم يجب ايضاً فأشمل عند ذلك شمعة ونظر إلى ما ورائه ورأى الرمال قد انزاحت ورأى مكانها أثر باب هوة ، وعلم ان الباب قد فتح تحت قدمي السائق وسقط الى الهوة وعاد الباب الى ما كان عليه .

وقد اضطرب مرميس اضطراباً عظيماً وإيقن انه سقط في فخ تلك الداهية فاستسلم للقضاء ومشى فسمع ضحكاً شديداً يدل على الهزء به وكانت الشمعة قد انطفأت وادهم الظلام فمد يده بمسدسه إلى الجهة التي صدر منها الضحك واطلق النار واستنار السرداب لحظة بنار الرصاص ولكنه لم ير احداً في حين ان صوت الضحك كان يدل على ان الضاحك قريب منه

ثم توالى الضحك ، فأن مرميس أنين الموجه لغضبه وأطلق المسدس مرة ثانية على جهة مخرج الصوت فانقطع الضحك وجعل قلبه يبدق دقات شديدة لحسابانه انه أصاب المرمى .

غير أن ذلك لم يطل ، وسمع صوت روميا تقول له بصوت الهازيء : لقد اقتصدت يا سيدي بعبدان الكبريت ، فاقتصد برصاص المسدس فقد تحتاج اليه .

فصاح مرميس ، وقد عرف صوتها : ألم تقتلي أيتها الأفعى ؟

وأسرع الى علبة الكبريت فأثار الشمعة الأخيرة الباقية فيها فرأى هذه المرأة عدوته واقفة على مسافة عشر خطوات منه وهي تبسم ابتسام الهازيء وتنظر اليه نظرات الاحتقار .

فصوب مرميس مسدسه وأطلق النار عليها فانطفأت الشمعة وسمع روميا تقول له ببرود : لم يبق لديك غير رصاصتين .

وأطلق مرميس الرصاصة الخامسة ، فأجابته بضحك المتهمك : أطلق السادسة أيها الأبله عساك تصيب .

فقنط مرميس ، وأطلق الرصاصة الأخيرة ، وهو يرجو أن لا يخطئ المرمى .

وعند ذلك بزغ النور فجأة فأثار السرداب ورأى مرميس البستانية الحسناء واقفة أمامه ضاحكة هازئة

- ٣٥ -

ولا يسع القلم وصف ما أصابه من اليأس بعد هذا الفشل وفراغ مسدسه من الرصاص . غير أنه كان لديه خنجر وكان ذلك النور الذي لم يعلم من اين أتى

لا يزال ساطعاً ينير السرداب ، فجرد خنجره وانقض على البستانيـة وهو يحسب انه يدركها إذا هربت منه ، غير انها لم تتحرك ولبثت واقفة في مكانها تنظر بملء السكينة ، فحمل عليها حملة منكرة وطعنها بصدرها طعنة نجلاء ، فأصاب الخنجر جسماً حديدياً وانكسر .

وعلم مرميس انها لابسة درعاً من الفولاذ ، فهجم عليها يريد خنقها بيديه .

وكاد مرميس يحن من غيظه ، فقد أضاع مسدسه وخنجره ونوره . فجعل يبحث عن عدو غير منظور في دهليز لم يرفيه غير المعجائب المدهشة ، وهو يتوقع كل حين أن يصاب بما أصيب به السائق فيسقط في هوة أو يفاجأ بمكيـدة أخرى .

وكان يسير الى الأمام بملء الحذر ، وكلما مشى عرف من صوت روميا أنها لا تزال تتقدمه وتضحك عليه ضحك الهازئين

ثم انقطع هذا الضحك فجأة وظهر لمرميس نور ضعيف عن بعد . فجعل هذا النور نصب عينيه وسار اليه ثابت القدم رابط الجأش غير مكترث لما كان يتوقعه من الميكائد بسبب ما تولاه من القنوط وما زال يسير حتى وصل الى هذا النور ، فوجدته نوراً ضعيفاً ينبعث من خلال باب .

ولم يتردد هنيهة وفتح الباب ، فانفتح وظهر له نور عظيم . فوقف على عتبة الباب وجعل ينظر ، ورأى قاعة متسعة تشبه كل الشبه تلك القاعة التي وضعت فيها روميا المـركـيز دي مورفر في لندرا ، كما قرأ في كتاب الفيروزة

ورأى في وسط القاعة سريراً ، وفوق السرير امرأة مضطجعة فلما رآها مرميس صاح صيحة فرح وأسرع اليها لأن هذه المرأة كانت فاندرا .

ولم تكن فاندرا نائماً فلما سمعت مرميس يناديها باسمها التفتت اليه وقالت له .

ماذا تريد أيها الرجل ؟

فأجفل مرميس وارتد منذعراً ورأى بين عيني فانداء علائم الجنون وانها لم تعرفه

أما فانداء فإنها لم تكترث لانذاعاره وقالت له بلهجة لطيفة : إنك لم تخطيء أيها الفقي ، فقد كنت أدعى فانداء من قبل ، أما اليوم فلاني أدعى السلطانة فاطمة وسأتزوج البرنس علي شقيق السلطان زوجي الأول ، وسيتولي خطيبي السلطنة فأكون سلطانة مثله . وسترى ما يعده لي من الملاهي المدهشة .

ثم حدثت مرميس وقالت : يخال لي اني أعرفك أيها الرجل فأين رأيتك من قبل . أما أنت رئيس التشريفات في بلاط البرنس علي ؟

فصاح مرميس صيحة منكرة وقال لها بلهجة اليأس : فانداء كيف لا تعرفيني وأنا مرميس ؟
— إنني ما سمعت هذا الاسم من قبل .
— روكامبول .

فارتعشت فانداء عندما سمعت اسم روكامبول ونزلت من سريرها فوضعت يدها فوق كتف مرميس وقالت له بخنو : ماذا قلت لي ؟
— روكامبول .

فقطبت حاجبيها ووضعت رأسها بين يديها وبذلت جهداً عظيماً كي تذكر هذا الاسم ثم قهقهت ضاحكة وقالت : لا أذكر شيئاً

وكان في تلك القاعة بيانو فذهبت اليه وجعلت تعزف عليه غير مبالية به ، فلطم جبينه بيده وقال : ويلاه إنها مجنونة
فأجابه صوت من ورائه يقول : وستجن مثلها بعد بضع ساعات

فالتفت ورأى البستانية الحسناء واقفة على عتبة الباب فقال لها : تباً لك من شقية .

وحاول ان ينقض عليها ولكنه شعر فجأة بأن رجله لا تستطيعان
المسير ، كأنما قوة خفية حالت بينه وبينها فقال لها لا بد من سحقك
أيتها الأفعى .

فقال له روميا : ستسحقني في غير هذا المكان ، وأما الآن لصنع إلي :
إنك أردت ان تتدخل في شؤوني وهي غير شؤونك ، وحاولت ان تقف
على أسراري ولا شأن لك بها ، وأردت ان تميظ ذلك الحجاب السري المنسدل
على حادثة المركيز دي مورفر كما حاول ذلك من قبلك البارون هنري والفيكونت
مونتيجرون .

أما البارون والفيكونت فقد قتلا كما علمت . وهذه المرأة أرادت أن
تقف على أسراري أيضاً ، فانظر اليها تراها مجنونة جزاء مداخلتها
في شؤوني .

والآن إني أخبرك بين أمرين وهما إما أن تعرف كل شيء وتموت او تكتفي
بما رأيت فتعيش ولكن مجنوناً كهذه المرأة فاختر إذ لا مناص لك من أحد
هذين الشرطين .

ولحظت روميا انه ارتاع من الجنون فقالت له : إذا أردت الوقوف على
أسراري ، أطلعك على كل شيء وأريك المركيز دي مورفر . ولكنك حين
تراه تموت

وإذا كنت تريد الحياة وفضلت الجنون ، وهو قد يكون خيراً من العقل ،
إني أقضي على صوابك بلحظة بل بإدارة لولب . أنظر ..

ثم ضغطت على لولب في الحائط ، فخرج منه في الحال دخان رطب
أبيض عرفه مرميس للفور ، إذ ذكر ما لقيه منه حين كان في قبضتها في
المرّة الأولى .

وعادت روميا فضغطت على لولب آخر فانقطع الدخان حالاً وقالت له :
إختر الآن

- أريد ان أعرف كل شيء .
- وتوت ؟
- نعم
- إذاً ليكن ما تريد وسأطلعك على كل شيء .
- وصفقت بيديها ثلاث مرات فدخل عند هذه الإشارة رجلان .

- ٣٦ -

ونظر مرميس الى هذين الرجلين فلم يعرفهما . ولكنه ما لبث ان نظر الى الآخر حتى دهش دهشاً غريباً ، إذ عرف انه هو ذلك الأسباني الذي تركه مقيد اليدين والرجلين بحراسة ميلون . ولم يكن لديه أقل مجال للشك ، لان الأسباني كان لا يزال مرتدياً بالملابس نفسها ، أي بملابس سائق المركبة .

وكان أحد الرجلين مسلحاً بمسدس والآخر بخنجر ، فقالت له البستانية : أنظر أنهما مسلحان وأنت أعزل ، فأنت في قبضتي ولا مناص لك من يدي وبكلمة تصدر من في ينقض عليك هذا الرجلان ويقضيان عليك . ورأى مرميس ان الخطر قد استفحل فزاده الاقدام على الموت جرأة ، وما راعه غير فائداً جالسة تعزف على البيانو وهي رافعة نظرها الى السماء ، فلسي موقفه وقال : وارحمته عليك ايها المنكودة .

فقالت له روميا : تقول انك تريد ان ترى وإذا كنت لا تزال تؤثر الموت على الجنون إتبعني .

- نعم فسيري بي إلى حيث تشائين . وأخذت يده بيدها وأمرت الرجلين ان يسيرا أمامها ، وسارت بأثرهما

مع مرميس الى غرفة أخرى . ولما فتح الرجلان بابها ودخل مرميس مع روميا تراجع الى الورا ، إذ رأى نفس ما رآه ماريون ومونتييجرون من قبله منذ أربعة او خمسة أعوام ، أي انه رأى جثة ممدودة على منصة وحولها أربع شمعات مضاءة .

فقال له روميا بلهجة الحزن الشديد : أنظر أنت اردت ان ترى .

— من هذا العله مورفر ؟

فهمزت رأسها وقالت : كلا ليس هذا مورفر الذي تراه ، فقد خدعت به كما خدع سواك . أدن من هذه الجثة الراقدة والمسها بيدك تجد انها جثة بشرية لا تماثل من الشمع . إن هذه الجثة جثة الرجل الوحيد الذي أحببته في هذا الوجود

ثم دنت من الميت فقبلت جبينه وعادت الى مرميس وعيناها تنقدان فقالت : إن هذا الرجل الذي تراه هو برديتو الذي قتله مورفر ، برديتو الذي أحببته منذ حدثاتي وأنا أنتقم بموته في كل ليلة بل في كل ساعة .
إنك أردت ان تقف على أسراري وستعلم كل شيء .

ثم أخذته بيده وسارت به إلى باب آخر ، ولما فتحتة شعر مرميس ان الدم قد جمد في عروقه إذ رأى غرفة شبيهة بغرف السجون ورأى مصباحاً معلقاً في سقفها وفي آخر الغرفة فراش من القش عليه رجل شيخ وفي وسطه سلسلة من الحديد معلقة بالجدار .

فلما رأى الشيخ روميا بدت عليه علائم الرعب فضم يديه شأن المتوسل وقال بصوت يتهدج : رحماك أعفي عني

ولم يكن هذا الرجل مجنوناً ، بل كان يشعر بحقيقة كل ما يقاسيه من العذاب .

فضحك روميا ضحك المتهم وقال له : العلك عفوت انت عن برديتو .
هل رحمت شبابه لارحمك وأعفو عنك ؟

ثم التفتت الى مرميس وقالت له : ما زلت قد قرأت كتاب الفيروزة فأنت تعرف هذا الرجل بل هذا الشيطان المتنكر بصورة إنسان .

إن هذا الوحش الكاسر قد رباني وربى برديتو وزرع في نفوسنا الحقد على الماركيز دي مورفر ، هذا هو الدوق دي فنسترنج الذي علمني أن أقتل النفوس بالروائح العطرية وإن أسلب العقول بالقبلات وهو الرجل الذي سلح الماركيز دي مورفر بمسدس وحمله على قتل برديتو .

وأخرجته من ذلك السجن وهي تضحك هازئة بالدوق ، فتبعهما مرميس وهو لا يعلم إذا كان في يقظة او حلم ، ويمعجب كيف علمت بكتاب الفيروزة

ثم جعلت تضحك ضحك الأبالسة وتقول : لقد حسب هذا الأبله اني رضيت من الانتقام بتعذيب مورفور ، وانه نجح مني . ولكن لا أكون انتقمتم لبرديتو إذا أنا لم أعذب هذا الشيخ الضئيل ، فإنه أعطاني كثيراً من المال ووهبني السفينة ، وجعل بحارتها طوعاً لأمرى . فبذلت المال للبحارة واستعنت بهم فنصبت له فخاً وقع فيه ، فقبضت عليه . وانظر ما أعددت له من العذاب .

وكان في زاوية الغرفة اقون ناري لا يراه الشيخ فأشارت الى الأسباب في إشارة فهمها فأخذ قضيباً من الحديد ووضعه في النار .
وسمع الشيخ هذه الحركة فبكى وأن وقال : رحماك .
- الملك رحمتني بمن أحب ؟

ثم جعلت تدبر القضيب الحديدي في النار حتى احمر فانزعته ودنت من الشيخ فكوت به كنفه وذراعه ، وجعل الشيخ يصيح بصوت يقطع القلوب من الاشفاق حتى ان مرميس نسي موقفه والتمس العفو للشيخ . فضحكت روميا ضحكاً عالياً ورمت القضيب الى الرجل .

ثم عادت الى مرميس وقالت له : بقي عليك ان ترى مورفر هلم بنا .

وسارت به الى غرفة اخرى ولما فتحت بابها نظرت مرميس ورأى غرفة تشبه معابد الهنود علقت فيها مصابيح مختلفة كانت أشمتها تترافض على جدران صورة فيها الرسوم الغريبة بحيث كانت تشبه معبد الالهة سيوا الذي كادت تحترق فيه جيبيسي النورية .

ثم سمع صوت انفاس انسان بالقرب منه فالتفت ورأى رجلاً جالساً على مقعد شرقي في زاوية الغرفة ، وهو بارز الوجنتين غائر المقلتين مرخي الشفة وبيده غليون طويل كان يدخن به وتنبعث منه رائحة الأفيون .

فدنا منه مرميس وحقق به فرأى رجلاً يشبه الخيال غير انه على تجعد وجهه وهزاله كان يشبه جثة برديتو التي رآها كل الشبه وقال في نفسه : إذا لا بد ان يكون هذا المتكود المركيز مورفر .

وتحرك شارب الأفيون غير ان تحركه لم يكن لأنه رأى مرميس فانه كان لا يرى غير ما يوحيه اليه سكره ويتمثل له شخص يحبه ولا يراه فيناغيه بأرق الفاظ الغرام .

وقد تمثل له ذلك الحبيب وجعل يقول . نعم أحبك ولو عشت معك إلى الأبد لرأيت الأبد قصير المدى سريع الزوال .

ثم بسط ذراعيه وضمهما إلى صدره وكأنه يعانق شخصاً حقيقياً .
وجعل مرميس يتأمله وهو يوشك ان يحن من الشفقة عليه فدنّت منه روميا وقالت له : ما رأيك بهذا الرجل ؟

فارتعش مرميس وقال أهو المركيز دي مورفر ؟

— هو بعينه ..

— أهذا كل انتقامك ؟

— نعم . .

فضحك مرميس وقال : أحمد الله فقد كنت أحسبك أشد عنفاً وأغلظ

فؤاداً فان هذا الرجل قد ذهب الأفيون بصوابه فهو لا يدرك معنى انتقامك بل أراه سميداً يقضي ساعاته بين الأحلام وخيالات الغرام . فابتسمت روميا ولم تجب .

فقال لها : لا انكر انك ستقتلين جسمه قتلاً بطيئاً ، ولكن لا سلطان لك على نفسه .

- انظن ؟

- إنك قتلت شعوره بالادمان على السكر فلم يعد يشعر بعذابك حتى انك لو اردت قتله لاستقبل الموت دون أن يدري انه يموت .

- أراك ذكي الفؤاد فإن كل ما تقوله أكيد بالظاهر غير انك مخطيء في الحقيقة ، فإن هذا المركيز تمر به ساعات هائلة يذكر بها اسمه وولده وكل حياته السابقة ، فيخافني خوفاً لا يوصف ، واتمثل له بمثال الأبالسة ، ثم يعود فيحبني كما تراه الآن ..

-- هذا محال ، لأن الأفيون يخمد الذاكرة .

-- هو ذاك غير انه لدي دواء يبطل تأثيره مؤقتاً

ثم أخرجت زجاجة صغيرة من صدرها تحتوي على رشاش أبيض فأخذت شيئاً من هذا الرشاش ووضعت في الغليون ثم قدمته للمركيز ووضعت في فمه ، وقالت له . أريد ان تدخن .

فامتثل المركيز وجعل يدخن دون ان يعي . فنظرت البستانية إلى مرميس وقالت له : اصبر هنيئة وسترى ما يكون .

- ٣٧ -

وكان مرميس ينظر إلى هذا الشبح الذي يدعونه المركيز دي مورفر وروميا جالسة بقربه ، ولم يكن معها أحد من اتباعها .

ونعم انه قد فقد مسدسه وخنجره ، غير انه كان رجلاً شديداً والرجل أشد من المرأة في كل حال فقد كان يستطيع ان ينقض عليها ويقتلها قبل ان تتمكن من الاستغاثة ، غير ان هذا الفكر لم يدر في خاطره ، فان هواء تلك الغرفة التي كان فيها ، أضعف أعصابه ، وسكن فائز غضبه ، ففقدت نفسه كل حمية ، ولذلك كانت روميا واقفة بقربه دون شيء من الحذر .

وكان المركيز عاكفاً على التدخين بشوق شأن الشرقيين الذين يلتهمسون الملاذ في عالم الخيال وبدأ ذلك الرشاش يؤثر فيه فامتنع عن التمتعة وكف عن المناجات وجعل ينظر من حين إلى حين دون ان يعرفها .

فقال روميا : انه لم يعرفنا بعد .

- العله يستطيع معرفتنا .

- دون شك متى تم تأثير هذا الرشاش .

وبعد هنيهة رأى عيني المركيز تضيئان شيئاً فشيئاً باسعة تدل على العقل ثم القى الغليون من يده إلى الأرض مفضباً وتحرك حركة فوق مقعده وقال :
اين أنا ؟

فقال روميا بصوت التهكم : السلام عليك يا حضرة المركيز .
فعرفها المركيز وضم قبضة يده يحاول ضربها وهم ان يثب عليها وهو ينظر اليها نظرات حقد هائل ورشفته بالحافظها الساحرة وقالت له : إحدرك فساءنت تعلم ان رجلك لا يحملانك وانك لا تستطيع الوقوف .
فان اذن الموجه وقال : هو ما تقولين .

ثم سقط على مقعده وقد ذهب جهده في الوقوف عبثاً .
وكان صوت البستانية يصل الى اذنيه كفحيح الأفعى وقالت له : أيها
المركيز أتعرف اين انت ؟

- نعم ، أعلم اني ضحيتك وشهيد انتقامك ، وانك شيطان في صورة
انسان .

- إذا تعلم انك المركيز دي مورفر .
- ما أنا بشيء الآن ولا اسم لي .
- ولكنك كنت المركيز دي مورفر اليس كذلك ؟
- نعم ..
- وكان لك خلية تدعى الفيروزة .

فتنهده المركيز وقال : مسكينة فقد يقضي عليها الغم .
- بل قضي عليها ..

- لقد أخبرتني من قبل بهذا النبأ المشؤوم ولكنني لا أصدق قولك .
- ولك ولد اليس كذلك ؟

فتنبه المركيز عند ذكر ولده تنبهاً شديداً وقال : كلا ليس لي ولد ولم
يكن لي اولاد .

- أتريد ان تقول انك لم تقل لي اين هو هذا الغلام ولكنني اعرف مكانه .
- كذبت ايها السافلة .

ولما قال هذا القول نظر الى مرميس فقال : من هذا ..
- كيف ذلك ألم تعرفه ؟

- كلا ، لكنه أحد أتباعك أو أحد شركائك في الجرائم .
- لقد خدعت ايها المركيز فان هذا الرجل من اصحابك .

فنظر اليه ملياً ثم وضع رأسه بين يديه وقال : لا أعرفه ولا أذكر
اني رأيته .

– اذا لم يكن صديقك مباشرة فهو صديق صديقك مونتيجرون ، ألم أقل لك مرة ان مونتيجرون قد مات ، اما هذا الرجل فهو صديق له وقد اراد مثله أن يبحث عنك ووجد غلامك .

فنظر اليها المركيز نظرة غضب وقال : قلت لك ليس لي اولاد .
فالتفتت روميا إلى مرميس وقالت له : قل لهذا المركيز ان ابنه كان حتى هذا الصباح في الدير الكائن في شارع البوستان .

فأطرق مرميس برأسه إلى الأرض وقال : هذا أكيد .
فالتفتت عينا المركيز ووقف وهو يكاد يحرقها بنظراته وقال : نعم لي ولد ولكنك لا تستطيعين الاهتداء اليه .
– قلت لك اني اعلم مكانه .

– وانا قلت لك انك كاذبة فيما تدعين .

– انه في قبضة يدي ايها الغشيم وسترى بعينيك .
ثم صفقت ثلاث مرات ففتح فجأة باب في جدار الغرفة . لم يكن منظوراً وارتفعت اصوات صراخ الغلام .

فالتفت مرميس منذعراً . ورأى في وسط الغرفة الجديدة التي فتح بابها غلاماً عاري الأكتاف ، مقيد اليدين والرجلين ، ورأى رجلاً ينهالان عليه بالضرب بالسياط وهو يصيح صيحات تقطع القلوب من الاشفاق دون ان يجد قلباً يحن عليه ويرحم ذلك الجسم الصغير .

وكان هذا الغلام ابن المركيز دي مورفر الذي اختطفته روميا من الدير.

- ٣٨ -

وقد كان الرشاش الذي وضعته روميا في غليون المركيز رد اليه بعض الصواب .

أما مرميس فقد ردت اليه قوته المتبخدة حين رأى دموع الفلام وصياحه فانقض على اللصين اللذين كانا يضربانه .

وعند ذلك أشارت روميا إشارة إلى الرجلين فتركا الفلام وهجبا على مرميس فجري بينهم عراك هائل وقد ضاعف الغضب قوة مرميس فكافأ يفوزان عليه ويلقيانه على الأرض ثم ينهض متغلباً عليهما إلى أن وهت قواه وظفرا به فالتقياه إلى الأرض وركع احدهما فوق صدره واشهر خنجره ، ثم قال لسيدته :
أتريدن أن أطعنه ؟

- كلا ، بل قيده .

فتعاون الرجلان على تقييده ولم يفه بكلمة إذ كان من تلامذة روكامبول وهو يعلم أن الاستغاثة في هذا المقام لا تفيد .

أما البستانية فانها أمرت الأسباب أن يفك قيود الفلام وكان المسكين لا يستطيع أن يصيح حذراً من الضرب ، ففك قيوده ثم أمرته أن يذهب به ، فامثل

وبقي مرميس وحده مع البستانية الحسناء مقيداً ودنت منه وقالت له :
اني لا أحب أن اباحثك وانت ملقى على الأرض ، ثم أمسكت كتفيه ورفعته بخفة عجيبة دلت على شدة قوتها البدنية ووضعتة على المقعد فقالت :
لنتحدث الآن .

فنظر اليها نظرة احتقار على ما كان فيه من الخطر ولم يجبهها .
أما المركيز مورفر فكان لا يزال مغمياً عليه لأنه حين رأى ابنه في قبضة البستانية وسمع صراخه ورأى انه لا يستطيع ان يغيثه صاح صيحة هائلة

وسقط على الأرض لا يعي .

وجلس روميا قرب مرميس ورفضت المراكز برجلها وقالت : لا حاجة إلى الاهتمام به فحين يستفيق من اغمائه يعود إلى ذهوله القديم ، واما انت ايها الفتى اني اعرف من أنت ، اذك تدعى مرميس ورئيسك لص يدعى روكامبول ، غير ان روكامبول مسافر ، وقد مات دون شك ، وما أنت بكفوء لأن تعمل اعماله .

اذك كنت في بدء امرك لصاً ثم اصبحت غنياً ولم يخطر لي ان اتدخل في امورك ولكن الغرور قد تولاك فاحببت ان تعرف كل شيء فاضطرت الى المداخلة في امرك فوضعت العيون عليك وأغريت احد خدمك فأخبرني بالكتاب الذي كنتم تقرأونه بلاء الاهتمام فامرته ان يسرقه ففعل وهو كتاب الفيروزه سرق منك ايها الأبله وأنت من الغافلين .

اني انتقم من الرجل الذي كنت أحبه ، وهو حق من حقوقي ، فأردت ان تنزع مني هذا الانتقام فقبضت عليك وهذا من حقوقي أيضاً .
وكان لك شريكة بهذا العدوان فجعلتها مجنونة كما رأيت ولا يستطيع سواي أن يرد اليها الصواب ولكني ما تعودت هذا الكرم .

اني سأبرح باريس بعد خمسة ايام ، وبعد ثمانية ايام اكون بين الماء والسماء ومعني هاتان الضحيتان فلا يشغل نالي بعدها من يهتم بشؤون المراكز .

وبعد خمسة أيام يجدون بين انقاض هذا المنزل امرأة مجنونة واقفصة قرب جثة وان المجانين لا تصدق اقوالهم أما المجنونة فهي فاندا واما الجثة فهي أنت .
ثم ضحكك ضحك الهازيء وقالت : لا أخالك ترجو ان أعفو عنك .
- اقتليني فاني احتقرك .

فمادت إلى الضحك وقالت : تعجبني منك هذه المرأة فقد طالما اعجبت النساء بالابطال ولذلك فاني لا اقتلك بمسدس او بخنجر كما قد يتبادر إلى ذهنك فان اراقة الدماء محرمة علي ولكني اميتك ميتة تنطبق على جرأتك وتوافق

بسالتك واقدامك .

إنك رجل ذكي الفواد قرأت تواريخ الأمم وعلمت دون شك ان الصينيين أغلظ الأمم قلوباً وأشدهم تفنناً بالتعذيب ، وقد تعلمت منهم طريقة للقتل أنفذها فيك ، وهي اني سأميتك باليقظة الدائمة فلا ينطبق جفناك إلا على الموت .

وكان مرميس بأسلاً لا يكثرث بالموت ولكنه لم يسمه حين علم هذه الميته الهائلة إلا أن يندعر وتظهر عليه علائم الخوف فضحكت روميا وقالت : إن من يعذب هذا العذاب يموت بمدة خمسة أيام ، ولكن من كان بأسلاً مثلك لا يجد هذه المدة طويلة .

ثم صفقت بيديها ثلاثاً فحضر اليها رجلان ، واضطرب مرميس فقال في نفسه : أين أنت ياروكامبول فتتقذني من هذا البلاء .

- ٣٩ -

ولما جاء الرجلان قالت لهما : يجب أن تبقىا مع الرجل فلا تفارقانه . وقالت لمرميس اطمئن أيها الباسل فسأزورك في هذه المدة من حين إلى حين ثم تركته وانصرفت . فجلس الرجلان بقرب مرميس .

وجعل مرميس ينظر اليهما ويفتكر بالطريقة التي سيميتانه فيها ثم يفتكر بروكامبول ويقول : اني لو كنت أعلم أنه في باريس لما يئست .

ومضى على ذلك ساعتان فضعفت قوته الطبيعية وبدأ النعاس يدب إلى جفنيه .

والرجلان أمامه ينظران عينيه منفتحتين فلا يفعلان شيئاً إلى أن تغلب عليه النعاس فأطبق جفنيه .

وفي الحال سمع دويًا فجائياً ففتح عينيه منذعراً وتحرك متمللاً بقدر ما تسمح له قيوده ، وكان هذا الدوي من قضيب حديدي قرع به الاسباني طبلاً من النحاس فعلم مرميس ان العذاب قد بدأ .

ومضى على ذلك خمس ساعات اغمض مرميس عينيه في خلالها عشرين مرة وكلما اطبق جفنيه أيقظه فجأة دوي الطبل .

غير انه تمود هذا الدوي واشتدت حاجته إلى النوم فلم يعد يوقظه صوت الطبل فقال الاسباني لرفيقه اذهب وأتني بالاناء .

فخرج رفيقه وعاد بعد هنيهة يحمل اسفنجة وإناء فيه مياه مبردة بالثلج ، وجعل يغمس الاسفنجة بالمياه المبردة ويعصرها على رأسه كلما أطبق عينيه فيهب المسكين منذعراً لا يجد الراحة إلا بالموت .

ومضت ساعتان على هذه الطريقة الثانية فأتت البستانية الحسناء وقالت للرجلين : اذهبا وناما فانا أتولى السهر عليه عنكما .

وقد بدأ مرميس يشعر بطنين في أذنيه وثقل في دماغه ، ولكنه حين رأى تلك المرأة هاج أشد هياج وجعل يشتمها اقبح شتم وهي تضعك كأنه يثني عليها .

ثم انقطع عن الشنائم وتجلد نحو ساعتين إلى أن أغمض عينيه بالرغم عنه فأخذت البستانية دبوساً طويلاً من دبابيس البرانيط وخزته به فصاح مرميس متألماً وأحس انه سيفقد رشده .

كل ذلك وروميا جالسة أمامه تراقب عينيه بصبر عجيب ، فإذا اطبقها وخزته بالدبوس وما مالت على ذلك حتى صبغ الدبوس بدمه وأصيب بالذهول ولكنه على ذهوله كان يسمع صوت حفر فوق رأسه ، وربما خيل له ذلك لتزايد طنين أذنيه ، أما البستانية الحسناء فكان يظهر أنها لم تسمع شيئاً ، وقد اضطجعت على مقعد بالقرب منه ، وحملت كتاباً بيدها وجعلت تقرأ مقطعاً في الكتاب وتنظر نظرة إلى مرميس .

ومضت ساعات كثيرة على هذه الحالة واستحال ذهوله إلى ضعف شديد ،
وتغلب عليه سلطان النوم حتى كانت روميا تضطر إلى وخزه مرتين أو ثلاثاً
كي يستفيق .

وعند ذلك دخل الرجلان وهما يحملان كانوناً كبيراً تتقد فيه النار وقضيباً
من الحديد ، فجن مرميس من رعبه حين رأى النار إذ خطر له عقاب الدوق
دي فذسترنج .

ولكن النوم تغلب عليه بالرغم من رعبه ، وكان القضيب الحديدي قد
وضع في النار ، وجاء الاسباني ونزع الثياب عن كتفي مرميس فلم يكذب يطبق
عينيه حتى شعر بأن النار قد كوت كتفه ، فهب مندعراً كالجاذين ودام هذا
العقاب الثالث عشر ساعات لم ير مرميس في خلالها البستانية الحسنة وكان
كلما غفا تكوي النار جسمه فيصيح ويتوجع وقد تخضب جسمه بالدماء .
وتكننت منه الحمى ولكنه كان مع ذلك كله يسمع حركة فوق رأسه لا يعلم
ما هي .

وفيا هو على ذلك إذ نظر الاسباني إلى رفيقه نظرة انذهال فانه سمع ما
كان يسمعه مرميس وقال له : يجب أن نوقظ السيدة ونخبرها .
فتأكد مرميس عند ذلك بصدق سماعه وعلل نفسه بالنجاة .

وبعد حين عادت البستانية الحسنة فأشار لها الاسباني إلى السقف حيث
سمع الصوت .

فأصغت روميا وسمعت تلك الحركة فاصفر وجهها ، وزاد رجاء مرميس ،
وعند ذلك سقط قسم من السقف فجأة ووقع حجر ضخم عند قدمي روميا
فتراجعت مندعة إلى الوراء

ثم تلا هذا الحجر حجر ثان فثالث ففتحت كسوة في السقف وسقط منها
رجلان . فصاحت البستانية صيحة ذعر ، وصاح مرميس وهو بين حي وميت
صيحة انتصار .

ذلك ان هذين الرجلين الذين انقضا انقضاض الصاعقة كانا روكامبول وميلون ، وكلاهما يحمل خنجرأ في فمه ومسدساً في يده .

- ٤٠ -

وكان اضطراب مرميس شديداً حتى انه اوشك ان يغمى عليه من شدة الفرح ، وأسرع ميلون وقطع قيوده بخنجره .

أما روكامبول فانه وضع يده على كتف روميا وقال لها انك لا تعرفيني ولكفي سأخبرك باسمي .

وتحمس مرميس وقال : روكامبول .

غير ان روكامبول هز رأسه وقال : اني لا ادعى أمام هذه السيدة روكامبول ولا المماجور أفاغار . ثم حذق بها وقال بل اني ذلك الرجل الذي يجب أن يحضر من الهند .

فحدث عند ذلك ما يحدث في مباغثات المراسح فإن هذه المرأة المائسة الهائلة التي قضت على مرميس بموت اليقظة ، وهذا الشيطان الرجيم الذي يعذب المركيز منذ خمسة أعوام ، بل هذا الوحش السامر الذي يجلد الأطفال بالسياط ، ويكوي الشيوخ بالنار ، إن هذه المرأة ركعت فجأة أمام روكامبول ولكنها لم تركع ركوع مجرم يلتمس العفو ، بل ركوع عبد ينتظر الأوامر ، فجعل روكامبول ينظر اليها نظراته الحادة ، وكان المركيز دي مورفر لا يزال منطرحاً على الأرض وهو نخدر بالآفيون

فنظر اليه روكامبول وقال : إنه لم يمت بحمد الله وسيعود إلى ما كان عليه فاذا كان لديك سموم تقتل فان لدي منها ما يعيد الحياة .

ثم نظر إلى مرميس وقال : وأنت كم بقي لك هنا ؟

— لا أعلم بالتدقيق ولكنني أظن اني هنا منذ يومين على الأقل .
 — وفاندا أين هي ؟
 فأشار مرميس بيده إلى غرفة وراءه وقال : إنها في تلك الغرفة ولكنها
 مجنونة والأسفاه .
 فنظر روكامبول نظرة جفاء إلى روميا فاضطربت وقالت له : رحماك اني
 اعيد اليها الصواب .
 فقال لها ببرود : هذا ما أرجوه على الأقل والويل لك إذا أصبت بمكروه
 وكان مرميس لا يزال له بقية من الرشد على ما لقيه من العذاب ، وكان
 يتوقع من روكامبول أن يعاقب البستانية واعوانها في الحال ، ولكن روكامبول
 لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل انه أعاد مسدسه إلى جيبه ، وخنجره إلى منطقتة
 وقال للبستانية : اني اتيت في الوقت الملائم لانقاذهم ، ولو كان أصيب أحد
 منهم بمكروه لما كنت أبقي عليك .
 وكانت روميا لا تزال جائئة أمامه فقال لها : انضي ايتها العبدة فساني
 محتاج إلى خدمتك .
 فوقفت وقالت : مراها الرئيس .
 وتتم مرميس قائلاً : لأشك ان ما أراه مثله لي الحمى !
 فسمعه روكامبول وقال له : بل انك في يقظة وقد زال عنك الخطر وانت
 في حاجة للرقاد فتم .
 — اني اشد حاجة إلى الشرب مني إلى النوم فان النار تتأجج في صدري .
 فنظر روكامبول إلى البستانية نظرة خاصة فالتفتت إلى الاسباني وكان
 منذها أتم الاندهال مما يراه وكلمته بلغة سرية لا يعلمها غير النور فذهب
 الاسباني وعاد بعد هنية بكأس مبردة من الخمر وقدمه لمرميس بملء الاحترام .
 فتردد مرميس عن شربها إلى ان امره روكامبول فشرب الكأس مطمئناً
 جرعة واحدة ، ثم سقط على الأرض لا يلوي على شيء واطبق جفنيه فنام

نوماً هنيئاً بعد ذلك العذاب الشديد .
ولما رأى روكامبول أنه غفا قال للبستانيّة : اتبعيني الآن
فتبعته صاغرة وخرجاً من الغرفة .

ولم يدرك مرميس حين استيقظ من رقاذه كم كانت مدة نومه ولكنه وجد
نفسه لا يزال في تلك الغرفة التي أنقذه منها روكامبول دون أن يجد أثراً
لروكامبول والبستانيّة والمركيز ، بل كان وحده في تلك الغرفة المنارة بضوء
ضعيف فنظر إلى ما حواليه وقال : أين ذهبوا وأين أنا !

وعند ذلك فتح الباب وظهر له ميلون ففرح مرميس لرؤياه وقال : إن نحن
الآن يا ميلون ؟

— في منزل سانت مانديده تحت الأرض .

— وفاندا ؟

— ان الرئيس صحبها وإياه .

— وهي ؟ (يريد البستانيّة الحسنة) وقد ظهرت عليه علائم الذعر
حين ذكرها .

— سافرت ايضاً مع الرئيس .

فانذهل مرميس وقال . ما هذه الأسرار ؟

فقال ميلون : وانا منذهل نفس انذهالك ، ولكن الرئيس لا يظهر
أسراره لأحد .

وكان مرميس كان لا يزال يخشى ان يكون حاملاً لفرط ما لقية من
العذاب ، فقال لميلون : إذن أحق ما رأيته وان الرئيس عاد من الهد وانه
هو الذي انقذني ؟

— ذلك لا ريب فيه

— أسافر بعد ذلك كما تقول ؟
— نعم وقد تركني بقربك واعطاني اليك هذا الكتاب الضخم وهذه الرسالة .
فأخذ مرميس الكتاب ونظر في صفحته الأولى فوجد فيه هذا العنوان .

« كتاب كنوز الهند بقلم الماجور افاتار »

ثم فض الرسالة المعنونة باسمه وقرأ ما يأتي

— ٤١ —

« ولدي العزيز .

« اني لم أعاقب ذلك الوحش المفترس الذي يدعونه « البستانية الحسناء » ولكنها مع ذلك قد عذبت المركيز دي مورفر عذاباً قضي على صوابه والأسفاه وأخشى أن لا يعود اليه رشده إلا بعد زمن طويل ، وعذبتك أنت عذاباً هائلاً يحلو بعده كل انتقام فاني لو تأخرت عن تجديدكم بضع ساعات لما كنت انت والحبيبة فاندا في قيد الحياة .

« غير اني لم أضرب هذه المرأة ضربة قاضية تسحقها ، بل أعددت لها وسائل التوبة والاستغفار لسر دقيق ستدرك تفاصيله متى قرأت كتاب كنوز الهند وهو الكتاب الذي كتبته بيدي وأرسلته اليك مع ميلون .

« انك سمعت دون شك بأخبار الهند التي يعبت فيها الخناقون وبخفاياها وأسرارها الهائلة .

« على ان هذه البلاد ليست قاصرة على رجال الشر ، بل ان فيها كثيراً

من رجال النبل والخير ، وكثيراً من الجمميات العظيمة المتحدة لمقاومة مظالم الانكليز .

« وان بين أحرار الهند الذين أبوا الخضوع للانكليز أميراً يؤثر الف موت على المبودية ، وهذا الأمير كان من أصحابي

» إن روكامبول اللص السفاك عاش عامين جنباً إلى جنب مع أعظم نبيل في الوجود فشاطره البؤس والنعم لم يفصل بيننا غير الموت .

« وقد أقسمت لهذا الأمير النبيل وهو ينظر الي للنظرة الأخيرة يمناً حرجة لقضاء شأن خطير أو مل أن أقال بعد قضائه ما أرجوه من عفو الله وستكون أنت عوني على البر بهذ اليمين .

« ومن أجل هذا غفرت عن « البستانية الحسنة » وعينتها في خدمتي لحاجتي إليها في هذه المهمة الخطيرة . إنها آلة هائلة فلا يفل الحديد إلا الحديد .
« إذاً إقرأ الكتاب الذي أرسلته اليك وموعد لقائنا قريب »

(روكامبول)

- ٤٢ -

- فلما قرأ مرميس هذه الرسالة قال لميلون : متى سافر الرئيس إلى لندن ؟
- أمس مساء ..
- وهل أمرك أن تبقى معي ؟
- نعم وأنا معك منذ غفوت ، أي منذ ساعتين ، ساعة نمتها دون أن تتحرك ، لأن الرئيس سقاك مخدراً كي يسهل عليك الرقاد ويسهل علينا ضمد جراحك .
- وماذا يجب ان اصنع الآن ؟
- يجب ان تبقى هنا بأمر روكامبول فقد قال لي : لا يجب ان يبرح مرميس هذا المنزل قبل ان يقرأ جميع كتاب كنوز الهند ولدينا هنا كل ما نحتاج اليه .
- إذا سأبقى امثالاً لأمره ، ولكنني على فرط شوقي لمطالعة كتابه اؤثر الطعام على المطالعة الآن لأنني اوشك أن أموت جوعاً .
- فخرج ميلون وعاد بعد هنيهة يحمل مائدة صفت عليها صحون الطعام فأكل مرميس بشراهة لا توصف وسأل ميلون خلال الطعام كيف اهتدى الى السرداب الأرضي ، فأخبره ميلون عند ذلك بجميع ما جرى له بعد خروجه من المنزل ، وكيف احترق المنزل ، وكيف فاجأه روكامبول وهو يمزق صدره من قنوطه فأخبرت الرئيس عند ذلك بجميع ما قاله الاسباني لك ، فلم يتوقف روكامبول لحظة وجئنا إلى البشر فاهتدينا إلى مدخل السرداب ، ولكنه رأى ان القبة قد تهدمت وسدت المدخل ، فخطر له عند ذلك ان يصعد الى المنزل ويفتح منه المنفذ الى السرداب فدام ذلك يومين كاملين .

- وماذا جرى للسائق المسكين الذي كان يصحبني ؟
- وجدناه في هوة يكاد يموت من الجوع فألقناه وهو الآن في المنزل .
- فشكر مريمس الله لانقاذه ولما فرغ من الطعام اخذ كتاب روكامبول وبدأ
يقرأ فكان عنوان فصله الأول .

« محرقة الأرملة »

انتهت رواية « البستانيّة الحسناء »

ويليها الجزء الحادي عشر من روكامبول « كنوز الهند »

الجزء الحادي عشر

كنوز الهند

كنوز الهند

- ١ -

عرف القراء من رواية البستانية الحسنة التي تقدمت هذه الرواية أن روكامبول مسافر إلى لندن مع روميا وفاندا .

وقد عرفوا أيضاً أن مرميس نام ستين ساعة متوالية في ذلك السرداب الخفيف في منزل البستانية الحسنة فلما استفاق لم يجد شيئاً من آثارها الهائلة ، فلم ير المراكز المعتوه ولا فاندا المجنونة ولا الدوق الذي كان يكرى بالنار ، ولا الطفل الذي كان يجلد بالسياط ، بل وجد أمامه ميلون فأخبره كيف أنقذه روكامبول وأعطاه كتاباً ضخماً عنوانه « كنوز الهند » وأمره باسم روكامبول أن لا يبرج هذا السرداب قبل أن يتم تلاوة الكتاب ، فلم يسع مرميس إلا الامتنال وجلس يقرأ كتاب روكامبول فكان عنوان أول فصل من فصوله :

« محرقة الأرملة »

ان هذا الكتاب وضعه روكامبول وكتبه بخطه فضمنه جميع ما جرى له من الحوادث في الهند خلال اقامته فيها عامين متصلين لم يلق فيها غير العجائب النادرة من كل ما يطير بالنفس إلى عالم الخيال ويشغل المطالع بتلاوتها عن كل ما

في هذا الوجود ، اما هذا الكتاب الغريب فقد بدأ كما يأتي :
ملت الطير صباح البشر وراعها احمرار الشفق فاستقرت على الفصوص
واختبأت بين الورق .
وغابت الشمس في البحر وذهب معها حرها المحرق واستبدلت رياح السموم
التي تتساقط من أعالي الجبال بنسيمات بليلة كانت تهب من جهة البحار .

وبزغت النجوم في سماء الهند الصافية فبدأ الناس يتهادون في الشوارع
ويسيرون متزهين في سهول كالكوتا يستنشقون ذلك النسيم العليل بعد أن كان
يصهر أجسامهم حر النهار .
والعادة في الهند أن معظم قومها ينامون في النهار أيام الحر الشديد فلا
يستيقظون إلا حين تتوارى الشمس في الحجاب حق إذا هجم الظلام خرجوا
من بيوتهم وهبوا من ذلك الرقاد الإكراهي وتجولوا في الشوارع بين ساع وراء
رزقه وبين متنزه مرثع إلى رطوبة الليل ..

وهناك بيت بني من القصب الهندي عند أبواب كلكوتا في سهل قسم من
المدينة يدعى « المدينة السوداء » كان فيه أربعة من ضباط الانكليز مجتمعين
حول طاولة يشربون الشاي .

وكان بينهم ضابط فرقة وهو أصغرهم سناً فقال لرفاقه . أرايتم في صباح
اليوم حين عودتكم من المناورات موكب الأرملة المفجع ؟
فقال أحدهم أي موكب هذا ؟
- موكب أرملة الرجاء نجد كوران .
- كلا ، لم أر شيئاً من هذا .

فقال أكبرهم سناً : أعمل أرملة الرجاء قد توفيت ؟
- كلا .

- إذن لماذا تقول انه مفجع ؟

وكان الضابط الصغير يدعى جاك بلاكويلد ابتسم وقال له : يظهر جلياً

يا صديقي هاريس انك قادم حديثاً من اوروبا وانك لا تعرف شيئاً من تقاليد أهل هنده المحبوبة .

فابتسم هاريس أيضاً وقال : لتكون محبوبة قدر ما تشاء ولكن حرها غير محبوب فانه لا يطاق .

- انك إذا قارنت بين حر كالكوفا وضباب لندرا يهون عليك أمر هذا الحر ، على اني من أهل لندرا يتصل نسيي يجد ولده الملك غليوم سفاحاً أي اني انكليزي بحث من الاسرات القديمة ، ومع ذلك فلو خيرت بين أن ابقى في حامية كلكوفا وبين أن اكون في ثكنة من ثكنات لندرا لأخترت البقاء في هذه البلاد .

- ربما كان ذلك لتعودك مناخها وعسى ان أعوده مثلك ، فلنعد الآن إلى الأرملة واذكر لنا مما تعرفه من أمرها .

- انها هندية في السادسة عشرة من عمرها ومن كانت في هذا العمر في بلادنا تحسب من الفتيات وأما في الهند فانها توشك ان تحسب من المعجزة .

- نعم ، فقد قرأت شيئاً من هذا في الكتب ، ولكن هذه الصبية العجوز هل هي جميلة ؟

- انها لا تزال في نضارة الجمال .

- وهي أرملة ؟

- انها ارملة الرجاء نجد كوران ، وهو أمير من امراء الجبال ، أبى حق وفاته الخضوع للانكليز ولا يزال يوجد ستة امراء لم يخضعوا لنا بعد .

فابتسم الضابط وقال : ولكم تعلم ان اسكلترا لا تحب العجلة لأنها تورث الندم كما يقول المثل العربي فهي تقاثلهم من حين إلى حين بسلاح النصار ولكنها تقاثلهم كل يوم بسلاح الأفيون وهو أشد فتكاً من طعن السيوف وكرات المدافع .

والآن قل لنا أمات هذا الامير ؟

- نعم أنه توفي منذ شهر ، وقد وصلت أرملته مساء البارحة تصحبها حاشية عظيمة إلى أبواب المدينة ، فتجولوا بها كل الليل يصدحون لها الالخان الهندية الحزنة .

وفي هذا الصباح أركبوها جواداً وأدخلوها إلى المدينة باحتفال عظيم .
- وما أتت تعمل في هذه المدينة ؟

- أتت لتموت ..

- العلمم يريدون إحراقها بعد موت زوجها حسب عوائد الهنود ؟
- هو ما تقول .

- ولماذا يريدون إحراقها في كلكوتا دون سواها ؟
- لأن زوجها الأمير من أعظم اشراف الهنود ، ولأن مدفن عائلته في كلكوتا .

- مسكينة هذه المرأة التعميسة فانها لو خيرت لما اختارت هذه الميتة الشنماء ..

- هو ما تقول ، ومن يريد الموت لنفسه ؟ فقد مر موكبها اليوم من تحت منزلي ، ورأيت تلك المنكودة صفراء الوجه والدموع تملأ عينيها ، ولكن سيان عند أولئك الجلادين الغلاظ الأكباد رضيت أم لم ترضى ، إذ لا بد لها من صعودها إلى المحرقة ، وإذا تمنعت أصعدوها إليها بالقوة

- ومن ينفذ هذه المهمة ؟

- أهلها وخدام زوجها الميت .

- كيف تجري مثل هذه الأمور الهائلة الهمجية في كلكوتا ، أما هي مدينة انكليزية ؟

- دون شك .

- إذا كيف تأذن الحكومة الانكليزية بهذه الفظائع ؟

-- أعيد عليك ما قلته لك في بدء هذا الحديث ، وهو أنك قادم حديثاً

من أوروبا فاعلم أنه أولاً لا يجب حقدار الهدد ، أن يتداخل في شؤون الهنود الدينية .

— وثانياً ؟

— وثانياً أننا نعلم يقيناً أن أرملة الرجاء ستموت في كلكوتا ، ولكن الحكومة والشعب والبوليس يجهلون الساعة والمكان المعين للقتل .

ولذلك انهم يطوفون بتلك المنكودة في أرجاء المدينة المتسعة يوماً أو يومين ، وقد يطوفون بها ثلاثة أيام ، ثم يحتجبون كلهم عن الأنظار فلا يعلم أحد مقرهم إلى أن يعثر البوليس بعد بضعة أيام في شارع من الشوارع الوطنية المعترلة على رماد المحرقة فنعلم أن القضاء قد نفذ فيها وانها قد أحرقت بالنار .

فامتز القائد لول ما سمع وقال لو كنت حاكم الهند لعرفت كيف أحول دون هذه الفظائع التي يسود لها وجه الانسانية ، وعار علينا نحن الانكليز أن لا نفتلح جذور هذه الهمجية ونحن في ظليمة الأمم المتعدنة .

فهز القائد الصغير كتفيه وحاول أن يجيبه ، ولكن حال دون ذلك دخول ضابط آخر عليهم فشغل عن الاجابة باستقباله وقال له اهذا أنت يا حضرة الماجور ؟

— نعم أنا بعينه .

— وما لوجهك مصفر وسوتك يتهدج ؟

— لأنني اجتزت خمسين مرحلة على جوادي دون أن أقف ، ثم جلس على كرسي واهي القوى فقال الضابط الصغير لرفاقه . أعرفكم أيها الأصحاب بالسير ادورد أشد رجل عرفته في البلاد الانكليزية وأعظم الناس جرأة وإقداماً .

فانحنى الجميع أمامه وتم التعارف

وعند ذلك قال له الضابط إن هيتك يا حضرة الماجور لا تدل على التعب وحده بل على الاضطراب أيضاً .

- هو ذاك فأني محتاج إلى أربعة رجال أشداء لقضاء شأن خطير .
- هو ذا نحن أربعة نعينك فيما تريد فأخبرنا عن هذه المهمة

- ٢ -

إن هذا الرجل الذي دخل على الضباط الأربعة دون أن يتوقعوا قدومه كان في الثامنة والعشرين من عمره وكان دون الربعة، أي أن جسمه أميل إلى القصر منه إلى الطول، وهو أسود الشعر اسمر الوجه وقد لوحت شمس الهند وجهه فبات يشبه الشرقيين أكثر مما يشبه الانكليز .

ولقد تقدم تقدماً سريعاً في الجيش وكان السبب في تقدمه ما أظهره من الجرأة والبسالة في كثير من المعارك التي كان يسيرها الانكليز على أمراء الهند .

بل ربما كان سر هذا التقدم حسن اتقانه اللغة الهندية إذ كان من المجيدين فيها تكلماً وكتابة ، فكان يتنكر بأزياء الهند ويمتزج بالثائرين على الانكليز فلا يزال يماشرهم ويتلف اليهم حتى يتمكن من سرقة مشروعاتهم والوقوف على خططهم الحربية وقواتهم ومراكزهم ، فيعود بجميع هذه التفاصيل إلى الجيش الانكليزي ، فيتأهبون لمحاربة أوائل العصابة بأعظم من قواتهم ويحمون عليهم هجوم الوائق المطمئن فلا يكون لهم غير النصر الأكيد .

على أن قواد الانكليز كانوا مختلفين في تقدير أعماله والحكم عليها ، فكان بعضهم يعتبرون أن أعمال المايجور ادورد تدل على الجرأة والاقدام لمخاطرته بحياته في سبيل أمته وبلاده .

ويرى آخرون أن أعماله على ما فيها من الجرأة لا تخلو من شبه مهنة

الجانسونية ، وهي مهنة مستنكرة . فيرد عليهم آخرون أن التجسس غير منكر في الحروب .

ولذلك كان لهذا الماجور بين القواد من يحبونه ويعجبون به ومن يحتقرونه . ولكنهم على اختلافهم في تقدير أعماله ، كانوا متفقين على الاعتراف له بالبسالة النادرة .

وكان هذا الماجور على بسالته وافر الذكاء رحب الصدر كثير الدهاء ، فكان يتخلق بما يريد من الأخلاق ويظهر غير ما يضمّر .

غير أن الحلد خانته في هذه المرة فقد كانت دلائل الاضطراب ظاهرة على وجهه حتى اضطرب القائد الصغير إلى سؤاله مرة ثانية عن سبب اضطرابه .

فعاد الماجور تباعاً إلى سكينته العادية وقال : تقدم لي القول أيها الرفاق اني اجتزت خمسين مرحلة دون أن أقف إلا لتغيير الجواد ، فقد قتلت أربعة جياد .

— من أين أنت آت ؟

— من جبال الهند التي تتألف منها مملكة الرجاء نجد كوران .

— أهو هذا الرجاء الذي جيء بأمراته إلى كلكتوتا لتحرق فيها ؟

— هو بعينه ، واني ما قتلت الجياد الأربعة وجئت بهذه السرعة إلا من أجل هذه الأرملة .

فثار فضول الضباط الأربعة لهذا النبأ وصاحوا جميعهم بصوت واحد : كيف ذلك ؟

— أتعرفون كيف مات الرجاء ؟

— كلا ..

انه كان في حفلة صيد فسقطت على رجله حربة مسمومة من تلك الحراب التي يسممها الهنود في قتال النمر وغيرها من الوحوش الضارية فلا يفيد سمها

دواء ولها تأثير في القتل أشد من تأثير سلاحنا الناري .
فجرح الرجاء جرحاً خفيفاً ، لكن جسمه تسمم في الحال فما عاش غير
بضع ساعات .
فقال الضابط : أمات دون أن يخضع للانكليز ؟

- نعم ، وكذلك أخوه عثمان الذي خلفه على الإمارة أثر وفاته .
- قل لنا يا حضرة السير أية علاقة بين سرعتك في سفرك وبين أرملة
الرجاء الحسناء ؟
- ذلك إنني كنت في مهمة لدى الرجاء الميت وهي اني عرضت عليه بعض
اقتراحات ما لها أن يحالف انكلترا ويكون عدواً لأعدائها بشرط ان تضمن له
استقلاله .
فضحك القائد وقال : لا جرم فهذه عادة انكلترا النبيلة في مخبراتها والآن
قل لنا ماذا جرى بعد ذلك

- مما لا ريب فيه اني لم أدخل إلى بلاط ذلك الأمير بملابسي الأوروبية
بل اني تزيت بازياء الهنود .
ولما كنت عارفاً بلغة الهنود وسكان ضفاف الكنج تنكرت بملابس هندي
من مدينة بناريس ، ولم يكن عارفاً بحقيقة حالتي غير الرجاء نجيد كوران
وشقيقه عثمان .

أما الرجاء الميت فانه لم يرض باقتراحي ، لكنه لم يرفضه وفيما نحن نتخاير
فاجأه الموت ..
وعند ذلك ، ارتقى سرير الإمارة شقيقه عثمان فدعاني اليه وقال لي
ما يأتي :

- إنني أرفض مطالب الانكليز ولكنني أوافق على أن لا أشهر السلاح
ضدها إذا كنت قادراً على قضاء مهمة سرية أعهد بها اليك
- ما هي ؟

- أ رأيت أرملة أخى ؟
- نعم ...
- انه حكم عليها حسب عوائدنا الممجبة أن تموت حرقاً بالنار .
- عرفت ذلك .
- لتنقذها انكلمترا من هذا العقاب فلقد أصبح موالياً لها .
فقاطع القائد الصغير السير ادورد وقال له : لقد بدأت أن أفهم .
- كلا فاصنع الى تعلم الحقيقة فان الرجاء الجديد عثمان حينما عهد الى بهذه المهمة كانت الأرملة قد أرسلت إلى مدينة كلوكوتا بصحبها أمل وأصدقاء زوجها .
وهي تدعى كولي تانا ، ومعنى هذا الاسم باللغة الهندية « اللؤلؤة السمراء » .
فلما علمت أنها سافرت خشيت أن يفوت الأوان فوعدت الأمير بأن انكلمترا ستنقذ الأرملة وجئت كما علمتم من السرعة .
فقال الضابط إذا أنت محتاج الى أربعة رجال أشداء لانقاذ الأرملة ؟
- هو ذاك .
- لماذا تريد أن يكونوا أربعة فقط ؟
- لأنى وضعت خطة لي في نجاحها ملء الثقة ، ولكن زيادة عدد الرجال الذين يعينوني على تنفيذها يفسدها .
والآن أرجو أن تصرحوا لي إذا كنت أستطيع الاعتماد عليكم .
فصاح الجميع بصوت واحد مشيرين إلى قلوبهم .
- إذا أصفوا الى ..
ثم شرب جرعة من الشاي وجعل يحدثهم بما يأتي :

- ٣ -

قال . تعلمون ايها السادة اني اتقن اللغة الهندية اتقاناً عجيباً حق اني اكلم بلهجة الهنود ، فلا يعرف أحد منهم اني غريب عنها .

وإني وإن كنت ولدت في لفربول وكانت أسرتي من الأسرات القديمة الانكليزية فاني أتيت إلى الهند في عهد الحداثة فتعلمت لغة قومها واقتنست عوائدهم حتى صرت كواحد منهم .

ثم اني حبست عساكين عند ملك الأهور فكان جميع ذلك مع هيئتي الشرقية كافياً لأن يحسبني الهنود واحداً منهم فاذا تنكرت بملابسهم لا أفرق عنهم بشيء .

وكذلك جعلت اجتاز الهند بجملة تارة امتطي الجياد ، وقارة على ظهور الفيلة ، فأدخل إلى معابد البرهمة فاقتبس أسرار الديانات ، وأحج في المساجد فأصلي مع المسلمين ، فأتكر مرة بلباس رجل من أهل دلهي ، وأتزيا مرة بزي تجار الأفيون ، وأقلد أحياناً أغنياء كشمير فلا يعلم أحد من الهنود اني انكليزي من بلاد الانكليز .

قال الضابط : اننا نعرف منك جميع ما تقوله يا حضرة الماحور .
- عفواً فاني أفصل لكم هذا التفصيل ، إذ لا بد منه لمعرفة الخطئة التي اتفقت عليها مع الأمير عثمان .
- إذاً اصغوا لنعلم هذه الخطئة .

فقال ادورد : إن أرملة الرجاء وصلت إلى كلكتوتا مساء أمس .
فاعترضه الضابط وقال : كلا فانها كانت مساء أمس مع موكبها في السهول عند أبواب كلكتوتا ولم تدخل اليها إلا صباح اليوم .
- لا بأس وان الموكب قد طاف النهار كله من معبد إلى معبد في المدينتين البيضاء والسوداء .

وهم سيستريحون هذه الليلة في فندق من تلك الفنادق الهندية التي يدعونها شولتري

وفي اليوم التالي يعودون إلى الطواف كما فعلوا اليوم حتى إذا أقبل الليل احتجبوا عن الأنظار فلا يدري البوليس الانكليزي أين يذهبون منها بالغ في البحث عنهم .

ذلك أنهم يذهبون بطرق ضيقة إلى مكان معتزل يتفقون عليه سرأ على شاطئ البحر أو في السهل فينصبون فيه المحرقة .

ولكن هذا السر الذي خفي عن جميع الناس لم يخف علي وسأعرف مكان اجتماعهم دون سواي .

فقالوا جميعهم : كيف ذلك ؟

— ذلك اني سأتكلم منذ صباح غد بلباس الهندو واختلط بالموكب فلا افارقه .

وهم سيحتفلون بي ولا يشكون بأمري لأنهم رأوني في بلاط الرجاء الفقيد ورأوا انه كان يعاملني خير معاملة فيعتقدون اني أشاركهم في حفلاتهم تجملًا ووداداً فلا يكتفون عني أمراً .

وفي المساء أكون معهم في المحل السري الذين سيجمعون فيه فاذا أقبل الليل ساعدتهم على نصب المحرقة ، وفي هذه الساعة يأتي دور الحاجة اليكم إذا كنتم لا تزالون على وعدكم .

فنظر اليه الضباط الأربعة نظرات تدل على الاندهال . أما هو فانه تابع حديثه فقال :

— انه في الليلة التي تتقدم الاحراق ، إذ ان الأرملة لا تحرق إلا عند الفجر ، توضع تلك المنكودة المحكوم عليها بالموت إحراقاً في خيمة وحدها وتوضع امامها لآلئها ومجوهراتها ، وجميع زينتها ، فاذا حملوها الى المحرقة أخذت تلك المجوهرات والآلئ الثمينة ، فجعلت تلقيا قطعة قطعة الى النار

قبل أن يلقوها وسط أجبيجها .

وفي هذه الليلة الهائلة يجتمع الموسيقيون حول تلك الخيمة وينشدون الأناشيد الغربية الشجية فتنبض لها النفوس وتسيل المدامع .

أما تلك المنكودة فان هذه الساعة تكون من أشد ساعاتها إذ تعلم ان ساعاتها الأخيرة قد دنت ، فلما تصدح تلك الموسيقى بالحنان الحزنة تفقد صوابها من التأثر ويتعقد لسانها من الخوف .

وقد جعلت جل اعتمادها في انقاذها على حالتها في تلك الساعة إذ لا يحيط بها في ذلك الحين غير تلك الجوقة الموسيقية

وسأخبركم في المساء عما أعزم عليه ولكنني لا أعلم الآن الطريقة التي سأتمكن بها من مخاطرتكم

على اني سأجد طريقة مضمونة ، فعليكم أن تقربوا عند انتصاف الليل من محل اجتماع الهنود ، وانكم ستجدون جميع اولئك الهنود الذين يرافقون موكب الأرملة سكارى من الحشيش والأفيون ، منهوكي القوى من الرقص والطواف ، حتى ان الموسيقيين أنفسهم يكونون أشبه برفاقهم ، بل أشد منهم الى الرقاد .

ولكن سيكون أربعة رجال بين اولئك الهنود ، لا يسكرون ولا ينامون وهم أخوة الأرملة المحكوم عليها بالاحراق فان عوائد الهنود أن اخص أقرباء المحكوم عليها يتولون التنفيذ وتقضي عليهم شرائعهم الدينية بالصوم والسهرة الى أن ينفذ الاعداء ، وسيكون شأنكم مع هؤلاء الأربعة ، إذ لا تجدون سواهم من يقاومكم .

فقال أحدهم : العلنا نحن الذين نتولى اختطافها ؟

- كلا ، بل انكم تتولون مقاومة اولئك الرجال الأربعة الذين سيدافعون عنها أشد دفاع ، إلا إذا قتلها الرعب وحال الموت بينها وبين ذلك الدفاع .
- إذا يجب أن نتقارع بالسيوف ونتقاتل بالمسدسات .

— ربما .
— وهؤلاء الهنود ألا يقدمون لنجسدتهم فإنهم مهما بلغ من سكرهم لانهم يستفيقون في مثل هذا الخطر ؟

فابتسم السير ادوارد وقال : إني لمثل هذا أردت ان يكون لدي أربعة من البواسل الأشداء ، وفوق ذلك فإن أربعة من الانكليز يعادلون عشرة من الهنود على الأقل .
فتحسس الضابط الصغير وقال : بل عشرين .

وانصرف أحدهم الى الحديث عن الأمير عثمان فقال : يظهر ان هذا الأمير الجديد من المتمدنين .
— كلا بل هو أعظم محبة من أخيه .
— إذا كان ذلك كما تقول فكيف أشفق على امرأة أخيه ، بل كيف يخالف تقاليده المقدسة ويحاول إنقاذها من النار ؟

فابتسم السير ادوارد وقال : ذلك لأن في فؤاده نارا سعيها أشد من سعي نار المحرقة ، لأنه هائم مفتون باللؤلؤة السمراء ، أي بامرأة أخيه التي ستمحرق .

— إذن تطلب البينا قضاء مهمة غرام ؟
— وماذا يهمنا ذلك أيها السادة ، لاننا إذا أنقذناها نكون قد قضينا واجباً إنسانياً إذ لا ذنب لهذه المرأة غير موت زوجها وجور تلك التقاليد وفوق ذلك فاني إذا أنقذتها يصبح هذا الأمير الجديد صديقاً لي ولكم ولانكلترا التي نفارق أوطاننا العزيزة لخدمتها

— أحسنت وإني أجد قضاء هذه المهمة ميسوراً ما خلا امرأ فإني أجده كثير التعقيد .

— ما هو ؟

— إني واثق من استطاعتنا إنقاذها .

- هذا ما أرجوه .

- ولكن ماذا يصنع الأمير الجديد، فإن رعيته ورجال بلاطه يعرفون أنها امرأة أميرهم القديم فإذا عادت الى بلاط الأمير الجديد علموا إنها امرأة أخيه وأنه خان بانقاذها تقاليدهم المقدسة .

فقال السير ادوارد : إن جميع هذا قد توقعناه وتلافيناه من قبل ذلك . إن لهذه الأرملة أختاً تشبهها في تقاطيع وجهها ولا تختلف عنها إلا بلون شعرها فإن شعر أختها أشقر وشعر الأرملة أسود . وكلتاهما ابنتا غني من تجار الأفيون .

وان الأمير عثمان خاطب للفتاة الشقراء فهو سيسافر الى بلد أبيها في أول هذا الشهر للقدوم بخطيبته بوكب عظيم . على ان تاجر الأفيون وشقيقة الأرملة عالمان بنية الأمير عثمان واقفان على هذا السر .

ففى اختطفنا الأرملة نذهب بها الى منزل أبيها، وهناك طبيب هندي خبير بصبغ الشعر فيصبغ شعر الأرملة حتى يغدو كشعر أختها وبذلك يتم الشبه بينها ونزف الأرملة الى الأمير بدلاً من أختها .

ثم نهض واقفاً وقال : استودعكم الله الى الغد .

- ٤ -

وقبل ان يسير سأله الضابط قائلاً : إلى اين أنت ذاهب ؟
- إلى ذاهب لأختلط بوكب الأرملة ولأجل ذلك ينبغي ان أنزع ملابسى وأتزيا بزي الهنود .

- حسناً ولكنك لم تقل لنا أين نجدك في الغد .

— ذلك لأنني إلى الآن أجهل اين أكون ، ولكن خطر لي خاطر وهو أن الموكب بعد ان يطوف هذا القسم من كلكوتا الذي ندعوه المدينة السوداء لا بد له أن ينتهى من طوافه عند المعبد الكائن في المدينة البيضاء ، أي في القسم الأوروبي .

وذلك ان هذا المعبد مبني منذ عصور بعيدة ، وهو مقدس عند الهنود ويؤثرون الصلاة فيه على سواه من المعابد ، وانا واثق ان الموكب ينتهي بزيارة هذا المعبد .

— الملك تريد ان يكون التقاؤنا هناك ؟

— نعم ، إني أحب ان يذهب أحدكم منذ صباح الغد فيقف عند باب المعبد حتى يراني ، فمن يذهب منكم ؟

قال الضابط الصغير : أنا لها .

— إذأ تذهب إلى باب المعبد وتنتظر وانك ستراني بين المحتفلين ، ولكنك لا تعرفني لشدة تنكري ، فإذا رأيت الناس قد خرجوا جميعهم من المعبد فادخل أنت اليه .

— وبعد ذلك ؟

— تجد في إحدى زوايا المعبد تمثالا عظيما يمثل الإله سيوا ، وتجد عند قدم التمثال صرة صغيرة فيها حبوب من القمح ، تعود الهنود أن يضعوا أمثالها في المعابد ، فخذ الصرة وافتحها تجد فيها رسالة مكتوبة بقلم رصاص وفيها تعليماتي .

ثم قام وودع رفاقه وانصرف .

ولما بلغ الباب الخارجي امتطى جواده ودخل به الى كلكوتا ، فاجتاز المدينة السوداء ، أي مدينة الوطنيين ، إلى المدينة البيضاء ، أي مدينة الافرنج . ووقف عند باب منزل كبير ففتح مصراعه للحال وأسرع الى خدمته عبدان أسودان فوقما أمامه بلء الاحترام وكان هذا المنزل منزله .

وكان ضباط الانكليز في الهند يعيشون بسعة ورخاء لارتفاع رواتبهم فان راتب الماجور يبلغ مئة الف فرنك في العام .

وفوق ذلك فان الماجور ادوارد كان معدوداً من الأغنياء بفضل ثروته الخاصة فكان ينفق عن سعة .

على ان الناس كانوا يختلفون في ثروته ، فمنهم من يقول أنها من أبائه ومنهم من يقول أنها من مصادر سرية ، ولذلك لم تكن سمعته خالية من الشوائب والعيوب .

بل كانوا يدعون انه باع الانكليز ، بطريقة شائنة ، أسرار أمراء كانوا من أصحابه . فكانوا يأتمنونه على أسرارهم ، وان هذه الخيانة وأمثالها مصدر تلك الثروة .

ولكن الافرنج تؤثر سماء الهند في نفوسهم فتضعف اهتمامهم بشؤون سوام وتدعو كل مهاجر منهم الى الاهتمام بشؤونه الخاصة .

وبمثل هذه الثروة كان يقاوم أعدائه فيساعد فقراء الضباط بحاله فيشتري صداقتهم بالمال .

وترجل الماجور عن جواده ودخل إلى منزله فخلع ملابسه واغتسل ثم نادى خادماً هندياً مخلصاً في خدمته وقال له : أحدث شيء جديد ؟ - كلا .

- أرايت موكب الأرملة ؟

- نعم رأيت في الصباح .

- أين يكون الآن فيما تظن ؟

- أظنهم يستريحون الآن في فندق الحية الزرقاء .

وكان الماجور يحادث خادماً الوفي ، ويلبس ملابسه الهندية . فلما أتم تنكره ظهر أنه من تجار أفغانستان ، الذين يتاجرون بالأفيون واللؤلؤ والأحجار الكريمة .

وعند ذلك فتح باباً سرياً وخرج منه الى الشارع . فلم يعلم بتذكره أحد من خدم المنزل ما خلاخادمه الأمين الهندي الذي كان له به ملء الثقة خلافاً لساائر الخدم فإنهم ما رأوه إلا بلباس الضباط .

وبعد ساعة دخل الى فندق الحية الزرقاء ، فوجد فيه الأرملة ورجال الموكب .

وكان الرقص قد بدأ فوضعوا تلك الأرملة المنكودة على بساط تحت قبة من الخيزران ، وجعلوا يرقصون حولها وهي تنظر اليهم نظرات تشف عما دخل قوادها من الرعب ، واخوتها الأربعة محدقون بها ينشدون حولها الأناشيد الغريبة . فاختلط الماجور بأهل الموكب ، ثم شق الجموع ودنا من مجلس الأرملة .

- ٥ -

على ان معظم رجال الموكب عرفوا الماجور ، ولكنهم لم يعرفوا أنه ذلك الضابط في جيش الانكليز ، بل عرفوا أنه ذلك التاجر الهندي الذي طالما رأوه في بلاط الرجاء الميت .

وقد أعد أقرباء الأرملة حضوره حفلتهم لطفاً منه وتودداً فشكروه واستقبلوه خير استقبال ، ثم قدموا له من ثمارهم الجافة فجلس بينهم يدخن معهم وينظر الى رقص الراقصين .

ولما توارت الشمس في حجابها انتهى الرقص وسقط الراقصون ليعون لفرط إجهادهم في الرقص .

وعند ذلك وقف أهل الأرملة إيماناً بانتهاء حفلات النهار وابتدأت حفلات الليل وهي الطواف بالمشاعل والأنوار المختلفة .

أما تلك الأرملة المنكودة المنظر ، فانهم خبلوا عقلها بأحاديثهم الدينية ، وبإظهار ما استلقيه في السماء بعد ان ضحكت نفسها في حب زوجها ، فاختبل عقلها وتمثلت لها تلك السماء بمظاهر مختلفة ، فلم تمد تفرق بين الحقيقة والخيال وجعلت تتكلم عن زوجها وعن الفردوس وعن الإله وشنوا فيختبل عقلها وتمثل تلك الحفلات السماوية التي تلتظنها وهذه الحفلات الأرضية التي تعيشها ، فتبكي وتضحك وتغني في وقت واحد

وكانوا في النهار قد أركبوا جواداً فلما بدأت حفلة الليل أركبوا فيلاً أسود وضعوا فوق ظهره بناية تشبه الأبراج .

وكان رجال الموكب يخفرونها من مشاة وفرسان فعادوا الى الطواف في المدينة تتقدمهم المشاعل والمباخر تفوح منها أزكى الروائح

ولبثوا على ذلك الطواف الى أن اصفر وجه النجم وأشرق الفجر ، فعادوا الى الفندق وأقاموا فيه التماساً للراحة من تعب الليل ، وفراراً من هجير النهار .

وانقضى ذلك النهار وهبت نسيمات البحر ، فخرجوا من الفندق وكان ذلك آخر حفلاتهم فبرح الموكب المدينة السوداء الى الشارع الافرنجي ثم ذهبوا منه الى معبد الحية الزرقاء

وكان هناك كثير من الناس على اختلاف الأجناس والطبقات ، ينتظرون الأرملة عند أبواب المعبد فلقي أهل الموكب عناء شديداً في اختراق الزحام والدخول الى معبدهم .

أما السير ادوارد فانه لم يفارق الموكب لحظة وكان ملازماً لأخوة الأرملة كل وقته ، فرأى بين الجموع المحتشدة عند باب المعبد السير جاك ، وهو أحد الضباط الأربعة الذي واعدته على الاجتماع به في هذا المكان .

غير أن السير جاك وقف مدة طويلة بقربه ، ونظر اليه مرات كثيرة فلم يعرفه .

وأدخلوا الفيل وعليه الأرملة إلى المعبد ، فبدأ البراهمة بالصلاة ولما انتهوا منها بدأ الدراويش بالدوران ، ثم تلاهم الكهنة فجعلوا يهزون رؤوسهم يمنة ويسرة وينشدون أناشيد غريبة بلغتهم السنسكريتية المقدسة ، وكان ذلك ختام الحفلات .

أما السير ادوارد فإنه عرف ما كان يريد أن يعرفه ، وذلك ان إخوان الأرملة سروا لتكريمه بحضور حفلاتهم ، فأخبروه عن المكان السري الذي عينوه لاحتراق أختهم .

ولما خلا المعبد من أولئك المحتفلين ، دخل السير جاك ، أحد الضباط الأربعة ، وذهب تواقاً الى شمال الاله سيوا . فوجد عند قاعدة التمثال صرة من القمح ، فأخذها وفتحها وأخرج منها ورقة كتب عليها السير ادوارد ما يأتي :

« إن المحرقة ستنصب على مسافة مرحلتين من شمال المدينة في واد مقفر يقال له وادي اللآلئ الوردية وسنكون هناك عند انتصاف الليل » .

فوضع الضابط الرسالة في جيبه وسار إلى رفاقه الثلاثة وعاد الموكب بالأرملة إلى المدينة السوداء حتى وصلوا إلى الفندق .

وهناك تفرقوا فهاد قسم منهم إلى منازلهم وتبودلت بين القسم الآخر إشارات سرية فذهب بعضهم يمنة وبعضهم يسرة .

أما الأرملة فقد دخلوا بها إلى الفندق وأقفلوه . وعند ذلك دنت مراقبة البوليس الانكليزي ، وهي مراقبة لا يراد بها غير المظاهرة ، إذ لم يكن من سياسة الانكليز أن يتعرضوا لتقاليد الهنود الدينية مهما بلغت تلك التقاليد من الهمجية والفظاعة .

وقد جاءت ثلة من الجنود يقودها ضابط إنكليزي فطرق باب الفندق فبرر له رجل هندي وسأله عما يريد
- أريد ان أرى أرملة الرجاء .

- إنها لم تعد من عالم الأرض .
وأقفل الباب فلم يفتحه ومنع الضابط عن الدخول .
فأمر الضابط عند ذلك بكسر الباب فكسروه ودخلوا عنوة فوجدوا الفيل
وذلك البرج العظيم الذي كان فوق ظهره ، ولكنهم لم يجدوا الارملة في
ذلك البرج .
وفتش البوليس جميع غرف الفندق والمنازل المجاورة فلم يجدوا أثراً للأرملة
وكان هذا القائد قد اقتنع انه قد أتم واجباته فأمر رجاله بالانسحاب وعاد بهم
إلى السكنة .
أما رجال الموكب فانهم كانوا ينسلون في ذلك الحين واحداً أتر واحد ،
ويسبرون في طرق مختلفة إلى المسكن المعين للاجتماع .
وأما الضباط الاربعة فانهم امتطوا جيادهم وتدججوا بسلاحهم وساروا إلى
ذلك الوادي الذي أرشدهم اليه السير ادوارد لانقاذ تلك الارملة التي كانت مشردة
العقل تحسب أن هذه الليلة آخر لياليها .

- ٦ -

إن هذا الوادي الذي كانوا يدعونه وادي اللآلئ الوردية لم يكن اسمه ينطبق
على مسماه في شيء إذ كان وادياً تحديق به جبال كثيرة الصخور من الشرق والغرب
ولم يكن فيه غير الهشيم .
وتكتنفه من الجنوب ، أي من طريق كلوكوتا اليه ، سلسلة غابات
كثيفة لا يسأوي اليها غير النمرور المفترسة ، والافاعي الهائلة ، والفهود
الكاسرة .
وفي تلك الغابات كان يريد إخوان الارملة أن يختبئوا لاحتراق اختهم ،

وإنما اختاروا هذا الوادي حذراً من الجنود الانكليزية إذ لا يستطيعون الوصول اليهم إلا بعد ان يجتازوا هذه الغابات وخوف الانكليز من الوحوش الكاسرة مشهور .

وقد ادلهم الظلام وبدأ رجال الموكب يتوافدون واحداً بعد واحد إلى ذلك الوادي فينصبون خيامهم فيه حول خيمة الأرملة التي كانت منصوبة وسط الخيام

والعادة في مثل هذا المقام ان يقف البراهمة والموسيقيون خارج الخيمة ، فيعزفون على الآلات وينشدون أناشيد التهنية لتلك المرأة السعيدة في الدار الآخرة لبسالتها ولحاقها بزوجها بعد الموت .

ولم يكن يحق لأحد من البراهمة والموسيقيين الدخول إلى خيمة الأرملة ولا لأحد من رجال الموكب ما خلا إخوتها .

وفي ذلك الحين دخل إخوتها إلى خيمتها فجعلوا يتفقدون كل بدوره صندوق من الأبنوس كانت فيه مجوهرات الأرملة .

وكان مع الأرملة امرأة سوداء تدعى مانورا ، وهي شقيقة كولي نانا بالرضاع ، فكانت تبكي بكاء شديداً ، لاشفاقها على الأرملة التي ستموت .

أما الاخوان فإنهم تبادلوا نظرات خفية تشير إلى الرضى مما رأوه من تأهب أختهم الى الموت ، وأيقنوا أنها ستصعد الى المحرقة وهي تنشد نشيد الوداع المقدس ، فخرجوا من عندها وهم يقولون : إننا نستطيع نصب المحرقة مطمئنين

وعادت مانورا الى البكاء والشهيق ، لتيقنها ان كولي نانا ستحرق عند شروق الشمس

ولكن الأرملة أقفلت صندوق جواهرها بسكينة بعد ذهاب إخوتها ودنت من مانورا فقالت لها كفي عن البكاء أيتها الحبيبة .

فنظرت اليها السوداء نظرة انذهال وقالت : كيف لا أبكي وأنت ستموتين
بعد قليل ؟

فابتسمت الأرملة وقالت : ربما نجوت من الموت .

فصاحت السوداء صيحة فرح . غير ان الارملة وضعت سبابتها على
فمها وقالت لها : أسكتي ولا تظهرى شيئاً من علائم الرجاء كي لا يلقوا
على أمرا .

-- ولكن على أي شيء عقدت هذا الرجاء ؟

- قلت لك إني لا أريد ان أموت ولن أموت على هذه المحرقة .

فهمزت مانورا رأسها وقالت لكنهم يصعدونك عليها بالقوة .
- كلا إن عثمان ساهر علي .

فارتعشت مانورا عند سماعها هذا الاسم ولم تفه بحرف فقالت لها الأرملة :
إن الرجاء عثمان يحبني حباً صادقاً وقد تحالفنا على الولاء وأقسم أنه ينقذني من
المحرقة ومثل هذا الأمير لا ينكث بيمينه .

وكأنما مانورا كانت لا تزال في ريب من صدق هذه الوعود ،
فرفعت سجع الخيمة وقالت : إن النجوم قد اصفرت ، ويكاد يحرقها
الفجر .

- لا بأس .

- إني أرى إخوتك يا سيدتي ذاهبين إلى الغابة .

-- لينذهبا حيث شاءوا .

- لكنهم ذاهبين لاحضار حطب المحرقة .

- ليفعلوا ما يريدن فإن عثمان يصل قبل أن تنصب المحرقة

وكانت تقول هذا القول بلمهجة الواثق المطمئن .

غير ان لهجتها لم تؤثر على مانورا فقالت : وكيف يستطيع عثمان أن يعلم
أين نحن ؟

إنك تعلمين يا سيدتي انه حين تفرق الموكب ساعة الغروب ، لم يكن من يعرف المكان الذي سنجتمع فيه غير إخوتك ، ولأنهم ماعهدو بسرهم إلا الأخصاء .

— هو ماعقولين . ولكن إسمي إلي ، أرايت بين المختلفين ذلك التاجر الأفغاني ؟

— أتعنين به ذلك الرجل الذي كان يلزم بلاط زوجك الفقيد ؟
— هو بعينه

نعم رأيتك قد اختلط بالموكب العله جاء بأمر عثمان ؟

فدنت الأرملة منها ومست في أذنها قائلة : إنه اقتراب مني حين كانوا يطوفون بي وقال لي : « لا تخافي إني ساهر عليك » .
فوثقت الوراء بهض الوثوق وحلست معها تراقب انبثاق الفجر وهي تتراوح بين اليأس والرجاء .

وبعد حين بدأ أولئك الهنود يستيقظون من رقادهم . وقد ثقلت أدمغتهم من الأفيون . وعاد إخوان الأرملة من الغابات ، فجمعوا ينصبون الحرقرة بمساعدة عبيدهم .

فلم تكدم الوراء تعطر اليهم حتى حنت من ياسها وقالت : سيدتي لم يبق لدينا غير ساعة فأين الرجاء ؟

وقبل ان تجيبها انطلق غناء البراهمة فجاءه وسمعت المراتان وقع حوافر الخيل وتلا ذلك دوي إطلاق مسدسات وصيحات فبساحت الأرملة تقول بله الفرح :
هوذا عثمان قد حضر

غير أن الأرملة قد أسخطت لأن هؤلاء الفرسان لم يكونوا من رجال عثمان ، بل كانوا أولئك الساط الايطليز الأربعة انقضوا على الهنود انقضاض الصاعقة ففرقوا شملهم ومزقوهم كل مرق .

وقد قاوم إخوان الأرملة مقاومة عنيفة غير أن ذلك التاجر الأفغاني ، أي

السير ادوارد ، إنضم الى الجنود وجرى بين الفريقين معركة شديدة .
فكان إخوان الأرملة يسقطون واحداً تلو واحد ، وأسرع من نجا من الهنود
إلى الفرار .

وعند ذلك هجم السير ادوارد على الأرملة فأردفها وراءه على جواده
وانطلق بها يسابق الرياح إلى كلكوتا ، وهي توشك أن تجن من سرورها وتترنم
باسم حبيبها عثمان .

- ٧ -

مضى عشرة أعوام على اختطاف الأرملة ونجاتها من ذلك العقاب
الهمجي الفظيع .
وكان إخوتها الأربعة قد قتلوا فلم يبق من يستطيع إكتشاف سر الاتفاق بين
الرجاء عثمان وبين الأرملة .

أما السير ادوارد فإنه ذهب بها توأ إلى أبيها ، فأقامت مخبئة عنده عدة
أشهر ، وقد صبغ الطبيب شعرها الأسود بلون شعر أختها الأشقر فتم الشبه
بين الأختين .

على انه أشيع في تلك المدينة أن كولي نانا أرملة الرجاء أنقذها من الحرق
جنود من الانكليز . ولكن لم يشكك أحد بأن للرجاء عثمان يداً في
ذلك الانقاذ .

ولذلك ذهب عثمان بعد ستة أشهر الى منزل والد الأرملة ، في موكب
حافل وتزوج بها والناس يحسبون أنه تزوج أختها لأن الشبه بين الأختين كان
كثيراً لا سيما بعد صبغ الشعر .

ثم أن الهنديات يضعن فوق وجوههن نقاباً ثخيناً من الحرير ، فلم يتمكن

الناس من رؤية وجه الأرملة حين زفافها وسار الأمير بزوجته كولي نانا وهم يحسبون أنها أختها

ولقد حدث في العشرة الأعوام المتقدمة أمور كثيرة ، فإن الأمير عثمان جمع تحت رايته جميع القبائل الجبلية المحيطة به للحرب دفاعاً عن الاستقلال فعظم شأنه .

وكان الفرق بينه وبين أخيه أن أخاه كان شبه رئيس حزب ، فلم يكن خاضعاً له غير بعض القرى خلافاً لعثمان فقد انضم إليه أهل الجبال وخضع لرايته نحو عشرين مدينة من المدن الكبرى فبات له جيش عظيم خشي الإنكليز بأسه وزاد طمعه بالاستقلال .

غير أن القراء يذكرون ما قاله عثمان للسير ادوارد وهو «لننقذ انكلترا أرملة أخي من المحرقة وأنا أخضع لها» .

ولكنه حين رأى ما بلغ إليه من القوة ، وعلم أن الأرملة لم تنقذها لإنكلترا بل السير ادوارد ، نكث بوعوده ووالى السير ادوارد وجعله وزيره الأول لمملكته .

وكان هذا كل ما يسعى إليه الماجور ادوارد ، فإنه حمل الأمير عثمان على الوثوق به حتى جعله لديه في هذا المقام وأشاع في كل كوتا بعد اختطاف الأرملة الحسنة أن السير ادوارد قد قتله الهنود . فلم يعد أحد يسمع شيئاً من أخباره على الإطلاق .

وجعل ، حينما تقلد هذا المنصب ، يدرّب جنود الرماح عثمان على التقليد الأوروبي ، ويخفف وطأة العوائد الهمجية ، ويمدّن ذلك الشعب تبعاً .

ولم يكن من يعلم إلى الآن إذا كان هذا القائد الإنكليزي قد خان حكومته أم أنه يهد لها سبيلاً خفياً
غير أن ظواهر سياسته كانت تدل على الخيانة لاسيما وأن كثيراً من

الشعوب التي كانت خاضعة للانكليز جنحت إلى العصيان وجعلت تنضم إلى جنود الرجاء .

وكان عمر الماجور في ذلك العهد ٤٠ عاماً . وهو شديد البسالة ، حارب الانكليز مرات باسم الرجاء عثمان ففاز عليهم وأبلى فيهم حق القى الرعب في قلوبهم .

وكان الماجور متذكراً أشد التذكّر ، لا يعرفه أحد إلا باسم تريبورينو ما خلا عثمان ، وأرملة أخيه كولي نانا ، فانهما كانا وحدهما يعرفان حقيقة أمره وأصله .

وكان عثمان قد رزق من زوجته غلاماً أقرى ذكي الفؤاد كوالده فكان يبشر بمستقبل حسن وعمره يومئذ ١٠ أعوام .

وفي ذلك العهد جاء إلى بلاط الرجاء رجل أوروبي فرنسي ، وكان هذا الرجل روكامبول

ويذكر القراء فيما قرأوه من الروايات السابقة ان روكامبول كان قد ذهب إلى الهند لتسليم علي رجاء زعيم الخناقين إلى حكومة الهند

فلما قضى هذه المهمة ، أصبح متعجراً بين أن يعود إلى أوروبا ، وبين أن يبقى في الهند ، يترقب الحوادث تحت سماء تلك البلاد المحرقة ، وعلى ضفاف الكونغ والفرات . واختار البقاء في بلاد طالما هاجت أسرارها عواطف قلبه ودفعته إلى درسها .

فاستقبله الرجاء عثمان خير استقبال وعينه قائداً في جيشه فقبل روكامبول هذا المنصب وتولى مهامه منذ ذلك اليوم .

غير أنه لاحظ أن تيبورينو ، أي السير ادوارد ، لم يكن راضياً عن هذا التعيين لحذره من وجود مزاحم له في بلاط الأمير .

على ان الأمير كان يثق به ثقة لا حد لها ، لكنه لم يعترض على تعيينه ، بل كتم غيظه وأظهر الرضى

أما روكامبول فإنه علم لأول مرة أنه من الانكليز ، فنفر منه ووقع كرمه في قلبه وقال في نفسه : إن هذا الرجل قد خبان الانكليز وهو منهم ، فلا بد له من خيانة الرجاء . في حين ان الأمير كان يفقد عليه إنعامه ويطلق له مجال النفوذ ، بحيث لم يدع في سبيل إكرامه زيادة لاستزيد

ولكن هذا الرجل كان كثير المطامع شديد الميل الى العلاء ، فلم يرضه ان يكون الوزير الاول بل أراد ان يكون الحاكم المطلق . وفي كل بلاط يوجد متآمرون واكثر ما يكون اولئك المتآمرون من اصحاب صاحب البلاط واهله .

وكان للرجاء ابن أخ من كولي ثاتا والمصادة في اوربا ان الولد يخلف أباه في الملك وأما في الهند فالعادة أن الأخ يخلف أخاه في اكثر الإمارات . وكان عمر ابن أخيه ٢٠ عاماً فطمع بهذه الامارة التي لم تبلغ إلى هذا الحد إلا بفصل عمه غير انه لم يكن له قوة ولا أعوان ولم يجد حول عمه غير الامناء المخلصين .

فكان يكتم قصده عن سائر الناس فلم يدرك بغيته غير تريبورينو فاتفق الاثنان سرّاً على خلع الأمير عثمان .

وكانت القوة العسكرية مدارة تريبورينو فهدد اسباب الثورة على الأمير وكاد يفوز بقصده غير أن اسرارها انفضحت فتنصل منها والقي كل تبعاتها على ابن أخيه الأمير فأمر باعدامه ولم يخطر في باله أقل رغبة بوزير تريبورينو بل زاد به وثوقاً لاعتقاده انه هو الذي كشف اسرار الثورة .

ولم يطلع على حقيقة سر هذه المكيدة غير روكامبول ولكنه رأى أن الأمير شديد الثقة بوزيره فلا يصدق له إذ أخبره بمكيدته وفوق ذلك فقد كان تريبورينو كثير الدلال على مولاه شديد النفوذ في بلاطه فرأى ان الدخول معه في هذا المأزق محفوف بالخطر .

غير انه عول على مناوآته وتضحية نفسه في سبيل انقاذ الأمير عثمان من مخالفه غير مكثرت بما سيلقاه من الصعاب ويعترضه من الأخطار فقد اوقف نفسه منذ تاب توبته الصادقة لصنع الخير ومساعدة كل مظلوم إلتاساً لعفو الله عن ذنوبه الماضية .

وكان الأمير قد أعد له قصر يقيم فيه منذ ولاء منصب القيادة في الجيش فبينما كان يوماً في منزله جاء ضابط من قبل تريبورينو يدعوه إلى زيارته في قصره على شواطئ الكونغ فلم يمكنه إلا تلبية الدعوة فامتطى جواده وسافر .

- ٨ -

كان الأمير تريبورينو بعد الأمير عثمان صاحب الكلمة النافذة في البلاد وكانت بيده قيادة الجيش العليا ولما كان روكامبول من قواد الجيش فقد اصبح تحت امرته فلا به له من الامتثال .

غير انه كان واثقاً ان هذا الوزير يكرهه ويخافه وانه لم يدعه اليه إلا وقد نصب له فخاً يفتاله به تخلصاً من كيدته .

ومع ذلك لم يتردد لحظة في الخضوع فامتطى جواده ولم يصحب معه غير نفر قليل من الفرسان والخدم وسافر مع رسول الوزير إلى شاطئ الكونغ .

ولما توارت الشمس وصل إلى غابة كثيفة مكتظة بالاشجار واقعة على ضفاف النهر فرأى كثيراً من الفرسان وبعضهم على ظهور الفيلة فاندش لراهم وزاد اندهاسه حين علم انهم مرسلون من قبل تريبورينو لانتظاره

وسأل الرسول عنهم فقال : انهم فرسان الوزير الأكبر وقد ارسلهم لاستقبالك دلالة على انه يحبك ويريد تعظيمك في العيون .

فقال روكامبول في نفسه بل ليقبضوا علي فيزجني في أعماق سجونهم .

غير انه لم يكثر لجميع ما رآه وتوكل على الله في امره وقد كان ذلك شأنه منذ توبته فلم يعد يخشى خطراً من الأخطار .

واستقبله الفرسان وساروا به يخفرونه إلى منزل الوزير الأكبر وهو يتوقع في كل حين ان ينقضوا عليه وعلى رفاقه فلم يفعلوا بل كانوا يؤانسونه ويكرمونه حتى وصلوا به إلى منزل تريبورينو ودخلوا به اليه .

وكان هذا الوزير القائد الهائل مضطجماً على حصير في قاعة وحواليه فريق من العبيد بعضهم يحرقون البخور وبعضهم يروحون بمراوح تخفيفاً لوطأة الحر ، وفي وسط القاعة بركة مترعة بالمياه إلتباساً للرطوبة .

فلما رأى الوزير روكامبول نهض من مضجعه وأسرع اليه فحياه على الطريقة الأفريقية أجهل تحية ، ثم أمر جميع من كان في القاعة بالخروج فامتلأوا وبقي الاثنان منفردين .

ولما خلا بهما المكان ولم يبق أحد من الجنود نظر إلى الوزير فرآه غير خطته فجأة فجلس على كرسي بعد أن كان مضطجماً على الحصير وأشار لروكامبول بالجلوس ، فجلس ودار بينهما الحديث باللغة الفرنسية فقال الوزير :

— اني أحببت أن أراك لوثوقي من إمكان اتفاقنا .

فنظر اليه روكامبول دون أن يجيب .

واستطرد تريبورينو حديثه فقال انك فرنسي اليس كذلك ؟

— نعم .

— ان من طبع الفرنسيين كره المهاجرة ، ومن يبعد ثلاثة آلاف مرحلة عن بلاده يكون من طلاب الصدفة ، أي أولئك الذين يلتمسون الرزق والثروة بالدسائس والفتن .

ثم ابتسم ابتسام احتقار وقال : اني لا أبحث عن برهان عما أقول ، فإن قدومك إلى بلاط الرجاء ، وانتظامك في سلك جيشه أصدق برهان على قولي .

فقال روكامبول : هب اني من طلاب الصدفة وأهل الفتن
فابتسم الوزير وقال : ومن أجل هذا وثقت أن اتفاننا ممكن ، كما
قلت لك .

— اني مصغ اليك فواضح عما تريد .
— اعلم أن الرجاء عثمان امير قادر بالظاهر ..
فقال روكامبول : وأظن انه قادر بالحقيقة أيضاً .
فتظاهر الوزير أنه لم يسمع كلامه وقال : إن كل أمير هندي تكون
انكلترا على أبوابه تصبح قوته هباء منثوراً لتعرضه للأخطار في كل يوم .
— ولكن الأمير يستطيع الدفاع دهرأ طويلاً بحمد الله
— أظن أنه يستطيع الثبات ؟
— إلا إذا نكس بخيانة ..

— إذا تظن أن خيانتة ممكنة ؟
— عجباً ألم يخونوه قبل الآن ؟
وقد قال له روكامبول هذا القول وهو يحدق به ، فرمى الوزير سيكارة
كان يدخن بها وقال بلمجة احتقار شديد أظن أيها الرجل اني دعوتك الي
كي أحدثك بجلاء ؟ ألا تعلم أني عارف بما تفتكره بي ، فانك تعتقد أن يدي
قد انعمست في مؤامرة ابن الرجاء السابق على عمه ؟
— بل اني أعتقد أعظم من ذلك .
— ماذا تعتقد ؟

— أعتقد أنك أنت الذي دبرت المؤامرة ، ثم تنصلت منها حين خوفكها
والقيت تبعثها على ذلك المنكود فقتل شر قتل ..
فقال له بهرود : لقد أصبت ..
فنظر اليه روكامبول نظرة تشف عن بأسه وتدل على أنه لا يكثرث لنفوذه
وقال له : والآن ماذا تريد مني ؟

- أريد قبل كل شيء أن أقص عليك تاريخي ..
- وأنا مصغ اليك ..
- إذا فاعلم أنني لست همدياً ولا أدعى تريبورينو .
- أعرف ذلك وأعرف أنك من الانكليز .
- كيف عرفت ؟
- بل أعرف أنك تدعى الماجور إدورد لنتون .
- أرى أنك عارف بأمري ولكني أرجوك أن تفترض أمراً .
- ما هو ؟
- هو اني لا أزال أميناً وفيماً لانكلترا .
- أنت ؟
- نعم أنا فإنني في هذا المنصب منذ عشرة أعوام ويعتقد الهنود أنني هندي ولكني مخلص للانكليز .
- وأنت تحاربهم في كل يوم ؟
- ذلك لأن الغاية تبرر الوسطة وما ضرهم إذا حاربتهم وأدركوا قصدهم في النهاية .
- لمعذري سيدي الوزير إذا كنت لا أفهم الألفاز .
- إذا اصغ إلي لأكشف لك سر هذه الألفاز ، إن الرجاء تجد كوران كان أميراً ضعيفاً يسهل على الانكليز سحقه في كل حين .
- العلك من أجل ضعفه ساعدت أخاه عثمان فجعلته من كبار الأمراء الأشداء ؟
- بل اني استخدمت عثمان وجعلته واسطي في إضعاف جميع صفار الأمراء الخارجين على الانكليز .
- وبعد ذلك ؟
- وبعد ذلك أصبحت تلك الشعوب التي تحارب الانكليز حرب مناوشات

في قبضة يدي ، أدبرها كما أشاء ، والآن فإن معركة واحدة منظمة يثيرها
الانكليز على الرجاء عثمان تحقق قوته وقوة جميع الأمراء الصفار الذين جمعهم
تحت رايته منذ عشرة أعوام إلى الآن .

ثم سكت هنيهة وجعل ينظر الي فقلت له : لقد أدركت قصديك وعلمت
سياستك ولكنني لم أعلم بعد ماذا تريد مني .
- اصنع إلى فاني تخبرك بما أريد .

- ٩ -

وكان ثبات روكامبول وتجلبده قد أفرا على هذا الداهية ، وعلم انه لا يؤخذ
بالخدعة والاحتيال فعزم على مباحثته بجلاء فقال :
- إنك ترى بأنني أحسنت التخلق بأخلاق الهنود وبالفت في تقليد عاداتهم
حق لم يعد يخطر لأحد منهم اني قد أكون من الانكليز .

ولكنني على فرط ما للقاه من الغبطة والنعم ، وعلى نفوذي الذي لا يضاهيني
أحد فيه في هذه البلاد ، فقد مللت شمسها المحرقة ، وضجرت هذه العيشة
الشرقية التي اتكلفها تكلفاً منذ ٢٠ عاماً .

فقال روكامبول : إذا لا تريد خيانة الرجاء إلا اضجرك من العيش في
بلاد ؟

- ربما ، كان هذا السبب ، وفوق ذلك فاني انكليزي ، ويجب علي
تسليم عثمان إلى انكلترا ، فاذا فعلت غير ذلك أكون قد خنت أمي وخدعت
بلادتي .

- وما تمنحك انكلترا مقابل هذا الوفاء
فابتسم وقال هذه هي غاية الغايات فاني شديد الطمع بالغنى .

- ولكن خزائنك غاصة بالذهب
- وأي ضرر إذا زادت انكسرتا في ثروتي ؟
- لا شيء من الضرر ، ولكن الرجاء عثمان واسع الثروة وثروته
بين يديك .

- من أطاق التماس شيء علاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالاً فاني إذا سلمت
الرجاء للانكلير سلووني خزائنه فأعود إلى أوربا وأعيش في باريس أوفي لندرا
عيشة يحسدني عليها الملوك
- لقد فهمت يا سيدي الوزير كل ما تقول ، ولكني لم أعلم بعد لماذا
دعوتني اليك .

- لأقترح عليك أن تكون معي .
- على من ؟
- على الرجاء دون شك ..

فهرز روكامبول رأسه وقال : لقد دعوتني يا سيدي من طلاب الصدفة
والحوادث ، وأنا منهم ، غير اني لست من الحائذين ..
- إذا تأبى ما اقترحه عليك ؟
- كل الأباء .

- فلم يظهر شيء على الوزير من علائم الغضب والاستياء بل نظر إلى
روكامبول وقال له بلاء السكينة : إنك تستطيع الآن أن تعود ، ولكني لا
أدعك تسافر قبل ان تقيم في ضيافتي ونأكل من طعامي .

فقال روكامبول في نفسه : انه يريد أن يقتلني بالسهم دون شك .
ثم تركه وانصرف الى منزل أعد لاقامته .
وأقام روكامبول في ضيافة تريبورينو ثلاثة أيام ، كان الوزير يعامله فيها
خير معاملة .

وكانا يأكلان على مائدة واحدة ، فكان الوزير يبدأ بالأكل من صحن

كأنه قد أدرك مخاوف روكامبول فأراد تطمينه .
فاطمأن روكامبول ولكنه بقي مراقباً في أمر الضباط الذين قدموا معه
من العاصمة ، فإنه لم يعلم شيئاً منهم ولم يدر إذا كان قد قتلهم أو اكتفى بسجنهم
لأنه لم ير أحداً منهم مدة إقامته عند الوزير .

وفي اليوم الثالث دعاه تريبورينو فجامله خيراً بجمالة وقال له لقد
كان لكلامك خير تأثير في نفسي ، فاستنار به فؤادي ورجعت عما
كنت عازماً عليه من خيانة الرجاء ، فإنه من الحسنيين إلي ولم أبلغ هذه النعمة
إلا من فضله .

وكان يقول هذا القول بلهجة تشف عن الصديق الأكيد حتى أوشك
روكامبول أن ينخدع به لو لم ير من اتقاد عينيه ما يكذب هذه اللهجة .

أما تريبورينو فإنه لم يتكلف مراقبة روكامبول فقال له لا أرى حاجة
إلى إخبار الرجاء بما كان بيني وبينك فلا تزعجه بشيء من ذلك واعتمد
على وفائي .

فقال له روكامبول : وأنت فاعتمد على سكوتي فاني لا أريد لقاء النفرة
بينكما ما زلت صادقاً في خدمة مولاي .

ولما خرج روكامبول من حضرة الوزير وجد عند بابه أولئك الضباط
الذين صحبوه في سفره ، ففرح بهم فرحاً شديداً ، إذ كان يعتقد ان الوزير
قتلهم جميعاً .

غير أنه رأى أن واحداً منهم كان مفقوداً فسأل عنه فأجابه أحد
الضباط بلهجة تشف عن الحزن : إنه ذهب أمس لصيد النمر فافترسته
الوحوش الكاسرة .

وكان هذا الضابط الذي أخبره بموته شاباً هندياً يدعى موسامي أخلص
في خدمة روكامبول إخلاصاً عجبياً فحزن لوفاته أشد الحزن .
وكان تريبورينو قد خرج معه يشيعه الى الباب الخارجي وهو يلاطفه

ويجامله خير ملاطفة .

فلما حان وقت السفر قال له الوزير : إن للهنود عادة في ضيافتهم قديمة لا تزال متبعة إلى الآن

وهي أنه حين يزور عظيم منهم عظيماً مثله يقيم في ضيافته ثلاثة أيام وعند السفر يحفظ جواده أو فيله تذكراً ويعطيه جواداً أو فيلاً من عنده .

ولما كنت في عيون هؤلاء الناس من عظماء الهنود فلا بد لي من اتباع هذه العادة حفظاً للتقاليد .

— إذا عزمتم على أخذ جوادي ؟

— نعم ، ولكنني سأعوضك عنه فيلاً من خير افياي . انظر إلى هذا الفيل الواقف قربنا فهو المعد لسفرك وهو هدية مني اليك .

فنظر روكامبول ورأى فيلاً أبيض عظيم الجثة هائل الحلقة ، يندر وجوده في بلاد الهند ، ورأى فوق ظهره برجاً من العاج مرصعاً بالحجارة الكريمة ، فاستعظم الهدية ، ورأه أمرها ، ولكنه اثني على الوزير ثناء طيباً ثم ودعوه وامتطى ظهر الفيل فسار عائداً إلى الرجاء لا يصحبه غير الفرسان الذين جاءوا معه .

وبعد ذلك جعل روكامبول يفكر في أمر الوزير وكيف انه اوقفه على أسرار خيائنه الهائلة ، ثم برحه آمناً مطمئناً فقال في نفسه لا بد ان يكون أخطر الشر ودبر لي مكيدة هائلة ، او انه أمر اتباعه ان يكمنوا لنا في الطريق فيقتلونا شر قتل ، إذ لا يعقل ان تبلغ السلامة إلى هذا الحد من هذا الداهية فيرجعني إلى مولاه وأنا احمل اسرار خيائنه

وظل روكامبول سائراً مع رفاقه إلى ان وصل في المساء اليوم الأول إلى غابة كثيفة فقال في نفسه . لا بد ان يكون الكمين في هذه الغابة ، وامر رجاله بالتأهب

غير انه أخطأ هذه المرة ايضاً فانه سار كل الليل دون ان يتعرض

له أحد ، حتى أشرق الفجر وهو لا يزال سائراً على فيله في الغابات .
وكان الفيل يسير بملء السكينة ، ويخضع كل الخضوع لراكبه فلا يسير إلا
في الجهة التي يشير اليها روكامبول بقضيبه ، ولكنه انتفض فجأة واهتز
اهتزازاً عنيفاً حتى كاد روكامبول يسقط عن ظهره ، ثم رفع خرطوم
وجعل يتنفس بعنف وجميع جسمه يرتجف فظن روكامبول انه شم رائحة غر
فأصابه هذا الاضطراب .

وكذلك رفاقه فقد حسبوا نفس الحساب وجعلوا ينظرون منذهلين إلى
اضطراب الفيل ويتأهبون لمقاومة ما يعترضهم من الوحوش ، غير انهم ساروا
مدة طويلة دون ان يروا أثراً للوحوش .
اما الفيل فانه ظل مندفعاً في سيره ولكنه كان كلما تقدم خطوة يزيد
اضطراباً .

ودام على ذلك وروكامبول يتوقع شراً قريباً إلى ان خرج من وسط الغابة
صوت غريب لم يدرك سره ولكنه علم انه صوت انسان فهاج الفيل عند سماع
الصوت هياجاً شديداً ، وانطلق في تلك الغابات انطلاق السهم فقتل بارجله
احد رفاقه واستمر على عدوه لا يلوي على شيء .

وان سرعة الفيلة لا تقاس اليها سرعة الجياد ، فكان يعدو بسرعة البرق
يحتاز تلك الغابات المكتظة بالأشجار دون ان يلتطم بها ويسير في طرق خاصة
كأنه قد تعود اجتيازها من قبل .

فأدرك روكامبول الخطر وحاول ان يشب عن ظهر الفيل مؤثراً ان
تنكسر يده او رحله على ان يتعرض لخطر القتل ببقائه على ظهر الفيل .
وكأنما الفيل قد احس بقصده فانه مد خرطوميه إلى روكامبول ووضع
على كتفيه ضاغطاً عليها فقيده في محله ولم يعد يستطيع حراكاً واستمر يعدو
عدوه السريع .

غير ان روكامبول لم تضعض الحادثة صوابه فالتفت الى ورائه فلم يجد رفاقه

وعلم أنهم لم ينطلقوا في أثره ، ولم يطاردوا الفيل فأيقن أن تريبورينو قد اشترام بهاله وضمهم إلى حزبه فباتوا من أعوانه على الرجاء .

وقد صدق ظنه فان هؤلاء الخائنين لم يقتصرُوا على عدم مطاردة الفيل النائر بل انهم تركوه وشأنه .

وساروا في طريق آخر ضاحكين كأنهم كانوا يعملون بمصير قائدهم .
وقد ذكر روكامبول وهو مقيد على ظهر الفيل بخروطومه الشديد ان الهنود يستفيدون من ذكاء هذا الحيوان الذكي فيستخدمونه جلاداً لانفاذ عقابهم في من يريدون قتله .

وذلك انهم يضعونه فوق ظهر فيل خاص مدرب فيسير الفيل بالمحكوم عليه ويقيده بخروطومه بحيث لا يستطيع النزول عنه .

ويظل سائراً في طريق خاصة إلى أن يسمع مروضه يناديه نداء خاصاً فيندفع بالسير ، ولا يعلم أحد إلى أين يذهب بذلك الرجل المحكوم عليه بالقتل .

ولهذا النوع من الفيلة ذكاء وحكمة عجيبان فإن الفيل الجلاد يسير بالمحكوم عليه إلى مكان خفي كأنه ينبغي إخفاء الجريمة ، وهو يسير به ساعات بل أياماً إلى أن يصل إلى المكان الذي يكون قد اختاره لانفاذ العقاب فينفذه على طرق شق .

وذلك انه إما أن يقبض عليه بخروطومه فيجلك به الأرض بعنف شديد فيتخبط ، أو يلقيه على الأرض ثم يسحق صدره برجله الهائلة فيطحنه طحناً أو يأخذه بخروطومه فيقذفه بالهواء فيسقط على الصخور الناتئة ، أو يضرب به غصن شجرة غليظ فيخترق جسمه أو يخرق قلبه بنيابه .

وفي كل حال فإن من ركبه لا ينجو من الموت باحد هذه الطرق الهائلة .

وقد ذكر روكامبول هذه العادة فارتمش ولم يشكك انه سائر إلى الموت وانه راكب ظهر فيل جلاد ولا سيما حين سمع ذلك الصوت الانساني الغريب

الذي خرج من جوف الغابة فأيقن أنه صوت المروض، وان نريبورينو قد خدعه شر خداع وانتقم منه شر انتقام .

واستمر الفيل يعمدو حتى اجتاز الغابة وانتقل إلى سهل واسع كثير الأعشاب النامية ، وفي بعض أماكن من هذا السهل الواسع آثار الحصاد وبعض المنازل .

فقال روكامبول في نفسه : لا يزال الوقت فسيحاً لدي فإن هذا الفيل الذي لا ينفذ عقابه بي في هذا المكان المأهول .

وكان نريبورينو قد توقع كل شيء ، فحسب لكل شيء حسابه ، ولكن فاته أن يجرّد روكامبول من سلاحه إذ كان يعلم أن رصاص المسدس لا يقتل الا فبال الضخمة على الفور .

غير أن روكامبول قد أحضر معه من أوروبا مسدساً من طراز جديد يحشى برصاص دمدم الذي إذا أطلق ونفذ في الجسم ، انفجر فيه ومزقه شر ممزق .

أما الرصاصة العادية فإنها تنفذ إلى جسم الفيل ولكنها لا تقتله على الفور ، أو قد لا تصيب منه مقتلاً ، خلافاً للرصاصة المنفجرة ، فإنها أين وقعت في جسمه ، انفجرت ومزقته شظاياها ، وهي أفضل من الرصاصة ذات الرأس الفولاذية المحددة التي يستعملونها في قنص الأسود والنمور والتماسيح .

وكان الفيل الجلاد قد ضغط عليه وقيد به بخرطوميه كما تقدم ، ولكن بقيت يده اليمنى مطلقة السراح ، لم يصل اليها خرطوم الفيل ، فدها روكامبول إلى جيبه وأخرج منها ذلك المسدس .

ثم قال في نفسه : إنني إذا تمكنت من قتل الفيل على الفور فقد نجوت من الموت وإلا انتقم مني إثر الانفجار وداسني برجليه فطحنني طحناً .

ولم يمر على روكامبول ساعة خطر كهذه الساعة على فرط مساه لقيه في

حياته من أخطار الموت
ولكنه لم يضع رشده وصوب مسدسه بمسلة السكينة إلى عنق ذلك
الفيل الضخم .

- ١٠ -

ولم تكن إصابة المرمى من الأمور السهلة الميسورة ، وذلك لأن جلد الفيل
شديد الغلظة ، وفوق ذلك فهو كثير التجمد يشبه حلقات بعضها فوق بعض
بل يشبه قشوراً تتجمد وتتلوى شبه رمال الصحاري إذا نسفتها الرياح .
ولذلك فقد وجب على روكامبول أن يختار حيناً يمتد فيه ذلك الجلد
وتنبسط تلك التجمعات كي تجد الرصاصة منفذاً أميناً إلى الجسم فتنفجر فيه
ويحدث ما كان يرجوه من الموت الممجل .
فجعل يترقب الفرصة وهو مصوب مسدسه إلى جهة الشمال كي تنفجر
رصاصته في جهة القلب .
وكان الفيل يسير فوق العشب بخفة النمر ، وفي هذا السهل كثير من الهوات
كان يشب من فوقها واثوب الخيل المدربة على الصيد .
وفيا هو يتأهب للوثوب من فوق هوة كبيرة انبسط جلد عنقه وانتثرت
طياته فانتهاز روكامبول هذه الفرصة وأطلق النار .
وعند ذلك ، اهتز الفيل اهتزازاً عنيفاً هائلاً ، تقطعت له حلقات البرج
فقدفه هذا الاهتزاز إلى خارج الحفرة وفيه روكامبول ، أما الفيل فانه
سقط في الهوة .
وذلك ان الرصاصة نفذت إلى جهة القلب وانفجرت فقتلته على الفور ،
ونجا روكامبول من الموت .

أما روكامبول فإنه نهض بعد سقوطه وقد رد جسمه خرطوم الفيل وذلك السقوط ولبت هنيهة مضعض العقل .
ثم ثاب اليه رشده فبحث عن مسدسه ووجده ملقياً على الأرض أمامه وقد سقط من يده لول سقوطه عن الفيل فوضعه في جيبه وجعل ينظر إلى مساحواليه ليفحص المكان الذي كان فيه .

فوجد نفسه في سهل عظيم لا تبلغ العين نهايته ورأى تلك الغابات الكثيفة التي اجتازها الفيل بعيدة جداً عنه فقال في نفسه : لا بد لي للاهتمام إلى شواطئ الكنفج أن أعود أدراجي وأجتاز تلك الغابات وأعرض نفسي لأخطار لا حد لها . ولكنه رأى أنه لا يسمعه إلا إقباع هذه الخططة ، إذ لا يعرف غير هذه الطريق ، فعاد يمشي في تلك السهول إلى الغابات ملتمساً ضفاف النهر .

ومشى ساعة فوق عشب السهول متبهماً آثار الفيل إلى أن وصل إلى نبع ماء ، وكانت قواه قد وهت ، فجلس فوق العشب ليستريح ويروي ظمأه من ماء ذلك النبع .
ثم استلقى على تلك الأعشاب ، ومن المعروف ان من وضع أذنه على الأرض تبلغ الأصوات إلى مسامعه أكثر من بلوغها اليه ، إذا كانت الأذن معرضة للهواء .

فسمع روكامبول وهو على هذه الحالة صوت عدو سريع ، أيقن انه عدو فيل فاضطرب وقال في نفسه العمل تريبورينو أرسل في أثري رسولا يعود اليه بحقيقة أمري وببشره بتنفيذ العقاب بي ؟
وقد ترحح لديه هذا الظن فلم يفتّم له ورجا ان يعث بهذا الرسول ، فيأخذ فيله بالقوة أو بالحيلة ، ويعود عليه الى الرجاء . ولذلك أخذ مسدسه ووقف موقف المتأهب .

وكان صوت عدو الفيل يدنو منه ، وبعد حين رأى الفيل قادماً إلى

جهته ، فاضطرب فؤاده وتأهب لمأداة راحته . ولكنه ما أوشك أن يدنو منه ، ويرى ذلك الراكب حق اهتزاز النشوان من السرور وصاح صيحة فرح .

ذلك انه رأى راكب الفيل وعلم انه خادمه الهندي الأمين موسافي الذي أشاع عنه تريبورينو انه خرج لصيد النمر فافترسته الوحوش .

وكان الفيل لا يزال على مسافة ٤ متراً منه فجعل ينادي بأعلى صوته ويشير اليه بيديه .

فأسرع موسافي اليه ولما رآه صاح مثله صيحة فرح ، فأوقف الفيل وقال له : إن هذا الفيل يعدو بي منذ ثلاثين ساعة باحثاً عنك ومسا كنت أطمع بلقائك حياً .

فمعجب روكامبول لافلاته ونجاته ، وقال له : كيف تمكنت من البحث عني ؟

- إني كنت أسيراً عند الوزير فتمكنت من النجاة وعلمت إنهم دفعوك إلى الفيل الجلاد ، فكيف نجوت منه ؟
- إني قتلته .

فنظر اليه ببلاهة وقال : كيف يمكن ان يكون ذلك ، لأن الرجل لا يستطيع قتل فيل ؟

- سأخبرك فيما بعد كيف قتلته . فقص علي أنت ما جرى لك ، ومن أين أتيت ؟

- من سجن تريبورينو .

- ألم تذهب لصيد النمر ؟

- كلا .

- إذن ماذا حدث لك ؟

- حدث لي أنه منذ وصولنا إلى بلاط الوزير حاولوا ان يتخذوني من حزمهم

لأنهم كانوا يعرفون شدة إخلاصي لك .
ولما رأوا إصراري على الوفاء حبسوني بأمر الوزير لأنه أبى قنلي بشفاعة
جارية عنده كانت تحبني حباً شديداً ، وهي التي أطلقت سراحني . فلما لما
علمت أنهم دفعوك إلى الفيل الجلال ، فتحت لي باب السجن ، وأخبرتني
بأمرك وبأمر هذا الفيل ، وقالت لي : إبحث عن طريقة تنقذ بها
سيدك .

وأخبرتني أيضاً ان جميع رفاقك الضباط خانوا الرجاء وانضموا إلى الوزير
فانقطع رجائي منهم .

على أني علمت أن الفيل الجلال أنثى ، فبقي لي شيء من الرجاء
بانقاذك .

ولهذه الجارية نفوذ عند الوزير فأعطتني خاتماً من الذهب وأرسلتني به إلى
منزل أحد كبار الضباط .

فلما انتهيت إليه أظهرت له ذلك الخاتم فعلم إنني آت من عند الجارية وقال لي :
قل ماذا تريد ؟
- أريد فيلا وما يحتاج اليه من عدة .

فنادى أحد أتباعه وأمره بأعداد ما طلبت .
وبعد هنيهة رأيت الفيل واقفاً عند الباب ، فامتطيته وسرت في أثره
أسابق الرياح .

وللفيل حاستان قويتان فيه وهما حاستا السمع والشم ، فما سار بي ساعة
حتى علمت من اضطرابه أنه أدرك أثر الفيل الجلال وأنه يسير في نفس الطريق
التي كنت تسير فيها .

واشتد عندي الرجاء بانقاذك ، وسار بي ذلك الفيل ينهب الأرض
نهباً ، وقد رأيت الآن أن فيلي لم يخطئ . ولكن أين تركت فيلك الذي
قتلته كما تقول ؟

فأخبره عند ذلك روكامبول بجميع ما جرى له . وأراد أن يبرهن له عن فعل رصاص مسدسه ، فأخذه وأطلق رصاصة منه على شجرة فدخلت في جذعها حتى تفجرت وسقطت الشجرة قطعاً متفرقة ، كأنما قد انفجرت تحتها الألغام .

وبعد ذلك ركب روكامبول الفيل مع موساني وسار بهما .

لكنهما لم يعودا الى الكنفج كما كان يحاول روكامبول قبل ان يلتقي بخادمه بل سار بهما في طريق الجبال الكاثنة وראה عاصمة عثمان .

وبعد مسير بضع ساعات وجدا منزلاً فوقاً عنده ، وقد عضهما الجوع بنابه ، فأكلا فيه ما تيسر . وأسرعوا الى مواصلة السفر كي يخرجوا من دائرة نفوذ تريبورينو العسكرية ، إذ كانا معرضين لاعادة القبض عليهما .

واستأنفا السير حتى إذا أمنا اعتداء الوزير جعلنا يتحدثان فقال موساني : إن هذا الوزير المنافق عامل على خيانة الرجاء عثمان

فقال روكامبول : لقد عرفت هذه الخيانة .

- إنه ضم اليه جميع قواد الحصون حتى إذا جاء الانكليز فتبعوا لهم أبوابها فدخلوها آمنين .

- لكن لحسن الحظ لا يزال الوقت فسيحاً لدينا فسنخبر الأمير بأسرار هذه الخيانة .

فهز موساني رأسه وقال : كلا لقد فات الأوان .

— لماذا ؟

— لأن هذا الوزير عامل على خيانة مولاه منذ عهد بعيد وقد أصبح نصف الجيش من حزبه لا يخالفونه فيما يريد .

— وماذا يفيد ذلك إذا بقي النصف الآخر موالياً للأمير عثمان ؟

فقال موساني بلمحة الارتياب : لكن أظن ان الرجاء يصدق ما نقوله عن

خيانة وزيره ؟

- دون شك متى شفعت أقوالي بالبراهين .

- إنك مخطيء يا سيدي ، لان الرجاء يحب تريبورينو حبساً عظيماً وأنا

أعلم السبب

ما هو السبب ؟

- إني عرفت من حارية الوزير ، فإنه مولع بها وهي واقفة على معظم أسرارها ، وقد أطلعتني عليها ، وما قالت لي عن سبب حب عثمان للوزير أن الوزير أنقذ كولي نانا من اللهب ، وكان الأمير عثمان يهاها فتمكن حبها من قلبه .

وأما الوزير فإنه يكره الأمير كرهاً شديداً يعادل ذلك الحب ، لأنه غيور منه .

- على من ؟

- إن كولي نانا زوجة الأمير عثمان باتت شبيهة بالعجائز لأنها بلغت السادسة والعشرين من عمرها وهو سن الكهولة في الهند .

لكنه على حبه إياها وإكرامه لها قد تزوج بفتاة تبلغ ١٤ من عمرها ، لم تر للمعيون أبدع منها وهي تدعى دابي كوما .

- أهي التي يحبها الوزير ؟

- إنه يحبها حباً لا حد له وهو لا يريد خيانة عثمان وتدمير بلاده على فرط إحسانه اليه إلا طمعاً بسلبه هذه المرأة .

ونعم إن الانكليز قد وعدوه بالأموال الطائلة إذا سلمهم الأمير عثمان وولي عهده . لكن الذي دفعه الى الخيانة ذلك الفرام لا المال .

- لكن كيف تمكنت الجارية من معرفة أسرار الوزير ؟

- لأنه كان يهاها من قبل وكانت تهواه ، فكان يطلعها على أسرارها في

ساعات سكره وغفلات غرامه . وما زالت موالية له إلى ان علمت بحبه لامرأة

عثمان فلدغتها عقرب الغيرة ، وهي ساعية الآن كل جهدها في سبيل الانتقام منه لذكته بعموده

وقد قالت حين أطلقت سراحى : اذهب واجتهد في إنقاذ سيدك قبل ان يقتله الفيل الجلاب ، فاذا لم تستطع إنقاذه اذهب الى الأمير عثمان وانطرح عند قدميه وقول له ان تريبورينو من الخائنين .

فلما أتم موساني حديثه رأى روكامبول أنه سيد تقييد من حديث غرام الوزير بامرأة الأمير لاقناع الرجاء على خيانة وزيره فإن هذا الغرام سيؤثر عليه أعظم تأثير .

واستأنف الاثنان السير كل تلك الليلة وقسماً من اليوم الثاني .

حتى إذا توسطت الشمس في كبد السماء ونجت الارض من هجيرها المحرق برزت لهما مدينة بيضاء مستظلة بظل جبل شاهق يقيمها شر الحر وغابة كثيفة تحيط بها عند سفح الجبل .

وكانت هذه المدينة البيضاء ، المدينة المقدسة كما يدعوها أهل تلك الجبال ، وقد اختارها الرجاء عاصمة له تبركاً بها وإرضاء لاهل الجبال .

لكن الرجاء لم يكن في حاجة الى براهين روكامبول لاثبات خيانة وزيره كما سيتضح من الفصول التالية .

- ١١ -

إن عاصمة الرجاء كانت تدعى نارفور وهي محصنة أعظم تحصين إذ كان يحيط بها ثلاثة أسوار بعضها وراء بعض .

وهي مبنية في سفح جبل شاهق ، يحيط بها نطاق من البراري يمتد الى سهول الهند الخصيبة ، وفي وسطها غابة باسقة الاشجار تقيها

حر الشمس .

فاذا اجتاز القادم اليها السور الثالث ، يجد بيوت بيضاء سميت المدينة باسمها . وفي كل شارع من شوارعها ينبع يتدفق منه الماء ، فيترطب به الهواء .

وهناك حدائق غناء لا يخلو منها بيت تدلت أثمارها وزكت أزهارها ، فكانت جنة للناظرين .

وفي وسط المدينة سراي الأمير ، وهي قصر ضخم محصن كأنه مدينة ضمن مدينة . وكان محصناً أقوى تحصين وهو عظيم الاتساع ، بحيث لو تمكن العدو من اجتياز الاسوار الثلاثة ، يستطيع أهل المدينة يجملتهم أن يقيموا في هذا القصر ، ويحاصروا ما بقيت لهم ذخيرة تمكنهم من الدفاع .

وقد حدث مثل ذلك في تاريخ هذه المدينة منذ قرن . فان الملك أدو حاصر نارفور عدة أشهر ، فخرق الاسوار الثلاثة واحداً تلو واحد ، فالتجأ أهل المدينة إلى السراي ، أي إلى الحصن ، ودافعوا فيه زمناً طويلاً ، حتى مل ملك أدو محاصرته واضطر إلى الرجوع عنهم بالخيبة والخذلان .

وهذه السراي التي كان يقيم فيها الأمير عثمان كان فيها شوارع وحدائق ومحلات عمومية .

ولكن لم يكن يستطيع الدخول اليها إلا من كان معروفاً انه في خدمة الأمير ومن رجاله الحربيين . فلو أراد هندي من العوام الدخول اليها قبض عليه أو طرد .

وكان في وسط هذه السراي بناية مربعة لا نوافذ فيها تصل اليها أشعة الشمس من السقف وهي دار الحرم .

وعلى بابها حارسان من الخصيان يحرسانها في الليل والنهار .

وكان من عادات حرم الامير أن لامراته الشرعية وحدها الحق بالخروج من السراي وإظهار وجهها للعموم . وأما الجواري وسائر النساء فكان يحق لهن الخروج إلى الحمام والمنزهات لكنهن لا يخرجن إلا مبرقعات ولا يحق لاحد الدنو منهن .

وكانت دار الحريم في محل فسيح وبالقرب منها خمارة يختلف اليها جنود حرس الامير الخاص ، فيشربون ويتنـادمون ويبتشون ما في أفئدتهم من لواعيـع الغرام .

ففي ذات ليلة قبل وصول روكامبول الى نارفور بيومين ، كان جنديان جالسين على مقعد عند باب الخمارة يتحدثان بصوت خفيض .

وكان أحدهما هندياً بحثاً لا غش فيه والآخر عبداً أسود . وقد دار بينهما الحديث الآتي :

قال الهندي لرفيقه : أتعقد أيها الصديق بفردوس الاله وشنو ؟

فأجابه الاسود بملء البساطة : لا أعلم .

— لكن يجب أن يحسن اعتقادك بهذا الفردوس .

— لماذا ؟

— لأنه موجود ومن يدخل اليه يجد لذات لا حد لها ونعيمًا خالداً لا يحيط

به وصف .

فاسترخت شفة العبد وظهرت أسنانه البيضاء وبدت عليه علائم الشر .

فقال له الهندي : رأيت زوجة الامير الاخيرة ؟

— الحسناء ؟

— نعم .

— كيف أستطيع ان أراها ؟ إن الرجاء لا يأذن لها بالخروج سافرة الوجه

حتى في ظلام الليل .

— لكن الخصي رومافلي يقول انها أجمل ملكات الهند .

- لقد أصاب هذا الخصي لان نور جمالها يكسف كل شمس .
- كيف عرفت ذلك ؟
- لاني رأيتها .
- أنت رأيتها ؟
- نعم لقد رأيتها سافرة الوجه فعلت انها خلقت كما اشتئت .
- أعلم إذا أن الاله وشنو له في فردوسه آلاف النساء أجمل من هذه المرأة وهو يزفهن لمن يدخل الفردوس .
- فاتقدت عينا العبد وقال : كيف السبيل إلى بلوغ هذا الفردوس ؟
- يجب على من يريد الدخول اليه ان يخاطر بحياته من أجل رجل يحبه الاله وشنو . فاذا مات في سبيل المخاطرة ذهب توأ إلى الفردوس ، وإذا سلم من الموت فان الاله وشنو يحميه إلى آخر ساعة من حياته إلى ان يموت الموت الطبيعي .
- وبعد ذلك ؟
- وبعد ذلك تغارق نفسه الجسد فيفتح الاله أبواب فردوسه ويأتي لمقابلة تلك النفس مع نسائه الحسان وكل واحدة منهن خير من ألف امرأة من ملكات الهند ونساء الرجاء .
- فصمت العبد هنيهة وأطرق مفكراً ثم قال : من هذا الشخص الذي أحبه الاله وشنو ؟
- هو تريبورينو الاكبر .
- أحقاً ما تقول ؟
- دون شك فان من يموت في سبيل تريبورينو يذهب توأ إلى فردوس وشنو فتدخل نفسه في جسم فتى جميل أبيض كالخليب .
- كيف يمكن ذلك وأنا أسود ؟
- لمنهم يعطون نفسك جسماً أبيض أنقى من العاج .

ففكر العبد أيضاً ثم قال حسناً سأموت في سبيل تريبورينو. ولكن أتؤكد لي أن هذا الفردوس موجود حقيقة ؟

- إني لو لم أكن واثقاً كل الثقة من هذا النعيم لما خدمت تريبورينو ولما خاطرت بحياتي في سبيله ثم ألا تعلم ان هذا الوزير أنفذ سلطاناً وأعظم بأساً من الأمير فان ما يريده الوزير لا بد ان يكون .

- وماذا يريد الوزير ؟

- إنه يهوى امرأة ويريد الحصول عليها .

- لكنه كثير المال وافر الكنوز فلماذا لا يشتريها ؟

- لأنها ليست من النساء التي تباع فهي امرأة الرجاء الأخيرة الحسناء التي يدعونها مورقار .

فانذهل العبد اندهالاً عظيماً من هذا السر الهائل الذي ائتمنه عليه حتى وقع الكأس من يده وجعل ينظر إلى الهندي بلاء الدهول .

فقال له الهندي : إن تريبورينو قد أقسم بالله ان ينال امرأة الرجاء ولا بد أن ينالها .

- لكن أسوار سراي الحريم عالية وأبوابها من الحديد .

- ورغم ذلك سيفتحونها

- من الذي يفتحها ؟

- إصغ إلي أيها الصديق ، لقد تماديت معك في القول حتى لم يعد بد لي معك من واحد من أمرين وهما إما أن أقتلك فأكون آمناً على أمراري أو أقسم لي على كتمان ما قلته وما سأقوله لك فيرضى عنك الاله وشنو وتدخل إلى جناته .

ثم جرد خنجره من غمده وأنذر به العبد

أما العبد فانه لم يخف من الخنجر خوفاً من حرمانه الجنان فقال له : إني أقسم لك بحظي من ذلك الفردوس بأني أكتف كل ما تلقىه إلي وأكون في خدمة الوزير

أطوع من البنان ، فقل ما تريد .

- لقد صدقتك ووثقت بوفائك ، أعلم الآن أن الإله وشنو يجب تريبورينو حباً شديداً ، حتى أنه أوصى الاخلاص إلى قلوب كل الذين يخدمون هذا الوزير ، فيأتوا يضحون في خدمته تضحيات أهون منها الموت .

- ألا تذكر لي شيئاً من هذه الخدمات ؟

- نعم ، سأروي لك حكاية تكون خير مثال لاخلص أتباع هذا الوزير وهي أنه كان للوزير عبد يدعى كوجلي وهو أسود مثلك غير انه من الأقاليم الغربية أي ان سواده مشرب بالحمرة وهو من أولئك العبيد الحسان الذين طلما هامت بهم الجواري وقضين بهم حباً .

وان في تلكوفا راقصة حسناء تدعى بموتا ، هامت بهذا العبد وهام بها ، فتوافقا على الزواج ورضي به تريبورينو ، فسر العبد سروراً لا يوصف لفوزه بمن يحب .

وبعد حين نادى الوزير هذا العبد الولهان وقال له : إني أحب امرأة الرجاء واعتمد عليك بالدخول إلى دار نسائه .

أتعلم ماذا فعل هذا العبد الوفي ؟

إنه امتثل لمولاه وترك عروسه وتنازل عن الرجولية في الحال إذ لا يدخل دار نساء الأمير غير الخصيان .

- إني لا أفهم ما تقول .

- ألا ترى هذا الخصي الأسود الجديد الذي يخرج أحياناً من دار الحرير فيجاسنا في الحمارة ؟

- نعم .

- هذا هو كوجلي الذي رضي ان يكون خصياً على فرط عشقه لعروسه لاستماتته في خدمة الوزير فهل رأيت أصدق من هذا الاخلاص ؟ إن هذا مثلاً

من ألوف مثله على ما يلاقيه الوزير من وفاء أتباعه ولا يتيسر ذلك إلا لمن
تعضده الآلهة .

فقال له العبد : لقد فهمت وأرجو ان يوحى إلي الآله وشنو مثله هذا
الاخلاص . لكنني أرى ان وجود كوجلي في دار حريم الامير لا يكفي
لاختطافها .

— انك تقول الحقيقة ، لان كوجلي وحده لا يستطيع اختطافها ،
لان الخصيان يستطيعون الخروج من دار الحريم ، ولكنهم لا
يستطيعون الخروج من القلعة ، ولا يحق للنساء أن يخرجن منها أيضاً إلا
بصحبة أزواجهن

— إنك تثبت إعتراضي فيما تقول .

— نعم ، ولكن كوجلي سيخرج غداً من دار الحريم ومعه زوجة الرجاء
فيسلمها لنا .

— لنا نحن ؟

— نعم لي ولك وعلينا عند ذلك ان نخرجها من الحصن فاذا فزنا بما نسمى اليه
نصبح من كبار الاغنياء بفضل تريبورينو .

— وإذا باعنا الحرس وقبضوا علينا ؟

— يقطع الرجاء رأسينا ، ولكن روحينا تطيران إلى فردوس
الآله وشنو .

وكأنما جميع هذه البراهين لم تقنع العبد فقال له : تقول أن كوجلي يخرج
بزوجة الرجاء من دار الحريم ويدفعها اليينا . فهل ترضى زوجة الرجاء
أن يختطفها ؟

— دون شك .

— لماذا ؟

— لأنها حين باعها ابوها للرجاء بعشرة آلاف كيس كانت عاشقة فتى هندياً

جبيلا من بناريس وقد تحالفا على الوفاء .
وكان تريبورينو عارفاً بجميع ذلك فعلم كوجلي ماذا يفعل ولذلك فان كوجلي
سيقول لزوجة الرجاء انه قادم من قبل عشيقها لاختطافها وهي ستوافقهم دون
شك على الفرار .

- ونحن ماذا نفعل ؟

- نخذعها بنفس الحيلة ونقول لها اننا رسولا عاشقها .

فبقي العبد متردداً وقال له : أظن اننا نستطيع الخروج من الحصن ؟

- نعم .

- كيف ؟

- ذلك ان زوجة الرجاء تخرج من دار الحريم مبرقة . وفوق ذلك فان
كوجلي يصبغ جسمها بلون السواد . اليس لك زوجة سوداء ؟
- نعم .

- إذا تأخذ زوجة الرجاء بيدها وتصل بها إلى باب الحصن فتكشف شيئاً
من النقاب عن وجهها وتقول : إنها امرأتى فيأذن لك الحارس بالخروج بها .
فتخرجها حالاً .

- أظن انه يأذن لي ؟

- دون شك ، لأن هذا الحارس سيكون الذي يحادثك الآن ،
أي أنا .

- إذا كان ذلك فان الأمر سهلاً . ولكن ماذا اصنع بها بعد الخروج
من الحصن ؟

- تذهب بها إلى خمارة اللؤلؤة الزرقاء وهناك تجد مركبة وخفراء ارسلهم
تريبورينو فتقول للمرأة ان هذه المركبة وهؤلاء الخفراء ارسلهم عشيقك . والآن
هل عزمت عزماً أكيداً صادقاً على خدمة الوزير ؟
- نعم إذا كنت تقسم لي ان فردوس وشنو كائن حقيقة .

- إني أقسم لك بكل عزيزي في الأرض ، ومقدس في السماء على صدق ما أقول .
 - وإنا أقسم لك بفردوس وشنو إني سأكون من اخلص المخلصين في خدمة الوزير .
 وعند ذلك فتح باب دار الحرم وخرج منه الحصيان .

- ١٢ -

كان الهندي صادقاً في تلك التفاصيل التي رواها للعبد ، فأتت امرأة الرجاء الجديدة ، وهي دابي كوما ، لم تجف لها دمة منذ دخولها إلى بلاط الرجاء .
 وكانت تحب فتى جميلاً نبيلاً من بناريس عاهداً وعاهدته على الزواج برضى عائلتيهما اللتان احتفلتا بعقد الخطبة ، فسر سكان المدينة بحملتهم لفرط جمال الخطيبين .
 غير أن سلطان المال نافذ في الشرق نفوذه في الغرب ، وهو يفعل في كل كوتا كما يفعل في باريس .
 وقد اتفق يوم عقد الخطبة وجود ضابط من ضباط الرجاء عثمان في بناريس فحضر الخطبة وأكرمه والد الخطيبة إكراماً عظيماً ، فخرج الضابط مقتوناً يجهل الصبية .
 ولما عاد إلى نارفور أخبر مولاه الرجاء بما رأى ووصف له الفتاة وصفاً أخذ بمجامع قلبه فأمر الأمير عثمان أن يعود إلى بناريس ويشتري الفتاة من أبيها بما يريده من المال .
 وجزعت الفتاة جزعاً شديداً وتوسلت إلى أبيها بالدموع السخينة فلم يعدها

الدمع ولم تغنّها الشفاعة فباعها للامير بعشرين لكروبية واللك في اصطلاح الهنود والأعجام مائة الف والروبية فرنكان ونصف فيكون قد باعها بخمسة ملايين فرنك .

وأخذها الضابط وجاء بها إلى مولاه ولكنه قبل وصوله إلى نار فور مر بالمدينة التي يقيم فيها تريبورينو فرأى امرأة الأمير وفتن بها فلم يهدأ له بال من تلك الساعة .

وكان قد عرف امرها فزاد انشغافاً بها وهاجت كوامن عشقه وحققه على الامير عثمان بما غرس في نفسه من بذور الحسد والمباذير السافلة ولكنه لم يظهر للفتاة شيئاً من هذا الغرام والهيام حذراً من ان يتصل امره بالأمير عثمان .

وسار بها الضابط إلى بلاط الأمير فرآها فوق ما وصفت له ولكنه لم يلتق منها غير النفور ولم تقابل به بغير البكاء فهاجت كوامن عشقه وتمكن حبها من قلبه ولكنه كان واسع الصدر كثير الصبر فكان يقابل صدها باللين والملاطفة وهو يرجو أن تألفه يوماً وتعلم انه أهل لحبها .

ومضى على الفتاة شهر وهي لا تنقطع عن البكاء إلى أن دخل إلى السراي خصي جديد يدعى كوجلي فتعين في الحال لخدمة دايي كوما .

وقد عرف القراء هذا الخصي انه خادم الوزير الأمين فجعل من يوم دخوله يدبر وسائل اختطاف الفتاة ويمهد السبل للذهاب بها إلى سيده الخائن .

وكان اول عمله اختلاطه بجنود الحرس الخاص واهتمامه باغوائهم بطرق مختلفة فلم يفلح إلا مع ذلك الهندي ولكن أغوى العبد كما تقدم فيكون أغوى اثنين لاختطاف الفتاة

ولقد قلنا أن كوجلي خرج من دار الحريم وأقبل إلى حيث كان الهندي والعبد ، فلما رآه الهندي غمزه بعينه فدنا منه كوجلي وقال له : أتريد أن تحادثني بشيء ؟

— نعم .

فنظر كوجلي إلى العبد المقيم مع الهندي وقال له من هذا ؟
- انه رجل يريد الصعود إلى فردوس الإله وشنو .

فنظر اليه كوجلي وقال : أحق ما يقول ؟
- نعم وقد اتقدت عيناه بشمع الرجاء ، فأيقن كوجلي انه خلص في تعبه
وانه سيضحي بحياته في سبيل الوزير .
وأقام مع الاثنين نحو ساعة فشرىوا الشاي واتفقوا على ما سيصنعوه في الليلة
القادمة لاختطاف الفتاة .

ثم تركها كوجلي وعاد إلى دار الحريم فأقام فيها ينتظر هبوط الليل .
وكان الرجاء عثمان قد زهد في جميع نسائه لافتتانه بهذه الفتاة ، فجاء
اليها وجعل يلطفها ويؤانسها ولكنه لم يلق منها غير الصد والبكاء كما عودته
منذ اشراها .

فغزاها وخفف كربتها بالكلام اللين والوعود الجميلة ، ولكن أين للعشاق
أن تشغلهم الوعود والأمانى عما يكونون فيه من وجد ولوعة .

وبعد أن خرج الأمير من عندها دخل اليها كوجلي وهي لا تزال دامعة
العين فقال لها : ما بك يا أولؤة الشرق تبكين ؟
- لأن أبى باعني ببيع السلع وما أنا من الرقيق .

- لقد أصبت يا سيدتي ولكن لكل ضيق فرج وقد يمكن انقاذ الأسرى .
فهزت رأسها وقالت : وأسفاه اني أصبحت ملكاً للرجاء ولا بد لي يوماً
للامتنال مكرمة .

فنظر اليها الخصي محذقاً وقال : كيف ذلك أتنقضين يمينك وتنكثين
بعمودك ؟

فاهتزت الفتاة اهتزاز الورقة حركتها الرياح وقالت كيف علمت اني
أقسمت يميناً وتقيدت بعمود ؟

- ألم تقسمي يمين الوفاء لخطيبك رمسيس في بنارس قبل أن تفرقا ؟

فأبرقت عينا الفتاة وخرج البريق من خلال دموعها كما تنفذ أشعة الشمس من خلال المطر ثم قالت الملك تعرف رمسيس ؟
- بل أقول خيراً من ذلك وهو أن رمسيس أرسلني اليك

فصاحت الفتاة صيحة فرح حاولت كتمانها فخرجت من صدرها كالزفير .
ومضى كوجلي في حديثه فقال : انظري إلي يا سيدتي فلاني كنت قبل ثمانية أيام فوضيت أن أغدو من الحصان كي أصل اليك ، لأنني من خدام رمسيس
- وهو أرسلك الي ؟

- نعم ، وإذا رضيت أن تتبعيني تصبحين حرة وتفلتين من قبضة الأمير بعد بضع ساعات .
- أنا أصبح حرة ؟
- دون شك وتسيرين في طريق مدينة بناريس حيث ينتظرك خطيبك رمسيس .

فضمت الفتاة يديها وقالت ويلاه : أخشى أن تكون عابثاً بشقائي وأن تكون من جواسيس الأمير تحاول الوقوف على أفساري .
- قلت لك يا سيدتي أنني خادم رمسيس المخلص فشقي بقولي لان الأمير غير محتاج إلى الوقوف على نياتك فهو يعلم أنك تعشقين سواه .
فوثقت داني كوما بما قاله ، وجعلت تتأهب للفرار وقلبهما يكاد يطير سروراً .

وعند انتصاف الليل بينما كان جميع النساء نائمات في السراي دخل كوجلي إلى الفتاة وقال لها هلم بنا فقد آن الأوان .

ثم وضع على وجهها نقاباً كثيفاً كبير غطى كل جسمها .
وذهب بها إلى قاعة كانت تجتمع فيها بالنهار خادمت وجواري الرجا ، وهي القاعة المعدة لاعداد مواد التزجيج والتخضيب

وهناك وعاء كان قد أعد فيه كوجلي صباغاً أسود ، فأخذ اسفنجة وأزاح النقاب عن وجه دايي كوما ، ثم مسح وجهها ويديها وعنقها وما ظهر من جسمها بهذه المادة السوداء ، فتبدل لونها الأبيض بلون الأبنوس .

وصبر هنيهة حتى جف السائل على وجهها فخرج بها من دار الحريم . ولما كانت الخوادم كلهن من الجواري السود في ذلك القصر ، حسب رئيس الخصيان أنها واحدة منهن ، فأذن لها ولكوجلي بالخروج وفتح لهما الباب بيده ، فخرج الاثنان إلى الردهة السكينة أمام الخمارة التي اجتمع فيها الهندي والعبد الذي أغراه .

وكان العبد يسير في تلك الردهة ذهاباً وإياباً وهو ينتظر خروج زوجة الرجاء من حين إلى حين ، فلما رآه كوجلي ناداه وقال له : خذ زوجتك واذهب بها إلى حيث اتفقنا .

فعلم العبد أنها زوجة الرجاء فأخذ بيدها وسار بها . أما دايي كوما فلإنها خافت حين رأت كوجلي عاد إلى القصر فالتفتت إليه وقالت : ألا تأتي معنا أنت !

- كلا ، ولكن لا تخافي فإن العبد الذي يصحبك هو أيضاً من خدام رمسيس ، فثقي به كما تثقين بي ولا تخشي شيئاً ، فانك بالغة مساتريدن بأذن الله .

فصدقت دايي ووثقت بالعبد فسار بها ، وهو آخذ بيدها حتى وصلا إلى باب السراي الخارجي .

وقد تم الفرار كما توقعه الهندي ، فقد كان الهندي نفسه على ذلك الباب يتولى الحفارة ، وكان رئيس الحراس واقفاً بالقرب منه حين وصلت زوجة الرجاء إلى الباب .

فنظر رئيس الحراس إلى العبد وقال له : من أنت ؟
- من جنود الرجاء .

— وهذه المرأة ؟

— هي إمرأتي ..

فقال الهندي للرئيس : هو ما يقول يا سيدي فاني أعرف الاثنين
فقال الرئيس للعبد : إلى أين أنت ذاهب بإمرأتك في مثل هذه
الساعة ؟

— إلى حفلة عرس في المدينة دعينا اليها فإن العروسين من اصحابنا
فأشار الضابط عند ذلك إلى الهندي أن يأذن لهما بالخروج ففتح الباب
وخرج العبد بالفتاة وقد نجت من أسر الرجاء .

وسار بها العبد بضع خطوات ورأى المركبة المعدة لاختطافها يكتنفها
الحراس فركبتها واثقة مطمئنة وهي تحسب ان الذي أرسلها ، ولم يخطر لها
في بال أن ذلك من صنع ذلك الوزير الخائن . فما أشرق الصباح حتى بعدت
بعداً شامعاً عن مدينة ثارفور المقدسة عاصمة الرجاء ، ولم يعد للرجاء يد
تبلغ اليها .

ولم يشعروا في القصر بهذا الفرار إلا في اليوم التالي حين دخلت المواشط
إلى غرفة دابي كوماً ولم يجدوها .

واتصل الخبر بسرعة إلى الرجاء فهرول وهو يستشيط غيظاً ويقسم على
أن يقتل رئيس الخصيان أقطع قتل روي في تاريخ الهمجية

وفيا هو ينذر ويتوعد وقد أمر باحضار رئيس الخصيان إذ دنا منه
كوجلي وقال له : لا تتهم يا سيدي هذا العبد فهو بريء وأنا أخبرك بحقيقة
ما جرى .

ولم يكن كوجلي قد دخل في خدمة الوزير ورضي أن يختطف له زوجة
الرجاء إلا لرجائه أن يقتله الأمير فيذهب تواً إلى فردوس وشنو .

أما الرجاء فإنه ذهل لما سمعه من كوجلي ولما رآه من جرأته فقال له : أية حقيقة تعني وماذا جرى لدابي كوما ؟

فابتسم كوجلي ابتسام المتهم ونظر اليه نظرة ملؤها الكبرياء ثم قال له : ان هذه الحسنة باتت خارج نفوذ سلطانك ، وهي الآن بين ذراعي تريبورينو .

فصاح عثمان صيحة منكورة عندما سمع اسم وزيره وقال له : ويحك اخبرني حقيقة ما جرى بالتفصيل .

فقص عليه كوجلي عند ذلك خيانة تريبورينو بلمهجة تشف عن السرور . فنسي عثمان في تلك اللحظة المرأة التي كان يحن بهاها وتجسّمت له خيانة وزيره الهائلة ، بعد أن أغدق عليه بنعمه وسواه بنفوذه ، وشاركه بماله فكبرت عليه هذه الخيانة الفظيعة وجعل يبكي بكاء الأطفال من غيظه ويهدد السماء بقبضته

وكأنما كوجلي لم يشأ أن يتمتع وحده بفردوس وشنو فذكر اسم شريكه في اختطاف امرأة عثمان ومما الهندي والعبد .

فأمر عثمان ان يشنق الثلاثة في الحال وقد شنقوا في اليوم نفسه الذي دخل فيه روكامبول وموساني إلى فارفور عاصمة عثمان .

ولكن دابي كوما كانت قد أصبحت في دار الوزير فوجد روكامبول ذلك الأمير المنكود الحظ قد اسودت الدنيا بعينيه فلم يعد يرى غير القتل والانتقام .

وهنا نتجاوز عن كثير من الحوادث التي حدثت اثر هذا الاختطاف بما لا يفيد القراء ونقتصر على القول بأن الخفاء قد زال بين الأمير ووزيره ولكن بعد فوات الأوان ، أي بعد أن تمكن تريبورينو بدهائه وانخداع الأمير بوفائه من إغواء معظم الجند وضمهم إلى حزبه .

فجعل كل من الفريقين يتأهب لحق خصمه ولكن الوزير كان أشد من

عثمان ، فما مضى ستة أشهر على اختطاف الفتاة حتى احتدمت نار القتال في مملكة الرجاء .

وكان تريبورينو قد رفع راية العصيان وجاهر بتسليمه للانكليز ضاماً اليه ثلثي جيش عثمان

فما زال يزحف ظافراً منصوراً من بلد إلى بلد حتى بلغ إلى نارفور عاصمة عثمان فحاصرها .

ولم يبق لهذا الأمير من المخلصين حوله غير روكامبول وستة آلاف جندي كانوا جميعهم محصورين في العاصمة يقاتلون الجيوش المهددة بها من فوق الأسوار .

ففي صباح يوم من أيام الحصار استعرض عثمان جنوده وخطب فيهم فحثهم على الدفاع وذكر لهم خيانة وزيره بعبارات القت الحماسة في قلوبهم فأقسموا على أن يدافعوا عن عثمان والوطن حتى الموت .

ولما فرغ من الاستعراض نادى روكامبول وسار به إلى مكان معتزل لا يراها فيه أحد من الناس وقال له : اني في حاجة اليك ايها الصديق فتعال نتحدث .

وجلس واياه فقال له عثمان : انك آخر رجل أعتمدت عليه ووثقت بوفائه وإخلاصه ، لأنك فرنسي ولذلك أحببت أن أأتمتك على سر يتعلق عليه مستقبل اسرتي واسترسل اليك كما استرسل إلى أخ شقيق

فأنحني روكامبول وقال : قل أيها الأمير ما تشاء فانك وضعت ثقتك في موضعها وما أنا من الخائنين .

فقال له ان أول علم كان يتعلمه الأطفال من اسرتي منذ قرن هو النفور من انكلترا ، وعدم الركون اليها ، فكان أعظم غلطة غلطتها في حياتي هي وثوقي بتريبورينو ، ورفعته إلى مقام الوزارة على علمي انه من الانكليز

وكانت الهند منذ مائة عام يحكمها ملوك أشداء وكانت شعوبها حرة سعيدة تعيش بالأمن والرخاء من ضفاف الكنج إلى الفرات .
فأقبل الانكليز اليها وجعلوا يستعينون على قومها تارة بالقوة وتارة بالخداع والدهاء حتى استعبدوا قومها وأنزلوا ملوكها عن عروشهم وأبادوا كل سلطة فيها للعنصر الهندي .

أما انا فاني آخر أولئك الملوك المحافظين على استقلالهم ولكني أعلم ما سأصير اليه فاني أرى كما ترى ما يحدث بي من الأخطار .
وقد توقعت هذا الخطر منذ عرفت خيانة تريبورينو الذي أغدقت عليه بانعامي ، وأيقنت ان الأسد البريطاني سينشب بي برائنه ولكن إذا تمكن الانكليز من إبادتي لا أحب أن تبعد أسرتي بجمعتها .
لما أنا فقد بقضى علي اليوم أو غداً فاقتل في ساحة الدفاع عن وطني وسلاحي بيدي .

فاذا قضيت قضيتي على آخر بقعة حرة من بقاع الهند ، ولكن يجب أن يعيش بعدي من يرثني من أسرتي . فقد يأتي يوم ينهض فيه ذلك الورث فيذكر أباه ويستعين برجال الهند فيطرد من البلاد عدوها ويعيد اليها حريتها السابقة ويجدها القديم ويكون هذا الفضل منسوب لأسرتي .

فقال له روكامبول : الملك تريد ان تعهد الي بولدي ؟
- نعم فاني أحب بعد موتي أن تسير به الى أوربا وان تعلمه أن يكره الانكليز .

فبذت على روكامبول علائم القلق ورأى عثمان تلك العلائم فقال له : لا تخف فقد جمعت لولدي في مدة عشرة أعوام ثروة عظيمة سرية تكفيه لأن يعيش حسب مقامه ومقام أسرته .

فقاطعه روكامبول وقال : ولكن يظهر يا سيدي انك نسيت ما نحن فيه .
- كلام أنس شيئاً .

- اننا محصورون وقد بلغ الأعداء أسوار القصر فاحدقوا به كالنطاق .
- اني أرى ما تراه .
- ولا بد لنا من الوقوع في قبضتهم مهما بلغ من دفاعنا .
- اني متوقع هذه الخاتمة ومن أجل ذلك عزمت على تضحية حياتي .
- إذن فإن ابنك يقع مثلنا في قبضة الانكليز .
- فلم يجبه الرجاء ..
- فقال روكامبول : وكذلك ثروتك فانها تصبح لهم .
- فهمز عثمان رأسه مبتسماً وقال : إنك منخدع .
- الملك وجدت طريقة لانقاذ ابنك ؟
- نعم ...
- وثروتك ؟
- وثروتي ايضاً فهي مع ولدي في آمان .

فجعل روكامبول ينظر اليه مندهلاً وينتظر ان يكشف له الحجاب عن هذا السر .

فقال له عثمان : أعلم الآن ان هذا الغلام الذي يحبيه الشعب تحية الأمراء وتضمه كولي نانا امرأتى الأولى إلى صدرها ، كما تضم الأم ولدها ، ان هذا الأمير الصغير الذي يمتدح جميع من يحيط بي انه ولي عهدي وأميرهم بعسدي ليس بولدي .

فزاد اندهال روكامبول ولم يقاطعه استيفاء للحديث .

فتابع عثمان : اني كنت دائماً أتوقع أن يصيبني من الانكليز ما أصابني اليوم فاحتطت لنفسي من كيدهم وجعلت ولدي في مأمن منهم ، وذلك أنه بعد أن ولدت كولي نانا بشهرين أخذت الغلام من مهده ووضعت مكانه غلاماً من عمره ، فكبر الغلام حتى بلغ الآن عشرة أعوام وأمه تحسبه ولدها والناس يحسبونه ولدي .

فصاح روكامبول صبيحة دهش وقال : إذا البرنس علي ليس ولدك ؟
 - كلا بل هو ابن أحد اتباعي أخذته يتيماً من أبيه وقد ماتت أمه أيضاً .
 - ولكن أين هو ولدك ولي عهدك ؟
 - انه بعيد جداً عن هذه العاصمة وهو يحبل اني أبوه ولكنك ستخبره بكل شيء بعد موتي متى اجتمعت به في كلكوتا .

- أهو في كلكوتا ؟

- نعم في المدينة السوداء أي مدينة الهنود وهو عند رجل فقير خياط .
 وهذا الرجل فقير في الظاهر ، يبدو للناس منه أنه يعيش من صناعته مع غلام له يبلغ العاشرة من العمر ، والحقيقة أنه يعيش مع ولدي عيشة سعة ورخاء .

أما هذا الرجل فهو مسلم عثماني يدعى حسناً ، كان من خدام بيتنا فائتمنته على ولدي وورثتي وما زالت ثقتي وطيدة بالمسلمين .

وقد أقام ولدي عنده منذ الطفولية فهو يحسب أنه والده ويناديه « أبي » .
 والآن فاسمع ما أريده منك ، اني حين افقد كل رجاء ، وحين أنشب المعركة الأخيرة ، وأضرب آخر ضربة بحسامي ، بل حين يخرج من صدري النفس الأخير تبرح أنت العاصمة وتسير إلى كلكوتا فتذهب إلى حسن الخياط وتظهر له هذا الخاتم .

ثم أخرج من اصبعه خاتماً ، نقش على فسه كتابة هندية معناها « تذكر » .

فوضعه في اصبعه وقال : إنك حين تظهر هذا الخاتم للخياط يأتيك بالغلام ، ثم يذهب بك إلى قبو في منزله الحقيق ، فتري فيه من أكداس الذهب والحجارة الكريمة ما لا يوجد مثله بين كنوز ملك لاهور ، وهذا الكنز هو وارث ولدي .

ثم عطف فقال : إنك شديد الاخلاص ذكي الفؤاد فلا تعدم وسيلة تنقل هذا المال بها إلى اوربا دون ان يعلم الانكليز .
ثم تذهب بولدي إلى تلك البلاد الآمنة فتعلمه ان أباه قد مات في سبيل استقلال الهند ، واني لم أورثه هذا المال ، بل أوريثه الحق على انكلترا فلينفق المال في سبيل وطنه .

فقال روكامبول : اني سأفعل كل ما امرتني به .
- وأنا واثق كل الثقة .

ثم مد له يده فقبلها وقام الاثنان إلى موضع الحصار .
وكان الانكليز يحاصرون المدينة بعنف شديد . .
والحامية تدافع بشبات أشد .

غير ان كثرة عدد الأعداء تغلبت على بسالة الأمير وجنوده ، فكانت جنود الوزير محدقة بالمدينة من كل جانب ، وقد ضيقت نطاق الحصار وجعلت الأسوار تتهدم واحداً تلو الآخر ، ومدافع الوزير تدوي دوي الرعود القاصفة فتدك المعازل والحصون .

وكان المحصورين يزيد عوزهم إلى القوت والذخيرة في كل يوم ، حتى اضطر عثمان أن يقصي عن المدينة كل من لا يقيّد في الدفاع اقتصاداً في قوت الحامية .

إلى أن اشتدت الأزمة على المحصورين ولم يبق لهم شيء من الزاد فدعا عثمان روكامبول وقال له : أرى ان الدفاع عن نارفور بات ضرباً من الحال وخير لنا أن نخترقها صفوف الانكليز ونعتصم بالجبال ، فإذا تمكنا من البلوغ اليها تيسر لنا أن ندافع دفاعاً مقروناً بالفوز .

وكانت الخطة خطة جرأة نادرة على انها كانت ممكنة إذا استعين عليها بالخداة والحيلة .

وكان ذلك العهد عهد الأمطار فكانت أبواب السماء مفتوحة والمطر ينهمر

كأفواه القرب .

فعمد عثمان مجلساً عسكرياً وشاور أعضائه في الأمر فقرروا أن يتربقوا ليلة حالكة الظلام كثيرة الأمطار ، فيخرجون تحت جنح الليل إلى الجبال فلا يشعر بهم الأعداء .

وقد اتفق لهم ذلك في الليلة التي تلت عقد المجلس فقد اشتد فيها الحلك ، وبلغ سبلها إلى الركب والتجأ الانكليز المحاصرون إلى الخيام .

فتأهب عثمان للخروج وأمر فوضعوا النساء والأطفال على ظهور الفيلة في وسط المعسكر وقاية لهم من الأخطار .

ثم أمر بفتح الأبواب فخرج الجيش يحملته وفي مقدمتهم عثمان وروكاملول وساروا قرب جيش العدو صامتين يحاولون إخفاء حركاتهم .

ولكن حراس جيش الوزير تنبهوا لهم فنفضوا في أبواقهم وهب جيش الوزير منذراً فلم يكن غير هنيئة حتى التحم الجيشان فخرجت السيوف من أغمارها وأبرقت الخناجر والحرب ، وأرعدت البنادق والمسدسات ، فكان قتلاً شديداً هائلاً خضب الأرض بالدماء ، ولم يتعارف فيه الخصمان إلا بتألق البروق .

وتمكن جيش عثمان بعد الصبر والاستبسال من الانسحاب إلى واد عميق في شمال المدينة ، ولكنهم وجدوا هناك جيش آخر فلقوا معه من العذاب أشد ما لقوه من الجيش الأول .

ودامت المعركة الهائلة ناشبة بين الفريقين حتى أشرق الصباح ورأى جيش عثمان قمم الجبال المجاورة ، ولكنهم رأوا آلافاً من الجنود قد هرولوا من تلك الجبال وطوقوا جيش الأمير

ولم يكن هؤلاء الجنود من الانكليز ، بل كانوا من جنود تريبورينو أقامهم في الجبال كي يمنموا الأمير من الالتجاء إليها .

وهنا عاد القتال إلى أشد مما كان عليه فاستمر إلى المساء

وكان أعوان الأمير يسقطون أمامهم الواحد تلو الآخر ، وهو يقاتل في مقدمتهم قتال الأبطال وعن يساره روكامبول وقد أبلى في تلك الحرب خير بلاء ودفع الموت عن الأمير عدة مرات .
وظل هذا دأبهم حتى لم يبق لدى الأمير غير شزيمة من الرجال فأصابته رصاصة وقعت بين أحشائه فخر عن جواده صريعاً وسقط بين يدي روكامبول مخضباً بدمائه .
وقد أيقن عند ذلك بالموت فنظر إلى روكامبول بعين المحتضر وقال له « تذكر » .

ثم تنهد تنهداً طويلاً وهو يقول : « انتقم لي » .
فكانت آخر كلمة قالها واسلم الروح ، فعادت إلى مبدأها وهي تحمل وعد روكامبول بمطاردة ذلك الوزير الخائن والانتقام منه .

- ١٣ -

كان تريبورينو قد علم بأن روكامبول قتل الفيل الجلابد وسلم من الموت وعاد إلى الأمير عثمان .

وكان يعلم انه كان يقاتل مع الأمير جنباً لجنب فلما تم انتصاره على جنود عثمان وتمزق ذلك الجيش شر ممزق امر فرقة من الجنود كي تبحث عن روكامبول فتوزعت في أنحاء مختلفة وسارت في جميع الطرق تبحث عنه .

غير ان روكامبول قد تمكن بدهائه من الافلات والنجاة ، فتذكر بزي لا يعرف به

وهام في الجبال طريداً شريداً عدة أسابيع

وكان يحنّب في سيره المدن حق القرى ولا يسير إلا في الجبال والسهول ،
لأن جميع المدن والقرى قد سقطت في قبضة تريبورينو ، فلو مر بها لما أمن
القبض عليه .

ولبت هائماً يسير من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل نحو شهرين حتى انتهى
إلى سهل هندستان ، حيث لا سلطان فيها لتريبورينو فأقام هناك بضعة أيام
عند أحد الهنود ثم استأنف السير فوصل بعد شهر إلى كلكوتا فأمن كيد الوزير
ومطاردة جنده .

وعند ذلك ذكر ما وعد به الرجاء وجعل يهتم بالبحث عن حسن الخياط
الذي أودع عنده ابن الرجاء .

وكان جميع الذين يقيمون في المدينة السوداء من كلكوتا ، يعرفون
هذا الخياط .

فسأل روكامبول عنه أحد غلمان الفندق الذي نزل فيه ، فأرشده
إلى منزله .

وكان بيت حسن صغيراً لا يدل شيء من ظواهره على العظمة ولا يخطر في
بال أحد أن ملايين الرجاء قد أودعت فيه .

فلما وصل روكامبول إلى هذا المنزل ، لقي حسن جالساً على عتبة بابه
وهو شيخ جليل ، تدل معارف وجهه وسكينة ، على ما فرط عليه من
السلامة والوفاء

فدنا روكامبول منه وقال له : العلك أنت الذي يدعونه حسن
الخياط ؟

— نعم أنا هو فماذا تريد مني ؟

فأراه روكامبول خاتم الرجاء عثمان بإصبعه ، وقال له : أتعرف
هذا الخاتم .

فارتعش حسن حين رأى الخاتم وأسرع فأدخل روكامبول إلى المنزل وأقفل

الباب بسرعة كأنه يخشى أن يباغته أحد
فلما خلا به قال له : يظهر انك قادم من قبل عثمان .

- نعم .
- كيف حاله ؟

فسقطت دمعة من عين روكامبول ، عند هذا السؤال وقال له : لقد
توفي الأمير .

ثم قص عليه خيانة تريبورينو بالتفصيل ، وذكر له استبسال عثمان بالدفاع
وانه توفي كالأبطال .

وكان حسن يصغي اليه وهو أصفر الوجه ، متقبض الصدر ، حتى إذا
فرغ روكامبول من حديثه ، رفع يده الى السماء وقال : هي إرادة الله ولا
رد لقضائه

وبعد سكوت قصير قال روكامبول : أين هو الغلام ؟

- إنه يغتسل يا سيدي وسيعود بعد ساعة .
- والكنز ؟

-- سأريك إياه ، هلم معي .

ثم قام فأخذ مصباحاً وسار به الى الجدار ، فكشف عنه ستاراً فظهر سلم
طويل يؤدي إلى قبو المنزل فنزل درجاته وروكامبول يتبعه حتى انتهيا إلى القبو
وكان فارغاً لا شيء فيه .

وقد علم روكامبول أنه لا بد أن يكون لهذا القبو باب سري يدخل منه
الى حيث خبأ الكنز . غير انه تعجب حين لم يجد أثراً لباب أو منفذ في
حيطان القبو .

أما حسن فانه ابتسم وقال له : سوف ترى .

ثم دنا من أحد الجدران وبدأ ينقر عليه بيده في مواضع مختلفة ، وهو
يصغي إلى صوت نقراته ، حتى سمع صوتاً رناناً يشبه صوت النقر على دف ،

فأخذ خنجره من منطقتة وأدخل شفرته الدقيقة بين حجرتين فانزاح أحدهما للحال وظهر في الجدار قفل فولاذي .

وعند ذلك أخذ حسن مفتاحاً كان يعلقه في عنقه وقال لروكامبول : إن هذا القفل من صناعي وقد وضعت لفتحه طريقة كثيرة الاشكال بحيث يقتضي عدة أيام كي أعلمك إياها .

ثم أدخل المفتاح في القفل وأخذ يديره بمنة ويسرة وهو يلغظ الفاظاً لم يفهمها روكامبول ويعد على أصابع يده اليسرى .

وما زال هذا دأبه عدة دقائق حتى فتح الباب . وهو باب متين من الحديد ، يتألف منه نصف الجدار ، وقد صبغ بلونه . فظهر لروكامبول قبو آخر .

ودخل الاثنان فوضع حسن مصباحه فوق سبيكة ذهبية وقال لروكامبول : أنظر الآن هذا هو كنز عثمان أمامك .

فأخذ روكامبول المصباح بيده وجعل يطوف في هذا القبو العجيب فلا تقع عينه إلا على سبائك الذهب وأكداش اللآلئ والياقوت وغيرهما من أنواع الحجارة الكريمة .

فدهش روكامبول وابتمس ، كأنه ذكر عهد حياته السابق حين كان تلميذاً لأندريا فلو ظفر بمثل هذا الكنز في ذلك العهد لكان ظهر بريق خنجره في صدر حسن قبل ان يظهر لعينه بريق تلك اللآلئ .

وبعد أن تفقد ذلك الكنز وعرف مقدار تلك الثروة الهائلة قال لحسن : إن عثمان أمرني أن آخذ منك جميع الأموال وان أذهب بها وبولده الى أوروبا فأدربه على بغض الانكليز .

- إن خاتم مولاي عثمان باصبعك فلا يسعني إلا الخضوع لك .

ثم خرج الاثنان من القبو الداخلي فأقفل حسن باب الكنز وأعاد الحجر الى موضعه وصعد الاثنان إلى البيت .

وكان الغلام قد عاد من الحمام ، فلم يكذب يراه روكامبول حتى أيقن أنه ابن الرجاء عثمان ، لفرط ما وجد بينهما من الشبه وقال : هذا هو ابن كولي نانا الحقيقي دون شك ، وليس ذلك الغلام الذي كنا نراه في بلاط عثمان .

وكان الغلام ينظر إلى روكامبول باندعاش فقال له حسن . هوذا مولاك يا بني منذ الآن فاتبعه إلى حيث يأمرك .

فقال له روكامبول : كلام يحن الوقت بعد فليبقى الغلام عندك إلى أن أتم الممدات اللازمة لرحيلنا

فأطرق حسن برأسه وقال : ليكن ما تريد .
أما الغلام فإنه لم يفهم من كل ذلك غير معنى الافتراق ، فجعل يبكي .

ثم نهض روكامبول يحاول الانصراف فقال لحسن إنك لا تراني بعد الآن إلا في اليوم الذي أكون قد تأهبت فيه للسفر وأنا ذاهب الآن لأهتم بإيجاد جماعة من أهل الوفاء والاخلاص ، أستمعين بهم على نقل الأموال إلى سفينة بطريقة أمينة .

ثم ودعه وانصرف ، فأقام عدة أيام في كلكتو يبحث عن طريقة تعينه على نقل كنز عثمان إلى أوروبا ، دون أن يشعر به الحكومة الانكليزية .

ولم يكن روكامبول قد صاحب من خدامه الأوفياء الذين كانوا له في بلاط عثمان غير خادمه الوفي موساني .
وكان يقيم معه في أحد فنادق المدينة السوداء ، وقد رضي أن يغادر بلاده من أجله ويسافر معه إلى أوروبا .

ففي ذات ليلة ، قال له موساني وعليه علائم الرعب : أرى ، يا سيدي ، أنهم قد عرفوا من نحن ، لأنني أراهم يقتفون أثرنا حين خروجنا

كل يوم .

— من الذي يتبعنا ؟

رجل أسود أراه من أتباع تريبورينو .

فخطر لروكامبول ان يغير موضع سكنه فانتقل وخادمه من المدينة السوداء الى المدينة البيضاء حيث كان يقيم الانكليز .
وأقام هناك في فندق شهير فخلع عنه ثياب الهنود وارتدى الثياب الأوروبية فكان يظهر للناس انه سائح .

فبعد أن أقام في ذلك الفندق الجديد يومين شعر في الليلة الثالثة وهو يشرب الشاي أن الشاي لزج ، فلم يكثر لذلك لاسيما وأنه كان قد شرب كل ما في الكأس .

غير أنه لم يمس عليه ساعة حتى نشاقت أجفانه ، وشعر برغبة شديدة إلى النوم فأطبقت عيناه بالرغم عنه ونام نوماً عميقاً .

فلما استيقظ رأى ان أشعة الشمس قد ملأت غرفته . فنادى موساني الذي كان ينام في غرفة مجاورة لغرفته ، فلم يجبه ولكنه سمع أنيناً مزعجاً .

وكرر النداء فتوالى الأنين ، فوثب عند ذلك من فراشه وأسرع إلى غرفة موساني . فوجد منظرًا تقشعر له الأبدان ، وترتعد منه الفرائص .

ذلك أنه وجد الخادم الوفي مكبل اليدين والرجلين ، ملقياً على ظهره والدم يسيل من فمه ، وقد فتح موساني فمه حين رأى روكامبول فوجد أنه مقصوص اللسان .

وقد علم روكامبول أنهم قطعوا لسان خادمه ، وهونائم في غرفته نوم تخدير

فأسرع إلى حل وثاقه ، وبينما هو يحل قيد ذلك المسكين صاح صيحة

منكره ، وتراجع منذعراً قانطاً ، لأن عينه وقعت على إصبعه فلم يجد فيه خاتم عثمان .

- ١٤ -

وكان موساني مقصوص اللسان فلقى روكامبول عناء شديداً بفهم حقيقة الذي حدث له إذ كان يكلمه بالإشارة .

أما الذي علمه منه فهو انه عند نصف الليل سمع ضجيجاً رابه ، فجاء إلى غرفة روكامبول يبني إيقاظه ، ولكنه كان نائماً نوم تخدير فذهب كل جهد في إيقاظه عبثاً .

ولما يئس من إيقاظه ذهب إلى الباب كي ينادي خدام الفندق .

ولكنه لم يكذ يخرج من غرفة روكامبول ويصل إلى باب غرفته حتى شعر بأن غطاء كشياف قد القي على وجهه ثم أحس برجلين قد حملاه وأوصلاه إلى غرفته وأقفلوا بابها .

فدافع موساني دفاعاً شديداً ولكن الرجلين كانا أشد منه فألقياه إلى الأرض ووضعاه كاماة في فمه كي لا يستغيث .

ولما صرعا قيدا يديه ورجليه بجبل رفيع من الحرير ثم أزاحا الغطاء عن وجهه بحيث بات يسمع ويرى

فرأى موساني ان هذين الشخصين كانا من الهنود وعرف من ثيابهما أنهما من عباد الآلهة كالي ، أي من طائفة الخنافين التي عرف القراء فظائمه في الأجزاء السابقة

وكان أحدهما لا يزال في عنفوان الشباب والآخر كهلاً ، فكان الكهل يأمر والفتى ينفذ تلك الأوامر .

فقال له الكهل دعه الآن في مكانه وهلم بنا إلى غرفة رفيقه فإن المخدر لا بد أن يكون قد فعل فعله فيه .

ثم تركا موساني وذهبا إلى روكامبول ، فهزاه في سريريه هزاً عنيفاً ، فلم يستفق

وعند ذلك إبتسم الفتى ابتساماً يشف عما داخل فؤاده من الحقد ، وقال للكهل : أهذا هو الذي غلب علي رجاء ؟

— هو بعينه .

— ولماذا لا نخنقه فهي أفضل فرصة للانتقام ؟

— ذلك لأن الذين أرسلونا ممنوعونا عن قتله ، لأن لهم في حياته مآرباً ، كما يظهر .

فهز الفتى رأسه إشارة إلى الأسف . أما الكهل فإنه أخذ يد روكامبول ونزع من خنصره خاتم عثمان .

وبعد أن دقق النظر في فحصه قال : هو بعينه فلندع الآن هذا الرجل نائماً ولنعد إلى رفيقه .

ثم وضع الخاتم في جيبه ، وخرج الاثنان من غرفة روكامبول إلى غرفة موساني .

وكان موساني قد تمالك رشده فجعل يفحص الشخصين بامعان كي لا يغيب رسمهما عن ذهنه متى أطلق سراحه

فدنا أحدهما منه وأشهر خنجره ، فوضعه على عنقه وقال له باللغة الهندية : إننا سننزع الكمامة عن فك كي تستطيع الاجابة عما نسألك عنه ، فتأهب للجواب . واعلم أنه لا فائدة من صراخك ، لأن جميع خدام هذا الفندق أعوان للذي أرسلنا ، فلا تطمع أن يفيتك منهم أحد . وفوق ذلك فإن مولاك قد أسقي مخدراً ، فلو دوت المدافع قرب أذنه لا يستفيق

وإن من طبع الهندي الحكمة والسكينة والصبر فلما أيقن موساني أنه لا فائدة له في المقاومة تظاهر بالاستسلام للقدر ، وأشار بعينه إشارة تدل على تأهبه للجواب .

فزع الكهل الكرامة عن فمه وبدأ بسؤاله فقال : إنك خادم هذا الرجل الأبيض اليس كذلك ؟

- نعم .

- ماذا يدعى ؟

- أفتار .

- أتعلم من أين أتى ؟

- كلا .

- متى دخلت في خدمته ؟

- من ثمانية أيام .

- إنك كاذب .

- بل أؤكد لكما اني لم أحضر الى كلكتوتا قبل ثمانية أيام

- ربما كنت صادقاً فيما تقول ، ولكنك تعرف ذاك الرجل قبل هذه المدة .

- كلا

- إنك منافق كذاب .

فقال له موساني بهود : لا حيلة لي في قول الحق ، لمن لا يريد أن يسمعه .

- بل أنت كاذب لا تقول الحق ، ألم يكن مولاك هذا الأبيض صديقاً حميماً للرجاء عثمان ؟

- لا أعلم .

- ألم يعطه عثمان خاتماً قبل قتله ؟

- لا أعلم .

-- بل تعلم وهذا هو الخاتم .

فتكلف موساني الانذهال وعاد الشيخ الى سؤاله فقال له . كن صادقاً في قولك اذا كنت تؤثر الحياة .

- لا أعلم إذا كان سيدي قد أخذ الخاتم من عثمان لأنه لم يقل لي شيئاً ، لكنك أنت الذي قلت لي فصدقتك .

- إن هذا الخاتم أعطاه عثمان لمولاي كي يريه لشخص في كلكوتا .

فتكلف موساني هيئة البلاهة وقال من هو هذا الشخص ؟

- هذا الذي نبحث عنه لأننا لا نعرفه ولا بد من الاهتداء اليه .

-- يسومني أني لا أعرفه أيضاً فلا أستطيع ان أدلكم عليه .

فاتقدت عينا الشيخ ببارق من الغضب وقال له : إنك لو كنت تعلم العقاب الذي أعددت له لك لما تأخرت لحظة عن الاقرار ، ولما أصررت على الكتمان .

- عاقبني بما تشاء فإني لا أعلم شيئاً .

فظهرت على وجه الشيخ علائم نفاذ الصبر والتفت الى رفيقه الفقى وقال له : لم يبق لنا فائدة بلسان هذا الخادم فاقطعه .

فلم تظهر أمارات الخوف على موساني وأخذ الفتى خنجره فقال : إني متأهب لقطع لسانه .

- إفعل لأنه لا يزال مصراً على الكتمان .

وعند ذلك حاول موساني أن يقطع قيوده ، فهب بقوة عظيمة فوقف على قدميه .

ولكن الهنديين انقضوا عليه والقيساه على الأرض ، فركع أحدهما فوق صدره وقال له : تكلم .

- إني لا أعلم شيئاً .
 - قل لنا أين يقيم هذا الشخص ، الذي يريد مولاك أنت يريه خاتم
 الرجاء عثمان .
 - لا أعلم ! لكنني لو كنت عالماً به لما أخبرت عنه .
 - إذن قد جنيت على نفسك فلتعاقب بما تستحقه .
 ثم ضغط بيديه ضغطاً شديداً على عنقه حتى اندلع لسانه فأسرع الفتى إلى
 اللسان فجذبه وقطعه بالخنجر .

* * *

وبعد ذلك لم يعد موساني يذكر شيئاً ، إذ قد أغمي عليه لفرط ما نزع
 من دمائه ، وأشغله الألم عن كل شيء سواه . فلما استفاق من إغمائه جعل
 يئن أنيناً مزعجاً ، إلى أن استفاق روكامبول من نومه وسمع أنينه ورآه
 على ما وصف .
 وكان أول ما اهتم له روكامبول إغاثة هذا المسكين ، فضمده جراحه بقدر
 ما تيسر له .
 ثم ذكر غلام عثمان وثروته وسرقة الخاتم من إصبعه ، فترك موساني في
 مكانه وخرج من غرفته بغية الذهاب إلى الشيخ حسن وإخباره بسرقة الخاتم
 كي لا يخدعه السارق .
 فلبس ثيابه وهم بالخروج ، لكنه لم يبلغ باب الفندق الخارجي حتى فوجيء
 باثنين من البوليس الانكليزي وقبضا عليه .

وقد سأل أحد هذين البوليسين روكامبول قائلًا : أأنت الذي يدعونه
الماجور أفاكار ؟

— نعم .

فقبض على أعلا ثوبه وقال له : إذن هلم معنا .

وكان روكامبول قد تعلم أيام جهله أن مقاومة البوليس ، في كل بلاد ،
لا فائدة فيها .

وذلك لأن المجرم إذا حاول الفرار أو الدفاع تزيد جريمته ثبوتًا في أعين
القضاة . وأما إذا سار مع الذين يقبضون عليه ساكنًا هادئًا متكلفًا عدم
الاكتراث فإن ذلك قد يكون من أوفر الأدلة على براءته .

فلما رأى روكامبول أن البوليس قبض عليه وأيقن أن الجدل معه محال قال
له . إني سائر معك الى حيث تشاء . لكنني لست من رعاع المجرمين فأرجوك ان
ترفع يدك عني فأكون طوعًا لك .

فأجاب البوليس طلبه وسار البوليسان وروكامبول بينهما .

وبعد ان ساروا هنيئة قال لهما روكامبول : ألا تريدان إخباري إلى أين أنتما
ذاهبان بي ؟

فقال له أحدهما . إلى قسم بوليس الناحية .

— العلك تعلم بماذا أنا متهم ؟

— كلا ، وكل ما نعلمه أنه صدر إلينا الأمر بالقبض عليك ، وهذه
صورة الأمر .

ثم أطلعه على صورة الأمر .

وكانت كلكتوتا مقسمة الى عدة أقسام ، وفي كل قسم مركز للبوليس ينظر
في أمور ذلك القسم

فحسب روكامبول ، في البدء ، أنهما ذاهبان به إلى أقرب مركز من الفندق .

غير ان ظنه أخطأ فإنهما مرا به بذلك المركز دون ان يدخلوا به اليه ، ثم واصلوا السير فاجتازوا المدينة البيضاء الى المدينة السوداء

وكانوا يسيرون في الشارع الذي يقيم فيه الشيخ حسن ، فسر روكامبول حين عرف ذلك الشارع ، وقال في نفسه : إن السعد يخدمني دون شك ، إذ لا بد لنا من المرور بدكان الشيخ حسن فأراه ولا أعدم وسيلة من الاشارة اليه على فقد خاتم عثمان مني .

وكان أمله يزيد كلما تقدم في ذلك الشارع من دكان الشيخ

ولما كانوا في الطريق قال له أحد البوليسين : إنك قد تعجب لأننا لم نسر بك الى مركز البوليس التابع للجهة التي قبضنا عليك فيها .
- نعم ولا أعلم كيف غيرتم معي ذلك الاصطلاح .

- إنني مخبرك بالسبب . ألم تكن مقيماً في المدينة السوداء منذ بضعة أيام ؟

- نعم .

- ألم تكن إقامتك في فندق الحية الزرقاء ؟

- نعم .

- إذا ، أعلم أنه لا بد أن تكون الشكوى صادرة عليك من ناحية ذلك الفندق ، فان رئيس البوليس في ذلك المركز أمرنا بالقبض عليك .
فلم يجب روكامبول بشيء .

وقال البوليس الثاني : أظن أن للقبض عليك علاقة بقتل ملاعب الأفاعي .

- ما هي تلك الحادثة ؟

- إنه كان يقيم في فندق الحية الزرقاء رجل صناعته ملاعبة الأفاعي وقد

وجد قتيلاً في الليلة الماضية وربما كانوا يتهمونك بقتله .
فابتسم روكامبول وكان الى ذلك العهد موقناً ان لقرىبورينو بدأ في القبض عليه ، كما أنه كان واثقاً أن سرقة الخاتم وقطع لسان خادمه ، من صنع ذلك الوزير الخائن .

غير أنه رأى ان البوليس يذكر له تلك التهمة بلاء البسطة ، فتزعزع ريبه ، وقال في نفسه : قد يكون القبض علي هذه التهمة ، ولا يكون للوزير شأن فيها .
فاذا كان ذلك فقد يطلقون سراحي بعد استنطاق قصير المدى فأعود الى الشيخ حسن واخبره بحقيقة ما جرى .

لكنه كان يعلم ببطء القضاء الانكليزي في الأحكام ، فخشي ان تطول مدة إيقافه والتحقيق في أمره فرأى ان الأولى الاسراع باخبار الشيخ حسن حذراً من ان يخدعه الوزير وهو في السجن .
وعند ذلك عزم على إدراك مأربه بالحيلة . ففيما هم سائرين مروا بخمارة فقال لهما روكامبول : إني شديد الظمأ ، فهل تأذنان لي بشرب شيء من المبردات ؟
قالا : بل نشرب معك ايضاً فان الحر يكاد يقتلنا .

ودخلا معه وكانا يتحدثانه بلاء البسطة والالطف فزادت ثقته بهما وأيقن انهما ليسا من اتباع الوزير .
وكان مما قاله لهما في خلال الحديث : ان هذه التهمة جائرة فلسست من القتل المجرمين وفوق ذلك فقد تركت فندق الحية الزرقاء منذ أسبوع والقتل حدث فيه امس كما تقولان .

فقال له أحدهما ، لا شك عندنا ببراءتك فان مخايلك تدل على الشهامة والنبيل والترفع عن مثل هذه الموبقات غير انه صدر اليينا الأمر بالقبض عليك ولا بد من تنفيذ اوامر الرؤساء كما تعلم .

وقال الآخر : اننا نسوقك مكرهين الى موقف القضاء لثقتنا ببراءتك ،
وعندي ان رئيس البوليس لا يباحثك هنيئة حتى يثق من براءتك فيطلق سراحك
بعد ان يعتذر اليك .
- وانا واثق مثلكما تلك الثقة .

وبعد حين مد يده الى جيبه ، ثم ضرب جيبه بيديه ، وتكلف
الأسف العظيم .
فقال له احدهم : ماذا أصابك ؟
- لقد فقدت محفظة اوراق وفيها جميع الأوراق التي تثبت جنسيتي ولا اعلم
كيف أثبتها لدى رئيس البوليس .
ثم قال بلاء اليأس : إن فيها ايضاً اوراقاً مالية قيمتها ٢٠٠ جنيه أهبتها لمن
يرد لي المحفظة .

فنظر البوليسين كل الى الآخر نظرة سريعة وقال له أحدهما : أظن انك
فقدتها على الطريق ؟
وقال الآخر : الا يمكن ان تكون نسيتها في الفندق ؟

- كلا ، لقد ذكرت الآن اين فقدتها . إنني كنت ليلة امس اتنزه
في هذا الشارع فلقيت فتاة جميلة ارلندية من فتيات الهوى ، فذهبت وإياها
إلى منزلها .

- العله سرقت المحفظة ؟
- كلا انها ذهبت بي الى بيتها ، وانا واثق ان المحفظة قد سقطت في
ذلك المنزل .
- ذلك ممكن .

- وقد يتفق ان الفتاة لم تر المحفظة .
- وابن بيت الارلندية ؟
- لا أعلم نمرة ولا اسم الشارع ، ولكنني واثق انه في هذا الشارع الذي

نحن فيه .

— اتعرف الطريق اليه ؟

— دون شك فهل تأذننا بالذهاب اليه ؟

فتشاور الاثنان بالنظر ، ثم قال احدهما ، لا اجد بأساً من ان ينتظر رئيس البوليس ، ربع ساعة ايضاً . وفوق ذلك ، فان البحث عن السرقات من واجباتنا . فهل بنا الى بيت الارلندية للبحث عن محفظتك

فدفع روكامبول ثمن الشراب ، وخرج مع البوليسين . فتظاهر في البدء انه عرف الطريق ، ثم اومهما انه ضل عنها . فكان يندفع بهما الى الامام ثم يعود الى الوراء ، وهما يتبعانه بصبر عجيب دون ان يظهر شيء من الملل .

الى ان اظهر علائم السرور وقال لهما : لقد امتديت الآن فهذا هو المنزل الظاهر امامنا .

— إذا لنذهب اليه .

وكان روكامبول رأى الشيخ حسن عن بعد جالساً على باب منزله فثل الدور خير تمثيل ، حتى بات معتقداً انه اضل البوليسين عن قصده .

ولما وصل الى بيت الشيخ حسن وقف ، فقال له البوليس : اين هو المنزل ؟

فدلهما على بيت مجاور لدكان الشيخ حسن .
فقالا : هلم بنا اليه .

وكان الشيخ حسن جالساً عند بابه كما قدمنا ، فلما رأى روكامبول آتياً مع البوليسين نظر اليه نظرة انذهال لم تخف على الشرطين ، ووضع روكامبول سبابته على فمه يشير عليه بالاحتراس . فتظاهر البوليسان ايضاً انهما لم يريا تلك الاشارة .

وسار الثلاثة فلما مروا بالشيخ حسن رفع روكامبول يديه ، وظهرت على وجهه علائم الحزن الشديد .

فنظر حسن الى يديه فرأى ان خاتم عثمان مفقود وايقن انه سرق من روكامبول او انه اخذ منه بالعنف ، فغمز بيمينه إشارة الى انه ادرك القصد والى انه لا يمثل لسواه ولو اتى بالخاتم المفقود .

ولما وصلوا الى المنزل الذي عينه روكامبول قال له البوليس : اهذا هو بيت الارلندية ؟

قال : وأسفاه ، إنني اخطأت ايضاً ، فليس هو المنزل الذي دخلت اليه امس

وعند ذلك اخذ الرجلان يضحكان وقال له احدهما : اني ناصح لك انت تقتصر اليوم على ما اجرته من الأبحاث فقد فعلت الذي تريد ان تفعله وعرفنا ما نريد ان نعرفه .

فاضطرب روكامبول وادرك بلحظة ان هذين الرجلين قد وقفا على سره وانهما ليسا على ما كان يعتقد فيهما من السذاجة .

وفيا هو ينظر اليها نظرات الانذهال التفت أحد البوليسين إلى ورائه وأشار إشارة إلى مركبة فيها عبدان كانا يسيران بها في أثر البوليس دون أن يلتفت روكامبول اليها .

أسرع العبدان بالقدوم وقال البوليس لروكامبول بلهجة المتهمك : انك تعبت

دون شك من السير فاصعد الآن إلى المركبة علك تستريح .
ثم فتح المركبة ولم يكن فيها أحد فصعد روكامبول وصعد بعده البوليسان .
وكان قد ذهل ذهولاً شديداً حين سمع البوليس يقول « قد فعلت ما تريد
ان تفعله وعرفنا ما تريد ان نعرفه » فبات يطيمهما فيما يريدان دون روية .

وسارت بهم المركبة فقال لهما : إلى أين تسيران بي ؟
قال له أحدهما . إلى محل بعيد ، ثم أخرج مسدسه فوضعه فوق صدر
روكامبول وقال له : اننا نعرفك من أهل الداه والنشاط ، فلا بد لنا من
أن نتوقاك ولذلك اشهرت عليك هذا المسدس فاذا حاولت الدفاع فأنت
من الهالكين .

أما البوليس الآخر فانه أقفل باب المركبة بسكينة وأزل ستارها ، ثم
أخرج بإشارة من رفيقه حبلاً من الحرير المتين وأوثق به يدي روكامبول
وفاقاً شديداً .

وبعد أن فرغ من تقييده أمره أن يخرج من المركبة فخرج وبقي فيها
روكامبول وبوليس واحد فقال له البوليس أما وقيداك الآن فلم يبق خوف
علي من البقاء معك وحدي

وسارت المركبة بهما فاجتازت المدينة السوداء حتى وصلت إلى ابواب
كلوكوتا فوقفت وحسب روكامبول أن السير قد انتهى ، ولكنه أخطأ في
حسابه فانه حين وقفت المركبة أزاح البوليس ستارها وأسر إلى العبدین
الذين كانا يسوقانها كلمات لم يسمعها روكامبول ، فاستأنفت المركبة السير
وخرجت من المدينة .

وعند ذلك التفت البوليس إلى روكامبول وقال له وهو يبتسم . أنقذتك
الآن من موقف حرج .

- كيف ذلك ؟

فضحك البوليس ضحك المتهم وقال : ان البوليس لم يخطر له في بال أن

- يتهمك بقتل ملاعب الافاعي .
- إذن بماذا يتهمونني ؟
 - انهم لا يتهمونك لكن يريدون القبض عليك للاستيثاق منك ليس إلا..
 - ولماذا ؟
 - لأنهم لا يريدون أن تقضي تلك المهمة الخطيرة التي عهد اليك بقضائها
الرجاء عثمان .
 - فصاح روكامبول صيحة دهش دون أن يجيب .
 - فقال له البوليس : أرأيت كيف أن تريبورينو لا تخفاه خافية وان ولاءه
خير من عدائه .
 - ان الوزير رجل خائن .
 - لا أنكر ما تقول .
 - إذن أنت تعرف انه من الخائنين ؟
 - دون شك ولكن البحث في خيانتة أمر لا يفيدنا بشيء فاعلم الآن أن
الوزير ، أو هذا الخائن كما تريد أن تدعوه ، يعلم أن الرجاء قد عهد اليك
بقضاء مهمة .
 - قد يكون ذلك ولكنه لا يعرف اسرار تلك المهمة .
 - انك مخطيء فهو عارف بكل شيء .
 - ايعلم بما وعدت به عثمان ؟
 - بل يعلم انه اعطاك خاتماً .
 - وهذا الخاتم ؟
 - يعلم انك إذا اظهرته لرجل في كلكوتا يعطيك كنوز الرجاء عثمان
الخبوة عنده ولكن الوزير لم يكن يعرف اسم هذا الرجل ولا أين يقيم .
 - وهو لن يعرفه أبداً .
 - انك مخطيء أيضاً فقد عرفناه بفضل خطائك وهو الشيخ حسن الخياط .

فاضطرب روكامبول اضطراباً عظيماً ، دون أن يظهر شيئاً من اضطرابه
ثم ابتسم وقال : اني لا أفهم ما تريد أن تقول ، ولم أسمع باسم هذا الرجل
قبل الآن .

وكان روكامبول مطمئناً فلم يكثرث لما سمعه من البوليس ، لاعتقاده بأن
عمال الوزير قد يعذبون الشيخ حسن أقطع تعذيب ، وقد يقتلونه ، ولكنهم
لا يعلمون منه موضع الكنز ، وقد زاد اطمئنانه حين رأى أن هذا الرجل
المتنكر بملابس البوليس لم يسأله كلمة عن ابن الرجاء عثمان ، فأيقن أن
تريبورينو لم يكن عالماً بأمره ، وأنه يعتقد أن الغلام هو ابن الشيخ حسن وليس
ابن الرجاء .

وطال بها السير فقال له روكامبول : إلى أين أنت ذاهب بي ؟

إلى مكان بعيد كي يتيسر لتريبورينو الحصول على الكنز وهو في
مأمن منك .

فعلم روكامبول أنه لم يبق له فائدة من سؤال هذا الرجل ، وأنه خير له أن
ينصرف إلى التفكير في أمره ، ويبحث عن طريقة صالحة لنجاته فانزوى في
المركبة يتظاهر بالنوم وهو يعمل الحيلة والتفكير .

واستمرت المركبة على سيرها ذلك اليوم كله فلم تقف إلا عند المساء .

وعند ذلك أزاح البوليس ستار المركبة فرأى روكامبول أنها وقفت في
برية متسعة قرب غابة كثيفة

فنزل عامل تريبورينو من المركبة وأمر العبدین بالنزول ثم أخرج
روكامبول وقال له بلمهجة الساخر : انك قد تعبت من الجلوس دون شك ،
وبت في حاجة إلى المشي والرياضة فهلم بنا نمشي في هذه الغابة فان المركبة لا
تستطيع السير فيها .

ولم يكن لروكامبول سبيل للدفاع فان يديه كانتا مقيدتين وراء ظهره ،
وذلك الرجل المتنكر بملابس البوليس مشر عليه مسدسه فلو حاول الدفاع

قتل لا محالة دون أن ينفع قتله ابن الرجاء
فسار صاغراً بأزاء الرجل والعبدان يسيران وراءهما فدخلوا إلى الغابة ،
وساروا بين أشجارها نحو ساعة .

وكانت الشمس قد توارت في حجابها وأقبل الليل فوصلوا إلى شجرة عظيمة
باسقة تكفي أغصانها وعمدها لبناء سقف منزل يحملته فوققوا عندها وعلم
روكامبول في الحال ذلك العقاب الهائل الذي أعد له .

ذلك ان هذه الشجرة كانت من النوع الذي يدعونه (Man cenillier)
وهو شجر سام يكثر وجوده في الهند وأميركا وجزائر الأنتيل فاذا أقام المرء
في ظلها ليلة واحدة نفذت سمومها إلى رئتيه فنام نومة أبدية .
فلما وقفوا عندها التفت البوليس إلى روكامبول وقال له وهو يضحك :
قد وصلنا فلا نحملك بعد الآن مشقة السير .

- ١٧ -

وأشار عند ذلك إشارة إلى العبدان فانقضيا في الحال على روكامبول
وقيدا رجليه .

ثم ربطا حبلًا في وسطه وربطوا هذا الحبل في الشجرة بحيث لم يعد يستطيع
حركًا وأيقن انه حكم عليه بالموت في ظل هذه الشجرة السامة .

ولما فرغ العبدان من تقييده قال له البوليس : إن تريبورينو دفعك
إلى الفيل الجلابد فانتصرت عليه ، وقتلت ذلك الفيل العزيز ، والآن
قد قضيت المهمة التي عهد الي قضاءها ، فأنتى لك أن تسلم من هذا
الخطر الجديد .

إنك رجل باسل مقدم تستحق خير من هذا الموت ولكن الموت واحد .

مهما تنوعت أسبابه ومن كانت له بسالتك لا تروعه الشدائد ويعرف طرق الصبر على الموت .

ثم قمقه ضاحكاً وانصرف بعبيديه ..

وبقي روكامبول مقيداً بالشجرة لا يستطيع حراكاً فجعل ينظر إلى الرجل والعبدین حتى تواريا عنه بين الأشجار فبات وحيداً مقيداً في غابة لا يسكنها غير الوحوش الضواري فإذا سلم من أنيابها لا يسلم من سم الشجرة .

ولبت على هذه الحالة حيناً وقد تمكن اليأس من قلبه وبذل جهداً عظيماً كي يقطع قيوده فلم يستطع لمتانتها ، فقد كانت من الحرير وهي معقودة بطرق يستحيل حلها إلا على عاقدتها .

وهجم الليل وسطح نور القمر فأدرك روكامبول هول موقفه وعلم أنه لم يصب في حياته بأشد من هذا الخطر .

ولا يدرك هول هذا الموقف إلا من عرف غابات الهند الكثيفة فانها تكون في النهار هادئة ساكنة ، فإذا أقبل الليل هبت الرياح واهتزت الأغصان فخرج لاهتزازها صوت يضطرب له ذلك الهدوء

ثم يمتزج بتلك الأصوات أصوات أخرى تخرج كالرعد القاصف وهي أصوات النمرور .

ثم يشعر الجالس فيها ان الأرض تهتز به ، وذلك ان أسراباً من الفيلة لاعد لها تدخل إلى تلك الغابات بعد ان تكون قد أتلقت سهول الذرة والأرز في النهار، فتساقط لاهتزازها الأشجار من سيرها والأوراق الذابلة وتحملها الرياح إلى السهول .

وهناك أصوات منتظمة رنانة تشبه أصوات (الصناجات) التي تنقر بها الراقصات المصريات ، وهي أصوات الأفاعي المعروفة بذوات الأجراس . فإذا قدر لمنكود أن يقص موقف روكامبول في مثل هذه الغابة لا يلبث أن يضل رشده لما يتولاه من الرعب .

ولم يكن عناء روكامبول قاصراً على الفزع بل انه كان يتألم آلاماً شديدة من تأثير سم الشجرة المقيدها .

فقد شعر حين بدأ هواء الشجرة السامة ينفذ إلى رئتيه بحرارة شديدة عقبها صداد الم .

ثم زالت الحمى وتلاها برد شديد فجعلت أسنانه تصطك وجسمه يضطرب ويهتز ومعدته تنكش وقلبه يتصاعد حتى خشي أن يخرج من فيه

ثم اشتد الصداد فكان يشعر كأن آلة من الحديد تضغط على صدغيه وأن مطارق غير منظورة تضرب رأسه ضربات غير متتابة ، وان إبراً محددة الأطراف توخز رأسه من كل مكان

وبعد هذا الصداد الألم أصيب بما يشبه النزع ، فقد تراكمت عليه الآلام حتى لم يعد يخص عضواً دون آخر ، ثم تلا ذلك الهذيان والبحران فأصيب بما يصاب به شارب الأفيون فكان يتألم ويسر في حين واحد .

وجاء بعد ذلك دور التخيلات فكان يرى نفسه قارة ممتطياً جواداً ينهب به الأرض في البراري الفسيحة ، ويرى مرة أن فتاة حسناء تداعبه وتلهب فيه تقبيلاً

ثم تنعكس هذه التخيلات فيرى أفعى هائلة تسعى اليه ونمراً مفترساً فاغراً فيه راكضاً اليه وفهداً جائعاً يمد اليه برائنه لافتراسه .

وفي جميع هذه المدة يسري الموت اليه ببطء ، وهو خير أنواع هذا العذاب .

وكان روكامبول يعود اليه الطمع بالحياة حين يسمع تلك الأصوات الهائلة المنكرة ، فيجد نفسه مقيداً أشد تقييد ، فيحاول أن يصبح ، أو يستغيث فلا يخرج صوته من صدره ، وقد خطر له أن يصلي التماساً للعزاء فلم يعلم ماذا يقول .

وكانت الحمى تثل له في البدء تلك الأصوات والضواري ، غير انه لم يلبث

بعد ذلك حتى استحبال الخيال إلى حقيقة ، ورأى نمرأ هائلاً أرقش الجلد متمسم
البرائن ، كبير الشدقين دنا من تلك الشجرة وقد شم رائحة الانسان فأسرع
لافتراسه ووثب حتى بات على عشرين خطوة منه ، فجعل ينظر اليه بعينين
تتقدان كأنهما من لهب .

فانتفض روكامبول وقد أزال هذا المنظر الكريه آثار الحمى والهذيان وعاد
اليه كل رشده لاستفحال الخطر لاسيما حين سمع زئير هذا الوحش الضاري
ترتج له أرجاء الفضاء كدوي الرعود .

ولكنه وأسفاه كان مقيد اليدين والرجلين مشدوداً إلى الشجرة فلا يستطيع
دفاعاً ولا فراراً .

ووقف النمر بعيداً عنه ينظر اليه بعينيه الناريتين ، فما شكك أنه غدا
فريسة هذا الوحش المفترس

غير أن النمر لم يتقدم ، ولبت في مكانه ثم فتح شقيقه وجعل يزأر زئيراً
يشبه دوي المدافع وهو ينظر اليه دون أن يشب عليه .

وحملت الرياح زئيره الهائل فتناقله الصدى ودوى في تلك الغابة وفي الجبال
المجاورة لها .

وبعد ذلك خيل اليه انه سمع زئير يشبه زئير هذا النمر من مكان
بعيد ، فحول النمر نظره عن روكامبول والتفت إلى الجهة التي سمع منها
ذلك الصوت .

وكأنه كان ينادي رفاقه كي يستعين بهم عليه ، فإنه لما سمع الزئير البعيد
عاد هو إلى الزئير المتصل

وكان نور القمر ساطعاً فلم تمض هنيهة حتى رأى نمرأ آخر قد انضم
إلى النمر الأول ، فقال روكامبول في نفسه : لا شك انه قد دعاها كي -
تشاركه في لحمي .

وكأنما للوحوش لغة سرية يتفاهمون بها فان النمرين حين التقيا جعل كل

منهما ينظر إلى الآخر كأنهما يتشاوران ثم عادا إلى التحديث به دون أن يدونا
خطوة منه

فجار روكامبول في أمرهما وترددما وهو يتوقع انقضاها عليه كل حين
إلى أن انجلت له أسباب هذا التردد .
وذلك أن القمر كان في كبد السماء فكان نوره يتدفق فوق الشجرة فبسط
ظله حولها دائرة من النور .

وكان روكامبول مقيداً في الشجرة فلا يصل إليه النور الحاجز بينه وبين
النمرين فكأنهما خافا من النور أو أنها علما بالفطرة الغريزية أن الشجرة سامة
فخشيا اللدو منها وهو أمر مشهور فإن الحيوان يدرك بالفطرة ما يضره
كما يدركه الانسان بالعلم والاكتساب .

وربما كانا لا يعلمان انه مقيد اليدين والرجلين ولا يستطيع حراكاً ؟
فكانا يتوقعان أن يخرج من ظل الشجرة هارباً منها فينقضان عليه
ويقتربانه

أما روكامبول فقد أصابه من الرعب ما لا يوصف واشتدت عليه آلام
التسمم حتى استفحل يأسه وفضل الموت العاجل بين أنياب هذه الوحوش
الضواري على الموت البطيء بظل الشجرة المسمومة فلم يحتل على النمرين
لارهابها وإبعادهما بل عول على أن يثيرهما عليه كي ينجو من حياة
يفضلها الموت

فجمع شفتيه وجعل يصفر وهو يرجو أن يثير النمرين بالصفير ويحملها على
الانقضاض عليه .

غير انه لقي عكس ما كان يرجوه فإن النمرين ابتعدا حين سمعا الصفير
وهما يزاران حتى غابا عن نظره .

وحسب انه قد نجا منهما ولكنهما لم يلبثا أن عادا فكانا يسيران ويقفان
كأنهما يرهبان أماً أو ينتظران نجدة .

وكأننا يزأران زئيراً تدوي له الأفاق فلم تمر هنيهة على ذلك حتى انضم إليهما
ثلاثة نمور أخرى

وكانت آلامه قد اشتدت حتى بات يحسب الموت حياة فقال في نفسه : لا
بد أن تحمل الجراءة أحد هذه النمر إلى اجتياز دائرة النور فأججوا بما أنا فيه
واستريح .

ولكنه أخطأ في حسابه ايضاً فان النمر اصطفت شبه دائرة وجعل كل
منها ينظر إلى رفيقه ثم ينظر إلى ظل الشجرة السامة دون أن يحسر على
اجتياز الدائرة .

غير ان عيونها البراقة النارية كانت تفعل فيه اكثر من برائنها ، فعادت
إليه الحمى والهذيان فتمثل له أن هذه الحيوانات الضارية لا حقيقة لها وأنها
خيالات مثلتها له الحمى .

واشتد به الصداع فجعل يصيح متألماً فكانت النمر تجيبه عن صياحه
بالزئير ، ولكنها لا تجسر على الانتقال من مواضعها فكانت تقتله بزئيرها
ونظراتها والشجرة تميته برائحته السامة .

وفيما هو على ذلك رأى حيواناً آخر قد انضم إلى النمر .
ولم يكن هذا الحيوان نمراً ، بل كان فهداً هائلاً أصفر الظهر أبيض البطن
فأفسحت له النمر محلاً بينها ، وجعلت تتطلع إليه ويتطلع إليها كأنها تقص
عليه أمرها معه .

وكأنها هذا الفهد لم يكن يدرك ما كانت تدركه هذه النمر من خطر
الشجرة ، فانه وثب من بينها فاجتاز دائرة النور غير هياب وانقض على
روكامبول .

فأغمض روكامبول عينيه واستعان بالله على لقاء الموت إذ لم يبق له
شك فيه .

أما الفهد فانه نشب برائنه في كتفي روكامبول وجذبه جذبة قوية قطعت

الحبل المشدود به وسطه إلى الشجرة ، ثم القاء فوق ظهره وفر به هارباً من النمرور يعدو عدو البرق بين الغابات الكثيفة .

أما النمرور فأنها جعلت تعدو في أثره وهي تزجر وتزئز وتطلب حظها من الفريسة .

وكانت النمرور تعدو عدواً سريعاً حتى أوشكت أن تبلغ الفهد وتنزع منه روكامبول غير أنها قبل أن تصل إليه دوى في أنحاء الغابة صوت غريب لم تألف الوحوش سماعه في الغابات .

وكان هذا الصوت صوت طبل كبير له دوي شديد فخافت النمرور من هذا الصوت الغريب ، وأركنت إلى الفرار تاركة حقها من الفريسة للفهد . ثم تلا صوت الطبل ظهور أنوار المشاعل فكانت هذه الأنوار أدعى إلى فرار النمرور من صوت الطبل

غير أن الفهد كان أشد منها جرأة ولعله لم يخف لأن وقوع الفريسة بين يديه هاج نهمه فلم يبال بالأخطار .

ولذلك لم يهرب بل انه القى روكامبول على الأرض فوضع يده الهائلة فوق صدره والتفت إلى جهة النور ومصدر الصوت وهو يتهدج من الغضب ويصيح صيحات تكفي وحدها لقتل أشد الناس جرأة من الخوف في مثل هذا الموقف الرهيب .

وكان صوت الطبل يدنو من الفهد وقد تألقت أنوار المشاعل فظهر حاملوها فانشغل الفهد عن النظر إلى روكامبول بالنظر إليها وجعل يزيد هياجه كلما اقتربت منه ويزيد ضغطه على صدر روكامبول .

أما روكامبول فإنه نظر إلى تلك الأنوار فرأى ثلاثة من الهنود يحملون المشاعل وآخر يحمل طبلًا ينقر عليه وكلهم مسلحون بالبنادق فاشتد رجاءه بالنجاة ، فلم يعد يحفل بضغط الفهد وغضبه .

وكان الهنود قد دنوا من الفهد وابتوا منه على بضعة أمتار فرأى روكامبول

أحدهم قد صوب بندقيته ، ثم سمع فجأة صوت إطلاقها فصاح صيحة ألم شديدة ، لأن الفهد ضغط عليه ضغطاً قوياً كاد يحطم عظام صدره ثم اطبق عينيه وأغمي عليه .
أما الرصاصة فقد أصابت قلب الفهد فسقط قتيلًا وكان ضغطه على روكامبول آخر انتقام .

- ١٨ -

ولما استفاق روكامبول من إغمائه وجد نفسه في مكان لا يعرفه ولم يجد أثراً للفهد والنمور .

وقد وجد نفسه في منزل هندي مبني من القصب وهو من المنازل التي يسكنها من يقيمون قرب الغابات من الهنود ويحصدون الذرة والارز .
فلقي أمامه ثلاثة رجال لم يعرف منهم غير رجل واحد ، لكنه ما لبث أن رآه حتى صاح صيحة فرح لأن هذا الرجل كان موساني خادمه الوفي الأمين .

أما خادمه فإنه أكب على يديه ورجليه يقبلها بجلء الفرح والاحترام .
ثم أخبره بالإشارة أنه كان يحسبه من الأموات ، وأنه إذا كان باقياً في قيد الحياة فإنما ذلك بفضل وفضل هذا الرجل ، وأشار إلى أحد الرجلين الهنديين .

فنظر روكامبول إلى الرجل الذي أشار إليه فإذا هو رجل عالي القامة أسمر الوجه أسود اللحية تدل مخائله على النبيل والجرأة والاقدام
أما هذا الرجل فإنه لما رأى روكامبول ينظر إليه كلمه باللغة الفرنسية فقال:
انك تريد أن تعرف دون شك من أنا ؟

فانحنى روكامبول إشارة الإيجاب :
فقال الرجل : إني أدعى نادر وأنا زعيم تلك الجمعية القادرة التي تقاوم
الخناقين فان أولئك الخناقين من أبناء الآلهة كالي إلهة الشر أما نحن فاننا من
أبناء الآلهة سيوا إله الخير والصلاح .

انك لا تعرف من أنا ولكني أعرف من أنت فانك خدمتنا اجل خدمة
بانتصارك على علي رجاء زعيم الخناقين الأكبر ، فقد كان عدونا اللدود وانما
انقذتك من أجل هذه الخدمة ولسنا من الذين يضيع عندهم الجميل .
فجعل روكامبول ينظر إلى هذا الرجل باندهاش .

أما نادر فإنه مضى في حديثه فقال : إن برائن الفهد قد مزقت جلدك
وأصابتك بجراح كثيرة غير اني فحصت جراحك بعد ان قتلت الفهد فعلمت
أنها غير بالغة .

وقد ضمت جراحك الى الطريقة الهندية فوضعت في كل جرح مرهماً لا
يعرفه غير الهنود وهو يشفي أشد الجراح ببضع ساعات .
وانك ستشفى اتم الشفاء بعد يومين وتصبح قادراً على العودة إلى كلكوتا
وهناك لا خوف عليك فان نفوذي يحميك .
فنظر اليه روكامبول نظرة أعربت عن امتنانه العظيم وقال : اني اشكرك
كفياً كنت .

وعاد نادر إلى الحديث فقال : لقد انقذتك اعترافاً بجميلك على جمعيتنا كما
تقدم ولكن كان لي في انقاذك مأرب آخر وهو اني سأحتاج اليك يوماً ما .
- مر بما تريد فان هذه الحياة التي انقذتها باقت وقفاً لخدمتك .

- سأخبرك فيما بعد بحاجتي اليك ، وأما الآن فدعني اقص عليك كيف
انقذتك من ذلك الموت الهائل .

ثم جلس على كرسي قرب مقعد من القصب الهندي كان روكامبول قائماً
عليه وقال :

إن لطائفة الخناقين جواسيس منتشرة في كل مكان ، وكذلك نحن فاننا لنا كثيراً من الجواسيس . ولنكد الطالع إني لم أكن في كلكوتا حين جئت أنت إليها ولم أعلم بمقاصد تريبورينو إلا بعد فوات الأوان .

وذلك اني كنت في صباح امس في منزلي ، فدخل علي خادمي وأخبرني أنه على الباب رجل هندي ، يريد أن يطلعني على أمور خطيرة .

فأمرت بإدخاله ، فدخل الرجل وجثا على ركبتيه أمامي وقال : إني يا مولاي من أبناء سيوا مثلك ولكني دخلت في خدمة تريبورينو ولا أحب ان يصاب من تحميه بمكرهه .

ثم أخبرني انه باغت خادمين مخلصين في خدمة الوزير ، فعلم من حديثهما أنهما سرقا في الليل خاتم عثمان من إصبعك . وإنها قطعنا لسان موساني .

وقد علم أيضاً انهما عازمان على اختطافك والذهاب بك الى غابة وربطك إلى شجرة سامة كي تموت في ظلها .

ثم ذهب بي ذلك الرجل الذي أخبرني بهذا النبأ الى فندق باتافيا الذي كنت تقيم فيه حين سرقوا منك الخاتم فعلمت ان صاحب الفندق من أتباع الوزير وان بوليسين إنكليزيين قد قبضا عليك .

وقد رأيت في هذا الفندق موساني ، فضمدت جراحه وذهبت وإياه لاقتفاء أثرك فعلمت انك قد تقدمتنا وعرفت من الهنود انهم قد خرجوا بك من كلكوتا بركبة مقفلة تجرها الجياد . فامتطيت مع موساني جوادين وخرجنا أيضاً من كلكوتا للبحث عنك .

ركنا كلما رأينا جماعة من المزارعين نسألهم عن المركبة فيرشدوننا الى الطريق التي سارت فيها .

لكن أقوالهم كانت متفقة على أنكم كنتم تتقدمونا بعدة ساعات .

وما زلنا نسير من محطة إلى محطة ، حتى انتهينا الى منزل في هذه الغابة ، فرأيت هناك المركبة التي حملتك وجيادها ، فعلمت انهم قد توغلوا بك في الغابة .
وكنيت أعلم ان هذه الغابة كثيرة الطرق ، فليس من الحكمة أن أقفوا أتركم فيها .

ثم اني كنت أعلم ان الأشجار السامة لا تقتل في أمد قصير ، ولذلك رأيت ان أكن عند مدخل الغابة للذين ذهبوا بك اليها ، إذ لا بد لهم من العودة الى المركبة التي تركوها عند المدخل .
فاختبأت مع موساني بين الأدغال نحو ساعتين .

وبعد ذلك رأيت ثلاثة رجال قد خرجوا من الغابة ، وهم عبدان أسودان ورجل أبيض ، لا فرق بين لونه ولون الانكليز . فعرفت للحال انه من أخلص الناس في خدمة الوزير وقلت في نفسي : إن هذا الرجل يؤثر الموت وكل عذاب على خيانة سيده ، فهو لا يهدينا الى الشجرة السامة التي قيدوك فيها ووجوده يضر بنا .

وصبرت عليه حتى رأيته يصعد الى المركبة فأطلقت عليه رصاصة من بندقيتي فأسقط منه مقتلًا وسقط صريعاً .

وعند ذلك خرجت مع موساني من بين الأدغال وهجمنا على العبدان فركعنا أمامنا وهما يطلبان العفو . فسألتهما ان يرشدانا الى الشجرة التي قيدوك فيها وأنذرتهما بالقتل .

أما أحدهما فأبى ان يرشدنا كل الإباء . فطمعته موساني بخنجره طعنة كانت القاضية .

وأما الثاني فإنه لما رأى ما كان من قتل رفيقه خاف من الموت ورضي ان يرشدنا اليك

وكان الليل قد أقبل فأحضرت المشاعل للاهتداء ، والطبل لطرود الوحوش

والأفاعي، ودخلنا جميعاً الى الغابة حتى اهتدينا اليك وأنقذناك من الفهد وأنت تعرف البقية .
فشكره روكامبول شكراً جزيلاً ثم قال له : إني مدين لك بالحياة ولم يبق إلا ان تخبرني بما تنتظره مني .
- ستعرف ذلك بعد يومين حين نصل الى كلكونا ، وأما الآن فلا بد لك من الراحة
ثم تركه وانصرف .

- ١٩ -

وبعد ذلك بيومين كان روكامبول في كلكونا فان المرمم الذي عاجله به نادر قد فاده فائدة عظيمة فلم يشعر بشيء من الألم .
وكان حسن وفائه لعثمان قد أسرع في شفائه فإنه ذكر سرقة الخاتم منه فكاد يحين من إشفائه على الكنز وابن عثمان .
وفيما هو يدخل باب المدينة مع نادر قال له نادر : إننا قد بلغنا كلكونا فلا أفارقك بعد الآن . ومتى كنت معك فلا خوف عليك من الوزير مهما بلغ من السلطة والنفوذ .

- إني صدقتك ولي بك ثقة لا تتزعزع .
- إلى اين تريد ان تذهب الآن .
- إلى الشيخ حسن فاني مضطرب البال عليه .
- إذن هلم بنا

وسار الإثنين الى المدينة السوداء ، حتى إذا وصلا الى منزل حسن سرى الأمل إلى فؤاد روكامبول لأنه وجد الشيخ حسن جالسا كما دته عند

عتبة الباب .
 وقال روكامبول في نفسه : لا شك إنه فهم إشارتي ، فلما جاؤوا بالخاتم لم يخبرهم بشيء .
 ثم دنا روكامبول مع نادر منه ، فنظر حسن الى روكامبول نظرية تدل على عدم الاكتراث .
 فعجب روكامبول لهذا الفتور وقال له : ألم تعرفني ؟
 فنظر اليه الشيخ نظرية تدل على البلاهة دون ان يحجب فقال له روكامبول : كيف لم تعرفني أيها الشيخ ؟ أنا هو القادم من قبل الرجاء عثمان ؟
 فارتعش حسن عند سماعه اسم عثمان ، ثم ابتسم ورفع يديه إشارة الى ان الأمير بات في السماء .
 فقال نادر لروكامبول : إن هذا الرجل قد اختلط عقله فان عينيه تشيران إلى انه مصاب بالجنون .
 وكان هناك فتاة جالسة عند باب المنزل المجاور لمنزل حسن فدنت من نادر وروكامبول وقالت لهما : الملكما من أقرباء هذا المسكين ؟
 فقال نادر : نعم .
 — يظهر أنكما لم تعلمما ما أصابه ، فإن ثلة من الجنود قد طوقت منزله مساء أول أمس فخرج حسن اليهم وهو منذهل مما يرى فقبضوا عليه وأراه رئيسهم خائفاً كان في إصابته .
 أما حسن فإنه نظر الى الخاتم بانذهال قائلاً : إني لا أعلم ما تريد .
 فدخل الجنود عند ذلك به الى المنزل وأقفلوا بابه ، فجعل حسن يصيح صياحاً سمعه كل الجيران ، فسمعناه يقول إني رجل خياط فقير فمن أين تأتيني الكنوز .
 وكانت الجنود يندرونه بالقتل إذا لم يبيع بسر الكنز ، فيقول لهم .

اقتلونني في الحال ولا تعذبوني ، فاني شيخ كبير ولا طاقة لي على احتمال العذاب

لكن الجنود لم يقتلوه بل انهم أشعلوا النار في المنزل ، فكنا نرى نورها ينفذ من النوافذ ثم سمعناه يصيح صياحاً يدل على الألم الشديد ، ثم سمعنا غناؤه فعلمنا أن العذاب أفقده الصواب .

وذلك ان الجنود قد حملوه بأمر رئيسهم وعرضوا قدميه للنار فلم يغبهم تعذيبه شيئاً ولما يأسوا من إقراره ورأوا أنه كاد يشرف على الموت تركوه وجعلوا يفتشون المنزل فما تركوا شيئاً في مكانه .

ولكن يظهر انهم لم يجدوا شيئاً من تلك الكنوز الوهمية ، فانهم خرجوا صفر اليدين .

فتنهذ روكامبول عند ذلك تنهد المنفرج ، ليقينه من بقاء الكنز في موضعه وقال للفتاة : لقد كان للشيخ حسن غلام فأين هو وماذا جرى له ؟ - إن الجنود أخذوه ولم نره بعد ذلك .

فهمس روكامبول في أذن نادر وقال : إن هذا الوزير الخائن قد قبض على الغلام

- سنجده إلا إذا كانت سولت له النذالة ان يقتله .

- لندخل الى منزل هذا المسكين المختل فقد نقف منه على شيء .

فوافق نادر ودخل الاثنان فتبعهما حسن وعليه مظاهر القلق كي يمنعهما عن الدخول ، لكنه لم يسر خطوة حتى سقط لاحتراق قدميه .

فحمله روكامبول ودخل به الى المنزل ثم أشار الى نادر ان يقفل الباب فأقفله ودخلوا جميعاً فكان حسن ينظر اليهم نظرات الرعب

ثم نزلوا الى القبو ، فجعل روكامبول ينقر بيسديه على الجدار ، كي يهتدي من الصوت الى باب الكنز الدفين ، كما فعل حسن من قبل فاهتدى

من الصوت اليه وأخذ خنجره وأدخله بين حجرين فانزاح احدهما وظهر القفل الفولاذي .

وعند ذلك جمل حسن يضحك ضحكاً عالياً كأنه كان يهزأ بهما لوثوقه من ان هذا الباب لا يستطيع أحد غيره ان يفتحه ، ثم انقطع ضحكهما واستولى عليه رعب رهيب فبكى بكاء الأطفال .

أما روكامبول فانه كان وثق من ان الجنود لم يهتدوا الى الكنز . لكنه أراد ان يعالج هذا الباب عله يستطيع فتحه ليطلع نادر على ما فيه من الأموال .

وكان يعلم ان المفتاح معلق بمنق حسن فاستعان عليه بنادر وأخذ منه المفتاح بالرغم عن دفاعه الشديد .

ثم ذهب به الى القفل فأدخله فيه وجمل يديره يمناً ويسرة مرات كثيرة دون ان يتمكن من فتحه فنظر نظره يأس الى نادر وقال له : إن لقفل هذا الباب سراً لا يعرفه إلا حسن لكنه مجنون وأسفاه .

فأجابه نادر : ثق بي ، فسأهتدي إلى فتحه وإني لم أتولى زعامة قومي عبثاً .

ثم ابتسم ابتسامة تدل على ثقته بنفسه ، فذهب عن روكامبول ما كان يشعر به من اليأس .

- ٢٠ -

وكان نادر قد أدرك صعوبة الوقوف على أسرار القفل فقال لروكامبول : إننا قد نشغل أشهراً كثيرة في محاولة فتح هذا الباب بمفتاحه دون ان نهتدي إلى سره .

فإنكم معاشر الأوروبيين قد اخترعتم أقفالاً تفتح بحروف يصطلح عليها ،
لكن الهندود قد سبقوكم بمراحل في مضمار هذا الاختراع .

وذلك أنكم جريتم بها على طريقة الحروف ، وجرينا بها على طريقة
الأرقام ، وشتان بين الطريقتين ، فان الحروف محدودة وأما الأرقام فلا
حد لها .

ولا بد أن يكون هذا الباب قد أقفل بأرقام لا يمكن معرفتها إلا من الشيخ
حسن وإلا فلا سبيل الى حلها .
- لكنه مجنون .

- إني أعلم ما تعلمه من جنونه .

- إذا العلك تريد ان تشفيه .

فهز نادر رأسه وأجاب : لا فائدة من ذلك .

فلم يفهم روكامبول شيئاً من قصده . أما نادر فانه ابتسم وقال له : هلم نبرح
هذا القبول الى المنزل فأننا نلتحدث فيه كما نريد .

فأخرج روكامبول المفتاح من القفل وأعاد الحجر كما كان ثم صعد مع نادر
بالشيخ حسن الى المنزل فكان حسن يصفق بيديه تصفيق تهكم كأنما قد عاد اليه
بعض صوابه وعرف انهما لا يستطيعان فتح الباب

ولما دخلوا الى المنزل وأقفلوا جميع أبوابه ، قال نادر لروكامبول : إن
الوزير قد أتقن اللغة الهندية كل الاتقان ، بحيث لم تعد تخفاه خافية من دقائقها
غير انه لم يتقن درس أخلاقنا وعاداتنا فهو إنكليزي النشأة ولا يمكن ان يكون
هندياً محضاً .

- لماذا ؟

- لأنه يحمل بعض اسرارنا ، فان الهند بلاط السموم القاتلة والمخدرات
الخفية فإذا كان الوزير قد عرف شيئاً منها فقد غابت عنه أشياء ، ولو كان يعرف
منها ما عرفه لتيسر له الحصول على الكنز .

فمعجب روكامبول وقال له : كيف ذلك ؟
 - ذلك انه كان يستطيع الوقوف على سر الكنز من حسن نفسه ، بل انه
 كان فتح له باب الكنز بيده .
 - أيفتح الشيخ حسن باب الكنز للوزير ؟
 - دون شك .

فزاد عجب روكامبول ، أما نادر فانه مضى في حديثه قائلاً : إن الهندي
 اذا عطش عصر قطعة من الليمون في كأس من الماء فأروى ظمأه ، وإن الهندي
 إذا أرق وتعدر عليه النوم أخذ حبة من الأفيون فابتلعها ، وإذا جرح داوى
 جرحه بمزج يستخرجه من عصير نبات يدعى باللغة الهندية يوماً ومعناه لسان
 الحية ، وبهذا المرحم قد شفيت جراحك .
 فاذا مزج الليمون المرطب مع الأفيون المنوم ولسان الأفعى الذي يشفي
 الجراح ، تألف من هذا المزيج سم غريب لا يخطر في بال أحد منكم ،
 معشر الإفرنج .

وذلك ان من يشرب جرعة من هذا المزيج يصاب بفرح عصبي غريب فينطلق
 لسانه بالكلام ، ومهما كان كتوماً حريصاً على أسرارهِ فإنه لا يلبث ان يشرب
 هذا المزيج حتى يبوح بكل أسرارهِ

فتلبه روكامبول لحديث نادر وذكر حادثة بعيدة جرت له حينما كان تلميذاً
 لأندريا ، وهو ذلك الشراب الذي أعطاه إياه اندريا فأرغمته باكاراً على شربه
 ووقفت منه على جميع أسرار أستأذه

فبذل روكامبول معظم جهده كي يطرد تلك الذكرى المؤلمة ثم قال لنادر .
 كيف نستطيع الآن الحصول على مواد هذا المزيج ؟
 - ذلك سهل ميسور فان ورق لسان الحية معي في جيبى

ثم أخرج من جيبه ضمة من أوراق صغيرة تشبه ورق الورد ووضعها أمامه
 على الطاولة

– والأفيون ؟

فابتسم نادر وقال : إن الهندي مهما كان فقيراً ومهما كان الأفيون غالياً فلا بد ان يوجد في منزله كمية منه .

ثم قام إلى طاولة كان الشيخ حسن يضع فيها أدوات الخياطة وفتح درجها وجعل يبحث فيها فوجد حبة صغيرة من الأفيون ، فأخذها ووضعها أمام الأوراق الجافة .

فرد روكامبول : بقي علينا الليمون .

– هلم بنا نبحث في البيت علنا نجد قطعة منه .

فبحشوا فلم يجدوا شيئاً فذهب نادر إلى الباب ففتحه ، ووجد الفتاة الهندية لا تزال جالسة عند عتبة الباب ، فأعطاهما غرماً وسألها ان تشتري له به ليموناً لمعالجة الشيخ ، فامتثلت الفتاة وعادت بعد هنيئة بالليمون .

وعند ذلك اخذ نادر جرناً صغيراً من مطبخ المنزل فغسله ثم سحق فيه حبة الأفيون وفت لسان الحية فمزجها مع الأفيون ثم نقلها إلى كأس ماء وعصر فوقها الليمون فظهر لون المزيج أحمر كشراب الورد . وكان حسن ينظر إلى نادر نظر البهامة

فدنا نادر ، وهو يحمل الكأس ، وقال له : إشرَب فان هذا الشراب مفيد لك .

فأخذ حسن الكأس من يده وشرب نصفه جرعة واحدة كما يشرب الطفل ما يعرض عليه دون ان يعرف ما يشرب .

فالتفت نادر إلى روكامبول وقال له : راقب الآن هذا الرجل سوف ترى ما يكون تأثير هذا الشراب

أما حسن فإنه لم يكد الشراب يستقر في جوفه حتى أصيب في البدء بذهول عظيم ثم جعل وجهه يتلون وعيناه تتقدان وانطلق لسانه بكلام لا يفهم فكان

كمحموم مصاب بالهذيان .
وعند ذلك قال نادر لروكامبول : إتبعني الآن .
فتبعه ونزل الإثنين إلى القبول ، فقال له نادر : أزح الحجر وضع المفتاح في القفل . ففعل .
أما حسن فإنه كان لا يزال في المنزل يهذي ، ثم بدت عليه مظاهر الفرح والارتياح فجعل يغني ويدعو نادر وروكامبول إلى سماع غنائه .
وكأنه لم يرق له ان يتمتع وحده بسماع غنائه فتبع روكامبول ونادر إلى القبو وهو يزحف زحفاً لآلام قدميه
والتفت روكامبول ، بعد ان وضع المفتاح في القفل ، فرأى حسن خلفه يضحك
أما نادر ، فإنه جعل يدير المفتاح في القفل ، وهو يتظاهر بالاضطراب والقلق .

فلما رآه حسن على تلك الحال ضحك ضحك المتهمك ووقف ، فدفع نادر بكوعه ووضع يده على المفتاح ، ثم نظر اليهم نظر الهازيء وأدار المفتاح عدة مرات ، ففتح الباب وظهر الكنز وما فيه من الذهب والوضاح والآلئء اللامعة .

- ٢١ -

أما حسن فإنه بعد فتح الباب أظهر من غرائب الاحتميال ما أضحك الإثنين ثم حاول ان يقفله ولكن روكامبول حال بينه وبين الباب وحمله نادر فأدخله الى قبو الكنز والقاء على الأرض
فقاوم حسن مقاومة ضعيفة ، ثم لما رأى نفسه ملقياً على الأرض

نسي ما هو فيه ، وعاد الى هوسه فجعل يبكي ويغني ويندب ويستبشر في حين واحد .

فقال نادر لروكامبول : إننا إذا أوقفنا هذا الباب لا نستطيع فتحه بعد إقفاله ، ولا نستطيع البقاء على هذه الحالة الخطرة ، لأن عين الوزير غير غافلة . ولما كان واثقاً أن الكنز موجود في هذا المنزل فهو قد أحاطه بالجواسيس ، وبث حولة الأرصاد والعيون ، لأنه لم يكتف بتفتيش أعوانه لهذا المكان .

— هذا لا ريب فيه ، فماذا يجب ان نعمل ؟

فأطرق نادر هنيئة يفكر ثم قال : لدي رجال مخلصون لكن يقتضي لي وقت لجمعهم .

— ولو جمعهم أتمهد اليهم بمراقبة هذا المكان ؟

— كلا ، ولكنني أستمع بهم على نقل جميع ما في هذا القبو من الذهب والجواهر .

— إلى اين تنقلهم ؟

— أصبر فسأجيبك متى أمنا صياح هذا الرجل فانه يقلقنا ببكائه وغناائه إحرص عليه الى ان أعود .

ثم تركه في القبو وصعد الى المنزل فأخذ من درج حسن كمية كبيرة من الأفيون فوضعها في غليونه وأشعله ثم عاد به الى حسن فأعطاه اليه فما طال تدخينه حتى سكنت وتمكن منه الذهول .

وعند ذلك جلس نادر فوق برميل في القبو ، وقال لروكامبول : إصغ إلي الآن أيها الصديق ، إن هذه الأموال المودعة في هذا القبو كثيرة جداً ، بحيث يتمنر نقلها إلى أوروبا بالطرق العسادية المألوفة ، لأن عمال الجمارك يفتشون السفن قبل سفرها ، وإذا عثروا بهذه الأموال ضبطوها دون تردد

- لكنني تعهدت لعثمان وهو يحتضر ان أنقلها .
- دون شك .
- إذا يجب نقلها إلى أوروبا .
- إنك تستطيع نقل الأحجار الكريمة ، وأما الذهب فلا فائدة من نقله .
- لماذا ؟
- دعني أخبرك قبل ذلك كيف يسهل علينا نقل الجواهر . أعلم أن لطائفة أبناء سيوا التي أتولى رئاستها ثروة واسعة تزيد على ثروة أعدائهم أبناء كالي .
- ولنا مثلهم عمال ووكلاء سريون بين الانكليز يخضعون لنا كل الخضوع ، ويمثلون لأوامري كل الامتثال .
- وإن بين أبناء طائفتي الذين يعتمد عليهم في المهمات ، ربات سفينة إسكيزية يدعى جون ثان ، وهو لي من أصدق الخالصين . وسياسفر إلى لندن بعد ثمانية أيام بشحنة من الحبوب . ولذلك رأيت أن أخبئ الجواهر داخل أكياس خاصة مشحونة بحبوب ، فإذا تفقدها عمال الجمارك لا يهتمون اليه .
- إذا كان ذلك كما أخبرتني فلماذا لا نشحن الذهب أيضاً داخل تلك الأكياس ؟
- لأن الذهب كثير وهو أثقل من اللآلئ فإذا شحن على تلك الطريقة تعرض للخطر .
- إذا كيف ينقل الذهب إلى أوروبا ؟
- لا حاجة إلى إرساله إلى أوروبا بل يظل في الهند ، وذلك اننا ندفعه إلى خزينة طائفة أبناء سيوا وأنا أعطيك حوالة بقيمته على مصرف من مصارف لندن العظيمة فيدفعها اليك في الحال .

— إنها طريقة حسنة . غير انه كيف يتيسر لنا نقل تلك الأموال من القبو .

— هنا وجه الصعوبة إذ يستحيل علينا إخراج الأموال من باب هذا المنزل دون ان يشمر بنا الذين يراقبونه .

— إني لا أرى ما تراه ، لأن الوزير كان منذ يومين يحهل اسم هذا الرجل .

— ذلك ممكن غير ان البوليس الانكليزي لا تغفل له عين ومثل تلك القيمة من الثروة لا يسهل تهريبها أمام عينيهِ .

— هو ما تقول غير ان تلك الثروة لم تدخل دفعة واحدة الى القبو فهي تخرج منه أجزاء متفرقة كما دخلت اليه .

— ذلك ممكن ايضاً غير اني أعتقد ان لهذا القبو مخرجاً آخر من غير بابهِ الذي دخلنا منه . فلهم نفتش عن هذا المخرج فاذا وجدناه أخرجنا المال بمحمله منه وذلك خير من إخراجهِ متفرقاً فان الوقت غير متسع لدينا وعلينا كثير من الرقباء والعيون .
— ليكن ما تريد فلنبحث .

ومشى نادر الى جدار القبو فجعل ينقر عليه بقبضة خنجرهِ في أمكنة مختلفة حتى اهتدى الى مكان سمع منه صوتاً يدل على فراغ فقال : هوذا المخرج وسوف ترى .

ثم أخذ خنجرهِ وجعل يزيح به الكلس المتجمد في الجدار حتى إذا كسّطه ظهر له تحته ثقب تمد منه اليد فمد يده فشعر بزلاج وراء الجدار فرفع الزلاج ودفع الجدار بيده ، فاذا الجدار باب فتح وظهر منه سرداب طويل مظلم . فظهرت علائم السرور على وجه نادر وقال . هوذا المخرج الذي كنت أتوقع وجودهِ .

— الى أين ينتهي هذا السرداب .

- سوف نعلم إذ لا بد لنا من المسير فيه .
- لكن ما نصنع بحسن فانه قد يقفل علينا الباب .
- لا تخف لقد سقيته كمية كبير من الأفيون فهو لا يستفق منها قبل عدة ساعات ولا خوف علينا منه ، هلم بنا .
- ثم أخذ المصباح الذي كانوا يستنيرون به في القبو ودخل الى السرداب ، فتبعه روكامبول .

- ٢٢ -

مما يؤثر عن الانكليز وتأثيرهم على البلاد التي يحتلونها ، والأهم التي يسيطرون عليها ، أن كل بلد توطأ أقدامهم فيه تنتشر بين قومه عاداتهم وأخلاقهم ، ويجري قومه تقليد الانكليز في كل شيء حتى في طريقة إنشاء منازلهم .

مثال ذلك كلكوتا فان بعض شوارعها لم يكن يفرق بشيء عن شوارع لندرا حتى ان المدينة السوداء نفسها ، اي مدينة الوطنيين ، امتدت اليها يد الهندسة الانكليزية .

ومما فعله الانكليز في كلكوتا ، أنهم بنوا المجاري تحت الأرض ، وأنشأوا بركة عظيمة في المدينة من جنوبها الى شمالها ، فكانت تشبه ميناء داخلياً .

وكانت مياه المجاري تصب في تلك البركة من أقنية مبنية تحت الارض فاذا حان وقت الجزر دخلت مياهه الى البركة وحملت أقدار المجاري وكانوا يستعملون البركة أيضاً لإصلاح السفن .

وكان نادر يعلم دون شك بأمر البركة فكان يرجو ان يجد منفذاً اليها من

السرداب فمشى أمام روكامبول بمصباحه .
أما السرداب فكانت قبته عالية بحيث لا يضطر السائر فيه الى الانحناء ،
لكنه كان ضيقاً فلا يستطيع الاثنان ان يسيرا جنباً الى جنب .

فلما سار نادر بضع خطوات قال لروكامبول : إننا سنجد مجرى دون شك
فان الإنكليز أنشأوا المجاري في المدينة السوداء .

— الى اين تنتهي تلك المجاري ؟

— الى حوض إصلاح المراكب .

وما سار الاثنان عشرين خطوة حتى وجدا منعطفاً فتنبه نادر لامر وقال :
يجب ان نعود الى القبو لاني أخشى ان يكون لهذا السرداب منعطفات كثيرة
تؤدي الى طرق مختلفة فاداً أردنا العودة لا نتهدي الى الطريق ولذلك لا بد
لنا من دليل .

— أين تجد الدليل ؟

— سترى ، إرجع الآن أدراجك .

فرجع روكامبول وتبعه نادر الى القبو ، فلما وصلا اليه صعد نادر الى
المنزل وعاد يحمل حبلاً رفيعاً طويلاً ثم دخل الى السرداب أمام روكامبول
وقال : سر بنا فهذا هو الدليل وما زال الحبل يمدنا فلا فضل الطريق اذا
أردنا الرجوع .

فاستصوب روكامبول صنعه وسار الاثنان في السرداب فانتهيا الى سلم تنزل
درجاتها في جوف الارض .

وكان الحبل بيد نادر فقال لروكامبول : إننا اذا لم نصادف طريقين
فلا حاجة بنا الى الحبل ، ولكن دلائل السرداب تشير الى اننا نلقى كثيراً
من الطرق .

وكانت درجات السلم ثلاثين درجة فلما انتهيا منها الى آخر درجة وجدا
سرداباً جديداً .

وكانا يسمعان صوتاً يشبه الهدير فوق رأسيهما فأصغى نادر الى الصوت ثم
قال : أتعلم اين نحن الآن ؟
- كلا !
- إننا تحت الحوض .

ومشيا بضع خطى فظهر لهما طريقان في السرداب الجديد فقال له نادر :
لقد حان وقت استعمال الحبل .
ثم أخذ خنجره فشكه في الارض وربط به طرف الحبل وسار في أحد
الطريقين وبقية الحبل في يده .
وما زالا سائرين حتى انقطع هدير الحوض وكان الحبل قد بلغ نحو ثلثيه ،
فاعترض سيرهما سلم آخر غير ان درجات هذا السلم يصعد عليها خلافاً لدرجات
السلم الاخرى . فصعدا السلم وانتها الى قاعة متسعة غير ان سقفها كان واطناً
بحيث تمكن للواقف ان يسه بيده فاستوقف سيرهما سماع حركة فوق السقف ،
عرفا منها انها خطى انسان .

ولم يكن لهذه القاعة منفذ فقال نادر : يستحيل ان تكون هذه الطريق
توصل الي البعور ولا بد ان يكون لهذه القاعة شأن .
وكان يصل الى مسامعهم من فوق القبة اصوات جماعة يتحدثون ولكنهما لم
يفهما شيئاً من كلامهم المبهم .
فقال نادر : دعني أركب على كتفيك واعطني خنجرك علني أهتدي الى
معرفة هذه الاصوات .

ثم ركب فوق كتفي روكامبول وبلغ القبة فأخذ الخنجر وجعل يحفر بالسقف
فما طال حفره حتى تنهد تنهد الرضى والارتياح ، إذ وجد السقف مبنياً
بالخشب وليس بالحجارة ورأى في هذا الخشب أثر باب فقال : هذا المنفذ الذي
نبحث عنه فقد لقيناه .

- ٢٣ -

وعند ذلك وثب تادر عن كتف روكامبول إلى الأرض وقال : لنبحث الآن عما نحن فيه : فاني قد وجدت المنفذ في هذا السقف وإذا دفعت بإيه السري دفعة قوية فتح ، ولكننا لا نعلم إلى أين ينفذ هذا الباب ، فاني اسمع منه أصواتاً كثيرة .

فقال روكامبول : أرى ان أموال الرجاء لم تدخل إلى القبو من منزل حسن بل من هذا الباب السري ، ولذلك أعتقد ان هذه الأصوات التي نسمعها هي أصوات قوم مخلصين للرجاء عثمان .

- وأنا أرى رأيك ولكن كيف نستطيع أن نثبت لهم أننا نحن أيضاً من المخلصين للرجاء .

فتأوه روكامبول وقال : لقد أصبت فقد سرقوا مني الخاتم .

- وفوق ذلك فاني لا أستطيع الجزم بأن المال وصل إلى القبو من هذا المنفذ ، فأننا قبل ان نصل الى هذه القاعة رأينا طريق السرداب قد تشعبت إلى طريقين ، ألا يمكن أن تكون الأموال وردت من الطريق الأخرى .

- هو ما تقول ، لكننا قد وجدنا منفذاً لخراج الأموال .

- لا شك عندي ببسالتك فقد عرفتك حق العرفان ، ومن كان مثلنا لا تمارضه الصعاب

- على ماذا عزمت ؟

- على فتح باب السقف ، لكن لا بد لي من خنجره فانه قوي النصل ، فابق في مكانك إلى أن أعود به .

ثم تركه وعاد مسترشداً بالحبل الممدود إلى حيث شك خنجره وربط به طرف الحبل .

أما روكامبول فانه بينما كان ينتظر عودته جعل يصفي إصغاء تاماً على

يفهم شيئاً من تلك الأصوات التي كان يسميها فقد اختلطت وارتفعت بعد
ذهاب نادر .

وكان روكامبول يعرف جميع لغات أوربا ، ويعرف الهندية ولغاتها
المختلفة ، غير انه لم يفهم كلمة من تلك الالفاظ الغريبة التي كانت تخترق السقف
إلى مسمعه .

فلما عاد نادر أخبره بما سمع وبأن القوم يتكلمون بلغة لم يسميها مرة من قبل .
فابتسم نادر وقال له . سأكون أسعد حظاً منك فاني لا تخفاني خافية من
جميع لغات الهند .

ثم صعد فوق كتف روكامبول ووضع اذنه على السقف فما أصغى هنيهة حتى
أشرق وجهه بنور البشر وقال : لقد عرفتهم فهم أصدقاء .

- من هم ؟

- هم ابناء طائفتي أي أبناء سيوا .

- كيف عرفت ذلك ؟

- من اللغة التي يتكلمون بها فهي اللغة السرية المقدسة التي لا يفهمها
العوام ، وإنما نحن الآن تحت معبد وهؤلاء الناس يصلون فيه فان هذه
الساعة ساعة الصلاة .

- إذن نستطيع فتح الباب ولا خوف علينا .

- دون شك ولكن الوقت لم يحن بعد وخير لنا أن ننتظر فراغهم من
الصلاة وخروجهم من المعبد .

- إذاً لننتظر كما تشاء .

فنزل نادر عن كتف روكامبول ونظر في زيت المصباح فرأى أنه لا
يزال كافياً للانارة مدة ساعة فاضطجع على الأرض قرب روكامبول ينتظر
انتهاء الصلاة .

ثم أخذت تلك الأصوات تضعف تباعاً إلى ان انقطعت فقال نادر هوذا

أبناء سيوا قد أخذوا يذهبون .

- الـ الصلاة قد انتهت ؟

- نعم ، وسوف تسمع الكاهن يقول اذهبوا أيها المؤمنون فان الإله سيوا راض عنكم .

وقد تم ما قاله نادر فانه بعد هنيئة سمع الكاهن يقول لهم تلك العبارة فقال لقد تفرق المصلون فہلم بنا إلى العمل .
ثم عاد الى الصعود فوق كتف روكامبول فعالج الباب بخنجره ودفعه بشدة ففتح .

- ٢٤ -

وشعر روكامبول ان رجلي نادر قد فارقتا كتفيه ورآه قد اختفى في ذلك المنفذ الذي فتحه

ولكنه لم يلبث أن ظهر له بعد حين فمد له يده وقال له : تعلق بي وأصعد إلي .

فتعلق به روكامبول وصعد فلما صار داخل المنفذ نظر إلى ما حواليه فرأى قاعة فسحة نقشت على جدرانها رسوم غريبة مختلفة .

وكانت هذه التماثيل والرسوم تشبه الرسوم التي تنقش في معابد الآلهة كالي غير أن الفرق بينهما أن رسوم الآلهة كالي تمثل الشر والفظائع والدماء وهذه تمثل الخير والرحمة والسلام .

وكان هذا المعبد الذي دخلا اليه مظلماً لا نور فيه ولكن نور الشفق كان ينفذ ضميماً اليه فرأى روكامبول في جوانب تلك القاعة الفسيحة بعض التماثيل الموضوعة على الأرض فحسبها هنوداً يصلون .

وكان في وسط هذه القاعة تمثال عظيم جداً وتحت قدميه مصباح ضعيف
النور تنبعث منه رائحة ذكية .
أما نادر فانه أقفل الباب الذي فتحه ونظر إلى روكامبول فقال : إننا
الآن وحدنا في هذا المعبد .

فمعجب روكامبول وقال : كيف وحدنا ؟ وأشار إلى التماثيل .
فابتسم نادر وقال : إنها تماثيل من الخشب والحجارة ونحن الآن في معبد
من معابد الإله سيوا وهو كائن على شاطئ الحوض الأيسر في وسط المدينة
السوداء ...

- وهذه الأصوات التي كنا نسمعها !
- إنها أصوات المصلين وقد انصرفوا بعد انتهاء صلاة الغروب .
- والكاهن ؟
- انه يقفل الأبواب الخارجية ولا بد أن يرجع .
- رأيته ؟
- كلا ولكنه سينذهل حين يرانا ..
- أيجب أن نستعمل الخنجر ؟
- لا حاجة اليه ، فإذا كان الكاهن هو الذي أعرفه فإنه سيكون في
خدمتنا .

وفيا هما على ذلك سمعا صوت خطوات بعيدة ثم رأيا الباب قد فتح ودخل
منه رجل يحمل مصباحاً .

وكان هذا الرجل مرتدياً بثوب أبيض وعلى حقويه منطقة زرقاء ، عاري
الرأس أبيض الشعر تدل هيئته على أنه تجاوز الستين من العمر .

فلم يراها حين دخل ، ولكنه حين تقدم منها وراهما ذعراً شديداً
وجد الدم في عروقه ، وجعل ينظر اليها نظرات حائرة تدل على ما داخل
فؤاده من الرعب ولاسيما وقد رأى روكامبول وهو بلباس الافرنج فأيقن أن

المعبد قد قدنس .

أما نادر فانه تقدم منه وقال له « كوريب » .

وكان هذا الاسم اسم الكاهن فلما سمع أنهم ينادونه باسمه اطمأن ورفع مصباحه ناظراً إلى من يناديه فلما عرفه ركع فجأة ومرغ وجهه بالأرض عند قدمي نادر ، فعلم روكامبول مبلغ نفوذ هذا الرجل في تلك البلاد .

أما نادر فانه أمر الكاهن ان ينهض ، فنهض ووقف أمامه وقفة الخضوع والاحترام .

فقال له نادر : أتعرف من أنا ؟

- انك السيد وأنا العبد ..

- إذا أمرتك ان تتكلم أمتثل .

- دون شك ألم أقل لك اني العبد وانك السيد ؟

- أيها العبد إنك أقفلت أبواب الهيكل

- نعم يا مولاي ..

- ولكننا مع ذلك موجودين فيه وليس للمعبد غير مدخل واحد أتعلم من

أين دخلنا ؟

فاضطرب الكاهن وقال : كلا يا مولاي ولكن الإله سيوا شديد الحول

كثير الاقتدار .

- إن الإله سيوا لا يتدخل في شؤوني ثم ضرب برجله على الأرض

فوق الباب الذي فتحه وقال : إننا دخلنا من هنا .

فاصفر وجه الكاهن وجعل يضطرب وينظر إلى الباب نظر الحائر .

فجرد نادر خنجره وقال : لقد وعدت أن تتكلم فلا بد لك من الوفاء .

- ٢٥ -

غير أن خنجر نادر لم يرغب الكاهن كوريب ، بل أنه نظر إلى نادر بشبات وقال له : ايها السيد انك عاقل حكيم ومن كانت له حكمتك فهو يأذن لإتباعه بالإيضاح .

- إذا تكلم ..

- إني بصفتي كاهناً للاله سيوا أكون عبدك لأدك رئيسنا الأعظم ، ولكن بصفتي إنساناً فإن لي علائق وعمود يقضي علي واجب الوفاء باحترامها فأنت إذا أمرت الكاهن أطاعك وأجابك إلى ما تريد ، وأما إذا أمرت الانسان ان يبوح بسر مؤتمن عليه فإن خنجرك لا يفيد في حمله على الاقرار . فلم يغضب نادر لهذه الجرأة وقال : اصغ الي ، أنت أيضاً تعلم أني لا أريد حملك على الاقرار إلا لقصد صالح : واعلم أن الرجاء عثمان كان صديق هذا الرجل الذي تراه معي .

فنظر الكاهن إلى روكامبول نظرة حذر .

وعاد نادر الى الحديث فقال : وان الرجاء عثمان اعطاه خاتمه .

فقال الكاهن : أين الخاتم ؟

فقال روكامبول لقد فقدته

فابتسم الكاهن ابتسامة تدل على عدم التصديق فقال له نادر : ان تريبورينو وزير الرجاء سرقه من هذا الرجل وكأنا اسما تريبورينو قد أثار العواصف في نفس الكاهن فقال . إن هذا ممكن فاني لا استعظم امراً من هذا الرجل الخائن ، لكنني لا أستطيع أن أبوح بشيء إلا إذا رأيت الخاتم .

فقال روكامبول : إني إذا كنت قد فقدت الخاتم فإن آثاره لا تزال مرسومة في أصبعي فانظر عليك تعرفه .

فنظر الكاهن في أصبع روكامبول فوجد ثلاث علامات حمراء نتجت من ضغط حجارة الخاتم على الأصبع فقال : ان الآثار قد تكون آثار خاتم الرجاء عثمان ولكنها قد تكون أيضاً من غيره .
فقال له نادر : إذا كنت لا تصدقنا فاني أقنعك ببرهان آخر .
— ما هو ؟

— هو اننا اكتشفنا كنز عثمان الذي كان بحراسة الشيخ حسن .
رأى نادر أن وجه الكاهن قد اصفر واضطرب فقال له : خفض من روعك فاننا اصدقاء عثمان مات واننا لا نريد إلا انقاذ ثروته من الوزير .

فقال الكاهن : إذا كنتم تعرفون مكان الكنز الذي عهد إلى عثمان حراسته مع الشيخ حسن فما تريدان أن أقول بعد ذلك وماذا تبغيان منها ؟
— اننا نريد أن تعيننا على اخراج هذه الأموال من مكانها .

فعاد الشك إلى الكاهن وقال لنادر : أعجبيني أيها الرئيس إذا سألتك أن تقسم لي يميناً ؟
— دون شك .

— ضع يدك على قماش إلهنا سيوا
وضع نادر يده فوق التمثال .
-- أقسم لي بإلهنا أن خاتم الرجاء عثمان كان في اصبع هذا الرجل الذي يصحبك .
-- اني أقسم لك بالإله سيوا أن الرجاء عثمان أعطاه خاتمه وأوصاه أن يأخذ المال .

فتمهد الكاهن تنهد الراحة كأنه أنزل عن عاتقه حملاً ثقيلاً وقال : مر الآن أيها السيد بما تشاء فاني مستعد للطاعة والامتثال
— اني أريد نقل الأموال من مكانها فان الشيخ حسن فقد صوابه ولا بد للوزير من اكتشاف الكنز .

- ان ذلك سهل ميسور فاذننا نخرج الأموال من حيث ادخلناها .
- نعم ، ولكن مق ؟
- في الليلة القادمة .
- ماذا نصنع بالباب الحديدي ، أنبقيه مفتوحاً إلى الغد ؟
- ولكن كيف تمكنتما من فتحه ؟
- قص عليه نادر عند ذلك جميع ما اتفق له ولروكامبول مع حسن وكيف احتالا عليه حق فتح الباب .
- فقال الكاهن . اني لا أعرف سر قفل الشيخ حسن ولكن إذا أقفل بابي فاني افتح بابي وكلاهما يؤديان إلى الكنز . ألم تفتح باب السرداب بزلاج حين كنت في قبو حسن ؟
- نعم .
- وأنا أستطيع رفع الزلاج من داخل السرداب وفتح الباب الثاني فلا يمنعنا اقفال باب حسن عما تريد .
- إذن تعالى معنا .
- ثم فتح نادر باب المعبد المؤدي إلى السرداب ونزل الثلاثة منه فصاروا يسترشدون بالحبل حق وصلوا إلى مكان الكنز .
- فكان البابان مفتوحين وهما باب السرداب أي باب الكاهن وباب حسن الذي يتصل اليه من قبو منزله .
- فقال الكاهن : ادخلا الآن إلى قبو الكنز واقفلا الباب وانا أبقى خارجاً في السرداب وسترى كيف أفتح الباب .
- فدخل نادر وروكامبول واقفلا الباب ووضعوا الزلاج مكانه ووقفوا ينتظران أما الكاهن فانه جعل يبهـث في الظلام من الخارج عن باب خفي فلما عثر به أدارد فارفع الزلاج وفتح الباب فدخل الكاهن وقال لنادر : أرايت كيف اني فتحتة ؟

قال نادر : لم يبق علينا خوف من إقفال باب الشيخ حسن فتعال معنا الآن .
وكان حسن لا يزال صريع الأفيون فأخرجوه من القبو وأقفلوا باب الكنز
وأعادوا حجر القفل إلى ما كان عليه ثم صعدوا بحسن إلى منزله .

فقال روكامبول : ماذا نصنع بحسن فانه مجنون ولا نأمن فلتات لسانه ؟
فقال نادر : إننا سنرسله إلى محل أمين .

-- ولكنه نائم .

— لا بأس فسنرسله في مركبة مقفلة .

ثم أمر الكاهن أن يذهب ويأتيه بمركبة مقفلة فامتثل وعاد بها بعد
حين وجيز .

- ٢٦ -

ولما جاءت المركبة حملوا حسن اليها وصعد الكاهن بعده فقال روكامبول
لنادر : أين نذهب الآن ؟

— يجب أولاً أن نحكم إقفال المنزل ثم تسير معي إلى منزلي .
— ألك منزل في كلكتوتا ؟

— نعم وستكون فيه بمأمن من خيانة تريبورينو .

ثم دنا نادر من الكاهن وكلمه بلغتهم المقدسة السرية كلمات لم يفهما
روكامبول وأشار له إشارة فانطلقت المركبة .

فقال له روكامبول : إلى أين أرسلت الشيخ ؟

— إلى المعبد الذي كنا فيه فإن الانكليز أنفسهم لا يدخلون معابدنا ، ومهما
بلغت جسارة تريبورينو فهو لا يستطيع التفتيش عن الخياط فيه .

ثم أقفل نادر المنزل ونادى تلك الفتاة التي كانت لا تزال مقيمة عند عتبة

الباب المجاور فقال لها . إذا سألت أحد عن هذا الشيخ فقلولي له ان أهله ذهبوا به إلى منزلهم لمعالجته .

وهذا هو مفتاح المنزل فابقه عندك إذ قد يتفق أن يعود الجنود للبحث في هذا المنزل لاعتقادهم ان الشيخ حسن خبأ فيه كنزها فاذا عادوا فاعطهم المفتاح وليبحثوا قدر ما يشاؤون إذ لا يوجد شيء مما يتوهمون .

ثم تركها وانصرف مع روكامبول إلى المدينة البيضاء .
ولكنها قبل أن يمتدوا المدينة السوداء مرا بخماره ووقفوا عند بابها فرأى روكامبول دليلاً جديداً على مبلغ نفوذ نادر ، ذلك أن صاحب الخمار أسرع إليه حين رآه وركع أمامه مقبلاً الأرض

فأمره أن يقف ثم دخل مع روكامبول إلى أحد غرف الخمار المعتزلة وخلع ملابسه الهندية ولبس ملابس الافرننج ثم نظر إلى روكامبول وقال له وهو يبتسم : العلك منذهل مما تراه؟
- لا أنكر عليك فانك قد تغيرت كل التغيير بهذه الملابس حق لا يشك من يراك انك من الأوروبيين .

- اني كنت أقيم في لندرا وباريس بهذا الزي .
- كيف ذلك ، أسكنت في باريس ؟

- نعم وكنت مقياً فيها في فندق موريس ، واتمشى في القهوة الانكليزية حتى انه كان لي فيها حكايات غرام فقد عشقتني امرأة تدعى روميا .
فصاح روكامبول صيحة اندهال فقال له نادر : ما سبب اندهالك العلك
عرفت هذه المرأة ؟

- لا أعلم ، اليس لها اسم آخر ؟

- نعم فانها تلقب بالبستانيّة الحسنة واني أرى من توالي اندهالك انك تعرفها ..

- أعرف عنها أنها من أجمل النساء ، ولكن ليست الحية السوداء التي تسمى

في غابات هندكم بأشد خطراً منها ..
 - هو ما تقول فاني أعلم من هذه المرأة فوق ما تعلم ولكنها لا تخاف في
 الوجود غير رجل واحد .
 - ومن هو هذا الرجل ؟
 - هو أنا ، وسأقص عليك جميع ذلك حين نصل إلى المنزل .
 ثم عاد إلى ملابسه حتى أتم تنكره على ما يريد .
 أن في الهند جنسين من الناس أحدهما الهندي البحت الذي لم تتزج دماؤه
 بدماء الافرنج ، وهذا الجنس يشبه لون بشرته لون النحاس .
 والجنس الآخر هو الجنس الذي تزوجت أجداده بنساء الانكليز فجاء
 أحفادهم بيض الوجوه .
 أما نادر فقد كان من هذا الجنس الأخير المختلط ، فلما لبس الملابس
 الأوروبية أصبح كأنه من الانكليز أنفسهم .
 ولما أتم تنكره قال : هلم بنا الآن .
 وخرج الاثنان من التجارة وذهبا إلى المدينة البيضاء ، وكانت تتألق في
 شوارعها المصابيح .
 حتى إذا وصلا إلى آخر شارع الحكومة ، وهو أعظم شوارع كلكتوا ،
 وقف نادر عند باب حديقة متسعة فأخذ مفتاحاً من جيبه وفتح الباب فأسرع
 خادمان من الهنود إلى استقباله
 وقد عرف روكامبول من طريقة استقبالها لمولاهما أنها يعدانه من أشرف
 الانكليز ولا يعلمان أنه زعيم أبناء سيوا
 فأخذ الهنديان مصباحين وسارا في تلك الحديقة أمام نادر وروكامبول
 حتى بلغا الى البيت فدخل نادر بصديقه إلى قاعة متسعة مفروشة على النسق
 الانكليزي ، فجلسا قرب مائدة وقال له : لنشرب الآن الشاي ثم أخبرك
 بقصتي مع البستانية الحسنة .

وعند ذلك أمر أحد الخدم باللغة الانكليزية أن يحضر الشاي فلما أحضره
بدأ نادر يقص الحكاية قائلاً :

- ٢٧ -

إن الهند مثل جميع البلاد التي يجتاحها الفاتحون ويتعاقب عليها الغزاة
وتتوالى فيها الغارات الأجنبية ، فإن تتابع هذه الغزوات تكثر فيها الأحزاب
السياسية والعقائد الدينية .

وهي مختلفة المنازع فانك تجد بين أحزابها من يؤيد السيطرة الانكليزية
وبينهم من يحاول طرد الانكليز ، وهنا فريق يدافعون عن استقلالهم ولا
يخضعون إلا لزعماء يختارونهم من بينهم ، وهناك جماعات لا تخضع إلا لامراء
الهند ، إذ يجدون أحكامهم أخف وطأة من أحكام الانكليز ، إلى غير ذلك من
الأحزاب المتنوعة والمنازع المتفرقة .

ولذلك تجد في الشارع الواحد من شوارع كلكتوتا عابد الآلهة كالي وعابد
الإله سيموا والبوذي بجانب البراهمي والمسلم إزاء المسيحي .

ومن أجل ذلك أيضاً حجببت السياسة ببراقع الدين فانك قد تجد كاهناً من
عباد سيموا وهو لا يعتقد بسيموا وتجد زعيماً للحنافيين لا يؤمن بالآلهة كالي لأنهم
إنما يستخدمون هذه الأديان لبلوغ مآربهم السياسية .
على ان أشد هذه الطوائف الدينية واعظمتها سلطة ونفوذاً طائفة الحنفايين
وطائفي .

وقد رأيت علي رجاء لأنك أنت الذي سلمته للانكليز فعرفته هندية
ظريفاً ، وعرفت في لندرا السير جس نافي ، والسير جورج ستوي ، فوثقت
أن بين الحنفايين رجلاً من الذين يشار اليهم بالبنان في المجتمعات العالمية

والنوادي الشريفة .

فقاطع روكامبول نادر قائلاً : من أين علمت اني عرفت السير جيمس ،
والسير جورج ستوي ؟

فابتسم نادر واجاب : لأني أتيت إلى لندرا بعد ان برحتها بثلاثة أيام ،
وذلك منذ عامين وعلمت هناك ان جماعة ادعوا انهم من أبناء سيوا القوا الرعب
في قلوب الخناقين .

وكننت أتيت إلى لندرا لمقاومتهم فيها ورأيت أنهم قد غابوا وتضعض شملهم
وأردت أن أعلم من هو هذا الغالب الجري .

ان الانكليز والفرنسيين مهما بلغ بوليسهم من الذكاء والتفنن في
استطلاع الخفايا ، فانهم لا يذكرون بازاء الهندي ، ولذلك فاني لم أقم
في لندرا ثلاثة أيام حتى عرفت كل شيء بمساعدة هنديين قدما معي
من الهند .

فانذهل روكامبول قائلاً : كيف عرفت كل شيء ؟

--- نعم عرفت كل شيء حتى اسمك ، فانك فرنسي ، وقد انتحلت اسماً
روسياً وهو الماحور أفاتار ، اليس كذلك ؟

- نعم ..

- ولكن اسمك الحقيقي روكامبول ؟

فاضطرب واجابه : أتعرف هذا أيضاً ؟

--- بل أعرف أنك كنت من المجرمين ومن شر رجال الاثم والموبقات ،
ولكنك تبت إلى الله توبة صادقة وأصبحت من أهل الخير والصلاح فدفعت
كثيراً من الآثام بفضل ذكائك وبسالتهك .

فالحني روكامبول شاكرراً لهذا الثناء .

وعاد نادر الى حديثه فقال : اني عرفت في لندرا جميع ما فعلته وعرفت

كيف أنك أخذت معك إلى باريس السير جورج ستوي زعيم الخناقين السابق في اوربا وكيف ان امرأة مخلصه لك جذبت بحاسنها ودهائها السير جوس خليفة جورج ستوي في الزعامة .

إنك دمرت سلطة تلك الجمعية الهائلة وقضى أسرك ليعلي رجاء على كل سلطتها في اوربا ، لكنها عادت الى تنظيم شؤونها وستعود إلى ما كانت عليه من الشرور الهائلة والآثام الفظيعة .

- وبعد لندرا الملك تبعني إلى باريس ؟

- لم أتبعك على الفور

- لماذا ؟

- لأنني كنت في حاجة إلى تنظيم جمعيتنا فانه يوجد لنا أعداء الداء في نفس عاصمة الانكليز .

- ولكنك بعد ذلك اجتزت المضيق واتيت باريس .

- نعم فقد جئتها بعد شهر من سفرك بعلي رجاء إلى الهند .

- وكما اقيمت فيها ؟

- ستة أشهر .

- وفي هذه المدة عرفت البستانية . الحسنة ؟

- نعم فاصغ الي الآن ..

وعند ذلك قرع باب القاعة التي كنا فيها ودخل خدام فسأله نادر :

ماذا تريد ؟

- ان على الباب يا سيدي رجلاً هندياً أبيض الشعر يريد أن يراك .

- قل له يحضر في الغد ..

- أنه يلح في مقابلتك وقد طلب مني أن أذكر لك اسمه .

- ماذا يدعى ؟

- كوريب ..

فارتعش نادر عند ذكر اسم الكاهن ، وطلب من الخادم ادخاله .
وبعد حين دخل الكاهن كوريب وعلى وجهه ملامح الاضطراب الشديد
فأطلق نادر سراح الخادم وسأل الكاهن : ماذا دهاك ولماذا هذا الاضطراب ؟

— اني فقدت شارقي .

— أية شارة ؟

— الشارة التي أعلقها في عنقي .

فقطب نادر حاجبيه وقال لروكامبول باللغة الفرنسية : ان الشارة التي
يتكلم عنها هي قطعة من النحاس يعلقها في عنقه بشريطة من الحرير وهي
العلامة التي يعرف بها أنه كاهن ، فإذا اجتمع أبناء سيوا للصلاة في المعبد فلا
بد له من اظهار هذه الشارة وإلا قتلوه .

— كيف ذلك ؟

— ذلك لأننا لا نستطيع استعباد هؤلاء الناس إلا بمثل هذه الأوامر
والخرافات ولذلك فلا بد من إيجاد الشارة المفقودة .

ثم التفت الى الكاهن وسأله : اين فقدت الشارة ؟

— في بيت الخياط ..

— إذا لذهب الى البيت وابحث عنها فيه وخذ مفتاحه من الفتاة المقيمة
في البيت المجاور .

فانصرف الكاهن والرعب ملء فؤاده ، وعاد نادر الى تنمة حديشه مع
روكامبول ..

- ٢٨ -

أقمت في باريس أدرس أخلاق قومها وعاداتهم ، لأنني لم أكن أتيتها من قبل فكنت أتنقل بين قهاويها ونواديا وملاعبها وحدائقها العمومية وكل مكان يجتمع فيه الناس .

وقد ذهبت ليلة الى الأوبرا فرأيت في أحد ألواحها لمرأة لم تقع العيون على أبدع منها .

فجملت أنظر اليها نظر المعجب بهذا الجمال النادر ، وقد ملكت شفا في وخلصت فؤادي بحاسنها الفتانة .

وبينما كنت أنظر اليها رأيت أنها تنظر إلي نظرات لا تختلف عن نظراتي ، كأنها كانت تستحسن مني ما استحسننت منها .

ولقد كان يقال لي ان لنظراتي سلطة سرية ، تجذب اليها أقسى النفوس .

فما تحققت هذا الكلام إلا في تلك الليلة ، لأن هذه المرأة كانت تضطرب حين أنظر اليها لإضطراب الحمامة إذ رأت بازياً ينقض عليها ، حتى خيل لي أنني إذا أشرت اليها إشارة بيدي تركت لوجها وأسرعت إلي وهي تقول : مر أطلع .

ولما انتهى التمثيل ، خرجت وصدري يلتهب غراماً ، فقلت في نفسي : إن النساء الأوروبيات لا ذمام لهن ، فلاسلو هذه المرأة بشرب الحشيش .

ثم ذهبت الى فندق موريس الذي كنت مقيماً فيه متنكراً باسم أرثر كولدرى ، وهو الاسم الذي أدعى به هنا أيضاً حيث أقيم في المدينة البيضاء ، فإن جميع قومها يحسبونني من أعيان الانكليز ولا يخطر لأحد في بال انني نادر رئيس أبناء سيوا الأكبر .

ولما وصلت الى الفندق دخلت الى غرفتي فلم أستطع الرقاد ففتحت النافذة وجعلت أنزه طرفي في الحديقة .

ومرت بي الساعات حتى أشرق الصباح ، وأنا واقف قرب النافذة ، أتأمل محاسن هذه الحسناء ، فما شككت أن حبها قد جرى مجرى دمي في مفاصلي .

وفيا أنا على ذلك وقد أشرقت الشمس وملأت بأشعتها الفضاء إذ طرق باب غرفتي ودخل إلي الخادم برسالة ولم أكن أعرف أحداً في باريس لأنني لم أكن فيها إلا منذ ثلاثة أيام ، فعجبت لهذه الرسالة وأسرعت إلى قضاها ، فقرأت فيها باللغة الإنكليزية ما يأتي .

« إذا كانت المرأة التي كانت أمس في الأوبرا قد أثرت بعض التأثير على السير أرثر كولدري ، وإذا كان السير أرثر كولدري شجاع القلب عزيز النفس كتوم اللسان فليحضر في الساعة العاشرة من مساء اليوم وراء الكنيسة الكائنة في الشارع الكبير وهي كنيسة مدلين .

« وهناك يجد امرأة غير المرأة التي رأها في الأوبرا ، ولكنها هي التي أرسلتها فليتبهما . »

ولم يكن للرسالة توقيع فكدت أطيح من الفرع ، وجعلت أعد دقائق النهار وساعاته بفارغ الصبر حتى حسبتها كالأدهار .

ثم انقضى النهار وأقبل الليل وأتت ساعة الاجتماع فأمرعت الى المكان المعين قرأت امرأة مبرقة الوجه دنت مني حين رأني فقالت لي باللغة الانكليزية: أنت السير أرثر ؟

فأجبتها بصوت يتهدج : نعم أنا هو .

— أترضى ان تتبني ؟

— إلى آخر الأرض .

فأخذت بيدي وسارت بي الى عطفة في الشارع .
وكانت هناك مركبة فأصعدتني اليها ثم صعدت بعدي ، فجلست بجانبني
وأرخت ستائر المركبة وقالت لي . عليك شرط لا أستطيع ان أسير بك إلا
إذا وافقتني عليه .
- ما هو ؟
- لا بد لي من عصب عينيك .
- لماذا ؟
- كي لا ترى فلا تعلم المكان الذي أذهب بك اليه .
- أعصبي عيني كما تشائين إني مستعد لكل شيء
فعصبت عيني ، وأمرت السائق بالمسير .
فسارت بنا المركبة نحو ساعة .
وكنت حديث العهد بباريس وشوارعها فلم أعلم أين أنا .
وما زلنا نسير حتى شعرت من صوت المركبة انها دخلت تحت قبة ، ثم
شعرت انها وقفت .
فقالت لي المرأة : لقد وصلنا هات يدك .
- إذا كنا قد وصلنا فلماذا لا ترفعين العصاية عن عيني ؟
- لم يحن الوقت بعد ، أخرج الآن من المركبة .
فنزلت وقادتني بيدي الى حيث لا أعلم
ولكنني كنت أشعر اني أمشي فوق الرمل ، ثم تلا هذا الرمل سلم فاجتزأناها
وشعرت ان الهواء قد خفت رطوبته . ثم شعرت اني أمشي فوق طنافس
مفروشة في الأرض ، وبعد فتح باب ودخلنا منه فرأيت من خلال العصاية
نوراً فأفذاً .
وعند ذلك قالت لي المرأة : إرفع العصاية الآن عن عينيك .

وتركت يدها من يدي فسمعت خطواتها تبتمد عني .
وأستطرد نادر حديثه فقال :

- ٢٩ -

فتحت عيني فوجدت نفسي في غرفة نسائية ، تدعوها أنتم معاشر الإفرنج ،
غرفة الزينة .

وكانت رائحة الطيب تفوح من الغرفة ، وقد فرشت أرضها بأفخر أنواع
الطنافس وهي مزدانة بأجل الرياش وأدق المصنوعات ، مما يدل على الثروة
وحسن الاختيار .

ولما فتح الباب وخرجت منه المرأة أقفل حالاً ، ورأيت نفسي وحدي
في الغرفة .

ولكن قلبي كان يحدثني بأن إلهة هذا المنزل تدنو من الغرفة التي أنا
فيها وقد صدق حديث قلبي . فما مرت بضع ثوان حتى رأيت سجعاً كان
يستر باباً قد أزيح ، وبرزت منه تلك الفاتنة التي شغلت قلبي يجالها وبت بها
من المغرمين .

وقد دخلت وهي تمهّدي دلالاً وتبتسم ابتساماً يفتن النساء فمدت يدها
إلي وقالت لي باللغة الإنكليزية الحق يا سيدي إنك رجل شريف ، فقد رضيت
بجميع شروطي .

فوقفت أتأمل تلك المحاسن الجاذبة ، وقد شغلت عن رد سلامها . فكان
شغلي عنها بها .

أما هي فإنها جلست على مقعد شرقي وأجلستني بجانبها ، ثم نظرت إلي
وقالت : أسألك العفو يا سيدي لقد جرت عليك بمصعب عينيك على فرط ثققي

باخلاصك ووفائك ، غير اني فعلت ذلك مكرهه مضطربة فإني معرضة نفسي
بجربك لخطر الموت .

- كيف ذلك ؟

- نعم إن زوجي غيور وإذا علم بأمرى لا أنجو من الموت .

- هذا شأن أغلب الأزواج يا سيدتي هل تريدن ان أقتله ؟

- لقد راق لي كلامك ، وهو يدل على ما توسمته فيك من البسالة .

ثم ابتسمت وقالت : كلا ، لا أريد ان يسوت هذا الزوج ، ويكفيه
ما هو فيه .

وكانت في تلك الغرفة التي تقيم فيها آنيتان غرست فيها أزهار علمت من
عطرها أنها أزهار هندية وقلت في نفسي : لا شك أنها عرفت من أنا فاخترت
تلك الأزهار إرضاء لي ، وهي غاية ما تلتناهي اليه سلامة الذوق .

غير ان رائحة الأزهار كانت شديدة حتى إني كنت أشعر أنها تفعل بي ما
تفعل الخمر في رؤوس الشاربين .

وكانت جالسة يجانبي ووضعت يديها بين يدي وجعلت تبتسم لي ابتساماً
حلواً وتقول . إني ما رأيته غير ساعة أمس في الأوبرا ، ولكن قلبي تحت
مطلق سلطانك .

فأجبتها بما أملاه علي الغرام من عبارات الحب الصادق .

وفيا أنا أناجيها وأغارها قاطعتني فجأة وقالت : اني غريبة الأطوار كثيرة
التقلب ولكني قد أحبك حباً طويلاً فهل تحبني أنت ؟

إني أحبك حباً لا تصفه أقلام الشعراء .

- أثبتت في حبي ؟

- ما بقي لي ذرة من الحياة .

فأطرقت هنيهة إطراق المفكر ثم قالت : لقد طالما سمعت مثل هذا الكلام
ثم أسفرت الأيام عن ضده . ولكن يقال أنكم معشر الانكليز موصوفون

بالثبات وسنرى .
 وأقمت معها ساعتين وأنا أسكر سكرين من الحافظها وأزهارها .
 ثم تغلبت رائحة الأزهار علي ، وغت نوم السكران ، وأنا لا أعني
 على شيء
 غير أنه خيل لي حين أطبقت عيني اني رأيت باباً قد فتح وبرز منه رجل
 أصفر الوجه نحيل يشبه الخيال ، فوقف على عتبة الباب ونظر إلي نظرات تشف
 عن الرعب والغضب .
 ولم أعد أفقه شيئاً بعد ذلك ، إذ أطبقت عينايا ، واستغرقت في سبات
 عميق .
 ولما فتحت عينايا شعرت بهواء بارد يهب على وجهي ، ويرتجف له
 كل جسمي .
 ذلك اني وجدت نفسي قائماً على مقعد من مقاعد المنزهات العمومية في باريس
 لا يظلمني غير السماء .
 وكان ذلك عند بزوغ الفجر فانتبهت منذعراً مضطرباً ولكن لم يطل
 بي الأمر حتى جمعت حواسي وذكررت حوادث ليلتي .
 وكانت يدي موضوعة في جيبي كأنها وضعت خاصة وشعرت بأنها تلمس
 ورقة وأخرجت الورقة فاذا هي رسالة ففتحتها وقرأت ما يأتي :
 « أخيرك بين أمرين وهما إما ان نفترق فراق الأبد فلا ترائي بعد الآن او
 تقبل بشروطي .
 « أنظر في خبايا قلبك واستشر فؤادك ، علمك تجد من غرامه ما يدعوك
 الى الامتنال .
 « واعلم انك إذا رضيت ان تكون عبداً لي أكون أمة لك .
 « وشروطي هي ان لا تبحث كي تعرف من انا وأن تذكر اسمي أمام احد
 من الناس .

« ومن شروطي انك مهما رأيت من الغرائب في منزلي ، لا تحاول اكتشاف أسرارها وتنتظر اليها نظرك الى الأمور العادية المألوفة .

« هذه هي شروطي ، وإذا راق لك الخضوع لها إحضر في الساعة العاشرة من مساء اليوم الى نفس المكان الذي أتيت اليه أمس تجد تلك المرأة نفسها تنتظرك في مركبتها وتحملك إلي .
« إذا الوداع او الى اللقاء ، ولك الخيار » .

« روميا »

فقلت في نفسي حين قرأت الكتاب : اني ذاهب دون شك لان مجال هذه المرأة لا يزال ضاعطاً علي وفوق ذلك فقد ذكرت ذلك الباب الذي فتح وذلك الخيال الذي ظهر منه ونظر إلي تلك النظرات ، فهاج مني حب الاستطلاع وقلت : لا بد لي من الذهاب

- ٣٠ -

وفي المساء ذهبت الى الملتقى ، فرأيت المرأة نفسها في المركبة ، فعصبت عيني كما فعلت في الليلة السابقة ، وسارت بنا المركبة في الطريق التي سارت فيها ليلة أمس .

وجعلت أفكر والمركبة سائرة بنا في أمر هذه المرأة فقلت في نفسي : إنها تريد ان تحبني بشرط أن لا أحاول الوقوف على أسرارها وهو شرط عادل لأن لكل إنسان حقاً بصيانة أسرارها ، ولماذا لا أطيعها ؟

وكنت وأنا أفكر هذا التفكير مخلصاً لها عازماً عزمياً أكيداً على الوفاء بوعدتي وان لا أتعرض لشيء من أسرارها
ثم وقفت المركبة ، وأخذت المرأة المبرقعة بيدي ، وأدخلتني الى ذلك

المنزل السري .

وقد حدث كل شيء كما حدث في الليلة السابقة فاني دخلت الى الغرفة ورأيت النور من خلال العصابة وأمرت بنزع العصابة عن عيني فلما نزعتها وجدت نفسي منفرداً في نفس الغرفة التي كنت فيها امس .

وقد وجدت الآنيتين في موضعها ودنوت منها وجعلت أفحص الأزهار فحس الحبير وعلمت ان كل نوع منها خاص للنوم .

وكننت أعرف هذه الأزهار من بلادنا وعلمت ان رائحتها إذا دخلت الى الرثتين لا يستطيع من يشمها مقاومة النوم مهما بذل من الجهد .

غير اني علمت ان لهذه الأزهار دواء خاصاً ، إذا شربه من يشمها أبطل تأثيرها .

ولكن ان لي ان استحضّر الدواء وأنا في الغرفة شبه سجين فقلت لا بد من الصبر الى الغد لاكتشاف تلك الأسرار .

وأقمت في الغرفة وحدي عشر دقائق ثم أقبلت روميا فتمثلت لعيني أجمل مما رأيتهامس وكان لي معها ما كان في تلك الليلة لأن الدوار جعل يتولاني شيئاً فشيئاً من رائحة الأزهار وطرت من عالم الحقائق الى عالم الأحلام ورأيت ذلك الخيال الذي برز لي أمس

غير اني في هذه المرة سمعت الخيال يتكلم ولا أدري إذا كان ذلك لأن الأزهار لم تؤثر تأثيرها امس ، او ان الخيال جاء حقيقة ، او إذا كان ذلك مما مثلته لي سكرة الأزهار .

أما ما سمعته فهو ان الخيال دنا من روميا وقال لها بصوت يتهدج : إن قلبك لا يعرف الرحمة والإشفاق .

فكان جواب البستانيانة الحسناء انها ضحككت ضحك الهازيء

اما الخيال فقد سمعت وأنا مطمئع العينين انه ركب امامها وقال لها : لكنك تعلمين اني احبك .

ولم تجبه بل انها ضحكت ضحكاً عالياً .
ولم يكن قد بقي لي من حواسي غير حاسة السمع ، فسمعت الخيال
يقول : ألا يكفيك انك تصدين غرامي ، فما بالك تقطعين قلبي بالغيرة
وتعطفين على هذا الرجل امامي ؟ إنك لست من النساء ، بل انت حيوان
مفترس .

وعادت روميا الى الضحك دون ان تجيب

اما انا فإني بذلت كل ما في وسعي من الجهد ، كي أفتح عيني ،
فذهب جهدي عبثاً وبدأ الطنين في اذني ، فلم اعد اسمع غير اصوات
متقطعة من الخيال تدل على يأسه ، واصوات ضحك المرأة وهزئها بهذا
الرجل المنكود .

ثم تغلب علي النوم فلما استيقظت وجدت نفسي على مقعد خشبي في حديقة
الشانزليزيه ورأيت في جيبى رسالة موجزة كتب فيها ما يأتي :
« الى اللقاء في هذا المساء في نفس الساعة والمكان . احبك » .

« روميا »

وعدت الى الفندق وقلت في نفسي سأعرف هذه الليلة كل شيء .

ولقد تقدم لي الكلام اني عرفت سر تلك الأزهار واني اعرف الدواء الذي
يبطل تأثيرها .

فاستحضرت هذا الدواء ، وعزمت على الذهاب الى تلك الحسنة لوثوقي
من كشف اسرارها .

ولما حانت الساعة المعينة ذهبت الى ما وراء كنيسة مدلين وركبت المركبة
مع المرأة المبرقة التي كانت تلتظرنني وذهبت معها الى روميا .
وهناك رفعت العصا فلم اجد احداً ووقفت عند الأزهار اراقمها .

وقد لقيت في الانيتين أزهاراً هندية ، ولكنها كانت غير الأزهار التي
عرفتها امس ، واستحضرت الدواء الخاص لإبطال تأثيرها . فأيقنت ان لا

فائدة من هذا الدواء ، وان هذه المرأة الهائلة قد رأيتني امس اراقب ازهارها فتوقعت ما فعلته واستبدلتها بسواها .

- ٣١ -

ولم يعد يخطر الدواء ببالي ، ولم اكن اريد استعمال العنف معها حذراً من العواقب ، لأنني ما اتيت باريس لمثل هذه الشؤون

ثم خطرت لي ان هذه المرأة مطلق الحق بكتمان اسرارها ، لا سيما وانها اشترطت علي ان لا أتعرض لها ، ورضيت بشروطها فإذا حنثت بعهودي أكون من الخائنين .

غير ان هذا الخيال الغريب ومظاهر يأسه وسائر أحواله قد أثرت علي تأثيراً شديداً وهاجت بي عواطف الفضول فتغلبت علي عهودي .

وكنيت واثقاً ان الزهور الجديدة التي وضعتها روميا في الآيتين ستؤثر بي نفس تأثير الزهور السابقة ، وانه لا سبيل إلى انتقاء تأثيرها ولا بد لي من النوم كما نمت من قبل .

فتأملت هنيئة ووضعت خطة للاستطلاع رأيها ميسورة وذلك اني رأيت وراء الانيتين ستائر من الحرير ووراء الستائر نافذة من زجاج .

فأزحت الستائر وقطعت الزجاج بخاتم من الماس ووضعت القطعة التي كسرتها على الأرض برشاقة واعتناء فنفذ الهواء إلى الغرفة ، والهواء الطلق خير واق من تلك الأزهار .

ثم أعدت الستائر إلى ما كانت عليه إخفاء للثقب وعدت إلى مكاني أنتظر عودة تلك الحسنة .

وبعد حين فتح الباب ودخلت ولكنها لم تكن تبسم حسب عاداتها بل كنت

أرى النار تتوقد في عينيها
ومع ذلك فإنها جلست بقربي وقالت لي بهرود : إنك يا سير ارثر كولدرى
رجل سافل دنىء

فوقفت عنده هذه الأهانة ، كأنني قد تكهربت وقلت : سيدتي ! ماذا
تقولين ؟

— أقول إنك رجل سافل ، لأنك نكثت بعهودك ولم تف بما تقيدت به
من العهود .

فجعلت أنظر إليها نظرات الذهول دون ان اجيب .

أما هي فإنها استأنفت الحديث وقالت لي بلمجة ذكرتني هزئها بالخيال :
إنك اردت ان تعرف ما منعك عنه من أسراري .

— نعم ..

— ولذلك كسرت زجاج النافذة كي يدخل الهواء الطلق الى الغرفة فيمنع
تأثير الأرهاق ولا تنام بحيث تستطيع ان ترى الخيال ، اليس كذلك ؟

ثم ضحكت ضحكاً مقتصباً دل على مبلغ انفعالها وقالت : نعم انك سوف
تنظر ما تريد ان تنظر ولكنك لا تنظر شيئاً بعده .

فقلت في نفسي : إن هذه المرأة تؤبني أشد تأنيب ولكن لا سبيل إلى
اعتراضها فإنها مصيبة وإنما الذنب علي لنكثي عهودي .

وعادت روميا الى الحديث فقالت : إنك تريد ان تعرف يا سير أرثر هذا
الرجل الذي أعذبه وأصلبه فار حقيقي وانتقامي . إذأ ، أعلم ان هذا الرجل
يحبني وانه قتل من أجل حبه لي الرجل الذي كنت أهواه . العلك راض الان
عن هذا الإقرار ؟

فخرجت لفضولي وعلمت إسماتي الى هذه المرأة فقلت لها : أسألك العفو
يا سيدتي فلا أعود الى الفضول بعد الان .

فقاطعتني وهي تضعك ضحك الساخر وقالت : إنك تكلمني عن المستقبل

كان المستقبل لك ولكن هيهات لقد فات الأوان
ثم قرعت جرساً كان أمامها وقالت لي وأنا أنظر اليها مبهوتاً. إنني لا احب
يا حضرة السير ارثر ان تفشي أسرارني ولذلك حكمت عليك بالموت .

ولم تكذب تم كلامها حتى فتح الباب ودخل منه رجلان وانقضا علي .
وإنني أعهد بنفسني قادراً على مقاومة إثنين غير ان هجومهما علي كان فجأة
دون انتظار فلم أتمكن من الدفاع .
والقياني على الأرض قبل ان أراهما .

وعند ذلك قالت لهما روميا بلاء البرود : تعلمان إنني لا احب الدماء ،
أخضعه خنقاً .

فأخذ احد الرجلين العصا التي عصبت بها المرأة عيني في الطريق ، ولفها
على عنقي .

ولكنه قبل ان يضغط على عنقي التفت عيني بعينيه ، وصاح كلانا
صيحة واحدة .

فقلت : هذا أنت يا ناجلي ؟

– من أرى ، أأنت الرئيس ؟

ثم نهض عني لفوره وقال لرفيقه : قم عنه ، هذا هو الرئيس .

فنهض الرجل منذعراً وجعل الاثنان يفسكان قيودي .

اما روميا فإنها بهتت ونظرت الى الرجلين وقد وقفا امامي وقفة الاحترام
فاضطربت وقالت : ويحكما ايها الشقيان ماذا تفعلان ؟

فقال لها ناجلي : إنه الرئيس !

ثم نظر إلي وقال : اريد ان أقتل هذه المرأة ؟

فاتقدت عينايا عند ذلك ولم أعد ذلك الشريف الإنكليزي الخامل ، بل
صرت الرئيس الهائل. فتفدنت نظراتي النارية كالسهام الى الهندي وروميا وطأطأ
كلامها الرأس يسألان العفو .

- وهنا اختلف مقامنا وصارت العبدة وصرت السيد .
- أما ناجلي فانه بعد أن التمس مني العفو جرد خنجره وركع أمامي فقال .
- أيجب أن أقتل هذه المرأة ؟
- كلا ، إذهب الآن وإذا احتجت اليك ناديتك .
- وخرج ناجلي مع رفيقه وبقيت مختلياً مع روميا .
- وكانت روميا تضطرب لنظراتي اضطراب الحمامة لنظرات الباري وتتوقع صدور حكمي . ولعلها أول مرة في حياتي لقيت مثل هذا الخوف .
- فوضعت يدي على كتفها وقلت لها : من حسبت أني أكون ؟
- فنظرت إلي مضطربة وقالت بصوت يتهدج ، لا أعلم من أنت ولكني ما خضعت لنظرات رجل في حياتي كما أخضع الآن لنظراتك السحرية .
- فابتسمت وقلت : كيف استخدمت هذين الرجلين ؟
- جئت بهما من الهند .
- الملك ذهب إلى الهند ؟
- نعم ...
- متى ؟
- منذ خمسة أعوام ..
- ما كان غرضك من الذهاب اليها ؟
- معرفة طبائع الزهور السامة ودرس السموم على اختلافها .
- ولماذا التعذيب لهذا الرجل الذي لقيته عندك في الليلة الماضية ؟
- نعم ؟ ليس لي على سؤالك من جواب ..
- إذن تكلمي فاني أريد أن أعرف كل شيء ..

وكانت واقفة أمامي مطرقة الرأس يدل إصفرار وجهها على ما لقيته من الخوف .

ثم ظهر انها قد تغلبت على خوفها ، فانها تجاسرت على النظر إلي وقالت :
من أنت أيها الرجل الذي يركع أمامك رجلان كنت أحسب أنهما يؤثران الموت على عصياني ؟

— لست انكليزيا بل أنا هندي واسمي نادر .
ورأيت أن اسمي لم يؤثر عليها فقلت لها سيلي عني ناجلي يخبرك من أنا !
ثم ذهبت إلى النافذة التي كسرت زجاجها ففتحتها وجمعت أستنشق الهواء الطلق .

وكانت النافذة تشرف على حديقة فقلت : أين أنا ؟
— أنت في منزلك ..

وكانت نبرات صوتها حين قالت هذا القول تدل على الاخلاص الأكيد ،
والحب الصادق ولعلها قدرت نفوذي وسلطاني عليها .
فتولدت في نفسها عواطف الخضوع والحب والاحترام لي ، وهي عواطف قد تنطبع في نفس المغلوب إزاء الغالب .

أما أنا فقلت لها يحفاء : اني أريد الخروج من هنا .
فنظرت إلي نظرة كشفت لي خبايا نفسها وقالت : كن من تشاء من الناس
ومر بما تشاء فامتثل ، فاني غدوت أمة لك .
— انك أردت لي الموت فلا أحبك بعد الآن .

— ولكن إخلاصي سيدفع يجريقي وسأتبعك إلى حيث تريد كما يتبع
الكلب الأمين مولاه .

فقلت لها بلمحة الأمر : كلا بل أريد أن أخرج من هنا .
فتنهدت تنهداً طويلاً ورأيت الدمع يتساقط من عينيها ولكنني تركتها
ومشيت إلى الباب وباديت ناجلي

وأصرع إلى تلبيقي فقلت له : مر بي إلى خارج البيت .
والتفت قبل ذهابي فرأيت روميا جاثية وهي تنظر الي ، ولكني لم أحفل
بها وخرجت من البيت يتقدمني ناجلي .

ولما وصلنا إلى الشارع قلت له عد إلى البيت وابق في خدمة هذه المرأة
- إذا ألا تريد أن أقتلها ؟

- كلا وانصرفت .

وكان البيت الذي أدخلت اليه معصوب العينين كائناً في الشانزليزه كما
رأيت عند خروجي منه .

وعرفت الطريق وعدت توأ إلى فندق موريس الذي كنت مقيماً فيه ،
وشعرت إني قد أخطأت مع هذه المرأة ، وأسأت اليها فان الانتقام حق مقدس
ومن الظلم أن أحبي ذلك الرجل الذي قتل حبيبها ، فأقسمت على أن أعود إلى
هذه المرأة ولا أتدخل بشأن من شؤونها .

وقد توهمت أن حبها زال من قلبي بعد أن أرادت قتلي ، ولكني كنت غخطاً
في هذا الوهم فاني أصبحت في اليوم التالي وأنا أشد بها افتتاناً من قبل .
ولكني تجلدت ونازعت نفسي ثلاثة أيام فما ذهبت اليها ولا حاولت
أن أراها .

وفي اليوم الرابع رأيت باب غرفتي قد فتح في الصباح ودخلت منه تلك
البيستانية الحسنة .

وهنا توقف نادر عن إتمام قصته مع روميا وقال لركامبول : سأتم
لك قص هذه الحكاية ، وسأخبرك بما أريده منك اليوم الذي نسافر فيه
إلى أوروبا .

أما الآن فقد تقدم الليل وأنت محتاج إلى الراحة لاسيما ونحن في حاجة إلى
التفكير بطريقة نقل كنوز الرجاء غداً .

ثم نادى أحد خدمه وأمره أن يذهب به إلى الغرفة التي عينها لمبنته .
وفي مساء اليوم التالي جاء نادر وقال : كل شيء قد تمياً فها بنا .
وكان قد تأهب في النهار واتخذ ما ينبغي من التدابير . فان روكامبول رأى
رجلاً لم يعرفه قد زاره في منزله .

ولكنه علم ان هذا الرجل الذي كان متنبكراً بزي الانكليز لم يكن منهم
بل كان من الهنود .
وقد علم انه من أعوان نادر السريين ، وان نادر أصدر إليه اوامر سرية
بشأن كنز الرجاء .

وخرج نادر وروكامبول من المنزل فلما كانا في الطريق قال نادر : اني أعددت
سفينة في الحوض لنقل الأموال اليها من السرداب السري .

ويوجد في هذه السفينة اثنا عشر هندياً من المخلصين في خدمتي فمتى نقلت
الأموال إلى هذه السفينة تخرج بها من الحوض إلى السفينة الكبرى التي أعددتها
للسفر بالأموال إلى أوروبا .

فاستمعسن روكامبول الخطة واجتاز الاثنان المدينة البيضاء إلى المدينة
السوداء حتى انتهيا إلى تلك الخمارة التي غير فيها نادر زيه .

فدخل نادر إليها وخرج منها بعد حين بلباس الهنود فسار الاثنان إلى المعبد
حيث كان ينتظرهما الكاهن كوريب .
ولما بلغا منتصف الطريق صفر نادر بقمه صغيراً خاصاً .

وكان هناك رجل هندي نائماً على الأرض فوقف عندما سمع الصغير وأسرع
إلى نادر فرآه روكامبول وعرف انه هو ذلك الرجل الذي زار نادر في منزله
وهو متنبكراً بلباس الانكليز .

أما نادر فإنه قال له : ليذهب رجالك توماً إلى المعبد .
فانحنى الهندي إشارة إلى الامتثال وتوارى في الظلمات .
وبعد حين وصل الاثنان إلى المعبد ، فوقف نادر وقفة الحائر وقال

لروكامبول : أرى المصباح مطفئاً في المعبد .
فقال له روكامبول : أي مصباح تعني ؟
- المصباح الذي يجب أن يضاء ليلاً ونهاراً في المعبد فان اشتمته تنفذ عادة
من خلال النوافذ ولكني لا أرى شيئاً .
وقد ظهرت على نادر علائم القلق فننادى الكاهن كوريب من الخارج
مراراً فلم يجب .

وكان لديه مفتاح للمعبد ففتحه ودخل مع روكامبول فلم ير غير ظلمات
وجعل ينادي كوريب فلم يجبه غير الصدى .
وعند ذلك انار مصباحاً ومشى به الى وسط المعبد حيث كان باب
السرداب السري فاجفل وصاح صيحة يأس وقال يا للخيانة !

ذلك انه رأى ذلك الباب السري الذي ينفذ منه الى باب قبو الكنز
مفتوحاً فما شكك بعد أن رأى انطفاء المصباح المقدس ان الخيانة حدثت
لا محالة .

فقال لروكامبول : هلم معي فلا حاجة الى التأمل ، ثم نزل أمامه الى
السرداب وبيده مصباح ، وخلفه روكامبول فسارا في السرداب الذي تقدم
وصفه حتى وصلا الى باب القبو الحديدي ، فتنهدا تنهد المنفرج لأنهما رأيا
الباب مقفلاً .

غير أن نادر ادنى مصباحه من الأرض وجعل يفحص التراب فصاح صيحة
منكرة وعاد الى الوثوق من الخيانة وسرقة الكنز .

- ماذا رأيت في الأرض ؟

- رأيت أثر أقدام

فأخذ روكامبول المصباح منه وفحص تلك الآثار ففحص العارف الخبير
فتبين له انها كانت غارقة في التراب مما يدل على أن اصحابها كانوا يحملون احمالاً
ثقيلة فتنفخس أقدامهم في الأرض لثقل الوطأة .

ومع ذلك فإن الباب كان مقفلاً فخطر لنادر أن يمتحن إمتحاناً آخر لا يبقى بعده مجال للشك .
وقد ذكر أن الكاهن كوريب قد أدار لولباً في الجدار من الخارج فسقط الزلاج وفتح الباب .

وجعل يبحث عن اللولب مدة طويلة حتى عثر به وأداره وفتح باب القبو على الفور .
ودخل نادر وروكاسبول إلى القبو الخبئ فيه الكنز ولكنهما لم يشا أن دخلا حتى تراجعا منذعرين واجفين وذلك أنهما لم يجدا أثراً للكنز الرجاء عثمان .

- ٣٣ -

وبعد أن ثابا من دهشتهم الأولى جعل كل منهما ينظر إلى الآخر نظراً الحائر المضطرب ، فان القبو لم يبق فيه شيء على الإطلاق من أثر الكنز .
فقال روكاسبول : من تظنه سرق الكنز ؟
- إني واثق من وفاء الكاهن كوريب فان الخيانة لا تحظر له في بال ، وإن هذا الكاهن قد احتجب فكيف تمكنوا من الوقوف على سره ؟ إن هذا من المشكلات التي يعسر حلها ولا يتيسر لي إدراكها إلا متى علمت ماذا جرى له ..

وكان باب القبو المؤدي إلى بيت الشيخ حسن مقفلاً وهو من الحديد الضخم فلا سبيل إلى فتحه أو كسره . ولذلك رجع الاثنان على عقبيهما في السرداب ، وبعد نصف ساعة وصلا المعبد .
فجعل نادر يبحث ومصباحه بيده في جميع أنحاء المعبد عن الكاهن

كوريب فلم يجده .

ولما علم أنه لا فائدة من البحث خرج مع روكامبول من المعبد وهو مضطرب البال لاختفاء كوريب والخياط إذا كان أمره بوضعه في المعبد .

وكان هذا المعبد مبنياً في مكان معتزل لا يجاوره غير بعض بيوت معظم سكانها من المسلمين ، وهم لا يكثرئون لعبادة سيوا ولا يهتمون بإبنائه .
فدنا نادر من البيت المقابل للمعبد وطرق بابه ففتح له رجل بيضت شعره السنون وسأله عما يريد .

فقال له نادر : بأي دين تدين ؟

— أني أو من بالله واليوم الآخر .

— العلك تعرف الكاهن كوريب ؟

فابتسم الشيخ وقال : اني أعرفه منذ خمسة وعشرين عاماً وفي كل يوم نلتقي — أتعرف أين هو ؟

— اني رأيته اليوم آخر مرة عند غروب الشمس وقد دخل إلى المعبد مع شيخ عرفته وهو الشيخ حسن الخياط ثم رأيته خرج وحده .
— وحسن ، أبقى في المعبد ؟

— نعم ..

— وكوريب ، ألم تعلم عنه شيئاً ؟

— كلا ، ولكنني رأيته حين خرج من المعبد كثير الاضطراب .
فنظر نادر إلى روكامبول قائلاً : لقد كان اضطراب الكاهن لفقده العلامة وكان في ذلك الحين قادمًا الى .

ثم عاد الى محادثة الشيخ فسأله : ألم تر أحداً دخل إلى المعبد ؟

— نعم فقد رأيت في الساعة العاشرة من المساء كثيرين من عباد سيوا دخلوا اليه ، وبعد أن دخلوا أقفلوا الأبواب ثم اطلقوا المصباح .
— اتذكر كم أقاموا في المعبد ؟

- فانذهل الشيخ وقال : انهم لا يزالون فيه .
- كيف ذلك ألم ترمم خرجوا منه ؟
- كلا ..
فقال نادر لروكامبول : ان الأمر غريب ولكنني عرفت الحقيقة فيما أظن .
- كيف ذلك ؟
- ذلك أنهم دخلوا من المعبد وخرجوا من السرداب .
- نعم ، ولكن جميع ذلك لا يهدينا الى كوريب وحسن .
- ان حسن كان سكران فقد يكونوا حملوه على الأكتاف .
- وكوريب ؟
- سنهتدي الى آثاره من بيت الشيخ حسن .
ثم تركا ذلك الشيخ وذهبا الى بيت الخياط ، وهناك وجدتا تلك الفتاة
التي أعطاها نادر مفتاح البيت وسألها عن المفتاح .
فقالت له : اني دفعته الى رجل شيخ جاء يطلبه باسمك .
- وماذا فعل .
- انه دخل الى المنزل .
- ألم توبه خرج منه ؟
- كلا ..
فزاد الاشكال وأعجم هذا السر على نادر غير ان الفتاة قالت : لقد دخل
في اثره كثير من الرجال .
فقال لها نادر : ومن هم هؤلاء الرجال ، أعرفت أحدا منهم ؟
- نعم عرفت اثنين منهم ، وهما اللذان كانا يتوليان قيادة الجنود الذين
كبسوا بيت حسن في طلب الكنز وأخذوا غلامه .
فقال نادر لروكامبول : لقد ظهرت يد تريبورينو ولم يبق مجال للشك .
ثم قال للفتاة : وماذا جرى بعد ذلك ؟

- انهم طرّقوا الباب ففتح لهم الشيخ فدخلوا وبعد ساعة خرجوا من المنزل وساروا في طريق التّرعَة .

والشيخ ؟

- لم أره بينهم وهو في المنزل دون شك .

فتركوا الفتاة وذهبوا إلى منزل حسن وطرقوا الباب فلم يفتح لهما أحد ولكنها سمعا من ورائه صوتاً يشبه غطيط النائم .

وكان نادر قوي العضل شديد الأعصاب فدفع الباب بكتفه دفعة قوية فانفتح ودخل الاثنان إلى المنزل فوجدا الكاهن كوريب ملقياً على الأرض ووجدوا بالقرب منه ذلك الكأس الذي وضع فيه نادر الشراب لحسن كي يحمله على الاقرار بسرّه بعد شربه .

وكان حسن قد شرب جرعة من ذلك المزيج وبقيت بقيته في الكأس .

فنظر نادر إلى الكأس فرآه فارغاً فعلم ان الكاهن عاد يبحث عن العلامة التي فقدوها في منزل حسن وكان ظمآن فشرب ما وجدّه في الكأس .

ولما دخل أعوان الوزير الذين كانوا يراقبون المنزل كان الشراب قد أثر بالكاهن فوقفوا منه على سرّه بهذا الاتفاق الغريب .

وقد تأثر نادر تأثيراً شديداً مما أصابه من الفشل ولكنه نظر إلى روكامبول وقال : ان الأمر لا يدعو إلى القنوط وإذا لم يكون الوزير قد برح الهند فلا بد لنا من استرجاع الكنز .

- ٣٤ -

وكان روكامبول قد بات شديد الثقة بنادر منذ أنقذه من براثن الفهد ولم يكن نادر يفارقه بعد ذلك العهد حذراً عليه من بطش الوزير فانه كان كثير الدلال على حكومة الانكليز .

فلما خرجا من منزل الخياط وكلاهما مضطرب الخاطر قال له نادر :
أتعرف يا روكامبول شوارع كلكوتا ؟
- حق العرفان .
- إذن اذهب الى منزلي في المدينة البيضاء .
- وأنت ؟

فابتسم نادر وقال : أما انا فلدي مهمة يجب قضاؤها .
ثم استطرد قائلا : لقد قلت لك من قبل اني لا افارقك لشدة الخطر عليك
أما الآن فلم أعد أخشى عليك شيئا من الأخطار .
- كيف ذلك ؟

- ذلك لأن الوزير كان يريد قتلك من قبل خوفا من تأثير نفوذك عند
الرجاء فلما مات الرجاء بات يريد الخلاص منك كي تنطلق يده في البحث عن
الكنز وهو الآن قد ظفر بهذه الأموال فلم تعد تخطر له في بال .
- أظننه لا يهتم بي ؟

- دون شك إذ لديه مهمات خطيرة تشغله عنك وأنت تعلم أن هذا الرجل
يحاول منذ عهد بعيد أن يخلع زي الهنود ويعود إلى اوربا فيضم إلى الأموال التي
غنمها من الهند الكنز الذي اختلسه ويعيش برخاء يحسده عليه الملوك وأهم
شغل يشغله الآن نقل أموال الرجاء إلى إحدى البواخر فهو لا يفكر بك بعد
هذا الشاغل ولذلك أسألك أن تذهب الى منزلي تنتظري فيه .
- ولكن أنت الى أين تذهب ؟

- اني ذاهب لاقتفاء أثر تريبورينو ، وخير لي أن اكون وحدي فأن لي
كثيراً من المخلصين بين الهنود إذا رأوك معي امتنعوا عن الإباحة لي امامك
بما يعلمون .

ثم أخذ كيسه من جيبه فأخرج منه قطعة ذهب مكسورة وأعطاه اياها
وقال له : إذا اظهرت هذه القطعة الى خدمني في منزلي أطاعوك في كل ما

تريده كما يطيعونني .
وبعد أن أعطاه القطعة تركه وانصرف فوقف روكامبول ينظر اليه وهو
يبتعد عنه .

ولم يبتعد بضع خطوات حتى رآه وقف وصفق بيديه ثلاث مرات فأمرع
اليه هنديان كانا نائمين على طريق عند باب أحد البيوت .
فتبادلوا إياهم كلمات لم تصل الى مسامع روكامبول ثم ذهب الثلاثة فبقي
روكامبول ينظر اليهم حتى تواروا عن أبصاره فذهب الى المدينة البيضاء وهو
مشتغل البال على الكنز ولكنه كان يرجو أن يظفر نادر به لما رآه من اهتمامه
ولما علمه من مبلغ نفوذه بين قومه .

وبعد ساعة وصل الى بيت نادر وطرق بابه ولما فتح له الخادم أراه
القطعة الذهبية ، ففعلت به فعل السحر ، واتصل خبرها بجميع الخدم
فوقفوا بين يديه وقفة الاحترام وقالوا له : مر نطع ، فاننا نخدمك كما نخدم
سيدنا في هذا البيت .

وأقام روكامبول في بيت نادر يومين لم يعلم عنه شيئاً حتى بدأ يخاف عليه .
ولكن خوفه لم يتجسم فانه بينما كان جالساً في غرفة نومه يضرب
اخساساً باسداس إذ فتح باب سري في تلك الغرفة ودخل منه نادر وهو
بملابس الهنود .

فكان أول ما قاله : اننا وجدنا ما نبحث عنه .

فظهرت علائم البشر على عيها روكامبول وقال : أوجدت الكنز ؟

— وجدت الكنز والعلام ولم يبق لنا غير الاستيلاء عليهما .

ثم أخذ روكامبول بيده وقال له . هلم معي .

وخرجوا من الباب السري الذي دخل منه الى الغرفة .

وخرج نادر وروكامبول من سرداب مظلم ضيق انتهيا منه إلى سلم يؤدي إلى الحديقة .

فقال له نادر : اني لم أتمكن من تغيير ملابسى الهندية فاضطرت إلى الدخول بها من هذا الباب السري كي لا يعلم خدام منزلي حقيقة أمري فانهم يعتقدون اني من الانكليز ولا يعرفون سر هذا السرداب .

ولما وصلا إلى الحديقة اجتازاها إلى باب كان مفتاحه مع نادر ففتحه وخرج الاثنان إلى الشارع وهناك وقف نادر وقال : إن تريبورينو يسافر غداً .

فارتعش روكامبول ارتعاشاً بدت علامته على وجهه فقال له نادر : أتذكر حين دخلنا قبو الشيخ حسن إلى السرداب المؤدي إلى المعبد اننا رأينا طريقين مختلفين ؟

- نعم ..

- إن الطريق الذي لم نسلكه يؤدي الى الحوض ، وينتهي بثقب ينفذ منه الى الماء ، وقد أخرج تريبورينو أموال الرجاء عثمان من ذلك الثقب .

- وأين هي الآن هذه الأموال ؟

- إنها باتت في سفينة تجارية تشتغل بالتهريب منذ عهد بعيد ولها عنبران .

- وهي ستسافر غداً بالكنز ؟

فابتسم نادر واجاب : نعم ، ولكن من اليوم الى الغد يحدث كثير من الأمور فاتبعني وسوف ترى .

ثم ذهب الاثنان الى المدينة السوداء وسارا الى تلك الخمار التي يغير فيها نادر أزياءه ودخلا اليها .

وهناك أصدر نادر بعض أوامر سرية ، فأخذ صاحب الخمار بيد

روكامبول وذهب به الى غرفة مظلمة فوجد بها ثياباً خاصة ببجاعة أهالي ملقا .

وكان يعلم ان البحارة الملقين يؤثرون على البحارة الهنديين لاشتهارهم بالقوة والدربة ، ولكن لون روكامبول كان ناصع البياض خلافاً لسكان تلك الجزيرة .

غير ان صاحب الخماره أحضر وعاء من النحاس كان فيه سائل أسود ، وأشار اليه أن يخلع ثيابه ففعل ، حتى إذا أصبح عارياً أخذ اسفنجة وجعل يغمسها بالسائل ويغطي بها جسمه ، فأصبحت بشرته لامعة كلون النحاس بحيث لم يعد يختلف لونه في شيء عن لون أهل ملقا .

وبعد أن جف الطلاء لبس الثياب التي كانت معدة له ، فتم الشبه ، وذهب مع صاحب الخماره الى القاعة الكبرى فوجد فيها نحو ثلاثين بحاراً كان بينهم ستة من الملقين .

وجعل روكامبول ينظر بين أولئك البحارة باحثاً عن نادر فلم يجده ، لكنه سمع أحد الملقين يضحك ضحكاً عالياً وهو ينظر اليه ، فارتعش وعلم أنه نادر وانه تنكر مثل تنكره

ثم ذهب اليه وجلس بقربه فهمس نادر في أذنه قائلاً : الملك مندهل بما تراه ؟

— دون شك ، فاني لا أعلم سبب هذا التنكر ..

— إنك ستعرفه بكلمتين ، فإن بجاعة السفينة التي يسافر فيها تريبورنو لم يتم عددهم .

— أتظن أنهم يختاروننا ؟

— دون شك فان ربان هذه السفينة انكليزي قديم العهد في مهنته ، لكنه شديد البخل فهو سيختار البحارة الملقين لرخص أجورهم ولا يشارهم على الهنود في مهنة البحار

... العمل هو الذي سيختارنا ؟
 - نعم سيحضر قريباً إلى هذه الحجرة ورجائي أن يختارنا جميعنا .
 - من تعني بجميعنا ؟
 -- جميع هؤلاء الملقين فانهم من رجالي الأمناء المخلصين ، وهم متنكرون
 مثلنا .

- لقد فهمت كل شيء .
 وقبل أن يحببه نادر فتح باب الحجرة ودخل منه الربان الانكليزي فوقف
 له جميع البحارة .

- ٣٦ -

وكان هذا الربان يدعى جون هابر وهو قصير القامة متليء الجسم شديد
 القوة وكان عنقه ضخماً قصيراً يشبه عنق الثور بغلظته وله لحية كبيرة حمراء
 وجهه ضيقة ونظرات حادة تدل على الشراسة .

وكانت جميع ملامحه تدل على الارادة الثابتة ، فلما دخل إلى القاعة وضع
 يديه وراء ظهره وجعل يخطر في القاعة ذهاباً وأياباً وهو يفحص أولئك
 البحارة كمن يفحص سلماً يشتريها ، فما استوقف بصره غير الملقين وجعل يعدم
 واحداً واحداً على أصابعه .

فهمس نادر في أذن روكامبول قائلاً : إذا أخذنا جميعنا كانت لنا السيادة
 في السفينة .

غير أن نادر أخطأ في حسابه كما سترى .
 أما الربان فان نادر كان أول من استلقت نظره من الملقين فشى اليه
 وسأله بلغة الجزائر الهندية : أنت حر ؟

- نعم ..
- كم تطلب أجرة عن خدمة عام ؟
- ثمانمائة غرش .
- فهرز الربان كتفيه ونظر إلى روكامبول فقال له : وانت ؟
- فأدركه نادر قبل أن يجيب وقال للربان : إن هذا أخي وإننا لا نساfer إلا إذا كنا سوية كما تعودنا .
- فسأله الربان : إذا أرفع لك ألفاً ومائتي غرش .
- فرفض نادر لاعتقاده ان رفضه يزيد الربان تمسكاً به .
- فأجابه الربان : إذا أعطيك ألفاً وثلاثمائة وخمسين ولا أزيد على ذلك غرشاً فأنتم بخير .
- ونظر نادر إلى روكامبول ليوم الربان أنهما يتشاوران ثم أجابه : إننا نرضى بألف وأربعمائة ، فإن شئت دخلنا في خدمتك ، ونحن من خير البعارة .
- فشم الربان شتماً قبيحاً وقال إن هؤلاء الكلاب الملقين يطعمون أن تكون رواتبهم كرواتب السفراء ، ثم تنهد تنهداً طويلاً وقال : لا بأس فقد رضيت بهذه الأجرة .
- ثم تركها وعاد إلى فحص بقية الملقين وجميعهم هنود متنكرون من أتباع نادر .
- وكلوا ستة ، لكنه لم ينتخب منهم غير اثنين ، ولعله لم يكن محتاجاً إلى أكثر من أربعة .
- فقال نادر . إننا سنغدو أربعة وهو عدد قليل بازاء بحارة السفينة .
- فسأله روكامبول ألا نساfer الان ؟
- بل نساfer دون شك .
- وبعد ذلك ؟

- نستولي على السفينة فنلقي تريبورينو في البحر ونذهب بكنز الرجا
وابنه الى اوربا .
- نعم فاني أريد أن أرى البستانية الحسناء ، وقد كتبت اليها عن
قدومي ..

وقد اتقدت عيناه حين ذكر اسم روميا فلم يعلم روكامبول شيئا من قصده
لأن نادر لم يذكر له غير طرف من حكايته مع روميا .
وبعد أن أتم الرمان اختياره ، أمر صاحب الخمار أن يحضر له زجاجة
من الشراب ، ثم دعا بإشارة منه نادر وروكامبول والبحريين الآخرين اللذين
اختارهما فشاركهم في شربه .

ثم أخرج من جيوبه عهداً مطبوعة ، فكتب في كل عهد منها اسم البحري
المسافر ومقدار الأجرة ، والمدة المتفق عليها ، فكتب كل منهم توقيعاً تحت
الشروط وتم الاتفاق .

ولما تم التوقيع دفع لكل منهم أجرة ثلاثة أشهر مقدماً حسب العوائد
المألوفة ، وأقاموا يشربون حتى فرغت الزجاجة فقال لهم : لقد آن أوان
الرحيل فهلوا بنا الى السفينة .
وتنفس نادر إذ حسب أنهم سيكونون أربعة في السفينة وأن بحارها
الآخرون اثنا عشر .

غير أنه لم يقنط وقال لروكامبول : هلم بنا فإن الواحد منا يعادل ستة ،
ورجائي معقود بالفوز .
ثم قاما فمشيا أمام الرمان جوهن هابر ، فكان يسوقهم أمامه سوق
المواشي .

وبعد ساعة بلما السفينة



كانت الليلة التي أقلمت فيها السفينة الشراعية بالكنز حالكه الظلام . وكانت هذه السفينة تدعى وست أنديا وهي لربانها جون هابر ، وقد برحت ميناء كلنكوفا في الساعة السابعة ، أي عند غروب الشمس . وكان الربان قد أقام نادر وروكامبول في محل واحد ولكنها لم يتمكننا من المحادثة إلا بعد ست ساعات من سفر السفينة ، فكانا يتحدثان باللغة الفرنسية ، ولا يوجد من يتكلم بهذه اللغة في السفينة غير ربانها وتريبورينو . أما تريبورينو فقد كان آخر من صعد الى السفينة ، وقد رآه نادر وروكامبول حين صعوده اليها فلذا به قد عاد انكليزيا محضاً فتزيا بأزياء الانكليز وقص شعره على الطريقة الافرنجية ، فكان من يراه يحسب أنه من أشرف يورك أو لانكشير .

ولا يخاطر لمن يراه ان هذا الرجل الشريف قد أفتق كل ليلته في الأمس على جمع تلك الأموال التي اختلسها ونقلها الى السفينة . وكانت السفينة تشعن أرزاً وقهوة فلم يعلم روكامبول إذا كان عالماً بربانها عالماً بأن تلك الأكياس حشوها من الذهب ، أو انه كان متفقاً مع الوزير على تهريب الكنز .

غير ان هذا الوزير القديم كان يظهر أنه السيد المطلق في السفينة حتى أن جون هابر نفسه على فرط قبحته وغلظته كان يخضع له ويقف أمامه وقفة الاحترام .

ولما خلا روكامبول بنادر قال له : لقد خشيت أن يكون تريبورينو قد عرفني .

— متى ؟

— حين استعرض البحارة .

— لا تخش فلا يمكن أن يعرفك وأنت متنكر بهذا الزي الغريب ، أما أنا فانه يستحيل ان يعرفني لأنه لم يري قبل الآن .

وكانت سكينه نادر واطمئنانه يدهشان روكامبول فسأله : إننا أربعة فقط في السفينة .
- أعرف ذلك .

- وان سائر البحارة انكليز ، وهم أشداء يقاتلون جيداً .
- لا بأس .

- وفوق ذلك فان الوزير يصحبه خادمان فاذا أضيفوا الى البحارة الانكليز كانوا جميعهم خمسة عشر وما نحن إلا أربعة .
فابتسم نادر دون أن يجيب .

فتابع : وفوق ذلك أيضاً فان جون هابر من أهل الثبات في أقواله وأعماله .

- من يعلم ؟

فخطر لروكامبول حينئذ ان نادر يريد إغواء الربان وحمله على خيانة الوزير ..

وكأنما نادر أدرك فكره فقال : فلا اني لا أغوي هذا الرجل إلا إذا يئست من جميع الوسائل .

- إذا على أي شيء تعتمد ؟

فدنا نادر من جدار السفينة ومد يده الى الجهة الغربية قائلاً : انظر الى آخر ما يمتد اليه بصرك من البحر ، ألا ترى لوراً يشبه نور النجم يضطرب فوق الأمواج ؟

- نعم .

- انه ينبعث من قارب يسمونه باصطلاحكم « جنك » .

-- أهو قارب صيني ؟

-- نعم ، ولكن الصينيين الذين فيه مثل الملقين الذين في هذه السفينة .

فاشكل فهم قصده عليه فسأله مستفسراً : بالله أوضح لي عن قصدك فاني

لم افهم ماذا تقصد .
- اننا حين خرجنا من الحماره كتبنا بسرعه كتاباً اعطيته الى أحد الملقين الذين لم يختارهم الربان .

- لمن ارسلت الكتاب ؟
- لنائبي في زعامة أبناء سيوا فقد أمرته ان يعد قارباً ويذهب به مع فريق من رجالنا لمطاردة هذه السفينه التي نسافر عليها .
- أيسر قارب صغير على مهاجمة هذه السفينه الكبيره ؟
- عند اول إشارة تصدر مني اليه .

- ومتى يكون ذلك ؟
- لا حاجة الى العجلة فاننا نستطيع الصبر يومين وثلاثة .

فدهش روكامبول وسأله : كيف يمكن هذا القارب الصغير ان يدرك السفينه ويسير سيرها ثلاثة أيام
- ذلك لأنك تجهل سرعة هذه القوارب فانها تبني بشكل خاص إذ لا غرض منها إلا المطاردة ، وهي تسبق أسرع السفن .
وعاد الأمل إلى روكامبول باسترجاع كنز الرجاء عثمان ، وحاول أن يتم محادثته مع نادر ، غير أن نادر قاطعه قائلاً له : كفى فإن الربان قد حضر .

وعاد الاثنان إلى عملهما ..

وصعد جون هابر إلى سطح السفينه يراقب سيرها ، وهو يتسمم إبتسام الرضى والارتياح .

- ٣٧ -

ودنا الرمان وتوكلأ على جدار السفينة وجعل ينظر إلى الأفق قائلًا : إن السماء صافية والرياح موافقة ، فإذا استمرت على ما هي عليه الآن نصل إلى لغربول بعد خمسة أشهر .

وفيما هو ينظر إلى السماء بعين الرضى شعر بيد وضعت فوق كتفه فالتفت ورأى تريبورينو فأسرع إلى السلام عليه بلاء الاحترام .

فسأله تريبورينو . إني أرى عليك علائم الارتياح فهل الطقس موافق لسير السفينة .

- كل الموافقة .

- وانك تحب أن تصل لندرا بأسرع ما يمكنك من الوقت ، اليس كذلك؟ وتنهى الربان تهدياً طويلاً وقال : إني بلغت من العمر خمسين عاماً ، وأنا أسير في الهند منذ ٢٠ عاماً ، حتى مللت السفر .

- أظن ان هذا السفر يكون آخر أسفارك ؟

- وهذا الذي أرجوه .

- ستجعل مركز إقامتك في لندرا لأملك تقبض مني مثني ألف ليرة انكليزية ، وهي ثروة طائلة تستطيع أن تعيش بها كما تريد في العاصمة . فاحمر وجه القبطان حين سمع بهذه الثروة وكاد يطيش صوابه حين علم أنه سيقبض ٥ ملايين فرنك أجرة تهريب كنوز الرجا .

ثم ثاب إلى رشده وتتم قائلًا . كلا اني لا أقيم في لندرا .

- إذا أين تقيم ..

- أقيم في بلدي في يوكشير ، وأشتري أرضاً متسعة في البلاد التي ولدت فيها وأتزوج كاتي ..

- من هي كاتي ؟

— هي فتاة حسناء من أهلي يبلغ عمرها الآن ٢٦ عاماً ، فلا أكبر في عينيها ولا تصغر في عيني ، ثم اني ابني كنيسة ومستشفى بفضل هذه الثروة ، فان صنع الجليل من خير ما تطيب به النفوس .

وكانا يتحدثان باللغة الفرنسية لاعتقادهما أن نادر وروكامبول ملقبان وان الملقبين لا يعرفون اللغة الفرنسية .

وقد سمع روكامبول حديثهما فهمس في أذن نادر قائلاً : لا تطمع باغواء الربان .

— لماذا ؟

— لأن تريبورينو سيعطيه ثروة لم يحلم بها ، ولم يطمع أن يدركها بالتصور ..

— لقد أصبت ولكن القارب لا يزال يطارد سفينتنا .

ثم جعل ينظر إلى القارب وهو في آخر ما يمتد إليه النظر الى البحر .

أما الربان وتريبورينو فقد عادا إلى الحديث . فتابع تريبورينو : أنت واثق من بحارة السفينة ؟

— نعم كما أثق بنفسي ..

— أأنت واثق أيضاً أنه لا يوجد بين بحارتك من يعلم حقيقة ما تشعنه السفينة ؟

— أنهم جميعهم يعتقدون أنها تشعن الأرض والقهوة ، وفوق ذلك فليس بينهم من يعرف سر العنبر الداخلي غير اثنين لي بهم ملء الثقة بحيث لا خطر على الكنز إلا من الفرق .

ولكني لا أخشى الفرق أيضاً فقد الفت السير في هذه الطريق وأن سفيلتي من أشد السفن وأقواها على مصادمة الأمواج .

وفيا هو يتكلم ، نظر إلى النور الذي كان ينبعث من القارب فاضطرب

وسأله : ما هذا ؟

فنظر ترينورينو النور أيضاً وقال : أنه منبعث من منارة دون شك .

- كلا فلا يوجد منائر في هذه الجهة .

- إذا فهو من سفينة في الطريق التي نسلكها .

- قد يكون ذلك ولكنني أخافها .

فاضطرب الوزير قائلاً : كيف تخافها ؟

- لأنني أخاف القرصان الصينيين .

ثم تركه مسرعاً ونزل الى غرفته وعاد يحمل نظارته المكسرة فما كاد ينظر بها الى ذلك النور حتى صاح صيحة غضب : هذا ما كنت أخشاه .

- ما هذا ؟

- قارب صيني .

- وكيف تخاف القوارب ولك مثل هذه السفينة الضخمة ؟

- لأنها تحمل قرصانا ، وسنضطر إلى استعمال هذين المدفعين الموجودين

في سفينتنا .

فقطب الوزير حاجبيه ولم يجب .

فقال نادر لروكامبول : إني لو استطعت إطفاء نور القارب لفعلت فأنهما رأياه قبل الأوان .

أما الوزير والربان فأنهما عاد الى الحديث يتشاوران ، وكان نادر وروكامبول مصغيين اليهما ولم تفتحهما كلمة من ذلك الحديث .

٣٨

وكان القارب يبعد نحو ٣ أميال عن السفينة ، غير ان الربان كان يرى جميع حركاته بمنظاره الكبير فرأى انه يسير في طريق السفينة ويظهر خوفه للوزير .

أما تريبورينو فانه أنكر عليه هذا الخوف وقال : كيف يجرؤ هذا القارب على مهاجتنا ؟

— انك مخطىء يا سيدي فاني لا أزال أذكر قارباً هاجمنا حين كنت رباناً ثانياً في سفينة تدعى ليفربول وهي أكبر من سفينتنا .
— ماذا جرى ؟

— ان هؤلاء الفرسان لا يختلفون عن الأبالسة فان قاربهم يكون فيه على الغالب كثير من الرجال الأشداء ، فاذا وصلوا إلى مرمى مدافع السفينة التي يطاردونها ، أنزلوا جميع ما لديهم من الفلايك الصغيرة إلى البحر ، وينزل اليها ثلاثة أرباع البعارة ، فيهربوا من قذائف المدافع وأحاطوا بالسفينة من كل جهاتها دون أن تتمكن المدافع من إغراقها لسرعة حركاتها واستمالة إصابة المرمى .

وان لدينا الآن نحو عشرين رجلاً ، ولكنني واثق من أن هذا القارب يحمل ضعف عددنا من القرصان ، فاذا وصلوا الينا تفرقوا بالفلايك الصغيرة .
— لم أرى الآن موقف الخطر فان القارب قد يدركنا لأنه يسير بالهواء ، فاذا وصل اليها أطلقنا عليه قنابلنا ، وأما اذا نزلوا في الفلايك الصغيرة ، فكيف يدركوننا وهم يسرون بقوة المجاذيف .

فهر الربان رأسه وأحباب : ان القرصان موصوفون بالصبر ، وان الأوقيانوس الهندي معروف بسكون رياحه ، فلا يسلم من القرصان غير السفن البخارية ، لأنها تسير سيراً منتظماً ، غير مكترثة بسكون الرياح ، أما

السفن الشراعية فإن قوارب القرصان تطاردها أياماً ، بل قد تطاردها شهراً كاملاً حتى تسكن الرياح وتقف السفينة وينزل القرصان الى الفلاّك ويدركونها بالمحاذيف .

وقد يتفق ان السفينة تفرق بعض هذه الفلاّك ، ولكن ما سلم منها مهاجم السفينة ، وبقية القرصان يدركونها سباحة فيصعدون اليها وتذشب بين الفريقين معركة هائلة بالمسدسات والخنجر والمحاذيف فتصيب السفينة بدماء المتقاتلين وتنجلي المعركة في الغالب عن فوز القرصان .

فاضطرب الوزير اضطراباً شديداً حين فكر ان هذا الكنز وهذه الأموال التي جمعها بالخيانات والمآثم ستقع غنيمة باردة بأيدي القرصان . وعاد الرمان إلى تنمة حديثه قائلاً : وان دوارع جلالة الملكة قد ظهرت البحر من هؤلاء القرصان ولكن يظهر أنه لا يزال يوجد منهم بقية .

وبينما كان الاثنان يتحدثان كان نادر وروكامل يصفيان اليهما ويراقبان نور القارب ، فرأيا ان النور يبتعد ويصغر فلم يدركا القصد من هذا الابتعاد .

وقد رأى الرمان ما رأياه فاطمأن وقال : اظن ان القرصان لم يرونا فإني أراهم يبتعدون .

وبعد أن أقاما نحو ساعة يراقبان ويتحدثان هبط تريبورينو إلى عرفته ، وبقي الرمان فوق ظهر السفينة كل ذلك الليل حتى توارى القارب عن نظره فاطمأن وتمتم في نفسه : اما أن يكون القرصان قد رجعوا عن مطاردتنا ، او انهم لم يرونا او انهم يطاردون سفينة أخرى ، وعلى كل فقد أمنا الخطر .

وعند الصباح عاد اليه تريبورينو فارتاحت نفسه لبعث القارب وسأله : أرى اننا قد أمنا الخطر لاسيما وان السفينة تسير سيراً حسناً لموافقة الرياح . نعم ولكنها لا تسير هذا السير أمداً طويلاً فان الرياح لا تلبث أن تهدأ

ثم مد يده الى الأفق في الجنوب الغربي قائلاً : انظر ألا ترى هذه الغمامة الصغيرة التي تشبه طير البحر ؟

— نعم .

— انها مقدمة لعاصفة ستهب علينا فتثور الرياح ثورة عظيمة .

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك تهدأ الرياح بعدها أقم الهدوء بحيث قد يمر بنا يوماً أو ثلاثة دون ان تجتاز السفينة اكثر من ميل واحد ، وهنا يجب ان نضرع الى الله وأن نلتمس حماية القديس جورج حامى انكلترا كي يقيناً شر القرصان ولا تدركننا فلا نكفهم .

فقال نادر لروكامبول : لقد أصاب هذا الربان فان سكون الرياح سوف يعقب العاصفة التي لا بد أن تشور قريباً .

ولقد كان كلاماً مصيباً فانه بعد أن توارت الشمس في حجابها أريد وجه الأفق ، وأظلمت السماء بالغيوم الكثيفة ، وحجبت النجوم وهطلت الأمطار كأفواء القرب ، وعصفت الرياح ، فاضطربت الأمواج فجعلت تهاجم السفينة مهاجمة الجيوش وترتد عنها ارتداد الجباب .

وعند انتصاف الليل بلغت العاصفة أشد أطوارها فكانت السفينة ترفص فوق الأمواج وربانها يقودها بملء السكينة والحزم .

أما تريبورينو فقد خاف خوفاً شديداً على كنوزه ، إذ لم يمر بخاطره مثل هذه الأخطار ، فكان يحيى إلى الربان وعليه علائم الذعر الشديد ويسأله عن حالة السفينة فيجيبه الربان : إني لا أخشى سكونها ولا أخاف هجوم القرصان .

وفيا هو يقول ذلك حانت منه التفاتة فصاح صيحة المغضب وصرخ بصوت مضطرب : هوذا سفينة القرصان قد ظهرت فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فالتفت تريبورينو منذراً فرأى سفينة القرصان تضطرب فوق الامواج

اضطراب سفينته وتلقى من العاصفة ما تلقاه .
أما نادر فانه التفت إلى قارب رجاله وقال وصدره يخفق . حيثم ايها
الشجيمان .

- ٣٩ -

وكانت أمواج البحر تنعالي علو قمم جبال الألب ثم تهوي الى الأعماق
فتصبح السفينة في واد من المياه .

وفي كل حين تتدفق الأمواج فوق ظهر السفينة فتغسلها .
وكانت الصواري تثن لحوامل الرياح وتوشك أن تتحطم .

كل ذلك وروكامبول واقف يشغل شغل البحارة ويتذكر تلك الليلة
الهائلة التي فر بها من سجن طولون ، ولقي فيها من أهوال العاصفة ما
يذكره القراء

ولم يكن يخشى على السفينة من الفرق لما رآه من حزم الربان ومهارته .
أما تريبورينو فقد كان واقفاً بجانب الربان وكلامهما ينظران الى سفينة
القرصان فكان الربان يقول كلما رآها . اني لا أخشى ثورة الرياح بل أخشى
ثورة القرصان .

فقال له تريبورينو انهم يلقون من العاصفة ما نلقاه .

- هو ما تقوله ، غير اني لا أخشاهم الآن بل حين تسكن الرياح .
ولم يكذب قوله حتى هبت ريح عاصفة مالت بالسفينة وأوشكت أن
تدفنها بالبحر ، فانقض الربان انقضاض الصاعقة على الصاري الأكبر وضرب
حبله بفأس فقطعه ، ثم نادى البحارة فاشتغلوا جميعهم بكسر الصاري بما
كان لديهم من الفؤوس .

وبعد عشر دقائق سقط الصاري الأكبر فكان له دوي شديد وكسر جدار السفينة ، غير انها ارتفعت وسلمت من الغرق ، بعد انكساره فصاح الربان صيحة المنتصر .

وعند ذلك جعل ينظر الى الجهة التي كانت تسير فيها سفينة القرصان فلم يرها .

فقال له تريبورينو : اظن ان العاصفة أغرقتها .
- كلا ، بل ان تياراً قد جذبها ، وفي كل حال فقد أمننا شر هؤلاء القرصان .

وكان نادر وروكامبول يسمعان الحديث فقال له نادر : ان الربان قد أخطأ هذه المرة اذ لا يوجد تيارات في هذه الجهات ولا بد لرجالي من إدراكنا .

وكان يتكلم بلهجة الواثق المطمئن بحيث لم يبق شك لدى روكامبول باسترجاع الكنز . .

ان العواصف هائلة في بلاد بحر الهند ولكن أمرها لا يطول وبعقبها في كل حالة من أحوالها سكون الريح أياماً .

وقد اتفق مثل ذلك بعد هذه العاصفة فإن الهواء سكن سكوناً تاماً عند الفجر ، فجعل البحارة يهتمون باصلاح ما اتلفته العاصفة من السفينة . وكانت الأمواج حين كانت السفينة تنقلب قد ابتلعت ثلاثة من البحارة فسقطوا عن ظهر السفينة الى البحر حين التواءها وبين هؤلاء واحد من الملقين بحيث لم يبق فيها من أعداء تريبورينو غير ثلاثة .

وكان القارب قد توارى عن الأنظار فقال روكامبول لنادر : إذا كان لا يوجد تيارات في هذه الجهات فكيف اختفى القارب ؟

- انه قد اختفى لغرض من الأغراض ولا بد له ان يدركنا
اما الربان فكان واقفاً مع تريبورينو يراقبان السفينة وقد سكنت الرياح

وامتنعت السفينة عن المسير ، غير ان الاثنين كانا قد ارتاحا بعض الارتياح
لاعتقادهما ان القرصان قد غرقوا بالعاصفة .
ولما طال احتجاب القارب بدأت علائم الاضطراب تظهر على نادر وقال
يستحيل ان يضل كوسلي الطريق .

— من هو كوسلي هذا ؟

هو نائبي الذي يتولى قيادة القارب ومن فيه فانه يعرف طرق السفن
الشراعية الى اوروبا حق العرفان .
وفيا هو يتحدث وينظر الى البحر شد على يد روكامبول قائلاً له : انظر
مشيراً الى جهة الغرب

وكان روكامبول حديد البصر غير انه لم ير شيئاً ، ولكنه سمع شتماً
قديحاً خرج من فم الربان فعلم ان ما رآه نادر بالعين المجردة قد رآه الربان
بالنظارة المكبرة ، وهو سفينة القرصان

وكان الربان يصيح صياح الذعر قائلاً : القرصان .

ثم التفت الى الورير وقابض لم يبق شك في ان القرصان يطاردوننا
— اتظنهم يهاجموننا ؟

— قبل غروب الشمس ، وقد وجب علينا الاسراع بالتأهب .

ثم اوقف لإصلاح السفينة وأمر بحشو المدافع ووزع الأسلحة على البحارة
وأقام الجميع ينتظرون قدوم القارب الذي كان يسير اليهم ببطء ، ولكنه
كان مستمراً في السير خلفاً للسفينة .

وما زال يدنو حتى بات على مسافة مرمى المدافع فأُنزل الى البحر اربع
فلألك نزل الى كل واحد منهم ثمانية رجال .

أما الربان فقدم قائلاً اني كنت أحسبهم اكثر عدداً ، ولكنه سيكون
لنا معهم شأن عظيم .

أما الفلايك فقد تفرقت وذهبت كل واحدة منها في سبيل بغية الاحاطة

بالسفينة ودنت إحداها منها بغية مهاجمتها من الأمام ، فقال الربان : لنفترق هذه في البدء .
ثم أطلق عليها بيده أحد المدفعين .

- ٤٠ -

فدوى المدفع دويًا شديدًا ، وخرج دخان البارود منه ، فكان كالفهم وقد أطبق فأدر وروكامبول عيونهما حين دوى صوت المدفع . ثم فتحاهما والنجلي الفهم قرأوا أن القنبلة لم تصبها وانها هاجمة على السفينة .

فصاح الربان صيحة غضب منكرة ، وأطلق على الثانية المدفع الآخر ، وكان محشواً بقذائف صغيرة ، فنام الرجال على بطونهم ولم يصب أحد منهم بأذى .

وكانت الفلايك الثلاث الأخرى قد أهدقت بالسفينة من كل جانب ، وباتت عرضة لنيران البنادق . فأمر الربان بحارته بإطلاق النار ، فصوبوها على أحد الفلائك وأطلقوها عليها دفعة واحدة ، فانقلبت وغاص رجالها في المياه .

ولكنهم ظهروا بعد هنيهة يسبحون وفي أفواههم الحناجر .

أما الفلائك الأخرى فكانت تتقدم وكان الربان يصيح أطلقوا النار ! فصوب كل بحار بندقيته وأطلق ممثلاً لأوامر الربان ، ولكنهم أخطأوا المرمى كأنما يبدأ خفية كانت تحبل القذائف عن أغراضها .

ثم وصلت الفلائك الى السفينة فتسلقوا عليها من كل جانب وصعد الذين كانوا يسبحون على الحبال فلم تمض عشرة دقائق حتى أصبحوا جميعهم على ظهر السفينة وقد قتل بعضهم حينما كانوا يصعدون

فالتفت وروكامبول إلى نادر وقال له : أرى انه قد آن الأوان .
وكان في يده فأس فحاول ان يضرب به رأس الربان . غير ان نادر أمسك
يده وقال له : لا تفعل أو نفقد كل رجاء .

ذلك ان نادر كان قد شاهد عن بعد دخاناً كثيفاً يتصاعد في الفضاء فقال
له أنظر لقد خسرتا كل شيء حين وثقنا من الفوز .

– كيف ذلك ؟

فأجابه نادر بصوت يتهدج من الغضب إن هذا الدخان خارج من
مدرعة إنكليزية .

وكان القتال قد حيي وطيسه بين الفريقين ، بحيث لم ينتبه أحد منهما
لدخان المدرعة ما خلا القارب الذي كان رجال نادر فيه ، فإنه رأى المدرعة
وأركن إلى الفرار .

وقد صبغ سطح السفينة بدماء المتقاتلين ، لأن البحارة الانكليز كانوا يقاتلون
قتال اليأس بفؤوسهم ، ورجال نادر يقاتلون قتال الفائز بخناجرهم . وقد
اختلط الفريقان أيما اختلاط بحيث لم ينتبه أحد إلى ان نادر وروكامبول لم يشتركا
في هذا القتال .

إلى أن بانّت الدارعة على قيد من السفينة ، فأطلقت مدفعاً كان له دوي
قوي ، فصاح الربان صيحة الفرح والاستبشار قائلاً : لقد نجونا .

وكان الربان قد أصيب بعشرة جروح . فلما سمع البحارة صياحه ، ورأوا
الدارعة أيقنوا من النجاة وجعلوا يقاتلون بملء البسالة .
أما الهنود فقد هالهم ما رأوه ووقفوا موقف التردد لا يعلمون ما يفعلون ،
ثم سمعوا صوتاً يناديهم بلغة خفية .

وكان هذا الصوت صوت نادر فإنه أمرهم باللغة المقدسة التي لا يفهمها غير
أبناء سيوا أن يهربوا فامتلأوا والقوا أنفسهم في البحر وأسرعوا يسبحون إلى
فلانكمهم والدماء تسيل من أجسامهم .

وكانت الدارعة لا تزال بعيدة ، ولكنها تمكنت من إدراك القارب ، فأطلقت عليه نيرانها ، فغرق بمن كان فيه . أما الفلايك فقد تمكنت من النجاة .

وكان نادر يراقب جميع ذلك ، فاستاء لغرق القارب ، وفرح لنجاة الفلايك ، فقال له روكامبول إنني أخشى أن تنزل الدارعة أحد سفنها ، فتطارد الهاربين .

— كلا إننا على مسافة قريبة من الشاطيء وهذه الشواطئ كثيرة الصخور فلا تخاطر الدارعة بنفسها .

ولقد أصاب نادر لأنه حين وصلت الدارعة إلى السفينة كانت الفلايك قد بلغت البر آمنة فصعد أحد ضباط الدارعة إلى السفينة ففحص ما حدث وكتب تقريراً بما جرى .

ولم يكن باقياً من بحارة السفينة غير عشرة ، منهم روكامبول ونادر والهنديين .

وكان الربان مجروحاً بكتفه وذراعه وصدره وتولى قيادة السفينة الربان الثاني لكن السفينة نجحت بفضل الدارعة .

أما الضابط فإنه أسر اثنين من رجال نادر منعتهم جراحهما عن الهرب ، وعاد إلى دارعته فذهب بهما في طريق كلكتوتا أما السفينة فانها اضطرت إلى الذهاب إلى أقرب ميناء تجاري لتجديد من فقد من بحارتها وإصلاح ما طرأ عليها من الخلل .

وعند ذلك خلا نادر بروكامبول وقال له : لا يجب أن تقنط ولا يزال لي بقية رجاء

فأجاب روكامبول : بل إن لي ملء الرجاء إذا تركتني أتولى العمل مكانك وسوف ترى .

.. ما هي خطتك ؟

- سأقولها مق أخبرتني عن أمرين .

- ما هما ؟

- هل الهندي المتنكر الذي بقي معنا يحسن السباحة ؟ وهل يستطيع بلوغ الشاطئ ، ساجحاً ؟

- دون شك !

- وهل أنت واثق من ان هذه الشواطئ كثيرة الصخور ؟

-- كل الثقة .

- حسناً سوف ترى .

ثم انشغل عن محادثته بمراقبة الربان الثاني الذي صعد إلى سطح السفينة لتولي قيادتها بدلاً من جون هابر الجريح .

- ٤١ -

وكان الربان الثاني في السفينة يدعى مرفي ، وكان يشبه بعيداً بينه وبين جون هابر ، فان الربان الأول كان ضخماً الجثة ، بديناً قصير القامة ، عريض الأكتاف ، أحمر الشعر خلافاً للربان الثاني ، فإنه كان فوق الربعة نحيف الجسم أشقر الشعر ، يشبه بقامته وحركاته روكامبول حين كان يدعى الكونت دي كامبل ، أي حين أتم أستاذه تدريسه وتدريبه وأرسله خاطباً للأسبانية ، كما يذكر قراء الغادة الأسبانية .

وكانت عادة هذا الربان الثاني ان يصعد إلى سطح السفينة مكشوف الرأس لكنه حين يتولى القيادة في الليل يلبس رداء طويلاً له قبة واسعة ، تقطي معظم وجهه

وكان روكامبول يراقب منه جميع ذلك ، فذكر حياته السابقة وخطر له

- أن يعود إليها إلى حين .
- وذلك انه جال في فكره ان يمثل دور هذا الربان ويتنكر بزيه ، لا سيما لما رآه من الشبه بينها بالقوام ورقة البدن . ومهارة روكامبول بتقليد الأزياء غير خافية على القراء .
- ولما أتى الليل كان الهواء ساكناً غير انه كان يوجد في الأفق قطع متفرقة من الغيم تشير إلى ان الهواء قد يشور بعد بضع ساعات .
- فصبر روكامبول إلى أن نزل الربان الثاني إلى غرفته فقال لنادر : متى تولى الثاني قيادة السفينة ؟
- عند الظهر وقد نزل الآن إلى غرفته كي ينام .
- من يخلفه ؟
- رئيس البارة فإنه يتولى للقيادة إلى منتصف الليل ، ثم يعود الربان الثاني ليتولاها .
- حسناً وإني أرجو التوفيق
- فنظر اليه نادر مندهلاً وقال : ماذا عزمتم أن تفعل ؟
- عزمتم على أن أتولى القيادة ، عند منتصف الليل ، بدلاً من الربان الثاني .
- ومتى توليتها ماذا تفعل ؟
- أدفعها الى الشاطئ ، فتنحطم على الصخور . وهناك نستعين برجالك على تخليص الكنز ، إذ لا خطر عليه من الضياع ، لأنه في العنبر الداخلي السري .
- إنها خطة تدل على الجرأة ، لكنني لا أرى تنفيذها سهلاً .
- لماذا ؟
- لأنني لا أعلم كيف تستطيع ان تتولى القيادة مكان الربان ، ولا كيف يتخلى لك عنها ؟

فابتسم روكامبول وأجاب : هذا سر من أُمُراري وسوف ترى .

أما نادر فإنه اطمأن لارتياح روكامبول وقال له : إن من ينتصر على علي رجاء فغير بعيد أن يفوز على مثل هذا الربان . فقل بماذا تريد أن أساعدك ؟

- ان تأمر الهندي الذي معنا كي يخضع لي أتم الخضوع .

فنادى نادر الهندي المتشكر بأزياء الملقين وأصدر اليه اوامر بلغة أبناء سيوا السرية ، فأنحنى الهندي أمام روكامبول قائلاً له : إني مستعد لطاعتك في كل ما تريد .

وكان قد أُرِف وقت النوم ونام جميع البحارة . فلما أيقن روكامبول أنهم ناموا جميعهم نادى الهندي وقال له : إتبعني .

ثم سار وإياه الى الغرفة التي ينسام فيها الربان الثاني ووقف متنصتاً عند بابها إلى ان سمع غطيطة . ففتح الباب ودخل مع الهندي ، ثم أقفله من الداخل بالزلاج

وعند ذلك أشار إلى الهندي أن يعد الحبل لتقييد الربان ، ففك حبلًا كان قد عقده على وسطه وهو حبل من الحرير الدقيق يشبه حبل الخناقين . ثم أشار اليه إشارة أخرى فهمها فانقض الاثنان على الربان الثاني .

أما الربان فإنه صحا مرعوباً منزعجاً وحاول ان يصيح مستغيثاً ، غير ان روكامبول عاجله بكمامة سد بها فمه ، فلم يتمكن من الصباح وعاجله الهندي فأوثقه وثاقاً متيناً عرف به الهنود .

ولما أتم وثاقه جعل الربان ينظر اليها نظرات ملؤها الرعب ، ثم تبدل فزع بالاندهال حين سمع روكامبول يكلمه باللغة الفرنسية ، لأنه لم يسمع اولئك الملقين يتكلمون بغير لغتهم وباللغة الانكليزية .

أما روكامبول فإنه قال له بصوت منخفض . يسوؤني يا سيدي أن أسئ اليك ، غير ان ذلك موقوف على إرادتك ، وإذا خرجت عن

حد السكينة ، إضطرت مكرهاً إلى القائك في البحر ، لأنني محتاج إلى سكوتك .

ولم يكن الربان يستطيع الإجابة ، لأن الكامة كانت تمنعه عن الكلام والوثاق يمنعه عن الحركة ، غير أنه أن أنيناً خرج من تحت الكامة كصوت المختنق .

فالتفت روكامبول الى الهندي ، وقال له : إذا أنت أيضاً مثل هذا الأنين فاقتله .

فجرد الهندي خنجره ووقف فوق رأس الربان

عند ذلك دنا روكامبول من المغسلة وأخذ اسفنجة وجعل يبلها بالماء ويدعك بها وجهه فذهب لونه الأسود وأصبح مثل الربان .
وكان الهندي والربان ينظران اليه باندهال عظيم لأن كليهما لم يخطر لهما في بال ان هذا البحار الملقى من الإفرنج .

وبعد أن أتم روكامبول غسل وجهه ، خلع ملابسه وأخذ ملابس الربان المعلقة فلبسها ، وأخذ رداءه الكبير واتشح به فوق الملابس ، وستر رأسه بالقبعة .

ثم جعل ينظر في المرآة ويصلح تلك الملابس حتى بات الشبه قريباً بينه وبين الربان لتشابههما بالقوام

فلما رأى الربان هذا الشبه عاد الى الأنين ، فجارل الهندي أن يقتله . غير ان روكامبول منعه بإشارة ، ودنا من الربان ، فجعل يكلمه فانذهل الربان انذهالاً عظيماً لأن روكامبول لم يقتصر على تقلده بزيه وملابسه ، بل سمعه يقلد صوته ولهجته أتم التقليد

وكان نادر مضطجماً فوق ظهر السفينة ، ينتظر ما يكون من
روكامبول بقلق شديد ، فقد مر به زمن طويل دون ان يرى روكامبول
أو الهندي .

أما روكامبول فانه بعد ان حادث الربان الثاني مقلداً صوته ، وبعد ان
شاهد علائم بين عينيهِ قال له : إنك لم تعلم من أنا ، ولكنك عرفت الآن
دون شك ما عزمتم على فعله ، لأنني انا الذي سيتولى قيادة هذه السفينة في
هذه الليلة .

ولقد حرمت على نفسي سفك الدماء ، وقتل أخى الإنسان . وإنني أراك
بجاراً نشيطاً ، وقد تكون رجلاً شريفاً . وإذا كنت حراً طليقاً ، فإن
واجباتك تدعوك إلى الاستغاثة والاستنجاد علينا ، فيلقونني مع هذا الرفيق في
أسفل العنبر .

فأشار الربان برأسه إشارة تدل على انه لو كان حراً لما فعل غير هذا .

فتابع روكامبول . لذلك وجب علي ان أستوثق من سكوتك ومنعك عن
الاستغاثة لأنني إذا تركتك حراً في هذه الغرفة فانك تستطيع ان تصيح صياحاً
يخرج كالآنين من خلال الكمامة ولا بد ان يسمعوك .
فأشار الربان إشارة مصادقة

وكان روكامبول يعلم ان البحارة موصوفون بالتدين الشديد لكثرة تعرضهم
للأخطار ، ونظر إلى المائدة فرأى فوقها من آلات البحارة توراة فأخذ هذا
الكتاب المقدس ، وعاد الى الربان فقال له : إنني محتساج الى سكوتك عشر
ساعات وبعد ذلك أطلق سراحك ، فإذا أقسمت لي بهذه التوراة أن تلزم
السكينة في هذه المدة فلا تصيح ولا تحاول حل قيودك رضيت بقسمك
وعفوت عنك .

فظهرت بين عيني الربان علائم الانفة من الخيانة ، وأجاب بهز رأسه ورفعه إلى العلاء مرات متتالية ، إشارة الى انه لا يرضى الخيانة ، وانه غير مكترث بالموت .

فرد روكامبول : لكنني أقتلك إذا أبيت الامتنال .
فهز كتفيه يريد انه يؤثر الموت على العار .

فنظر روكامبول في ساعته فوجد ان الوقت لا يزال فسيحاً لديه فجلس عند سرير الربان وخاطبه بصوت يشبه الهمس : إنك متى عرفت قصدي وعلمت أن غايقي نبيلة ترضى بحلف اليمين .
ثم قص عليه بايحاز خيانة تريبورينو وان استرجاع الكنز منه ورده إلى صاحبه حق لا ينكره شريف .

وكان روكامبول يقص عليه هذه القصص بكلمات مؤثرة راجياً ان يحمله على الرضى ، فيمتنع عن قتله . لكنه أصر على الالباء وأشار بعينيه ورأسه انه يؤثر الموت .

فاضطرب روكامبول في أمره وأشفق من قتل رجل شريف باسل يستخف الموت في سبيل الواجب وجعل يفكر بحيلة صالحة ، لأنه لا يستطيع حراسته بالغرفة وليس من الحكمة ان يدعه وحده فيها .

وفيا هو يفكر التفت الى جدار الغرفة فرأى النافذة المطلة على البحر مفتوحة فمد رأسه منها وجعل ينظر نظر الفاحص . فرأى ان السفينة قد زادت سرعتها بحيث لا يستطيع السابح إدراكها ، وإن الظلام مشدد الحلك بحيث لو سقط رجل في البحر من السفينة لا يراه حراسه ، فخطر له خاطر سريع وعاد الى الهندي فسأله : أخبرني نادر انك تجيد السباحة ، فهل تستطيع بلوغ البر سباحة ؟
- دون شك .

- وإذا القيت هذا الربان إلى البحر ثم سقطت أنت بعده أيمكنك قطع

قيوده بخنجرك قبل ان يفرق ؟

— نعم .

فنظر روكامبول الى الربان الثاني وقال له : يسوءني ان امي اليك غير اني مضطر ، وأسأل الله ان يصونك ويقيك .

ثم شد وسطه بجبل ، وهو ينظر اليه نظر الاحتقار غير مكترث للموت ، وأنزله من النافذة والحبل بيده حتى بلغ إلى سطح الماء ونزل بعده الهندي وهو مشهر خنجره . حتى إذا بات الاثنان في الماء أفلت روكامبول الحبل فاختميا تحت الأمواج .

وكان روكامبول قد أمر الهندي ان يذهب إلى الشاطئ ، ويجمع أبناء سيوا الذين سلموا من مطاردة الدارعة في موضع تكثر فيه الصخور وأمره ان يشعل ، متى اجتمعوا ، نيراناً تشير الى موضعها

ولبت روكامبول حيناً في النافذة يراقب الاثنين ، فرأى الربان قد اختفى بين الأمواج ، ثم شاهده بعد دقيقة وقد ظهر فوق سطح الماء لان الهندي قطع وثاقه .

ثم سمع من سطح السفينة صوتاً يصرخ : شخص في البحر !

فأسرع إلى السطح ، وهو بلبس الربان ، ووجد ان رئيس البحارة الذي كان يتولى قيادة السفينة ، عازم على إنزال قارب لانتشاله فاعترضه قائلاً : إننا نخسر القارب ولا نتمكن من إنقاذه ، وفوق ذلك إن هذا الرجل من الملقين .

وقد اشتها الانكليز باحتقار اهل تلك الجزر حتى انهم يحسبونهم من الهمم ، ثم ان روكامبول كان لابساً ملابس الربان الثاني ساتراً وجهه بالقبعة ، وقد قلد صوته أتم تقليد فلم يسع رئيس البحارة مخالفته

وكان نادر قد شاهد سقوط شخصين فحسب انها روكامبول والهندي واستند الى حائط السفينة وجعل ينظر الى البحر نظرات اليأس .

وشاهد روكامبول ذلك منه فترك القيادة حيناً بيد رئيس البحارة وذهب الى نادر ووضع يده على كتفه وهو غير منتبه ، فالتفت اليه منذعراً . ولكنه عرفه للحال ، فقال له روكامبول : لقد تم كل شيء على ما أبتغي ، وأنا الآن أتولى إدارة السفينة . فعدي بعد هنيهة الى ان ينام رئيس البحارة .

ثم تركه وعاد الى رئيس البحارة واستسلم منه القيادة وأطلق سبيله ، فانصرف الى قمرته لينام وهو آمن مطمئن غير مكترث لفرق البحار لاعتقاده أنه من الملقين .

- ٤٣ -

بعد ذلك بساعة كان نادر يدير دفة السفينة وروكامبول يتولى القيادة العامة دون ان ينتبه اليه احد لانه كان يقلد صوت الربان أتم التقليد ، وكان الظلام حالكا وكل بحار منهمك في عمله الخاص .

ولم يكن روكامبول يخشى إلا من رئيس البحارة ، ولكنه كان ذهب الى غرفته فخلا الجو له ولنادر ودفع السفينة الى حيث يريد دون ان ينتبه البحارة الى جهة سيرها لشدة الظلام .

وكان الهندي قد سقط الى الماء منذ ثلاث ساعات وروكامبول يعلم انه يسير الى جهة الشاطئ ولم يره أشعل النيران حسب الاتفاق وبات يخشى أن يطلع الفجر فيفتضح أمره .

وفيا هو مفكر ونظره متجه الى الشاطئ ، إذ شاهد نوراً أحمر قد سطع فجأة وشاهد دخاناً كثيفاً يكتنفه فما شك انه نور العصابة وضعه الهندي حسب الاتفاق في موضع تكثر فيه الصخور .

فاطمأً خاطر روكامبول ولم يعد يشغله غير امر واحد ، وهو ابن الرجاء
عثمان ، فانه كان في السفينة مع تريبورينو . فجعل يتداول مع نادر في
طريقة إنقاذه من الفرق ، حين تكسر السفينة . فاتفقا أنه حين تلطم
السفينة بأول حجر ، يهجم نادر على الغرفة ، فيختطف الغلام ويسقط به
الى البحر .

ولم يكن في السفينة غير عشرة بحارة ، ولكن رجال نادر أكثر عدداً ومتى
جنحت السفينة وتحطمت فوق الصخور هجم أبناء سيوا على أولئك البحارة
المضطربين فكان فوزهم مضموناً .
وعلى ذلك إطمأن الرجلان ، ودفعا السفينة فاندفعت تسابق الرياح الى
جهة النيران .

أما تريبورينو فانه بعد ان بددت الدارعة شمل القرصان ارتاحت نفسه ،
وكان يتفقد الربان الجريح من حين الى آخر إذ لم يكن يستطيع مغادرة الفراش
كما انه كان يصعد الى ظهر السفينة كلما خرج من غرفته فيدخن سيكارة ويراقب
الجو ثم يعود الى الغرفة .

وقد اتفق انه صحا من نومه فسمع أنين الربان وتألمه الشديد من جراحه ،
فاقشع برداء كبير وذهب لعيادته . فعزاه وآساه ثم صعد الى ظهر السفينة حسب
عادته فرأى كل شيء سائراً في مناهجه المألوفة ولم يستوقف نظره غير ذلك
الضوء الذي كان ينبعث من الشاطئ ولكنه حكم بعد إطالة النظر انه منارة
وضعت لارشاد المسافرين

وكان نادر جالساً عند الدفة يديرها وفوق الدفة مصباح ضعيف ، فرأى
تريبورينو وجهه على ضوء ذلك المصباح واستغرب وجود هذا الملقى إذ أن
للدفة عمالاً أخصاء .

فدنا منه وسأله عن السبب في قيادته الدفة .
فأجابه نادر بملء السكينة ان الربان عينه عليها لأنه يعرف هذه الجهات

حق العرفان ، ولأن عمال الدفة قتل معظمهم في المعركة الأخيرة التي حدثت مع القرصان .

فاقتنع من جوابه وعاد الى قمرته .

وعند نزوله مر بغرفة الربان الجريح ، وكان لا يزال يئن ويتوجع ، فدخل اليه .

أما الربان فانه انقطع عن الأنين حين شاهده وسأله : كيف البحر ؟

— إنه موافق لسير السفينة .

— والطقس ؟

— إن الرياح آخذة بالشدة .

— ومن على الدفة ؟

— واحد من الملقين .

فارتعش قائلاً : من الذي عينه عليها ؟

— الربان الثاني .

— المسيو مرفي ؟

— نعم .

— إن هذا مستحيل .

— بل هذا الذي حدث لأن الملقى يدير الدفة .

فاضطرب الربان وحاول ان ينهض ، ويصعد الى ظهر السفينة ، فلم يستطع فقال ل تريبورينو : أرجوك ان تذهب الى مرفي وتدعوه إلي لأني أحب أن أكله .

فامتثل تريبورينو وعاد الى ظهر السفينة .

وكان رو كامبول يعيش ذهاباً وإياباً فوق السفينة وهو يدخن ، وقد باتت السفينة على قيد نصف ميل فقط من الشاطئ .

فتصدى له تريبورينو وقال له باللغة الفرنسية أشعل لي سيكارتني .

فلم يرد وأعطاه سيكارتته .
أما تريبورينو فإنه أشعل سيكارتته وأعادها له فرأى وجهه على ضوءها الضعيف
وصاح صيحة منكرة لأنه عرفه .

- ٤٤ -

وقد حال هدير الأمواج دون سماع صيحة تريبورينو فلم تصل الي مسامع
البحارة .

أما روكامبول فإنه أيقن ان الوقت من ان يتردد فهجم عليه فجأة ،
وقبض باحدى يديه على عنقه ثم جرد خنجره قائلاً : إذا فهت بكلمة فأنت
من الهالكين .

ولم ير أحد من البحارة ما جرى ما خلا نادر فإنه شاهد الاثنين عن بعد فعلم
ان الأمر خطير فترك الدفة وهي موجهة الى الشاطئ وأسرع الى روكامبول
فراه قابضاً على عنق تريبورينو وعلم كل شيء

وكان تريبورينو بعد أن نال هذه الثروة العظيمة أصبح جبان النفس ،
منخلع القلب ، ولم يجب بكلمة . ولكنه كان ينظر الى روكامبول نظرات
ملؤها الرعب .

وعاد روكامبول الى الوعيد وقال له بصوت منخفض إذا جاء أحد الى
نجدتك أغمدت خنجرى في قلبك فلا يجردك حياً .

ثم التفت الى نادر قائلاً له : أسرع انت الى غرفة هذا الخائن وخذ الغلام
واسقط به الى المياه ولا تخف علي فسنجتمع في الشاطئ .

- والسفينة ؟ -

- إنها سائرة الى حتفها ، ألا تراها دنت من الشاطئ . أسرع الآن ولا

فضع الوقت .

وانطلق نادر الى غرفة تريبورينو .

وبعد هنيهة سمع روكامبول صوت صياح الغلام ثم سمع صوت سقوط في المياه فأيقن ان نادر قد نجا بالغلام .

وعند ذلك انصرف الى تريبورينو ، فألقاه صريعاً الى الأرض فصاح عند سقوطه صيحة شديدة خشي روكامبول ان يكون البحارة قد سمعوها فرفع خنجره وحاول ان يغمده في صدره . ولكنه قبل ان يضربه شعر بيد قوية قد دفعته عن خصمه وسمع صوتاً يصرخ بلهجة الملح المضطرب : أسرعوا . أديروا الدفة . أطووا الشراع .

فعلم أن الصوت صوت الربان الأول وشاهد ان الذي دفعه عن تريبورينو كان رئيس البحارة .

أما السبب في قدوم الربان فانه استبطاً تريبورينو فأيقن انه لم يتأخر إلا لأمر خطير فأجهد نفسه وخرج من غرفته فسان أول ما شاهده أضواء أبناء سيوا وهو يعلم انه لا منائر في تلك الجهات . ثم شاهد السفينة تتجه الى الشاطئ وانها باتت قريبة جداً منه .

وكاد يجن من يأسه وصاح بصوته القوي ينادي رئيس البحارة فهب الرجل من نومه مرعوباً ، وأسرع الى تلبية نداء رئيسه ، فصعد الاثنان الى ظهر السفينة ، وشاهدا ذلك الخطر المهدق بها . وانصرف الربان الى ملافاة الخطر المهدق بها ، وهجم رئيس البحارة على روكامبول وأنقذ تريبورينو من الموت .

أما الربان فإنه نجا السفينة من الخطر بأسرعه في طي القلوع وتحويل الدفة فأمنت الخطر بعد ان كانت سائرة الى الهلاك ولو تأخر هنيهة لقضي عليها ولم تنفعها الوسائل .

وأما روكامبول فانه نهض مسرعاً وانقض على رئيس البحارة وطعنه بخنجره

وركض الى حائط السفينة بغية الهرب بالقاء نفسه في المياه غير انه وجد ثلاثة من البحارة قد اعترضوا سبيله فلم يفضل له إلا النزول الى جوف السفينة والهرب من أحد منافذها

فأسرع راكضاً الى النزول حتى اذا وصل الى غرفة الربان الأول شاهد ان البحارة وتريبورينو كادوا يدركونه ، فدخل الغرفة مسرعاً وأقفل الباب من الداخل .

فرفس تريبورينو الباب برجله وجعل يصيح قائلاً . أفسروا الباب واقتلوا الخائن .

وكان لباب هذه الغرفة كوة كان الربان قد فتحها خاصة لمراقبة العمل ، فاطل روكامبول منها فرأى تريبورينو يزيد كفعل الجمل الهائج ، ومعه خمسة بحارة

فعلم انهم سوف يكسرون الباب ولا يبق له مناص منهم .

غير أنه وجد طريقة لحسن حظه توقفهم عن كسر الباب الى أن يأمن شرهم . وذلك ان الربان حينما شاهد سفينة القرصان احتاط لها وأمر باخراج صناديق البارود من العنبر ففرقوها في الغرف ووضعوا صندوقاً منها في غرفة الربان قرب سريره .

وقد وجد على مائدة الربان غدارتين ، فتسلح بهما ، وصوب إحداها على البرميل .

وعند ذلك سمع صوت تريبورينو قائلاً . أفسروا الباب واقتبضوا على هذا اللص .

فأجابه من الداخل . إنك إذا كسرت الباب أطلقت مسدسي على برميل البارود ففسدت بكم السفينة نسفاً وبتم جميعكم طعاماً لأسماك البحر .



إلى هنا انتهى كتاب روكامبول وقد أقام مرميس في تلاوته ثماني ساعات فلما وصل إلى آخر صفحة من هذا الكتاب الغريب وقف وقفة الحائر ، إذ لم يعلم كيف نجا روكامبول من السفينة ، وإذا كان التقى بنادر وابن الرجاء عثمان ، أم لم يلتق بهما ، وماذا جرى بين روميا ونادر ، كل ذلك بقي لديه لغزاً يعسر حله .

فلما أتم تلاوته إلى ميلون وسأله : إن هذه الحكاية لم تتم بعد .

— ستعرف بقيتها متى التقيت بالرئيس .

— لكن متى نلتقي وأين ؟

— ستعلم ذلك غداً .

— والآن أنبقى في هذا البيت ؟

— كلا ، بل نخرج منه متى شئت .

— إذاً لنخرج الآن فقد بت عتاجاً إلى الهواء والنور بعد هذا الحبس

الطويل في جوف الأرض .

— هلم بنا

وخرج الاثنان .

- ٤٥ -

بعد ذلك بثلاثة أيام كان مرميس وميلون في لندنرا وقد وصلا إليها في الصباح ونزلا في فندق هانوفر .

وكانت هيئة مرميس تظهر على أنه من الأشراف ، وهيئة ميلون على أنه وكيله .

أما السبب في قدومهما إلى لندنرا فهو أنه حين خرجا من البيت السري ،

قال له ميلون : اني أخبرك الآن بأوامر الرئيس فهي اننا نبيت الليلة في باريس وغداً نذهب إلى لندرا .

- إن روكامبول ينتظرنا فيها دون شك .

- لا أعلم ولكنه أمر أن نقيم في فندق هانوفر حين نصل إلى لندرا وهذا كلما أعلمه .

إذن لا بد أن نجده أو نجد فاندرا .

وبأثناء تلك الليلة في باريس وفي اليوم التالي سافر إلى لندرا ونزلاً في الفندق الذي امر روكامبول أن ينزلاً فيه فلما كتب مرميس اسمه في سجل المسافرين ورأى أن عمال الفندق قرأوه دون اهتمام علم ان روكامبول غير مقيم فيه .

وأقام في ذلك الفندق طول النهار راجياً أن يحضر روكامبول ولكنه لم يحضر ، فلما حل الليل قال لميلون : ابقى أنت في الفندق وأنا ذاهب للطواف في المدينة علي أظفر بروكامبول

ثم لبس وتأنق وذهب إلى النادي الهندي ، وهو في ذلك العهد من أعظم النوادي فتعشى فيه وذهب إلى الأوبرا حيث كانوا يحتفلون فيها بتعميل رواية جديدة لاعتقاده انه لا بد ان يجد الرئيس بين المتفرجين .

فلما دخل وجد القاعة غاصة بأعيان الانكليز ففتش بنظره عن روكامبول تفتيشاً دقيقاً فلم يره .

ولكنه رأى غرفة من غرف الأوبرا لا تزال فارغة فقال في نفسه : لا بد أن الرئيس قد استأجر هذه الغرفة له ولفاندرا وسوف يحضر فإن الممثلين لم يفرغوا بعد من تمثيل الفصل الأول .

وبعد هنيهة رأى أن باب هذه الغرفة قد فتح ودخل منه رجل وامرأة ولم يكن الداخلان روكامبول وفاندرا ، غير ان علائم الدهشة ظهرت على وجه مرميس لأن هذه المرأة التي دهش لجمالها جميع الحاضرين ، انما كانت روميا ، أي البستانية الحسنة .

أما الرجل الذي كان يصحبها فقد كان مربوع القوام ، وهو بين العمرين
أميل إلى الكهولة ، غير انه كان شديد التألق بملابسه ، تدل ملاحظته على النبيل
فلم يكذب يدخل الى اللوج حتى انصرفت اليه الأنظار وتحولت عن
البستانية الحسنة .

فدهش مرميس ولم يدر السبب في اتجاه الأنظار إلى الرجل دون المرأة
وكان الى جانبه رجل من الانكليز رآه في النادي ، فالتفت اليه وقال له : أتعلم
سبب اهتمام الناس بهذا الرجل فهل كان ذلك لجمال امرأته ؟
- كلا ، بل انهم قد انصرفوا اليه دونها لاهتمامهم به نفسه .

- ومن عساه يكون هذا الرجل ؟

- هو الماجور لنتون .

فارتعش مرميس إذ علم انه تريبورينو .

أما الانكليزي فانه مضى في حديثه فقال . ان هذا الرجل قدم حديثاً من
الهند بثروة عظيمة لا يحيط بها وصف ولا تذكر في جنبها ثروات الانكليز
حق لقد قيل عنه انه جاء من الهند بالوف من الأسرار الكريمة التي لا يوجد
مثلاً في تيجان الملوك .

- ولكن كيف حصل على هذه الثروة ؟

- الشائع انه جمعها من تجارة الأفيون .

-- وهل جعل اقامته في لندرا ؟

- يقال انه سيقم فيها في الصيف ، وأما في الشتاء فسيقم في قصر فخيم
اشتره في بلاد الغال .

فبدأ مرميس يفتكر ان لروكامبول يبدأ في جميع ذلك ، وسأله قائلاً : هل
امراته قدمت معه من الهند ؟

- ذلك ما لم يعلمه أحد الى الآن ، فان الماجور قد جاء معها ، ولكن
يظنون انها فرنسية .

- أترأه تزوج بها في باريس ؟

- ربما .

ثم نظر مرميس إلى اللوج فرأى روميا ترمقه بنظرة المحدث فعلم أنها عرفتة
ثم رأى أنها تبتمس له ابتسامة سرية فقال في نفسه : انها جراءة نادرة ، غير
ان تريبورينو لم يرها تبتمس لأنه كان منصرفاً عنها إلى مشاهدة التمثيل
خلافاً لروميا فانها كانت شاخصة بأبصارها الى مرميس ، وجال في فكره
خاطران ، وهما إما ان روميا لم تقم مع تريبورينو إلا بأمر روكامبول ،
واما أنها تخلصت من روكامبول وكان اجتماعها بالمساحور لنتون من قبيل
الإنفاق والصدفة .

وأقام ينتظر حتى انتهى التمثيل فكان أول خارج من القاعة فوقف عند
الباب كي يرى البستانية الحسناء عند انصرافها ، وفيما هو واقف ينتظر شعر
بيد وضعت على كتفه فالتفت فرأى الرئيس .

- ٤٦ -

أما روكامبول فانه أجابه وهو يبتسم : أراك منذها لما رأيته ولكنك
ستزيد اندهالاً فاصبر

وما لبث أن انهى كلامه حتى أفلت منه مسرعاً واختبأ وراء أحد العواميد
فأدركه مرميس قائلاً له : ماذا تفعل ؟
... إني أختبئ كما ترى .

وعند ذلك خرجت البستانية الحسناء وهي تتكىء على ذراع تريبورينو
وقد احمرت وجنتاه وبدى جسمه وبدت في عينيها علائم الرضى والقحة كأنه
كان يقول : ما فاز بالمذات غير أهل الشر .

أما روكامبول فانه قال لمرميس : انظر إلى هذا الرجل .
 - لقد عرفته فهو تريبورينو ولكن بقي أشياء لم أعرفها .
 فابتسم روكامبول قائلاً : لم يحن الوقت بعد وستعرف كل شيء .

ومرت البستانية الحسناء فرأت مرميس وابتسمت له ، ثم مد روكامبول
 رأسه فذهب الابتسام عن شفتيها وبدت على وجهها علائم الخوف والخضوع .
 ثم مشت مع الوزير إلى مركبة فخمة كانت تنتظرهما فركبا فيها وانطلقت
 بهما بسرعة

فلما ابتعدت المركبة أخذ روكامبول بيد مرميس قائلاً له : هلم بنا يا بني .
 ثم مشى وإياه حتى خرج من الزحام فقال له : اعلم الآن أن تريبورينا
 هائم بالبستانية الحسناء هيأماً شديداً منذ ثمانية أيام .

- إن أهل لندرا يعتقدون أنها أمراة فكيف اتفق ذلك ؟
 - لأنهم يعلمون أنه جاء بها من باريس ، فاعلم الآن يا بني ان هذه المرأة
 التي كانت تكوي الشيخ بالنار حتى تطفئ دماؤه ناره ، والتي ذهبت بعقل
 المركيز دي مورفر ، وكانت تجلد ولده بالسياط ، والتي كادت تقضي عليك
 بالسم ، ان هذه المرأة الهائلة أطوع لي من البنات ، وهي تخضع لأمرى
 خضوع العبيد .

- لقد رأيت شيئاً من هذا غير اني لا أعلم غايتك من تسليمها إلى
 تريبورينو

- غايتي أن أجعلها آلي في تنفيذ أغراضي منه .
 - وماذا جرى لابن الرجاء ؟
 - لقد نجا .

- وأين هو الآن ؟

- في باريس ..

- أسمح لي أيها الرئيس أن أسألك سؤالاً ؟

- قل .

- ماذا جرى للدوق فنسترنج والمركيز مورفر وابنه ؟

- ان الدوق الشيخ مات والمركيز في مستشفى المجانين ، لكنهم يرجون له الشفاء ، وأما ابنه فقد تكفلت به فاندرا ، ولم أعد أخشى الآن روميا ، فمتى فرغت من شأني مع تريبورينو أعادت للمركيز ثروته من ابن عمه فان الناس يعتقدون إلى الآن انه ميت .

- وفاندرا أهى في باريس ؟

- كلا بل هى معى في لندرا .

ثم سكت روكامبول هنيهة ونظر إلى مرميس قائلا : أراك تريد أن تـألني أيضاً سؤالاً آخر يتردد بين شفتيك حتى يكاد يلهمها .
- هو ما تقوله يا حضرة الرئيس .

- انك تريد ان تعرف كيف خرجت من السفينة وكيف اجتمعت بنادر وابن الرجاء ، ان الأمر بسيط ، فاني حين كنت في غرفة الربان جون هابر ، كنت مصوباً الفدارة على برميل البارود أنذر السفينة بالنسف ، فحساف تريبورينو أن أكون صادقاً في وعيدي وجعل يتشاور مع الربان فيما يجب فعله ، فاعتنمت فرصة انشغالهم عني ، وخلعت ملابسى يحملتها وخرجت من نافذة غرفة الربان المطلّة على البحر والقيمت نفسي

كان الفجر قد انبثق فلما شعروا بسقوطى إلى البحر كنت أبتعد عن السفينة نحو مائة متر فأسرعوا إلى ظهر السفينة واطلقوا علي بنادقهم فكان الرصاص يسقط حولى كوابل المطر ، ولكنى كنت أغوص تحت الماء سابحاً فأمكنك دقيقة حتى يحسبوني غرقت ، ثم أطوف على وجه المياه متنفساً فيعودون إلى إطلاق الرصاص

وما زال هذا دأبى ودايمهم حتى بعدت عن مراميمهم وأمنت رصاصهم ، وكان الشاطئ قريباً ، فلما دنوت من جهة النار رأيت نادر مسرعاً إلى بقارب .

صغير فانتشاني من المياه وسافرت السفينة آمنة إلى أوروبا تحمل كنوز الرجاء وذلك الوزير الخائن .

فقال مرميس : بقي أمريا سيدي أود ان أعلمه وهو بقية حديث نادر مع روميا والسر في سلطانك عليها .

— أما بقيت هذا الحديث فقد أرويه لك في موضع آخر ، وأما تسلطي عليها فهو ان هذه المرأة قد أحبت نادر حباً عظيماً وانضمت إلى سلك أبناء سيوا ، وقد جعلني نادر رئيساً لهذه الطائفة في أوروبا فأنا الآن فيها كما كان جوزج ستوي في لندرا ، لذلك وجب على روميا ان تطيعني لأنني بت رئيسها المطلق وجميع خدامها من أبناء سيوا وهم يعرفون رئاسي ومالي عليهم من حق السلطة المطلقة فلا سبيل لها الى عصيان أمري .

والآن فان لدينا كثيراً من المهام التي يجب قضاؤها فاعلم انه يجب عليك ان تترصد في هذا المكان الى ان تأتيك امرأة .

— من هي هذه المرأة العلهما البستانية ؟

— كلا بل تأتيك امرأة ارلندية فتظهر لك قطعة من النقود فاذا اظهرتها لك فاتبعها .

— الى اين ؟

— الى البستانية حيث تمثل لها في كل ما تريد وتفعل كل ما تطلب اليك أن تفعله .

وذكر مرميس ما لقيه من العذاب في منزل هذه المرأة الهائلة وظهرت عليه علائم الاضطراب ، فقال له روكامبول : لا تخف بعد الآن هذه المرأة فقد باتت منا .

ثم تركه وانصرف ، وبقي مرميس واقفاً في مكانه ينتظر الارلندية .

- ٤٧ -

وتربص مرميس في مكانه ينتظر وهو يراقب خماره في الشارع كثر تردد الناس اليها وخروجهم منها حتى شاهد امرأة متسولة خرجت من تلك الخماره وقربت منه .

وذكر مرميس أنه شاهد هذه المرأة قبل الآث ولكنه لم يذكر أين حتى سمع صوتها وذكر للحال انها تلك الارلندية التي ساعدت على اختطاف حبيبته جيبسي الفجرية ، وقد اضطرب قلبه وهاج غضبه وهم أن ينقض عليها وينتقم منها غير أنه ذكر وصية الرئيس فعلم أنه لا يحق له أن يعمل غير ما أوصاه به فسكن تأثره وكظم غيظه .

ولم يخطر في باله أن هذه الارلندية قادمة اليه حتى رآها دنت منه فقالت له : هل أنت مستعد ؟

فذهل مرميس وسألها لأي شيء ؟

- لتتبعني

- إلى أين ؟

- إلى حيث أمرك الرئيس ، اي إلى بيت روميا .

ثم أظهرت له قطعة من النقود فلم يشكك أنها هي التي عينها الرئيس ، لكنه لم يتألك عن إظهار استغرابه واشمئزازه فقال لها : إني سأتبعك ولكنني أعجب من الرئيس كيف يختار عماله من الأسقياء أمثالك .

قالت : ليكن حذك علي كما تشاء غير اني أخدم من يحسن إجازتي بلاء الإخلاص .

ثم مشت أمامه فتبعها مرميس ومازالا سائرين حتى وصلا إلى جسر لندرا وكانت الضباب كثيفاً والظلام مدلهماً فسألها : إلى أين أنت سائرة بي ؟ -- إلى النهر وسنجتازه إلى بيت روميا كما أخبرتك .

فتفقد مرميس خنجره ومسدسه ومشى في اثرها غير هيباب لاعتماده على هذين الحليفين ، حتى إذا وصلا إلى الشاطئ خلعت الارلندية فوبها الأعلى ، فظهرت رجلاً بلباس البحارة ، ثم أخرجت قبعة من جيبتها فلبستها وسترت تحتها شعرها .

وهناك قارب كان قد وضع خاصة لها ففكت حباله ونشرت شراعاه وتادت مرميس فوافاهها اليه وانطلق يخوض التيمس .

فسأها : العمل المكان لا يزال بعيداً ؟

— انه خارج لندرا وسنصل قريباً فان القارب ينطلق انطلاق السهم لموافقة الريح .

فجلس مرميس في مؤخر القارب يفكر بروكامبول ومقدرته على امتلاك القلوب ، فانه ما استخدم رجلاً ، ولو كان من اللصوص الأثمة حتى انقلب إلى الهدى وخدمه بملء الوفاء والاخلاص ، كإنما لهذا الرجل قدرة فوق قدرة الانسان .

وظل القارب يسير في النهر والأنوار تحتجب تباعاً حتى بات في ظلام دامس فعلم أنه خارج لندرا .

وبعد أن توغلا هنيهة في الظلام ظهر له على الشاطئ الأيسر ضوء ينبعث من أحد المنازل فقال لها : ما هذا الضوء الجديد الذي نراه ؟
— هو ضوء المنزل الناهبين اليه وقد أشرفنا عليه .

ثم قامت إلى الشراع فطوته ووضعت المجذافين في موضعهما وجعلت تجذف بهما ، فما مرت بها بضع دقائق حتى وصلت إلى الشاطئ فنزلت اليه وربطت القارب .

وعند ذلك نزل مرميس فقالت له : أنظر هذا البيت والحديقة التي تكتنفه ألا ترى باب الحديقة ؟

— نعم .

- هوذا مفتاحه .

ثم أعطته مفتاحاً صغيراً وقالت له : إذهب وافتح به الباب وامش في الحديقة حتى تغدو تحت نوافذ المنزل فصفق بيديك ثلاث مرات فانها العلامة المتفق عليها .

- ألا تأتين معي أنت ؟

- كلا .

ثم تركته وعادت من حيث اتت .

- ٤٨ -

وقد تردد مرميس هنيهة حين رأى الارلندية تركته وعادت مسرعة ، رجال الشك في نفسه إذ خشي أن تكون هذه المرأة رسول تريبورينو . غير ان هذا الخوف لم يتجسم في قلبه فانه ذكر أنها أظهرت له الاشارة التي عينها الرئيس ، فأخذ المفتاح وتقدم إلى باب الحديقة ففتحه ، ودخل ويده قابضة على مسدسه من قبيل الاحتمياط .

ولما دخل أقفل الباب ورأى ضوءاً منبعثاً من نافذة في المنزل فاهتدى به واخترق الحديقة تواءم اليه حتى إذا بات تحت تلك النافذة صفق بيسديه ثلاث مرات فرأى أن الضوء قد تحول عن مكانه ثم رأى أن باب الغرفة المشرفة على الحديقة قد فتح .

وهناك سلم من الرخام فصعد درجاته غير هيباب حتى انتهى إلى باب فولج منه إلى فسحة ضيقة لا ضوء فيها وسمع صوت امرأة تقول له : تعال من هنا . فعلم أن الصوت صوت روميا .

ثم شعر أنها أخذت بيده وقالت : اتبعني .

فتبعها وسات به إلى أن اجتاز تلك الفسحة وانتهيا إلى سلم فرشت درجاتها بالطنافس فقالت له همساً : اصعد وأحذر أن يسمع حس لوقع أقدامك .

- السنا وحدنا هنا ؟
- كلا فإن لنتون في الغرفة التي فوقنا .
- أفي الغرفة التي رأيت فيها الضوء ؟
- نعم .

فصعد مرميس بما أوصته من التسلق حتى وصلا إلى آخر السلم ففتحت البستانية الحسنة باباً عن يسارها ودخلت منه فتبعها مرميس فوجد نفسه في قاعة صغيرة تكتنفها الظلمات .

غير انه رأى في أحد جدران القاعة ثقباً صغيراً ينفذ منه النور الذي شاهده وهو في الحديقة .

فقالت له روميا : ضع عينك فوق هذا الثقب وانظر .
ففعل ونظر مقعداً شرقياً كبيراً ورأى عليه شخصاً نائماً بلباسه وقد سقطت فوق صدره البيضاء بعض نقط من الخمر .

ورأى بجانب المقعد منضدة وضعت فوقها قناني الشراب الفارغة وصينية عليها بقايا طعام .
فقالت همساً : انه نائم .

فوضع مرميس يده في أذنها وسألها : العمله نائم نوم تخدير بأدويةك السرية .

- كلا بل هو صريع السكر .
- العمله سكر بالآفيون ؟
- بل بالخمر .

فابتسم مرميس وقد عجب كيف انها أسكرته بالخمر وفي وسمها ان تضله

عن الرشد بما لديها من العقاقير المخدرة .
وكأنها قد علمت ما جال في فكره فقالت له : أراك منذهلاً مما تراه ،
لكن الماجور لنتون ، هو غير المركيز دي مورفر .
وقد لفظت اسم المركيز بصوت أجش فعلم مرميس أنها لو لم تصبح عبدة
لروكامبول لما سلم قاتل حبيبها برديتو من انتقامها الفظيع .
غير ان مرميس لم يجيبها فقالت له : إن لنتون عاش في الهند دهرأ طويلاً
فهو يعلم ما أعلمه من أسرار الأزهار والمخدرات والسموم ، ولا أستطيع الوقوف
على سره بالمخدرات ، بل بالغرام .

- العمل له سرأ ؟
- دون شك ألم يقل لك الرئيس شيئاً عنه ؟
- كلا ، فقد قال لي انهم سيأبون بي اليك وانك ستخبريني بما يجب أن
أعلمه .
- إذا فاعلم ان الماجور لنتون عاد من الهند بثروة عظيمة .
- اني اعلم بهذه الثروة .
- وان الرئيس يريد سلبه إياها .
- وهذا أعلمه أيضاً .
- غير اننا لا نزال نجعل أين توجد هذه الأموال ، فانه شديد الحذر كثير
الحرص عليها وقد خبأها في مكان لا يعلم به أحد وهو على فرط غرامه بي لم
استطع أن أعلم منه شيئاً إلى الآن .
- ولكنك لا بد أن يكون أودع أمواله المصارف فكيف السبيل اليها ؟
- انه لم يودع شيئاً منها خلافاً لما تتوهم ، بل انه اكننزاها أو خبأها في
مكان لا يهتدي اليه سواه ، وهذا ما نبحث عنه الآن أنا والرئيس
- ولكنك تقولين أنه يهالك .

- نعم ، لكنه يحبني كما يحب الفني أداة ثمينة ، أو حصاناً جميلاً فهو يحبني بعينيه الجمالي ولكنه لم يحبني بقلبه بعد ، على أنه إذا لمعت هذا القلب عقرب الغيرة بات في قبضة يدي أفعل به ما أشاء .
- ولكنني أراه يذهب بك إلى المراسح والمنتديات فلو كان يخشى الغيرة لما عرضك للعيون .
- انه يرى الناس يحدقون بي فيسر لأنه لا يفار من جميع الناس وان الغيرة لا تكون إلا من واحد .
- أتريدن أن تقولي انك تستطيعين حمله على الغيرة .
- دون شك ، إذا أردت أن تمثل الدور الذي أسألك تمثيله ، بأمر روكامبول .
- اني أفعل كل ما يأمرني به الرئيس .
- إذا فاسمع .
- ثم جلست وإياه على مقعد كان يبعد خطوتين عن الثقب الذي رأى منه تريبورينو .

- ٤٩ -

أما تريبورينو فقد كان صريع سكره وهو نائم بسكينة وارتياح .
وقد كان متموداً منذ عشرين عاماً أن يسكر عند العشاء وينام فاذا صبحاً من رقادته ذهببت السكره وعاد إلى ما كان عليه من الصخو .

وكان آخر عهد القراء به أننا تركناه في الباخرة العائدة من الهند إلى انكلترا ، لكنه لم يعد إلى بلاده توأ ، بل انه عاد قبلاً إلى فرنسا وأقام في باريس عدة أيام .

وانه كان يتجول ليلة في شارع الايطاليين ، إذ رأى البستانيّة الحسناء فدهش لجمالها ، ولا نعلم إذا كانت يد الصدفة قد دفعته إلى لقائه في هذا الشارع أم يد روكامبول ، ولكن الرأي الثاني أقرب إلى الصواب .

أما تريبورينو فقد كان واثقاً من نيل كل ما يريد بفضل تلك الثروة الهائلة فلما رأى روميا وراقه جمالها أرسل من اقتفى أثرها وحظي منها بموعد لقاء وبعد ثلاثة أيام جاء بها إلى لندرا .

ولم يكن قلبه خالياً من الغيرة كما توهمت روميا ، فانه إذا كان واثقاً من المستقبل فلم يكن مطمئناً للماضي ، وكان يقول في نفسه : ان هذه الحسناء مهما بلغ من طمعها فاني استطيع ارضاءها بجزء من مائة من ايرادي ، ولكني أخشى أن يكون قلبها عالقاً بأحد عشاقها وأنها تحبني حب مكر ورياء .

أما روميا فانها لم تكن تجهل مخاوفه فكانت تزيد هواجسه ولا تكشف له شيئاً من أسرار ماضيها بل انها كانت تبدر منها من حين إلى حين كلمات مبهمه تهيج ثائر هذا العشيقي فينبيت منها بليلة الملسوع .

ولقد تقدم لنا القول ان تريبورينو كان يسكر فينام ثم يستفيق من تلقاء نفسه بعد أن تزول نشأة السكر ، غير انه في هذه الليلة لم يستفيق من تلقاء نفسه حسب عادته بل أنه صمعا لسعاه صوت ألم شديد فهب منزعراً اذ علم أن هذا الصوت صوت عشيقته روميا .

فناداها باسمها فلم تجب فوثب من مقعده إلى الغرفة المظلمة المجاورة فعثر يحسم ممدد على الأرض .

وكان ضباب السماء قد انقشع ونفذت أشعة القمر إلى تلك الغرفة فرأى تريبورينا على نوره روميا ممددة على الأرض لا حراك بها .

فدعر دعرأ شديداً وقد حسبها ميتة ، فحملها بين ذراعيه وجعل يناديها فلا تجيب .

وفيا هو يحس قلبها شعر أن يده قد لمست مادة لزجة عند كتفها ،
فصاح صيحة منكرة إذ علم انها دماء ، وأسرع إلى جرس الحدم فقرعه قرعاً
شديداً فوافاه اثنان منهم وبأيديهما المصابيح ، وحملوا البستانية إلى سريرها
وجعل يفحصها ، فرأى انها مجروحة في كتفها جرحاً غير خطر ولكن الدماء
كانت تتدفق منه .

وجعل يشمها المنعشات حتى استفاقت ففتحت عينيها وجعلت تنظر إلى
ما حوالها نظرات تشف عما داخل قلبها من الرعب .
وسألها تريبورينو : قولي ماذا جرى .

- لا شيء .
- كيف لا شيء وهذا الدم ؟
- إني عثرت بالمقعد فسقطت .
- بل انك تكذبين .
- كلا .. كلا .. لم يحدث شيء .
- انك أصبت بضربة خنجر ..
- لا أعلم .

- من دخل الى هنا ؟
فنظرت روميا إلى ما حولها بذعر وقالت : لم يدخل أحد .
وكانت النافذة مفتوحة ، وكانت تقول هذا القول وهي ناظرة اليها نظرة
تتهمد ، كي توهمه أن الرجل دخل اليها من النافذة ، وانها تتهمد لما علق
بقلمها من هواء

وقد رأى تريبورينو منها هذه النظرات فجئن من غيرته وترك روميا بين
أيدي الحدامين يضمدان جرحها ثم ركض الى الحديقة وجعل يفحص قرايها
فرأى آثار أقدام على الرمل فاقتفى الأثر حتى انتهى الى باب الحديقة
فوجدته مفتوحاً .

ولم يعد يشكك ان البستانية جرحت من أحد عشاقها وعاد الى المنزل وهو يزبد من الغضب وأمر الخدامين بالانصراف وجلس يجانبها فقال لها : ان رجلاً قد دخل هذه الليلة الى هذه الغرفة وطعنك بخنجره ، فمن هو هذا الرجل ؟

فهزت البستانية الحسناء رأسها وقالت له : لا تسألني فاني لا أستطيع أن أقول شيئاً
فقال لها بلمهجة التهديد - ولكنني أريد أن أعرف كل شيء .
- ذلك محال .

فضرب الأرض برجليه وقال قلت لك أريد ان اعلم
- ولكنني لا أستطيع أن أقول شيئاً ، فاذا شئت اقتلني .
ونظر تريبورينو فرأى ذلك الخنجر الذي جرحته به روميا على الأرض وأسرع اليه فاخطفه وعاد به الى روميا فقال لها : تكلمي أو لا تلقين مني غير الموت .

- ٥٠ -

أما البستانية الحسناء فانها لبثت ساكمة هادئة كأنما هذا الانذار غير موجه اليها .

وأما تريبورينو فان الغيرة قد صعدت من قلبه الى رأسه فألهبت دماغه وبات كالجائنين ولم يردد هذا القول : تكلمي أو اقتلك

ولما طال تهديده رفعت روميا رأسها بعد اطراقها ونظرت اليه بعين كانت تتقد اتقاد السلاح سطعت عليه أشعة الشمس ثم ابتسمت ابتسام الساخر وقالت له تريد ان اتكلم اليك كذلك ؟

فضغط تريبورينو على قبضة الخنجر حتى كاد يسحقها وقال نعم أريد أن أعلم كل شيء .

فلم يظهر على روميا شيء من الرعب وقالت له : إذا كانت هذه إرادتك فليكن ما تريد وسأتكلم .
- أرايت كيف انتهى بك التهديد الى الخوف ؟

- كلا إني لا أخاف هذا الموت الذي تنذرني به ولكني أريد ان أنهج معك منهج الحرية فقد كفاني ما القاه كل يوم من غيرتك .
وكانت تتكلم هذا الكلام بلهجة تظهر التهمك فاضطرب تريبورينو ولكنه كظم غيظه وصبر الى أن تتم حديثها .

وعادت روميا الى الكلام فقالت : إني سأكون معك حرة الكلام والضمير فاعلم إني لست امرأة طاهرة نقية ، وما أنا من أهل العواطف والأحلام ، بل أنا تاجرة جمال ، ولكني شديدة الطمع ببضاعي ، فأنا أريد قصراً لا منزلاً ، ولو استطعت لصغت النجوم عقود وجملت بها هذا العنق الذي تهواه .

أما وقد عرفت ذلك مني فاعلم الآن إني ما أصفيت إلى حديث غرامك إلا بعد أن قيل لي بأنك أعظم مثر في هذا الوجود .

فأجابها تريبورينو : وأنا أعلم إنك طامعة ببالي ، ولو كنت مكانك لما فعلت غير ما تفعلين ولكن جميع ما قلتيه لا ينبئني عن هذا الرجل الذي دخل إلى غرفتك .

- بل هذا الرجل الذي كاد يقتلني ، وطبع فسوق كتفي أوثراً من خنجره ..

فهاج غضبه وقال : نعم إني أطلب ان أعرف اسم هذا الرجل .

صبراً واصنع الى ان أتم حديثي . إنك حين لقيتني في باريس كنت لي خيل ومركبات وجواهر وقصور ولم يكن علي ديون ، فكنت أنفق في العام

ثلاثمائة الف فرنك

- ماذا تريدن بذلك ؟

- أريد انه قبل ان يعود الماجور لنتون بالكنوز من الهند كان يوجد في باريس من يحبني وينفق علي كما أشتهي .

فوقع هذا الكلام من قلبه وقوع السهم ، لأنها عرفت منه موضع الضعف إذ علم أن مزاحمه في عشقها لم يكن من عامة الناس وفقرائهم فهاجت عوامل الغيرة منه وسألها : ومن هو هذا الرجل الذي يستطيع أن ينفق إنفاقي ؟

- إنه شخص هواني هوى عظيم لم يسيء إلي شيء . فلما تركته ولحقتك إلى لندنرا كتبت إليه كتاب وداع ، ولكنني حرصت على إخفاء أثري وهذا الأثر ؟

إقتفاه لفرط عشقه إياي وعرف أين أنا .

- أجسر على القدوم إلى هنا ؟

- نعم .

- ولماذا لم توقظيني حين قدومه ؟

- لأسباب أولها انك كنت سكران .

- وثانيها ؟

- وثانيها إني لا أستطيع طرد رجل عشقني عشقاً مخلصاً ، ونهج معي مناهج الكرام .

فقال لها بلمهجة المحتقر : ولكن هذا الكرم دفع به إلى هاوية الإفلاس ؟

- إنك منعذع لأن ثروة هذا الرجل الذي أخبرك عنه لا تنضب ولو أنفق على عشر نساء مثلي لما أثرن عليه .

فهاجت كبرياء هذا السارق وثارت عوامل الغيرة في قلب هذا العاشق فساء لها :

- من هذا الرجل وماذا يدعى ؟
- إنك لا تعرف اسمه .
- لكن من يكون له مثل هذه الثروة يعرفه جميع الناس لاشتهاره ؟
- افترض أنه أمير روسي .
- إذا كان هذا الرجل غنياً الى هذا الحد فكيف تركته من أجلي ؟
- لأنهم قالوا لي انك أغنى منه
- فسر تريبورينو من هذا المديح وأجاب : لقد أصابوا لأنني أغنى إنسان في هذه البلاد
- هذا ما يعتقدونه الناس في لندرا وباريس بل هذا ما كنت أعتقده أنا ، ولكنني لا أعتقد بشيء من هذا الآن .
- فتراجع منذعراً وقال : كيف ذلك ؟
- إنني صدقتك في البدء فلم أسأل عنك ولا عن مقدار ثروتك . على ان هذا الرجل الذي جاءني في هذه الليلة قال لي إذا كان الماجور أغنى مني تنازلت له وتراجعت عن غرامك .
- لقد أصبت بثقتك بي أولاً وأخطأت في النهاية ، وأنا أقبل بهذا الشرط . فماذا قال لك الرجل ايضاً عني ؟
- يقول ايضاً ان هذا الرجل يموه على الناس تمويهاً وأنه لم يعد من الهند إلا ببال قليل وبعض الحجارة الكريمة وأن جميع ثروته لا تقوم بنفقتك شهرين ثم يتخلى عنك لإفلاسه فتخسريه وتخسريني .
- فضحك ضحكاً عالياً وقال : أهو يظن هكذا ؟
- بل هو يقين لديه يشبهه بالأدلة .
- وما هو برهانه ؟
- برهانه انك لم تستودع مصرفاً من مصارف لندرا وباريس وفرنكورت وفيينا مليوناً واحداً من الثروة التي تدعيها .

- هذا أكيد .
- وبرهانه انك لا تملك شبراً من الأرض في إنكلترا وفرنسا وغيرها .
- وهذا أكيد أيضاً .
- وآخر براهينه انهم سألوا عنك حاكم الهند بالتلغراف فأجاب انك برحت الهند بثروة قليلة جمعتها من اقتصادك في رواتبك .
- هذا أكيد أيضاً ، غير أن لي ألوفاً من الملايين تكسب بعضها فوق بعض .
- أين هي هذه الملايين ؟
فنظر اليها عند هذا الكلام نظرة البازي إلى فريسته ثم قال لها ،
بعد سكوت قصير : إذا قلت لك أين هذه الملايين ، كلفك هذا السر ثمناً غالياً .
فضحكت روميا ضحكاً دلت به على عدم تصديقها ثم قالت : رضيت بالثمن ولكني أريد ان أعرف

- ٥١ -

- وساد السكوت بين تريبورينو والبستانيه الحسناء ، وكان كل منهما يفحص الآخر ويقول في نفسه ترى من يكون الغالب ؟
إلى أن بدأ تريبورينو الحديث قائلاً . إذن أنت تعتقدين أيتها الحسناء اني بموه محتمل ؟
- هذا ما يقوله الناس عنك .
- وترين اني فقير لا تكفيك ثروتي شهرين ولكني كما قلت لك لا يوجد في جميع أوروبا من يملك ربع ثروتي

- كل ذلك ممكن ولكن الكلام وحده لا يكفي
- أتريدون إذاً أن تري ثروتي كي تصدقي ؟
- دون شك .
- إحدري !
- من أي شيء تريد ان أحذر ؟
- من أمر بسيط وهو اني أخاف اللصوص .
- ذلك من حقلك لأن من كان مثيراً وجب عليه الحرص على ماله .
- إنه ، إلى الآن ، لم يعلم الموضع الذي خبأت فيه أموالي ، غير شخص واحد .
- إذا كنت قد أوقفت على شرك واحد ، فلا بأس من أن تطلع عليه اثنين .
- لكن هذا الرجل الذي أطلعت على سري بات عبداً لي وباتت حياته في قبضة يدي فهل يروق لك ان تكوني مثله ؟
- أقبل إذا أوضحت هذه الكنوز تحت أمري .
- ولكن يجب ايتها الحبيبة ان أخبرك قبل كل شيء كيف أصبح هذا الرجل عبدي وباتت حياته بيدي .
- إن هذا الرجل الذي ائتمنته على سري ارتكب جريمة ، إذا أذيع سرها حكم عليه بالاعدام وإن لدي الأدلة الكافية هي ثبوت جريمته فإذا فشا سر كنوزي فشيت سر جريمته ، فأعدمته بكلمة أرسلها إلى رئيس البوليس . غير انك لا تقاسين الى هذا الرجل ، لأنك لم ترتكبي جرائم قيا أظن .
- من يعلم ؟
- ولو افترضت انك مجرمة فليس لدي برهان يؤيد جريمتك .
- فقالت له بلهجة تدل على صدق المزمنة : وإذا أعطيتك هذا البرهان ؟

فاضطرب تريبورينو ، وأتمت هي حديثها فقالت : كلا انت جميع ذلك لا يفيد وأنا لا أزال واثقة من ان ما قيل لي عنك حقيقة لا شك فيها فاسمح لي أن أكلمك بحرية وجلاء .

فقال لها ببرود : تكلمي .

— إن هذا الرجل الذي جاء الى منزلي وطعنني بالخنجر واسع الثروة ، وثروته ظاهرة للعيان . وإن من الحكمة إشار الجلي على الخفي ، والثابت على المجهول .

أما وقد عرفت هذا فاعلم ان هذا الرجل يدعى غاستون ، وهو في مقتبل العمر يأخذ جماله وريمان صباه بمجامع القلوب . ولم أكن أحبه قبل هذا العهد غير أنه حين طعنني الليلة هذه الطعنة بت ميالة اليه ، لأن المرأة تحب الذي تخشاه ، ولذلك لقد عزمت عزمًا أكيداً ان أبيت الليلة في منزلك فاستريح ، ثم أفارقك في الغد فراق الأبد .

فلم يضطرب تريبورينو لكلامها ، بل قال لها بلء السكينة : وإذا أريتك كنوزي ؟

— هذا أمر يصعب عليك فيما أظن .

.. وإذا أريتك إياها ؟

— أوافق ولكن بغير شرط .

— ذلك مستحيل . . . ولكنني أشرط عليك شرطاً واحداً يسهل عليك احتماله ، إذا كنت صادقة النية ، وهو انك لا تفارقيني بعد إطلاعك على هذا السر .

— على شرط ان يحق لي التمتع بالكنز .

— دون شك .

فابتسمت وقالت : رضيت وهلم بنا لأنك ما خبأت كنوزك في هذا المكان دون شك .

- هو ما تقولين ولكني لا أستطيع الذهاب الآن .
- هوذا برهان آخر على المعجز
- كلا ولكن يجب علي قبل ذلك أن أحتاط لنفسي .
- ممن ؟
- منك !
- ثم قرع الجرس فأسرع اليه أحد الخدم ، وهو رجل هندي جاء به من الهند ، فأخلص في خدمته إخلاصاً أكيداً حتى أنه لو أمره بارتكاب الآثام في خدمته لما تردد .
- وكان هذا الهندي يدعى لبتيو ، فناداه وقال له بالهندية : أترى هذه السيدة ؟
- نعم .
- إنك ستقيم معها إلى أن أعود . وإذا أرادت الخروج من هذه الغرفة فاقتلها .
- ثم أعطاه الخنجر الذي بيده وقال لروميا: أرجوك ان تصبري بضع ساعات فقط إلى ان أعود .
- ومتى تعود ؟
- في المساء لأذهب بك الى المكان الموعود .
- أذهب في مركبة ؟
- كلا بل في سفينة .
- وماذا يجب ان أصنع حتى تعود ؟
- يجب ان تصبري وتحذري . أما صبرك فعلى البقاء في هذه الغرفة ، وأما حذرك فمن الخروج منها لأن هذا الهندي وحشي الأخلاق وقد أمرته ان يقتلك إذا حاولت الهرب وهو سيلازمك ملازمة ظلك
- ليكن ما تريد . ولكني أسألك أن تأمر الهندي أن يقف في الرواق ،

عند باب الغرفة ليخفّرني ، كي لا أكون وإياه في غرفة واحدة . ولا سبيل لي إلى الهرب من فائدة هذه الغرفة ، لأنها تملو عشرين متراً عن الأرض ، ثم لا فائدة لي من الهرب بعد ان عزمت عزمناً أكيداً على أن تربييني الكنز .

— لقد أصبت .

ثم أمر الخادم ان يقف عند الباب خارج الغرفة وانصرف .

وبقيت روميا وحدها ، وبقي الخادم في الرواق يتمشى ذهاباً وإياباً ، مشهراً الخنجر .

وبعد ذهاب تريبورينو بساعة كانت روميا تلعب حمامة قالت لتريبورينو أنها اشترتها من أحد بائعي الطيور في لندرا .

وكانت الحمامة تطير في جهات الغرفة فنقلت من كتفها الى كل مكان في الغرفة كما يتنقل الطير على الأغصان .

وبعد أن لاعبتها روميا هنيهة ، قامت الى منضدة وكتبت على ورقة صغيرة ما يأتي :

« راقبوا البيت . سيذهب بي تريبورينو هذا المساء في قارب . إتبعوه لأنه سائر إلى موضع الكنز » .

ثم أخذت الورقة فطوتها ، وربطتها بشريطة في عنق الحمامة ، وفتحت النافذة فأطلقتها . وطار الحمامة وحلقت في الفضاء تشق عباب الريح .

وعند ذلك ابتسمت وقالت . هذه هي حيلة لم يظن لها هذا الأبله الخائن ، إذ لم يخطر له ان هذه الحمامة من الحمام الزاجل .

مضي النهار كله دون ان يعود تريبورينو . فأقامت روميا في غرفتها لم تبرزها وأقام الهندي على الباب لم ينصرف عنه .

وبعد ان أطلقت الحمامة بساعة عادت اليها تلك الحمامة ووقفت على النافذة وجعلت تحرك جناحيها فأسرعت اليها ووجدت الشريطة معلقة بعنقها وفيها ورقة ففتحتها وقرأت فيها هاتين الكلمتين : «إننا ساهرون ا »

وعندما أقبل الليل عاد تريبورينو ، وكان الضباب قد انقشع . فرأت روميا من نافذتها القارب الذي جاء به ، وشاهدت بحارين . غير ان هذا القارب لم يكن من القوارب الخاصة بالملاحة في نهر التاميز ، بل كان من قوارب السفن التجارية . إذ شاهدت على قيعات البعارة اسم السفينة التي يخدمون فيها .

ولما دخل تريبورينو اليها قال لها : ألا تزالين أيتها الحبيبة مصممة على مشاهدة الكنوز ؟

- دون شك لأنني لا أقيم معك إلا على هذا الشرط كما اتفقنا .

- ليكن ما تريد .

ثم قام الى خزانة ففتحتها وأخرج منها قطعة من القماش بشكل كيس له ثقب من وسطه .

فسألته : ما هذا الكيس وماذا تريد به ؟

- أريد ان أحيط به رأسك فإذا لبستيه فلا ترين الطريق الذي سرت فيه وهو احتياط لا بد لي منه .

- إفعل ما تشاء فلا يهمني إلا ان أشاهد الكنز وأثق من ثروتك .

- إذا هلمي بنا .

وخرج الاثنان من المنزل إلى الشاطئ ومنسك وضع الكيس في رأسها

وربط أطرافه في عنقها . ولكنها قبل ان تلبسه شاهدت على قيد عشرين متراً من القارب سفينة ضخمة معدة لنقل الفحم وشاهدت رجلاً واقفاً عند مقدمها يدخل .

فقالت في نفسها : إني لم أشاهد هذه السفينة قبل الآن ، فإذا كانت هي سفينة روكامبول فلا تستطيع إدراك القارب ، لأنها بطيئة السير لضخامتها .

ثم أخذ تريبورينو بيدها وصعد بها إلى القارب وقال للبحارة : سيروا بنا . فسار القارب ومر بسفينة الفحم ، فلم يكثرث بها تريبورينو . ولم ينتبه إلى كلب أسود من كلاب الأرض الجديدة كان واقفاً قرب الرجل على مقدم السفينة .

فلما ابتعد القارب عن السفينة أشار الرجل إشارة إلى الكلب فألقى نفسه في النهر وجعل يسبح مقتفياً أثر القارب .

أما البستانيّة فلإنها كادت تختنق من ذلك الكيس ، ولكنها عولت على الصبر إلى النهاية ، فقد أمرها روكامبول أن تكتشف الكنز ، فلم تجد بداً من الامتثال .

وكانت المسافة شاسعة بلغت سير ساعة ، لم تكن البستانيّة تسمع في خلالها غير وقع المهازيف بانتظام ، وبعد ذلك شعرت ان القارب قد وقف ، ثم أحست ان تريبورينو قد أخذ بيدها وصعد ساعداً فعلمت ان القارب قد توقف قرب سفينة كبيرة .

ثم شعرت انها بلغت إلى سطح تلك السفينة الكبرى وسمعت صوتاً يقول : كل شيء قد تهيأ يا مولاي . فأجسّاب تريبورينو صاحب الصوت قائلاً : أنحن وحدنا ؟

— نعم لقد بعثت جميع البحارة إلى البر .

— والغرفة ؟

— إنها مهيأة حسب أوامركم .
— حسناً .

ثم مشى بضع خطوات مع البستانية ونزل بها سلماً ، حتى إذا انتهى من نزوله قال لها : إنك تستطيعين الآن ان تنظري ففكي قيود الكيس وانزعيه عن رأسك .

فأزاحت ذلك الكيس الذي كاد يخنقها ونظرت إلى ما حوالها فرأت ذلك الرجل الذي كان يكلم تريبورينو وهو جون هابر وشاهدت ان السفينة خالية لا يوجد فيها أحد سوى هذين الرجلين .

وعند ذلك قال لها تريبورينو : ستريين أيتها الحبيبة اني غير مموه خداع كما يتوهم عشيقك .

ثم دخل بها الى غرفة جون هابر . وكان يوجد تحت سريره حصير هندي فأزاح الحصير فظهر من تحته لولب أداره ففتح باب غرفة سري ينزل اليها بسلم . فأخذ الربان مصباحاً ونزل درجات السلم فتبعه تريبورينو وروميا حتى انتهى إلى الغرفة السرية فرأت أن ضوء المصباح كان ينعكس على أكداش الذهب وأحجار الألماس فتتقد اتقاداً .

فوقفت وقفة المنذهل مما شاهدته من الثروة الهائلة ، ووقف تريبورينو أمامها وقال لها بلمهجة الساخر : أترينني صادقاً فيما كنت أدعيه ، أم أنا من الموهين الخرفين ؟

— ٥٣ —

وكانت البستانية قد عرفت قبلاً من روكامبول مقدار هذه الثروة العظيمة ولكنها لم يسعها إلا الاندهاش لأنها شاهدت أكثر مما سمعت . غير انها نظرت

الى تريبورينو وقالت له بعظمة وسكينة : حسناً لقد بت معتقدة الآن انك من الأغنياء العظام .

– أترين اني أعظم ثروة من عشيقك القديم ؟

– دون شك والبرهان اني سأبقى معك .

فابتسم وقال لها : إنك ستبقين معي دون ريب ، فلان زمن سفرك قد فات .

– كيف ذلك ؟

– سوف أخبرك وهلمي معي .

ثم أشار الى جون هابر أن يقفل باب الكنز وقال له : سر بنا إلى غرفة السيدة .

فامتثل الربان ومشى أمامهما وهما يتبعانه حتى وصل إلى غرفة متسعة فدخلوا اليها وقال لها : هوذا المكان الذي عين لاقامتك .

فاضطربت لما ظهر عليه من دلائل التهم وقالت : أهذا مسكني ؟
– دون شك .

– لكن أتمنى ان تكون إقامتي فيه إلى الصباح .

– بل الى شهرين او ثلاثة أشهر .

– كيف يكون ذلك ؟

– لأننا سنسافر . وماذا يهمك ما زلت من الأغنياء ؟

– لا أنكر اني عولت على الإقامة معك ، ولكنني لا أبغي ان اكون سجيناً في هذه الغرفة .

– إنك تبقين فيها إلى ان تقلع بنا السفينة وعند ذلك تصعدين إلى سطحها

– إلى اين نحن مسافرين ؟

– لا أستطيع ان أخبرك اليوم .

– لكن قل لي على الأقل متى نسافر .

- غداً مساء قبل غروب الشمس إذا وافقنا الرياح .
- إذاً يمكنكني ان أعود صباحاً الى البر ؟
- كلا .
- لماذا ؟
- لأنك عرفت الآن سري ولا أحب أن يذاع السري في أحياء لندرا .
فأذعنت لاعتقادها ان إقناعه محال وقبلت مكرمة بهذا الأمر فقال لها :
لكن إقامتنا في هذه الغرفة لا تمنعنا عن العشاء .
- من يخدمنا ؟
- جون هابر الربان في هذه السفينة فانه وسفينته ملك لي .
ثم ضرب بيده على منضدة وأسرع اليه الربان فقال : هات العشاء .
وذهب الربان وعاد بعد حين يحمل صينية عليها عشاء فاخر صف من حولها
قساني النبيذ ثم حاول الانصراف فأوقفته بحركة وقالت لتريبورينو : ألا تأذن لي
باحضار حمامتي فانها تؤانسني بهذا السجن ؟
- كيف لا فاني لا أبغي ان تتمسجري ولا أتمنى لك الا الخير .
ثم قال للربان : إذهب الى المنزل وأحضر الحمامة بقفصها من غرفة السيدة .
فامتثل الربان وجلس تريبورينو حول المائدة يأكل ويشرب القدرح تساو
القدرح حسب عادته في كل ليلة فلم تحن الساعة الثانية بعد انتصاف الليل حتى
صرعه الشرب فانقلب ونام على الأرض .
فقامت روميا عند ذلك الى الباب ، فرأته يحكم الاقفال من الخارج وأنه
متين لا سبيل الى كسره . فضربت الأرض برجلها من القهر وقالت : إني
أسيرة ، ولكن لا بد للرئيس ان يعلم اننا مساقرون غداً ، وكيف
لي باخباره ؟
وبعد ساعة سمعت صرير المفتاح في القفل ثم فتح الباب ودخل الربان يحمل
قفص الحمامة وهي نائمة فيه .

فأعطاهما إياها ونظر الى تريبورينو قائماً تحت المنضدة فهز رأسه وقال : ان صوت المدافع لا يوقظه الآن .
- الملك يحتاج اليه ؟

- كل الاحتياج . لقد جئته بنبأ خطير ، ولكن لا بأس فساأصبر حتى يستفيق .
ثم انصرف وأقفل باب الغرفة من الخارج كما كان .

غير ان هذه الغرفة كان لها نافذة تطل على البحر ، كأكثر غرف البواخر ، ففتحتها وقد خطر لها ان تعود الى استخدام الحمامة ، ثم نظرت نظر الفاحص الى تريبورينو فرأت ان السكر أخذ منه ، وانه لا يستفيق قبل ساعتين او ثلاثة ، فأخذت دفترأ صغيراً من جيبها فانترعت منه ورقة وكتبت عليها ما يأتي :

« انا في سفينة لا أعرف اسمها ولكن الربان يدعى جون هابر ، والأموال مخبوة في العنبر . إننا نسافر مساء غد واللييب يفهم بالاشارة » .
(روميا)

ثم أيقظت الحمامة ، وكان الفجر اوشك ان ينبثق ، فعلمت الورقة في عنقها وأطلقتها .

وكان تريبورينو لا يزال نائماً غير ان الحمامة لم يطل غيابها فانها عادت بعد ساعة ووقفت على نافذة الغرفة ووجدت البستانية في عنقها ورقة ففتحتها وقرأت هذه الجملة : « نحن على أتم الاستعداد » .

فأعادت الحمامة الى القفص وبعد هنيهة صحاح تريبورينو من سكرته ووجدتها نائمة قربه على مقعد .

والنرجع الآن بالقارىء الى عهد بضع ساعات مضت ، اي حين كان تريبورينو سائراً بالقارب مع البستانية وحين سقط الكلب في البحر بإشارة من صاحبه مقتفياً أثر القارب .

أما صاحب الكلب فانه لبث بعد سقوطه واقفاً في مقدمة سفينة الفحم ، وبعد هنيهة صعد اليه شخص من غدير السفينة ، وكان هذا الشخص مرميس .

وقد عرف القراء دون شك ان صاحب الكلب لم يكن إلا روكامبول وكان الاثنان بلباس الفحمامين وقد اسود وجهاهما وايديهما من غبار الفحم الموجود في السفينة .

فلما صعد مرميس قال له روكامبول : لقد مر بنا هذا اللص بقاربه دون ان ينتبه الينا .

فأجابه مرميس : انه منشغل عنا بفراجه .

- بل بأمواله . وفي كل حال فان روميا في أثره كما قالت لنا في الرسالة التي قررتها مع الحمامة .

فابتسم موميس ابتسام المعجب باستاذة وقال له : إن هذه الطريقة التي ابتكرتها للرسالة هي خير الطرق .

- اني لم ابتكرها يا بني فقد كانوا يستعملونها في العصور الوسطى وهذا الحمام يسمى عندهم الحمام الزاجل .

- والكلب ؟

- انه من خير الكلاب الذين يستخدمون للتجسس ، فقد أثبت به من الأرض الجديدة حين عودتي من الهند وهو سيتبع القارب حتى يعرف مقره ولو اجتاز التاميز الى المانش ، واذا توقف القارب عند السفينة عاد الينا

فقدانا اليها .

وكانت السفينة تسير ببطء في اثر القارب ، فلا تصل اليه حتى اختفى عن الأنظار فجعل الاثنان يتحدثان وما ينتظران عودة الكلب ، فقال له مرميس : لقد علمت كيف ان تريبورينو لم يطلع البستانية على سره لشدة إشفافه على كنزه ، ولكني لم أعلم كيف انك لم تعلم إلى الآن موضع الكنز ؟

فأجابه : إني أبحث عنه منذ شهر فلا أهتمدي اليه . ولكني وثقت أن تريبورينو لم يضع شيئاً من المال في مصارف باريس ولندرا وأدمبره ودبلين .

– ولماذا ؟ أترأه يحاول دفنها في الأرض شأن الأغبياء ، وهو على ما عهد به من الذكاء ؟

– كلا ، ولكنه علم ان الأفكار ثارت عليه وان نظرات حكومة الهند قد تحولت اليه . فهو ينتظر الى ان تهدأ ثورة الأفكار بشأن ثروته وتفرغ الحكومة من البحث في مصادر هذه الثروة ولذلك فهو يخفيها الآن في مكان لا تصل اليه العميون .

وقد كان خطري في بدء بحشي انه يتركها في مكانها في سفينة الربان جون هابر الراسية الآن في الحوض ، غير اني رجعت عن هذا الخاطر لما أعلمه عن دهائه وحرصه ، فان هذا الربان قد يقلع بسفينته في ليلة مظلمة الى ميناء مجهول ويستأثر بالمال .

وفيا روكامبول يحادث مرميس سمع نباحاً فعلم انه صوت كلبه وقال : هوذا الكلب قد عاد الينا بالخبر اليقين وسوف ترى

وبعد حين وصل الكلب الى سفينة روكامبول فلما شاهد صاحبه نبج نباحاً قوياً وعاد الى السباحة أمام السفينة كأنه يريد إرشادها الى المكان الذي ذهب اليه القارب .

فقال روكامبول : هلم بنا الآن في أثر الكلب ، فسار الكلب ساجماً امامها
والسفينة تتبعه حتى انتهى إلى سفينة جون. هابر. فجعل يطوف حولها .
فايقن روكامبول أن البستانية في تلك السفينة وأن الكنز لا بد أن يكون
فيها ، فاخذ مرسى سفينة الفحم وألقاه في البحر .
فقال مرميس : ماذا تصنع أيها الرئيس ؟
- اننا سنقف قرب هذه السفينة .
- إلى متى ؟
- لا أعلم فاني اراقب الحوادث ثم اضطجع واضطجع مرميس بقربه فكان
روكامبول شاخصاً ببصره إلى السفينة يراقبها .
وبعد ربع ساعة شاهد روكامبول شخصاً ينزل من السفينة إلى القارب
وبيده مصباح فعرفه روكامبول وقال لمرميس : هوذا جون هابر قبطان السفينة
وقد شفيت جراحه وعاد إلى ما كان عليه. من القوة .
- ألا يجب ان نقتفي أثره ؟
- كلا ، انه ذهب إلى البر ولا بد أن يعود .
ولقد أصاب روكامبول ، فان هذا الربان عاد بعد ساعة يحمل بيده قفصاً
فيه حمامة ، فقال : ان البستانية ساهرة وسنقف على حقيقة امرها قبل الفجر .
- ماذا يجب أن نصنع الآن ؟
- أنت تبقى هنا تراقب كل ما يحدث في السفينة ، أما أنا. عائد إلى المكان
الذي تذهب اليه الحمامة عادة فاقف على أخبار روميا .
ثم تركه وغطس في البحر فعاد سباحة إلى البر .

ووصل روكامبول إلى البر فنفض ثيابه من الماء وذهب إلى وينغ في خمارة كالكراف التي عرفها القراء باسم خمارة الملك جورج فلم يندهش كالكراف لمراه إذ تعود أن يرى منه كل غريبة ولكنه أدخله إلى غرفة فيها كثير من الملابس المختلفة ، فغير روكامبول ملابسه ودخل إلى القاعة العمومية وهو بملابس البحارة .

وكان في هذه القاعة بعض البحارة يشربون وبينهم شخص منزو حول منضدة يشرب منفرداً ولا يشارك القوم في حديثهم .

فلما شاهده روكامبول ارتعش وقال : اني عرفت هذا الشخص ولكني لا أذكر أين غير انه لم يطل تذكره حتى علم انه كان رفيقاً له في سجن طولون فأذكر وجوده في هذا المكان لا سيما وقد شاهده بملابس رؤساء البحارة في السفن الكبرى فقال في نفسه : كيف تمكن هذا اللص أن يفر من السجن فيغدو بحاراً ثم يرتقى إلى رئيس .

فخطر له أن يبحث في شأنه ففتح ساعته كي يعلم إذا كان لديه من الوقت ما يضيعه في البحث عن أمر هذا الرجل فرأى أن الساعة الثالثة فقال في نفسه : لا يزال لي فرصة ساعة فان الحمام لا يرى في الليل .

وكان المكان الذي ألفت الحمامة أن تحضر اليه برسائل البستانية نافذة في غرفة الارلندية وهي الغرفة التي كانت تقيم فيها جيبسي ، أي انها لا تبعد غير بضع خطوات عن خمارة الملك جورج .

وكان الفصل في ذلك العهد خريفاً فلا يشرق النهار قبل الساعة الخامسة فلما نظر روكامبول في ساعته قال في نفسه : ان روميا لا تطلق الحمامة قبل ساعة ولا يزال الوقت فسيحاً لدي .

وكان من عادة روكامبول أنه يعتمد على الصدفة والاتفاق. فقد علمته التجارب أن الصدفة خير معين ، لذلك دنا من هذا الرجل الذي رآه في الحارة وجلس بقربه وحياء .

فقال له ذلك الرجل اللابس ملابس رؤساء البحارة : لقد أتيت بعد فوات الأوان أيها الرفيق فقد الفت بحارة السفينة ولم أعد محتاجاً إلى أحد .

- ما هي هذه السفينة ؟

- هي وست انديا لربانها جون هابر وقد عهد الي الربان أن أعد بحارته. لأنها مزمنة على السفر

فاضطرب روكامبول حين سمع اسم هذا الربان وقال للرجل : إني أهنئك بما بلغت اليه .

- بماذا تهنئي أيها الرفيق وما الذي بلغت اليه ؟

- ألم تكن هناك ؟

- أين هناك ؟

فما أحب روكامبول أن يطيل الحديث فقال له باللغة الفرنسية . ألا تذكر أيها الصديق اننا أكلنا أكلاً واحداً في سجن طولون .

فاصفر وجه الرجل وقال له وهو يتلثم ، إنك غطيت فما دخلت في حياتي السجن .

فأجابه روكامبول بهرود . بل دخلت إلى سجن طولون وكنت تدعى فيه نمره ، أما اسمك الحقيقي فاذاً ذكر انك تدعي جوزيف كوتيرييه أو روديرييه لا أعلم فإن العهد بعيد .

فلما سمع الرجل هذه التفاصيل الصادقة جعل يضطرب وباتت أسنانه تصطك من الخوف ، ورأى انه لا سبيل إلى الانكار فقال له : رحماك أيها الرفيق ولا تفضح أمري ، فأني كما تقول قد هربت من السجن وكنت أدعى فيه ٤١ ، لكن ليس في اسكلترا من يعلم بشيء من أمري ، وقد وصلت إلى

ما تراني فيه بفضل حسن سلوكي ، ولو كان لي ثروة لوهبتهك إياها ، لكنني أهبك كل ما أملكه .

فابتسم روكامبول وقال : أمعن النظر بي لعلك تعرفني .

– كلا ، بل يلوح لي . ولكن هذا محال .

– أراك عرفتني .

– ١١٧ ؟

فقال روكامبول وهو يبتسم : نعم هو بعينه سجين طولون القديم .

وكأنما هذا الرجل قد اطمأن لما عرفه فان ١١٧ ، أي روكامبول ، اشتهر في سجن طولون شهرة فائقة ، فانه انقذ السجين من الموت ، ومنع آلة الاعدام أن تسقط ، ومن ينقذ اخوانه من السجون فلا يعيدهم اليها ولا تخطر له خيانتهم في بال .

وهذا الذي حمل جوزيف على الاطمئنان حق أنه جاهر به فقال لروكامبول نعم لقد عرفتكم ولم اعد اخشى خيانتكم لأنني عرفتكم .

فقال له روكامبول : لا أنكر اني لا اخونك ، ولكنني اشترط في ذلك ان تطيعني في كل ما أريد .

فعاد الرجل الى الاضطراب فقال : اني اطيعك في كل شيء ما عدا الإثم فاني تبت توبة صادقة .

– وأنا ايضاً .

– وقد كرهت العيش القديم وأثرت العيش بعرق الجبين اما وقد عرفت ذلك مني فقل ما تريد .

– اريد ان اشترى اثمك الماضية بعمل صالح يكون كفارة عما اجترمته من الذنوب

فبدت على وجه جوزيف علائم السرور والارتياح : احقاً ما تقول ؟

- ان روكامبول لم يكذب بعد ان تاب فهل تطيعني متى وثقت من سلامة قصدي ؟
- اطيعك طاعة لا حد لها .
- — ماذا فاسمع .
- وخلا روكامبول بهذا الرجل ، ولم يعلم احد ما جرى بينهما حتى كالكراف .
- غير ان روكامبول حين بدأ الفجر ينبثق خرج من الخسارة وهو يقول :
- لقد اصبح تريبورينو في قبضة يدي .
- ثم انصرف الى غرفة الارلندية لينتظر الحمامة وفتح النافذة فها طسال انتظاره .
- ولما اقبلت الحمامة برسالة البستانية التي تقدم نشرها اجابها عليها بقوله :
- (نحن على أتم الاستعداد) .

- ٥٦ -

أما تريبورينو فإنه صبحا من نومه حسب عادته حين شروق الشمس فأجال في الغرفة نظر الفاحص فوجد البستانية نائمة ، ووجد الحمامة في القفص .

وقد وجد ايضاً نافذة الغرفة مفتوحة فخطر له في البدء ان البستانية فتحتها بغية الهرب منها ، لكنه ابتسم وقال في نفسه . إن هذا محال فان الأغنياء لا يهرب منهم النساء وإنما فتحت النافذة التماساً للهواء .

وفيا هو على ذلك سمع قرع الباب ، ثم رآه قد فتح ودخل منه جون هاتر فقال له : إني أتيت في الليل لأراك ولكنك كنت في حالة من السكر يتعذر بها محادثتك .

- العلك أتيتني بشأن خطير ؟

- دون شك .

... ما هو ؟

- أولاً انني جددت تأليف طاقم السفينة .

... لماذا ؟

- إذ لم أجد من الحكمة استخدام الهنديين وتجديد الاتفاق معهم لاسيما وقد بت مشككاً ببعضهم .

- العلك خائف منهم على الكنز ؟

- هو ما تقول .

فسر تريبورينو وقال : الحق انك رجل شريف أمين

- لقد خدعتك الظنون بي فما انا بشريف بل انا خائن مثلك ،

ولكني رأيت ان فائدتني هي في صيانة اموالك ، فبت حريصاً عليها
هذا الحرص

ولم يظهر تريبورينو استياء من كلام الربان وقال له : إذا فقد غيرت
البجارة ؟

- نعم ولم ابق واحداً من القدمات .
- وهل البجارة الجدد ماهرون ؟
- انهم من البجارة المحربين وقد كلفت باختيارهم رجلاً فرنسياً كان من
كبار المجرمين ففر من سجنه وبات من خير البجارة .

- كيف ذلك اختار مجرماً لقيادة السفينة ؟
- الم اقل لك انه فر من سجنه فهو سيكون لنا من اوفى الأوفياء إذ يعلم
باطلاعي على سره .

- ارى انك قد تعلمت طريقي ونهجت مع هذا الرجل كما نهجت معك
وهي طريقة صالحة في كل حال ، والآن قل لي متى نستطيع السفر ؟
- إننا سنخرج من الحوض في هذا المساء ونرسو الليملة في عرض النهر
في الجهة المقابلة لمنزلك ، وعند الفجر نساغر فقل لي انت ايضاً الى اين
ازمعت السفر ؟

- إننا سنتحول في ايكوسيا الشرقية ، فقد اشترت هناك منزلاً
منحوقاً في جوف صخر وفي نيتي ان اخيـء اموالي فيه ، إذ تكون هناك
في امان .

- اما وقد ائتمنتني على شرك فاسمع اخبرك بما لا يخطر لك في بال ،
اتذكر ذلك الرجل الذي حاول بسف سفينتنا ثم نجا من النسافذة وتوارى
ساجماً في البحر .

- اتريد به ذلك الفرنسي صديق الرجاء الذي يدعى افافار ولكنه غرق
قبل ان يصل إلى البر ؟

- انتظن انه غرق ؟
- بل أؤكد ، فقد نشرت جرائد الهند يحملتها انهم عثروا بجثته وجثة قادر .
- فقال له الربان ببرود : ولكن الجرائد كلها منخدة فان هذا الفرنسي لا يزال حياً يرزق وهو الآن في لندرا .
- فاصفر وجه تريبورينو وقال : ان وجوده فيها خطر شديد علينا فلنسرع بالرحيل .
- ولكفي كفيتهك مؤونة هذا الخطر ، الا تذكر انه بعدما ابداه من الجرأة في محاولة الاستيلاء على السفينة اننا كتبنا تقريراً عن شرح الواقعة امضاه جميع البحارة ؟
- نعم .
- إن هذا التقرير وحده يكفي للحكم عليه بالاعدام إذا اتصل بنظارة البحرية وسيقبض عليه اليوم .
- ولكن اين ؟
- في فندق بريستول حيث يقيم ويعيش عيش الأشراف .
- أنت واثق من كل ما قلته لي ؟
- كل الثقة .
- رأيته بعينك ؟
- رأيته منذ يومين في تياترو غاردن ، فأرسلت احد بحارتي يقفني اثره فاقتفاه وعلم انه يقيم في هذا الفندق باسم الماجور افاتار .
- وجعل العرق ينصب من جبين تريبورينو وقال : انتظن ان البوليس يصدق ما تقول ؟
- دون شك فسأذهب إلى نظارة البحرية فأطلعها على التقرير واخبرها باسم الفندق فترسل من يقبض عليه .

فمسح تريبورينو عرق جبينه وقال : لقد احسنت ولكني كنت اؤثر ان يكون هذا الشيطان قد مات غرقاً .

- انهم سيعدمونه رمياً بالرصاص ، فلماذا تنوعت اسباب الموت ، فالموت واحد .

وعند بلوغها بالحديث الى هذا الحد تنهدت روميا ، وكأنا يحسبان انها نائمة فقال له تريبورينو : كفى ، لقد صحت من رقادها ولا احب ان تسمع هذا الحديث .

أما روميا فانها فتحت عينيها وفركتها مرار متتالية وهي تنظر فظرات الانذهال الى ما حواليتها وتمثل الصحو من الرقاد اتم تمثيل ، ولم يشككها انها كانت نائمة .

- ٥٧ -

ولنعد الآن الى مرميس فانه بقي مضطجماً فوق سفينة الفحم يراقب سفينة تريبورينو كما أمره روكامبول. ، واقام طول ليله يراقب السفينة دون ان يلوح له شيء جديد .

وعند الفجر رأى السكيب قد التفت ، فالتفت الى الجهة التي التفت اليها فرأى رجلاً واقفاً وهو يشير اليه بالحيء ، فما شكك انه روكامبول بالرغم عن تغير زيهِ وشكله فأسرع الى موافاته .

وكان هذا الرجل روكامبول نفسه وقد بالغ في التنكر كي لا يعرفه احد فلما صعد مرميس الى قاربه عاد الاثنان الى الرصيف وسارا حتى إذا انتهيا الى شارع مقفر قال له روكامبول : اني لولم اشر اليك لما عرفتني فإني متذكر بزي جون هابر ربان هذه السفينة التي فيها الكنز ، وسأتولى قيادة السفينة واخرج بها من الحوض عند منتصف الليل فتكون انت الربان الثاني .

فانذهل مرميس وقال له : ولكن تريبورينو مقيم فيها ، وهو يعرف ربانها معرفة جيدة ؟

- إني حين اصعد الى السفينة يكون تريبورينو قد بات اسيراً فيها . .
- من يأسره ؟
- انت .

وزاد انذهال مرميس وقال له : أتم حديثك ، فاني لا افهم كلمة من هذه الألفاظ .

- ان الأمر بسيط لأن تريبورينو وجون هابر سيسافران هذه الليلة الى

مكان مجهول ، وقد عرفت ذلك من رسالة البستانية ، ثم ان جون هابر قد اطلق سراح جميع بحارته وكلف شخصاً ان يجمع له عشرة بحارة اشداء ، وعرفت هذا الرجل وبات شبه عبدي ، ولو كان الوقت فسيحاً لدينا لأخبرتكم بجميع هذه التفاصيل ولكنك ستري فتعلم كل شيء .

— والى اين نحن ذاهبان الآن ؟

الى خمارة كالكراف حيث نجد فيها هذا الرجل وجون هابر معاً إذ لا بد له من الحضور الى الخمارة لموافاته .

وظل الأمر مهمماً ملتبساً على مرميس ولكنه لم يحسر على سؤال روكامبول .

وبعد نصف ساعة بلغا الخمارة واجتمعا بجوزيف كرتسيه في غرفة خاصة ، وقال روكامبول لجوزيف : انت واثق ان جون هابر سيحضر الى هنا ؟

— دون شك فاني متفق معه على ان اريه البحارة الذين جمعتهم وموعداً هنا في الساعة العاشرة .

— وهل أنت واثق أيضاً أنه لا يوجد بين البحارة الذين جمعتهم من يعرفه ؟

— نعم فليس بينهم من اشتغل في سفينته .

— إذا ابقوا أنتم هنا وأنا انتظر في الغرفة المجاورة فاني أخاف أن يأتي فجأة فيراي .

ثم تركهما ودخل وبقي مرميس وجوزيف ينتظران .

ولما اذنت الساعة التاسعة أقبل جون هابر ودخل إلى القاعة فقال لجوزيف لقد تأخرت قليلاً فإني كنت في نظارة الحربية لقضاء بعض المهام فمن هذا الذي أراه معك ؟

- هو أحد البحارة الذين جمعهم وسيحضر الآخرون فترام .

- إذن نشرب زجاجة خمر الى ان يحضروا .

ولكنه قبل أن يطلب الزجاجة سمع صوتاً يشبه صفير الهواء وشعر
بحبل التف على عنقه وجذبه فسقط على الأرض .

ذلك ان روكامبول خرج من مخبأه واطلق الحبل عليه حسب الطريقة التي
تعلمها من الخناقين .

وعند ذلك انقض عليه جوزيف ومرميس بأمر روكامبول فقيداه واشهر
روكامبول خنجره وقال له : تخير بين طاعتي فيما أريد وبين ان تموت على الفور
واسرع بالجواب فان الوقت ثمين .

وكان جون هابر حكيماً وفوق ذلك فقد رأى من اعمال روكامبول ما
يدعوه الى الحكمة فلم يستغث ولم يقاوم .

ولما أتم مرميس تقييمه نادى روكامبول كالكراف وسأله ان يحضر
له أدوات الكتابة ، فامتلأ وخرج ، وجون هابر ينظر اليه نظرات الحقد
والتأنيب .

أما روكامبول فانه قال للربان : اننا سنعمل قيد يدك اليمنى كي تكتب ما
أعلمه عليك .

- وإذا ابدت ان اكتب ؟

- تموت في لحظة .

فلم يسعه الا الامتثال فأملى عليه روكامبول ما يأتي :

« لخصرة الماجور لنتورت .

« ارسل اليك رئيس بحارتي الذي سيتولى قيادة السفينة مع البحارة
العشرة الذين اختارهم ، ولي فيهم ملء الثقة ، وهو سيخرج بالسفينة من
الحوض وينتظرنى على مسافة مرحلة من لندرا ، وعند منتصف الليل

احضر واكون متأهباً لتنفيذ اوامرك ، أما تأخري في البر فلقضاء بعض المهام . »

(جون هابر)

فلما كتب هذه الرسالة طواها روكامبول ووضعها في جيبه ، ثم نادى كالكراف ايضاً وقال له : انك مسؤول عن هذا الرجل مدة عشرة أيام تسجنه في خلالها في قبو الشراب الذي اتفقنا عليه .
ثم اضاف إلى ذلك بلهجة المتهم قائلًا : وبعد عشرة أيام تطلق سراحه فيذهب للبحث عن سفينته .

- ٥٨ -

وحمله كالكراف وذهب به إلى القبو ، واقبل البحارة بعد حين فعرضهم جوزيف على روكامبول وهو متنكر بزي جون هابر وقال لهم : هوذا الربان الأكبر .

ثم خلا روكامبول بمرميس فقال له : إني لا أحب ان اذهب في النهار الى السفينة كي لا يعرفني تريبورينو وسأوافيكم اليها في الليل فانه يسكر وينام حسب عادته ، فاجتهد حين تذهب إلى السفينة ان تري روميا وتقول لها ان تضع جميع هذا المخدر في كأس شرابه .

فقال مرميس : أهذا كل ما تأمرني بقضائه ؟

- نعم فاذهب الآن مع البحارة إلى السفينة وخذ المخدر لروميا .
ثم نادى جوزيف واعطاه خطاب جون هابر إلى تريبورينو وامره ان يذهب بالجميع إلى السفينة .

وبعد ان ذهب البحارة دخل روكامبول إلى غرفته فخلع تنكره وارتدى بلباس النبلاء ، ثم خرج من الخمارة وجعل يتجول في شوارع لندرا حتى انتهى إلى مكتب التلغراف فدخل اليه وأرسل التلغراف الآتي :

« فلكستون فندق بلجيكا »

« إلى مدام فاندا كرايلف . »

« تم العمل . سافري مع الغلام وميلون بقطار الليل . »

« أفتاكار ، »

ولم يعد توأ إلى فندق بريستول الذي كان مقيماً فيه ، بل انه ذهب إلى
بيكاديلي فتعدي ، ثم ذهب إلى نادي بال مال فأقام فيه يطالع الجرائد إلى
وقت العشاء .

وعند الساعة الثامنة ذهب الى فندق بريستول كي يأخذ اوراقه فلما وصل
اليه رأى الارلندية تنتظر جازعة .

فقال لها : ماذا اصابك وماذا تريدن ؟

- اني طفت جميع اندرا باحثه عنك وأنا انتظرك هنا منذ الظهر فان
الحمامة قد عادت .

فارتعش روكامبول وقال : أهـي حاملة رسالة ؟

- نعم وهذه هي .

فأخذ روكامبول الرسالة بيد مضطرب وأشار إلى الارلندية ان تتبعه إلى
غرفته وهناك فتح الرسالة وقرأ فيها ما يأتي :

« ان جون هابر يعلم انك في لندرا وقد شكاك إلى نظارة البحرية فاحذر
ان تعود إلى فندق بريستول » .

فاصفر وجه روكامبول وقال : يجب أن نبرح هذا الفندق في الحال فـإذا
فعلت بالحمامة .

- ابقيتها عندي ..

- حسناً فعلت .

وبينا هو يجمع اوراقه بسرعة ، إذ قرع باب غرفته وسمع صوتاً من الخارج
يقول : إفتحوا باسم الشرع .

فاضطرب روكامبول وعلم ان البوليس قد ظفر به ولكنه رأى انه لا بد
من فتح الباب فقال للارلندية : اني سأعطيك رسالة فضعيتها في عنق الحمامة
واطلقها عند الفجر .

ثم ذهب ففتح الباب ودخل رجلان من البوليس فقال له أحدهما : أنت

الماجور أفاتار ؟

- نعم ..

- لقد صدر اليينا الأمر يا سيدي بالقبض عليك وهذه صورة الأمر

- ولكن بأي ذنب أنا متهم ؟

- يتهمونك أنك حاولت في خليج بنغال نسف سفينة وست انديا .

فقال روكامبول بسكينة : لا شك انهم مخطئون ولكني لا أحاول اقناعكم انتم إذ ليس ذلك من شأنكم ، ولذلك سأتبعكم إلى حيث تريدون ، إنما أسألكم ان تأذنوا لي بكتابة كلمة إلى صديق لي ليوافيني دون شك إلى محل التوقيف فيخرجني منه .

فأذن له البوليس بالكتابة فأخذ ورقة وكتب عليها بضعة أسطر بالقلم الرصاص ثم دفعها إلى الارلندية وقال لها : ارسليها عند الفجر مع الحمامة .

وعاد إلى البوليس وقال : هلموا بنا .

كانت السكينة سائدة في السفينة وست انديا وقد وصل اليها جوزيف ومرميس والبحارة عند الظهر فدفع جوزيف الى تريبورينو الرسالة التي أملاها روكامبول على جون هابر ، فقرأها دون ان يشكك فيها وقال في نفسه ان الربان لم يبق في البر إلا للقضاء على روكامبول القضاء المبرم

وقد اغتنمت روميا فرصة وجوده على سطح السفينة فكتبت الى روكامبول تلك الرسالة التي اعطته اياها الارلندية بعد فوات الأوان واقامت تنتظر عودة الحمامة عدة ساعات فلم تعد .

ثم نزل تريبورينو الى غرفتها وقال لها : اصعدي الى سطح السفينة وسرحي الطرف بجمال الميناء فإن الطقس جميل

فامتثلت روميا وصعدت وكان اول رجل رأت مرميس فتنهدت تنهد الارتياح وعلمت ان الرئيس قد أدرك المرام .

اما مرميس فانه اغتم فرصة انشغال تريبورينو بمحادثة رئيس البحارة فدنا منها وقال لها . ان الرئيس يحضر عند نصف الليل فبكوري بالعشاء مع تريبورينو وضعي في كأسه هذا المنوم .

فأخذت روميا المخدر وعادت الى غرفتها تفتقد الحمامة ، لكن الحمامة لم تعد غير ان كلام مرميس طمأنها على روكامبول .

وعند الساعة السادسة دخل تريبورينو وقال لها : إننا سنبرح الحوض هذه الليلة وعند الصباح نسافر .

وقالت بلمهجة تدل على عدم الاكتراث : ليكن ما تريد وبعد حين رفعت المراسي ونشرت القلوع فخرجت السفينة تمشي الهويناء

من الحوض

وكانت روميا قد تمكنت خلال النهار من محادثة مرميس وقالت له : إن
خوفي شديد فأنت جون هابر في البر وسيشكوه الى نظارة البحرية .

فابتسم مرميس وقال : إن هذا الربان بات سجيناً عندما فلا تحشاه .

— ولكن الحمامة لم تعد الى الآن ؟

— ان الرئيس ابقاها عنده دون شك كي لا يحمل تريبورينو على الريب
وسيعود بها اليها .

وعند الساعة العاشرة خلا تريبورينو مع البستانية في غرفتها وبدأ بالسكر
والعشاء حسب العادة .

وقال لها : ان جون هابر قد لا يعود قبل نصف الليل ، وإذا عاد في هذا
الحين اكون طائراً في عالم الأحلام بفضل هذه الخمر المعتقة .

— أما انا فأكون صاحبة وإذا اردت ان تأمره بشيء أنوب عنك في
تبليغيه امرك .

— نعم فإن السفينة سترسو بعد ساعة قرب منزلي الذي كنا فيه فتمى وافانا
اليها مريه باسمي ان لا يرفع المرامي قبل ان استفيق .

وجلس حول المائدة وجعل يأكل ويشرب وهي تناديه وتناغيه حتى
اوشك سكر الخمر واللحظ ان يذهب بصوابه فدست له في كأسه ذلك الرشاش
المخدر فشربه وكان آخر كأس إذ صعق فجأة حين استقر في جوفه واطبق
عينيه وسقط بين قواعد المائدة .

وقامت روميا عند ذلك فهزته هزاً عذيفاً فلم يستفيق ، وأيقنت ان المخدر
قد صرعه .

ثم نادى مرميس وقالت له : هوذا قد بات صريعاً وهو لا يستفيق قبيل
يومين كما علمت من المخدر ، فكم الساعة الآن ؟

— اننا في منتصف الليل وقد رست السفينة في المكان المعين .

ـ إذا إن غيـاب الرئيس لا يطول .
ثم صعدت وإياه الى سطح السفينة ، ولم يطل وقوفها حتى رأيا قارباً
يدنو فقالت : لا شك انه قارب الرئيس .
غير ان القارب مر بالسفينة دون ان يقف .
وثارت هواجس روميا ورميس ، وتمكن الخوف منها على الرئيس لاسيما
وان رميس قد ذكر ما قاله جون هابر حين وصوله الى خماره كلكراف فقد
قال : انه كان عائداً من نظارة البحرية .

ومرت الساعات وكانت القوارب تمر بالسفينة دون ان تقف فأيقن رميس
أن روكامبول قد اصيب بنكبة وعول على الرجوع الى البر وامر جوزيف ان
يعد له قارباً

وكان الفجر قد انبثق فبينما البحارة ينزلون الى البحر رأت روميا الحمامة
تحوم حول السفينة

وقالت هوذا الحمامة قد عادت .
وأسرعت الى غرفتها فأخذت الحمامة ورأت في عنقها رسالة فانزعمتها منه
وقرأت مع رميس ما يأتي :

« أنا الآن سجين ولكنني سأخرج من سجن غداً أو بعد غد فلا تقلقوا علي
واكتبوا في الحال رساله إلى مسر الن في لندنرا اني سجين .

« ثم سافروا عند الصباح إلى الهافر وابقوا تريبورينو في العنبر وكلمنا
استفاقي اسقوه الخدر ، أما أنا فإني سأوافيكم إلى الهافر ، او اكتب اليكم
فانتظروني أو انتظروا كتاباً مني فيها » .

(روكامبول)

فوقفت روميا موقف الحائر وقالت : ماذا يجب ان نصنع ؟
وقال لها رميس يجب أن نصدع بأمر الرئيس فهو سيوافينا دون شك
او نتلقى أوامره من الهافر متى بلغنا اليها

- إذاً ليكن ما تريد .

وكتب مرميس رسالة إلى مس الن ، وهي تلك الفتاة النبيلة التي أنقذها
روكامبول من مخالب السير جورج ستوي فكانت له خير حليف مع أبيها
اللورد ، وبعثها اليها مع بحار .

فلما وثق من وصولها أمر بأن تقلع السفينة فسارت تشق عباب البحر إلى
الهافر وفي عنبرها الكنوز وسارقها .

وصلت السفينة إلى الهافر بعد بضعة أيام فأسرع مرميس بالنزول إلى البر
باحثاً عن روكامبول فكان أول من رآه ميلون فدهش لمراه وقال له كيف
أتيت وأين الرئيس ؟

- ان الرئيس لا يزال في لندرا وأنا هنا مع فاندا وسائر رجال العصابة
وقد صدر الينا أمره أن نوافيك إلى الهافر نعطيك هذا الكتاب

- وأين هي فاندا الآن ؟

- انها في فندق قريب مع بقية العصابة ونحن هنا منذ ثلاثة أيام ننتظر
وصول السفينة فكانت أحضر كل يوم إلى الميناء وألبث فيها الى المساء .

ثم أعطاه كتاب روكامبول وهو معنون باسم مرميس وروميا فأخذه وعاد
به الى السفينة ففضه وقرأ فيه مع روميا ما يأتي :

« أكتب اليكم من لندرا فقد تحتم علي البقاء فيها الى أجل غير محدود لقضاء
مهمة خطيرة أرجو أن أغسل بقضائها ذنوبي السابقة وأتال عفو الله .

وأنا بخير وعافية وقد خرجت من السجن بمساعي المس ألن وأبيها اللورد
وقد يمر عهد طويل دون ان تقفوا على شيء من أخباري فاحذروا من البحث أو
القدوم الى لندرا إذا لم ترد اليكم أو امري مهما تلبست أحوالي بالخفاء ومهما
انقطعت عنكم أخباري .

والآن فاني أوصيك يا مرميس أن تدعو اليك جميع رجال العصابة فتتقنون

الأموال تباعاً الى البر حق إذا باتت كلها لديكم ضع النقود في مصرف باريس
باسمي وأبقى اللآليء والأحجار الكريمة امانة في ذلك المصرف .

وبعد فراغك من نقل الأموال ووضعها حيث أمرتك تعود الى السفينة
فتطلق سراح البحارة وبعد أن تكافئهم خير مكافأة وتسقي تريبورينو جرعة
من الخمر ثم تتركه وحده بالسفينة وتعود برفاقك الى باريس فان جون هابر
سيوافيه الى المافر للبحث عن سفينته فيفعلان ما يشاءان ومتى فرغت من جميع
ذلك فابعث إلي برسالة برقية بعنواني الذي تعرفه كي أطلق سراح الربان واهديه
الى مرسى السفينة .

ثم أريد متى عدت الى باريس أن تشغل جميع رجال العصابة كلا بمهنته
وتعطيهم هذه الأعمال من اموال جيبيسي فانها لا يجب ان تنفق إلا في سبيل
الخير فاجعل ميلون مقاولاً لأن مهنته بنسأ وتجعل جواني تاجر لحوم لأن مهنته
جزار ، وهلم جرا . ثم تجتمعون كل اسبوع للمداولة برئاسة فاندا فيما يجب
صنعه من أعمال الخير والبر

أما روميا فيجب أن تسافر في الحال الى الهند حيث ينتظرها نادر في كلكتا.
ويجب على مرميس أن يزور كل يوم ابن الماركيز مورفر في مدرسته ويتفقد
أباه في المستشفى كما يجب على فاندا أن تعتني بابن الرجاء وفي كل شهر ترسلون
إلي تقريراً ضافياً عن جميع أعمالكم بالعنوان الذي أبعثه اليكم كل شهر .
وفي الختام أعيد عليكم ما بدأت به فاحذروا أن تبحثوا مني مهما انقطعت
أخباري .

وهذا كل ما أطلبه اليكم فاعملوا بما علمتكم واعلموا أن روحي ساهرة
عليكم أين كنتم .

« روكامبول »

فأسف مرميس لبعد روكامبول أسفاً شديداً ولكنه لم يسعه إلا الامتثال
لفعل جميع ما أمره به ، وبعد اسبوع سافرت روميا الى الهند كما أمرها نادر

وأودعت الأموال في مصرف باريس كما أمر روكامبول .
وبات سارق الكنوز وحيداً فريداً في تلك السفينة فلما استفاق من نومه
وزال تأثير التخدير وتفقّد كنزه وعلم مصيره جن من يأسه فأطلق غدارة على
صدغه اسالت دمائه ، وجاء جون هابر الى السفينة فوجد ذلك اللص الخائن
جثة باردة فألقاه في البحر غير آسف عليه وعاد بسفينته الى بلاده راضياً من
الغنيمة بالإياب .

انتهت رواية « كنوز الهند »

ويليها الجزء الثاني عشر من روكامبول « ابن ارلندا »

الجزء الثاني عشر

ابن ارلندا

ابن ارلندا

- ١ -

هناك على ضفاف نهر التاميز في ليلة أدلهم ظلامها وتلبد الضباب في مائها
كان نحو خمسين سفينة بخارية تسير ذهاباً وإياباً في ذلك النهر العظيم فتتقل
الركاب من ضفة الى ضفة .

وإن بينهما سفينة ازدحم فيها الناس ، بين نساء ورجال وأولاد على
اختلاف طبقاتهم ، فكان معظمهم شاخصين بأبصارهم الى امرأة بين ركاب
السفينة ، لا تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها ، ومعها غلام يبلغ عمره
عشرة أعوام .

وقد اختلفت نظرات الناس اليها ، بين المعجب والمندهل والمشفق ،
لأن ملابسها كانت رثة تدل على الفقر ، في حين ان مخائيلها كانت تدل على
النبيل والشهامة .

وكانت المرأة لابسة قبعة من القش وعلى كتفها شال قديم من نسيج القطن
وفي رجلها نعلان يدل تكديس الغبار عليها أنها اجتازت مسافة شاسعة مشياً
على الأقدام .

أما الغلام فقد كان عاري الساقين الى الركبتين حاسر الرأس لا يستره غير شعر أشقر كثيف . وقد وشحته أمه وقاية له من البرد بوشاح يظهر أن أصل لونه كان أحمر وأزرق ، ولكنه استحال لتقدم العهد به فصار أصفرأ سنجابياً .

أما الذي دعا ركاب السفينة إلى إطالة النظر إلى الغلام وأمه ، فهو ان هذه الأم على فقر ملابسها ، كانت فتنة للناظرين بما وهبها الله من الجمال ، وكان أصدق وصف للغلام انه كان ملاكاً لم ترسم مثل وجهه الصبوح أيدي أبرع المصورين .

وكانت المرأة بيضاء الوجه قرمزية الشفتين زرقاء العينين سوداء الشعر . أما الغلام فكان أشقر الشعر وله علامة غريبة يتميز بها وهي خصلة حمراء دقيقة كانت تتسرب من شعره الأشقر إلى جبهته .

وكان الغلام وأمه ينظران بقلق الى تلك العيون المحدة بهما ولا يفهمان لها معني ، ثم يحولان أنظارهما عن الناس الى ضفتي النهر فيريان على أنوار المصابيح ما كانا يمان به من المنازل والحدائق والمحطات والجسور فيظهر من اندهاشها أنها غريبان .

ولم يكن بين المسافرين من يعلم من أين قدما ، لأنهما ركبا السفينة من محطة كرونويز وقد وصلا اليها ماشيين . فتنهدت الأم وأخذت كيسها وفيها نحو ثلاثة شلنات وبضع قطع من النقود النحاسية فأخرجت منه بنسيتين ثمن التذكريتين ، وأقامت في المحطة تنتظر قدوم السفينة وهي حاضنة ابنها .

ولم تكلم أحداً مدة الانتظار حتى اذا وصلت السفينة الى محطة أحواض الهند سألت رجلاً بقرها : هل نحن في لندرا ؟

وكان هذا الرجل بائع سمك وهو ايكوسي فقال لها : نعم ولا لأن لندرا لا نهاية لها كما يقول الانكليز فإلى اين انت ذاهبة ؟

فترددت المرأة هنيهة ثم قالت له : إني ذاهبة الى شارع يوجد فيه كنيسة

- تدعى سانت جيل واسم هذا الشارع لورنس ستريت .
- إني أعرف هذا الشارع وهذه الكنيسة فهي كنيسة كاثوليكية .
- نعم .
- العملك إرلندية ؟
- نعم يا سيدي .
- وكان هذا الرجل كريم الأخلاق ولكنه كان كثير الكلام . فراق له الحديث مع هذه المرأة لما رآه من جمالها وجعل يصف لها الطريق المؤدي الى الكنيسة وصفاً مفصلاً دقيقاً حتى اذا انتهى من تفصيله قال لها : العملك ذاهبة يا سيدي الى أهل لك في تلك الناحية ؟
- كلا ، إني لا أعرف احداً من لندرا ولكن قيل لي انه يوجد في شارع لورنس . رجل إرلندي يدعى بتريك سأقيم عنده أنا وابني .
- إن اسم بتريك كثير الشيوع بين الارلنديين ، وإذا كنت لا تعلمين عن هذا الارلندي غير اسمه الأول ، فإنك ستبتئين هذه الليلة دون مأوى .
- فرفعت الارلندية عينيها الى السماء وقالت : إن الله رؤوف كريم ، ولا يتغلى عنا .
- واستأنف الرجل الحديث فقال لها : إنك قادمة الى لندرا لتشتغلي فيها دون شك .
- لا أعلم .
- فاستغرب الرجل جوابها لاسيما حين رأى ملابسها الرثة وقال لها : إن جميع الناس في لندرا يشتغلون ما خلا اللوردية .
- إني أتيت بمهمة اليس غداً يوم ٢٧ أكتوبر ؟
- نعم .
- إذاً قد وجب علي ان أكون صباح غد في كنيسة سانت جيل وان أقدم

ولدي لكاهن تلك الكنيسة .
فقال لها الايكوسي ببساطة : وماذا تريدن تقديمه للكاهن ، في
يوم معين ؟
- لأن أباه أوصاني بذلك قبل وفاته .

وكانت الارلندية تحدث الايكوسي وهي غير مكترثة للناس الذين كانوا
ينظرون اليها ، وبينهم رجل من النبلاء وامرأة ، كانا ينظران الى ولدها
نظرات خاصة .
وعاد الايكوسي الى الحديث ، وقد أعجبه ادب المرأة وأشفق عليها
لسلامة قلبها فقال لها : إن امرأتي يا سيدتي كريمة الأخلاق ، فإذا أردت أن
تبقى الليلة عندها مع ولدك استقبلتكما بملء الارتياح ، وعند الصباح تذهبان
الى الكنيسة .

وكانت لهجة الايكوسي تدل على المروءة الصادقة والاخلاص الصحيح غير
ان المرأة رفضت دعوته شاكرة وقالت له : يجب علي ان أذهب الى حيث
أمرت ان أذهب .

وكانت السفينة قد وصلت الى المحطة التي يسير فيها الايكوسي الى منزله ،
فقال لها : إذا استودعك الله وأسأله ان يقيك شر المعتدين
ثم انصرف وعادت السفينة الى سيرها .

وكان الرجل النبيل والمرأة لا يزالان في السفينة . أما الرجل فكان
ينظر إلى عيني الغلام ويقول في نفسه : ما أشبه هذه النظرات المتقدة
بنظرات ادمون .

وأما المرأة فانها انسلت كالأفعى وجلست بجانب الارلندية وابنها .

كانت هذه المرأة التي انسلت الى الارلندية ، أشرفت على سن الكمولة ، وهي زرقاء العينين مصفرة الأسنان رقيقة الشفتين ، تدل ملاحظها على الخبث والدهاء .

فدنت من الارلندية فبدأت حديثها معها بالثناء على ولدها والاعجاب بمجاله ثم استطردت من ذلك الى تعريفها بنفسها فأخبرتها انها كاثوليكية تدعى مسز فانوش وان مهنتها تربية الأطفال وانها تقيم في منزل قرب اكسفورد على مسافة خطوتين من سانت جيل

فقال لها الارلندية : تقولين انك كاثوليكية العلك إرلندية ؟

فاشمازت المرأة في البدء ولكنها فطنت الى ان كل غريب يأنس بقومه في غربته فقالت لها : إني لم أولد في ارلندا ولكني إرلندية الأصل فقد كان جدي أرلندياً فلما هاجرنا الى لندرا بقينسا على مذهب الكشركة . وقد لقيت عناء شديداً من زوجي رحمه الله فانه كان بروتستانتياً ، وكان يحاول إكراهي على تغيير مذهبي في كل حين .

ثم غيرت الحديث وقالت لها : أأنت ذاهبة الى سانت جيل ؟

- نعم يا سيدتي .
- العلك تعرفين احداً من الارلنديين في تلك الجهة ؟
- كلا يا سيدتي ولكني مرسله الى شخص يدعى بتريك .
- في شارع لورنس اليس كذلك ؟
- هو ما تقولين .

وكان بجانب مسز فانوش امرأة لا تقل عنها خبثاً كما تدل ظواهرها فتبدلت بينهما نظرة سرية لم ترها الارلندية فكتبت المرأة بسرعة اسم بتريك وسانت جيل ولورنس ستريت .

وعادت مسز فانوش الى محادثة الارلندية فقالت لها ماذا عزمتم ان تصنعني
بنفلامك الجميل ألا تدخله في مدرسة جامعة ؟

فابتسمت الارلندية ابتسام حزن وقالت : لا أعلم لأني فقيرة ، وربما طال
زمن فقري .

- إني أرى مخائل النجاة تلوح بين عيني ولدك وإذا شئت أدخلته الى مدرستي
مجاناً لوجه الله وأنا مربية أطفال كما قلت لك .

وكان الغلام يسرح نظره ، خلال حديث تلك المرأة مع أمه ، بالقصور
التي كانت تمر بها السفينة .

فلما مل هذه المناظر عاد الى أمه وشاهد مسز فانوش فشعر بماطفة كره
لها وقال لأمه : من هي هذه المرأة يا أماء ؟

فابتدريته مسز فانوش بقطعة من الحلوى ، أخرجتها من كيس مخلي
كانت تحمله بيدها ، وقالت له : إني يا بني إرلندية مثلك ، فاقبل مني
هذه الحلوى .

وكان الغلام جائعاً غير انه رفض الحلوى على جوعه لنفوره من هذه المرأة
وتشاغل عنها بالنظر الى مياه النهر .

وعادت فانوش الى محادثة الارلندية فقالت لها : إنك لا تعرفين شيئاً من
لندرا أيتها العزيزة ، فإني أعرف هذا الرجل الذي تدعينه بتريك فهو إسكافي
فقير ستلقين عناء شديداً في المبيت عنده ، وربما لا تجددين في منزله قطعة
من الخبز .

- لا بأس فساأشترى طعام إذ لا يزال معي بقية نقود .

- لقد قلت لك اني أقيم على قيد خطوتين من كنيسة سانت جيل فإذا بت
عندي هذه الليلة تبينتين على أحسن حال ، ثم تذهبين في الصباح الى الكنيسة .
فأبيت قريرة العين بضيافة ارلندية مثلي .

ونظرت الارلندية الى ولدها كأنها تستطلع إلهام قلبه بالنظر فانضم الغلام

الى امه والتصق بها كما تتلاصق الطيور حين تشعر بدنو العاصفة ثم قال لها بلهجة الخائف : لا تذهبي يا اماء الى منزل هذه المرأة .

فقال له فانوش : ليكن ما تريد يا بني .
ثم تبادلت نظرة سرية مع رفيقتها . أما الغلام فإنه اخذ يد امه وقبلها بلهف كأنه شعر بأنه أدقنها من خطر عظيم .

ولقد تقدم لنا القول في الفصل الأول انه كان يوجد بين ركاب السفينة رجل من النبلاء ينظر نظرات خاصة الى الغلام واهله .

وكان مستمراً على مراقبة الغلام ، فلما رأى ما كان منه ومن فانوش وعلم ان السفينة باتت قريبة من المحطة ، نظر الى ما حواليه فرأى بقره رجلاً يناهز الخامسة والأربعين من عمره ، ثيل هيئته على أن جميع شقاء لندرا قد تجمع فيه .

وكان لابساً بنطلوناً برزت منه ركبته ، وقبعة لا إطار لها ، وسترة تجمعت فيها ألوان الأرض والسماء لتقادم عهدها . ولكنه كان واقفاً في السفينة وقفة الشامخ المتعظيم ، ولعله كان يفتخر بأنه لا يدانيه في الفقر أحد .

فدنا منه الرجل النبيل وقال له : إني أدعى اللورد بالمير وأقيم في شستر ستريت فاذا وافقتني فيما أريد أعطيتك عشرة جنيهات .

فاضطرب الفقير إذ لم يملك في زمانه هذه القيمة وقال له : الملك تهزأ بي يا سيدي ؟

- كلا ، قل لي ماذا تدعى ؟

- شوكنج .

- ومهنتك ؟

- لا مهنة لي

- ومن اين ترتزق ؟

- من أبواب الصدفة .
- هوذا للصدفة قد فتحت لك أبوابها اليوم فادخلها .
- بل انت فتحت لي أبواب السعادة فقل ماذا تريد ان أعمل ؟
- أترى هذه المرأة الجالسة على المقعد مع ولدها ؟
- نعم
- أريد ان تتبعها متى نزلت من المركب حتى تدخل منزلاً لتبيت فيه فتمود إلي وتخبرني عن موضع المنزل فتكسب المال .
- هذا امر سهل ميسور فإذا قضيت أبن أجدك ؟
- تجدني في منزلي الذي أرشدتك إليه ، فاحذر ان يغيب عنك أثرها .
- وكانت مسز فانوش في ذلك الحين قد دنت من رفيقتها وقالت لها : إنك تعلمين ان مسز اميلي سوف تطالب بولدها ثم انك تعلمين أيضاً ان ولدها قد مات . وهل كان يخطر لنا في بال ان الأمور تنقلب الى هذا الحال إذ لا بد لنا من هذا الغلام .
- ولكن الأم ماذا نفعل بها ؟
- إن ويلتون يتخلص منها .
- وعند ذلك وصلت السفينة الى المحطة فخرج الناس منها وازدحمت بهم المحطة وبينهم الارلندية وابنها وهي لا تعلم كيف تسير .

- ٣ -

وخرجوا من المحطة فساروا على الرصيف وراء الجموع المزدحمة ، وكانت الارلندية آخذة ولدها بيدها وهي خائفة وجلّة من هذا الازدحام لا تعلم كيف تسير فان بائع السمك كان قد أرشدها الى الشارع الذي تريد الذهاب اليه غير

إنها نسيت كل ما قاله لأنها لم تأت قبل هذه المرة الى لندنرا وكادت تضيع رشدها بين هذه الجموع .

ثم خف الزحام بعد سير طويل فسألت أحد المارة عن شارع لورنس ستريت فأجابها انه لا يعرفه فشكرته واستمرت في سيرها ، فسألت آخر فأجابها كما أجابها الأول فواصلت السير وقد ضلت الطريق وسارت في جهة الغرب وطريقها من جهة الشرق .

وقد أجهدها السير ولم يعد يستطيع ابنها المشي فشاهدت خماره فدخلت اليها بغية الاستراحة والاسترشاد .

وفيا هي جالسة مع ولدها على مقعد شاهدت رجلاً دخل الخماره وطلب كأساً من الخمر فسرت الارلندية لمراه إذ ذكرت انه كان معها في سفينة واحدة فاستأنست به وأملت ان يرشدها الى الطريق .

وكان هذا شوكنج نفسه الذي أرسله اللورد بالمير مقتفياً أثر الارلندية فوقف قريبها وكأسه بيده ثم نظر اليها فلقمها تتطلع اليه فقال لها: أظن يا سيدتي إنك ضللت السبيل في هذه العاصمة العظيمة .

- نعم ، فإني أسأل منذ ساعة عن شارع لورنس ستريت ولا أجد من يرشدني اليه .

- ذلك لأنك لم تسيري إلا في الشوارع التي يسكنها الأغنياء ، وهم لا يعرفون هذا الشارع الذي يسكنه أشد الناس فقراً ، غير اني فقير مثلك ، وقد وجب التعاون على الفقراء . وإذا شئت كنت دليلك الى هذا الشارع .

- إنني أقبل شاكرة ممتنة وأسأل الله ان يجزيك عني خيراً .

فشرب شوكنج كأسه ومشى أمامها فتبعته مع ولدها ، وقد اطمأنت اليه لما رآته من دلائل السلامة بين عينييه ، وكذلك الغلام فانه نظر اليه في البدء نظرة تشف عن الريبة ، ولكنه لم يلبث ان وثق به وأعطاه يده

وسار وإياه .

وذلك ان مخائل هذا الرجل كانت تدل على المروءة ، وطيب العنصر ، فلم تحجب ظواهر فقره تلك الشرائل ، وإنما رضي ان يقتني أثر الارلندية بأمر اللورد لشدة فقره .

ولم يخطر له ان اللورد قد أعجبه جمال المرأة ، فقال في نفسه : ليس ذلك من شأني وكان يجب علي ان أعرض عن هذه النقيصة ولكن فقري شديد وإذا كان هناك إثم فإن الله يعاقب به ذلك الغني الذي يستغوي الفقراء بأمواله ويتخذ ذهبه الواضح ذريعة لإغواء القلوب الطاهرة .

وما زال يسير بهما حتى وصل الى هذا الشارع وهو أفقر شوارع لندرا ولا يقيم فيه غير الارلنديين وكلهم فقراء معدمون

وقد وجدوا امرأة واقفة عند باب منزل فقالت لها الارلندية : أتعرفين يا سيدتي بتريك ؟

— أي بتريك تعني ، إن هذا الاسم كثير الشيوخ بيننا .

— بتريك الإسكافي .

— نعم إن منزله في اول هذه العطفة غير انك لا تجد فيه في منزله فاذا أردت ان تكلمي إمرأته فهي في المنزل .

فشكرتها الارلندية وذهبت مع شوكنج وولدها إلى ذلك المنزل وهو منزل حقير لا باب له ويصعد اليه بسلم متهدم .

فأجفلت الارلندية من مظاهر هذا الفقر المدقع ، خلافاً لشوكنج ، فقد كان ذلك مألوفاً عنده ، ووقف في أسفل السلم وجعل ينادي إمرأة بتريك .

وبعد تكرير النداء مرات ظهرت من النافذة إمرأة نحيلة رثة الملابس ، وعلى صدرها رضيع صغير . فنظرت إلى من يناديها نظراً قائماً يدل على اليأس وقالت : ماذا تريدون مني ومن يسأل عن بتريك ؟ .. إن البوليس

قبض عليه هذه الليلة وزجه في السجن دون إشفاق ، فهو لا يمود قبل ان يقتلنا الجوع .

فالتفت شوكنج الى الارلندية وقال لها : لقد سمعت شكوى هذه المنكودة البائسة ولا رجاء لك في المبيت عندها .

فنظرت الارلندية الى ابنها نظرة ملؤها الاشفاق وقالت : رباه ! أين نبيت ؟

فقال لها شوكنج ببساطة : لا أعلم إذا كان لديك نقود .
- لم يبق معي غير ثلاثة شلنات وستة بنسات .

- إذن ، لقد هان الأمر إذ يوجد في هذا الشارع فندق تبيتين فيه ، وتتمشين فيه مع ولدك ، ولا تدفعين غير شلن واحد ، وفي الصباح يفعل الله ما يشاء .

- هلم بنا اليه فقد أضنى ولدي التعب والجوع .

فحمل شوكنج الغلام وسار به أمام أمه في طريق الفندق ، فما سارت في أثره بضع خطوات ، حتى شعرت بيد لمست كتفها ، فالتفتت فرأت مسز فالوش .

فقال لها فالوش : ألم أقل لك ايتها الحبيبة انك لا تجدين مأوى في هذا الحي واني أحمد الله إذ لقيتك ثانية وتيسر لي تفريج كربك وخدمة ابنة وطني العزيز فهمي معي الى منزلي ولا تخيبي رجائي .

ونظرت الأم الى ولدها كأنها تريد استشارته غير ان الغلام كان قد أضناه التعب ونام بين يدي شوكنج .

فعادت فالوش الى الإلحاح بلهجة تشف عن كرم عاطفة وسلامة قصد فاغترت الارلندية بلطفها وأجابت دعوتها .

- ٤ -

وكأنما اتساع لندرا قد راعها حق باتت تقبل بالمبيت عند اول إنسان يدعوها
وقد نسيت ما شعرت به من الكره لأول مرة رأت فيها فانوش في السفينة ولم
تذكر غير شيء واحد وهو ان ولدها تعب جائع .

فأسرعت فانوش اليها فتأبطت ذراعها وأشارت الى شوكنج أن يتبعها بالفلام
فامتلل ومشى في أثرهما .

وكان منزل هذه المرأة قريباً وهو أجمل منازل هذا الشارع فلما وصلوا اليه
فتحت فانوش بابه بمفتاح كان معها ودخلوا جميعاً فصعدو سلماً انتهو منه الى ردهة
متسمة ودخلوا إلى غرفة مضاة .

وكان في هذه الغرفة امرأة عجوز وفتاتان صغيرتان فقالت فانوش للعجوز:
إني أتيت بامرأة فقيرة مع ولدها ليكونا في ضيافتي فأرجو يا عمتاه ان تعتني
بهما خير اعتناء .

ونظرت العجوز اليها بسرور وارتياح ورحبت بهما خير ترحيب وهي تقول:
إن الضيف الفقير من عند الله .

ودنا شوكنج من الارلندية فقال لها : إنك ستبينين عند خير قوم كما تبين لي
فاحمدي الله .

أما الارلندية فإنها لما رأت انها آمنة مطمئنة على ولدها ، جعلت تبني
بكاء الفرح .

وأخذت فانوش بيدها وأجلستها قرب المستوقد وهي ترتعد من البرد وطلبت
من العجوز ان تعد الطعام .

ثم التفتت الى الرجل وقالت له : إني لا أستطيع ان أبقى في المنزل إذ لا
يبيت في منزلي رجال فاشرب هذه الكأس من الخمر وخذ هذا الشلن مكافأة لك
والله يحزبك عن هذه المرأة وولدها خيراً .

فشرب شوكنج الخمر وأخذ الشلن ثم انصرف وهو يقول في نفسه : لا شك ان هذا اليوم من أفضل أيامي ، فقد شربت فيه خمرأ وأمست وفي جيبي شلن ، وعملت جيلاً مع أم وابنها ، وإذا وفي اللورد بوعده ولم يكن هازئاً بي فقد تمت سعادتي .

ثم حفظ في ذهنه رقم المنزل وانصرف عائداً الى اللورد وهو يفكر بالعشرة جنميات التي سيقبضها ويهجن بسعادته الجديدة .

بينما كان شوكنج ذاهباً الى اللورد بالمير كانت الارلندية وولدها يتعشيان وكانت دموع الشكر تهطل من أعينها بين لقمة ولقمة . وكانت الفتاتان الصغيرتان تأكلان معها فدنت الفتاة الصغرى من الغلام وقالت له : ماذا تدعى ؟
— رالف .

فعانقته مسرورة وقالت : إذا سنلعب سوية غداً .
أما الفتاة الكبرى ، فكانت تنظر الى رالف وأمه ، نظرات حزن وإشفاق .

ولما انتهوا من العشاء قالت فانوش للارلندية : إنك تعبنة دون شك فهلم الى الغرفة التي أعددتها لك .

وقامت فحشت أمامها تحمل مصباحاً ، فتبعها الارلندية ودنت الفتاة الكبرى من رالف فعانقته كما فعلت الفتاة الصغيرة غير انها اغتنمت فرصة ذهاب فانوش وقالت له همساً : إحدروا من ان تقيموا هنا .
فقال لها الغلام : لماذا ؟

— لأنهم يضربونك كما يضربونا كل يوم .

وعند ذلك دخلت المعجوز وشاهدت الفتاة تحدث رالف فنظرت اليها نظرة منكرة اضطربت لها الفتاة ، فانفصلت عن الغلام وتبع امه الى الغرفة التي سارت اليها .

وهناك قالت فانوش للارلندية : ألم تقولي لي انك تودين الذهاب غداً إلى
سانت جيل ؟

- نعم .

- في أية ساعة ؟

- يجب ان أكون في الكنيسة مع ولدي عند الساعة ٨ .

- إذا أستودعك الله وسنوقظك في الساعة ٧ .

ثم تركتها وانصرفت فأقبل الغلام إلى أمه وبين عينيها دلائل الحذر وقال لها:
أنقيم هنا وقتاً طويلاً يا أماه ؟

- كلا سوف نخرج هذا المنزل غداً .

- لماذا لا نذهب الآن ؟

- لأن ذلك مستحيل يا بني .

فسكت الغلام ولكنه عاد إلى الحديث حينما كانت أمه تخلع عنه ملابسه فقال
لها بصوت خفيض : إني خائف يا أماه .

- لماذا انت خائف ومن تخاف ؟

- إن الفتاة الكبرى قالت لي لا يجب ان تقيموا هنا لأن هؤلاء النساء
بضربونك كما يضربوننا .

فقالت له أمه بصوت المؤنب : الست أنا معك يا بني . فكيف يضربونك
وأنا بقربك ؟

فسكن خوفه وقال : إذا نبيت هذه الليلة ولكن أتعديني ان نخرج غداً
من هذا المنزل ؟
- دون شك .

وقبلها الغلام وصعد إلى سريره ، ولم تمر به بضع دقائق حتى نام
نوماً عميقاً .

أما الارلندية فلما ركعت قرب سريرها ، وجعلت تصلي وتشكر الله

لإحسانه اليها .
 وفيما هي تصلي شعرت فجأة بان حرارة شديدة قد دبت اليها ، ثم احست بدوار رأسها عقبه انحلال أعضائها وانطباق أجفانها .
 فحسبت ان ذلك على أثر ما لقيته من مشقة السير ، ولكنها حاولت ان تفتح عينيها فلم تستطع وأرادت ان تصيح مستغيثة فاختنق صوتها ولم تستطع ان تنفوه بحرف .
 وبعد جهاد غير طويل ، فقدت رشادها ، وسقطت على الأرض لا تعي .
 وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخلت منه مسر فانوش ودخل في أثرها رجل قبيح الهيئة رث الملابس .

- ٥ -

بعد ان أدخلت فانوش الارلندية الى غرفتها وتركتها ، عادت الى قاعة الطعام فأمرت العجوز ان تدخل الفتاتين الى مرقديهما وأخذت من جيبها رسالة فجعلت تتطلع اليها وعيناها تمقدان باشعة الفرح فتقول : لقد خدمتني الأقدار أجل خدمة ، وسوف تشاهد السيدة اميلي ان لدي ولداً اعطيها إياه ، بشرط ان يحذر رسولي ولتون . .
 وعند ذلك طرق باب الغرفة التي هي فيها ثم فتح ودخل منه رجل يشبه بظواهر فقره وراثثة ملابسه شوكنج غير انه يختلف عنه بهيئته لأن كل ملاحظه كانت تدل على الرذيلة وفساد الأخلاق .
 ولما رآته فانوش فرحت بقدمه وقالت : أهذا أنت يا ولتون ؟
 — نعم يا سيدتي لقد وافاني رسولك فأتيته بأمرك .

- لقد أحسنت ولكني أرجو ان لا تكون أفرطت في الشراب .
 فابتسم الرجل ابتسام القناطر وقال : أين أنا من السكر إني منذ أمس لم
 آكل ولم أشرب .
 - إذا ، إجلس على هذه المائدة واشرب كأساً من البيرا وأملأ جوفك من
 الطعام واصنع إلي لأننا سنتحدث بامور خطيرة
 - العلك تودين إغراق إحدى الفتاتين ؟
 - كلا بل أود ان تتذكر أشياء ماضية .
 - إني جيد الذاكرة فإني حين يهجم الليل ويمعني الجوع عن الرقاد يتمثل
 لي جميع أولئك الأطفال الذين قتلتهم بامرك حتى اني أراهم يرقصون فوق
 الحصير الذي أقام عليه .
 فهزت فانوش كتفها وقالت : إنك تتخيل خيال الشعراء ، ولكن لا سبيل
 الآن الى مباحث الخيال لأنني سأعطيك جنيناً على الفور وجنيهاً كل اسبوع مدة
 عام إذا وافقتني فيما أريد .
 فقال لها بلهجة المتهمك : لقد أخطأوا ، يا سيدتي ، بتمثيل الأبالسة
 بقرون ، ولو شاهدوك قبل ذلك العهد ، لما جعلوا إلا رسمك مثلاً
 للشيطان ؟
 - هب اني الشيطان نفسه أتعلم ان أغويك ؟
 -- إني أقبل بالرغم عني إذ يجب ان أعيش ، فقولي ماذا تودين .
 - أود ان تعود بالذكري الى تسع سنوات خلت ألا تذكر منذ تسعة أعوام
 ان رجلاً نبيلاً جاءني بطفل صغير ؟
 - إنهم يأتونك بالأطفال كل يوم .
 - نعم ، ولكن ذلك الطفل ، الذي أحدثك عنه ، لا يمكن
 أن تنساه .
 - ماذا يدعى الذي جاء به ؟

- هو السير جون واترلي ، أحد ضباط الجيش الهندي ، فقد دفع الي الغلام وسافر في اليوم الثاني إلى كلكوتا فأصيب هناك بمرض قاتل كما قيل لي وترجع عندي أنه لا يعود

وكان هذا الغلام ابنه من فتاة تدعى مسز اميلي ممبوري ، وهي ابنة أحد اللوردية ومن كبار الأسرات النبيلة ، بحيث كان نبلها حائلاً دون زواجها بن تهواه ، فجاءنا بالغلام وقال : ربوه إلى أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره وعلموه مهنة يعيش بها عيشاً شريفاً. وصرح لنا أن أم الغلام وأباه لا يستطيعان أن يطلباه .

- نعم ، لقد ذكرت هذا الطفل وذكرت أنت أباه دفع لك ثمانمائة جنيه لتربيته ، فكرهت اتفاق المال على الطفل وأمرتني ان ألقيه في النهر بعد سفر ابيه ، ولكن لماذا تريدان ان أذكر هذه الحادثة ؟
- لأن أباه عاد إلى طلبه .

-- كيف ذلك ألم يميت اثر مرضه ؟

- كلا ، بل انه تزوج مسز اميلي لأن أباه اللورد قد مات فاعترفت بهفوتها لأخيها ، والتهمت منه أن يأذن لها بزواج الضابط فصفح عنها وأذن لها بالزواج فكتبت الي مع زوجها يسألان إعادة الطفل .

فكبر الأمر على ولتون وقال : إن الموقف شديد فعلى ماذا عولت ؟ فاباسمت فانوش وقالت : إن جميع الأطفال متشابهون في سن الولادة ، وإن مسز اميلي تسألني الآن إعادة طفل تركته منذ تسعة أعوام وعمره شهران فأنا أرد اليها غلاماً بالغاً تسعة أو عشرة أعوام ولا يخامر قلبها شيء من الشك .

- لقد أحسنت ولكن أين تجدان هذا الغلام؟

- انه في هذه الغرفة فاتبعني .

ثم أخذت مصباحاً وتقدمته إلى الغرفة التي كانت فيها الارلندية المنكودة وابنها رالف وكانا قد رقدوا بتأثير المخدر كما قدمناه .

ولما دخل ولتون في اثر فانوش زعر وقال : اني أرى امرأة .
 -- لا تخشى فاني سقيتها مخدراً لا تستفيق منه قبل أربع ساعات وقد بقي
 عليك أن تنيمها نوم الأبد .

— أهذه هي المهمة التي تريد أن اقضيها ؟

— نعم ...

— وهذا الغلام الجميل النائم ؟

— انه ابنها ، وإنما اقبل امه كي ابعدها عنه إلى مسز اميلي .
 — ولكن فإني أن لهذا الغلام عشرة أعوام من العمر فهو يذكر أهله
 وبلاده وأمه .

— لقد فطنت لكل شيء والفت حكاية أقصها على مسز اميلي وهي اني
 دفعت طفلها إلى مريضع ارلندية ، وكنت أرسل لها نفقاته في كل شهر ولما
 أرسلت إلي تطلب ابنها كتبت إلى المريضع أن تحضر به ارلندا فجاءت به
 وكافأتها أحسن مكافأة وأرجعتها إلى بلادها .

— إنها خير حيلة ولا أزال على سابق رأيي فيك وهو ان الشيطان لو رسم
 حتى رسمه لما كان الاك .

— كفى بلاهة واعلم الآن أنه يجب قتل هذه المرأة .

— بأية طريقة ؟

فهزت كتفها وقالت : العلك نسييت طريقة النهر ؟
 فحك ولتون اذنه وقال : كلا ، ولكن المرأة الكبيرة لا تحمل بوشاح كما
 يحمل الطفل .

— ولكنها تحمل في مركبة ولا يزال جواني السائق صديقاً لك فيما أظن
 فلإني أدفع له جنيهين أجرة نقلها .

ووقف ولتون وقفة المتردد غير ان فانوش حلت كيسها فحلت عقدة
 لسانه ، ودفعت له الأجرة مقدماً ، فأخذ المال وقال : ان هذه الأيام شديدة

العصر ، ولا بد للمرء أن يعيش .
ثم دنا من الارلندية فحملها على كتفه وخرج بها إلى قاعة الطعام دون أن تستفيق والقاهها على المائدة .
فقال له فانوش : يجب علينا أن نهتم الآن بإيجاد سائق المركبة .
- لقد كفيتمك مؤونة هذا الاهتمام ، فلاني علمت انك لم تبجشي عني
إلا لارتكاب جناية جديدة ، وبجشت عن مركبة ، وجشت اليك بمركبة
السائق نفسه .
- وأين هو الآن ؟
- انه ينتظرنني على الباب .
فاتقدت عينها بأشعة الفرح الوحشي وقالت : بورك فيك فإنك ما خلقت
إلا للمنكرات والآثام .

- ٦ -

وحملوا تلك الارلندية المنكودة وهي لا تعي ونزلوا بها فأوقفت فانوش
ولتون عند الباب وخرجت هي ففقدت الطريق ثم عادت فقالت له : أسرع
بحملها إلى المركبة قبل أن يفاجئنا البوليس .
ورأى ولتون ان الوقت قد حان للدلال عليها التماساً لزيادة الأجرة ،
فقال لها : اني ممثلك ، ولكني لا أعلم ما يكون من السائق ، إذ لم
أخبره بعد .
ففقهت فانوش مراده وقالت له : ان الوقت غير متسع للمخاطبة فخذ كل
ما لدي الآن في هذا الكيس وسأزيدك حين تعود .
ثم اقلت اليه كيساً فيه نحو عشرين جنينها فأخذه فرحاً وحمل الارلندية

وخرج بها والقاهها في المركبة ، وجلس بجانبها ، ثم أمر السائق أن يسير إلى النهر

وانطلقت المركبة وقد خاصر ولتون الارلندية كي لا تقع من الاهتزاز بحيث لو رآها أحد لما شكك انها عاشقان .

وكان ينظر اليها فلا يراها لازدياد الظلام في ذلك الشارع المظفر ، وبعد حين اجتازت المركبة ذلك الشارع إلى شارع كثرت أنواره ، وكانت تلك الأنوار تذبعت إلى المركبة ، ورأي ولتون وجه الارلندية وارتعش ، لأنه لم يكن الى الآن نظر وجه هذه المرأة التي سيقتلها طمعاً بالقيامل من المال

وإنما كان ارتعاشه لما رآه من جمالها الباهر ، ولما طبع على ذلك الوجه من علائم الطهر والسلامة ، وقال في نفسه : حيف على هذه المرأة أن تموت في بضارة الشباب .

واستمرت المركبة في سيرها وحجب الظلام وجه الارلندية وعاد ولتون الى التفكير وجعل يوبخ نفسه ويقول : بل الحيف على من كان مثلي يرتزق من قتل النفوس ثم يجد بين جنبيه قلباً يشفق ويحن

وبعد هنيهة وقفت المركبة وسمع ولتون السائق يناديه فقال له : ماذا تريد ولماذا توقفت عن السير ؟

- أريد ان أعلم الذي جئنا به من لندرا

- إنها امرأة .

- العلمها ميتة ؟

- كلا ، بل هي نائمة نوم تخدير .

- اني لا اشترك بهذا المشروع يا ولتون .

- لماذا ؟

- لأنني تعودت إغراق الأطفال وليس النساء .

- اما هما واحد ؟

- كلا ، فإن قتل النساء يرث الشقاء .
— إنك تمزح دون شك .
— كلا ، فإن هذا اعتقادي ، وفوق ذلك فإن هذه المرأة قد تستفيق وتستغيث .
— لا خوف من ذلك فقد سقيت جرعة كبيرة من الأفيون فهي شبه المائتين .
— وكم عيئت أجزتنا ؟
— خمسة جنميات .
— للاثنتين ؟
— كلا بل لكل واحد خمسة ..
ولبت السائق متردداً في أمره وقال إن المهمة صعبة يا ولتون .
— لكنهم دفعوا لنا مقدماً أتريد أن تقبض حصتك ؟
فتنهد السائق وقال : هات ، لكن سوف تعلم ان هذه الحادثة ستؤدي بما إلى المشنقة .
فابتسم ولتون وقال : اليس الموت واحداً مهما تنوعت أسبابه ، ومق كان أمثالنا يتوقعون غير موت الشنق ؟
ثم بقده خمسة جنميات وعادت مركبته إلى المسير وعاد ولتون إلى التفكير بالارلندية فقد كانت منزوية في المركبة لا تفرق عن الموتى .
وما زالت المركبة تسير من شارع إلى شارع ، حتى وصلت إلى جسر الشمس .
وكان يجتمع على هذا الجسر في النهار الوف من المركبات ، فإذا أقبل الليل انقطع سيرها ، وأقفر ذلك المكان ، ولا يسمع فيه غير هدير أمواج النهر .
وهناك أمره ولتون بالوقوف وأخرج من جيبه حبلًا من الحرير الدقيق فربط

به رجلي الارلندية ويديها حتى إذا القاهما في المياه واستفاقت لبردهما لا تستطيع
دفاعاً وتغور في الأعماق .
وبعد ان أتم رفاقها خرج من المركبة ثم حمل الارلندية ومشى بها مشي الخائف
الوجل إلى الضفة .

- ٧ -

ولم يكد يسير بها خطوتين حتى استوقفه السائق وقال : احذر .
فالتفت ولتون منذراً فرأى نوراً كبيراً يدنو منه وهو نور مركبة من تلك
المركبات الضخمة التي تنقل عليها البضائع فأسرع عائداً بالارلندية إلى المركبة
واختبأ بها إلى ان تمر مركبة النقل .
ثم مرت تلك المركبة الضخمة وأصاب نور مصباحها وجه الارلندية فعاد
ولتون إلى الاضطراب وحار في امره ولم يدر ما يصنع .
وقد استبطأه السائق بعد مرور المركبة فقال له : ما بالك ساكتاً ؟
فلم يجب وعاد الى حثه على الاسراع .
غير أن ولتون لم يسمع حديثه وكان كالمصاب بدوار وجعل يناجي نفسه
فيقول : ما هذا الخوف وما كنت أرهب القتل وأخشى هذه المواقف ؟
وعاد السائق الى حثه على السرعة فأجابه ولتون بصيحة رعب ذلك
ان الارلندية تنهدت تنهداً ضعيفاً بعد ان كانت ساكنة كالأموات فوق ولتون
منذراً وقال : كلا لا أريد .

فقال له السائق : ماذا تريد ألا تريد اغراقها ؟

- كلا !

- إذا ، أعزمت أيها الشقي ان ترد المال لفانوش ؟

- كلا ، فاني لا أريد المال ولا أغرق هذه المرأة فإن جالها يأخذ بجميع
القلوب .

فهمقه السائق ضاحكاً وقال : يسرني أن أراك من أهل الغرام ، اما وقد
عزمت على ان ترد المال فلا فرق عندي بين ان تفرقها أو تبقي عليها ، بل
اني اؤثر سلامتها ، فإن قتل النساء يورث الشقاء كما قلت لك ، ولكن ماذا
يجب ان نعمل !

- لا أعلم ولكنها شربت مقداراً كبيراً من الأفيون بحيث يتسع لدينا مجال
التروي قبل ان تستفيق .

- والآن الى اين نذهب ؟

- إذهب الى حيث تشاء شرط ان تبعد عن هذا النهر .

فقال له السائق مازحاً : العلك تريد ان تتزوج هذه الحسنة ؟

واضطرب ولتون وقال : كلا فإني لا أجنبي جنابة الزواج فاذهب بنا الى
افقر مكان في وينغ .

- كما تريد . ودفع الجياد فسارت باللصين والارلندية نحو ساعة حتى وصلت
الى المكان الذي عينه ولتون فوقفت المركبة عند باب خمارة ونزل ولتون
والسائق ودخلا اليها وجلسا يشربان ويتشاوران .

فقال له ولتون : لقد ارتأيت الرأي السديد في الطريق وذلك ان فالوش
عهدت البناء إخفاء الأم كي تتمكن من الاستيلاء على الولد .
- ألهذه المنكودة ولد ؟

- نعم وسأقص عليك هذه الحكاية في فرصة أخرى والآن ان فالوش
نهدتنا الأجرة كي نخفي الأم ، وإذا قد احضرناها الى هذا المكان فإنها لا تسمع
بعد ذلك بأخبارها .

- لكن لهذه الأم ولداً كما تقول فهي تبحث عنه حتى تجده .
- هو ما تقول غير ان هذه المرأة غريبة وهي لم تعرف لندرا قبل هذه

الليلة بل انها لا تعرف اسم فانوش ، ولا الناحية التي تركت فيها ولدها فكيف تستطيع ان تجده في هذه العاصمة التي تشبه القارب باتساعها ؟

— إذأ ، ماذا عولت أن تصنع بها ؟

— عولت ان نذهب بها الى حديقة عمومية من حدائق وينغ فنضعها على مقعد من مقاعدها ويفعل الله بها بعد ذلك ما يشاء .

— انه رأي سديد فهل بنا قبل ان تستفيق .

وخرج الاثنان من الخجارة الى المركبة وساروا بالارلندية الى اقفر شارع في وينغ فحل ولتون قيودها وانزلها الى محل عمومي وأجلسها على احد مقاعده وقال لرفيقه : ان جسهما قد بات حاراً وذلك دليل على قرب استفاقتها وقد قرب زمن تردد الناس الى وينغ فان حاناتها لا تفتح قبل منتصف الليل فاذا استفاقت فلا تعدن نصيراً بين هؤلاء اللصوص .

— دون شك فإن المرأة تلقى خير ضيافة في وينغ بل في كل مكان .

— ليس ذلك من شأننا والمهم عندنا اننا ابقينا على حياتنا وسرقنا مال

فانوش كما ينبغي أن يسرق

ثم ذهب اللصان وهما يضحكان .

وبعد حين تنبهت عصابات وينغ وظلت تلك المنكودة نائمة فوق

ذلك المقعد .

— ٨ —

كان حساب فانوش ان الارلندية لا بد لها ان تستفيق بعد أربع ساعات من شربها الخدر وقد تقدم لنا القول انها تنهدت عندما كانت في المركبة مع ولتون فكان ذلك دليلاً على قرب استفاقتها .

غير أن اللصين تركها منذ ساعة وهي لا تزال نائمة فوق المقعد الخشبي معرضة لبرد تلك الليلة القارص .
ولم تكن حانات وينغ قد فتحت أبوابها بعد .

أما الارلندية فانها بدأت بعد حين ان تستفيق ، فتحركات ثم تمطت ثم فتحت فمها ، وخرج من شفتيها اسم ولدها رالف ، فانها كانت تحلم به مدة رقادها ، وقد رآته شب وترعرع وبات يمشي بخطوات ثابتة قوية الى المستقبل .

ولما تحركت شفتاها فتحت عينيها وكانت حانات وينغ قد فتحت أبوابها فتوارد اليها اللصوص والمومسات من كل فج .

وقد حسبت تلك المنكودة حين فتحت عينيها انها لا تزال حاملة غير ان برد الهواء أزال منها هذا الظن فوقفت منزعرة وكانت اول ما قالته : رياه ! أين ولدي وابن انا ؟

ثم جعلت تمشي مشي المجانين ، وتنادي ولدها رالف . ولكن رالف لم يجب .

وعند ذلك وضعت رأسها بين يديها كأنها تحاول جمع حواسها . فذكرت تلك المرأة التي باقت عندها ، وكيف انها بعد ان نام ولدها ، جثت وراكعة تصلي ، ثم شعرت بدوار في رأسها ، ثم لم تعد تذكر شيئاً . فصاحت عند ذلك صيحة يأس هائلة ، إذ علمت انهم سقوها مخدراً كي يسرقوا ولدها .

ولكنها لم تكن تعرف اسم المرأة التي كانت عندها ولا نمره منزلها غير ان اللامهات قوة تنبعث من السماء فقالت في نفسها لأجدنه اين كان وأخذه من يد خاطفته .

ثم جعلت تسير الى الامام هائمة ، وهي تحسب انها قريبة من ذلك المنزل ، إذ لم يخطر لها أنهم أبعدوها عنه مسافة أربعة أميال .

وجعلت تخترق الشوارع والأزقة ، وهي تارة تفرح ويشرق وجهها بنور
البشر حين تحسب انها اهتمت الى الطريق ، ثم لا تلبث ان تعود الى اليأس
حين تعلم أنها ضلت السبيل ، فيقطب وجهها وتنتظر الى ما حولها نظرات
لا تستقر على شيء .

وكانت تمر بين عصابات اللصوص والبحارة الداخلين الى المحارات والخارجين
منها في ذلك الشارع الخفيف ، فيكلمونها بألفاظ بذينة فتفر منهم وقد ملأ الرعب
قلوبها وتسير فلا تجد أمامها غير أمثالهم .

الى ان مرت بعصابة من المومسات ، كن يتخاصمن عند باب خمار
فدنت منهن ، وقد أنست بمنظر النساء ، وفسالت هن : كيف الطريق إلى
سانت جيل ؟

فجعل بعض هؤلاء الفواجر يعث بها ، وبعضهن يضحك عليها ولم يرشدها
الى الطريق .

غير ان واحدة منهن ضخمة الجثة هائلة المنظر شرسة الأخلاق ، ليس فيها
شيء من صفات الانسان ، تقدمت الى الارلندية وقالت بلهجة التهديد :
ماذا أتيت تعملين هنا ، وأنت لست من أهل الحي ؟ العلك علمت بقدموم
البحارة اليوم من الهند فأنتيت تزاحميننا في رزقنا ؟ أم لعلك تريدين مزاحمتي
على وليم ؟

ثم ضمت يدها وهجمت عليها تريد ان تضربها ، فهربت الارلندية منها
مدعورة ولكن تلك الفاجرة وثبتت عليها وثبة النمر المفترس ،
فقبضت عليها وجعلت تجرها وتقول إنك لا تبلفين مراداً من وليم ، ولا
أطبق مزاحمة فيه .

أما الارلندية فجعلت تصيح بصوت مخننق وتقول : إني لا أبحث عن وليم
بل أبحث عن ولدي . بالله دعيني أبحث عن ولدي وارحميني فإني أقسم لك اني
لا أعرف وليم .

وفيا هي تبكي وتستغيث والنساء يضحكن من حولها إذ سمعت صوت رجل يقول : هوذا انا ولیم فمن يذكر اسمي ؟

فالتفتت الارلندية وشاهدت رجلاً بلباس البحارة ، عالي القامة ، عريض المنكبين . فبسطت يديها اليه شأن المتوسل وقالت له : بالله ارحمني ودافع عني .
فدنا منها ولیم وقال : من هي هذه المرأة ؟ فإني لم أرها من قبل ، لكنها حسناء .

ثم أشار الى المرأة ان تتخلى عنها ، فلما رأت المرأة انه قد استحسن الارلندية حاجت في فؤادها عوامل الغيرة فصفعتها صفعة أسالت الدماء من أنفها غير مكرثة لولیم
فغضب ولیم غضباً شديداً وضربها بصدرها ضربة شديدة القتها على الأرض صريعة والتفت الى النساء وقال : إن كل من يس هذه المرأة بسوء لا يلقي غير هذا العقاب .

ثم عاد الى الارلندية يعزيها ويؤاسيها فاستأنست به وقالت له : أسألك بحق السماء ان تعينني على إيجاد ولدي .
- ألك ولد ؟

- نعم وقد سلموني إياه فردده إلي أباركك وأدعوك الله .

- أتحبيني إذا أعدت اليك ولدك ؟

فلم تدرك تلك المنكودة معنى حبه الوحشي وقالت له : نعم نعم ، أحبك حق الموت

- اين هو ولدك ؟

- مربي الى سانت جيل وأنا أجده .

- ولكن هذا المكان بعيد جداً من هنا .

- بالله سري اليه . لتركب مركبة فانها تقرب الأبعاد .

— سأفعل ما تريدن ، ولكن هلمي معي قبل ذلك نشرب كأساً من الخمر
إني شديد الظمأ .

ثم ضمها الى صدره وتأبط ذراعها ، وأراد ان يسوقها الى الخمارة
بالعنف . فعلمت ان نكبتها مع هذا الرجل شر من نكبتها مع تلك المرأة .
وحاولت ان تفلت منه ، ولكنها لم تستطع إفلاتاً ، فجعل يجرها
جراً وهي تصيح وتستغيث ، فلا تسمع من حولها غير قهقهة الضاحكين ،
وبدأة الهازئين

- ٩ -

كان بالقرب من ذلك المكان خمارة يدعونها الخمارة السوداء ، أطلق عليها
هذا الاسم لكثرة ارتكاب الآثام فيها .

ولم تكن تفتح أبوابها إلا بعد انقضاء الليل ، فيسرع اليها نحو خمسين رجلاً
وامرأة من أهل ذلك الحي ويجلسون حول موائد الشراب ، فيتنادون
ويعاقرون الخمر ويتخاصمون لأدنى سبب فتسيل دماؤهم على تلك الموائد ، ثم
تفصل الدماء دون ان يتداخل البوليس في أمورهم وتعود الى ما كانت عليه
حتى الصباح .

وكانت تتولى هذه الخمارة امرأة . فكانت تنظر الى المتخاصمين مبتسمة
غير مكترثة لنتائج الخصام ، حتى إذا قتل احد اولئك الأشرار أمرت
خادماً لها فحمل الجثة والقهاها في الشارع واستمرت الحفلات كأنه لم يحدث قتل
ولم تسفك دماء .

وإن بين زبائن هذه الخمارة الهائلة رجلاً كان يجلس كل ليلة قرب مجلس
صاحبة الخمارة فيشرب كأساً من الشراب جرعات صغيرة والمرأة تنظر اليه من

حين الى حين نظرات تشف عن الارتياح والإعجاب .

وكان هذا الرجل في الحلقة الرابعة من عمره ، أشقر الشعر ، ربعة القوام ، تظهر مخائل النبل ، وآثار الشهامة بين عينيه ، فتظهر انه من طينة غير طينة أولئك اللصوص ، وانت قدومه الى تلك الخمارة كان لماكرب في النفس

ولذلك كان يستلقت اليه الأنظار ولم يكن أحد من زبائن الحانة يعلم أصل هذا الرجل فبعضهم كان يظنه ايكوسياً وآخرين يحسبونه ارلندياً او إنكليزياً وفريق كانوا يقولون انه فرنسياً .

وقد كان كثير التردد على هذه الخمارة ، غير انه لم يكن يكلم أحداً فإذا شرب كأسه دفع ثمنه وانصرف ولكنه كان أحياناً يغرق في عباب التصورات ، فيقيم الساعة والساعتين وهو مقطب الجبين ، عابس الوجه ، ينساجي نفسه . فلقبه أهل الخمارة بالرجل العبوس فسمي عندهم بهذا اللقب ، إذ لم يكن له عندهم اسم معروف .

وقد حاول بعضهم ان يعرفوا شيئاً عن هذا الرجل ولم يجدوا سبيلاً لذلك إلا بمخاصمته فاتفق ثلاثة منهم على مبادرته بالعدوان ، فانقض عليهم انقضاض الصاعقة وصرع الثلاثة واحداً بعد آخر فسهل اسمه منذ تلك الحادثة بين أبطال الخمارة وبات الكل يحلونه ويحيونه تحية الاحترام .

ولم يكن يجالس في الخمارة غير رجل واحد وكان الجميع يحبونه لفقره وسلامة قلبه وهو شوكنج ، ذلك الرجل الذي أرسله اللورد بالمير لاقتناء أثر الارلندية كما عرف القراء فكان الرجل العبوس يدفع عنه في كل ليلة ثمن شرابه ويحسن اليه بما يقيه شر الجوع .

فبينما كان اللصوص والبخارة مجتمعين في تلك الليلة يسكرون ويعربدون والنساء ترقص وتغني وصاحبة الخمارة تنظر خلسة الى الرجل العبوس وهو منشغل

عنها به واجسه إذ دخل رجل الى الحارة استلفت أنظار الجميع فصاحوا جميعهم صيحة عجب قائلين : هوذا شوكنج .

ولمّا كان عجبهم لأنهم شاهدوا هذا الرجل على غير ما عرفوه فان عهدهم به رث الثياب ، بارز الكعوب ، حافي القدمين . فرأوه عاد اليهم فجأة وهو بملابس التجار .

فقلت إحدى النساء : ما هذه النعمة ؟ إني أرى في قدميك نعلين جديدين ؟

وقال لص آخر : وإني أراك لابساً قميصاً جديداً .

وقالت صاحبة الحانة : لا شك انه بات من أهل الثروة لأنه لايس قبة .

فضحك شوكنج وقال : نعم لقد بث غنياً ولكن إطمئنوا لأنني أودعت نقودي في المنزل .

فضحك الجمع ، وتركهم معجبين بأمره . وذهب الى الرجل المبوس وجلس بجانبه وقال له : إني سأدفع اليوم ثمن الشراب ، فقد طالما دفعت عني

- ١٠ -

فابتسم الرجل المبوس وقال : معاذ الله انت أمنعك عما تود لأنني لا أبغي مماس أحد فادفع انت اذا كانت هذه مشيئتك غير اني أود ان تجيبني عن سؤال أسألك إياه .

- سل ما تشاء .

- ألدك نقود ؟

فأجابه بصوت منخفض : أسكت ولا تفضحني أمامهم ، فقد كسبت

الليلة عشرة جنيهات ، فأنفقت واحداً على ملابس ، واشترت سترة بثلاثة شلنات وقبعة بشلنين وبنطلوناً بشلن ونصف وحذاء بأربعة شلنات وقيصاً بشلنين وكلها جديدة ، فأصبحت كما ترى بهجة النواظر

و كنت أود أن أشتري كثيراً غير أن الحكمة تغلبت علي فمزمت على استئجار غرفة لأسبوعين بحيث يبقى معي ثمانية جنيهات ونصف فأعيش بها عاماً كاملاً عيش الأمراء .

فابتسم الرجل العبوس وقال له : ولكن كيف كسبت هذا المال ؟

- إن الأمر بسيط ، فقد خدمت أحد اللوردية خدمة كافأني عنها بهذا المبلغ .

- كيف كان ذلك ؟ وما هي هذه الخدمة ؟

- إني كنت أجتاز في مركب وبين ركبها أحد اللوردية ، فدنا مني ودلي على امرأة وقال لي : إذا تبعتها وعدت إلي بعنوانها أعطيتك عشرة جنيهات ، ففعلت وكسبت هذا المال بشرف كما ترى .

فهز الرجل العبوس رأسه وقال له : أتخسب أن هذه الطريقة في الكسب من الطرق الشريفة ؟

فاحمر وجهه شوكنج من الخجل وأدرك خطأه فقص على الرجل العبوس جميع ما عرفه من أمر الارلندية ، دون أن يغفل عن شيء من التفاصيل . فلما أتم حديثه قال له الرجل العبوس : إنك ارتكبت طيشاً لا يشفع فيه غير سلامة قلبك .

- لماذا ؟

- إنك أحسنت بمساعدتك هذه المرأة ، ولكنك أسأت بإرشادك اللورد إليها فقل لي ماذا يدعى هذا اللورد ؟

- اللورد مالير .

فقال له بلهجة المؤنب : لقد كان ينبغي أن تعلم أن لورداً غنياً لا يبحث بحثاً

سرياً عن عنوان امرأة فقيرة لغاية صالحة .
فأضطرب شوكنج وقال : لقد أصبت فلاني أخطأت وقد أغواني ذهبه وما
أنا فيه من الفقر غير اني أعرف المنزل الذي غادرت فيه الارلندية أتود ان أعود
اليها وأحذرهما من هذا اللورد ؟

فلم يجد الرجل العبوس فرصة لإجابته ، إذ سمع صيحة عظيمة
في الخمار

ذلك انه دخل اليها رجل كان آخذاً بتلابيب امرأة يسوقها مكرهة وهي
تستجير منه به وتوسل اليه ان يطلق سراحها .

أما الرجل فإنه دفعها الى وسط المقاعة وجلس جلوس المنتصر أمام مائدة
فشمر عن ساعديه إظهاراً لعضلاته القوية .
وقال : إني ولیم البحار وقد خضعت لي نساء وينغ كلهن وهمن بي هيأماً فلا
بد لك ان تقمت بهن وتخضعي لي .

فصاح الجميع بصوت واحد : ليعيا ولیم .
وأقبل النساء يعنفن تلك المرأة المنكودة لنفورهما من ولیم فاذا استغاثت
هزئن بها .
ولما سمع شوكنج هذا الضجيج التفت وصاح صيحة الدهش حين شاهد
الارلندية .

فقال له الرجل العبوس : ماذا أصابك ؟

- هي هي ا
- من هي ؟
- الارلندية ا
- أم الغلام ؟
- هي بعينها .
- كيف اتفق وجودها هنا ؟

.. لا أعلم !

فكف الرجل العبوس عن محادثته ، وجعل يتأمل وجه هذه الارلندية وهو يندهش لجمالها النادر ، ولما تبين له في وجهها من دلائل الشرف والطهر . فكانت مع أولئك اللصوص ، تشبه ملاكاً سقط من السماء إلى الجحيم .

وكانت حين نظر اليها قد جثت راكعة ، وقالت بصوت يخنقه البكاء :
 بالله ارحموني واشفقوا علي فما أنا كما يحسبني هذا الرجل ، بل أنا أم منكودة اختطفوا منها ولدها . أستحلفكم بالله ان تنقذوني من هذا الرجل ، وتدعوني أبحث عن ولدي .

وكأنما وليم قد خشي ان تدفع المروءة أولئك اللصوص الى نجبتها . فأخرج خنجره ووضع على المائدة وقال : إنكم جميعكم تعرفون من أنا ، وقد رأيت هذه المرأة وأعجبني جمالها . فمن منكم يحسر على منازعتي فيها وإنقاذها مني ؟

فسكت الجميع ولم يحسر أحد على اعتراضه فجذبها اليه وقال لها . أرايت أيتها الحسناء كيف انه لا يوجد من يحسر على منازعتي فيك ؟ إذا ستكونين امرأة وليم على رغمك .

غير ان وليم لم يكذب حديثه حتى رأى رجلاً اخترق القاعة ودنا منه فقال :
 بل انك تتركها على رغمك وأنا الذي أنقذها منك .

فصاح الجميع عند ذلك : ليحميا الرجل العبوس ! فإنه هو الذي تصدى لوليم . أما الارلندية فقد اتقدت عينها بأشعة الرجاء فبسطت لهذا الرجل يد المتوسل وعلمت ان الله أرسل لها من يخلصها من أولئك الفجار .

كان مثل هجوم هذا الرجل على وليم ، مثل هجوم داود النبي على جليات الجبار .

إن وليم لم يكن جباراً ، ولكنه كان يشبه الجبارة بضخامة جسمه ، حتى لقد يحسب من يراه أنه لو ضرب ثوراً لقتله ، خلافاً للرجل الذي كانوا يلقبونه بالعبوس ، فإنه كان نحيل الجسم تظهر عليه آثار النعومة كأنه من أولاد البوردية

فلما رآه وليم قادماً اليه يحاول مخاصمته ضحك ضحكاً شديداً ثم جعل يتهم عليه ويلقبه بالقاب النساء استخفافاً بقوته .

غير أن هذا الرجل نظر اليه نظرة منكرة ، خرج على أثرها اللهب من عينيه ، فاضطرب وليم لهذه النظرة وانقطع عن الضحك ، ووقف في موقف الدفاع .

أما الرجل العبوس فإنه حال بينه وبين الارلندية وقال له : إني أمنعك عن أن تمد يدك بسوء الى هذه المرأة .

فتحمس اللصوص لمسا رأوه من ظواهر بسالته . وصاح بعضهم : يحيا الرجل العبوس .

وأما وليم فإنه ضم يديه وهجم على الرجل وأطلق يده الهائلة عليه غير أن الرجل وثب وخلا من تلك الضربة واختل توازن وليم ، فاغتم الرجل الفرصة ولكه لكمة شديدة في صدره فانقلب وليم على ظهره .

وكان في وسع ذلك الرجل أن يستفيد من نصره ويطعنه بخنجره طعنة قاضية غير أنه لم يفعل شيئاً من ذلك بل أنه وقف مكتوف اليدين ينتظر نهوض خصمه وعودته الى القتال

أما وليم فإنه نهض وهو يزأر زئير الأسود وجرد خنجره وهجم على الرجل

العَبُوس ، فلم يجرّد الرجل خنجره ، ولكنه خلا من الضربة كما فعل في المرة الأولى . ثم انقض على خصمه وحمله والقاء على مسافة مترين . فسقط صريخاً وسقط الخنجر من يده .

فأسرع الرجل ووضع رجله فوق الخنجر ووقف ينتظر نهوض خصمه أيضاً وجعل ينظر الى من كان حواليه فرأى شوكنج واقفاً مصفر الوجه ورأى ان الارلندية قد عرفتته والتجأت اليه .
فنادى عند ذلك شوكنج وقال له : إني أعهد اليك بهذه المرأة . ولتعلم كل من في هذه القاعة اني قد توليتها بحمايتي .

فوقع هذا الكلام خير وقع من اللصوص فجعلوا يصفقون بأيديهم تصفيق الاستحسان ويصيحون : يحيا غالب وليم .
وهم .وليم أن يعيد الكرة على خصمه غير انه توقف وانقطعت أصوات اللصوص وساد السكون فجأة في تلك الحجرة .

ذلك انهم رأوا رجلاً دخل الى القاعة فأثر فيهم هذا التأثير العجيب وباتوا كأن على رؤوسهم الطير .
ورقفوا وقفة الاحترام أمام هذا الرجل ، وهم مطرقون الرؤوس هيبة وإجلالاً .

أما هذا الزائر الجديد الذي أكره اللصوص والفواجر على احترامه ، فقد كان في مقتبل الشباب طويل القامة أصفر الوجه أشقر الشعر طويله وكان يتدلى على كتفيه .

وهو نحيل الجسم أسود الملابس نحيف الأعضاء ، حتى يحسبه الناظر اليه امرأة متنكرة بلباس الرجال .

فاخترق صفوف اللصوص حتى وقف قرب وليم فقال له : لقد قال الله من قتل يقتل وقال أحبوا بعضكم بعضاً فقد خلق الانسان لمعاونة أخيه الانسان . فما بالكُم أيها الأخوة تتقاتلون ؟

فرجع وليم الوحشي أمام هذا الرجل وأحمت المومسات رؤوسهن وأطرق
للصوص إطراق الاحترام

وصاحت الارلندية هوذا الله قد أرسل لي ملاكاً من ملائكته الأطهار
لإنقاذي .

أما هذا الرجل الذي فعلت كلماته بنفوس اولئك الأشرار فعل السحر فقد
كان كاهناً كاثوليكياً ارلندياً عرفه جميع سكان وينغ ، حين كان الهواء الأصفر
يفتك بهم الفتك الذريع ، فلا يجدون من يكثرث بهم ويعتني بمعالجتهم غير
هذا الكاهن .

فكانوا يحترمونه احتراماً مقدساً ، وقد عرف بينهم باسم الكاهن صموئيل
كاهن كنيسة سانت جيل .

ونظر هذا الكاهن نظرة المؤنب الى وليم وقال له . إني ما جئت هذه
الحجارة إلا من أجلك ، فقد قيل لي إنك تسيء معاملة امرأة ، وتريد
إكراهها على الأمور الشائنة . فأسرعت كي أنقذها منك ، وأهديك الى
الصراط القويم .

فاضطرب وليم وقال له ، وهو لا يجسر ان ينظر اليه : أرجوك ان تصفح
عني وإني لا أعود الى مثل هذه المآثم بعد الآن .

وعاد الكاهن الى الارلندية وهي ملتجئة الى شوكنج فقال لها : من أنت
أيها المرأة ؟

أجابت : إني أم منكودة خطفوا ولدها ، فاشفق علي يا سيدي ورد
إلي ولدي .

فقال لها شوكنج : لا تخشي يا سيدي مكروهاً على ولدك لأنني أعرف المنزل
الذي بات فيه الست أنا الذي أوصلتك الى هذا المنزل ؟ فثقي بي ولا بد لي من
إرجاع ولدك اليك .

فصاحت الارلندية صيحة فرح وأكبت على يد الكاهن تقبلها فقال لها : أرى

من لهجة كلامك انك ارلندية .

- نعم يا سيدي .

- وأنا ارلندي فلينقذ الله الوطن العزيز .

ثم التفت الى الرجل العبوس وقال له : وأنت ايها الرجل الكريم الذي تولى
حماية هذه المنكودة من أنت ؟

- إني رجل يطمع ان يكون من أهل الخير والصلاح فاذا أذنت لي أن
أكون بمعيته كنت لك أطوع من العبيد .

ثم ركع أمام الكاهن وقبل يده باحترام .

- ١٢ -

وعند ذلك أخذ جميع أولئك اللصوص يخرجون من تلك الحجرة ،
كأنما هم أنفوا من الإقامة في محل دنس طهر بوجود هذا الكاهن فيه ،
ولم يبق في الحجرة غير صاحبته ، والارلندية ، وشوكنج ، والكاهن
والرجل العبوس .

ولما تفرق الجميع عاد الكاهن الى محادثة الارلندية فقال لها إدا أنت قادمة
من ارلندة ؟

- نعم يا سيدي فقد وصلت الى لندرا هذه الليلة مع ولدي .

- ما الذي دفعك الى مهاجرة ارلندا ؟ العمل الفقير شأن جميع إخواننا
الارلنديين ؟

- كلا يا سيدي ، ولكنني أتيت الى لندرا قيساماً بواجب مقدس ،
فقد أمرت أن أحضر الصلاة في سانت جيل ، في الساعة الثامنة من
صباح غد .

فارتعش السكاهن وقال : الملك نذرت نذراً ؟
 فنظرت اليه نظر الواصل المطمئن وقالت إن قلبي يحدثني بأنك من رجال
 الله فلا جناح علي إذا بحث لك بحقيقة أمري .
 - تكلمي .

- إني فلاحه فقيرة ولدت في جوار دبلين ، وأنا ابنة صياد . وقد عهد
 إلي زوجي قبيل وفاته بقضاء مهمة لا أعلم شيئاً من سرها . ولكنني أقسمت
 له يميناً على قضائها .
 - ما هي هذه المهمة ؟

فأجابت يجب علي أن أذكر لك بعض قصتي ، كي تفهم المهمة التي
 انتدبت لها .

لما كبرت وترعرعت جعلت أعين أبي في التماس الرزق فهو يصيد السمك وأنا
 أحبك له الشباك على أنه كان يسافر أحياناً في مراكب الصيد الى الأرض
 الجديدة ويصيد الحوت فيغيب ثلاثة شهور .

وقد اتفق اني بينما كنت ليلة في المنزل وكان أبي مسافراً إذ أقبل إلي رجل
 يركض مذعوراً وهو مخضب بالدماء فولج المنزل وقال لي : أستحلفك بالله
 وبارلندا التي سفكت دمي من أجلها أن تخبئيني .

فلم أنظر اليه ، ولم أنتبه لجراحه ، ولم أسمع غير كلمة الوطن المقدسة .
 فأدخلته وفرشت له سرير أبي فنام فيه ، وكنت أسمع عند ذلك عن بعد
 دوي البنادق .

ولم أعلم ماذا حدث غير اني ذكرت ما سمعته في ذلك الصباح من بعض
 الصيادين وهو ان الثورة قد نشبت في ارلندا ، وان انكلترا أرسلت سفنها
 وجنودها لكبح الثائرين .

فعلت ان ما أصاب هذا الرجل ، اللاجئ ، إلى منزلنا ، إنما كان من
 عداء الانكليز .

فانصرفت الى الاعتناء به رأقت طول الليل أصلي وأسأل الله ان يشفي الجريح ولا يهدي الانسكلين اليه .

وعند الصباح برحت المنزل وذهبت الى الميناء ، فعلمت انه جرت معركة هائلة بين الارلنديين والانسكلين . فكان النصر فيها للجنود وبددوا شمل إخواننا الارلنديين ، وهرب من سلم منهم الى الجبال غير ان الانسكلين لم يفرحوا بهذا النصر لأنهم لم يستطيعوا القبض على زعيم الشائرين .
فأسرعت عائدة الى المنزل وكان قلبي يحدثني ان ذلك الجريح هو نفس ذلك الزعيم الذي يبحث عنه الانسكلين .

وأقام عندنا عدة أسابيع وأنا أضمّد جراحه كل يوم حتى شفي وتعافى وكان أبي قد عاد من السفر فاعتنى به نفس اعتنائي وأكرم مثواه ، فأقام عندنا مخفياً بضعة شهور .

وكان في مستقبل الشباب وضاء الطلعة تدل نظراته على انه تعود الحكم على القلوب فأحبهته وأحبني ووافق أبي على زواجنا فتزوج بي . وبعد ان سافر الانسكلين قبل أن يشتغل مع أبي في مهنته ويتعاونان على الارتزاق .

وقد رزقت منه غلاماً فكان يحمله بين يديه ويقول لي : إن هذا الغلام قد يكون منقذ ارلندا .

فكنت أصدق كل ما يقول وأؤمن بكلامه كما أؤمن بالله .
وهنا تنهدت الارلندية تنهداً طويلاً ، وأخرجت منديلها فمسحت به دموع عينيها .

فقال لها الكاهن صموئيل : أتمي حديثك يا ابنتي .
وكانت لهجته تدل على ان الأمر خطير .

- ١٣ -

وعادت الارلندية الى حديثها فقالت: توالى الأيام وبدأ للشعر يذبت في رأس ولدي فسكران أسود قائماً والعهد بشعور الآرلنديين ان تكون شقراء ولا سيما في عمر الحداثة

ثم رأينا يوماً بين الشعر خصلة حمراء نبتت فجأة ، فرأيت زوجي قد صاح صيحة فرح وقال لي : لقد كنت مصيباً حين قلت لك ان هذا الغلام ينقذ ارلندا .

أما انا فلم أفهم شيئاً من قوله ، ولكنه مضى في حديثه فقال إصفي يا امرأتى العزيرة لما أقوله لك فاني اليوم صياد فقير أعيش معك على فقرنا عيش السعداء غير اني قد اضطر الى فراقك فراقاً قد يكون أبدياً ، لأن ارلندا قد تحتاج إلي في الغد ، فأعود الى امتشاق ذلك الحسام ، الذي سقط مني في المعركة الأخيرة .

ولا يعلم غير الله ما يكون من أمري ، فقد أنتصر على من يضطهدنا وأنقذ ارلندا من نير الانكليز وقد يكون النصر لأعدائنا فأموت في المعارك تاركاً هذه المهمة لولدنا العزيز .

ومهما يكون من أمري فاصدعي بما أقوله لك وهو انه في سنة ١٨٦٠ يجب أن تغادري ارلندا مع ولدك .
- إلى أين ؟

- إلى انسكلترا حيث يقيم أسيادنا ومضطهدونا . وإذا وصلت اليها إذهبي في الساعة الثامنة من صباح ٢٧ أكتوبر الى كنيسة سانت جيل ، وادني بولدك من الهيكل فإذا فرغ الكاهن من الصلاة قدمي له الولد وقولي له : « لقد أتيتك بالذي تلتظرونه » .
فأقسمت له أن أفعل ما يريد .

ومرت بنا الأيام وتوالت الأعوام وهو معي يشتغل بالصيد فما جسرت مرة على طول عهدي بصحبته أن أسأله شيئاً عن ماضيه .
إلى أن جاء منزلنا في ليلة مظلمة رجال لم أعرفهم من قبل فلما رأهم فرح بهم وانس بملقائهم وقال لقد طال عهد غيابكم فقالوا : جئنا حين الأوان ، فإن أيرلندا محتاجة اليك الآن ، وفي اليوم التالي سافر معهم فلم تحمل دون سفره دموعي ، فلما ودعني قال لي : تذكري اليمين ولا تنسي سانت جيل في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٦٠ .

وبعد أيام اضطربت الثورة في أيرلندا فجعلت القرى تنور الواحدة تلو الأخرى ، فاندحرت الجنود الانكليزية مرات كثيرة ، غير أن الانكليز يحاربون بأموالهم ، فاذا قتل الجندي حل مكانه سواء وهم يملأون البحر سفناً عند الاقتضاء خلافاً للارلنديين ، فانهم يحاربون برجالهم ، فاذا قتل الجهاد منهم لا يجدون سواء وظل القتل خيماً على الفريقين عدة أيام حتى انتهى القتال وانجلي عن فوز الانكليز وعادت أيرلندا تئن تحت نيرهم الثقيل

ولكني لا أعلم ما جرى لزوجي فجعلت ولدي وذهبت به من قريتي إلى دبلين فلما بلغت اليها سمعت الأجراس تسدق ورأيت الشوارع غاصة بمجاهدين الناس فسألت عن السبب في ذلك فقبل لي أن المحكمة العليا حكمت بالأعدام على زعيم الثوار وسينفذون الآن هذا الحكم .

فانقبضت نفسي وحدثني قلبي بمصائب أليم وحاولت الرجوع ولكنني كنت أشعر بقوة عظيمة تجذبني إلى ساحة الأعدام .

ثم باتت تلك الساحة ورأيت المشنقة منصوبة فحاولت الرجوع ولكن الناس كانوا يزاحمونني فالتصقت بتلك المشنقة دون أن أريد وبعد هنيهة جاؤوا بالحكوم عليه وأصعدوه درجات المشنقة فأغضت عيني كي لا أرى ذلك المنكود ولكنهما فتحتا بالرغم عني فصحت صيحة منكرة بحسب الناس أن زوجي خرجت معها مر صدري ذلك ان هذا المحكوم عليه كان هو ، أي زوجي ،

وقد رأني وقال لي « تذكرني » .

ولم أعلم ما جرى بعد ذلك فقد أغمى علي ، فلما فتحت عيني وجدت الظلام أسدل جناحه والناس قد تفرقوا ورأيت نفسي بعيدة عن ذلك المكان الذي قتل فيه زوجي شهيداً ارلندا ووجدت يجاني رجلاً لم أكن أعرفه من قبل وهو يحمل ولدي النائم فقال لي : اتبعيني ، فتبعته وأنا فاقدة رشادي لا أعلم أين أنا ولا كيف أسير .

وبعد مسير ساعة وصلت إلى طريق قريبي فقال لي : اذهبي الآن إلى منزلك إذ لم أعد أخشى علي ولذك فإن الظالمين لا يبحثون عنه في منزلك ولو علموا أنه ابن زعيم الارلنديين لما أبقوا عليه ، فاذهبي الآن رأف الله بحالك وتذكرني .

ثم تركني وانصرف ، فعلمت بعدئذ ان هذا الانسان كان عارفاً بما اوصاني به زوجي .

وعند ذلك مسحت الارلندية دموعها وركعت أمام الكاهن صموئيل وقالت له : انك عرفت كل شيء أستحلفك بالله وبذلك الانسان الذي في سبيل الوطن أن تساعدني في سبيل ايجاد ولدي إذ يجب أن أكون معه في سانت جيل وأن ..

فقاطعها الكاهن بإشارة وقال : أنا هو الكاهن الذي سيقم الصلاة غدأ في سانت جيل وأنا هو الذي ينتظر قدومك بالغلام .

فنظرت اليه باندهال عظيم وقالت : أنت هو ؟

- نعم يا ابنتي وأنا أيضاً أنتظرك .

- وولدي أين هو ؟

- كوني مطمئنة فسوف نجده .

ثم التفت إلى شوكنج والرجل العبوس وقال لهما : انكما ستساعداني على ايجاد الطفل فيما أظن

فأجابه شوكنج إن إيجاد سهل لأنني أعرف أين هو
وقال الرجل العبوس : اني مستعد لخدمتك في كل ما تريد
فقال لهم : إبدأ هلموا بنا فإن هذا الغلام الذي نبحث عنه هو الذي
تنتظرونه ارنلدا .
وهما بالخروج من الخماره فتقدمهم الكاهن ولكنه لم يمش خطوة إلى الباب
حتى رأى رجلاً قد دخل إلى هذه الخماره ، فما أوشك أن رآه حتى ارتعش
ونظر إلى رفاقه نظرة تدل على القلق والاضطراب

- ١٤ -

ولم يكن منظر هذا الرجل الذي دخل يدعو إلى مسا لقيه الكاهن من
الاضطراب فقد كان حسن البزة نظيف الملابس مختماً بخاتم ثمين من الماس مما
يدل على انه من أهل اليسر غير أن عينيه كانتا غائرتين وكانتا تشيران إلى ما
فطر عليه من الخبث والطمع .
وكان على بساطة ظواهره يلقي الرعب في قلوب كثيرين من الذين عرفوه
فإنه كان يدعى توماس الجن ، وهو من أشهر المرابين في لندرا وقد أرادت
التقاليد أن يكون من الاسرائيليين
غير انه كان يخالف أبناء طائفته في كثير من مبادئهم ، فإن الربا يكاد
يكون خاصاً بالاسرائيليين ، ولكن معظمهم يأخذون رجماً حلالاً خلافاً لهذا
اليهودي فقد كان يبلغ به الطمع أن يجعل الربا ضعف الأصل لا يردعه ضمير
ولا تمنعه عواطف رحمة واشفاق .
وكان من عادته أن لا يرد طالب قرض ومن كلامه المأثور ان كل مديون
لا بد له أن يدفع في النهاية ، وان من يطالب بحقه لا يضيع له حق ولذلك

كان يسلف كل من يستدين منه بفوائد عظيمة ، فلو قبض منه ربع ماله عليه لكان الرابع ولكنه كان يستعين بنظام لندرا الصارم فيستوفي بكل ما يعتقده حقاً ، وما هو إلا سرقة واختلاس ، ولذلك القى الرعب في قلوب أمثاله ، فكان إذا حصى أحدهم رفيقاً قال له : أبارك الله من توماس .

وكان هذا الدعاء خيراً من التحية .

هذا هو الشخص الذي دخل إلى الخمارة السوداء فارتعش لرؤياه الكاهن أما توماس فإنه لم يحفل باضطراب الكاهن بل دنا منه وقال له : انه لو قيل لي اني قد أجدك في مثل هذا المكان لما صدقت ولهزأت بالقائلين .

وأجابه الكاهن بعظمة : إن من كان كاهناً يا سيدي وجب عليه أن يذهب إلى كل مكان يدعوهم اليه الواجب .

— أرجوك العفو ومعاذ الله أن أحاول انتقادك ولكنني قلت هذا القول لأنني أبحث عنك بحثاً طويلاً منذ حين فلا أجدك .

— ذلك لأنني أقمت أسبوعين قرب مريض ولم أكن أبرح منزله إلا إلى الكنيسة .

— ولذلك لم يجدوك في منزلك منذ اسبوعين ، ولكنك أخطأت إلى نفسك خطأ عظيماً
— لماذا ؟

— لأن رجال النظام والعدالة قد فعلوا في هذه المدة ما وجب عليهم والان فلنبحث في الموضوع فانك اقترضت مني مائة جنيه لكنيستك منذ عام وقد استحق الدين منذ شهر فما وفيته إلى الان .

— نعم ، لكنني كتبت اليك استمهلك شهرين .

— لا أنكر ما تقول

— واني أقسم لك بأني أفيلك مالك بعد شهرين فقد أمرت وكييلي في ارلندا أن يبيع ما بقي لي فيها من الأرض وسيردني المال في أقرب حين .

وضحك توماس ضحك الهازيء وقال : اني أعرف أراضى ايرلندا وأثمانها وأنا أشير عليك أن تبحث عن طريقة أخرى .

– ماذا تهتمك الطريقة ما زال المال سيدفع اليك ؟

– لقد أصبت لأن ذلك من شؤونك الخاصة ولا دخل لي بها .

ثم وقف وهم بالخروج من الخمارة ، وظهرت علائم السرور على محيا الكاهن وقال له : إذا رضيت إطالة الأجل شهرين ؟

فاندشم توماس وقال : متى قلت لك هذا القول ؟

– ولكنني اقسم لك بانني سأفكك مالك حين الاستحقاق .

– هذا ما أتمناه لك .

– إذا أرفض تمديد الأجل ؟

– اني لا أرفض ولا أقبل ، لأن امرك بات منوطاً برجال النظام فاتفق معهم على ما تشاء .

– اني رجل فقير لا سبيل لي الى التقاضي .

فهرز توماس كتفه وقال : ليس ذلك من شأني

ثم تركه وخرج من الخمارة وتبعه الكاهن وفي أثره شوكنج والرجل العبوس والارلندية ، والكاهن يتوسل اليه وهو لا يجيب حتى انتهى إلى مركبة كان فيها إثنان وقال لهما : إذهبا بحضرة الكاهن إلى سجن المفلسين فإن أوامر القبض عليه صريحة لا اعتراض فيها .

ووضع أحد الجنديين يده على كتف الكاهن وأمره ان يصعد إلى المركبة .

وعند ذاك نظر الكاهن إلى الرجل العبوس نظرة يأس وقال : استسلمك بالله أن تهتم بايجاد الغلام .

– أقسم لك بالله اني سأجده .

وصعد الكاهن إلى المركبة وسار به الجنديان وتهدد شوكنج توماس بقبضته

ولكنه هز كتفه ومشى في حال سبيله دون أن يعبأ به ، أما الارلندية فإنها ركعت وجعلت تصلي .

- ١٥ -

وبعد ان انتهت من صلاتها وبكاها انفضها الرجل العبوس وقال : اني وعدتك بارجاع ولدك ولا بد من إرجاعه فاطمئني وهلمي بنا ،

ونفضت الارلندية وسارت مع الرجلين ، وكان الصباج قد طلع فركبوا مركبة ، ودل شوكنج السائق على الشارع الذي تقيم فيه فالوش وانطلقت بهم تنهب الأرض .

وقال الرجل العبوس لشوكنج ابان مسير المركبة : يجب علينا الآن ان نبحث عن السبب الذي حمل المعتدين على التفريق بين الأم ولدها فدعني أسألك علي أقف على السبب .

ثم جعل يسأل الارلندية أسئلة مختلفة غير ان هذه المنكودة لم تكن تعرف من امرها أكثر ما يعرف منه شوكنج ، وقصت عليه كل ما علمه القراء إلى أن اخبرته بالدوار الذي أصابها حين كانت واقفة تصلي ، وانها فقدت رشادها ولما استفاقت وجدت نفسها بعيدة عن ولدها في اقذر شارع .

وقال لها : ارني لسانك .

فامتثلت ففحصه وقال : انهم سقوك نخدرأ ونقلوك من مكان الى مكان دون ان تشعرني ، وذلك يدل على انهم يريدون فصلك عن ولدك لسبب اجله الآن ، ولكن لا بد لي من معرفته فساطمئني أيتها السيدة فإنهم لم يسرقوا ولدك ليسينوا اليه ، فإن هذه المدينة المتسعة كثيرة الأغنياء ، ومن يعلم فقد يكون القصد من سرقة هذه المرأة لولدك ان تتبناه .

— كلا فإن مهنتها تربية الأطفال وقد رأيت عندها بنتين صغيرتين كانتا ترتعشان خوفاً منها . حتى ان احدهما قالت لولدي : لا تقم في هذا المنزل أو يضربوك كما يضربوننا .

وقام الرجل العبوس في مهمة التصور والتفكير واسترسلت الارلندية إلى البلاء وظلت المركبة مندفعة في سيرها حتى وصلت إلى الشارع المقيمة فيه فانوش ، وأوقفها شوكنج على مسافة قريبة من المنزل . وقال له الرجل العبوس : ما هي نمرة المنزل ؟

— ٣٥

— إذا انتظرنى في المركبة الى أن أعود . فأجفلت الارلندية وقالت : ألا تصحبني ولماذا تدعني في المركبة الست أنا التي يجب أن تطلب ولدها ؟

— نعم يا ابنتي ولكننا لا نستطيع إرجاع الغلام إلا بالحيلة لا بالعنف ، لأن في هذه العاصمة لا ينال مثل هذا الحق بالقوة غير الأغنياء وأصحاب المقامات ، وما نحن منهم ، وفوق ذلك لا يحق دخول المنازل عنوة لأحد .

وذكر شوكنج ما في جيبه من الذهب وقال : ألم أخبرك اني غني ؟ فابتسم الرجل العبوس وقال وأنا ألم أخبرك انك طاهر القلب وإنك أبلي فانتظرنى هنا مع هذه السيدة حتى أعود

وأطرق شوكنج برأسه خجلاً ، وذهب الرجل العبوس إلى جهة المنزل ، لكنه بدلاً من أن يقرع بابه تجاوزه الى سواه . وكان يوجد بازاء المنزل خمارة دخل اليها وطلب كأساً من الشراب ثم أخذ يحدث صاحبته فقال لها : أتعرفين مسز فانوش ؟

— نعم فلنأمن من زبائني .

— أين تقيم ؟

— في هذا المنزل الذي أمامك رقم ٣٥ .

— إنما أسألك عنها ، لأن لدي فتاة صغيرة أحب أن أعهد اليها بتربيتها
لقد علمت أنها مربية أطفال .

واضطربت صاحبة الخماره وظهر أن عاملين يتنازعاها الى أن تغلب
أحدهما على الآخر فقالت له : اني أرى عليك مخائل السلامة وقد وجب علي
نصحتك ونصيحتي أن لا تضع فتاتك عند هذه المرأة

— لماذا ، أما هي مربية أطفال ؟

— هي كذلك بالظاهر ، أما بالحقيقة فهي سارقة أطفال ..

فشكرها الرجل العبوس وتركها وانصرف . فمر بمنزل فانوش ونظر
اليه نظرة الفاحص وتجاوزها ماشياً على الرصيف بغية فحص جميع ما
يكتنفه وما يحاوره ، ورأى رجلاً تدل ملابسه على الفقر المدقع يسير الهويناء
على الرصيف .

وتفرس فيه وكأنه قد عرفه فرسم على وجهه علامة الصليب بإبهام
يده اليمنى ، ولما رأى الفقير هذه العلامة السرية ، ورأى الرجل
العبوس يتفرس فيه دنا منه. وقال له : لقد عرفت علامتك فماذا تريد
أيها الأخ ؟

وأعاد الرجل العبوس رسم علامة الصليب مرة ثانية ، ولكنه رسمها
هذه المرة باليد اليسرى .

فألحنى الفقير باحترام وقال له : مر أيها الرئيس فاني طوع لأمرك .

فقال الرجل العبوس لقد علمت دون شك أن العلامة الأولى يراد بها
إننا اخوان متساوون في جمعية واحدة ، وان العلامة الثانية يراد بها
أن لهذه الجمعية رؤساء ومروسين ، فاعلم الآن أنني واحد من أولئك
الرؤساء .

— ماذا تريد أن أصنع ؟

-- أريد أن تتبعني
وتبعه الفقير ممثلاً دون أن يجيب .

- ١٦ -

أما الرجل العبوس فإنه سار توأ إلى المركبة .
وقال له شوكنج : ماذا صنعت ألم تجد الغلام ؟
فلم يجبه والتفت إلى الأيرلندية وهي تبكي بكاء الأطفال وقال لها : لا أسألك
يا سيدتي إذا كنت تريدن إيجاد ولدك ، فإنك تبذلين حياتك في هذا السبيل
ولكني أسألك أن تصغي الي .
فكفكت الأيرلندية دمعها وقالت : قل يا سيدي ما تريد ؟

- إن هذه المرأة التي كنت عندها سارقة أطفال ، وهي لم تسرق ولدك
للاساءة اليه بل لبيعه لعائلة تبحث عن وريث كما يظهر فاطمئني على ولدك
فليس عليه أقل خطر ، واعلمي ان هذه المرأة لا تتوقع أن تراك ، وإذا
رأتك الآن أضعت الغلام ، ولا تجيز الشرائع الاسكليزية الدخول الى المنازل
فهي تنادي البوليس في الحال وتطردك من المنزل .
نعم انك تستطيعين رفع شكواك الى القضاة ، لكنها تكون قد تمكنت
من ابعاد الولد قبل ان يشرع القضاة بالتحقيق ولذلك يجب اذا أردت أن أعيد
اليك ولدك أن تطيعيني طاعة لا حد لها .
- مر اطع وقل ما يجب أن أصنع

- يجب أن تبقى هنا في هذه المركبة مع شوكنج .
ثم التفت إلى شوكنج وقال له : إني ذاهب الآن الى منزل هذه المرأة
فإن رأيتني قد ظهرت لك من نافذته دع السيدة في المركبة واحضر الي

- سأفعل ما تريد ، إخفض صوتك لأنني أرى رجلاً يسمعنا .

وقد أراد به الرجل الفقير .

- لا تخف هذا الرجل فهو معنا وراقب النافذة ، وإذا رأيتني منها فاسرع الي . .

ثم تركهما وانصرف مع الفقير إلى منزل فانوش وقد أمره أن يزرر ثوبه وفعل مثله ليهاماً لأهل المنزل انهما من البوليس السري .
ولما بلغا الباب طرقاه مرات متوالية فلم يفتح الباب ، بل فتحت نافذة مظلة على الشارع وأطلت منها امرأة عجوز .

فقالت لهما : ماذا تريدان ؟

أجابها الرجل العبوس : إننا نريد منزل مسر فانوش .

- انه منزلها ، لكنها ليست فيه الآن .

- لا بأس ، افتحي لنا .

- ولكن من أنتما ؟

فقال لها الرجل العبوس بلمهجة الأمر : قلت لك افتحي .

فترددت العجوز هنيئة ثم فتحت لهما ودخلا ، وأسرع الرجل العبوس إلى إقفال الباب والدخول .

ولما تبيلت لهما العجوز ذعرت وظهرت عليها علائم الخوف وقالت لهما : من أنتما وماذا تريدان ؟

ولم يجيبها الرجل العبوس بل تقدم إلى إحدى الغرف وفتح بابها ورأى فيها البنتين الصغيرتين ، فسامتتعا عن الشغل وجعلتا تنظران إلى هذين الشخصين

وعند ذلك التفت الرجل العبوس إلى العجوز وقال لها : تقولين ان مسر فانوش ليست في المنزل ؟

- كلا ؟

— أين هي ؟

— مسافرة

— حسناً وأين هي الارلندية ؟

وارتمشت المعجوز وقالت : لا أفهم ماذا تقول .

— لقد جاء أمس في الليل إلى هذا المنزل رجل وامرأة و غلام .

— إنك منخدع يا سيدي .

— كلا ، لأن الرجل برح المنزل ، أما المرأة والغلام فقد بقيا فيه .

— قلت لك يا سيدي اني لا أفهم ما تقول .

ثم نظرت الى البنتين نظرة تهديد كأنها تحذرهما من أن تبوحا بشيء غير
ان الرجل العبوس انتبه لنظرتها ، فدنا من إحدى البنتين وقال لها بلمهجة لطف
وحنان ، ألم يحضر يا ابنتي مساء أمس رجل وامرأة و غلام ؟
فقال له الفتاة دون ان تكترث للمعجوز : نعم يا سيدي

و غضبت المعجوز غضباً شديداً وأخذت سوطها وحاولت ضرب الفتاة
وهي تقول : سوف ترين أيتها الكاذبة .

غير انه قبض على يدها ومنعها عن ضربها ثم عاد إلى الفتاة وقال لها :
قولي الحقيقة يا ابنتي ولا تخافي ، أتمشى الثلاثة الذين قدموا أمس هنا في
هذا البيت ؟

— نعم ..

— وبعد العشاء ؟

— أدخلوا الغلام وأمه الى هذه الغرفة .

وأشارت الى غرفة مقابلة لها ، فأمر العبوس الفقير أن يفتح بابها ففتحه
ولم يكن أحد فيها وقال للفتاة : أين هما الآن ؟

— لا أعلم يا سيدي .

— ألم تريهما في هذا الصباح ؟

- كلا ..
- ربما انك لم تري الأم فهل رأيت الولد ؟
- كلا .
- وأين هي مسز فانوش .
- لا اعلم .
- وعادت المعجوز إلى الهياج وقالت . سوف أميتك أيتها الكاذبة جلدأ بالسيط .
- وهمت أن تهجم عليها ، ودفعها الرجل بصدرها دفعة شديدة وسقطت على المقعد وقال لها : إذا خطر لك أن تفوهي بكلمة قتلتك دون اشفاق .
- ثم دنا من النافذة ففتحها ووقف كي يظهر لشوكنج كما اتفقا

- ١٧ -

- ورأى شوكنج إشارة الرجل المبوس وأسرع الى مقابلته ، ونزل الفقبير ففتح له الباب ، أما المرأة المعجوز فقد كانت ملقية على المقعد وهي توشك أن يغمى عليها من الخوف ، وأما البناتان فقد كانتا تضحكان
- ولما دخل شوكنج نظر الى ما حواليه ولم يجد الولد ، وقال له الرجل المبوس أخاف أن يكونوا خطفوه .
- ثم عاد الى الفتاة الصغيرة وقال لها : أنت واثقة يا ابنتي انك لم تري الولد مع مسز فانوش ؟
- نعم .
 - اتعرفين هذا الشخص . وأشار الى شوكنج ؟
 - نعم ، هو الذي جاء امس مع المرأة والغلام .

والتفت عند ذلك الى الرجل الفقير وقال له اني أعهد اليك بمراقبة هذه المعجوز ، وإذا فاهت بكلمة وحاولت الاستغاثة اخنقها .

ثم خرج من العرفة مع شوكنج وتفقد جميع غرف المنزل وبحث في الحديقة وفي السطح بحثاً مدققاً فلم يجد أثراً للغلام ، وعاد الى المعجوز فوجدها ترتطم من الخوف غير انها كانت مصممة على الانكار وقال لها . انك قد ارتكبت جريمة هائلة لا يكون عقابك بعدها غير الشنق على اني اعد لك وسيلة للنجاة إذا أردت السلامة وهي ان ترشديني الى مكان الغلام .

وقالت له بصوت يتهدج من الخوف : اصنع بي ما تشاء ، لأن الله يمينني عليك

- انه يوجد مركبة اوقفناها خاصة قرب هذا البيت ، سنأخذك بها الى إدارة البوليس وهناك تقولين ماذا فعلتم بابن الارلندية ، إلا إذا أردت أن تقوليني هنا فنكفيك هذه المشقة .

- قلت لك لا اعلم .

- بل تعلمين .

- اقتلني اذا شئت فاني لا أقول شيئاً ولا أعلم شيئاً .

فقال له شوكنج : اتريد ان اخنقها؟

- افعل ، لأن الموت اقل ما تستحق .

وأخذ شوكنج منديله ولفه على عنقها فجعلت تصيح بصوت أبج وتقول : اقتلوني اذا شئتم ولكني لا اقول .

وأمرد الرجل العبوس أن يضغط ففعل مهدداً وصاحت المعجوز صياح المختنق وكادت تبوح بما تعلمه .

غير انهم سمعوا فجأة جرس الباب الخارجي يقرع قرعاً شديداً ، فكف شوكنج عن الضغط ونظر الى الرجل العبوس نظرة المستشير ، واعتنمت المعجوز هذه الفرصة وجعلت تصيح وتستغيث .

ثم توالى قرع الجرس فأسرع الرجل العبوس الى النافذة المطلة على الشارع وأطل منها ورأى مركبة جميلة واقفة عند باب المنزل وقد خرج منها رجل نبيل وقف بجانبه رجلان من البوليس .

وأدرك العبوس ما يحدث به من الخطر وأسرع الى شوكنج والفقير وقال هلموا بنا الى الهرب وأسرعوا .

ثم تقدمهما راكضاً الى الحديقة ووجد المفتاح في بابها ففتحه وخرج منه وأسرع الرجلان الى الخروج في اثره .

ولما أمّنوا الخطر قال العبوس لشوكنج : اننا لم نجد الغلام اليوم ولكن لا بد ان نجده في الغد .

ثم أعطاه ورقة مالية قيمتها عشرة جنيهات وقال له : خذ هذه الورقة واذهب بالارلندية واستأجر لها بيتاً موافقاً وسليها عن مصابها وعدّها بانقاذ ولدها قريباً لأنني كما قلت لك لا بد من أن أجده .

— وانت الا تحضر معنا ؟

— كلا اذ يجب ان ارى الكاهن صموئيل .

— كيف تراه وهو في السجن ؟

— ذلك اني سأحبس نفسي معه في السجن

— لكنك إذا دخلت الى السجن لا تخرج منه فكيف تستطيع البحث

عن الغلام ؟

— اني اواعدك على اللقاء غداً في الساعة الرابعة في شارنچ كروس وعادني

ان أفي متى وعدت .

ثم افترقا فذهب شوكنج الى الارلندية وهو يتوجع لمصابها وذهب الرجل العبوس يتبعه الفقير الى شارع اكسفورد ، وهناك امر الفقير ان يعود الى بيت فانوش . وان يرقب ذلك الرجل النبيل الذي دخل اليه ويقتفي اثره اينما ذهب ، ويعلم اسمه ، وضرب له موعداً للقاء في المكان الذي عينه

لشوكنج .
فالتحى الفقير وانصرف ممتثلاً وذهب الرجل العبوس في شأنه .

- ١٨ -

ولندكر الآن ما جرى لابن الارلندية وكيف اختفى .
ولا بد لنا أن نعود بالقارىء إلى بضع ساعات حين كان ولتون والسائق
ذهابين بالارلندية بغية القاءها في النهر ، فإن مسز فانوش لبثت واقفة في ذلك
الحين عند باب المنزل تشييع اللصين بالنظر حتى توارت المركبة عن انظارهما
وعادت إلى منزلها وأحكمت إقفال بابه .

ثم دخلت إلى الغرفة التي كان نائماً فيها ابن الارلندية وجعلت تتفرس فيه
وتقول في نفسها : ما أعجب هذا الاتفاق الذي قد ربي الخروج من ذلك
المأزق الضيق ، بل أن هناك اتفاقاً أعجب ، وهو أن هذا الفلام يشبه ابن
مسز اميلي بعض الشبه فاني سأسعد هذه المرأة كما أشقيت تلك ومصائب قوم
عند قوم قوائد .

وعند ذلك خرجت إلى قاعة الطعام ونادت المعجوز قائله لها : اجلسي
يجاني نتحدث فإن أمرنا خطير .
ولم يرق هذا الاقتراح للمعجوز وقالت : لقد دب النعاس إلى أجفاننا فلننم
الآن ولنرجى الحديث إلى الغد .

فاتقدت عينا فانوش بأشعة الغضب وقالت : اتظنين ايتهما البلهاء اني أدفع
لك راتب كي تأكلي وتشربي وتنامي ؟
فاشمزت المعجوز من هذا التقريع العنيف وقالت : اشكرك يا سيدتي
لاحسانك إلي بالرواتب الكثيرة ، لكنني لو لم أكن في منزلك لما سارت أعمالك

- هذا السير المنتظم فإن الأولاد عندك لا يرهبون إلاي .
 - ذلك أكيد ، لكن أعيد عليك ما قلته وهو انه يجب ان نتحدث .
 - إذا قولي ما تريد .
 - يجب ان ننظر الآن فيما يجب ان نفعله بهذا الغلام .
 - انك تعلمين أكثر مني .
 - ان مسز اميلي وزوجها سيحضرا بعد شهر فليس الوقت متسماً لدينا
 كي نريه على ما نريد .
 - انت السوط يكفل حل كل عسير .
 فهزت فانوش كتفها وقالت : انك كلما كبرت زدت خرفاً وبلهة
 - وبخيني واشتميني كما تشائين فإنك تدفعين لي رواتبي
 .. لا أريد توبيخك بل أريد أن أظهر لك ان نفسك خالية من الذكاء فإنه
 يجوز لنا أن نضرب الأطفال الذين عهد الينا بتربيتهم ، لأن اهلهم يدفعون لنا
 نفقاتهم ولا يطلبونهم إلا بعد عهد طويل ، أما هذا الغلام فإننا سنسلمه إلى
 مسز اميلي بعد شهر ، فنحن أحوج الى إرضائه منا إلى ضربه ، وذلك أولاً
 لكي يذس أمه التي افترق عنها بما يجده من المؤانسة والملاطفة ، ثم لأنني رأيت
 منه صدقاً في العزيمة وصلابة في الرأي ، ولذلك لا أجدر بدأ من أن ننهج معه
 منهاج اللين
 - إذا أعهدني به الي فاني لا أعرف الرفق في تأديب البنين
 - بل سأفعل خيراً من ذلك ، اي اني سأبعده عن هذا البيت ، فإنه
 متى صحا فيه ، ولم يجد أمه ، ملأ الدنيا صراخاً وعلم أهل الشارع بأمره
 وافتضح أمرنا .
 - والسوط ؟
 وغضبت فانوش وقالت : الا توالين ايته البلهاء تذكرين السوط ، ألم أقل
 لك اني أريد ان ألائنه واسترضيه ؟

- عفوك فقد بسيت ، ولنعد إلى قولك الأخير ، فإلى اين تريدن الذهاب به ؟

- إلى ذلك البيت الجديد الذي اشتريته في خلاء همبستاد ، فإنه يكاد يكون مقفراً ، وفيه حديقة غناء يلعب فيها الولد كما يشاء ، فحق عادت مسز اميلي أكون قد دربتة على ما أريد ، وجعلته يعتقد انها امه الحقيقية ، وان الارلندية ، لم تكن غير مرضمة ، أما أنت فستبقين في البيت وتحفظين به كما لو كنت فيه .

- انك تعلمين اني مخلصه لك كل الاخلاص .
- إذاً إذهبي الآن ونامي ، اما انا فاني ذاهبة الآن بالغلام .
فانصرفت العجوز وهي تقول افعلي ما تشائين ، اما انا فاني افضل السوط .

ولم تحفل فانوش بقولها ونادت خادمتها وقالت : احضري مركبة فإننا ذاهبون الآن إلى همبستاد .

فامتثلت الخادمة وعادت فانوش إلى حجرة الغلام .
وكان الغلام نائماً لوم تخدير كما تقدم والمخدر يؤثر بالصغار وضعفاء البنية أكثر من تأثيره بالكبار والأصحاء فأخرجته من سريره دون ان يستيقظ والبسته ثيابه .

ولما انتهت من ذاك عادت الخادمة واخبرتها ان المركبة على الباب فأمرتها ان تحمل الغلام اليها .

فقالت لها : العلك تريدن إغراقه ايضاً ؟

أجابت : كلا ، فإننا سنكسب منه الف جنيه على الأقل ، بسل نحن سنذهب به في البرية .

وحملته الخادمة وخرجت به وتبعته فانوش إلى المركبة ، وسارت بهن وبلغت همبستاد بعد ساعة والغلام لا يزال نائماً واخرجته من المركبة

واطلمتتا السائق .

وكان هذا البيت صغيراً قليل الغرف ، غير انه كان يحيط به حديقة متسعة ، وحملت الخادمة الغلام واجتازت به الحديقة تتقدمها فانوش فشعرت انه بدأ يتحرك وقالت لسيدتها : انه سيفيق قريباً .

— لا بأس الآن فليستفق ويصرخ قدر ما يشاء فلا جيران لنا يسمعون صباحه .

ثم دخلت به إلى البيت ووضعتة على مقعد ، ولم يكذب يستقر عليه حتى تحركت شفته و كان أول كلمة فاه بها قوله « أمي » .

وبعد هنيهة فتح عينيه ونظر الى ما حواليه ورأى فانوش وقال لها : أين أمي ؟

— نائمة يا بني .

فنهض عن المقعد ونظر إلى نفسه ورأى نفسه بملابسه وتذكر انه خلعهما قبل وقال لفانوش : لماذا أنا بملابسي ؟ فلم تجبه .

وعاد إلى سؤالها عن أمه فقالت له . اني ذاهبة لأناديها .

ثم خرجت من الغرفة وقد نظرت إلى الخادمة نظرة سرية وكانت قد علمتها ماذا يجب ان تصنع مدة سيرهما في المركبة .

أما رالف فإنه سأل الخادمة ايضاً : لماذا أنا بملابسي ؟

— ان امك البستك اياها .

— وأين هي الآن ؟

— في الدور العلوي .

— اني أريد ان اذهب اليها --

ثم مشى الى الباب فحاولت الخادمة دونه وقالت له : بل تبقى هنا .

— وإذا كنت لا أريد .

ولكنني أنا أريد .

وضرب الأرض برجله وقال : اني اريد ان اذهب إلى أُمي .
ثم حاول ان يبعد الخادمة ويخرج فوقفت عند الباب ومنعته ،
فدفعها بعنف وغضبت منه وصفعته على وجهه صفعة تألم منها ألماً شديداً وضم
يده وضربها ضربة شديدة نتج عنها ان هذه المرأة الوحشية أخذت سوطها
وقالت له سوف ترى ايها الوقح كيف أربيك .
ثم انتهالت بسوطها على ذلك المسكين فجعل يصيح صياحاً يقطع القلوب
من الشفاق ، لكن هذه المرأة لم يكن لها قلب يعرف الرحمة .

- ١٩ -

ولندع الان هذا الغلام المنكود مع ظالميه ، والارلندية أمه مع شوكنج ،
ولنعد إلى ذلك الكاهن صموئيل الذي تركنا الجنديين ذاهبين به إلى السجن
فنقول :

يوحد في لندرا سجن خاص بالذين يتأخرون عن دفع ديونهم ينفق كل دائن
على من يسجنه فيه إلى أن يدفع الدين فيخرج منه او يمل الدائن من الانفاق
ويطلق مدير السجن سراحه

وقد كان هذا الكاهن استدان مائة جنيه من الصراف الاسرائيلي وانفقها
على المعوزين من قومه وهو يرحو ان يفي الدين في الأجل المعين بما سيبيعه من
أرضه في ارلندا ، الا ان البيع لم يتيسر في الموعد المضروب ، وأدخله الصراف
إلى سجن المفلسين ، وابتى ان يمدد أجل دينه ، كما علم القراء من حديثها في
الخمارة السوداء .

ومن شروط هذا السجن ، انه إذا أراد أحد أقرباء المدين أو أحد أصحابه

أن يسجن بدلاً منه يأذنون له فإذا عجز المديون عن الوفاء وأراد الذي سجن مكانه أن يخرج من السجن جيء بالمديون الأصلي فسجن وأطلقوا سراح من تاب عنه .

غير أن هذا الكاهن على كثرة أصعابه ومريديه لم يلق من يعرفه حين ذهب به الجنديان وأبت نفسه الكريمة أن يطلب إلى من كان في الخمار أن يسجن واحد منهم في مكانه إلى أن يتيسر له السعي لايجاد المال ، وسبق إلى السجن وعينوا له خير مكان في القاعة العامة فإن الجميع كانوا يحبونه لما عرف به من الصلاح .

ولقد تقدم لنا القول ان الرجل العبدوس أخبر شوكنج انه سيجتمع بالكاهن في سجنه ، وواعده على المقابلة في اليوم التالي ، ولما افترق عن شوكنج ذهب الى منزله وغير ملابسه ومضى توارى الى سجن الفلاسين ، وهو يفكر في طريقة تمكنه من ان يرى الكاهن ويخرجه من السجن .

ولما وصل الى ذلك السجن وجد في ماحته قهوة يختلف اليها اهل المسجونين واصحابهم فيقيمون فيها الى ان يؤذن لهم بمقابلتهم . وجلس امام مائدة مع الجالسين وجعل يحيل بينهم نظر الفاحص الخبير بشقاء القلوب .

ونظر فتاة في ريعان الشباب فضح فقرها لباسها ، وستر ذلك الفقر ظواهر الأدب والوقار ، فهاجت بقلبه عوامل الشفقة لما رآه من دلائل انكسارها وشقاؤها فانها كانت مطرقة الى الأرض والدموع تنهل من عينها ولا ترفع نظرها إلا حين تشعر بقدم قادم جديد الى القهوة

ثم دنا منها وسألها عن سبب بكاؤها بلهجة حنو أنست بها الصبية وحكت له حكايتها ، وخلصتها ان مهنة ايها النجارة ، وانه مديون بمشرة جنيتها لشخص لا رحمة في قلبه وقد سلمه منذ ساعة الى الجنود لسجنه حتى يفى الدين فأرسل اليها أبوها من أخبرها بالأمر فسبقته الى السجن كي تراه

قبل دخوله اليه وإنها الآن تنتظره .

وقد حكى له هذه الحكاية بله البساطة ، فوصفت له معيشتها مع أبيها ، وأنها في أشد حالات الفقر ، بحيث يستحيل على أبيها وفاء الدين . وانه إذا بات ليلتين في السجن تموت هي من الجوع ، ويموت هو من اليأس

ففرق الرجل العبوس لحكايتها وتمثل له الشقاء بأبلغ صورة ، فطيب خاطر الفتاة ووعداها خيراً .

وقد خطر له أن يستفيد من هذه الصدفة في الغاية التي يسعى إليها . فبينما هو يحادث الصبية ويعدها بانقاذ أبيها من السجن تفريجاً لكربتها ، إذ دخل الى القهوة جنديان كان بينهما رجل تدل ملابسه انه من العمال ، وقد طبع اليأس على جبينه . فلما رآته الصبية شهقت وقالت : هذا أبي ثم أكبت على صدره تغسله بدموعها .

فاحترم الجنديان هذا المشهد المؤثر ، وابتعدا عنها وجلسا حول مائدة وطلبا زجاجة من الشراب يصرفسان الوقت بها حتى يتم الرجل وداع ابنته ويوصيها بما يريد

وعند ذلك دنا الرجل العبوس من الجنديين وحيماهما أحسن تحية ، فاستقبلاه خير استقبال لما رآياه من حسن أدبه ، وظواهر نبله وجمال لباسه مما يدل أنه من الأعيان وانه قادم الى السجن للفرجة والتفقد ، شأن كثير من ذوي اليسار والفراغ .

أما الرجل العبوس فإنه جلس معها وجعل يحادثها عن سجن المفلسين ونظاماته ثم استطرد الى البحث في أمر هذا الرجل وابنته ، والسبب في سجنه ومبلغ دينه . فأخبراه بما عرفه من الصبية ، فأظهر الرجل العبوس توجهاً شديداً لهذا المنكود شاركه فيه الجنديان ، لأنها كانتا عارفين بفقره المدقع .

ثم قال لهما : لقد خطر لي ان أحل محله في السجن
فضحك الجنديان لاقتراحه وحسباه مازحاً فقال له أحدهما كيف يدخل
من كان مثلك السجون ؟

— يدخل ليخرج سواه .
— ولكنك است من أهل الرجل ولا من أصدقاءه .
— ومع ذلك إني أحب ان أحل محله لأفرج غمه .
— إن ذلك سهل عليك تستطيعه دون الدخول الى السجن فاذا دفعت عنه
ما عليه أطلقناه في الحال

فابتسم الرجل العبوس وقال : إني أعلم من ذلك ما تعلم ، غير اني أؤثر
الدخول إلى السجن لأسباب كثيرة ، منها إني أجد لذة في هذه المشقة التي
سأكابدها عن هذا المنكود لا أجد مثلها إذا اقتصررت على دفع المال ، فقد
تعودت مثل هذا الاحسان حتى مللته .

ومنها إني أحب أن أدرس أحوال هذا السجن وأتفقد المسجونين فيه علي
أجد بينهم من يستحق الافراج فأدفع دينه وأفرج عنه . وماذا عليكما إذا
أدخلتاني الى السجن بدلاً من هذا الرجل ؟

فعبس الجندي وعلم انه غير مازح في ما قاله لما رآه من ظواهر جده فقال
له : لا بأس ، غير ان العادة ان يدخل السجن نفسه الى السجن ، ولا يخرج
منه إلا بدفع المال او عفو الدائن أو حلول غيره محله كضامن له إلى ان يجمع
المال . وجميع هذه الأمور يكون مرجع الحكم فيها الى حاكم السجن
دون سواه .

— إني أعلم جميع هذه القيود ، غير ان حاكم السجن لا يعرف هذا
الشخص بالذات .

— ماذا تريد بهذا القول ؟

— أريد به اني لو لبست هذه الملابس الرثة التي يلبسها ذاك النجار ،

وعرضت على حاكم السجن باسمه الحبسني ، وهو يعتقد انه يحبس النجار نفسه .

— لكن من يقدمك للحاكم باسم النجار ؟

أنت ورفيقك هذا ، ولا جناح عليكما ، لأنني سأدفع المال عن هذا النجار . ولدي كثير منه في محفظتي ، فيطلقون سراحني ولا يدري بأمرنا أحد . فتكونان قد أحسننا إلي لتسهيل سبل غايقتي ، وما وراءها إلا الخير ، وأحسننا إلى نفسيكما بما سأدفعه لكما من المكافئة عن هذه الخدمة الصالحة .

ثم أخرج محفظة من جيبه ، كي يدفع ثمن الشراب ، وفتحها أمام الجنديين . فرأيا فيها من الأوراق المتكدسة ما أدهشهما ، فجعلا يتشاوران بالنظر .

وبعد أن دفع الرجل العبوس عشرة أضعاف ثمن الشراب يستخاء غادر ، وعاد إلى إغواء الجنديين ، وقد ترك المحفظة مفتوحة أمامهما . فطال العهد بهما حتى أقدمهما فنقدما عشرين جنيهاً واتفق معهما على أن يلبس ملابس النجار كي لا يلتبس أمره على الحاكم .

ولما تم الاتفاق ذهب إلى النجار وابنته وأخبرهما بما حدث فجعلا يبكيان بكاء الفرح والامتنان .

ثم دخلا إلى غرفة من غرف القهوة ، ولبس الرجل العبوس ملابس النجار ، وعادا إلى الجنديين فذهبا به إلى الحاكم ، فأمر بإدخاله إلى السجن . أما النجار وابنته فانهما عادا إلى منزلها ، وهما يدعوان الله لهذا الإنسان النبيل

- ٢٠ -

وكان حاكم هذا السجن كثير الشفقة والحنان ، شديد الرأفة بالمسجونين ، حريصاً على راحتهم . فلما دخل عليه الرجل المبوس وهو بملابس التجار طيب خاطره وعزاه ثم دخل به الى السجن .

وعندما فتح باب السجن كان الكاهن صموئيل راكماً على الأرض وببسه كتاب صلاة . وكانت تلك القاعة مظلمة رطبة لا نار فيها تقي ألم البرد غير ان وجه الكاهن كان يشرق بفضيلة الصبر إشراقاً . فلما رأى الحاكم قد دخل عليه وقف له احتراماً وحياء .

فتأثر الحاكم لما رآه من شقائه وقال له : إن تأثري شديد من هذا المرامي المحتال ، لأنه لا أدب في نفسه ، ولا رحمة في قلبه ، وليس له شيء من صفات الانكليز .

فابتسم الكاهن وقال له : لماذا تحكم عليه هذا الحكم العسار ؟

- لأنني أراه أفرط في العنف ، لكن عنقه لا يطول لأن لي سلطة تامة في السجن وسأستخدمها .

ثم التفت الى كاتبه وقال له : أكتب في الحال كتاباً الى توماس الجن وقل له إن ما ينفقه على مسجونيه غير كاف وإن إدارة السجن ترى ان الكهنسة لا يجب ان يعاملوا معاملة الصادين وأنه إذا لم يعين في القريب العاجل نفقات كافية للكاهن صموئيل فإن الادارة تطلق سراحه .

فابتسم الكاهن أيضاً وقال له : أشكرك يا سيدي خير الشكر لأنك خير من عرفت من الحكام ولكنني ارجوك ان لا تكتب شيئاً لهذا المرء لأنني بخير وقد تعودت شظف العيش .

- لكن ذلك مستحيل إذ لا تستطيع ان تعيش هذا العيش وإذا رضيت له لنفسك فلا أرضاه لك .

— إني أعود أيضاً الى شكرك ورجائك ان لا تكتب لهذا الشخص ، لأنه من أهل الشر ولن تنال منه شيئاً . غير اني أسألك ان تأذن لي بالكتابة الى ارلندا فانهم يرسلون إلي في الحال قيمة ما علي لهذا الشخص .

— سأفعل ما تريد ولكن بقاءك على هذا الفراش من القش يؤذيك ، لأن البرد قارس .

— لقد رقدت مرات على أخشن منه ، أنظر الى هؤلاء المسجونين النعساء ، لأنهم أولى بالإشفاق مني .

وفيا هو يتكلم رأى الرجل العبوس بجانب الحاكم فبرقت عيناه وحاول أن يكلمه ، غير ان العبوس أسرع الى وضع سبابته فوق فمه إشارة إلى السكوت فانصرف الكاهن الى محادثة الحاكم وبعد هنيهة تفقد الحاكم المسجونين وخرج من السجن .

وبعد ذلك خلا الكاهن بالرجل العبوس ، وقد اعتبر لأول وهلة رآه ان دخوله الى السجن لم يكن لدين عليه بل كان الدين حجة تذرعه بها للوصول اليه فكان أول ما سأله إياه قوله : أعثرت على الفلام ؟ فرد العبوس : كلا .

فامتعض الكاهن وقال . رباه ا إني أسير في السجن ، ولا حيلة لي بالبحث .

فقال له العبوس : إني لم أعثر على الفلام ، ولكنني سأعثر عليه وأقسم لك على ذلك .

— لكن كيف تجده وأنت سجين مثلي ؟

— هو ما تقول . غير اني أستطيع الخروج من السجن حين أريد . ولكنني أردت ان أراك وأحدثك ، ولهذا دخلت الى السجن بدلاً من إنسان فقير

فمعجب الكاهن لأمره ورأى الاخلاص يحول في عينيه فقال له : من أنت أيها

المرء لأنني توسمت فيك الخير حين رأيتك ؟
فأطرق العبوس بعينيه الى الأرض وقال : إنني كنت من كبار المجرمين
فتبت توبة صادقة منذ عشرة أعوام وأنا أضحي نفسي كل يوم في سبيل الخير راجياً
أن أنال عفو الله

ثم رأى ان الكاهن لم يثق به كل الثقة ، فرسم بإبهامه على وجهه تلك
العلامة السرية التي أكرهت ذلك الفقير على الخضوع حين شاهده قرب
بيت فانوش .

فارتعش الكاهن حين رأى العلامة ، وعاد العبوس الى رسمها أيضاً ،
فمد الكاهن يده وصافحه وقال : إذا أنت ارلندي ، وقد كنت أحسبك
فرنسياً ؟

- بل أنا فرنسي ولكن جميع أهل الشقاء إخواني .

- ولكنني رأيت من علامتك السرية ، إنك واحد منا فمن أدخلك
في سلكنا ؟

- شخص مات في سبيل ارلندا .

- وهذا الشخص ؟

- إن الانكليز الذين حكموا عليه وأعدموه شنعاً يحسبون انه انسان فقير
متسول من عامة الناس ويدعونه فالتن .

فاضطرب الكاهن وقال : أنت عرفت فالتن ؟

- إنني عشت وإياه عيشاً واحداً ستة أشهر في دبلين . ولم أحكم عليه
بالإعدام أنقذته من سجنه ، وكاد يفوز بالفرار الى اوروبا . ولكن الله أبى
ان يبلغ كل مراده ، فاني استأجرت سفينة وجهلت بحارتها من الفرنسيين
وتوليت أنا رئاستها ، فركبناها وركب معنا فالتن ، وكنت واثقاً من الفوز
كل الثقة .

وفيا نحن في البحر والسفينة تمخر بنا الى أرض الحرية قال لي فالتن : إنني

أراك واثقاً من الفوز غير ان قلبي يحدثني بانني غير ذاج من قبضة الانكليز وقد
حان لي أن أخبرك من انا لأن ساعتي أتت .
ثم مال على أذني وأخبرني عن تينك العلامتين وهما علامة العضو البسيط
في جمعيتنا وعلامة الرؤساء .

وقال لي : إنك ستذهب أيضاً الى لندرا فتبحث في تلك المدينة المتسعة عن
كاهن شاب يدعى الكاهن صموئيل ، فإنه رئيسنا الأكبر الى ان يتزعزع
الغلام الذي ننتظره فيتمولى الرئاسة العليا مكانه ، ومتى اجتمعت بالكاهن
حدثه عني ، واذا كنت قد قضيت فاذا ذكر حوادثي الأخيرة . أما اذا بلغت الى
أرض الحرية ونجوت من الانكليز لا تقل شيئاً عني لأنه لم يرني مرة في حياته
ولكنه يعرفني .

— إذا قد مات فالتن ؟

— نعم ، فإننا بينما كانت السفينة تمخر بنا ، هبت عاصفة شديدة
القتها على الصخور ، والتجأنا كلنا الى صخر ولم يكن عندنا ريب اننا
سنموت جوعاً .
غير انه عندما أشرق الصباح ظهرت لنا دارعة انكليزية فقال فالتن : هلموا
نشير اليها .

فمنعته عن ذلك وقلت : اننا اذا استسلمنا الى الدارعة عرفوك وقبضوا
عليك وعدت الى سجنك .

قال : إذا مت انا افتديتك وافتديت سائر البحارة فالمت عثم ومعاذ الله
ان أرضى لكم الموت من أجلي .

ثم نزع قيصره دون ان يصغي إلي ، وجعل يشير بها الى الدارعة ،
فرآنا رجالها ، وأسرعوا الى نجدتنا . فحملونا بقارب الى الدارعة فنجونا
كلنا ما خلا فالتن .

فقال الكاهن أرايته حين إعدامه ؟

. نعم فقد أعدم بعد ذلك بأسبوع في مدينة دبلين وكنت واقفاً تحت المشنقة فكان آخر كلمة قالها لي « تذكر » .

وكان العبوس يروي الرواية بلهجة تدل على تأثره فقد اليه الكاهن يده وقال
أمن أجل هذا أتيتني ؟
- نعم .

- رباه وكيف السبيل الى إيجاد الولد لأن الارلندية قد صدقت فيما قالت ،
وابنها هو الذي ننتظره لنكون له خداماً أمعاء .
- إنني اقسم لك باننا نجده .

فقال بلهجة تشف عما خامر فؤاده من الحزن . لكن كيف ؟
فابتسم العبوس وقال : اصنع لي تعلم كيف نجد الغلام .

- ٢١ -

ثم قص عليه جميع ما حدث له بالتفصيل ، وكيف دخل الى منزل
فانوش وأيقن من اختفاء الغلام ، حتى إذا أتم حديثه قال الكاهن : إنني
أرى عليك مظاهر الارتياح ، لاعتقادك ان الغلام قد اختطفته المرأة
لبيعه لإحدى العائلات ، وإن التفتيش عنه سهل ميسور ، فاصنع لي الآن
أنت بدورك .

كانت ارلندا منذ مائة عام على ما هي الآن راصفة في قيود الذل والاستعباد
للانكليز فاستمرت ثلاثين عاماً تحارب حرب كفاح عن حريتها برئاسة رجلين
كانا أخوين .

وكان هذان الشخصان من نسل ملوكنا القدماء وللارلنديين إعتقاد أنه لا
ينقذ ارلندا من ربة العبودية غير أحد أبناء هذه الأسرة

وقتل أحد الأخوين في ساحة القتال أما الآخر فقد خان أمته ووطنه وباع نفسه للانكليز فكافأته انكلترا فجعلته عضواً في البرلمان ومنحته لقب اللوردية.

وولد لهذا الخائن ولدان فخلف احدهما أباه في البرلمان وبقي انكليزي المبدأ وأما أخوه فانه ذكر ان الدماء التي تجول في عروقه ايرلندية وانه يجب أن يموت شهيداً بها .

وهذا الرجل يدعى السير ادموند فانه برح انكلترا عائداً إلى ايرلندا وقد علمت كيف مات من الأيرلندية .

— أهو والد الغلام الذي نبحث عنه ° وزوج تلك المنكودة ؟
— هو بعينه .

— لقد فهمت الان كل شيء .

— كلا ، لم تفهم شيئاً ، فان اخا السير ادموند بدلاً من أن يمد يده لأخيه ويعينه على انقاذ ايرلندا من قبضة الانكليز مالا الانكليز على أخيه وحقد عليه حقد اللثام .

— ألا يمكن أن يكون هذا الخائن نفسه قد اختطف الغلام ؟

— نعم أنه هو الذي اختطفه ولكنه لم يسرقه ليجمعه وريثه بل ليمحوا أثره من الوجود ويتبعه بأبيه فان من قتل الأسد لا يعف عن الشبل ونهر التيمس بعيد الغور .

إرتعش الرجل العبوس وذكر في الحال ما أخبره به شوكنج عن ذلك اللورد الذي أمره أن يقتل أثر الأيرلندية وأعطاه عشرة جنيهات .

فقال للكاهن انك مصيب في ظنك كما أرى فهل تعرف اسم هذا اللورد شقيق السير ادمون ؟

— نعم انه يدعى السير فالير .

فصاح الرجل العبوس صيحة خوف واشفاق وقال : لم يبق لدي شك أن سارق الغلام هو هذا اللورد ، ولذلك يجب أن نسرع إلى الخروج من السجن

في الحال ونجد الولد

فأن الكاهن أنين الموضع وقال : كيف السبيل إلى الخروج من السجن ؟
ان هذا المرابي قد حبسني وعاملني دون اشفاق لأنه مدفوع إلى هذه الفظاعة من
اولئك الذين يضطهدوننا ولم يكن غير آلة في أيديهم فانهم قد عرفوا أن الغلام
قادم من ارلندا واني سأحتفل صباح اليوم بقداس بحضور أربعة رجال هم رؤساء
مثلي في جمعيتنا وهم قادمون من ارلندا وايكوسيا وبلاد الغال واميركا وانا صلة
التعارف بينهم فانهم لا يعرفون بعضهم بعضاً ولكن اعدائنا عرفوا بامرهم
وعرفوا اني سأبارك الغلام أمامهم فجالوا دون هذا الاجتماع بسجني في اليوم
المعين لاجتماعنا وحالوا دون مباركة الولد باختطافه .

ثم أطرق برأسه وقال ويلاه انهم قد يكونوا قتلوه وأنا أسير في هذا
السجن فكيف أعمل ؟

— أما الولد فلا بد أن نجده ويستحيل أن يقتلوه كما تتوهم وأما هذا السجن
فاننا نستطيع الخروج منه متى شئنا .

فنظر الكاهن الى ملابسه الرثة وقال : يستحيل الخروج من السجن إلا بعد
دفع الدين وأين نجد المال ؟
— تجده في جيبتي فارتب لدي من الأموال قدر ما تشاء لخدمة ارلندا فلا
تعجب لأمرني فستعلمه بعد .

وقد رأيت الحاكم ميالاً اليك فأدعه الان وأنا أدفع عنك وعني ونخرج من
هذا السجن في الحال .

ثم أخرج محفظة أوراقه من حيبه وفتحها أمام الكاهن فسر بما رآه سروراً
لا يوصف وأسرع إلى خادم السجن فسأله ان يدعو له الحاكم .

وبعد هنيهة أقبل الحاكم فدفع الرجل العبوس دينسه ودين الكاهن فسر
الحاكم بما رآه من كرم الرجل العبوس وعلم كما أوهمه انه رجل غني من أهل
الخير يتنكر ويدخل مثل هذه السجون فيفرج عن التعمساء فيها وللحال أطلق

سراحهما مع رجلين آخرين دفع عنهما الرجل العبوس دينهما لما تبينه من حالتها
التي تحمل على الشفاق ، وسار الكاهن والرجل العبوس وقد شبعهما الحاكم إلى
الباب بمظاهر الاحترام والاجلال .

- ٢٢ -

عندما خرج الكاهن والعبوس من السجن كان الظلام قد انسدل وأضاءت
لندرا مصابيحها وهي لا تنقص عن المليون وتنعكس أشعتها على مياه التيمس
وترقصها الرياح وتضطرب فوق الأمواج .
ولما بلغا إلى الشارع سأله الرجل العبوس إلى اين يريد الذهاب .
- إلى كنيسة سانت جيل .

وسارا مسرعين وجعلا يتحادثان على الطريق ما يأتي :
وقال له الرجل العبوس إني عهديت بالارلندية صباح اليوم إلى شوكنج
وواعدته على اللقاء غداً لأنني لم أكن متوقفاً الدخول الى السجن بهذه السهولة
ولذلك فلا نستطيع أن نقف على أخبار الارلندية وابنها قبل غد .

- كيف نقف على أخبار ابنها ؟
- لأنني كلفت رجلاً فقيراً من جميتنا ان يقتفي أثر الرجل النبيل الذي
طرق باب بيت فانوش حين كنت فيه وواعدته على اللقاء غداً أيضاً كما واعدت
شوكنج .

في أي مكان ؟
- في محطة شارتج كروس .
- إذاً لنذهب توالى سانت جيل وقد يكون الأربعة الذين انتظرهم
كتبوا لي شيئاً .

وساروا حتى انتهوا إلى منزل فانوش وهو في طريقهم إلى سانت جيل ،
ورأى العبوس ذلك البيت مظلماً لا أثر للنور فيه ، ثم رأى رجلاً يشي على
الرصيف فارتعش لمرآه ، لأنه كان ذلك الفقير الذي كلفه بمراقبة النبيل .
وناداه وقال له : لماذا أنت هنا ؟

- لأن الشخص لا يزال في البيت .

- أهو فيه منذ الصباح ؟

- كلا ، بل انه خرج صباحاً وسار بمركبته إلى منزله في الشارع
شترستريت .

- ماذا يدعى ؟

- اللورد بالمير .

ودنا الكاهن عندما سمع هذا الاسم ورآه الفقير فتوقف عن الكلام إلى ان
أمره العبوس بالكلام وقال : إنك امرتني أن أعرف اسم هذا الرجل ومنزله
وان أعود بعد ذلك إلى مراقبة البيت ، وعدت ووقفت بجواره مراقباً كل
النهار ولم يحدث شيء وبقيت المعجوز في البيت ، غير ان اللورد عاد إلى البيت
منذ ساعة وهو لا يزال فيه .

والتفت العبوس إلى الكاهن وقال له : اني لا أجد بداً من الدخول إلى
هذا البيت .

- كيف تدخل إليه ؟

- لا أعلم ، ولكنني سأجد طريقة وربما دخلت من باب الحديقة المشرف على
الزقاق غير أنه يجب أن تبقى أنت والفقير في مكانكما .

- حسناً سأقف ، لكن ماذا يجب ان أفعل .

- تتبعان اللورد بالمير إذا خرج من المنزل قبل ان أعود إليك ؟

- سأقف فاذهب أنت في شأنك .

وابتعد الكاهن والفقير ووقفوا في منعطف وجعلوا يراقبان البيت ، وذهب

الرجل المبوس الى الزقاق بغية دخول البيت من باب الحديقة ، فما مشى
خطوتين الى الزقاق حتى احس ان رجلاً يتبعه ووقف فرأى الرجل قد وقف
أيضاً فتنبه له وقال سوف نرى من هذا الشخص .

ثم عاد الى المشي وتبعه الرجل الى أن مر بباب الحديقة ورأى نوراً
ينبعث من نافذة المنزل الى شجرة كبيرة في الحديقة .

وهناك وقف ورأى الشخص أسرع في خطواته واقترب منه وقال في
نفسه : لقد عرفت من انت وماذا تريد وسوف ترى اني اخبرت منك .
ولما كاد يدنو منه مشى المبوس بجنازاً باب الحديقة ، وجعل يمر بأبواب
المنازل فيهرها ويتفقدتها كي يعلم إذا كانت محكمة الاقفال ، ثم عاد بعد ان
تفقد جميع أبواب الزقاق الى الحديقة .

والعادة في انكلترا ان البوليس يتفقد المنازل فإذا رأى باب أحدها مفتوحاً
طرق الباب ونادى اصحاب البيت كي يوقفوه بحيث أيقن الشخص الذي كان
يتبع المبوس انه من رجال البوليس السري .
ولما عاد المبوس بعد تفقد المنازل الى الحديقة التقى بالشخص الذي كان
يتبعه فقال له الرجل : العلك نسيت ايها الزميل انك متكرر فكيف تتفقد
الأبواب ؟

فقال له المبوس اني تعودت هذه العادة بحيث لا أمتنع عنها ولو
كنت متذكراً

فخدع الرجل وكان بوليساً متذكراً بقول المبوس وقال : لقد أصبت
فإنني أنا متمود هذه العادة ايضاً وقد تفقدت هذه الأبواب قبلك ، ولكن
ماذا تعمل هنا ؟

فغمز المبوس بعينه وقال وأنت ماذا تعمل ؟
وضحك البوليس وقال له أرى انك أحد الأربعة الذين طلبهم اللورد
اليوم من إدارة البوليس .

— هو ذاك .

— لا أدري ما يحمل هذا اللورد على مبارحة قصره المنيف والقُدوم في الليل الى أشد الشوارع خطراً ، إذ لا يقيم في هذا الشارع غير الارلنديين ، فلو علموا ان عضواً من البرلمان قد جاء شارعهم ، فماذا يفعلون ؟

— اسكت أيها الرفيق فإن ذلك لا يعنيننا ، لكن هذا اللورد يقيم في المنزل منذ ساعة ؟

وقال البوليس : نعم .

— ولذلك بدأت اخاف عليه ولم يعد بد من الاطمئنان وقد ذكر الرجل العبوس انه حين خرج صباحاً من باب الحديقة أقفل الباب وراءه إقفالاً بسيطاً ، ودنا من ذلك الباب ودفعه ففتح ، ودهش البوليس وقال له : ماذا تفعل ؟

— اريد ان اتفقد اللورد فاني أخشى ان يكون اصيب بمكروه .

ولم يعترضه البوليس لاعتقاده انه زميل له ، ودخل العبوس وأقفل باب الحديقة من الداخل بالمفتاح ، فمشى مشياً خفيفاً الى ناحية المنزل واختبأ وراء الشجرة ، ونظر الى النافذة التي كان ينبعث منها النور في غرفة أرضية فرأى المرأة المعجوز واللورد بالمر جالسين على مقعد وهما يتحدثان ، فنام على الأرض واخذ يزحف زحفاً الى النافذة كي يسمع ما يقولان .

— ٢٣ —

لا بد لنا قبل بيان السبب الذي عاد من اجله اللورد الى منزل فانوش أن نعود الى ما حدث في صباح ذلك اليوم حين اضطر الرجل العبوس ورفاقه الى الهرب من باب الحديقة

فإن اللورد بالمير حين عاد اليه شوكنج واخبره بعنوان المنزل الذي ذهبت اليه الارلندية ، رأى ان يحضر الى منزل فانوش ويقول للارلندية انه كان صديقاً لزوجها ، ويذهب بها وبولدما الى منزله ، وهناك لا يعدم وسيلة لادراك سؤاله من هذا الغلام الذي قد يكون خطراً قوياً على انكلترا يوماً من الأيام .

فذهب الى المنزل وطرق الباب مراراً فلم تفتح له المعجوز إلا بعد ان استفاقت من رعبها وهرب المعبوس ومن كان معه ، فاعتذرت اليه لتأخرها عن فتح الباب بحجة انها كانت في الحديقة .

ثم دخلت به الى قاعة الجلوس ورحبت به ترحيباً عظيماً لما رآته من ظواهر نبيلة فقال لها اللورد : انك مربية أطفال اليس كذلك ؟
- نعم يا سيدي .

- ولك شريكة كما قيل لي ؟

- نعم ، لكنها ليست في لندن الآن فهي في الضواحي

-- لا بأس ، ولكنكم اضعتم امس امرأة وابنها اليس كذلك ؟

فارتعشت المعجوز وحسبت انه زوج مسز اميلي فقالت له . العلك يا سيدي السير واترلي ؟

- كلا ، بل انا اللورد بالمير .

وعضت المعجوز شفتها ووقفت موقف الحذر فقال لها اللورد اني اتيت بطلب المرأة والغلام لأنهما من اهلي .

- ولكنهما سافرا في هذا الصباح يا حضرة المييلورد .

- الى اين !

- لا اعلم ..

فنظر اليها نظر الفاحص وقال : أنت صادقة فيما تقولين ؟

- نعم يا سيدي المييلورد .. ولكن ..

- ولكن ماذا ؟
- ولكن شريكتي قد تقول لك ما اجهله انا .
- واين هي شريكتك الآن ؟
- في منزلها في ضواحي لندرا ، لكنها ستعود في المساء فإذا احببت ان تراها تجدها في انتظارك .
ورأى اللورد من حديثها واضطرابها ان في الأمر سرًا وقال لها : اني امنحك مائة جنيهه إذا كنت تجبريني في مساء اليوم اين اجسد الارلندية وغلامها ولاسيا الغلام .
- إذا انت تبحث يا حضرة الميبلورد عن الغلام بشكل خاص ؟
- نعم .
وكانت المعجوز كثيرة الطمع حاقدة على مولاتها فطمعت بمسال اللورد وقالت له : إذا أعد في المساء ، واني اعدك باخبارك عما تريد فتركها اللورد وذهب .



اما المعجوز فلأنها استرسلت الى التصورات بعد ذهابه وجعلت تقول في نفسها : ان فانوش محتاجة الى الغلام وهؤلاء الثلاثة الذين كادوا يقتلونني محتاجين اليه ، ثم ان هذا اللورد النبيل الذي طسالما قرأت اسمه في جريدة التيمس محتاج اليه فلماذا لا اغتتم هذه الفرصة واستفيد من امواله .
اني إذا كتمت السر ووفيت بعهدي فانوش فلأنها ترضى عني وتكافئني عن وفائي بثوب قديم او حذاء جديد ، وهذا منتهى ما يبلغ اليه كرمها ، لكن كرم هذا اللورد لا يقف عند حد وعده بل اضمن بماله مستقبلي ولا أبوح له بالسر الا بعد ان ينقذني ما اريد ويبعدني عن لندرا ، بحيث اكون امننت انتقام فانوش .

وعلى ذلك فقد عازمت عزمًا أكيداً على خيانة فانوش .
أما اللورد بالمير فإنه عاد في الساعة الثامنة مساءً ، لكنه خشي سوء
العاقة بذهابه منفرداً إلى شارع يقيم فيه الارلنديون وذهب إلى مدير البوليس
وأخبره عن المكان الذاهب اليه وسأله ان يرسل إلى تلك الجهة أربعة من رجال
البوليس السري .

وكانت العجوز قد أتت البنيتين حين قدومه ففتحت له الباب وذهبت به
الى غرفة ارضية معزلة في الحديقة كي لا يسمع حديثها أحد ، ثم أقفلت الباب
وجلست وإياه على مقعد قرب النافذة وقالت له : اني أعلم يا حضرة اللورد
أن هو الغلام ، لكنني لا أخبرك بموضعه إلا بعد شروط اقترحها فإن حياتي
ورزقي معرضان للخطر .

فأجابها ببرود : قولي ما هي شروطك .
- أطلب ما يقيني شر العوز إلى آخر العمر .
- أيكفمك إيراد مائة جنيه في العام ؟
- يكفي ، لكن ليس هذا كل ما اطلبه .
- ماذا تريد غير هذا ؟
- أريد ان أبرح لندرا كي لا يقف الذين أخونهم على أثري .
- أتريدن الذهاب الى اوربا ؟
- كلا فإني أؤثر الإقامة في بريتون ..
- اذهبي الى حيث تشائين .
وفيما كانت العجوز تتكلم سمعت حركة في الحديقة فأسرعت منذرة الى
النافذة كي ترى مصدر هذه الحركة

- ٢٤ -

إن الحركة التي سمعتها المعجوز كانت صادرة من الرجل المبوس كما سترى فلقد تركناه يزحف على بطنه حق وصل إلى تحت النافذة ، لكنه لم يكن يسمع حديث اللورد والمعجوز .

وكانت النافذة عالية نحو مترين ، وفي قريبا شجرة ضخمة التصقت أغصانها بجدار الغرفة ، ورأى الرجل المبوس في ذلك الجدار مروحة يضعها الانكليز في معظم الغرف لتجديد الهواء ، فارتأى ان يتسلق الشجرة ويضع أذنه على مروحة الجدار ، فانكسر الفصن لثقل جسمه ، وخرج لانكساره ذلك الصوت الذي سمعته المعجوز .

ولو جرى مثل هذا الحادث لغير الرجل المبوس ، كان سقط على الأرض وافتضح أمره ، غير انه لما شعر بانكسار الفصن وثب كاهر إلى غصن آخر وتعلق به ، وجعلت المعجوز تحيل نظرها في الحديقة دون أن ترفع رأسها إلى الشجرة ، فاطمأنت وعادت إلى اللورد وقالت : لا شك ان هذا الصوت خرج من الزقاق ، وعند ذلك عاد الرجل المبوس فاختار موقفاً صالحاً للسمع وسمع ما يأتي :

قال اللورد بالمير : ما بالك لا تزالين مضطربة وإذا كنت أتولى حمايتك فما تخافين ؟

قالت : ذلك لا ريب فيه ، غير اني لا أقول شيئاً قبيل أن اصير في طريق بريتون .

... كيف ذاك الا تقولين لي الليلة اين هو الغلام ؟
وأجابته بلهجة كاد يئأس لها اللورد : كلا لا أقول ، ومع ذلك فلا خوف على الغلام ، ولا بأس ان تراه غداً .
- لكنك وعدتيني ان تخبريني بأمره في هذا المساء .

— اصنع يا سيدي لافتراحي فلان خوفي شديد ولا انثني عن عزمي ، أما
افتراحي فهو ان تأتي في الساعة السابعة من صباح غد فتحضر الي المال الذي
وعدتني به واذهب معك في مركبتك إلى حيث يقيم الفلام .

ولما رأى اللورد من لهجتها انه يستحيل إقناعها قال :

— لا بأس .. سأحضر غداً .

ثم وقف يحاول الانصراف ، فنزل الرجل العبوس عن الشجرة وهو يقول
في نفسه : لقد قضي الأمر وليس اللورد بالمير الذي يأخذ الفلام بل نحن

ثم خرج من الحديقة الى الزقاق بينما كانت المعجوز منهمكة بتوديع اللورد
ورأى البوليس لا يزال في مكانه فقال له البوليس : ماذا جرى ؟

— لم يجر شيء فإنه لا يزال في المنزل فابق في مكانك وسأذهب أنا فأراقب
في الشارع

ثم تركه وانصرف الى حيث كان الكاهن والفقير ، فأمرع اليه الكاهن
وقال ماذا رأيت ؟

— لا حاجة لليلة الى اقتفاء أثر اللورد فلننا سنظفر بالولد غداً في مثل
هذه الساعة .

— أنت واثق بما تقول ؟

— إنني سأقص عليك ما علمت واحكم بعد ذلك .

ثم قص عليه جميع ما سمعه من اللورد والمعجوز واطاف الي ذاك قوله :
اني واثق كل الثقة ولو كنت أعلم أين شوكنج الآن لذهبت الي الارلندية
وطمنتها ، لكن لنندرا متسعة ولا بد من الصبر الي الغد .

— لنصبر والآن هلموا بنا الى سانت جيل .

وسار الثلاثة الي تلك الكنيسة ففتح الكاهن بابها بفتاح كان يحببه ودخل
مع رفيقيه .

وكان فيها أمام الهيكل رجلاً عجوزاً راکماً يصلي ، ولما رأى الكاهن

نهض منذعراً وأسرع اليه فقال : العلك نسيت يا سيدي ان اليوم كان يوم ٢٧ اكتوبر فقد كانت الكنيسة في الصباح غاصة بالمصلين ؟

- وأسفاه اني كنت في السجن للدين الذي تعرفه فلا تخف هذين الرجلين فانهما من اخواننا واخبرني بما جرى .

- إن الناس انتظروا حتى سُموا فتفرقوا وكان بينهم الأربعة الذين تنتظروهم فانصرفوا مع الناس إذ لم أجد سبيلاً لمحلهم على الانتظار .

فقال السكان بلهجة اليأس : وأنا لا أجد سبيلاً للاهتمام اليهم فقد مضى الموعد المعين .

فابتسم الرجل العبوس وقال : أما أنا فساأجدم .
- كيف ؟

- بواسطة الجرائد فانه يوجد في لندرا مائتا جريدة يقرأها ملايين الناس فلننشر في جميع هذه الجرائد اعلاناً واحداً مآله أن كاهن سانت جيل يعلن لطائفته ان الاجتماع الديني الذي كان موعد عقده ٢٧ اكتوبر قد تأجل إلى ٣ نوفمبر فاذا نشر هذا الاعلان في مائتي جريدة فلا بد أن يطلع عليه اولئك الأربعة القادمون من ارلندا وأيكوسيا وأميركا وبلاد الغال .

- أن الطريقة مضمونة ولكن أين نجد المال لنشر هذه الاعلانات ؟
- تجده عندي إن لدي كثيراً من الملايين معدة لخدمة ارلندا .

- ٢٥ -

ولنعد الآن إلى الارلندية ، إن هذه المنكودة عندما عاد اليها شوكنج فأخبرها ان ابنها غير موجود في منزل فانوش صارت تبكي بكاء مؤلماً وهي توشك أن تجن من يأسها فأخذ شوكنج يعزها ويعدها الوعود الجميلة وهي لا

تريد إلا بكاء وبأساً فقال لها : كفائك يا سيدتي بكاء ، إن الرجل العبوس لا بد أن يجد ابنك ويأتي به أينما كان أليس لك ثقة بهذا الرجل الكريم ؟ فلم تجبه . فقال : إذا كنت لا تثقين به ألا تثقين بالكاهن صموئيل ؟

— ولكنه في السجن .

— انه سيخرج منه اليوم أو غداً دون شك ، إن الرجل العبوس وعد بانقاذه وهو لا يخلف وعداً .

ولبت شوكنج يعزي هذه المنكودة ويؤاسيها حتى اذعنت له ورضيت بالذهاب معه إلى غرفة يستأجرها لها فذهب الاثنان إلى منزل معد للتأجير فاستأجر غرفة للارلندية وغرفة له وأقام معها طول ذلك النهار .

وكانت قاعدة معه تظهر الجلد ولكنها لم تكتم في خاطرها قصداً عزمت على فعله وهو أن تغافل شوكنج وتعود إلى بيت فانوش معتقدة أنها لا تعود منه إلا بولدها .

فلما أقبل الليل تظاهرت انها في حاجة إلى النوم فودعت شوكنج ودخلت إلى غرفتها

أما شوكنج فانه كان طاهر القلب سليم النية ولكنه على طهارة ضميره لم يكن يخلو من عيوب لطول عهده بعشرة الأشرار فكان أخص ما اقتبسه منهم عادة السكر .

فلما نامت الأارلندية ذكر ما في جيبه من المال وحن إلى الشرب فخرج من المنزل إلى أقرب خمارة منه وجعل يشرب وهو يعتقد أن الأارلندية قد اضمكها التمتع فنامت .

غير انه كان مخطئاً في زعمه ، إن هذه المنكودة سمعت وقع اقدامه على السلم حين خروجه من المنزل فاطلت من النافذة وراقبته حتى رأتها اجتاز الشارع فخرجت من البيت وسارت الى الشارع المقيمة فيه فانوش وهي تقول في نفسها : سأكرهها على ارجاع ولدي أين كان .

بينما كانت تسير بسرعة وهي لا تمي لفرط اضطرابها صدمت رجلاً كان قادمًا من الطريق الزاهية فيها فصاح الرجل صيحة دهش حين رآها ونظرت الأارلندية اليه تذكرت انها رآته أمس في السفينة .
أما الرجل فقد كان اللورد بالمير وكان في ذلك الحين عائداً من بيت فانوش بعد أن أوقف مع المعجوز على ما عرفناه .

وكان شوكنج لم يذكر شيئاً للأارلندية عن اللورد بالمير احتفاظاً بثقتها فيه ولحجده من ارتكاب خيانة التجسس لا سيما بعد أن عنقه الرجل المعبوس على ما فعل ، لم تجد الأارلندية ما يحملها على الخوف من هذا اللورد .

أما اللورد فلم يكذبها يراها حق صاحب صيحة دهشة وعقبها صيحة فرح وقال :
أهذا أنت أيتها العزيزة ؟

وكانت الأارلندية قد رآته في السفينة يمتاز على سائر ركابها بمظاهر نبلة ، ثم رآته الآن وهي في أشد مواقف الضيق ، شعرت بعاطفة سرية تدفعها إلى الثقة به ، سرت لرؤياه وقالت : أحمد الله لالتقائي بك ، إن الله قد أرسلك إلي .
- ولكنني أراك تبكين ؟

قالت بصوت يتهدج : أنهم خطفوا ولدي فردة إلي بالله ، إنك قوي قادر .
وكان اللورد لا يعلم أنهم فرقوا بين الأم والولد .

تأبط ذراعها وقال لها : أصعدي معي إلى هذه المركبة ، إني عضو من أعضاء مجلس اللوردية وسأرد لك ولدك بما لي من النفوذ .
امتثلت المنكودة وصعدت إلى المركبة وقد أشرق في قلبها نور الرجاء ، وسارت المركبة إلى منزل اللورد .

أما شوكنج ، كان في ذلك الحين آمناً مطمئناً يشرب القدرح تلو القدرح .
وكانت هذه المنكودة لم تر منذ وصولها إلى لندرا غير الأشقياء والبؤساء ورجال الشر ، سرها ان أرسلت لها الأقدار معيناً قوياً من أعظم رجال المملكة سلطة ونفوذاً وثقة به ، ان جميع الذين عرفتهم وعدوها بارجاع ولدها

فما وجدت بينهم من صدق في وعده ، وقد وعدا هذا اللورد النبيل مثل وعدم فكان أولى منهم بثقتها وادعى إلى رجاها وفوق ذلك ان اللورد كان يكلمها بأرق الألفاظ .

ولما عرفها بنفسه وملاً قلبها رجاء قال لها بقي أن تعلمي أيتها العزيزة اني لم ألتق بك اتفاقاً، اني أبحث عنك منذ أمس في هذه العاصمة المتسعة الأرجاء.

فدهشت وقالت : أنت تبحث عني ولماذا ؟

- لأن هذا الولد العزيز الذي تبكين لفراقه اذكرني رجلاً عرفته في عهد شبابي وهو من خير الأصدقاء .

ثم تنهد وقال بلهجة بدا فيها التأثر : وان هذا الصديق قد مات وأأسفاه لأشرف الغايات .

فارتعشت الارلندية وذكرت زوجها اللورد .

أما اللورد فانه مضى في حديثه وقال : إن هذا الحبيب ادمون قد مات في سبيل ارلندا العزيزة ، ألا يمكن أن يكون هذا الرجل والد ابنك ؟

واضطربت تلك الأم اضطراباً عظيماً وقالت : اتدعو هذا الرجل الذي مات مجاهداً عن ارلندا ادمون وتقول انك تحبه ؟

فتظاهر اللورد بالبكاء وقال : كيف لا أحبه وهو أخي ؟

وقالت الارلندية وانا كيف لا أبكيه وهو زوجي ، وكيف لا اتق بعد الآن بارجاع ولدي وهو ابن اخيك ؟

فعانقها اللورد عناقاً طويلاً وقال لقد عرفت ذلك من عيني الغلام فلا تبكي بعد الآن ايتها الحبيبة فإن ولدك ولدي ودمه دمي وهو عندي .

وأوشكت المسكينة أن تجن من فرحها وقالت كيف ذلك العلك وجدتته وكيف تقول انه عندك ؟

- نعم انه مقيم في قصر من قصوري يبعد ثلاثين مرحلة عن ارلندا وأنا أخبرك بكل أمر فإن امرأة مهنتها سرقة الأطفال خدعتك ودعتك الى منزلها

ففرقت بينك وبين ولدك اليس كذلك ؟

— نعم فقد سقتني شراباً مخدراً فضاع رشادي .

— ثم القوك في الطريق .

— نعم ولما استفتقت وجدت نفسي في مكان مجهول .

— أتمني حديثك يا ابنتي ..

وقد دفعها الى الكلام كي يقف على حقيقة امرها ويؤلف حيلة لخديعتها .

وحكت له كل ما جرى لها بالتفصيل ، وكيف اهتم الكاهن والرجل
المعبوس بأمرها .

وعلم اللورد ان الذين اختطفوا ولدها لا يريدون به غير المتاجرة وندم على
ما وعد به العجوز إذ كان يعتقد انها تخون ايرلندا بارشاده الى الغلام .

وعند ذاك وقفت المركبة أمام باب قصره فنزل وأنزل الارلندية فبهتت لما
رأته من ظواهر العظمة والجلال ، ودخل بها اللورد الى ذاك القصر المنيف وقال
لها . هنا ولد زوجك أخي .

ثم مشى بها من قاعة الى أخرى حتى ادخلها الى قاعة الاجتماع الكبرى
فجلس وجلس بجانبه وهي مندهلة لما تراء من البذخ والثروة .

ثم قرع الجرس فأسرع الخادم الى إجابته .

فقال : اصعد الى غرفة مسز الن وقل لها ان أباك ينتظرك في القاعة
الكبرى وانه وجد الذي كان يبحث عنه .

فانحنى الخادم وانصرف .

وبعد هنيهة ، فتح الباب ودخلت منه صبية تدهش الأبصار بحملها
وفخامة ملابسها ، فخجلت الارلندية من نفسها لفقر ملابسها ودنت منها
الصبية وحيتها .

وقال لها أبوها عانقها يا ابنتي فانها ارملة الحبيب ادمون .

أما شوكنج فإنه أقام في الخمارة إلى منتصف الليل فتمشى وعاد إلى غرفته فنام إلى الصباح وانتظر الارلندية مدة طويلة فلم تخرج من غرفتها ، وقام إلى تلك الغرفة وطرق بابها فلم تجب ، فقلق ونظر إلى الباب ورأى المفتاح فيه فأداره وفتح الباب ووجد الغرفة خالية والنافذة مفتوحة والفرش على ما كان عليه من انتظام أول الليل ..

وتأدى عند ذاك صاحبة المنزل وسألها عن الارلندية فقالت انها لم ترها . وكان في ذلك البيت امرأة من ساكنيه فقالت انها رأت الارلندية خارجة من البيت في اول الليل .

فأظلم النور في عيني شوكنج وأشرف على اليأس وخرج من البيت لا يمي وأخذ يطوف في الشوارع والأرقة المجاورة سائلا عن الارلندية ذاكرا أوصافها فلم يرشده أحد اليها .

وقال في نفسه : لقد فقدت كما فقد الغلام ، ولولا إدماني الشراب لما أصبت بهذه النكبة ، فويح لنفسي ماذا أقول للكاهن صموئيل ، وماذا أقول للرجل المبوس ؟

وقد ذكر عند ذاك مواعده مع المبوس في محطة كروس فقال . لاذهب اليه فإن هذا الرجل قادر على كل شيء فهو يجد الغلام وأمه وقد أخطأت ولا بد لي من إخباره بما حدث .

وذهب إلى المحطة فوجد الرجل المبوس بانتظاره ، ورأى معه الكاهن صموئيل ، فعمم المبوس في عينيه إذ وفي بما وعد به من انقاذ الكاهن ، لكنه كان مضطرب الوجه متلعثم اللسان ، ولم يعلم منه المبوس خبر اختفاء الارلندية إلا بعد الجهد ، ولما أتم حكايته قال له : ألم تهتد إلى المكان الذي يمكن أن تكون فيه .

فقال شوكنج : لو كنت أعلم ذاك المكان لكنت ذهبت اليه .

فهز الرجل المبوس رأسه وقال ألا تذكر انك اوقفت اللورد بالمسير على

- أفراها فمن من الناس غيره يهتم بشأنها؟
فقال الكاهن : أتظن أن اللورد اختطفها ؟
- لا أقول ذلك على سبيل الظن بل أن لي ملء الثقة وإذا كانت الارلندية قد اختطففت فهي دون شك عند اللورد بالمير .
ولما سمع شوكننج كلامه هم بالذهاب .
فقال له المبوس : إلى أين ؟
- إلى بيت اللورد ..
- كلام يحن الوقت إذ يجب أن نجد الابن قبل الأم .
- متى نجده ؟
- في هذا المساء ونحن في حاجة اليك فلهوا بنا لأن الوقت فسيح لدينا .

- ٢٦ -

كان اللورد بالمير يتحدث مع ابنته في الساعة السابعة من المساء .
وكانت ابنته مسرلة من الفتيات اللواتي إذا شبهت بالشجرة فقد يقال فيها
انها نضجت قبل اوان النضج ، فإنها على غضاضة شبابها ، وما يدعو اليه سننها
من الاندفاع في تيار الصبي

كانت تتشغل عن ملاهي النساء على فرط جمالها باحاديث السياسة وأراء
المعلماء . ولم يفتها شيء من دقائق تاريخ بلادها وأسرار الثورة الارلندية ،
وكانت تشبه أباها بكروه أرلندا ، وهي مهد أسرتها وأم أباها ، وتكبره كل
مالية لها على الانكليز بحيث كانت أعظم نصير لأبيها في تلك الأغراض
وكان أبوها في تلك الساعة يتحدثها عن الارلندية وابنها ، فبدأت بمعارضته
قائلة : إني لم أدرك قصدك إلى الآن .

- لكنه بسيط فاني أريد الاستيلاء على الغلام وحرمان الارلنديين منه إذ
قد يتولى زعامتهم متى ترعرع وبلغ رشده .
- إن القصد حسن . لكن .

... لقد فهمت ما تريدن فإنك تنكرين علي تربية الغلام الذي لطخ أبوه
اسم عائلتنا بموته شنعاً .
- هو ذاك

فايتسم وقال : اصغ الي يا ابنتي فإني بت واثقاً الآن ان الغلام لم يسرقه
الارلنديون ليجعلوه رئيساً لهم ، بل اختطفته امرأة لتبيعه من عائلة تنبناه ،
وهنا لا بد لك ان تمجي كيف اني أسمى إلى انقاذه وحقي أن أدعه وشأنه
بين أولئك السارقين ، لكن اصغي إلي إصغاء تاماً تعلمي قصدي .

اني أريد الاستيلاء على الأم وابنتها وارسالهما إلى قصرنا ، في ضواحي
فلاسك ، فأملق الولد كل تملق ، وأوهم الأم اني ارلندي المشرب واني عامل
على استقلال ارلندا بالسر ، ثم أعين للغلام كثيراً من الخدم والمرشدين يرونه
على ما أريد .

- ولكن أمه تربيته على ما تريد وتدربه على حب ارلندا ؟

فايتسم اللورد ابتسام الأبالسة وقال : ان الأم قد تموت فإن المرء معرض
لموت كل حين .

فقد تسقط من شاحق فتقتل ، أو تشرب ماء بارداً إثر تعب فتموت ، أو
تأكل أكلة تمنعها ، وأكثر موت الناس بالتخم ، فلنفرض ان الأم ماتت عن
ولدها وهو في الثانية عشرة من عمره ، فإذا ربيناه على حب الانكليز ، لا يبلغ
سن الشباب حتى ينسى ارلندا والارلنديين ، وإذا كان انكليزياً صادقاً فإنه
يخلفني في مجلس اللوردية بعد موتي

واندهشت الصبية وقالت ماذا أسمع يا أبي اني لا أفهم ما تقول .

- اني أريد أن أجعل هذا الغلام زوجاً لك يا الن

فامتعض وجه الفتاة وظهر النفور والكبرياء بين عينيها قائلة . انا أتزوج هذا الشريد الطريد المتسول ؟
 - لا تنسي يا ابنتي ان أباه أخي وفوق ذاك فاني لم أقل لك كل ما في نفسي بعد ومتى علمت كل قصدي هان الأمر عليك .

- اني مصغية اليك .
 - أول ما أبدأ به اني في عرف الناس من أغنى الأغنياء ، لكنني في الحقيقة أو شك أن أكون فقيراً فقد خسرت ثلاثة أرباع ثروتي في تلك الهوة التي يدعونها البورصة ، وأصل ثروتنا أن أبي حين تحلى عن ايرلندا ، وهو يومئذ رئيسها وحالف الانكليز كافأته الحكومة اعظم مكافأة فمنحته معظم أراضي العصاة التي ضببتها بحيث بات جدك أعظم غني في بلاد الانكليز .

ولم يكن يخطر له في بال ان أخي ادموند سيخون الانكليز ويعود إلى ايرلندا ، فقسم تلك الثروة العظيمة بيني وبينه قبيل وفاته باذن خاص من البرلمان ، فان حق الارث في الأمرات النبيلة للبكر كما تعلمين فبت كثير الغنى ولكنني لم أنل غير نصف ثروة أبي .

- وماذا جرى للنصف الاخر ؟
 - ضببته الحكومة حين شذ أخي عن طاعتها وذهب إلى ايرلندا وتولى زعامة الثائرين ، لهذا أردت أن أربيه على حب الانكليز ، فاذا اشتهر أمره تمكنت من حمل الحكومة على إرجاع مال أبيه اليه ، وإذا تزوجت به تزوجت رجلاً غنياً تحفظين به مقام أسرتك ونفوذها فهل تجددين نفوراً منه بعد الآن ؟

- كلا يا أبي ، ولكن كم عمر هذا الغلام ؟
 - عشرة أعوام .
 - وأنا لي من العمر ستة عشر عاماً .
 - وماذا عليك إذا كان أحدث منك فان الزواج أصبح في هذه الأيام

زواج غايات فإذا تزوجته تزوجت ثروته وهذا كل ما يطلب منك فعله .
- لقد رضيت والان أتعلم أين هو الغلام ؟
- كلا فان المرأة العجوز سترشدني اليه ، وقد حان الموعد ولا بد من
الذهاب الان .

- أذهب وحدك ، ألا تخاف مكيدة في شارع لا يسكنه غير
الارلنديين ؟

- لقد حذرت قبل ان تحذريني فطلبت إلى رئيس البوليس أن يرسل
إلى ذاك الشارع أربعة متتكرين من رجاله يعرفونني فلا خوف علي وهم
يخفرونني ، والان إني ذاهب في مركبة للأجرة فاعتني بالارلندية وابذلي الجهد
في حملها على الثقة بنا .
- لم يبق لنا حاجة بذلك فقد باتت ثقتها بنا لا حد لها بعد أن أريتها
صورة زوجها إدمون .

وقبل اللورد جيبين ابنته وانصرف .
وبعد خمس دقائق كانت اللورد في الشارع فرأى مركبة واقفة معدة
للأجرة فصعد اليها وأمر السائق أن يسير إلى ديسلي ستريت ، وانطلقت
المركبة ودفعها السائق فجعلت تنهب الأرض نهبا ، لا جرم فان شوكنج كان
فيما مضى من عهده من سائقي المركبات الماهرين .

وذهبت المركبة فمرت بشارع دبر وستمنستر فشارع البرلمان إلى أن مرت
بشارع الأميرالية فأوقف اللورد المركبة وأطل من نافذتها فرأى رجلين واقفين
فأسرعا إلى المركبة .

فقال له أحدهما : نحن الذين تلتظروننا يا حضرة المي lord .
وفتح لهما باب المركبة قائلا : إذا إصعدا .
فصعد الرجلان وجلسا أمامه ودفع السائق المركبة إلى حيث أمره اللورد
أي إلى بيت فانوش

ولما وقفت عند بابه خرج اللورد وطرق الباب فأسرعت اليه المعجوز إذ كانت في انتظاره .

وقالت : لقد خفت في البدء أن لا تعود ، ثم تعلمت حيناً بهذا الرجاء وتمنيت ان لا تعود لشدة خوفي .

— بما تخافين ؟

— من أولئك الذين سأخونهم فإنهم إذا عثروا بي قتلوني لا محالة ..
فأخرج اللورد محفظته من جيبه وقال لها ببرود : لقد أحضرت لك المال الذي طلبتيه ، وتذكرك السفر في القطار الذي يبرح لنندرا إلى بريتون عند منتصف الليل .

فمدت المعجوز يدها بلهف لتقبض المال ، غير ان اللورد أرجع المحفظة الى جيبه وقال لها : لا أعطيك شيئاً إلا بعد ان ارى الغلام فأوصلك بنفسي إلى المحطة .

فظهرت علائم الريب على المعجوز وقالت من يضمن لي انك لا تخدعني ؟

— يضمنه اسمي فاني أدعى اللورد بالمير

— لقد وثقت بك ، لكن ماذا عزمتم ان تصنع بالغلام ؟

— اريد ان ارده إلى أمه .

فاضطربت المعجوز اضطراباً شديداً لاعتقادها ان الارلندية في قعر التمس ، وقالت اين هي امه ؟

— إنها عندي وقد وصلت إلي بعد أن نجت من الموت بشكل عجيب
أرأيت كيف اني عالم بكثير من الأسرار فلا قضيعي الوقت عبثاً واعلمي اني أحضرت معي بوليسين سيذهبان معنا فاما ان تهديني إلى الغلام فادفع لك المال وأوصلك الى المحطة واما تمنعني فأسلمك الى البوليسين .

فلمع قلب المعجوز وقالت : ابي اقسم لك يا سيدي اني ارشدك إلى

موضع الغلام .

- إذا هلمي بنا .

فخرجت من المنزل ودخلت مع اللورد الى المركبة ورأت فيها رجلين كما قال ، غير انها لم تتبينهما ، لأن مركبات لندرا لا مصابيح فيها فسالها اللورد : الى اين ترغب الذهاب .

- الى مهبستاد في شارع ماتمونت نمرة ١٨ .

- أنجد الغلام هناك ؟

- دون شك .

فأمر اللورد السائق أن يسير الى الجهة التي عينتها المعجوز فامتثل السائق وهو شوكنج كما عرف القراء .

وبعد ساعة وصلوا الى المكان المعين فرأوا منزلاً صغيراً تحيط به حديقة متسعة ، فأمر اللورد المعجوز ان تخرج من المركبة كي ترشدهم فذعرت وقالت : اسألك بالله ان تبقيني في المركبة فانهم يقتلونني دون شك إذا رأوني .
- إذا ابقي فيها فان المال معي ولا اخالك تهربين دونه .

ثم خرج من المركبة وخرج في أثره الشخصان المتشكران فدفعا من الباب وحاول ان يقرعه .

غير ان احد الشخصين حال دونه وقال له : لا يجب ان ننبه اهل البيت بطرق الباب .

- ولكن كيف ندخل اليه ؟

- لقد تحسبت لكل شيء .

ثم اخرج من جيبه حلقة ضخمة فيها كثير من المفاتيح المختلفة الأشكال ، واخذ يعالج الباب بتلك المفاتيح ، حتى فتحه وقال للورد : تفضل يا سيدي بالدخول .

فدخل اللورد آمناً مطمئناً ودخلا في اثره واقتلا الباب ثم انقضا عليه

فجأة والقياء الى الأرض وقيداه ووضعاه في فمه كامة ، وعلى عينيه عصابة والقياء عند جذع الشجرة

وعند ذلك قال احدهما لرفيقه : هلم بنا الان لنبحث عن الغلام .
وكان هذا الرجل المتنكر العبوس كما كان سائق المركبة شوكنج .

٢٧ -

ولنعد الان الى حيث تركنا الغلام مع خادمة فانوش ، فان تلك الخادمة انهارت عليه بالسوط وضربته ضرباً مؤلماً فجعل يصيح وهو كلما صاح زادته ضرباً .

وعند ذلك فتح الباب فجأة ودخلت منه فانوش وكانت الخادمة لا تزال تضربه فصاحت بها فانوش صيحة قوية وهجمت عليها وانتزعت السوط من يدها وطردتها من الغرفة فخرجت الخادمة دون ان تفوه بكلمة .

وعادت فانوش الى الغلام وضمته الى صدرها وجعلت تقبله وتسترضيه فنفر منها وقال لها : أين امي ؟

فقالت له بلطف : ان امك يا بني قد سافرت الى حين وعهدت الي بالاعتناء بك .

فنظر اليها نظرة رجل فاحص كأنه يريد ان يخترق خفايا قلبها وقال :
انك تخدعيني .

- وأي غرض لي بخداعك يا بني وأنت ترى عطفى عليك أما أمك فقد سافرت حقيقة لكنها ستعود ؟

- متى تعود ؟

- غداً .

- إنك تخدعيني أيضاً وأنا أريد الذهاب من هذا المنزل .
- إلى أين تذهب يا بني ؟
- إلى اللحاق بأمي ..
- وليكن هذا مستحيل فإن أمك سافرت .

وضرب الأرض بقدمه وقال : اني أريد أن أخرج من هذا البيت . ثم مشى إلى الباب

واعترضته فانوش وقالت له بلطف . قلت لك يا بني ان أمك مسافرة فاذا أردت أن نعاملك معاملة اللين واللطف ، وجب عليك أن تكون هادئاً مطواعاً لنا وإلا ..

- اضربيني كما تشائين ، لكن دعيني أخرج من هنا ..
- فأجفلت فانوش لما رآته من عناد الغلام ونادت الخادمة فأقبلت ويدها السوط ، فقالت لها : أدخلي هذا المتمرد إلى مضجعه .

ثم خرجت وتركته مع الخادمة ، فأخذت الخادمة يده وجرفته بعنف ، فكان يصيح وهي تضربه ويستغيث بأمه باكياً ، حتى لم يعد يستطيع صبراً على الضرب ، فكف عن المقاومة والاستغاثة ودخل إلى مضجعه ، فجلست الخادمة بقربه تهدهده بالسوط إلى أن دب النعاس إلى جفنيه فنام .

ولما صبحا رأى أشعة الشمس قد ملأت غرفته ، وأجال في تلك الغرفة نظراً حائراً ، ورأى انه وحيد فيها وعاد إلى مناداة أمه .
ففتح الباب ودخلت فانوش وهي تبتمس وحاولت ان تقبله فدفعها عنه وقال : أريد أن أرى أمي .
- إنها ستعود غداً .

وتظاهر الغلام بتعديدها وكف عن البكاء والسؤال .
فجعلت فانوش تملقه وتلاطفه وتعمده بقرب عودة أمه ، ثم أذنت له أن يلعب في الحديقة .

ونزل اليها وأقام فيها نحو ساعتين يتسلق من شجرة إلى أخرى حتى مل اللعب ، وعاد إلى البيت وقد علم انه غير البيت الذي كان فيه مع أمه وقال في نفسه : لا بد لي من الهرب منه والذهاب الى البيت الذي تقيم فيه أمي إذ أجدها دون شك .

وقد تجسم هذا الخاطر في فكره فلم يعد يفتكر إلا بالفرار ، لكن فانوش كانت كل النهار معه ، قصير صبر الرجال بعد ان قرر خطة الفرار وتظاهرا أمامها بملء الطاعة والانقياد ، فباتت واثقة من إدراك قصدها منه وبعد العشاء قالت له : لقد حان وقت الرقاد فہلم إلى غرفتك .

ولم يعترضها ودخل معها طائعا ساكتا فخلعت عنه ملابسه وارقدته في مضجعه ، ثم أقفلت الباب وخرجت إلى غرفة أخرى وأقامت مع خادماتها تتحدثان .

أما رالف فانه صبر ساعة ، ثم قام فلبس ملابسه جميعها دون الحذاء وعول على الفرار واثقا من إدراك أمه إذ لم يكن يعلم شيئا من إتساع لندرا وهو يحسبها لحداثته كالقرية التي ولد فيها .

ولما أتم لبس ملابسه فتح النافذة المطلة على الحديقة وهناك شجرة كبيرة تتصل أغصانها بالنافذة تتدلى منها إلى الحديقة دون ان يسمع له حس .

وبينما كان الغلام قد وثب إلى الحديقة ، كانت المرأتان تتحدثان ، وكانت الخادمة تلوم فانوش لاجبارها المعجوز بأنها اتت بالغلام إلى هذا المنزل ، وكانت فانوش تخطئها لعدم الثقة بالمعجوز ، إذ لا يوجد ما يحملها على الخيانة .

وفيا هما تتحدثان سممتا حركة فقالت فانوش : ما هذه الحركة التي اسمعها العلهما صادرة من غرفة الغلام ؟

- كلا ، بل يخال لي انها من الحديقة واني اسمع وقع خطوات .
- وكيف يكون ذلك وباب الحديقة محكم الاقفال ؟

- لا أعلم .

ثم أصغت قليلاً وثابتت : اني أسمع وقع خطوات ، وانت الخطوات تقترب .

واصفر وجه فانوش لأنها سمعت ايضاً صرير مفتاح في قفل باب المنزل ، ثم وقفت موقف الحذر وقالت : الويل لهم إذا كانوا لصوصاً فاني لا أخافهم .

لكنها لم تكذب كلامها حتى فتحت باب الغرفة ودخل منه رجلان وهما الرجل العبوس والفقير .

وكان بيد العبوس مسدس فصوله على فانوش وقال لها ببرود : لا حاجة إلى الصباح يا سيدتي فما نحن من اللصوص ، لكنني أريد ان احادثك ويجب ان تصغي الي .

فدعرت فانوش وراعتها نظرات هذا الرجل الساحرة فلم تقو على النظر اليه وطأطأت رأسها ثم قالت : من أنت وماذا تريد ؟

- أتعرفين اللورد بالمير يا سيدتي ؟

فاطمأنت فانوش لسماعها إسم رجل من أعضاء البرلمان وقالت : كلا .

- ان هذا اللورد يبيعك الآن عن ابن أخيه .

- اني لا افهم ما تقول .

- لكهك ستفهمين ، فانك تقيمين في الشارع الارلندي ومهنتك تربية الأطفال ولك شريكة عجوز وهي التي أرشدت اللورد إلى منزلك هذا وباعته أسرارك بمبلغ جزيل .

فقالت لها الخادمة : ارأيت كيف صدق ظني لحذري من هذه الحائثة ؟

وعاد الرجل العبوس إلى محادثتها فقال لها : لكن هذه العجوز لم تقبض المال بعد لحسن الحظ فاعطنا الغلام وخذي انت المال .

وظهرت على فانوش علائم الفرج ونظرت إلى غرفة الغلام كأنها تستوثق من إقفال بابها .

وباغت الرجل العبوس هذه النظرة وقال : لقد عثرنا به هذه المرة .
ثم وثب إلى باب الغرفة وفتحته ولكنه ما لبث ان دخل حتى وقف على
عتبة الباب حائراً مبهوئاً ، لأنه لم ير الغلام ولكنه رأى سريراً صغيراً عليه اثر
الغلام ، فدنا منه ووضع يده عليه فوجده لا يزال حاراً .

ونظر إلى النوافذ فرأى إحداها مفتوحة وهي التي تطل على الحديقة
فأطل منها ، فلم ير أحداً .

وعند ذلك دخلت المرافقة وصاحت بصيحة دهش صادقة لم يشكك الرجل
العبوس بعدها ان الغلام قد هرب من النافذة دون ان تعلم ، فتسلق الشجرة
ونزل إلى الحديقة كما نزل الغلام وبحث في جميع ضواحيها وأطرافها فلم يجد
له أثر إلى ان وصل إلى شجرة تصل اغصانها إلى اعلى الجدار ، ورأى غصناً
منكسراً ساقطاً منها .

وعلم من الكسر انه حديث فأيقن ان الغلام قد تسلق هذه الشجرة إلى
سور الحديقة ووثب منه إلى الشارع .

وكان الفقير قد أدركه إلى الحديقة وكذلك شوكنج فقال لهما الرجل
العبوس : ان الغلام لم يهرب إلا من زمن قريب ولا بد ان نجده في هبستاد
فهلما نبحث عنه .

ثم خرج الثلاثة باحثين عن الغلام وقد ترك العجوز في المركبة وهي توشك ان
تجن من الخوف واللورد بالمير مقيداً مكوماً مبرقماً ملقى في الحديقة على الأرض .

ولنعد الآن إلى مس الن ابنة هذا اللورد فانها كانت تلتظر عودة ابيها وقد
جلست مع الارلندية تلاطفها وتمدها اجمل الوعود وتمنيها بمستقبل ابنها التماساً

لثقتها بها وبأبيها .

غير ان الارلندية كانت في غنى عن هذه الوعود فان ثقتها باتت قوية باللورد حين رأت في قصره صورة زوجها وهو في العشرين من عمره ولم يخطر لها ان اللورد يحقد عليه ، لأنه لم يخبرها بشيء من ماضيه .

وبقيت مس الن معها الى منتصف الليل ومما في غرفتين متجاورتين ، ثم استأذنت منها وسألته ان تستريح بالنوم قائلة ان اللورد لا يعود بابنها قبل الصباح ، لأن القصر الذي وضعه فيه بعيد . فاطمأنت الارلندية وذهبت مس الن الى غرفتها

وقد استبطأت اباها وباتت عرضة للهواجس والأفكار ففتحت نافذة غرفتها واشرفت منها على حديقة القصر الغناء تستنشق النسيم العليل وتفرج كربة السأم بمنظر الأشجار .

ثم ملت هذه المناظر فجلست قرب مكتبتها واخذت كتاباً فجعلت تقرأ فيه وهي مولية ظهرها للنافذة المفتوحة .

وفيا هي تقرأ وتشاغل نفسها بالمطالعة ، عن غياب ابيها سمعت صوت حركة في الغرفة ، فالتفتت ورأت رجلاً واقفاً ورائها مشهراً بيده خنجراً وهو ينظر اليها بعينين براقمتين فعلتا في نفسها فعمل الكهرباء بالجسم ، وعقد لسانها عن الصباح .

اما الرجل العبوس فانه دنا منها وقال : احذري ان تستغيشي إذا كنت تؤثرين السلامة .

وتراجعت منذرة وعيناها شاخصتان الى هذا الرجل الذي تجسّس على انذارها بالقتل وهي لم تره مرة من قبل .

على ان هذا الرجل كان جميل الملابس تدل هيئته على انه من الاشراف وكان اعجب ما فيه عينيّه ، فقد كان لها سلطة غريبة على القلوب تغض لها الأبصار

وكأنما مس الن قد اطمأنت قليلاً لهيئته فحلت عقدة لسانها وقالت له : من أنت وماذا تريد وكيف دخلت الى هنا ؟
— إني أسألك العفو مراراً يا مس الن فقد أكرهت على الدخول الى غرفتك من النافذة إذ لا يجب ان يراني أحد .

وكان يقول لها هذا الاعتذار بلمهجة لطيفة أثرت في فؤادها أكثر من تأثير عينييه وخافت تلك النظرات أكثر مما خافت من الخنجر .
فعمدت إلى سؤاله عما يريد وقد استندت الى الجدار حذراً من السقوط لفرط اضطرابها .
فقال لها : إني آت يا سيدتي لأكلمك باسم أبيك .

فدهشت الفتاة وقالت : باسم أبي ؟
ثم جعلت تنظر اليه نظرات الدهش فأخرج خاتماً من إصبعه وأعطاه إياه وقال لها : أتعرفين هذا الخاتم ؟
فنظرت الفتاة الى الخاتم وقالت : نعم ، إنه خاتم أبي فهل هو أعطاك إياه ؟

فابتسم الرجل وقال : نعم ولا يا سيدتي أي ان الخاتم برهان على ان أباك في قبضة يدي وان حياته متملقة بحياتي .

فدعرت الفتاة وقالت : ولكن من أنت أيها الرجل ؟
— إن اسمي لا يفيدك شيئاً ، يا سيدتي ، فإنهم يدعونني « الرجل العبوس » .

ثم دنا منها أيضاً وقال : يوجد عندهم يا سيدتي ، امرأة تدعى حنة الارلندية

فعمد إلى الفتاة بعض ثباتها وعنفوانها فقالت له : ماذا يهمك شأنها ؟
فقال لها العبوس بلء السكينة . إنك تسأليني يا سيدتي سؤالاً يحق لك سؤاله ولذلك أجيبك عنه فأقول ان اللورد بالمير أباك كان منذ يومين في سفينة

يحتاز النهر فلقي هذه المرأة مع غلامها وعلم من ملامح الغلام انه ابن أخيه السير ادمون بالمير .

وحاولت الفتاة ان تصيح صيحة دهمش ، غير ان نظرات هذا الشخص ضغطت عليها فسكتت .

وعاد الى الحديث فقال : إن اللورد بالمير قد اختطف هذه المرأة ، وجاء بها الى منزله وعول على اختطاف الغلام أيضاً لفرط اهتمامه بها ولما كنت أنا أيضاً أهتم بهذه المرأة وغلامها فقد خاطرت بالدخول الى غرفتك وتسلفت سور الحديقة ثم تسلفت الأشجار الى النافذة بحيث لو رأي البوليس او خدم القصر لقضيت بقية أيامي في أعماق السجون .

فزادت دهمشة مس الن وجملت تنظر إلى هذا الرجل نظرة الفاحص فتراه على أحسن حال ثم تراه يكلمها بلء السكينة كأنما قد جاءها بعد موعد ولكنها كانت مصغية اليه فلم تجبه .

ومضى العبوس في حديثه فقال : إني فعلت أعظم مما رأيت مني إني قبضت على نبيل من مجلس اللوردية ، فقيدته ووضعت في فمه كلمة . فأحذري من أن تفوهي بحرف ، فلإني إذا لم أخرج من هنا حراً سالماً ، فإنك لا ترين هذا اللورد المقيد الى الأبد ، وهو أبوك لأن حياته موقوفة على حياتي .

ثم قال وهي تنظر اليه نظرات ممزوجة بين الرعب والاعجاب: إن الارلندية في هذا المنزل وأنا أريد ان أراها .

وقد قال هذا القول بلهجة سيادة هاجت كبرياء الفتاة فقالت : لم يقل أحد لي كلمة أريد قبل الآن

— وأنا أعتذر إذا كنت أول من قالها لك وقد ألجأتني الضرورة فلا تضيعي الوقت لأن حياة أبيك في خطر وقد يحدث عن امتناعك .

فقاطعت الفتاة وقالت : ما يضمن لي صحة ما تقول ؟

- يضمه خاتم أببك الذي أربته إياه
فعضت شفتها ولم تجب . فقال لها : إذا ، أرجوك أن تذهبي بي إلى
غرفة الارلندية .

وكانت نظراته لا تزال ضاغطة عليها ، تفعل فيها فعل السحر .
وفوق ذلك فقد أيقنت ان أباها معرض للخطر . ففتحت باب غرفتها ودلته
على غرفة الارلندية المجاورة لغرفتها ، فقال لها قبل ان يخرج : لي كلمة
أيضاً يا سيدتي .
- قل !

- لقد قلت لك ان أباك في خطر ، إلا إذا خرجت من منزلك حراً سالماً .
واحذري ان تنادي خدملك لأنني إذا لم أعد إلى عصابتي عند الفجر يصبح اللورد
بالمير جثة لا حراك فيها .

ونظرت اليه نظرة هائلة دلت على ما في فؤادها من الحقد وقالت : سأعمل
ما تريد لكنك إذا سلمت اليوم لا تسلم غداً .
- قد تدركون ما تريدون مني في الغد . أما اليوم إن السيادة لي .

ثم فتح باب غرفة الارلندية ودخل . فسقطت تلك الفتاة المتكبرة على
كرسي وقد همت قواها . ثم غطت عينيها بيديها كأنها تخاف أن تصيبها نظرات
ذلك الشخص

وكانت الارلندية لا تزال ساهرة قصلي ، وهي تنتظر عودة اللورد بابنها .
وقد كان الحديث بين الرجل العبوس والفتاة بصوت منخفض ، فلم تسمع شيئاً
منه . ثم أنها لم تشعر بدخول الرجل اليها لانصرافها إلى الصلاة حتى دنا منها
 ووضع يده على كتفها فالتفتت اليه منذهلة . فأسرع الى إسكاتها بإشارة وقال
لها : أستعطفك باسم ولدك ان تصغي إلي ، وان لا تصيحي أدنى صيحة تنبهه
اليها الخدم .

وعرفته الارلندية بالرغم عن تغيير زيهِ وذكرت انه أنقذها من يد البحار

فقللت له باطمئنان : ماذا تريد مني ؟

- إني آت لأكلك باسم زوجك الميت وابنتك الحي .

فارتعشت تلك الأم لاسم ولدها وقالت : إنهم سيردونه إلي .

- وأنا آت يا سيدتي لأأكلك أيضاً باسم أرنلدا التي تحاولين خيانتها دون
تعلمي ما تفعلين بل أنا آت باسم هذا الكاهن الذي جئت بولده من أرنلدا
لتقدميه إليه .

ونظرت إليه منذهلة وهي لا تعلم ما يريد فقال : أنت يا امرأة السير ادمون
أتعلمين أين أنت الآن ؟

- إني في منزل أخو زوجي وحامي ولدي .

- بل أنت في قبضة قاتل زوجك ومضطهد ولدك بل أنت في منزل ذلك
الحائن الذي دمر أرنلدا وقتل منقذها .
- إنك كاذب دون شك .

فوضع يده فوق صدره وقال : إني أقسم لك باسم ولدك الذي لا يردك إليك
سواي إني لا أقول غير الحق .

- ماذا تقول عن ولدي ؟ إن اللورد بالمير سيأتي بي به ، قبل أن
يطلع الصباح .

فأجابها ببرود : إن اللورد بالمير لا يعود إلى منزله ، إلا إذا خرجت
أنت منه !

-- كيف ذلك أتريد أن أبرح هذا المنزل ؟

- إني باسم زوجك الميت ، وولدك الحي ، والكاهن الذي
ينتظرك ، وأرنلدا التي تعتمد عليك ، أدعوك إلى الخروج من هذا المنزل
والذهاب معي .

وكانت الأرنلندية تنظر إليه نظرات الريبة فما خفي ذلك على العبوس وقال :
أرى أنك غير واثقة بي

فأطرقت ولم تجب
وتابع قائلاً : إنك لا تثقين بي كما أنك لم تثقي بالكاهن لاسترسالك بثقتك
إلى شقيق زوجك وما هو إلا قاتله .
- من يضمن لي صدق ما تقول ؟

- لقد أصبت فقد وعدتك في المرة الأولى ان أرد لك ولدك فما فعلت فصار
يحق لك أن لا تصدقي الآن ما أقول .
- رد لي ولدي أصدقك في كل شيء .

- إني لا أستطيع رده إلا إذا خرجت أنت من هنا . واسمعي السبب إن
ابنك قد اختطفته امرأة تتاجر ببيع الأطفال ، لكنه لو كان عندها أو لو
كان شريداً تاماً في أحياء لندرا لما لقي من الخطر نذراً مما يلقاه في منزل اللورد
بالمير . وماذا قال لك هذا اللورد ؟ إنه قال إني أخو زوجك وان ولدك ولدي
ومنزلي منزلك .

- نعم لقد قال لي هذا الكلام .

- وهو سيفي بوعده فتعيشين في بيته عيشة كرائم العقائل وينشأ ابنك عنده
كما ينشأ أبناء النبلاء ، لكنك انت قد تموتين .

- وماذا علي من الموت إذا غادرت ولدي سعيداً ؟

- لقد أصبت ، إنه قد يبلغ أقصى درجات السعادة . لكنه ينشأ
يا امرأة السير ادمون محباً لانكلترا ، كارهاً لارلندا وشهادتها ، ومنهم
زوجك الفقيد .

فارتعشت وقالت : ماذا تقول ؟

- أقول ان زوجك مات شهيداً لارلندا وهو يلعن انكلترا . لكن اللورد
بالمير كان من أشد أعضاء البرلمان نفوذاً ، وكان يستطيع إنقاذ أخيه من الشنق
لكنه رضي له الموت وقتل الأسد ، وهو الآن يريد ان يجعل الشبل إنكليزياً
فينتقم مرتين .

إن ابنك قد يصبح لورداً نافذ الكلمة ، عظيم الجاه ، كارهاً لارلندا متشيعاً
للانكليز ويعيش عيشاً سعيداً غير أن أباه في قبره ينكره ويأنف أن يكون
والداً له أفترضين بهذا ؟

فدعرت الارلندية وقالت له : كفى بالله ! إن ابني لا يكون إنكليزياً
ما حبيت .

— إذا ، إعلمي إنك إذا خرجت معي من هذا المنزل يغدو ابنك فقيراً
ويعيش عيش الشقاء والجهاد . لكنه يغدو زعيماً لجيش سري ، رات هؤلاء
الجنود الأمناء قد يضحون اليوم دماهم في سبيل الوطن ، لكن لا بد لهم
أن ينتصروا ويطردهوا الانكليز من ارلندا ، فتذكرني كلام زوجك السير
ادمون واختاري .

وكأنما ذكرى زوجها قد فعلت بها فعل السحر فوقفت قائلة هلم بنا ، إني
رضيت أن أبرح هذا المنزل .

— كلمة أيضاً يا سيدتي ، إن ابنك لم نجده بعد لكن لا بد لنا أن نجده لأن
ارلندا تبحث عنه الآن لتجعله رئيسها .

— لقد وثقت بكلامك لكن أقظن أن اللورد بالمير كان يخدعني حين وعدني
أن يعود بولدي ؟

. كلا لكنه فشل كما فشلنا ، لأن المرأة التي سرقت ولدك ذهبت به إلى
همبستاد وعرف اللورد بالمير المنزل الذي خبأته فيه وذهب لإحضاره مع شخصين
كنت أنا أحدهما

فتمعجبت قائلة : كيف أنت ؟

. نعم ، لأنه كان يحسبني من رجال البوليس السري . ولما وصلنا
إلى المنزل وجدنا أن ابنك قد هرب منه .

لكن ذلك لا يحمل على الخوف لأنه سوف يتوه في الأزقة ساعة أو ساعتين
فيمتدي اليه البوليس ، ويأخذنه الى الدير كولد متشرد ، فيبيت فيها بئس إلى

أن نذهب ونطلبه .
- أتقول الحق ؟
- دون ريب لأنه لا يجد في الأزقة من الخطر معشار ما تجدينه ويحده في منزل هذا اللورد .
- لقد وثقت بك يا سيدي ، لأن عينيك وقلبي يحملاني على الثقة بك ، والركون اليك .
- أشكرك باسم أرنلدا ، هلمي بنا لأن الكاهن صموئيل ينتظرنا خارج الباب فقد أخرجته من السجن .
- ليكن ما تريد ، هلم بنا .
فتأبط العبوس ذراعها وذهب بها الى غرفة مس الن فقال لها : إنك يا سيدتي قد وفيت بشيء مما طلبته اليك لكن بقي لي عندك مأرب ولا تزال حياة أبيك في خطر حتى تقضيه .
- ماذا تريد مني ؟
- أريد ان توصلينا الى باب الحديقة الخارجي لأننا سنخرج من ذلك الباب الى الزقاق فلا يشعر بنا أحد .
فنظرت مس الن الى الارلندية وقالت لها بلهجة العتب : إذا عولت على فراقنا والذهاب مع هذا الشخص ؟
- هذا ما تريده أرنلدا .
فحاولت أن تجيبها ، غير أن نظرات الرجل العبوس كهربتتها ، فحملت بيدها المصباح وسارت أمامها من رواق الى رواق حتى انتهوا الى الحديقة .
ففتحت بابها الخارجي مغصبة حائقة وقالت للرجل العبوس : هوذا قد بلغت ما أردت .
فقال لها متهاكماً : الى اللقاء يا سيدتي .

فهاجت فيها عوامل الكبرياء والحقد وقالت : نعم الى اللقاء ولا بد لنا ان نلتقي وسيكون بيننا ما يقل دونه الموت

- ٢٩ -

ولقد كان الرجل المعبوس صادقاً فيما قاله عن الغلام ، فقد تفرق هو وشوكنج والفقير في جميع جهات همبستاد باحثين سائلين عن الغلام ، فلم يجدوه لأن الغلام بعد ان نزل من النافذة الى الحديقة لم يكن يحول في خاطره غير الهرب من فانوش وما لقي في منزلها من العنف .
وكان يعتقد انه إذا خرج من المنزل لا بد ان يجده امه .

لذلك أسرع الى تسلق سور الحديقة ، فسقط مراراً وتهشمت يداه ورجلاه الصغيرة ، ولكنه كان كلما سقط زاد همة وعزيمة . وعاد الى تسلق الجدار مستعيناً بما يكتشفه من الأشجار حتى بلغ مراده ، وبلغ الى أعلى الجدار فتدلى منه والقى نفسه الى الشارع العام ذا كراً اسم أمه فقط ، ورض جسمه رضواً شديدة ودميت يداه ورجلاه

لكنه لم يكثرث لما أصابه بعد ان ظفر بحريته وهو لو بقي هنيئة في المنزل لأنقذه المعبوس ونجاه من خطوب كثيرة .
وكان اول ما عمله بعد أن نهض أنه نظر الى ما وراءه نظرة المنذعر ، كأنه خشي ان تكون فانوش قد أدركته بسوطها ، فجعل يركض هائماً على وجهه حتى بعد بعداً شامعاً عن همبستاد وبلغ لندرا المتصلة بها .

ولم يكن يخطر لهذا المسكين انه يبعد عن المنزل الذي كانت فيه أمه هذا البعد الشاسع ، فقد جاءوا به وهو نائم الى همبستاد ، وجميع أزقة لندرا متشابهة . فكان يسير من حي الى حي هائماً حائراً ، والدم يسيل من

قدميه وركبتيه .

ولم يكن يعرف اسم الشارع الذي غادر فيه أمه فيسأل عليه ، فجعل يسير مندفعاً الى الأمام وإذا رأى شارعاً يشبه الشارع الذي كانت فيه أمه جد في السير واقعدت عيناه بأشعة الأمل وإذا طال سيره وعلم أنه أضل السبيل وقف قانطاً جازعاً يذكر أمه ويبيكي ، ثم لا يجد من يحبسه ويرثي لدموعه ، فيستمر في سيره .

وبقي على ذلك ٤ ساعات حتى وهت قدماه من المشي ، وضعفت نفسه من الجزع ، فجلس على حافة باب منزل واسترسل إلى البكاء فكان بكاءً يقطع القلوب من الإشفاق .

غير أن أهل لندرا مشهورون بعدم الاكتراث ، فقد مر بهذا المسكين كثير من الناس فلم يكثر أحد لبلواه ، بل أن كثيرين منهم لم ينظروا إليه . إلى أن اتفق مرور امرأة به فوقفت تنظر إليه نظرة المتوجع ثم وضعت يدها فوق كتفه وقالت له بصوت حنون ماذا أصابك يا بني ؟

والتفت رالف الى تلك المرأة التي رقت له فراآها صبية حسناء وخيل له أنها تشبه أمه فزاد بكاءً وشهيقه .

فقالت له : العلك ضائع يا بني ؟

— إني أبحث عن أمي ؟

— ماذا تدعى أمك ؟

— خنة .

— أنت ارلندي ؟

— نعم .

وأتا أيضاً ارلندية مثلك واسمي سوزان أتحب ان تذهب معي لأعينك

على لقاء أمك .

فنظر إليها الغلام نظرة شكر. لكن عينيها كانتا تدلان على الارتياب فقالت :

تعال معي أيتها الحبيب كي لا يقال ان سوزان الارلندية تدع غلاماً من أبناء
وطنهما يموت في أزقة لندرا من البرد والجوع .
ثم أخذت بيد الغلام وسارت به .

غير ان الغلام حاول الامتناع في البدء ، إلى ان رأى في زهرات صوتها
الرقيقة ونظراتها الحنونة ما دعاه إلى الامتثال فقال لها : أحقيقة إنك ارلندية
يا سيدتي ؟

- إني ولدت في دبلين يا بني .

-- وتساعديني على لقاء أمي ؟

-- دون ريب وإذا كانت ارلندية فإن إيجادها سهل ميسور لأن جميع
الارلنديين متمارفون في هذه المدينة لما بينهم من جامعة الشقاء .

-- اقصي لي إنك لا تخدعيني .

-- أقسم لك بالله يا بني إني صادقة وإني أريد لك الخير فأين نقيم أمك وفي

أي شارع ؟

-- في سانت جيل .

-- ليس هذا اسم شارع بل اسم كنيسة .

-- لا أعلم غير هذا الاسم .

-- حسناً سنذهب غداً الى سانت جيل فاذا كنت أنت تبحث عن أمك

فهي أيضاً تبحث عنك دون ريب .

فاضطرب رالف وقال : لماذا لا نذهب الآن ؟ ولماذا التأجيل

الى الغد ؟

-- لأن الكنائس لا تفتح في الليل .

فأيقن الغلام انها مصيبة في قولها ، فمسح دموعه بكم ثوبه وقال لكن

الغد بعيد .

فابتسمت له قائلة : كلا يا بني ألا تعلم أننا الآن في منتصف الليل ؟

فاقتنع الصبي ، وسار معها حتى وصلا إلى مطعم ، فقالت له :
الملك جائع ؟
- كلا .

فواصل السير حتى اقتربت من الشارع التي كانت مقيمة فيه ، فلقبها
كثير من الناس ، وجعلوا يمازحونها بشأن الفلام ، وهو لا يفهم شيئاً
مما يقولون ، حتى مرت قرب خمار ، فلقبها أحد الفتيان وقال : كيف
حال ولتوني ؟

- لا أعلم إنني لم أره منذ يومين .

-- العله مسجون ؟

فردت بصوت مضطرب : لا أعلم .

- ومن هذا الفلام الذي معك ؟

-- لقيته جالساً عند باب يبيكي

- إن مخائل النجابة تبدو بين عينيه ، وسيكون له أعظم شأن بين

الصوص .

- لكنني أرجو له غير ما ترجوه لأنني سأرده غداً الى أمه .

فقال لها الفتى : لو سمعك ويلتون تتفوهين بهذا الكلام ، لما نجوت

من ضربه .

ثم ودعها وانصرف .

وسارت سوزان والفلام حتى وصلت الى منزلها ، وهناك رأت رجلاً آخر

تعرفه فقالت : أرايت ويلتون ؟

- كلا لكنني أعلم أنه بدأ بعمل خطير قد ينجح فيه لأن سرقة الجيوب لم

تعد تفيد في مهنتنا لكثرة حذر الناس .

فلم تجبه ودخلت والفلام الى المنزل فأثارتها وظهر لرافل ان هذا المنزل مؤلف

من غرفة واحدة أعدت للطبخ والاستقبال والنوم ووجد طاولة صغيرة كان عليها

بقية من الطعام وإبريق فيه بقية من البيرا .
فسأله سوزان : أتريد ان تأكل الآن ؟
- كلا يا سيدتي .
- أتريد ان تنام ؟

- حبذا النوم ، ولكنني لا أستطيعه إلا إذا وعدتني وعداً صادقاً بلقاء
أمي غداً .
- لقد أقسمت لك يا بني فم مطمئناً .

ثم حملته الى سرير كان في زاوية الغرفة ، فلم يكذب يستقر عليه حتى قام
لفرط ما عاناه من التعب .
غير أنه لم يسترسل في نومه حتى صبحا إذ سمع وقع أقدام في الغرفة تلاها
صبيحة فرح من سوزان .
ففتح عينيه ورأى رجلاً في الغرفة ورأى سوزان تعانقه وتقول : قد طال
غيابك حتى خشيت ان تكون مسجوناً .
فضحك الرجل وأجابها بقبلة .
فماضطرب رالف وكاد يصيح ، إذ رأى يد الرجل عارية ، وهي
مصبوغة بالدماء .

- ٣٠ -

ولم يكن هذا الرجل قد رأى الغلام بعد لانشغاله بسوزان ، وكانت سوزان
قد نسيت الغلام لفرحها بقدوم الرجل .
أما رالف فإنه كان يضطرب في سريريه ولا يحسر ان يتكلم .
ودار الحديث بينهما فقالت سوزان : لقد خفت عليك خوفاً عظيماً

فأين كنت ؟

وكان هذا الرجل عشيقةا ويلتون ، فجلس بقرها وقال لها : لقد كان أمري خطيراً وأوشك الجنود ان يقبضوا علي ولكني فزت فوزاً تاماً وسلمت من الجنود .

ثم مد يده الى جيبه وجعل يخرج منه دنانير ويلقيها أمامها حتى اجتمع منها قدر كثير . وعند ذلك رأت سوزان يده مخضبة بالدماء فذعرت وقالت : ماذا أرى الملك قتل الشيخ المنكود ؟
- كلا إني وعدتك ان لا أسفك دمًا بشرياً الا إذا اضطررت .

- إذاً من أين هذه الدماء ؟

- إسمعي ما جرى إن المنزل الذي سرقناه كائن بين الحقول كما تعلمين ولم يكن فيه غير صاحبه الشيخ فدخلنا اليه وقيدنا المعجوز ثم اخذنا ماله فاقتسمناه امامه بملء السمكينة .

ولما تمت القسمة وحاولنا الخروج من الباب رأينا العسس وراءنا ، فعدنا الى حديقة المنزل .

وجري في اثرنا الجنود بعد ان اغتصبوا الباب .
واسرعت انا الى سور الحديقة وتسلمت الجدار فأدركني جندي وجذبني برجلي فهويت الى الأرض وقبض علي واخذ يصيح مستغيثاً باخوانه لأنهم كانوا يطاردون رفاقي .
وهنا رأيت انه لا بد لي من سفك الدماء ، فأغمدت خنجرني في صدره وهربت .

وكان رالف يسمع الكلام ولا يفهمه ، لكن هيئة ويلتون كانت تدعوه الى الخوف .

اما الرجل فكان جميل الوجه يمتزج جماله بالقسوة ، فكانت سوزان تعجب بجماله ولا تهاب قوته ، ولكن رالف لم يكن يتجاوز العشرة اعوام فخاف هذا

الشخص خوفاً قوياً .

وحالت التفتاة - ويلتون ورأى الغلام ، فدهش ، وقال بلهجة المغضب :
من هذا ؟

فأغمض رالف عينيه لحرقه وحبس أنفاسه . وبدأت سوزان بلهجة المستعطف :
إنه ولد فقير التقيته قائماً في الطريق يبكي ، فأشفقت عليه لأنه أرلندي مثلي ،
كما تعلم .

فقال متمكماً : يسرني ان ارى منك هذا الاشفاق .

ثم دنا قرب السرير كي يرى الغلام فمسكت يده قائلة له : أرجوك ان لا تسيء
اليه فهو نائم انظر الى جماله إنه يشبه الملائكة .

— انه جميل كما ولكن ماذا تريد ان تصنعي به ؟

— سأرده غداً الى امه ، في شارع الارلنديين ، قرب كنيسة
سانت جيل .

— حسناً ، والآن اريد ان ننام ثلاثتنا في سرير واحد ؟

— سأنقله الى المقعد .

ثم دنت من رالف وايقظته ففتح عينيه وتطلع خائفاً الى ويلتون فقالت له :
لا تخف يا بني انه لا يؤذيك .

فلم يجيبها الولد لكن الخوف كان بادياً بين عينيه .

اما ويلتون فانه حلق بالولد ملياً ثم قال لسوزان : قد اخطأت اذ عزمت
على ارجاعه الى امه وخير لنا لو بقي عندنا .

فاضطرب رالف اضطراباً قوياً . اما سوزان فانها اعترضته بعنف
قائلة : كلا لا يجب ان يسقط الى الهوة التي وقعنا فيها ، واكون انا التي
قدفته اليها .

— أراك من اهل الفضيلة هذه الليلة فدعي شرفك هذا الآن لأن هذا الغلام
يفيدنا على حدائثه فائدة بليغة .

— كلا ان هذا لا يكون .
فغضب ويلتون وقال : ويحك ! أبلغ من قحتك ان تجسري على
اعتراضي .
ثم رفع يده منذراً إياها بالضرب .
فردت قائلة : أضربني ما تشاء ، ولكني لا أريد ان يخرج هذا الصبي
لصاً مثلك .
فهاج غضبه وقال : أتحتقريني ايضاً ايها الشقية .
ثم هم بضربها ، ولكن حدث أمر لم ينتظر وهو ان الغلام الصغير الذي كان
واقفاً عند السرير يرتعش من الخوف اسرخ الى ويلتون وحال بينه وبين سوزان
قبل ان تصل اليها يده وقد اتقدت عيناه وحسب نفسه رجلاً قادراً على حماية
تلك المرأة .
فلما رأى ويلتون ما كان من جراته سر به سروراً عظيماً وضحك قائلاً :
طب نفساً أيها العزيز إنني لا أضربها إكراماً لك .
ثم أراد ان يعانقه فنفر الغلام منه وتهدهد بالنظر الشذر فقال ويلتون : لقد
أحسننت ايضاً .
ثم عانق سوزان وقال : ابي أعانقها ايضاً إكراماً لك فاطمئن .
فارتاح خاطر سوزان وقالت : إنك تظهر من الشر ما ليس فيك .
— سأفعل ما ترين ايتها الحبيبة ، وسنرد العلام غداً الى أمه ، ودعيه
الآن ينام .
وكان يكلمها وينظر الى الغلام نظرات حنو . لكن رالف لم يطمئن حتى
عادت سوزان الى وعده وتطمينه فذهب الى المقعد ونام آمناً .
ولما أيقن ويلتون انه نام قال همساً في اذن سوزان : إن الأقدار أرسلت اليينا
هذا الغلام .
— ماذا تعني ؟

- اننا غداً في مثل هذه الساعة يكون لنا بفضل هذا الغلام من المال ما يكفيننا شر هذه المهنة .

فقال بلهجة التأنيب : لقد قلت لك يا ويلتون اني لا أريد أن يكون هذا الغلام من اللصوص .

- لا تغضبي أيتها الحبيبة وأصفي إلي تعلمي ما أريد .

وكان الولد نائماً لا يسمع الحديث وفوق ذلك فقد كانا يتكلمان همساً مبالغة في الحذر ، فقال ويلتون : اني أريد أن أعمل عملاً أخلص به من هذه المهنة الخطيرة فاني إذا بقيت عليها لا يبعد ذلك اليوم الذي ترقص فيه رجلاي بالخلاء في سجن نيو جات .

- لا تقل هذه الأقوال فانك تخيفني من الموت فتميتني من الخوف .

- ولكن الشئ نصيب أمثالي فلا بد أن الاقيه .

- بالله كفى .

- اني ملاق هذا الجواز لأن الله الذي تستحلفني به كائن حي سيبلوني بهذا العقاب على انه لو كان لي ألف جنيه فقط لنجوت من الشئ وعشت عيشة السعداء .

- إذا ظفرت بهذا المال ترجع عن مهنتك الشائنة وتتنع من السرقات وتبرح اكملترا ؟

- دون شك ، اسافر بك الى فرنسا وأتزوج منك ونعيش ما بقي لنسا من العمر عيش الاشراف .

فتنهدت وقالت : وأسفاه أن التعلل بالأمانى سهل ، وأين لنا أن نظفر بهذا المال .

- من يعلم فان هذا الولد يخدمنا خدمة جليلة ويحق لنا الرجاء .

فعادت سوزان إلى تأنيبه وقالت : لماذا تريد أن تصير هذا الولد الشريف المنكود لصاً : ألم ترى حماله ونبله أيخلق بمثل هذا الولد وهو يشبه الملائكة

- ان يكون مأواه السجون ؟
- فضحك اللص ضحك الساخر وقال : يعجبني أن أراك نبيلة المواطف
ولكنني أعدك وعداً صادقاً ان أرد الولد إلى امه متى قضيت مأربي .
- وما هو مأربك ؟
- أصغي إلي فاني مهم بأمر خطير منذ عهد بعيد ولم أطلع عليه العصابة
كي لا تشاركني بما سأختلسه فانه يبلغ الف وقد يبلغ أربعة الاف .
- أربعة الاف جنيه ! انها ثروة لا تدرك بالاحلام ومن تسرقها ؟
- من رجل يسرق الناس مثلي ولكنه يعد من اشراف اللصوص لانه يسرق
الناس بالعلانية والجهر ونحن نسرقهم بالسر ولأنه لا يرحم فقيراً ولا يشفق على
عامل وقد ملأ اسمه القلوب ذعراً .
- ما اسم هذا الرجل ؟
- هو توماس الجن .
- أهو ذلك المرابي الشهير ؟
- هو بعينه فاني اتياً منذ عام لسرقه ما سرقه من الناس ولدي الآن
مفاتيح تفتح جميع أبواب منزله .
- أين يقيم ؟
- في شارع فلبيرن قرب محطة وسترن وهو يعيش وحده فليس في منزله
خادمة أو خادم .
- ولكنه يبغي نقوده في صناديق مصرفه ولا يضع مثل هذا المبلغ في بيته
وهو فيه وحده كما تقول ؟
- اني اراقبه منذ عام أتم المراقبة وقد علمت انه يبغي نقوده في مصرفه
جميع أيام الاسبوع ما خلا يوم الأحد لعله أن بعض الناس يحتاجون الى المال
في هذا اليوم فلا يجدونه الا عنده في بيته لاقفال الأسواق أيام الأحد فيطعم فيهم
ويأخذ من الربا قدر ما يشاء . ولذلك يأخذ مساء السبت مبلغاً كبيراً من المال

التقدي والأوراق المالية الى بيته. وهو آمن على ماله في ذلك البيت ، لأنه يضعه في صندوق ضخم من الحديد لا يستطيع أحد اغتصابه إلاي فاني علمت سره .

- كيف ذلك ؟

- اني قبل أن أكون لصاً كنت تاجراً صغيراً ، وكنت متزوجاً زواجاً شرعياً ، فما خرب تجارتي غير هذا المراهي ، وهو الذي قتل إمرأتي رغماً ، فاني علقت بشركه واستدنت مبلغاً صغيراً وتجسم المبلغ بزرره واحتياله ، وبلغ معدل ما أخذه من الربا ثلاثمائة في المائة ، فأفلست حين عجزت عن الدفع ، وغلت يدي عن الأعمال ، ودخلت إلى سجن المفلسين وكان ذلك اليوم بدء عهدي بالسرقات .

اما صندوق هذا المراهي فقد وضعه في غرفة ليس لها غير باب واحد ، ولهذا الباب نافذة صغيرة جداً ، فإذا اتى احد لمقابلته في منزله ينظره من تلك النافذة قبل ان يفتح له الباب ، ولو كنت أستطيع مد يدي من النافذة لبلغت مرادي من صندوق هذا المراهي منذ عهد طويل .

- اليس لك مفتاح لهذا الباب ؟

- نعم ولكني إذا فتحتة اقتل في الحال وذلك ان هذا الخبيث قد وضع وراء الباب بندقية بشكل عجيب بحيث انه إذا فتح الباب اطلقت البندقية ووقع رصاصها في صدر من يفتحه .

- ولكنك قلت لي إن هذه الغرفة ليس لها غير باب واحد فكيف يدخل منه توماس ولا تصيبه البندقية ؟

- وهذا السر الوحيد الذي لم اوفق إلى كشفه من اسرار منزله .

- إذاً لا رجاء بسرقة صندوقه إذ يستحيل الدخول إلى الغرفة .

- كلا فإن نافذة الباب لو كانت متسعة لمددت يدي منها وقطعت

بمقص حبلاً ربط به الباب واتصل بالبندقية ، وإذا قطع الحبل لا يبقى خوف من انطلاقها ، لكن النافذة ضيقة ويدي ضخمة ، ولهذا أردت أن أبقى الغلام عندنا كي استخدم يده الصغيرة فيقطع الحبل ، وعند ذاك أبلغ مرادي من الصندوق ، وأتوب إلى الله توبة صادقة ، ولا أعود بعدها إلى ارتكاب منكر .

— أتعدني وعداً صادقاً أن ترد الولد إلى أمه بعد قضاء مأربك ؟
— أقسم لك بالله .

أجابت : ولكن توماس قد لا يخرج من منزله متى كان فيه هذا القدر من المال .

— كلا ، فإني أراقبه منذ عام كما قلت لك ، فهو يضع المال في الصندوق كل ليلة سبت ، ثم يضع البندقية في موضعها ويخرج آمناً فيقضي ليلته في اللعب .

— حسناً ، وماذا تصنع بالولد إلى يوم السبت ؟

— اني اتعهد بحمله على الصبر
فقلت له بصوت مضطرب : العلك تريد ضربه ؟

— أقسم لك اني لا أفعل شيئاً من هذا .

— حسناً . ماذا تصنع ؟

— سوف ترين .

وهنا انقطع حديثهما فأطبقا اجفانهما وتاما كما نام الولد

٣١ -

ولما استفاقا صباحاً كانت رالف لا يزال نائماً فقال ويلتون لسوزان :
كنت عولت على ان أسقي الولد مخدراً فينسام إلى المساء حيث أذهب به إلى
بيت المرابي ، لكنني رأيت ان ذاك يحمله على الشك بنا ، والذي أراه الآن
هو ان تذهبي به حين يصبحو بحجة البحث عن امه ، وتسيرين به كل النهار
من شارع إلى شارع ، وتبعدين كل البعد عن سانت جيل حذراً من أن يظفر
بأمه اتفاقاً .

ومضى أقبل المساء تدخلين به إلى الخمارة الكائنة في أول عطفة من شارع
ادورد فتمتعشين معه ، وقبل أن تفرغا من الطعام أحضر اليكما بركبة وأنا في
ملابس نظيفة وهناك يكون بدء العمل .

- سأفعل كل ما تريد على شرط أن تجدد وعذك الي باعادته إلى أمه .

- سأفعل بعد أن يقطع جبل الباب ويكون ذلك أول ما اهتم به
ثم تركها وخرج من البيت على أن يجتمعاً مساء في المكان المعين .

أما سوزان فإنها خرجت بالولد بعده وجعلت تسير به من شارع إلى شارع
وتنتقل من مكان إلى مكان ، ومن كنيسة إلى كنيسة وفي كل موضع توهمه انها
تسأل عن امه بحيث بات له فيها كل الثقة ، لكنه لم يظفر بأمه وكان يمشي
حزيناً منكسر القلب

وما زال هذا دأبها حتى الليل فدخلت به الخمارة المعينة وطلبت أكلاً
وشرباً ، وكان رالف قد تعب تعباً شديداً ، حتى اضطرت سوزان إلى حمله
فأكل بملء الشهية ، لكنه كان يلهمج كل حين بأمه ولا يذكر غير اسمها ،
وكانت سوزان تعلم بالعودة إلى البحث عنها غداً وتضمن له لقاءها فيثق بها
ويرتاح لعودها

وفيما هما بأكلا فتحت باب الخمارة ودخل ويلتون فقال للغلام لقد وجدت

أملك يا بني .

ولم يدر الولد بماذا يجيبه لشدة فرحه ، لكنه وثب اليه فتعلق به وجعل يعانق هذا اللص ويذرف دموع الامتنان .

وقال له ويلتون : لا تحول الينا الأنظار يا ابني واصفني الي لأخبرك الحقيقة ، إن أملك في السجن ، لكنها ليست مسجونة في سجن الحكومة ، بل في منزل أحد الأشرار كما كنت أنت مسجوناً في ذلك المنزل الذي كانوا يضربونك فيه .

فأجفل الصبي وقال : أيجسرون على ضربها ؟

— كلا لم يضربوها بعد ولكننا اذا تأخرنا عن انقاذها فلا بد أن يضربوها وقد عرفت لحسن الحظ المكان المسجونة فيه .

ثم غمز سوزان بعينه فقالت له بملء البساطة : اين هو ذاك المكان ؟
— انه غير بعيد .

فقال رالف إذاً هلم بنا لانقاذها الآن .

فابتسم ويلتون وقبل رالف قبلة حذو ثم قال له : اني معجب ببسالتك يا بني ولكن وقت انقاذ أملك لم يحن بعد .

— لماذا ؟

— إذ يجب علينا أن ننتظر الى أن ينام حراسها فأتهم الآن عشاءك وسنذهب بعد العشاء .

ثم انصرف عنه إلى سوزان وجعل يحدثها بلغة اللصوص الاصطلاحية وهي لغة لا يفهمها رالف فقال : لقد أعددت كل المعدات وارجو ان نعود بفوز عظيم ونرتاح من عناء المهنة .

— أنت واثق من وجود المال في المنزل .

نعم فقد راقبته ورأيتة دخل الى البنك في الساعة الثالثة والنصف وخرج منه بكثير من الأوراق المالية ، وقد التقى ساعة خروجه بصديق له

فسمعتة يواعده على اللقاء في ليشت سكار في الساعة العاشرة . لذلك لا بد له من ركوب القطار في الساعة التاسعة ونصف ، ولا بد لنا ان نصبر حتى نسمع صفير القطار .

— ومتى ظفرنا بالمال فماذا نصنع بالولد !

نذهب به إلى كنيسة سانت جيل فلا بد لأمه أن تطلبه منها فنودعه هناك ونذهب توأ إلى فرنسا .

وأقاما يتحدثان بمثل هذه الأحاديث الى ان حان الوقت المعين فخرجوا من الخمارة الى مركبة كان أعدها ويلتون فدخلت اليها سوزان والغلام ، وصعد ويلتون فجلس بجانب السائق وامره ان يسير الى المحطة .

ولم يكذب بل بلغ اليها حتى رأى ويلتون توماس الجن صاعداً مسرعياً الى درجات سلم المحطة فأيقن انه مسافر وان الجو قد خلا له فأمر السائق ان يسير الى منزل المراهي ، ولما بلغ اليه اوقفه عند باب الحديقة ونزل من المركبة فأخرج منها سوزان والطفل .

ثم فتح باب الحديقة بمفتاح كان معه ودخلوا جميعاً فأقفل الباب وبقيت المركبة تنتظر في مكانها .

وبعد ان اجتازوا الحديقة صعدوا سلماً انتهوا منها الى باب المنزل فأخرج ويلتون مفتاحاً وفتح الباب مطمئناً لوثوقه انه لا يوجد أحد في المنزل . فسأل الولد . اهنا محبوسة أمي ؟

— نعم يا بني وسوف تراها فاحذر ان تتكلم كي لا يستيقظ النيام .

وبعد ذاك مشوا في رواق طويل انتهوا منه الى باب الحجرة التي فيها الصندوق .

وأنا ويلتون شمعة كانت في جيبه وخاطب سوزان انظري الاترين هذا الثقب الصغير في باب الغرفة ؟

- نعم ..

- هذا هو الثقب الذي يجب ان يد رالف يده منه ويقطع الجبل .

- ٣٢ -

ولنعد الآن الى توماس الجن فإنه خرج من البنك بعد ان قبض منه الفتي
جنيه ، وعاد بها الى مكتبه فجعل يكتب رسائل الى عملائه اذ كان ذلك اليوم
يوم السبت والبريد لا يشتغل يوم الأحد في بلاد الانكليز .

وقبل ان يفرغ من كتابة رسائله قرع باب مكتبه فأمر الطارق بالدخول
دون ان ينهض من مجلسه ولكنه ما لبث ان رأى هذا الزائر حتى وثب من
مكانه مضطرباً واسرع الى استقباله بملء الاحترام

وكان هذا الزائر رجلاً طويل القامة عليه مسحة من الشباب وهو براق
العينين تبدو عليه مخائل النجابة والعزم الأكيد
وكانت ملابسه كلها سوداء مثل رجال الدين فقال له : انك لم تنتظر زيارتي
يا مستر توماس .

- كلا يا سيدي لم يخطر لي في بال ان انا هذا الشرف

- ان الوقت غير متسع لي الان فلا اطيل المباحثة وادخل توأ في الموضوع
انك اوقفت الكاهن صموئيل وهو لا يستطيع ان يعقد حفلة ٣٦ اكتوبر ،
لكن سيجنه لا يكفي لنجاح المهمة التي نخدمها ، وقد جاء الى لندرا اربعة
رجال خطرهم عظيم على انكلمترا وبحثوا بحثاً دقيقاً عن الكاهن فلم يظفروا
به ، ولكن عيوننا لم تغفل عنهم فإن واحداً منهم قد سرق وهو قادم من
اميركا الى لفربول

وكان معه حوالة على بنك همبري وشركاه غير ان هذه الحوالة قد سرقت

ايضاً فلم يبق له شيء من المال .
لكن احد عمالي كان يقفوه في الليل والنهار ، وقد اقنعه على الالتجاء اليك فهو سيحضر اليك غداً الأحد ويسألك ان تسلفه الف جنيه لميعاد شهر فتعطيه ثلاثة آلاف .

— احب ان اعطيه كل ما تأمرني به غير ان البنك اقل الآن وليس لدي غير الف جنيه .

— لقد توقعت ذلك فأحضرت لك المال .
ثم اخذ محفظته من حيبه واخرج منها اوراقاً مالية بقيمة ثلاثة آلاف جنيه واعطاه اياها وقال : هذا كل ما اردت ان اقوله لك اليوم .
ثم تركه وانصرف .

فشيءه المرايى الى الباب بلاء التعظيم والاحترام .
ولما اصبح وحده قال في نفسه هذه اول مرة اجتمع فيها لدي في منزلي خمسة آلاف جنيه فلا بد لي من مضاعفة الحذر والاحتياط . ثم خرج من مكتبه فركب مركبة وذهب بها الى المنزل .

وهناك دخل الى الحجرة التي وصفناها من بابها فوضع المال في الصندوق الحديدي ووضع البنديقية في موضعها ، فربط زناده بطرف حبل رفيع وربط الطرف الآخر بالباب بحيث اذا فتح الباب من الخارج اشتد الحبل واطلقت البنديقية على فاتحه .

غير ان المرايى لم يقتصر هذه المرة على البنديقية لكثرة ما كان لديه من الأموال فعمد الى احتياط آخر لم يكشفه ويلتون قبل الآن ، وهو انسه كان لديه مدفع صغير من المدافع الرشاشة يضمه عندما يريد المبالغة في الحذر فوق الصندوق الحديدي .

ويربط زناده بحبل ويشد الحبل الى اعلى الباب بحيث لا يستطيع الناظر من نافذة الباب ان يراه ، بل يرى فقط حبل البنديقية ، ولهذا خفي امره

على ويلتون .

فلما اتم وضع البندقية والمدفع واطمأن باله اراد الخروج ولكنه لم يخرج من الباب بل انه ازاح سريره قليلاً وضغط على لولبه ، كان مستترا وراء السرير ففتح باب سري يؤدي الى سلم في جوف المنزل فخرج منه واقفله ثم نزل درجات السلم فانتهى منها الى باب سري آخر ففتحه فاذا هو بالحديقة فخرج منها الى الشارع وذهب منه الى المحطة .

ولما وصل اليها ذهب ليشترى تذكرة فـ مع وهو يصعد السلم صوتاً يناديه فالتفت وراه وعلم انه جوهان كالفرن وهو جندي السجن الذي ذهب بالكاهن اليه فقال له الجندي اني كنت ذاهباً الى مكتبك يا سيدي غير اني رأيتك داخل الى المحطة فأسرعت اليك

- ماذا تريد مني ؟

- إني آت اليك بالدين الذي كان على الكاهن الالندي

فاضطرب المرابي وقال : كيف دفع ومتى ومن أين جاؤه بالمال ؟

- لا أعلم ، ولكنه دفع منذ يومين فأطلق حاكم السجن سراحه وأمرني اليوم ان احضر لك المال .

ثم أعطاه أوراقاً مالية قيمتها مائتا جنيه وهو يعجب لما يراه من دلائل استياء المرابي وانقباض سحنته والعهد به انه لا يفرحه غير المال .

أما توماس فانه أخذ الأوراق ووضعها في جيبه ونظر في ساعته فقال في نفسه : لا يزال الوقت فسيحاً وليس من الحكمة أن أذهب إلى محلات اللهو والشراب ومعني مثل هذا المبلغ ، فلاعده به إلى البيت وأسافر في قطار آخر ..

وعند ذلك خرج من المحطة وسار عائداً إلى مسـ نزله ، وقبل أن يبلغ اليه رأى مركبة عند بابه فـ اضطرب وقال من عسى أن يكون في منزلي ؟

وأسرع في خطواته فرأى باب الحديقة مقفلاً والسائق نائماً في المركبة، ولم يجد أثراً للنور في البيت فقال في نفسه ' لعل وقوف المركبة هنا من قبيل الاتفاق. ثم فتح باب الحديقة ودخل .



كان ويلتون وسوزان والصبي في المنزل حين دخل اليه المرابي وقد ذكرنا للقراء كيف دخلوا اليه .

وكان أول ما صنعه ويلتون انه نظر من نافذة الباب الصغيرة فرأى الحبل في مكانه وقال للصبي : ان امك في هذا المنزل كما قلت لك فإن شئت ان تراها وجب عليك أن تفعل كل ما أقوله لك .
— سأفعل كل ما تريد .

فحمله ويلتون وقال له : مد يدك من النافذة وابحث عن حبل متصل بها .
فمد الصبي يده وقال : قد عثرت بالحبل .
فأعطاه مقصاً وقال : قص الحبل بهذا المقص .
فامتلل الغلام وقص الحبل .

فأنزله ويلتون الى الأرض ، فأخذت سوزان بيده ووقفت معه إزاء الباب فنظر ويلتون من النافذة فرأى الحبل مقطوعاً ساقطاً إلى الأرض فاطمأن من البندقية وأخذ مفتاحاً من جيبه فوضعه في قفل الباب وأداره ، ثم جذب الباب اليه وخرج دوي هائل يشبه دوي الرعد القاصف واشترك بهذا الدوي صيحتان احداهما خرجت من صدر ذلك الغلام الصغير المنكود فسقط مضرجاً بدمائه ، والثاني من سوزان فانها أصيبت برصاصة بصدرها وكانت ذلك دوي المدفع الرشاش .

أما ذلك اللص الأثيم فقد نجا من المدفع بأعجوبة فلم الأثيم وأصيب البريء

وفي الوقت نفسه فتح باب الحديقة ، وكان الذي فتحه توماس الجن فلما
بوغت بصوت المدفع جعل يصيح مستنجداً اذ ايقن ان المدفع لم ينطلق الا
لمباغثة اللصوص .

أما ويلتون فلم ينتبه لصياح المرابي ، ولم يكثر لمصاب الغلام ولم يحفل
بسرقه الأموال ، فلم يشغله غير تلك الخلية التي رآها مضرجة بدمائها ، فان
عواطف الحب الصادقة قد تتمكن حتى في نفوس اللصوص فاحتملها وامرغ
بها هارباً إلى الحديقة فابتدره توماس وقبض على عنقه وهو يقول : ايها اللص
انك ستنال جزاءك .

وكان بين الاثنين عراك شديد في الظلام اسفر عن أن ويلتون طعن المرابي
بخنجره في بطنه وهرب بسوزان وهي مغمى عليها أما ذلك الطفل المنكود
فقد تركه صريعاً على الأرض وهو مصاب برصاصة في كتفه .

- ٣٣ -

وحمل ويلتون سوزان إلى المركبة وهو يكاد يحن اشفاقاً عليها وامر السائق
ان يسير فسار بهما إلى المنزل وهناك اطلق سراح السائق واخرجها من المركبة
وهي لا تزال مغمى عليها فأدركه وهو عند الباب صديق له يدعى كرفان
فدعر لما رآه من اغماء سوزان واضطراب عشيقتها فقال : ماذا حدث ؟

- حدث اني فشلت في مهمة أتأهب لها منذ عام واطنهم قتلوا لي هذه
الحبيبة فانها جريحة .

وكان يقول هذا القول بصوت يتهدج من الاضطراب والاشفاق كمن يحش
بالبكاء ، فطيب كرافان خاطره وساعده على حملها إلى المنزل وقال ، اني
كنت خادماً عند طبيب جراح فتعلمت منه بعض المبادئ .

وكانت سوزان مصابة برصاصتين إحداهما تحت الثدي الأيمن والثانية في العنق ، فلما وضعها ويلتون فوق السرير ورآها لا تتحرك جعل ينتف شعره ويلطم وجهه ويصيح ويله إنها قتيلة لا رجاء فيها .

ففحصها كرافان وقال : كلا انها مغمى عليها وليست جراحها خطيرة انظر ان إحدى الرصاصتين أصابت ضلعاً والثانية لم تنل غير الجلد فلم الآن نضمد الجرحين .

فأخذ هذان اللصان يمزقان ملابسها ليضمدا بها الجراح ويمسحوا الدماء ثم خرج كرافان من المنزل وعاد مسرعاً بشيء من الخل فجعل يدعك به صدغيها فما ظال بها الأمر حتى تنهدت ثم فتحت عينيها ورأت ويلتون وصاحت صيحة فرح وابتسمت له .

وجعل هذا اللص يبكي سروراً وقد أعاده الحب انساناً فأخذ يقبلها ويقول انك حمة والمحمد لله .

فقالت سوزان : اني أحمد الله لنجاتك أما أنا فقد دنت ساعتي . ثم خطر لها خاطر فجائي فالتفتت إلى ما حولها وقالت : رباه أين الغلام؟ — لا أعلم حقيقة أمره لانصرافي الى الاهتمام بك فإما ان يكون قتيلاً أو هو جريح .

فاضطربت وقالت : لقد اخطأت يا ويلتون فإنك ستحمل تبعه دمه المسفوك ظمأ .

ثم جعلت تبكي .. أما ويلتون فان وجهه تجهم عند ذكر الغلام وقال : اني اؤثر ان يكون قد مات كي لا يبوح بما علمه من امرنا .

فعادت المخاوف إلى سوزان وجزعت على حبيبها قائلة له : اني الآن بسين يدي الموت كما قلت لك فودعني ايها الحبيب آخر وداع واهرب فان البوليس يبحث عنك دون شك .

- أنا أهرب وأودعك على ما انت فيه فاني اؤثر الف شتى على هذا
القدر الذميم .
- يسرني أن اراك قبل موتي ، ولكن لي أخ بين الذين أحبهم أريد
أن أراه ..
- أنت لك أخ ؟
- نعم انه رجل فقير يكسب رزقه بشق النفس لأنه بقي شريفاً وأبى
أن ينغمس في الآثام فلا ترفض طلبي بالله فهذا آخر ما اطلبه اليك .
- ولكن اين هو أخوك ؟
- انه يقيم في ديدلي ستريت وهو اسكافي ..
- فتحمس كرافان لكلامها وقال لها : وماذا يدعى أخوك ؟
- جون كولدن .
- لقد عرفته اليس نمرة البيت المقيم فيه ٢٧ ؟
- هو بعينه .
- فقال له ويلتون : إذا كنت قد عرفته أيها الصديق فأرجوك ان تذهب
اليه وتأتي به .
- فامثل كرافان ومضى وبقي ويلتون ينظر إلى سوزان نظرات اليأس .
- فقال له بلمهة المؤنب : لماذا ، أيها الحبيب لم تصغ الي وترد الغلام
إلى أمه ؟
- فغطى وجهه بيديه وقال : هو القدر ايتها الحبيبة ولا حيلة برده .
- ثم ركع أمام سريرها وخاض في عباب التصورات .

- ٣٤ -

أما كرافان فإنه سار ترواً إلى شارع ديدلي ستريت ووقف عند البيت الذي نمرة ٣٧ ، وهناك أقبية تحت الأرض ينزل اليها بسلم من الرصيف ، يشتغل فيها العمال ، فنزل كرافان إلى القبو فرأى صاحب دكان الأحذية ، وأمامه العمال يشتغلون فدنا منه وقال : اني ابحت عن جون كولد فقد قيل لي انه يشتغل عندك .

فامتعض وجه صاحب الدكان وأجابه . كلا انه ليس هنا .

— أين أستطيع ان اجدّه الآن ؟

فنظر اليه الرجل نظر المشفق وقال له : العله من أصدقائك ؟

— كلا ، لكنني قادم اليه بمهمة .

وجعل العمال يتساءلون حين سمعوا اسم كولدن ويتكلمون ممساً .

أما صاحب الدكان فإنه نهض عن كرسيه إلى كرافان وقال له : اني لا أعرفه ، لكنني أرى انك من الانكليز ، ويحب على الانكليز ان يتعاونوا ، ولهذا وجبت علي نصيحتك فاعلم يا بني انك إذا كنت من أصدقاء جون كولدن فخير لك أن تقاطعه وتبتعد عنه .

— لماذا ؟

— لأنه ضل سواء السبيل وانضم الى اولئك الارلنديين الذين دأبوا على

كيد المكائد لبلادنا الحرة .

— اشكرك لنصحتك ، لكنني اتيت به مهمة كما قلت لك ومتى انهيته لا أكرث

لأمره ، بل أعين البوليس إذا انتدبني للقبض عليه ولكنني في حاجة الى ان أراه

وأرجوك ان ترشدني الى مكانه .

— اني طردته من دكاني حين علمت انه دخل في سلك تلك الجمعية

السرية الارلندية التي تأتمر كل يوم بدولة الانكليز ، فهو لا يشتغل عندي منذ

ذلك المهد .

— لكن الا تعلم اين يقيم ؟

— رأيت عدة مرار يتردد إلى هذه الحارة التي بازائها .

فشكره كرافان وذهب توأ إلى الحارة وجعل يقول في نفسه . اني لا أجد في نفسي ما يحبه هذا الاسكاني من الغيرة على بلاده ويسرني وجود هذه الجمعية السرية فانها منذ تكاثر أعضاؤها انصرف البوليس عن الاهتمام بالمصوص وتركنا نفعل ما نشاء .

قال هذا في نفسه وذهب إلى الحارة فطلب كأس شراب وأجال نظره في الحاضرين فوق على رجل لابس ملابس جديدة فأحدق به واخذ ينظر معجباً إلى ملابسه ويقول : اني اعرف هذا الشخص حق المعرفة ، لكنني انكر ما اراه عليه من ظواهر النعمة فقد عهدته من أمثالي .

ثم دنا منه فوضع يده على كتفه قائلاً : اي صديقنا شوكنج لقد اصبحت من اهل الثروة كما أرى فمن اين هذه النعمة ؟
فنظر شوكنج إلى محدثه ثم نظر إلى ملابسه نظرة ملؤها الكبرياء وقال :
ان من جد وجد .

— لقد أحسنت البيان غير اني لا اجد فرقاً بين الشقاء والرخاء فانك على ما انت فيه من ظواهر الاثراء مفكر مهموم كمن حكم عليه بالشنق .
فتنهده شوكنج تنهداً طويلاً دون ان يجيب ولكنه نظر إلى الساعة المعلقة في الحائط نظر الجازع فقال له كرافان : الملك تنتظر أحداً ؟
— نعم ...

— وانا ايضاً فاني انتظر جوهرن كولدن .

فدهش شوكنج وقال : من الذي تنتظره ؟

— جوهرن كولدن .

— وانا ايضاً انتظر الشخص نفسه اليس ذلك بمعجيب ؟

غير ان كرافان لم يتمكن من الرد فان باب الخماره فتح عند ذلك ودخل منه كولدن فصاح الاثنان قائلين : هذا هو .

اما كولدن هذا فمؤنفس الشخص الارلندي الفقير الذي رآه الرجل العبوس عند باب منزل فانوش وأدخله في سلك عصابته .

ولما دخل كولدن لم يكثر لكرافان ودنا من شوكنج فقال له : اننا على وشك ان نجد الصبي فلقد قيل لنا ان امرأة وجدته يبكي عند باب احد المنازل فأخذته .

فانتبه كرافان للحديث وقال : العلمكم تبحثون عن غلام ؟
فالتفت جوهن اليه وقال : اهذا انت ؟ ثم صافحه قائلاً نعم اننا نبحث عن غلام فقدناه .

— ما هي صفات هذا الغلام وعمره ؟
— انه ارلندي اشقر جميل لا يزيد عمره عن عشرة اعوام .
— إذا كان هذا ما تقولون فأنا ارشدكم اليه ، الم تقل يا جوهن انه كان يبكي وان امرأة قد اخذته ؟

— نعم .
— إذا ، اعلم ان هذه المرأة التي لقيت الصبي الارلندي هي أختك سوزان .

فصاح جوهن قائلاً : ليحمي الله ارلندا .
ثم احنى رأسه مكتئباً فلم ينتبه شوكنج لكآبته وقال : إذا هلموا بنا إلى مكان الصبي .

- ٣٥ -

وسار الثلاثة إلى منزل سوزان فكان كرافن يقول في نفسه :إني أتيت لأدعو أخا سوازن وليس من شأني ان أخبرهم بتفصيل ما جرى للغلام. بل قد اخطأت بالحديث عنه .

وأما شوكنج فكان يتبعه ويقول في نفسه : إن الارلندية هربت من المنزل إذ لا ثقة لها بي ، وقد أصابت في شكها ، لأنني كنت السبب في دخولها الى منزل فانوش ، ولكني سأرد لها غلامها الآن فأستعيض قلك الثقة ، وفوق ذلك فان الرجل العبوس يعود الى ثقته بي ، لأنه يحسبني الآن من البله .

وأما كولدن فكان يقول : ما عسى تريد مني أخي ، وأنا لم أرها منذ عهد ؟

وسار الثلاثة حتى اقتربوا من المنزل فتأبط كرافن ذراع كولدن وقال له : العلك لم تر أختك من أمد طويل؟

- نعم فإنها قد نهجت مناهج الضلال ، وقد أنكرتها حين رأيتهما تخطر بشباب الحرير فان أبناء أبي لا يأكلون طعامهم إلا ممزوجاً بعرق الجبين ، وإذا كنت قد رضيت ان أتبعك اليها لأنني أريد أرى هذا الغلام رجاء ان يكون هو الذي أبحث عنه .

- لا أظنك تجهل ان أختك تقيم مع رجل يدعى ويلتون .

- نعم أعرفه وهو من اللصوص .

- هو ما تقول وقد حدثت نكبة :

فاضطرب كولدن وقال : ما هذه النكبة ؟

- إن سوزان وويلتون حاولا سرقة منزل ، فخبط سعيهما وأصيبت سوزان بجراح .

فارتعد جوهان كولدن ، ونسي حياة أخته الأثيمة . فلم يذكر إلا أنها أخته . وأسرع في خطواته حتى بلغوا الى المنزل . فكان اول من دخل اليه وتبعه شوكنج ووقف على عتبة الباب وأجال في الحضور نظراً وقال : أين هو الصبي ؟

فتلفت ويلتون اليه ، ثم التفت الى كولدن وقال له : ماذا يريد هذا الرجل ؟

فأجابه شوكنج قائلاً : إني أريد الولد .

— أي ولد هذا ؟

- الولد الذي وجدته امرأتك .

— إنك لا تراه فقد بات من الأموات .

فإن شوكنج والارلمدية أنين المومع وأمسك جوهان كولدن ذراع أخته وهزها بعنف وقال : لا أعلم إذا كانت جراحك خفيفة اركنت في خطر الموت ، وانك إذا أردت ان يعفو الله عن ذنوبك الماضية ، فأخبرينا أين هو الصبي ؟

فتوجعت سوزان واغرورقت عينيها بالدموع وردت : ابي أفا وجدته اما ويلتون فأضاعه

فاضطرب شوكنج ودخل الى الحجرة وهو يقول : أضاع أيضاً ؟

ولم تجبه سوزان ، بل قالت لأخيها : العلك تعرف هذا الولد ؟

— نعم ألا يدعى هذا الولد الذي عثرت به رالف ؟

— نعم .

فقال لها بلهجة الوعيد : إذا أخبرينا بما جرى له .

— لا أعلم حقيقة أمره ، فقد يكون قتيلاً ، وقد يكون

مجروحاً مثلي .

وعندها أخذت تعترف لأخيها وشوكنج بكل ما حدث دون ان يحسر

ويلتون على مقاطعتها ، حتى اذا انتهت من كلامها رأت دمة تجول في عين أخيها وسمعه يقول لها: ويحك أيتها الشقية انك أضعت ايرلندا بأسرها باضاعتك هذا الصبي .

— ايرلندا ؟

— نعم ، إنك لا تعلمين أية نكبة نكبت بها وطنك وبلادك ، واعلمي أنه يجب عليك ان تخبرينا أين تركته ، فقد يكون جريحاً كما تروين .

— تركناه في كلدن ستريت في منزل توماس الجن المراهي .

فارتعد ويلتون خوفاً وقال : ماذا تفعلين يا سوزان أتريدن ان ترسليني الى المشنقة ؟

وكان شقيق سوزان ضخيم الجثة ، قوي العضل ، فوقف أمام ويلتون وقال له : إذا كان الولد قد قتل ، فليس إقرار سوزان الذي سيرسلك الى الشنق ، بل هو في خنجري الذي يقذف بك الى هوة الأبد .

وحسبت سوزان ان عشيقها وأخاها سيختصمان فقالت لهما : بالله خليباً الخصام فليس هذا وقته ودعاني أنظر اليكما النظر الأخير .
وكان كرافن قد خرج هنيهة من الحجرة ، فعاد عند ذلك منذعراً وهو يقول : قد أقبل رجال البوليس وهم كثيرون يا ويلتون . اسرع الى الفرار لأنهم ما جاءوا إلا للقبض عليك .

فقال ويلتون : يا للشقاء إن الولد لم يمت ، وقد باح لهم بأمرى ، دون ريب .

وسمعه شوكنج يتكلم هذا الكلام ، فسر سروراً عظيماً ، وقال له : إذا كنت صادقاً فيما تقول ، أيها اللص الأثيم ، وكان الرلد حياً صفحت عنك

أما ويلتون فلم يصنع اليه بل وثب من الغرفة لخوفه من البوليس وصعد درجات

السطح وهو لا يلوي من خوفه على أحد .
ولما بلغ السطح كان الجنود قد دخلوا الى الغرفة فتقدم رئيسهم وقال إننا
نبحث عن شخص يدعى ويلتون .

فرد كرافن قائلاً : إن الطير قد هرب من القفص .
— وإننا نبحث ايضاً عن امرأة تدعى سوزان .
فأجابته سوزان ، بصوت يتهدج من الاضطراب ، قائلة : أنا هي
يا سيدي .

وكان الجنود يملكون ان كرافن من اللصوص . غير ان البوليس في بلاد
الانكليز لا يقبض على اللص الا حين يرتكب الجريمة ، فاقترعوا على ان يأخذوه
كشاهد فقط .

ولذلك سأله عما يعلم فقال له : إن شوكنج وجوهان كولدن أتيا الى الحجرة
وسألا عن ولد أضعاه .

فأكد رئيس الجنود ان الولد لا يزال حياً وانه مصاب بجرح خفيف .
وهنا ضمت سوزان يديها الى صدرها وقالت لرئيس الجنود : إنني انا وويلتون
المجرمان وأما الصبي فهو بريء .
أما رئيس الجنود لم يحفل بكلامها وقال لها : لك ان تقولي ما تشائين . أما
الولد فلا بد له ان يذهب الى سجن الطاحون ويقيم فيه الى ان يبلغ العشرين
من عمره .

وهنا ارتعدت فرائص شوكنج وجوهان ، لأنها كانتا يعرفان هذا
السجن الهائل ، الذي اخترعه الانكليز لتأديب السارقين ، لأنهم
يلقون فيه من العذاب ما يبدل على ان الذين اخترعوه لا أثر في
قلوبهم للرحمة .

ولما تأكد رئيس الجنود ان كرافن لا يد له في هذه السرقة ، أذن له
بالانصراف .

فانصرف باكياً بكاء الأطفال وهو يقول : ترى أيمقي العبوس هذا الطفل المنكود في ذلك السجن الهائل المخيف ؟

- ٣٦ -

ولنعد الآن الى منزل توماس الجن ، فانه عندما دوى المدفع وسمع الجيران دويه ، فخافوا وحسبوا ان أنابيب الغاز قد انفجرت ، ولم يحسر أحد على الخروج ، بل فتحو النوافذ وجعلوا ينظرون بعضهم الى بعض ويتساءلون .

ثم خرج بعضهم بعد ربع ساعة فكان قدوة لسواه واجتمع عند باب الحديقة كثيرون ولم يحسر أحد على الدخول . وبعد هنيهة أقبل البوليس وأخذ مصباحاً ودخل ، فتبعه الناس . وهناك رأوا ذلك المرابي طريحاً على الأرض يستغيث لفرط ما نزع من دماائه ، لأن خنجر ويلتون قد أصاب ضلوعه فأسال دمه غزيراً .

اما الجرح فلم يكن خطراً ، فنادوا على الفور طبيباً مجاوراً وحملوا توماس الى سريره ورأوا عند باب الغرفة ذلك الفتى المنكود مضرجاً بدماائه فحملوه الى غرفة توماس .

فصاح توماس قائلاً حين رآه : هوذا واحد من أولئك اللصوص الذين حاولوا سرقي .

غير ان الحضور تلقوا كلامه بالشك لما رأوه من حداثة عمر الولد وجماله النادر وهيئته التي تدل على السلام ، فنظر الطبيب جرح الولد ايضاً ورأى ان الرصاصة أصابت الجلد فقط

وكان الفتى عندئذ مغميضاً عليه ، فرد الطبيب صوابه اليه بما شمه

من المنعشات . ولما فتح عينيه أجال بين الحضور نظراً حائراً مضطرباً ،
وأخذ يبكي
وصرح به توماس يقول : يا ربيب اللصوص ... قل من الذين
كانوا معك .

فدعر الولد وتماذى في بكائه دون ان يجيب .
ولما رأى توماس انه لا يجيب ، وان الناس لا يمتقدون ان الولد شريك
للصوص ، أراهم النافذة الصغيرة في الباب ، وباح لهم بسر المدفع والبنديقية ،
وأراهم الحبل المقطوع .
وأثبت لهم ان الفتى مد يده من النافذة وقصه ، وان يد الرجل لا يمكن
ان تدخل منها لضيقتها .

أما رالف فقد هاله ما سمعه ، واعترف بما يعرفه ، وذكر اسم
ويلتون وسوزان .
ولما سمع البوليس اسم ويلتون عرفه ففرق الجميع واخذ رالف وهو يقاسي
من خوفه ما يكابده من جرحه وسار به الى مركز البوليس .
فمعجب مأمور المركز لأمره ، وسألهم عن هذا الولد ، فأخبروه بما
حدث له

فركع رالف أمامه وأقسم له انه غير لص .
أما المأمور فلم يحفل بكلامه وامر الكاتب ان يكتب ما يقول ، واخذ
يستنطقه . فأخبره رالف بامه وكيف أضعاعها ، وعن تلك المرأة التي
سجنته في منزلها وكانت تضربه ، وكيف ان الارلندية وجدته ، إلى آخر
ما علمه القراء .

وكان يتكلم بلهجة مؤثرة ، ولما أتم حديثه نظر المأمور في ساعته وقال
للكاتب : اتم التقرير لأن الساعة قد بلغت العاشرة الآن ، وغداً يوم الأحد
وهو يوم راحة .

ثم أمر السجنان ان يذهب به الى السجن ، وان يعود به اليه يوم الاثنين .

فجعل رالف يبكي ويتوسل الى المأمور ان يطلق سراحه ويبحث عن امه ، غير انه لم يكثر له لاعتقاده انه لص ذكي تدرب على المهنة منذ حداثة وان الحكاية التي رواها ملفقة .

وكان طبيب البوليس واقفاً فقال للمأمور : ان هذا الفتى جريح ويحتاج الى عناية .

فأجابته بجفاء : لا بأس عليه سيدشفى في الحبس .

ثم اخذ تقريراً كان أمامه عن رجل قتل امس ورأى فيه انهم يتهمون بقتله لصاً يدعى ويلتون ، وإذا كان قد سمع من رالف اسم ويلتون ، أمر فريقاً ليقبضوا عليه .

وقد عرف القراء كيف انهم كبسوا منزله وكيف فر منهم .

أما رالف فإن السجنان دفعه بعنف الى سجنه المؤقت ، وهو يبكي وينتحب ، فرماه على فراش من القش لينام عليه ، والدم لا يزال يسيل من جرحه .

- ٣٧ -

لم تكبد تدق الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ، حتى غصت كنيسة سانت جيل بالمصلين ومعظمهم بالملابس الرثة ، بل ان كثيرين منهم كانوا حفاة الأقدام مما يدل على شدة فقر الارلنديين

وكانوا خليطاً عظيماً من النساء والأولاد والرجال والشيوخ .

وإنما كانوا كثيرين في ذاك اليوم ، لما أشيع بينهم من ان كاهنهم صموئيل

قد زج في الحبس . وكانت علائم الحزن والقلق بادية في وجوههم ، وكلهم ينتظرون بفارغ الصبر ، ان يفتح باب الهيكل ، ليروا من الذي يخدم القداس .

ثم بدأت الصلاة والقلوب واجفة مضطربة ، وفتح باب الهيكل فصاح جميع الحضور صيحة فرح بصوت واحد لأنهم رأوا الأب صموئيل واقفاً بالباب .

وبدأ الأب صموئيل بالصلاة حتى إذا فرغ من تلاوة الانجيل وقف بباب الهيكل وقال يخاطب الناس :

أيها الأخوة .

في مثل هذه الساعة من يوم ٢٦ أكتوبر ، اي منذ أربعة أيام ، وكان موعد الاحتفال بقداس خاص ، وكنا ننتظر قدوم أربعة من بلاد بعيدة لا يعرف بعضهم بعضاً ولكنهم مجموعون متعارفون في حب ايرلندا وطننا العزيز وكان الاتفاق ان اكون انا واسطة التعارف بينهم .

وقد اتفق ما حال دون حضوري في ذلك اليوم ، فلا أعلم اذا كانوا قد حضروا فيه ثم لا أعلم إذا كان قد حضر أحد منهم اليوم فاذا كانوا قد جاءوا فليدخلوا إلى الهيكل بعد انتهاء القداس .

وبعد ان فرغ من خطبته أتم حفلة القداس .

وكان عند باب الهيكل امرأة راكعة تصلي ، وتذرف الدمع السخين ، وهي الارلندية والددة رالف ، الذي تركناه جريحاً ملقياً في الحبس على فرشاة من القش . وكان بالقرب منها رجل ينظر اليها نظرات الإشفاق وهو الرجل العبوس .

ولما انتهت الصلاة وتفرق الناس ، أخذ العبوس بيد الارلندية ودخل بها الى الهيكل ووقف أمام صموئيل .

ثم دخل في أثرهما رجلان واقتربا من الأب صموئيل ، وأظهرا له إشارات

سرية عرفها وأجسامها بمثلها ، ثم التفت الى العبوس وقال له : لم يحضر من الأربعة غير إثنين .

فأجابه الرجل العبوس قائلاً : إني سأعثر عليها ، إذ لا بد ان يكونا في لندرا .

فاطمأن الأب صموئيل لحديثه وقال للثنتين : من اين أتيتما ؟

فقال أحدهما : من ايكوسيا .

وقال الآخر : من بلاد الغال .

فقال للايكوسي : كم رجل عندك ؟

— عشرون ألفاً .

وسأل الآخر هذا السؤال ، فرد : ثلاثون ألفاً .

فأطرق الرجل العبوس برأسه وقال : إن هذا العدد لا يكفي ، ولم يحن وقت العمل .

فقال الايكوسي : ولكنه لا يسد ان يحين ، فأين هو الفتى الذي نلتنظره ؟

فوضع الأب صموئيل يده فوق كتف الارلندية وقال : هذه أمه

فاصفر وجه الايكوسي وقال : إني أراها تبكي ، فهل أصيب الفتى بكروه ؟

فرد صموئيل : نعم انه في قبضة أعدائنا .

فنظر العبوس نظرات متقدمة ، تكهرب الأجسام ، وقال : سأنقذه من أيديهم .

فارتعش الرجلان لنظراته وقالاه : من أنت ؟

— إني مثلكما وأحد زعماء هذه المهمة النبيلة التي نخدمها .

فقال أحدهما : ما اسمك ؟

— لا اسم لي .

فبهت الرجلان لهذا الجواب الغريب ، وأخذ كل منهما ينظر الى الآخر ، فقالا لهما العبوس : إني أنوب عن شخص مات شهيداً ايرلندا وقد تلقيت أوامره الأخيرة قليل موته وكنت واقفاً تحت مشنقته .

فقالا : وهذا الشخص ماذا يدعى ؟

— فالتن .

فانحنى الرجلان احتراماً .

وعندها التفت العبوس الى الأب صموئيل وقال له : إنك أصبت بصلاتك اليوم صلاة الأموات عن نفوس الذين سيموتون إذ لا بد ان يسفك دم كثير قبل ان نزرع الغلام من أيدي المضطهدين الآثمين ؟

فارتعش الرجلان لكلامه ، ورفعت الالرندي عينيها الى السماء ، وهما مغرورقتان بالدموع ، وقال له صموئيل : سيكون شهداء ايرلندا كثيرين ، وستسيل دماؤهم الزكية فتروي الأرض ، وإني أزودك ببركات الله وأرجو ان يحملك ويقيك .

وعندها تركهم العبوس وخرج من الكنيسة فلقى عند بابها شوكنج ينتظره لأنه قد عرف منه حوادث أمس .

ولم يكن شوكنج كاثوليكياً ايرلندياً فوقف عند باب الكنيسة ولم يشترك في الصلاة لأنه من شيعة البروتستانت .

وكان منذ اسبوع لا يكثرث لأمر ايرلندا ، ولا تهمة شؤون الالرنديين . فبات الآن كواحد منهم بعد أن عرف الالرندي والأب صموئيل ، وبحث عن الغلام ، ولا سيما بعد ان تعلق بخدمة هذا الشخص السري الذي يتنكر باسم الرجل العبوس .

ولما لقى العبوس قال له : أفعلت كما قلت لك ؟

— نعم ، إن ويلتون قد قبض عليه ، وذلك انه صعد الى السطح كما أخبرتك أمس ولكنه لم يحسر على النزول منه ، لأن البيت كانت تطوقه

الجنود فاختبأ داخل أنبوبة المستوقد طول ليله .
وعند الصباح كانت الجنود لا تزال في الطريق ، ولكنه رأى نافذة
قد فتحت أمام المستوقد ، وبرز منها لص يدعى جاك ، ويلقبه إخوانه
بالعصفور الأزرق ، فقال لويلتون : اسرع بالخروج ، لقد عثرت على طريقة
لإنقاذك .

فامتل وويلتون وخرج من غبأه .

وفيا هو ينزل درجات السلم أطبقت عليه الجنود ، وكانوا يختبئين في منزل
فطوقوه وأسروه .

– يظهر ان جاك قد خانته .

– هو ذاك والسبب في هذه الخيانة ان جمعية اللصوص عقدت جلسة حين
كان وويلتون مختبئاً فوق السطح فحكمت عليه .

– لماذا ولأي ذنب اقترفه ؟

– إنه سرق أخيراً منزلاً مع بعض زملائه ، فأخذ فوق نصيبه من القيمة
اختلاساً ، أي انه سرق إخوانه . ولهذا قررت الجمعية تسليمه بدلاً من
إنقاذه . وهذا سبب ما كان من خيانة العصفور الأزرق ، فانه خدعه
بأمر الجمعية .

– ألم يدافع وويلتون عن نفسه حين طوقه الجنود ؟

– نعم ، فإنه دافع دفاع اليأس ، ولم يقبضوا عليه إلا بعد ان جرح
اثنين منهم جراحاً خطيرة ، ولذلك ساروا به توأ الى سجن نيوجات وسيدشنق
بعد اسبوعين

– وماذا حدث لعشيقة سوزان ؟

– إنهم لم يستطيعوا نقلها من غرفتها لفرط ما نزل من دماثها ، وقد
قرر الطبيب انها لا تشفى قبل شهر ، فوضع البوليس حارساً على باب منزلها
إلى ان تشفى .

— ومتى شفيت يذهبون بها إلى السجن ؟

— دون ريب إذا أراد اللصوص .

— كيف ذلك ؟

— هذا ما أخبرني به كرافان ، فإن جمعية اللصوص التي حكمت على ويلتون ستجتمع أيضاً وتنتظر في أمر سوزان . وهم مختلفون بشأنها والأكثرية ترى انها غير مذنبه وإذا أجمعوا على تبرئتها أنقذوها .
— أينقذوها رغم البوليس ؟

— بل بلء إرادته ، لأن البوليس في هذا الشارع لا يفعل إلا ما يريد
اللصوص .

فابتسم العبوس وظهر من هيئته كأنه يذكر أمورا بعيدة ثم التفت إلى شوكنج وقال له : أين جوهان كولدن ؟
— إني لم أره ، ولكنه يجب ان يكون قرب مركز بوليس كليبرت
يراقب الفتى .

فافتكر العبوس هنيهة ثم قال له : إصغ إلي الآن ، فإنك قد لا تراني
عدة أيام فلا تقلق علي ، وانتظر هنا الى ان يخرج الأب صموئيل والارلندية
فإنها اطمأنت الآن ، لأننا لم نخبرها بما حدث لولدها ، ووعدها بارجاعه
وهي واثقة بنا .

فقال له شوكنج : أترى تصدق هذه الوعود ، وينجو هذا الغلام
المنكود ؟

فهز العبوس كتفيه وقال : إنك لا تزال ساذج للقلب ، وكيف لا ينجو ؟
أتريد ان ندعه في ذاك الحبس الخفيف ؟

— وكيف تمنع البوليس ان يدخله اليه ؟

فابتسم العبوس ولم يجب . وقال له شوكنج : لدي رأي ، أرجو أن
يكون مصيباً .

- ما هو هذا الرأي ؟
- هو ان نحيط مركز البوليس بخمسين رجلاً من الأشداء فاذا خرجت الجنود برالف الى الحبس أطبقنا عليهم وأخذناه بالهجوم .
- إن رأيك في غاية السداد . ولكنه فائق انه يوجد قرب مركز البوليس ثكنة غاصة بالجنود ، إذا نفخ بالبوق أتوا زرافات ، ومزقونا برصاص بنادقهم كل ممزق .
- أصبت فلم تخطر لي هذه النكبة ، اما إذا دخل الفتى الى حبس الطاحون فكيف تخرجه منه ؟
- ذاك موكول لي ، وسوف ترى . فابق هنا الى أن يخرج الأب ، صموئيل والارلندية ، واحرص عليها كل الحرص ، فقد وكلت حراستها اليك .
- ثم تركه وسار الى الشارع الكبير ، وركب مركبة وأمر سائقها أن يسير به الى شارع بال مال ، وهو شارع عظيم لا يقيم فيه غير النبلاء .
- فسارت المركبة وجعل العبوس يقول في نفسه : لقد مضى عهد طويل دون ان أعود الى المنزل فماذا عسى ان تقول عني صاحبتة ؟
- ولما وصلت المركبة الى ذلك الشارع ، أوقفها عند باب منزل فخيم وخرج ودفع اجرة السائق ، وأخذ مفتاحاً من جيبه ففتح الباب ودخل . فكان السائق ينظر معجباً الى ملابسه الرثة ويقول : ماذا يصنع هذا الفقير في منازل اللوردية ؟

- ٣٨ -

وبعد ساعة خرج الرجل العبوس من هذا المنزل ، وهو لابس خير الملابس وقد امتطى جواداً من أفضل الجياد ، وخرج وراءه خادماً على جواد آخر .

وكان في قرب ذلك المنزل بائع كتب رأى الرجل العبوس حين دخل بملابسه الرثة . فأنكر دخوله وظن فيه الظنون . ثم رآه خرج وهو على أفخر ما يكون من الهندام والتألق فحار في أمره وراح ينظر إليه مندهلاً حتى ابتعد عنه ولم يعد يراه .

أما العبوس فانه سار يتبعه خادمه فقطع شارع بال مال إلى جس ستريت ثم إلى بيكاديلي وذهب منها إلى هايدبارك .

وكانت الساعة العاشرة صباحاً وقد كثرت المنزهون من رجال ونساء . ومعظمهم يمتطون الجياد .

فما سار هنيهة في أروقة ذلك البستان الكبير حتى رأى فتاة مقبلة على فرسها ورائه فالتقى النظران واتقدا اتقاد السلاح المصقول أصابته أشعة الشمس ، فصرخت الفتاة منزعرة : هذا هو .

وقال العبوس : هذه هي مس الن .

وكانت مس الن ، ابنة اللورد بالمير ، تسير يتبعها خادماً عجوز . ولما رأت ان الرجل العبوس قد تجاسر وحياتها غضبت غضباً عظيماً والتفتت إلى خادمها وأشارت إليه أن يوافيها فلما دنا منها وقالت له : أرايت هذا الشخص الذي حياني ؟

— نعم .

— أريد ان تتبعه الليل والنهار وتلازمه ملازمة ظله ولا تعود إلي إلا بعد ان تعرف اسمه واين يقيم .

فأنحنى الخادم ممتثلاً وسار في أثر العبوس .
أما هو فلما رآها تكلم خادمها أدرك قصدها فقال في نفسه . إن خادمك
لن يقضي المهمة التي انتدبته إليها .

ثم فك أزرار ثوبه وأخرج من جيبه دفتر ، فأنزع منه ورقة وكتب عليها
ما يأتي :

« يظهر يا مس ألان انك تريد ان تعرفني من أنا إطمئني فسأتشرف بأخبارك
عما ترغبين الوقوف عليه بنفسي في الليلة القادمة عند نصف الليل . »

« خادمك المطيع »

(المجهول)

ولما فرغ من الكتابة طوى الورقة وفادى خادمه فقال له : اسرع بادراك
تلك الفتاة وأعطها هذه الورقة .

فأخذها الخادم وقال له : ابن القناك يا سيدي بعدها ؟

— لست محتاجاً اليك فاذهب بعد إعطائها الرسالة الى المنزل .

ثم افترق الاثنان وذهب الخادم الى الفتاة وسار العبوس يتنزه وخادم مس
ألان يتبعه كيفما سار .

وظل العبوس يسير من مكان إلى مكان وهو يهزأ بالخادم الذي يتبعه ، حتى
انتهى إلى غدير يفصل بين طريقين حرم البوليس على الفرسان قطعه . ولكن
العبوس لم يحفل بهذا المنع ، فبحث عن أضييق مكان في الغدير ، ولكز
بطن فرسه فوثب به من ضفة إلى ضفة وجرى في الطريق الآخر
يسابق الرياح .

وكان الخادم المعجوز يبعد عنه عدة أمتار فأسرع في أثره وأراد الاقتداء
به فجمع جواده وأبى الوثوب ، فكان بين الفرس والفارس نزاع قوي أسفر
عن انتصار الفارس ، فوثب الجواد كما أراد راكمه . ولكنه لم يتمكن من
اجتياز الغدير فبلغت يده الضفة ، ولكن رجله سقطتا في المياه ، فانقلب

الخدام الى الأرض . وأسرع اليه البوليس كي يغمره بالجزاء المفروض على الذي يمتياز النهر . فلم يكفد ينتهي الخادم من نقاشه مع البوليس ، حتى رأى ان العبوس قد احتجب عن الأنظار . فماد الى مولاته بالخبية والحذلان .

اما الرجل العبوس فإنه واصل سيره آمناً ، وهو يقول في نفسه : لأذهب الآن الى مركز البوليس كيلبرن علي اعثر على طريقة لانقاذ الفتى قبل إرساله الى الحبس .



ان مراكز البوليس في لندن تشبه مراكزه في مصر ، غير ان الفرق بينهما انه يبقى في كل مركز قاض دائم يحق التبرئة والحكم وإطلاق المسجونين . وكان رئيس هذا المركز قاضياً شريف الأخلاق حاد الطباع ، لكنه كان عاقلاً خبيراً شديد الوطأة على اللصوص حتى انه كاد يقطع دابرهم .

وكان له ابنة يحبها حباً عظيماً ، لا يلين فؤاده القاسي غير صوتها الحنون . وقد كان ذلك اليوم يوم احد وهو يوم يرتاح فيه القضاة فلا يشتغلون ، فكان هذا القاضي يراجع في منزله بعض المذكرات وبيته فوق مركز البوليس .

وفيما هو منهمك في تلاوتها فتح باب غرفته ودخلت منه ابنته فانقطع عن القراءة وابتم لها قائلاً : ماذا تريد يا ابنتي ؟

— اني أراك منهمكاً في الأشغال اتشتغل يوم الأحد ؟

— ذلك لا بد منه اذ يجب علي ان اضع تقريراً لحادثة الأمس .

— وانا قد اتيت ايضاً لأحادثك في هذا الشأن ، وأتمنى ان لا

تؤنبني يا ابني ؟

فقال لها بلهجة حنو : متى كنت أؤنبك يا ابنتي قولي ما تشائين . ثم شدها
نحوه وقبلها يخبينها .

— ان طبيب المركز قد جاء الان .

— ماذا يريد العله أتى من أجل هذا الولد الجريح ؟

— نعم يا أبي فقد أتى يسألني ضماداً لجرح الولد المنكود ، أعطيته وساعدته
على ضمد جراحه ولكفي واثقة يا أبي من براءة هذا الصغير .

— أظنن أنه بريء ؟

— بل أوكد وقد قص علينا حكايته وهي تؤثر بالجماد .

فهمز القاضي كتفيه دون أن يحجبها وانصرف عن محادثتها الى النظر في تقرير
كان أمامه فما أتم تلاوته حتى أرتمش وقال : ما هذا ؟

فلم تجسر الفتاة على محادثة أبيها بشأن الولد بعد ما رأت اضطرابه ولكنه
هو افتتح الحديث بشأنه ، فقال لها : تقولين ان الولد قص عليك حكايته
ماذا قال لك ؟

— يقول انه أتى الى لندرا منذ أربعة ايام فقط مع امه وانه ارلندي وأمه
تدعى حنة وان امرأتين فصلته عن امه وحبسته في بيت له حديقه فهرب من
هذا البيت راجياً أن يلقي امه وصار يركض في شوارع لندرا وهو لا يعلم أين
يسير حتى عثرت به امرأة تدعى سوزان فسارت به الى دارها ووعدته ان
تجتمعه بأمه في الغد .

فضرب القاضي يده على المذكرة التي قرأها وقال : ما هذا الاتفاق الغريب
أنظري هذه المذكرة فقد أرسلها لي الآن معاون بوليس مالبورج وأظنها خاصة
بهذا الولد فاقريها ..

تناولت الفتاة المذكرة وقرأت ما يأتي :

« في صباح اليوم أتى الى مركزنا اللورد بالمير ، أحد أعضاء المجلس الأعلى ،
وقال لنا أن ولدأ ارلندياً يدعى رالف وعمره عشرة أعوام سرقته امرأتان

وأخذناه الى بيت في همستاد ، فغافل الولد المرأتين وهرب من البيت ، ولا بد أن يكون ناه في شوارع لندرا ، وأن البوليس حاجر عليه كما يحجر على المتشردين .

وان اللورد بالمير يهتم بهذا الولد كل الاهتمام وبطلب أن يرد اليه على عهده ثم انه وضع جائزة قدرها الف جنيهه يمنحها لمن يرد اليه الولد .

فرحت الفتاة فرحاً عظيماً وقالت : لا شك ان الولد هو الذي يطلبه ، وانك سترده اليه أليس كذلك يا أبي ؟

— ان الأمر مستحيل لأن الولد قد اشترك بسرقة ويجب على اللورد بالمير ان يحضر غداً بنفسه ويطلبه مني .

— لا بأس فسيطلق سراحه في كل حال وهذا ما أتمناه ، ولكن الا يجب أن نخبر اللورد بأمره ؟

— لقد أصبت يا ابنتي وسأذهب بنفسني واخبره .

ثم قام فلبس قبعته وقال : اني ذاهب إلى منزل اللورد ، وقد أغيب ساعة ، فاذا حدث أمر بغيابي فأدعي سكرتيري المستر توب ، ولكن أكتبني المذكرات بيدك فاني لم اجد اجهل من هذا السكرتير على طول عهده بالخدمة .

ثم خرج وهو يقول في نفسه ، ما أجل هذا الاتفاق فسأقبض الجائزة وهي تبلغ قيمة راتبني عن عشرة اعوام فأجعلها مهراً لأبنتي ؟

وعادت الفتاة الى غرفتها ، ولم يطل جلوسها حتى سمعت وقع حوافر جواد في الشارع ، فأطلت من الشباك فرأت فارساً جميلاً نزل عن حصانه عند باب المركز فاعطاه لأحد الغلمان ودخل الى المركز ، وكان هذا الفارس الرجل العبوس .

- ٣٩ -

ولنذكر الآن من أين جاء الرجل العبوس قبل ان ندخل بأذهان القراء معه إلى مركز البوليس فإنه حين تخلص من مراقبة خدام مس الن ذهب توأ إلى منزل توماس الجن ذلك المراي الجريح فوجد الناس مزدحمين عند باب الحديقة يتحدثون بحادثة الأمس وكل منهم يرويها رواية مختلفة .

وكان جميع سكان ذلك الشارع يعرفون ذلك المراي المحتال فما وجد بينهم من أشفق لنكبتة بل كان بعضهم يأسفون لعدم فوز اللصوص .

وقد حاول بعض الجيران ان يعودوه ، ليس إشفافاً عليه بل من قبيل الفضول ، غير ان المراي اتى بمرضة في الليلة وامرها أن لا تأذن لأحد بالدخول اليه .

فلما وصل الرجل العبوس ورأى الناس جمال فرسه وملابسه ، ما شككوا انه من كبار النبلاء ، ثم رأوه قد اختلط بفريق منهم وسألهم عن سبب تجمعهم فحكوا له ما حدث لتوماس وكيف أنهم سمعوا دوي المدفع ، فأظهر عجباً شديداً وقال لهم : اني من أهل الشذوذ والفضول وقد تعودت أن أقيس في دفترتي جميع الجرائم الكبرى التي تحدث في لندرا ولا يسدي من أن أرى هذا الرجل .

وان أهل الشذوذ كثيرون في بلاد الانكليز بين نبلائهم ، حتى ان الشذوذ يكاد يكون خاصة بهم ، لذلك تلقى الجمهور كلامه بالارتياح ، فأخذ العبوس دفترأ من حقيبته وأخذ يكتب فيه اجوبة الأسئلة التي كان يلقيها على الحضور حتى إذا فرغ من الأسئلة قال اني أريد أن أرى هذا المراي .

فقال له أحدهم : لا سبيل يا سيدي اللورد إلى رؤيته فإنه لا يؤذن لأحد بالدخول ..

- لكنه يأذن لي .

ثم ترجل عن فرسه ودفعه لأحد الحاضرين وتقدم من باب المنزل وقرعه .
وبعد حين أتت الخادمة فقال لها : قولي لسيدك أن لورداً نبيلاً يريد أن
يرى منزلك ويدفع مقابل ذلك عشرة جنيهات .

ودهمشت الخادمة لهذا الكرم وعادت الى توماس لتخبره .
والعادة عند الانكليز انهم يتراهنون على كل ما يحتمل الرهان ويفتنون كل
فرصة لفرط ولوعهم بالمراهنة ، فلما رأوا الخادمة عادت إلى سيدها لتستأذن
الرجل بالدخول حمي وطيس المراهنة بين القائلين بقبول توماس بادخاله
والقائلين برفضه ووقفوا ينتظرون عودة الخادمة
ثم عادت الخادمة فتطاولت اليها الأعناق وسمعوها تقول له : تفضل
يا سيدي .

فاسودة وجوه وابيضت أخرى ودخل الرجل العبوس الى المنزل ورأى
المرايبي مضطجعا في سريره .
وعند ذاك طلب اليه أن يريه المدفع وأراه اياه وأخبره بطريقة وضعه ثم
أخبره بكل ما حدث في تلك الليلة حتى إذا وصل بحكايته إلى الغلام الارلندي
سأله العبوس : أين هو الغلام ؟

- في السجن .
- في أي سجن ؟
- في سجن مركز كلبورن .
- إذن أريد أن أراه وإني ادفع لذلك عشرة جنيهات أيضاً .
- فطمع المرايبي بالمال وقال : ان للقاضي صديق لي فهو لا يرفض طلبي إذا
طلبت منه أن يأذن لك بمشاهدة الغلام .

-- إذاً اكتب لي كتاب توصية فاني أدعى اللورد كورنهييل .
فكتب المرايبي ذلك الكتاب إلى القاضي ثم قبض المال من العبوس وهو
يتنهد بشراً .

أما العبوس فإنه أخذ الكتاب وودع المرايا وخرج ، فلما وصل إلى باب الحديقة ، رأى الخادمة تجادل شخصاً يريد الدخول لمقابلة توماس وهي تأبى لإدخاله قائلة إنه مريض لا يستطيع مقابلة أحد ، ولما رأى أنه لا حيلة معها قال لها : قولي لسيدك اني غريب قادم من اميركا .

ولما سمع الرجل العبوس وارتعش ثم أهدق به وقال : اتكلم الفرنسية يا سيدي ؟

فرد الأميركي بملك اللغة

وفي خلال ذلك أشار العبوس بسرعة تلك الاشارات السرية الخاصة بزعماء الارلنديين فاندهل الأميركي ورد بمثل إشارته فقال العبوس بالفرنسية : إذا أنت هو الشخص الذي ننتظر قدومه من اميركا فهلم بنا إذ لم يبق لك حاجة بالدخول إلى هذا المرايا المحتمل فقد أنقذتك يد الاتفاق من شركه .

- ٤٠ -

وسار الاثنان إلى مركز البوليس فلما وصلا اليه وقف الأميركي بعيداً وترجل العبوس عن فرسه ودنا من الباب وطرقه .

وكانت ابنة القاضي قد رآته من النافذة وأعجبت به كما تقدم فلم تنادي السكرتير بل قامت بنفسها وفتحت الباب فحيها العبوس أحسن تحية وقال لها اني اخشى يا سيدي أن أكون مخطئاً إذ لا يمكن أن تكون فتاة لها ما لك من الجمال وهي تفتح أبواب السجون .

فسرت الفتاة لهذا الثناء ورأت عليه ظواهر النبلاء فقالت : إلى اين أنت ذاهب يا سيدي الميورد ؟

- إلى مركز بوليس كليبرن

لقد وصلت فهذا هو المركز وما أنت بمخطيء .

— اني أريد أن أرى القاضي ؟

— هو ابي .

— لا شك يا سيدتي ان أبك كثير المعجب والافتخار بهذا الجمال الباهر .

فاحمر وجه الفتاة وأطرقت بنظرها إلى الأرض فقال لها : لدي كتاب يا سيدتي لأبيك من المستر توماس الجن .

— أهو ذلك المرابي الذي كادوا يقتلونه ليلة امس ؟

— هو بعينه فاسمحي لي يا سيدتي أن أخبرك من أنا فاني أدعى اللورد كورنيل وأنا مولع منذ أعوام بجميع تواريخ الجرائم وتفصيلها فبات لدي منها مجموعة نفيسة .

— ولكن ابي غائب الآن .

فظهرت على العبوس علائم الاستياء غير ان الفتاة استدركت فقالت : إنه يحق لي يا سيدتي أن أفتح رسائل أبي ، لقد خولني هذا الحق .

— إذا خذي واقرئي يا سيدتي .

وأعطاهما كتاب التوصية ففضته وقرأت ما فيه ثم قالت : إذا يجب أن أدعو مستر توبي .

— من هو ؟

— إنه سكرتير أبي فانه يقرأ التوراة في غرفته .

ثم وقفت في باب غرفتها ونادت السكرتير فرد عليها .

وعادت إلى العبوس وقالت : إنك لو رأيت يا سيدتي الميورد هذا الغلام المنكود لأشفقت عليه كل الشفقة فإنه يشبه الملائكة وقد أخطأ المستر توماس باتهامه لأنه بريء دون شك كما اتضح لي من حكايته .

— العله قص عليك أمره ؟

— نعم يا سيدتي وقصته محزنة .

- حبذا يا سيدتي لو حكيتها لي فأكتبها في دفترتي .
- حباً وكرامة .
- ثم قصت عليه كل ما علمته من امر الغلام حتى إذا أتمت حكايتها قالت :
لكفي أظن أنهم سينقذونه غداً .
- من الذي ينقذه ؟
- شخص نبيل من اللوردية طلبه من المركز .
- فارتعش العبوس وقال : اتعرفين اسم هذا اللورد ؟
- نعم فإنه يدعى اللورد بالمير ثم حكيت له كل ما علمته من أبيها عن
ذاك اللورد ، وعندها أقبل سكرتير أبيها فقالت له : اليس مفتاح السجن
معك يا مستر توبي ؟
- دون شك .
- إذاً أعرفك باللود كورنهيل فإنه واسع الثروة شديد الولع يجمع أخبار
الجرائم ، وهو يريد ان يرى الغلام الارلننذي السجين .
- إن ذلك محال يا سيدتي ..
- لماذا ؟
- لأن المستر بوث ...
- ألا تعلم أن المستر بوث هو أبي ؟
- لا أنكر ذلك ..
- ألا تعلم أنه يستحسن كل ما أفعله ؟
- لا انكر أيضاً يا سيدتي ما تقولين ، ولكنه .
- حسناً ، ماذا ؟
- واضطرب السكرتير قائلاً : لكفي أخشى أن يكون حضرة الميبلورد يريد
إنقاذ الغلام .
- وضحك الرجل العبوس واستاءت الفتاة من السكرتير وقالت للعبوس :

أرجوك يا سيدي أن تعذره فما اخطأ أبي بتلقيه بالأبله .
وتألم السكرتير من كلامها وكانت يهاها وهي تهزأ به فقال لها : أنت يا
سيدي صاحبة الأمر فمريني أطع ولو دعت هذه الطاعة إلى طردي .
- إذاً لا أحملك هذه التبعة فهات المفتاح
وتنهذ السكرتير وأعطاه مفتاح السجن فأخذته منه وقالت للرجل
المبوس : تفضل يا حضرة الميلورد فاني أفتح لك السجن
- وهل أرى الغلام ؟
- دون شك فإنه سجين فيه .
ثم مشى أمامه فأخرج الرجل المبوس ورقة مالية من جيبه وأعطاهما
للسكرتير وذهب في اثر ابنة القاضي ..

- ٤١ -

ووصلا إلى الباب الأول وهو مصفح بالحديد ، ففتحت الفتاة وتقدمت
إلى الرجل المبوس ويدها مصباح فاستوقفها المبوس وكتب في دفتره مذكرة
عن الباب الحديدي .
وابتسمت الفتاة لما رآته من غريب أخلاقه ونزلت أمامه سلماً طويلاً يبلغ
ثلاثين درجة ، وهناك انتهت إلى باب حديدي آخر ، اشد كدافة من الأول ،
فتوجع المبوس للغلام المنكود وقال في نفسه : يا ويحهم انهم زجوه في أعماق
السجون كما يسجنون من يحكم عليه بالإعدام .
وفتحت الفتاة الباب ودخلت إلى دهليز طويل مظلم وتبعها وقلبه يخفق
اشفاقاً على هذا الغلام الصغير الذي قدر له أن يبديت جريحاً في الحبس ويؤخذ
بجريدة اللصوص .

وبعد ان مشيا في الرواق المظلم بضع خطوات سمع الفتاة تقول : لا تخف هذا انا .

ونظر العبوس ورأى الغلام المسكين منطرحاً على فراش من القش ونسي الدور الذي يمثلها واغرورت عيناه بالدموع .
اما رالف فانه لما سمع صوت الفتاة انس به ، لأنها هي التي ضمدت جراحه مع الطبيب .

فقال له : الا تزال تتألم ؟

— قليلاً يا سيدي ولكنني شديد الظمأ .

ثم نظر اليها نظرة الملمس وقال لها : إنك كريمة يا سيدي كما ظهر لي منك فلماذا لا تخرجيني من هذا الحبس المظلم وتدعيني ابحث عن امي ؟

وعندها دنا الرجل العبوس من الفتاة وسألها : اتسمحين لي يا سيدي ان اكلم هذا الفتى بلغة بلاده ؟

فابتسمت الفتاة وقالت : اليس لغة الارلنديين والانكايز واحدة ؟

— هو ذاك ، ولكن للارلنديين لغات خاصة تتكلم بها عامتهم فهل تأذنين لي ان اكلمه بها .

— افعل ..

ولم يكذب العبوس يفوه بالكلمة الأولى حتى صاح الغلام صيحة دهش واصغى إلى الحديث كل الاصغاء .

وقال له بتملك اللغة التي لا تفهمها الفتاة : أعلم يا بني إنني صديق لأملك التي تبحث عنك وتبكي لبعادك ، ولكنني سأردك اليها فاصغي الي الآن .

وكان رالف قد الف هذه الوعود حتى لم يعد يصدقها ، لكنه حين سمع الرجل يكلمه بلغة قومه وثق به .

وجعل الرجل العبوس يحدثه عن امه وجميع ما حدث له منذ قدومه إلى لنديرا والفتى مصغ اليه إلى ان اتم حديثه فقال : يجب عليك ان تكون

رجلاً وان تكثرت بالصعاب فانهم سيحاطونك غداً لأنك كنت شريك.
سوزان وويلتون .

وبكى الفتى وقال : اقسم لك بأني لم اكن عالماً بما كانوا يريدونه مني .
- اني واثق يا بني من براءتك ، لكن القضاة لا يصدقون ما تقول .
فقال رالف بلمهجة اليأس : رباه إذا ايقوني في الحبس ؟
- نعم وسينقلونك إلى حبس آخر ، وعند ذلك اخلصك من الحبس ، لذلك
يجب عليك ان تصبر إلى غدا ..
- وامي الا اراها ؟
- سترها غداً دون شك .
- اتعدني وعداً أكيداً يا سيدي ؟
- بل اقسم لك يا بني فاطمئن ..
وعند ذلك التفت إلى الفتاة وقال لها : لقد ازعجتك يا سيدتي بحديث
لم تفهميه .

- ولكن ماذا قلت له ؟
- اخبرته انه سيحضر لورد من النبلاء فينقذه من الحبس ويرده إلى امه .
وهنا عاد إلى محادثة رالف بلمهجة قومه فقال : إذا كنت تريد ان ترى امك
يا بني فاحرص ان تفوه بكلمة مما قلته لك للفتاة .
فابتسم الفتى ابتسام رحل وقال : لا تخف فلا ابوح بحرف .
ثم تمدد على فراش القش الذي خصص له وعند ذلك خرجت الفتاة من
الحبس وتبعها الرجل العبوس .
وبعد هنيهة كان العبوس يمتطي فرسه ويقول : هوذا المعركة قد نشبت بيني
وبين اللورد بالمير وابنته والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء .
ثم ذهب لمقابلة الأمير الذي كان ينتظره في منعطف الشارع .

- ٤٢ -

يوجد في لندرا كثير من عصابات اللصوص كل عصابة مستقلة عن سواها غير ان جميع تلك العصابات خاضعة للجمعية واحدة .

ولتلك الجمعية مكان سري تحت الأرض يجتمع فيه اعضاؤها عند الاقتضاء وهي مثل المحاكم المنظمة فيها قضاة ومحامون ومنفذون للاحكام الصادرة منها ولها قانون منظم لا يحيدون عن بنوده فاذا اتهم احد اللصوص بخيانة عرضت خيانتة على محكمة الجمعية فاذا صدر الحكم عليه بالاعدام خنقوه في منزله في ليلة حالكة الأديم والقوه مكتوف اليدين والرجلين في نهر التيمس او غير ذلك مما يختارونه من انواع القتل .

وقد كانت جلسة تلك الجمعية معقودة في تلك الليلة ، للحكم غيابياً على سوزان فان اسمها كان مسجلاً بدفتر اللصوص ، وكانت جريحة لا تستطيع الحضور .

فلما التمعت الجلسة قال الرئيس : هل تكامل عدد الأعضاء ؟

فعدم الحاجب وقال : نعم فانهم اثنا عشر .

— اين الشاكي ؟

فتقدم لص منهم وقال : انا هو ..

وكان ذلك اللص الذي يلقبونه بالمصفور الأزرق .

فقال الرئيس : واين المحامي ؟

فتقدم كرافان صديق ويلتون وسوزان وقال : انا ..

فالتفت الرئيس إلى الأول وقال : تكلم .

فأخذ العصفور الأزرق يثبت للقضاة ان سوزان كانت شريكة لويلتون ، وان ويلتون قد سرق مع عصابته أحد المنازل ، فخص نفسه اختلاصاً بالقسم الأكبر من القيمة . ولما كانت محكمة اللصوص قد حكمت على ويلتون بتسليمه إلى البوليس . ثم لما كانت سوزان شريكته بالجريمة ، فهو يلتمس من المحكمة إبقاء هذه المرأة بين أيدي الجنود الذين يخفونها وعدم السعي في إنقاذها .

ولما فرغ من كلامه أذن الرئيس للمحامي أن يتكلم ، فأثبت كرافان للقضاة أن سوزان لم تكن شريكة لويلتون في جرائمه ، بل كانت له خليصة صادقة خاضعة .

وبعد ان أيد بالبرهان ان ويلتون لم يكن يطلعها على أسرارها وإنما لم يكن لها علم بخديعة ويلتون لرفاقه ، طلب من المحكمة تبرئتها والسعي في إنقاذها من الجنود المحيطة بمنزلها .

وبعد ان سمع الرئيس أقوال الخصم والمحامي اختلى بالأعضاء فتداول معهم ملياً ثم أصدر حكمه ببراءة سوزان وبضرورة مساعدتها وإنقاذها . وفيما هم يتداولون في اختيار طريقة صالحة لإنقاذها سمعوا وقع أقدام على سلم المفارة التي كانوا يجتمعون فيها فذعروا لأنهم لم يكونوا بانتظار احد ووضع كل يده على خنجره .

ثم دخل هذا الزائر الجديد فهموا بالهجوم عليه ، غير ان العصفور الأزرق صاح بهم قائلاً . لا تفعلوا فهو منا .

فرد الزائر قائلاً : دون ريب .

ثم تقدم مبتسماً الى وسط الحلقة وكان هذا الزائر الرجل العبوس .

وكان العبوس مرتدياً تلك الملابس التي كان يلبسها حين ذهابه الى الخمارة السوداء ولم يكن يعرفه بين أولئك اللصوص المجتمعين غير العصفور الأزرق لأنه كان يراه في تلك الخمارة .

وكان اللصوص يحترمون العصفور الأزرق لاشتهاره بينهم ، فلم تؤثر عليه خسارة قضيته على سوزان ووثقوا بما قاله لهم عن العبوس . فحسب العبوس اليهم بقدوم ثابتة وأجال بينهم تلك النظرات الجاذبة . وكان اللصوص ينظرون إليه معجبين بإقدامه خاضعين لنظراته .

وإن اللصوص لنندرا لغة اصطلاحية كسائر اللصوص ، فتقدم العبوس من العصفور الأزرق وصافحه شاكرًا ثم التفت الى جمعية اللصوص وخاطب أعضائها بلغتهم الاصطلاحية فقال : إعلموا أيها الأصدقاء إني قد نهجت قديماً في مناهجكم وامتنت مهنتكم ، وإذا كنت اليوم قد اتخذت غير هذه المهنة ، فذاك لأنني لقيتها أفضل .

فحدث ضجيج بين اولئك اللصوص وظهرت عليهم ظواهر الاندهال إذ لا يعتقدون أنه يوجد مهنة تفضل مهنة اللصوصية .

وعاد العبوس الى الحديث وقال للرئيس : إنكم حاكمتم سوزان ، اليس كذلك ؟

- نعم . . .
- وحكمتم بضرورة إنقاذها ؟
- دون ريب .

فنظر اليه كرافان نظرة ارتياح وقال له : الملك تريد الاعتراض على هذا الحكم ؟

- معاذ الله إني أحب هذه المرأة وإنما أتيت اليكم من أجلها .
- ثم التفت الى الرئيس وقال : بأية طريقة تريدون إنقاذها ؟
- فرد الرئيس : بالطريقة التي الفناها لأن الجنود الذين يخفونها لا يزيدون عن ثمانية وسنجمع رجالنا ونطلب الى الجنود الافراج عنها حسب العادة فإمانتقذها بالرضى أو بالقوة .
- أهذه هي خطتكم في إنقاذها ؟

- نعم إنها أسهل خطوة .
- لكنكم مخطئون ولا تعلمون .

فصاح الجميع بصوت واحد قائلين : لماذا ؟
- إني أخبركم بالسبب ، وهو ان البوليس في هذه الأيام لا يهتم باللصوص لانصرافه الى الاهتمام بالارلنديين ، وأنتم تعلمون ان سوزان ارلندية وقد بلغ البوليس ان لها علائق بالجمعيات الارلندية السرية فمزمت الحكومة على تعيين أحد قضاة لندرا لاستنطاقها .

قال الرئيس : متى ؟
- غداً .

فقال المصفور الأزرق : ولكنها جريئة ، لا يتيسر نقلها الى مركز القاضي
- القاضي سيحضر بنفسه اليها .

فضحك اللصوص جميعهم وقالوا: إن هذا أعظم تشريف لنا لأنها أول مرة يحضر القضاة شوارعنا .

فقال العبوس : لقد علمت الآن فرط اهتمام الحكومة بسوزان ، لأنها ستُرسل القاضي اليها ولفرط خوفها من الارلنديين عينت مائتي رجل من البوليس السري يقيمون حول منزلها إلى ان يتم التحقيق في أمرها ، ولذلك يتعذر عليكم إنقاذها بالكراه لأن الجنود أكثر منكم عدداً وخير لكم ان تصبروا الى الغد .

فقاطعه كرافان قائلاً : أية فائدة من الغد ، لأنه سيكون مثل اليوم ؟

- كلا لأن سوزان لا تعلم شيئاً مما يصنعه الارلنديون . فبقى أستاذ القاضي التحقيق وحقق في أمرها يعلم أنها لا علاقة لها بالارلنديين ، وإنما فقط من اللصوص ، فيكتفي بالجنود الساهرة عليها ، وينصرف رجال البوليس السري الى شؤونهم .

فقال كرافان : إذا كان ما تقوله حقيقة إني موافق لرأيك .
- هي الحقيقة دون ريب .
فقال الرئيس : إذا أنت ارلندي !
- هو ما تقول فأنا أريد إنقاذها لأن أخاها من عصبتنا وأنتم تريدون
إنقاذها لأنها منكم .
ثم ارتد إلى العصفور الأزرق قائلاً : أتعرفني أنت ؟
- دون شك إني لم أنس قتالك مع البحار .
- ألك ثقة بي .
- إني أتبعك حق الحبس .
- إني لا أكلفك مثل هذا العناء ، بل اقتصر على ان ترشدني الى
منزل سوزان .
- اكن الجنود هناك لا يأذنون لك بالدخول .
فابتسم العبوس وقال : سوف ترى إني داخل الى حيث أشاء .
- إذا هلم بنا .
فحسب الرجل العبوس اللصوص وخرج مع العصفور الأزرق ، فلما
توسطوا الطريق قال له اللص : لا أعلم إذا كانت جمعيتكم أفضل من
جمعيتنا ، ولكنك إذا دخلت في زمرة اللصوص ، ضمنت لك أن تكون
الرئيس علينا .
فابتسم العبوس وقال : سوف نرى .
ثم سار الاثنان حق قدم من منزل سوزان فدله عليه فودعه العبوس قائلاً :
لم يعد لي حاجة اليك
ثم افترقا وذهب العبوس توأ إلى المنزل وكان على الباب أحد أفراد البوليس
فمنعه عن الدخول غير ان العبوس أشار له تلك الإشارات السرية الارلندية ،
فانحنى البوليس وأذن له بالدخول . فصعد سلم ذلك المنزل وهو يقول في نفسه :

مسكينة إنكلترا فهي تعتقد انها سيدة العالم ، ولا تدري أن عدوها بين جندها
وان الارلنديين في كل مكان .

- ٤٣ -

كانت ملابس العبوس الظاهرية تدل على الفقر لثالثتها ، فهي ثوب طويل
خلق ، ولكنه كان يستر تحت هذا الثوب الطويل ملابس أخرى . فلما بدأ
بصعود السلم خلع ثوبه الخلق وقلبه وحمله على ساعده ، فظهر من تحته
بملابس رسمية سوداء ، ثم أخرج من جيبه عصا صغيرة من العصي التي يحملها
ضباط البوليس .

وإن في لندرا عادة غير موجودة في غيرها من البلاد وهي ان أشرفها
يتطوعون في خدمة البوليس خدمة شرف .

فاذا اتفق حدوث خصام في شارع ، وقوي فيه المتخاصمون لكثرة
عدهم على البوليس برز من الناس المتجهمين واحد أو أكثر من النبلاء ،
فأخرجوا من جيوبهم تلك العصي القصيرة ، وأعانوا البوليس في القبض على
المتخاصمين .

وقد كان العبوس مقيماً في شارع بال مال ، أشهر شوارع لندرا . وكان
ظهر بمظهرين أحدهما مسري فيعاشر من عرفتهم ويثتاب المحلات التي تقدم لنا
وصفها والآخر ظاهري فكان يعاشر النبلاء ويتردد على أفخم الأندية ولذلك كان
أحد أولئك الضباط المتطوعين .

ولما وصل الى باب غرفة سوزان ، لقي جنديين واقفين فأراهما العصا
فانحنيا أمامه ودخل ، فأشار الى الجنود الذين كانوا داخل الغرفة فخرجوا

ولم يبق منهم أحد وهم يحسبونهم من كبار رجال البوليس وانه أتى للتحقيق بأمر الارلندية .

أما الرجل العجوس ، فإنه لما خلا بسوزان قال لها : إني آت من قبل أخيك .

فارتعشت قائلة : العلك تعرفه ؟

- بل هو صديقي .

فبان على سوزان ظواهر الريبة وحسبته يريد إغواءها ، فابتسم العجوس وقال لها : إني صديقه وسأثبت لك ما قلته .

ثم أخذ يكلمها بلغة أهل الشواطىء الارلندية عن زمن حدائتها وعيشها العائلي بما لا يعلمه غير أخيها .

وأزال من نفسها كل ريب ، وقالت : مر يا سيدي ، فقد باتت لي فيك ملء الثقة .

- إنك عشت يا سوزان عيشة دعارة وفساد ولكنك على غوايتك لم تنسي وطنك العزيز .

- إني أحب وطني وأفديه بدمي .

- وكذلك أخوك فإنه من أعضاء جمعيتنا السرية وأنا أحد رؤسائها ، وإنما زرتك الآن لأن ارلندا محتاجة اليك

- أحتاج إلي أنا ومن عسى ان أكون فتمحتاج إلي البلاد إني امرأة لهمة متهمة بجناية سيحكم علي بأشد عقاب ؟

- كلا انهم لا يحكمون عليك بشيء فقد اتفق الارلنديون على إنقاذك الست أخت جوهان ؟ إن جوهان ورفاقه سينقذونك على أن تخدمى ارلندا الخدمة التي تطلبها اليك .

- قل يا سيدي ماذا تريد ان أصنع ؟

- إنك ذهبت بغلام إلى الموضع الذي جرحت فيه

فغطت سوزان وجهها بيديها وقالت : مسكين هذا الفتى فقد يكون قضي عليه وذلك ذنب ويلتون لا ذنبى .

— إني أعرف ما تعرفينه وأزيدك ان الغلام لم يمت ولكنه مسجون وسيأتيك القاضي ويسألك عنه .

— إذا أقول الحقيقة إنه بريء ونحن خدعناه .

— وهذا ما أتيت لأجله لأنني لا أريد ان تثبتي براءة الفتى .

— كيف ذلك ؟

— إصغى إلي ...

ثم أخذ يكلمها همساً مدة طويلة ، فلم يدرك بما جرى بينهما أحد . ولكنه حين أتم حديثه قالت له : لقد علمت كل قصدك الآن ، وسأطيعك في كل ما تريد .

— إذا أودعك الآن على أمل اللقاء قريباً فتشجعي واعلمي ان ايرلندا لا تنسى من يخدمها

ثم تركها وانصرف فودعه الجنود بالاحترام .

ولما سار في الشارع ركب مركبة وسار بها إلى بيكاديلي ، وهناك رأى شوكنج واقفاً قرب خمارة ، فأوقف المركبة وناداه ثم سأله : أين السكاهن والارلندية والأميركي ؟

— إنهم في الكنيسة .

— إذاً إذهب الى الأب صموئيل وقل له اننا سنعقد جلسة في الساعة الثانية

بعد نصف الليل

— العل الجلسة للمباحثة في شأن رالف ؟

— هوذاك فأمرع الآن بالذهاب .

ثم أمر السائق ان يذهب الى شارع هاي ماركت ، وهناك نظر في ساعته فرأى انه لا يزال باقياً خمس دقائق لانتصاف الليل ، فقال : لقد حان

الوقت للذهاب الى مس الن ، فقد وعدتها أن أزورها حين انتصاف الليل ،
ولا بد من الوفاء .

- ٤٤ -

ولنذكر الآن ما حدث في قصر اللورد بالمير منذ يومين . فإنه منذ
دخل الرجل العبوس إلى ذلك المنزل ، من نافذة غرفة مس الن ، وخرج
منه بالارلندية ، بعد ان صعق تلك الفتاة بنظراته الساحرة . باتت تلك
الليلة مضطربة ، واجفة القلب . فكانت كالجمامة طاردها البازي فأفلتت
منه بعد العناء .

وقد جلست على كرسي ، قرب النافذة المفتوحة ، الى أن أشرق
الصباح . وهي تفتكر بهذا الرجل الجريء المقدام ، خضعت لنظراته
هذا الخضوع .

وفيا مشردة الفكر شعرت ان باب غرفتها قد فتح ، فاضطربت إذ لا يدخل
عليها أحد دون استئذان .

ونظرت فرأت ان هذا الداخل هو أبوها ، فزاد اضطرابها لما رآته من
دلائل غضبه واختلال ثيابه واتساخها فصاحت تقول ما هذا الذي أنت فيه
وماذا دهاك ؟

فقال بصوت يتهدج من الغضب . يا ويح أولئك اللصوص ! فقد
مكروا بي

- من تعني يا أبي ؟

-- أولئك الارلنديون الذين تجاسروا أن يقبضوا على أبيك ويقبسده
ويلقوه في إحدى زوايا الحديقة ، وقد كاد يموت لو لم تنقذه فانوش وخادمتها

عند الصباح .

— اني أعرف يا أبي الرجل الذي فعل بك هذه الفعال .

فدهش وقال : كيف تعرفيه ؟

— انه جاء أيضاً الى بيتنا .

— متى ؟

— هذه الليلة .

فاضطرب اللورد وقال : أجنونة أنت أم حاملة ؟

— لا هذا ولا ذاك يا أبي ، لأن هذا الشخص لم يخرج من هنا الا

بالارلندية .

ثم قصت عليه ما حدث لها ، وكيف أنه دخل من النافذة ولم تستطع ان تستغيث لتأثير نظراته بها ولأنه هدهدها بقتل أبيها اذا لم يعد الى العصابة في الموعد المعين .

وكان اللورد بالير واثقاً من شجاعة ابنته ، وأيقن لما رآه من اضطرابها ان ذاك الشخص أثر بها تأثيراً عظيماً

وكان لديه طريقتان ينجحهما وهما اما أن يخبر البوليس على الفور بما جرى له أو يكتفم الأمر ويعود الى البوليس أمر التفتيش على الفلام . غير أنه فضل الرأي الأخير لأن ابنته ضغطت عليه .

ومضى على ذلك يومان وجاء يوم الأحد فقالت مس الن في نفسها: ان القتال سيكون هائلاً بيني وبين ذاك الشخص ولكني سأكون قوية شديدة بقدر كرهى له وحقدى عليه

وخرجت بعد ذلك تتنزه على فرسها ، فلقيت الرجل العبوس . وأمرت خادماً أن يقتفي أثره ، كما قدمنا ، وبعد هنيهة رأت خادماً العبوس قد دنا منها وأعطاهما رسالة . فاضطربت وقالت : لقد بلغ من وقاحته أن يكتب لي .

ثم دفعها الفضول الى معرفة محتوى الرسالة ، فأخذتها من الخادم وقرأتها فاحمر وجهها وبدت عليها ظواهر الأنفة والاستكبار ، لأن الرجل العبوس كتب اليها انه سيزورها هذه الليلة عند انتصاف الليل .

فمزقت الرسالة قطعاً صغيرة والقتها الى الأرض ، ثم نظرت الى الخادم وقالت : اذا أردت أن تكون من أهل الثروة فقل لي من هو الشخص الذي أعطاك الرسالة .

- هو سيدي .

- أعرف ذلك ولكني أسألك عن اسمه

فابتسم الخادم وقال : لا أعلم .

أما هي فقد أمسكت كيساً ملؤه الذهب ، ودفعته الى الخادم قائلة : اذا كنت تقول لي عن اسم مولاك وأين يقيم أعطيك الف جنية ، بل اعطيك ثلاثة اضعاف هذه القيمة اذا صدقت في خدمتي

فرد الخادم كيسها وقال لها ببرود: مهيا بلغت ثروتك فإن سيدي أغنى منك ومن يخدمه لا يخونه .

ثم انحنى أمامها وأطلق لجواده العنان .

فامتعض وجه الفتاة وقبض القهر نفسها ، فعادت الى منزلها وهي تشبه أهل القنوط

وهناك وجدت أباهما منشرح الصدر طيب النفس ، فقال لها حين رآها :

أبشري لقد وجد الغلام .

- أين وجد وأين هو ؟

- إنه في أحد سجون البوليس ، وقد كان القاضي الذي تولى تحقيق أمره

عندي الآن .

- وماذا جرى ؟

- سأذهب غداً الى ذلك المركز ، وأطلب الغلام . وقد اتفقنا أن يرده

القاضي إلى .

فهمزت الفتاة رأسها وقالت : لماذا لا تطلبه اليوم يا أبي ؟

- لأن الصبي ووجد بين عصابة لصوص ، ولا يد للقاضي من محاكمته علناً ، حسب الأصول ، قبل أن يردّه إلى . وهذا اليوم يوم أحد لا تشتغل فيه المحاكم .

- لكنني أخشى غداً أن يكون فات الأوان

فاندهش اللورد وقال : لماذا ؟

- لصنع إلي يا أبي ، إني لا أستطيع الزيادة في التصريح . لكن ثق أن أعداءنا ليسوا من اللصوص ولا المتسولين ، بل إن رجلاً نبيلًا واسع الثروة يشتر علينا هذا العدا .

- ماذا تعنين بذلك ؟ إني لا أفهم شيئاً مما تقولين ؟

فأخذت الفتاة يد أبيها وقالت : أتثق بي يا أبي ؟

- دون شك .

- أتصغي ؟

- تكلمي .

- أريد أن تعكس السلطة بيني وبينك ، فتكون لي سلطة الوالد ولك

امتهال الولد ؟

ثم نظرت إليه نظرة غريبة استدل منها على أن الأمر خطير ، ورأى أن الطبيعة قد منحها سلطاناً عليه . فأطرق بنظره إلى الأرض وقال : تكلمي يا ابنتي فسأصنع ما تريدن .

- ٤٥ -

- أول ما أبدأ به يا أبي رجاؤك أن لا تسألني عن شيء وان تعديني بإجابتي إلى كل ما أسألك إياه .
- لقد وعدتك فقولني .

فأخذت مس الن بيد أبيها ، وسارت إلى رواق يصل بين غرفته وغرفتها من إحدى جهتيه ، وينتهي من الجهة الأخرى إلى قاعة فسيحة أعدها اللورد لأشغاله . فوقفت في تلك القاعة وقالت له : أريد ان تكون هنا في هذه الليلة ، قبل انتصاف الليل بقليل ، ويكون معك خادمان وكلكم مسلحون .
فارتعش اللورد وقال : لماذا ؟

ولم تجبه على سؤاله ، بل مضت في حديثها فقالت : وينبغي ان تدع باب الغرفة مفتوحاً وتصفي كل الاصفاء .
- سأفعل كل ما تريدون ولكن لماذا ؟
- أما وعدتني يا أبي أن لا تسألني واعلم الآن انك مق سمعت دوي غدارة . .

فقاطعها اللورد وقد اصفر وجهه وقال . دوي غدارة ؟
- لا تخف يا أبي فأنا سأطلقها .
- ولكن لماذا ؟

- الملك نسيت وعذك يا أبي فعدت إلى السؤال ؟
- حسناً ومق سمعت دوي الغدارة ؟
- تسرع إلي مع الخادمين ، وإذا وجدتم باب غرفتي مقفلاً اكسروه وعند ذلك تعلم ما يجب أن تصنع .
ووقفت مس الن عند هذا الحد ولم توضح لأبيها كلمة عن قصدها ، وتركته

مضطرب البال عليها
وعادت إلى غرفتها وأمرت وصيفاتها وخادماها أن لا يدخلن إليها إلا
إذا نادتهن .
ثم أقفلت باب غرفتها وأقامت وحدها فكانت مصقرة الوجه ، نادية
الاضطراب ولكن عينيها كانتا تدلان على عزم أكيد .
وبما دل على صدق عزمها أنها قامت إلى خزانة ففتحتها وأخرجت منها
مسدساً ففحصته ووضعته في جيبها .
ثم فتحت النافذة المشرفة على الحديقة ، وهي النافذة التي دخل منها
الرجل المبوس ، وجلست بقرنها وهي تتطلع الى الحديقة ، وتنتظر قدوم
الرجل المبوس .
وكانت السماء صافية والرياح ساكنة والحديقة خاوية ، ولكن الوهم كان يمثل
لعينيها الرجل المبوس .
وإذا رأت غير شيء ظنته رجلاً لا سباً وأنه لا يستطيع الوصول إليها إلا من
الحديقة كما فعل في المرة السابقة .
وأقامت تنتظر ساعة وهي متنبهة كل التنبيه ، حتى دقت الساعة مؤذنة
بانتصاف الليل دون أن يحضر حسب الوعد ، فوقفت مضطربة وقالت : أيجسر
أن يهزأ بي ؟
ثم تحولت عن النافذة إلى المستوقد ولم تكذب تخطو خطوة حتى صاحت صبيحة
ذعر وجدد الدم في عروقها واضطربت قدماها حتى أوشكت أن تسقط ، ذلك
أنها رأت رجلاً واقفاً ينظر إليها مبتسماً وهو الرجل المبوس .
فحاولت أن تصبح وتستغيث ولكن لسانها تلجلج ، وأرادت أن تمشي فما
استطاعت وهي منذرة من هذا الرجل لا تعلم كيف دخل إلى غرفتها وهي
مقفلة الأبواب حتى حسبته من عالم الخيال . ثم حلت عقدة لسانها فقالت بصوت
مختمق : أهذا أنت ؟

فأجابها بلمهجة تشف عن أرق العواطف . وعلام العجب يا سيدي ؟
ألم أقل لك اني سأزورك عند نصف الليل ، وإنما أتيت اليك لأعلم اذا كنت
راضية عني ؟

فقالت بلمهجة الاستكبار : ومن أي شيء تريد ان أَرْضَى ؟
- من صدق وعدي ألم يعد أبوك حياً ؟

- إنك أتيت يا سيدي الى غرفتي من حيث لا أعلم ، فهل تريد ان تخبرني
كيف دخلت ؟

- اني دخلت من الباب . وأنت ترين يا سيدي ، ان لي أصدقاء في
نفس منزلك .

- لكنها جرأة نادرة .

- هو ما تقولين يا سيدي ، واني مقترح عليك الآن اقتراحاً أحب ان
تسمعيه .

فاضطربت الفتاة لنظرات هذا الرجل وقالت له : قل اني مصغية اليك
كل الإصغاء .

- إن أباك يا سيدي عازم على ان يطلب غداً من مركز بوليس كليبرن
ابن الارلندية .

فتراجعت منذرة وقالت : أتعرف هذا أيضاً ؟

- اني أعرف كل شيء وأرجوك ان تمنعني أباك عن طلب الفتى .

فردت بعظمة : لماذا تريد ان أمنعه ؟

فابتسم قائلاً : لأن ذلك يرضيني .

وهنا اتقدت عينها لمساس كهربائها والتقوى نظرها بنظرة فقاومته وقالت

إصنع الي الآن يا سيدي فقد آن لي ان أتكلم .

- قولي يا سيدي ما تشائين .

- أريد ان أعرف من انت ولماذا تجاسرت على الدخول الى غرفتي .

فرد منبهكاً : أحقاً ما تقولين ؟
 - اني أمهلك عشر ثوان للتفكير .
 - وبعد الثواني العشر ؟
 فأخرجت الفتاة المسدس من جيبها وقالت له : اني بعد ذلك لا أكون مسؤلة
 عن حياتك .
 ثم شهرت مسدسها عليه وقالت : قل أم انت مقتول ؟
 وكان العبوس بعيداً عنها بحيث لا يفيد خنجره فكررت مس الن قولها :
 قل او أطلق عليك النار ...

- ٤٦ -

على ان العبوس لم يظهر عليه شيء من الخوف ولم ينبس بكلمة ، بل وضع
 يديه فوق صدره وابتسم . فهاجت مس الن لبسائه واستخفافه ، فأطلقت
 المسدس ، فلم يخرج له صوت فأعادت ست مرات فلم ينطلق رصاص
 المسدس .

وعند ذلك جرد العبوس خنجره ووثب اليها فقبال : اذا صحت فاني
 لا أقتلك انت بل أقتل أباك فانه على مسافة خطوتين منا اذا سمع صياحك
 حضر في الحال .

وكانت المس الن باسلة ، غير ان ثبات هذا الشخص وخوفها على أبيها
 حملاها على التسليم ، فأرخت نظرها الى الأرض وهي ترتعش وقالت له :
 ماذا تريد مني ؟

-- اريد ان أحدثك ببعض الشؤون .
 ثم أخذ بيدها وأجلسها على كرسي ولبث واقفاً امامها .

فقال لها . لقد قلت لك يا مس الن انه لي أصدقاء في منزلك ، ويثبت ما أقوله لك عدم انطلاق المسدس ، فقد نزع يد خفية ما كان فيه من الرصاص .

أما وقد علمت ذلك فاسمعي الآن ما اقول . اني اتيت لأعرض عليك الحرب او السلم فاختراري بين الاثنين

أما السلم فهو ان ترجمي مع ابيك عن الخطة التي جريتها عليها ، وتكفيا عن الأعمال التي كثر تداخلكم فيها . فأنكم خنتم ايرلندا وانتم منها فارثكمتم اعظم شطط .

ان اباك يا مس الن لم يقتصر على خيانة ايرلندا بل انه خان اخاه ودفعه بيده الى الموت .

فقد وقع هذا التقرير في نفس الفتاة وقالت . ان ابي من الانكليز .

— ولكن اياه من زعماء الارلنديين . وهو حر ان يكون كما يشاء غير انكم اذا رضيت الصلح بقي ابوك غنياً شريفاً عضواً في البرلمان .
فقالته بلهجة المتهم : اتأذن له بالبقاء في البرلمان ؟

فلم يكثر لتسكها وقال : نعم ونصفح ايضاً عما جناه على اخيه . وفي مقابل ذلك ترجعان عن غاية الاستيلاء على ابن عمك السير ادموند ، لأنه الزعيم الوحيد الذي تنتظره ايرلندا يحملتها بصبر وثبات ان يبلغ العشرين من عمره ليتولى رئاستها فقد عقدت كل رجائها عليه .
فقالته متهمكة ايضاً : أهذه شروط السلم ؟

— نعم يا سيدي .

— اني كنت اجهل من انت حتى الساعة ، اما الآن فقد علمت انك احد زعماء هذه الجمعية الارلندية التي تريد ان تحارب انكلترا ، وليس بين اعضائها غير اللصوص .

— ربما .

فتشجعت الفتاة وقالت : لقد عرفنا بشروط السلم فهاث شروط الحرب .
- هي ان ترجعوا عن المطالبة بالغلام ، وعن المداخلة في اي شأن من
شؤون إيرلندا .

واتقدت عينا الفتاة ببارق دل على انفتها واستكبارها وقالت : إذا تختار
الحرب وستكون هائلة بيننا .
فقال لها بهرود : استودعك الله يا سيدتي وليكن ما تريد .
- بل قل إلى اللقاء فلا بد أن نلتقي .
- هو ما تقولين .

ثم أسرع إلى النافذة المفتوحة ووثب منها إلى الحديقة ، وتوارى عن
الأيصار .



بعد ذلك بساعة كان الرجل العبوس حاضراً في جلسة عقدها الكاهن
وزعماء الارلنديين الثلاثة ، لأن الرابع لم يعرفوا مقره ، وكان حاضراً في تلك
الجلسة الارلندية والد الغلام فقال لهم الرجل العبوس : اعلموا يا سادتي ان
رجلاً عظيماً سيطلب غداً أن يأخذ الغلام وهو اللورد بالمير .
فاضطربة الارلندية وقالت : ولكني أنا أسبق إلى طلبه فيسردوه الي ،
وهو ولدي .

- كلا ايها العزيزة فانك إيرلندية وإبنك متهم بسرقة فلا يردونه اليك
بخلاف اللورد فهو من اعيان الانكليز فيرعى في منزل ذلك الخائن وينشأ على
احتقار وطنه ، أتريدن ان ينشأ موالياً للانكليز ؟

فاتقدت عيناها وقالت : كلا والله بل اؤثر الف مرة ان يموت .

- كلا انه لا يموت بل سأرده اليك .

- متى ؟

- متى نقلوه إلى سجن الطاحون .
 فنظرت اليه نظرة قلق المرتاب وقالت : كيف ذلك يا سيدي استطيع
 ان تفتح أبواب السجون ؟
 فأجابها بلهجة الواصل المطمئن : اني أستطيع كل ما أريده يا سيدي
 فاطمئي .
 وقال لها الكاهن عند ذلك : تذكرى يا ابنتى كلام زوجك الأخير
 وكونى قوية .
 - سأكون .
 فقال لها الرجل العبوس : سنلتقى غداً في مركز البوليس وسأعلمك ما
 يجب ان تقولىه .
 ثم نهض فقال : ان شهادة سوزان وحنة كافيتان لمنع اللورد من الاستيلاء
 على الغلام .

* * *

وفي اليوم التالي كان قاضي مركز كليبرن في منزله مع ابنته يتناول طعام
 الصباح فقالت له ابنته : إذا سترد الفتى اليوم للورد بالمير .
 - نعم يا ابنتى ولكن حصلت مشكلة جديدة أخشى منها وهي ان
 سوزان الارلندية سئلت امس عن الفتى فقالت ان امه قد وضعتة عندها
 ليتعلم ، ولما كانت هذه الفتاة من اللصوص فقد باتت الجريمة ثابتة عليه ؟
 - وماذا تفيد شهادة المرأة إذا كان مثل هذا اللورد النبيل يطلبه ؟
 -- هو ما تقولين فإني لا أحفل بشهادة هذه المرأة إذا جاء اللورد ، ولكن
 إذا جاءت أم الفتى فلا بد لي عن سؤالها فإذا وافق كلامها كلام سوزان لم
 يبق سبيل لرد الفتى إلى اللورد .
 وعند ذلك جاء سكرتير القاضي وقال : قد دنت الساعة العاشرة

يا سيدي فهل افتح باب المحكمة ويدخل الناس ؟

- نعم إفتحه وها أنا قادم في الحال .

وانصرف السكرتير وقام القاضي فلبس رداء أسود ووشاحاً أزرق ودخل إلى المحكمة وجلس في مجلسه وكانت القاعة قد غصت بالحضور ، فأمر القاضي ان يحضر الفتى السجين فأحضره وقال له : ماذا تدعى ؟

- رالف .

- أنت ارلندي ؟

- نعم يا سيدي ..

- أين أهلك ؟

وبدأ الفتى بحكاية ما جرى له غير ان القاضي اسكته بإشارة والتفت إلى الحضور فقال : أوجد بينكم من يرضي أن يضمن هذا الفتى ؟
فخرج اللورد بالمير من بين الجمهور ودنا من القاضي وقال له : أنا أضمنه .
فسأله القاضي قائلاً : أتعرف هذا الفتى !

- نعم .

فقال للفتى : وأنت أتعرف اللورد ؟

- كلا ..

- لا بأس إن حضرة اللورد قد تنازل إلى ضمانتك .
وكان الفتى عند ذلك يحيل نظره بين الحضور فصاح صبيحة أجيب بثملها ومد يديه فقال : يا أمي .

وأسرعت أمه إليه وقالت : ها أنا يا ولدي لا تخف .

وعند ذلك أوقفها القاضي قائلاً لها : من أنت ابنتها المرأة .

- إني أدعى حنة والدة الفتى .

وصادق اللورد على كلامها وقال لها القاضي بهرود : إن النظام يقضي علي أن أسألك فأحذري مما ستقولينه فإن على كلامك تتوقف حرية ولدك الذي

يطلبه حضرة اللورد .

فاضطربت حنة وقالت له : إذ كان لا بد يا سيدي من تسليم ولدي لهذا اللورد فاني التمس منك ان تبعث به إلى السجن ، فان هذا اللورد يحاول إغوائي وهو يرجو ان يظفري متى ظفر بولدي .

فضج الناس لهذا القول الغريب وقال اللورد . ان هذه المرأة كاذبة .
إلا أن كلامه ضاع بين ضجيج الناس ولم يحفلوا به ومالوا إلى تصديق الارلندية فان المرء بالطبع ميل إلى الضعيف .

ولما رأى القاضي سوء منقلب اللورد قال للارلندية . أتعرفين أيتها المرأة إنك أم هذا الفتى ؟

— نعم .

— أتعرفين امرأة ارلندية تدعى سوزان ؟

— إنها صديقة لي وهي من بلدي .

— أنت أودعت عندها ولدك كما تقول ؟

— نعم .

فتلا القاضي عند ذلك إقرار سوزان ثم أصدر حكمه على رالف بالحبس خمسة اعوام في سجن الطاحون ، فصاحت امه صيحة عظيمة وسقطت مغمياً عليها بين يدي الرجل المبوس .

وبعد هنيهة استفاقت فخرج بها وهو يقول : لقد فزنا اليوم أعظم فوز بانقاذه من اللورد وسأنقذه قريباً من السجن .

- ٤٧ -

إذا ذكر حبس الطاحون أمام الناس يعتبرونه حبساً عادياً فلا يخامر قلوبهم شيء من الرعب ولكن من عرف هذا الحبس ترتعد فرائضه خوفاً وتسيل نفسه اشفاقاً على من حكم عليه نكد الطالع بالسجن فيه .

ان هذا السجن يسمى بالطاحون لأنه يشبه الطواحين والنواعير بما أعد فيه من الآلات وذلك انه يوجد فيه عمود طويل ركبت فيه صناديق فارغة على الجانبين وفيه لولب يدار فتدور الصناديق الفارغة من الأعلى إلى الأسفل كما تدور الصناديق في النواعير .

ويقابل هذه الصناديق خشبة ثابتة لا تتحرك يمسك بها المحكوم عليه بالاشغال ، وتبقى رجلاه في الفضاء فيسندهما الى أحد الصناديق إلتماساً للراحة ، غير أن هذه الطاحونة تدور ، فإذا دار الصندوق هوت رجلاه فأسندها إلى صندوق آخر فيهوي أيضاً ، وهكذا لا تزال الصناديق تدور ورجلاه تعلقان بها وتفلتان منها ، فيكون مثل رجله في هذه الطاحونة مثل الماء في صناديق النواعير ، وهو لا يستطيع أن يوقف هذه الحركة فإذا أوقف رجله قبل أن تقف الطاحونة مرت بهما الصناديق في دورانها فكسرتهما

ويستمر عقاب هذا المنكود على ما قدمناه ربع ساعة فيوقف السجنان الطاحونة فينزل المحبوس ويأتي بمحبوس آخر يعاقبه نفس العقاب .
هذا هو الحبس الهائل الخيف الذي سيق اليه الولد الصغير ، وحكم عليه بالعذيب فيه على هذه الطريقة المرعبة خمسة أعوام ، تكفيراً عن ذنب لم تقترفه يده .

وكان هذا الحبس قديماً جداً يديره حاكم خاص وقائد من الجيش وكانت الحكومة شارعة ببناء سواء بدلاً منه في نفس مكانه ، فلا تهدم مكاناً حتى

تبني حبساً سواء .

وكان لهذا الحبس مأموران أحدهما للداخل والآخر لحراسة الباب الخارجي الذي يدخل منه أهل المحبوسين لمشاهدتهم .
وهذا المأمور ارلندي الأصل كاثوليكي المذهب ولكنه كان يتشيع للانكليز بالظاهر تشيعاً عظيماً وهو ارلندي النزعة في الباطن فلم يكن أحد من الانكليز يظن انه من الارلنديين .

وكان الباب الذي يتولى حراسته مشرفاً على الشارع ، ففي اليوم الذي دخل فيه الولد الى الحبس جاء إلى هذا المأمور رجل عليه دلائل الفقر المدقع فحياه تحية الأهل وتاداه بآبن عمه فأجفل المأمور ، واسمه المستر بين ، لظواهر فقره وقال له : من أنت وكيف تدعوني ابن عمك ؟
— اني ادعوك بآبن عمي لاني ادعى جوهن كولدن .

فحدق به المأمور ملياً وقال لقد اصببت فلقم تبدلت تبديلاً عظيماً من عشرين عاماً فما عرفتك ، ثم مد يده وصافحه وقال له . ماذا أتيت تعمل هنا ؟
— إذا اردت الحقيقة يا ابن عمي العزيز ، فاني أتيت لأراك .

فامتعض المأمور لما رآه من ظواهر فقره ولكنه كان طاهر القلب طيب السريرة فقال : أرى من ملابسك ما يدل على فقرك ولكني فقير مثلك فان لي امرأة وبنيتين وراتبي الصغير لا يكاد يفي بحاجتهم

فابتسم جوهن وقال : اني أعلم ما أنت عليه فما أتيت أسألك مالاً ، بل التمس مساعدتك في أمر لا يؤذيك بشيء .
— قل أيها القريب فأننا أبناء أخوين .
— هو ذاك ونحن أيضاً ارلنديان .

— أخفض صوتك فليس من يعرف هنا انني من الارلنديين .
— لقد أحسنت في تنكرك فقد ساءت سمعة الارلنديين في هذه الأيام وبات الانكليز ينظرون اليهم بعين الجفاء .

- يسرني أن أراك ترتني رأيي .

- كما يسوؤني أن العامل الارلندي لم يعد في وسعه أن يجد عملاً يرتق به في هذه العاصمة الواسعة لما يحده من جفاء الانكليز فقد مر بي شهر كامل لم أعمل فيه عملاً على فرط اهتمامي بإيجاد عمل .

- ما هي مهنتك ؟

- إني إسكافي وبناء ، ولكنني أفضل مهنة البناء لمكاسبها ، لهذا أتيت إليك راجياً لإدخالني بين العمال الذين يشتغلون في بناء السجن الجديد .

- إن ذلك سهل ميسور ، لكن يجب علي أن أخبرك بحسنات هذه المهنة وسيئاتها في هذا السجن ، أما الحسنات فهي أن من يشتغل في قسم منه لا يخرج !

- عجباً كيف ذلك ؟

- ذلك انهم لم يقتصروا على بناء سجن جديد ، بل انهم يصلحون أيضاً القديم ، وفي نظام السجون أن المسجونين لا ينبغي أن يكون لهم علاقة مع أحد خارج السجن ، فإذا كان البناء يشتغل في ترميم الحبس القديم فلا بد له من الاختلاط مع المسجونين ، فإذا أذنوا للعامل أن يخرج من الحبس قبل انتهاء العمل فقد يحمل كلاماً أو رسالة من أحدهم إلى أهله أو عصابته فيسهلون له سبل الفرار .

- أيشغل جميع العمال في الحبس القديم ؟

- كلا ، بل بعضهم ، وطريقتهم في ذلك أنهم يجمعون كل العمال كل يوم سبت ويقترعون على العدد الذي يحتاجون اليهم في الحبس القديم ، ومن أصابته القرعة فلا بد له من الامتثال ، وإنما يقترعون ، إذ لا يوجد بينهم من يرضى الاشتغال بالحبس القديم ، وعند ذلك يصبح هذا العامل كواحد من المحابيس

-- ولكن أيكون حبسه طويلاً ؟

- كلا ، بل يقيم فيه ثمانية أيام فينزعون ثيابه عند دخوله ويلبسونه ثياب الحبس ، فإذا انتهى الأسبوع فتشوه تفتيشاً دقيقاً وأعادوا اليه ثيابه ويعود إلى الاشتغال بالقسم الجديد وهناك تطلق له الحرية .
- إني لا أسف إذا أصابني القرعة إذ ليس لي امرأة وبنون .
- حسناً ، قد تصيبك القرعة كل مدة اشتغالك ؟
- ذلك سيان عندي بشرط أن اشتغل ..
- إذا سأدخلك بين العمال ، غير انه بقي لي شرط آخر وهو انه يجب ان تنكر جنسيتك كما أنكرتها فإنهم لا يقبلون الارلنديين وفوق ذلك سأقول لمدير الأشغال انك ابن عمي تسهلاً لقبولك .
- أقسم لك اني سأدعي اني انكليزي بحت ، متى تقدمني المدير ؟
- هذه الليلة بين الساعة الثامنة والتاسعة ، فاذهب الآن وعد إلي في الموعد المعين .
- وعند ذاك افترقا فودعه جوهان كولدن وسار حتى انتهى إلى خمارة فدخل اليها وهناك لقي العصفور الأزرق بانتظاره فقال له : ماذا فعلت ؟
- إنهم يدخلونني غداً في الخدمة .
- إذا سأخبرك عن العوائد المألوفة في ذلك السجن فأنك شقيق سوزان وقد وجبت علينا خدمتك ، والآن أتعلم أنهم سينقذون سوزان هذه الليلة بمساعي الرجل العبوس ؟
- ثم أظهر إعجابه به وقال : حبذا لو رضي هذا الرجل أن يكون منا فإنه يتولى رئاستنا المطلقة .
- وقاطعه جوهان قائلاً : لنتكلم الآن عن حبس الطاحون

- ٤٨ -

في يوم السبت من ذلك الأسبوع الذي جرت فيه الحوادث المتقدمة دقت الساعة الثانية في سجن الطاحوت ، وقرع الجرس الكبير الخاص بالذين يعملون في الحبس الجديد .

وكان الحبس القديم في الجهة الغربية ، والحبس الجديد في الجهة الشمالية وكانوا يعملون فيه ببطء ، وكلما بنوا غرفة من الحديد هدموا غرفة تماثلها من القديم .

وكان كلا الحبسين محاط بسور عظيم ليس له غير باب واحد ، وهو الباب الذي يتولى خفارتة ابن عم جوهان كولدن ، ومن هذا الباب يدخل صباحاً جميع العمال ، فيفتشهم المأمور تفتيشاً دقيقاً حذراً من أن يدخلوا إلى السجن أشياء ممنوع إدخالها .

وبعد أن يدخل العمال من الباب الخارجي يحدون قاعة فسيحة لها بابان من الحديد أحدهما يؤدي الحبس القديم حيث يحبس المسجونون ، والآخر يؤدي إلى الحبس الجديد الذي كانوا يشتغلون فيه .

وكان الجرس يدق مؤذناً بالساعة التي يرتاح فيها العمال فامتنعوا عند سماعه عن العمل واجتمعوا وجعلوا يتحدثون ويتنادمون إلى أن ينقضي وقت الراحة .

وكان واحد منهم جالسا بينهم ولكنه لا يتحدث أحداً فالتفت أحدهم إلى رفيق له وسأله من هذا العامل ؟

- إنه عامل جديد دخل في صباح اليوم

- ماذا يدعى ؟

— جوهان ، وقد أدخله مأمور الحبس الجديد ، وهو من أهله كما يقول .
 . إذا حببنا لو أصابته القرعة بدلاً مني .

— إني أراك شديد الخوف من هذه القرعة وتظهر إضطرابك منها في كل أسبوع في حين انك كنت اسمد العمال فإنك تعمل في هذا الحبس منذ عامين ولم تصيبك القرعة غير واحدة فلماذا هذا الخوف ؟
 — إني لا أخاف على نفسي أيها الصديق وسيان عندي أن أبيت في المنزل أو في الحبس .

— إذا على من تخاف ؟

— الملك متزوج ؟

.. كلا .

— إذا أعذرك إذا أنكرت علي الخوف من البقاء في الحبس ثمانية أيام .
 فأجابه آخر كان يسمع الحديث : لقد اتضحت الآن أسباب خوفك فإنك متزوج بامرأة حسناء تغار عليها .
 - لقد أصبتم فلقد كان لي امرأة حسناء وكنت أغار عليها كما يغار كل متزوج على زوجته .

ثم تنهد وتابع : ولكن امرأتي قد ماتت وأأسفاه

قالوا : إذا على من تخاف بعد موتها ؟

— أخاف على بنتها وبنتي فإنها في ريعان الصبى والجمال وهي تعمل في أحد المخازن فأذهب بها صباح كل يوم إلى ذلك المخزن وأعود بها منه في المساء ، فإذا غبت عنها ثمانية أيام فإذا يصيبها وأهل الدعارة تغص بهم شوارع لندرا ؟ .

وعند ذلك تقدم جوهان كولدن فاختلط بين العمال وقال لذلك الذي يخاف أن تصيبه القرعة : إني هذا أيها الرفيق منذ هذا الصباح فلم تستحكم الصلة بيني وبينكم بعد غير أن حديثك أثربني وأنا رجل عازب وليس لي عائلة فإذا

أصابتك القرعة دخلت إلى الحبس القديم مكانك .
فمد الرجل يده إليه وعافحه شاكرًا وأثنى جميع العمال على ما أظهره
جوهان من المروءة .

وعند ذلك فتح باب كبير ودخل منه رجل كبير ضخيم فسكت المتحدثون
واتجهت الأنظار إليه ، فإنه كان يحمل كيسًا مملوءًا بالكرات الصغيرة المنمرة .
ودنا جوهان كولدن من والد الفتاة وقال له : كيف يكون عادة
الاقتراع ؟

— انظر إلى هذا الرجل الذي دخل الآن انه مدير الأعمال وهذا الكيس
الذي معه يحتوي على كرات خشبية بقدر عدد العمال ، وهي نمر متسلسلة من
الواحد إلى آخر ما يبلغ إليه عددنا وسيتقرب كل واحد منا فيهرز الكيس
ويأخذ نمرة من النمر ، وبعد تفريق النمر ينادي المدير مبتدئًا من نمرة واحد
فاذا كانوا يحتاجون مثلًا إلى خمسة عشر عاملاً ينادي من نمرة واحد إلى
نمرة خمسة عشر ، ومن كان معه أحد هذه النمر أصابته القرعة ودخل إلى
الحبس العتيق

— لقد فهمت فأجمل وقوفك يجاني حتى إذا رأيت أن القرعة أصابتك
أعطيتني نمرتك وأخذت نمرتي .

وتأثر الرجل وقال : أحقًا انك تحل محلي إذا أصابتنى القرعة ؟
دون شك .

— ولكنك لم تعرفني قبل اليوم فما دفعك إلى هذا الصنيع ؟
— لم يحملني عليه غير تأثري من حكايتك وإشغافي على ابنتك من أن
تناهها يد الأشرار ، وأنا وحيد شريد ، لا فرق عندي بين أن أكون
سجينًا أو مطلقًا .

فشكره الرجل شكرًا جزيلاً
وقاطعها عند ذلك مدير العمال فقال لهم بصوت جهوري اني مخبركم

يا إخواني بخبر سيء ، وهو انه تهدم حائط في الحبس القديم ويلزم^٢ لاصلاحه كثير من العمال ، لذلك سيزيد عدد الذين تقع عليهم القرعة اليوم عن مثله في كل اسبوع .

وجعل كل من العمال ينظر الى الآخر نظرات تشف عن اضطرابهم ثم عاد المدير إلى الحديث فقال : إننا محتاجون إلى خمسة عشر عاملاً اي بزيادة عشر عمال عن العدد المألوف فتشجعوا أيها الاخوان واهلوا إلى النمر فانه أسبوع يمضي كما مر سواه .

وكان عدد العمال مائة وستصيب القرعة ربعمهم فاصطفوا صفاً طويلاً وجعل المدير يمر بهم فيمد كل منهم يده إلى الكيس ويأخذ نمره فكان بعضهم ينظر إلى نمرته ليطمئن وبعضهم يبقونها في أيديهم دون أن ينظروا اليها .

أما والد الفتاة فلم يطق الصبر ونظر إلى نمرته فاصفر وجهه لأنها كانت ثلاثة وخشي ان تكون نمره كولدن قريبة أيضاً .
ولما أخذ جوهان كولدن نمرته نظر فيها وابتسم ثم دنا من والد الفتاة وقال له : ما هي نمرتك ؟

- ثلاثة وأسفاه .

فأبرقت عيننا جوهان ببارق الرجاء وقال . لا بأس هات نمرتك وخذ نمرتي فانها تجاوزت عدد خمسة وعشرين وهي ٦٩ وقبل والد الفتاة شاكرأ وتبادل الاثنان النمرتين .

ولما فرغ المدير من توزيع النمر جعل يناديهم بالأعداد ، مبتدئاً من الواحد إلى الخمسة وعشرين ، فكان كل واحد معه نمره من هذه النمر يليي النداء حتى تكامل عددهم ، فسيقوا جميعهم اثنين اثنين إلى السجن الداخلي .

وكانوا يرون جميعهم بالمعامل المختلفة كالحدادة والنجارة حيث يعمل فيها الذين حكم عليهم احكاماً خفيفة من المسجونين .

ثم اجتازوا إلى الحبس حيث يقيم المسجونون الذين حكم عليهم بالتمذيب بالطاحونة على ما قدمناه ، فانقبض جوهان حين علم ان هذا الصغير المنكود سيعاقب هذا العقاب الشاق

- ٤٩ -

والآن لنعد إلى حيث ذهبوا برالف إلى الحبس ، وهو ذلك الغلام الذي يقول التاريخ أن آمال أرنلدا كانت معلقة عليه ، فانهم ساروا به في مركبة المجرمين ، في اليوم التالي للحكم عليه وكان قد جاءه أحد رجال البوليس فحمله ووضعه في المركبة فلم يبال بعد أن فرقوا بينه وبين أمه ، بأي سجن يكون .

ولم يكن رأى ذلك البوليس قبل الآن ، ولكنه ارتعش ارتعاشاً عظيماً حين سمعه يمس في أذنه فيقول : « لا تخف يا بني .. ان أمك وأصدقاءها ساهرون عليك »

وكان همس في أذنه الكلام ، بتلك اللغة الخاصة التي كلمه بها اللورد كورنيل في الحبس ، حتى لقد خيل للغلام ان صوت الاثنين واحد ، لكنه حذر تحديقاً طويلاً بالبوليس فلم يجد به أقل شبه باللورد ومع ذلك فان الرجاء ملأ قلبه الصغير لأن هذا الرجل كلمه عن أمه وبلغة قومه .

وسارت به المركبة من مركز إلى مركز وهكذا وقفت عند مركز ينقلون اليها المحكوم عليهم بسجن الطاحونة .

حتى وصلت إلى ذلك السجن الرهيب فخرج منها البوليس واخرج منها الغلام فقال له بصوت خشن : أمش
غير ان قسوته لم ترهبه فمشى بقدم ثابتة غير هباب .

ودخل البوليس برالف الى رئيس السجن ففتح سجلاً أمامه وجعل يسأل
الأسئلة المألوفة فكان البوليس يحميه فيذكر اسم الفتى وعمره والجريمة التي
ارتكبها والحكم الذي صدر عليه .

ولما أتم الرئيس الكتابة جعل ينظر إلى البوليس نظر الفاحص ثم قال : اني
لم أرك قبل الآن .
فأجابه البوليس بسكينة : لقد أصبت يا سيدي فهذا أول يوم قولت فيه
هذه الخدمة .

— كيف ذلك العل مستر لنتون مريض ؟
هو ما تقول يا سيدي ، وانك لم ترني قبل الآن لأنني كنت بوليساً في
الأقاليم وقد دعوني إلى العاصمة منذ يومين .
— أين كنت في الأقاليم ؟

— في مذشر وكنت أخدم فيها السجنون أيضاً

— حسنناً . هات سواه .

— لي كلمة أيضاً يا سيدي أمرني قاضي المركز أن أقولها لك وهي أن
اللس الصغير جريح في كتفه وهو يرجوك أن لا تعاقبه بالطاحونة قبل أن
يشفى من جراحه ولا يقتضي لذلك غير بضعة أيام .

— ليس ذلك من شأني . بل هو شأن الطبيب وسنعرضه للفحص غداً .
في صباح اليوم التالي دخل رئيس الحراس والطبيب إلى الغرفة المسجون
فيها الفتى ، فقال له الرئيس بلمهجة عنيفة قف أيها اللص احتراماً للطبيب
فانه قادم لفحصك .

فلم يخف رالف من تلك اللمهجة القاسية لارتياحه إلى ذاك الصوت ،
واقترب الطبيب منه وقال : اهذا هو الفتى الذي سرق صندوق توماس
الجن ؟

ثم جعل ينظر اليه ويقول : إنه جميل الوجه ومن الحيف أن يكون

من اللصوص .

ثم لقترب منه وجعل يبحث في جرحه بقسوة دعت رالف إلى الصباح من الألم .

وقال له الرئيس : إني اراه جريحاً لا يستطيع عمل شيء ولا أدري كيف خطر للقاضي ان يحكم عليه بالطاحوم وهو لم يبلغ عشرة أعوام .

- لا أنكر انه جريح ، لكن الرصاصة خرجت من كتفه وليس هناك خطر فقد اندمل الجرح .

ثم جعل يهن كتف الفتى بعنف اثباتاً لقوله ويقول : لم يبق من الجرح غير الأثر القليل وسيزول الأثر بعد اسبوع .

- وفي تلك المدة الا ترى أنه يجب وضعه في المستشفى ؟

- لا حاجة إلى ذلك فانه معافي ..

فتعجبهم وجه الرئيس وحاول ان يعترض غير ان الطبيب قاطعه قائلاً : لقد قلت لك انه لا فائدة من ذلك فان اللص الصغير يستطيع العمل .

- ايعمل اليوم !

- نعم ..

فتنهذ الرئيس وخشي الطبيب ان يتهمه بالقسوة فقال له اني كثير الرأفة ولذلك عينت رئيساً لنادي الرحمة بالانسان ، غير ان القسوة في موضعها رأفة ولا يحسن الرأفة باللصوص

ثم خرج من غرفة رالف وتبعه الرئيس وأقفل الباب وبقي رالف وحده نحو ساعة .

وبعد ذلك فتتح الباب فحسب الفتى أن البوليس قد فتحه ، ولكنه رأى حارسين من حراس الحبس دخلا اليه وبيد احدهما شهادة من الطبيب ان الفتى معافي يستطيع العمل وجرداه من ثيابه والبساه ثياب السجن وذهب به إلى محل العمل .

وفي ذلك الحين خرج رئيس الحرس من الحبس وسار في الشارع حتى انتهى الى خمارة فدخل اليها ورأى رجلاً يشرب فيها ، وكان هو الرجل العبوس ، فحياه تحية سرية ثم جلس وجعل يتحدثان باللغة الارلندية الاصطلاحية فسأله الرجل العبوس قائلاً : أين الفتى الان انقلتموه الى المستشفى ؟

— كلا ، بل في حبس الطاحونة .

فاصفر وجه الرجل العبوس وقال رئيس الحراس ان الطبيب لا رحمة في قلبه فانه واسع الثروة كثير الحرص فلو ولي القضاء لحكم بالاعدام على من يسرق درهماً .

فقال له الرجل العبوس . لقد فسدت خططنا فانها مبنية على اعتبار أن الفتى في المستشفى .

— دون شك .

— وهل هو في قاعة الطاحون .

. نعم وليس في تلك القاعة من اعتمد عليه .

— العمل قاعة الطاحون بعيدة عن المستشفى ؟

— كلا ..

أيستطيع العمال أن يدخلوا الى تلك القاعة ؟

فارتعش الرئيس وقال لقد خطر لي خاطر وهو ان الجدار الفاصل بين هذه القاعة وبين محل العمال غير متين .

— متى يسقط ؟

— حين أريد .

— إذا احرص ان لا يكون ذلك قبل يوم السبت اذ سيدخل في اليوم بين

العمال واحد من اخواننا .

فقال الرئيس لينقذ الله ارلندا .

ثم جعل الاثنان يتحدثان بصوت منخفض

وكان رئيس الحراس ، واسمه باردل ، يكلم الرجل العبوس بملء الاحترام ، ويخضع له الخضوع التام .

وذلك لأنه كان من أعضاء الجمعية الارلندية السرية ، التي كان الرجل العبوس أحد زعمائها . وهي جمعية كانت في ذلك العهد عظيمة ، تضطرب لها انكسرترا . ولا تزال أسرارها خفية لأن التواريخ لم يكشف إلا القليل منها الى الآن .

ومن أسرار هذه الجمعية ان أعضاؤها لم يكونوا يتعارفون إلا بالاشارات السرية والكلمات الاصطلاحية التي كانت تتغير مرة كل شهر .

وكان السبب في تعارف الرجلين انه حين حكم على رالف ، تنكر العبوس بالملابس التي كان يلبسها حين كان يدعو نفسه اللورد كورنيل ، وذهب الى ذلك الحبس قبل أن يرسلوا الفتى اليه ، بحجة أنه مولع بجمع أخبار الجرائم .

ودخل الى المستشفى ومجلات العمل وفحص جميع السجن فحسباً دقيقاً ما خلا قاعة الطاحون قائلاً : إنه سيعود اليها مرة اخرى .

وكان غرضه من زيارة هذا الحبس ان يبحث عن الموظفين فيه إذ كان يعلم أنه يوجد بينهم كثير من الارلنديين ، كما كان يوجد بين البوليس .

فجعل ينتقل من قاعة الى قاعة ، ويتفحص الموظفين بالاشارة . الى ان مر برئيس الحراس وأشار له تلك الاشارة وأجابه بثلاث فسر العبوس ، وسأله الاختلاء به .

ولما اختلها أشار اليه إشارة الرؤساء فالتفت باردل وقال : مرأيها الرئيس بما تشاء فأني من المطيعين .

- لا أستطيع أن أقول لك شيئاً هنا ، كي لا أئبه الظنون . فإذا رأيتهني خرجت من الحبس فاخرج منه بعد ساعة ووافيني في الحال الى اول خمارة في الشارع .

- سأكون عندك في الموعد المعين .
- وبعد ساعة اجتمع الاثنان في الخمارة فقال العبوس : ألا يوجد في دائرة نفوذك أحد من إخواننا ؟
- كلا .
- أحق من المسجونين ؟
- كلا .
- ولكنني علمت ان مأمور الباب الخارجي ارلندي .
- هو ذاك . ولكنه كثير البنين ، شديد الفقر ، وهو يحرص على منصبه كل الحرص . وقد يبيع ، في سبيل الاحتفاظ به ، ارلندا والارلنديين .
- بآية طريقة نستطيع إدخال العمال الأحرار الى حبس الطاحون ؟
- لدي طريقة سهلة وهي ان الطاحونة الكبيرة تمر حين دورانها بأحد جدران القاعة . وقد بات متداعياً إلى السقوط . فاذا وقفت تلك الآلة فجأة ، صدمت الحائط صدمة عنيفة فيسقط دون شك .
- كيف توقفها ؟
- إنني أضع في سبيل دورانها قطعة من الحديد فاذا مرت بها تفككت وصدمت الحائط تلك الصدمة .
- حسناً إسمع الآن خطتي انه يوجد بين العمال الذين يدخلون حبس الطاحون عامل من إخواننا أتراه يكفي لانقاذ الغلام ؟
- قد يكفي . وذلك ان العمال حين يدخلون هذا الحبس يعاملون نفس معاملة المسجونين ، ما عدا الطعام . فيحبس كل منهم في غرفة حين المساء . فإذا سقط حائط الطاحونة فلا بد لهؤلاء العمال من المبيت في الرواق المجاور لهذه الطاحونة .
- ثم انه يوجد لكل رواق حارس خاص يستحيل اغراؤه لأنهم جميعهم من

المتعصبين على الارانديين .

- ولكن ظهر لي ان كل رواق ينتهي الى فسحة .
- هو ذاك .

فقال العبوس : إذا لنفرض أن جوهان يبني في الرواق المسجون فيه الفق
اليس ذلك ممكناً ؟

- دون شك لأنه منوط بي .
- ولنفرض ايضاً ان حارس الرواق من أتباعنا .
- ولكن هذا محال .

قلت لنفرض . فاذا أخذ جوهان الفق وسار به إلى فسحة الرواق ألا
يجد معك مفتاح باب الفسحة ؟
دون شك .

- وان كل فسحة تنتهي إلى باب يؤدي إلى السجن الجديد ، اليس لديك
مفتاح هذا الباب ؟

- نعم ، ولكن مفتاح الباب الخارجي مع المستر بين ، وهو لا
يفارقه لحظة .

- ذلك سيان عندي ، لأن جوهان مق وصل بالفتى إلى الحبس الجديد ،
فهو لا يخرج به من باب الحبس العام . وعلى ذلك لم يبق أمامنا غير حائل واحد
وهو حارس الرواق .
- ولكنه أعظم حائل يا سيدي كما قلت لك .

فابتسم الرجل العبوس وقال : سوف ترى ان الأمر على عكس ما
تراه والآن فلننظر في نتيجة أبحاثنا ، إن الحائط يسقط يوم الجمعة مساءً أي
ليلة السبت ؟

- نعم .

- وفي يوم السبت يدخل جوهان مع رفاقه العمال الى حبس الطاحونة

لترميم الجدار .
- وبعد ذلك ؟
- وبعد ذلك تأتي إلى يوم السبت مساء في الحفارة ، فأريك كيف ان كل شيء ممكن .
- إذا كانت حياتي مفيدة لارلندا فلاني أسفك دمى من أجلها .
- لا حاجة إلى ذلك بل أننا سننقذ الفتى وتبقى أنت في منصبك ولا يعلم بأمرك أحد
- إذا إلى اللقاء .
ثم افترقا ، وذهب كل منهما في شأنه .

- ٥٠ -

ولنعد الآن إلى رالف ، ونقص ما جرى لهذا الشهيد الصغير في ذلك السجن الرهيب .
كان اليوم يوم سبت ، أي بعد ان دخل رالف إلى الحبس بخمسة أيام . فكان عذابه الأيام الأولى من سجنه لا يحيط به وصف ، ولا يستوفيه تغيير ، فإنه كان يتعلق بيديه الصغيرتين بتلك الحشبة ، ولا يكاد يلقي رجله على الصناديق ، كي يستريح حتى يشعر أنها دارت ، وباتت رجلاه في الخلاء .
وعذبه هذا العذاب ربع ساعة ، ثم أراحوه فأزلوه وهويلهث من التعب . وقد بليت ثيابه من العرق واصفر وجهه حتى بات كالأموات . وأشفق عليه المسجونون فودوا لو تحملوا عنه عذابه ، ولكن تنفيذ العقاب في إنكلترا لا تقبل فيه شفاعات .

وكان يتولى تعذيب أولئك المنكودين رجل فظ الطباع ، قاسي القلب يدعى ويب .

ولم يكن هذا اسمه الحقيقي بل لقباً لقبه به إخوانه ، لما رآوه من فظاعته وقسوته لأن هذه اللفظة عندهم معناها الكرباج .

ولمّا لفب بالكرباج ، لأن كرباجه لم يكن يسقط من يده إلا على ظهور أولئك المسجونين .

فإذا تأفف أحدهم من الألم أو شكا من النعب انهار عليه بذلك الكرباج دون إشفاق حتى يدوي صياحه في ذلك الحبس .

وهذا ما أصاب ذلك الفتى المسكين ، فقد لقي من كرباج ذلك العاني أعظم نصيب .

ولما أقبل المساء ذهبوا به إلى سجنه وهو واهي القوى ، ولم يكن يبكي ولم يقنط ، لأن كلمة ذلك الرجل الذي قال له: إن أمك ساهرة عليك . كانت قد رسخت في أذنه وملأت نفسه أملاً .

وبات على العقاب والأمل إلى يوم السبت . فأخرجوا المسجونين صباحاً وساروا بهم صفّاً طويلاً إلى قاعة التنكيل يتقدمهم ويب .

وجعلوا يصعدون بهم إلى الطاحونة ، وهي أربعة أقسام ، كل قسم منهما مستنداً إلى جدار .

حتى إذا وضعوا أربعة منهم في الطواحين الأربع أدير اللولب ، فدارت الطواحين في البدء دوراناً بطيئاً ثم أسرع فجأة . ولكنها لم تتم دورتها الأولى حتى خرج صوت هائل كدوي الرعد .

ذلك ان إحدى هذه الطواحين صدمت بالحديد الذي وضعه رئيس الحراس ، فوقفت بغتة وصدمت الحائط صدمة هائلة فسقط وخرج له ذاك الدوي العظيم .

وهنا اختلط المسجونين وأصيب بعضهم بشظايا الآلة فانجرحوا وساد الرعب

في جميع السجن ، فأقبلوا إلى قاعة الطاحونة من كل ناحية .
وأُسرع عمال السجن ورؤسائه ، لحذرهم من ثورة المسجونين واغتنامهم
تلك الفرصة .

وكان بين الموظفين رئيس السجن العام ورئيس الحراس ، فارتأيا إرجاع
المسجونين إلى غرفهم .

ثم أحضروا المهندسين فقرروا بعد فحصهم ان هذا الحائط لم يكن متيناً
خلفاً للشيطان الثلاثة ، أي أن الطواحين الثلاث الباقية لا خوف عليها
في عملها .

فأعادوا المسجونين من غرفهم إلى قاعة الطاحونة ، وجعلوا يعذبونهم
بالطواحين الثلاث .

ثم جاء دور البنائين ، فدخلوا إلى الحبس القديم ، وفي طليعتهم
جوهان كولدن .

فأجال بين المحكوم عليهم بالمذاب نظراً فاحصاً ، وجعل يبحث عن
الفتى فرآه جالساً على الأرض ، إذ كان في ذلك الحين دوره بالاستراحة ،
ورأى العرق ينصب منه فدنا منه وقال له همساً : لا تخف إني صديق لأهلك
ثم أسرع بالابتعاد عنه والاختلاط بين العمال دون ان يراه أحد .

أما الصبي فإنه صاح صيحة دهش سمعها ويب ، فالتفت اليه وجلده بكرابجه
فصاح متألماً وجلده مرة ثانية

فرأى الصبي جوهان واقفاً بعيداً عنه ينظره ويشير اليه بأصبعه أن يسكت
فهم الفتى إشارته وسكت

ولكن ويب لم يكتف بجلده بل أصعده إلى الطاحونة قبل مجيء دوره
بالتعذيب انتقاماً منه لصياحه .

وفي اليوم نفسه كان الرجل العبوس وباردل رئيس الحراس متفقين على الاجتماع في الحجرة .
ولما حانت الساعة السابعة كان العبوس في الحجرة حسب الاتفاق ، أما باردل فلم يحضر .

ثم فتح الباب ودخل شوكنج ولم يكن يوجد في الحجرة أحد فقال العبوس :
ماذا فعلتم أعددتهم كل شيء ؟
- نعم وقد أحضرنا الحبل الطويل المعقد وستكون المركبة على باب المنزل في الوقت المعين .

- أين هي الارلندية ؟
- لقد أتينا بها مع سوزان وهما الآن في المنزل .
- ومتى تحضر المركبة ؟
- سيحضر فيها كرافان في الساعة التاسعة .

وعند ذلك فتح باب الحجرة أيضاً ودخل منه باردل رئيس الحراس ، وكان العبوس ينتظره فدعاه إلى الجلوس معه ، ودار بينهما الحديث باللغة الارلندية الاصطلاحية .

فقال العبوس : قل لي ماذا حدث ؟

- إن الحائط سقط .
- أصاب الفتى بجراح ؟
- كلا .
- وجوهان كولدن ؟

- إنه يعمل في قاعة الطاحونة مع العمال .
- هل فعلت ما قلته لك ؟
- بالتدقيق .
- أعد علي ما فعلت .

— إني أقمت جوهان في نفس الرواق الذي أقمت فيه الفتى وأقفلت الأبواب
بيدي وأعطيت جوهان خنجرًا .
— ولكنني أرجو ألا يحتاج إليه .

— وبعد أن أقفلت جميع الأبواب تركت بابه مفتوحًا ، ثم أبعدت خفير
الفسحة الكبرى بحجة المطر ، وأنه لا فائدة من حراسة السجن الجديد لعدم
وجود أحد فيه .
— ومن هو حارس الرواق ؟

فقطب باردل حاجبيه وقال : إنه رجل وحشي الأخلاق ، نلقبه
بالكرباج ، لقسوة طباعه ، وأخشى أن يحتاج جوهان كولدن إلى
استعمال الخنجر .

ففكر العبوس هنيهة ثم قال : أيدخن هذا الرجل التبغ ؟
— إنه مولع به مثلي .
— إذاً لقد سهل الأمر أنظر إلى هذه العلبة إنها تغنيك عن الخنجر .

كيف ذلك إني لا أفهم شيئاً ؟
— ألا ترى أن هذه العلبة تفتح من الجهتين ؟
— نعم .

— إن فيها طبقتين يفصل بينهما حاجز رقيق يستره التبغ ، فانظر إلى
الطبقة اليمنى تجد عليها نقشاً خلافاً للطبقة الأخرى فهي ملساء ، ففي
الساعة التاسعة إذهب لمراقبة الحراس ، فإذا وصلت إلى هذا الحارس ،
فقدم له سيكارة من الطبقة ذات الباب المنقوش وخذ لنفسك من الطبقة ذات
الباب الأملس .

— لقد فهمت فإن تبغ الطبقة المنقوشة ممزوج بمادة مخدرة

— هو ذاك والآن تريد أن تعلم كيف يخرج جوهان كولدن والغلام من
السجن الجديد ؟

دون شك فإن خروجها لا يزال لدي متلبساً بالعموض
قال العبوس : أخرج قبلي وانتظري في عطفة الشارع ، فسأوافيك بعد
عشر دقائق .

فامتثل وبقي العبوس هنيهة مع شوكنج يحدثه ببعض الشؤون ، ثم خرج
الاثنان من الحمار .
وكانت الليلة حالكة السواد وقد تكاثف ضبابها ، فكانت أنوار مصابيح
الغاز تظهر من خلاله كما يضيء الجمر من خلال الرماد .

وكان باردل واقفاً في عطفة تحت نور أحد المصابيح ينتظر العبوس ، فلما
وفاه أخذ بيديه وقال له : هلم بنا فسأريك كيف أننا لا نحتاج في سبيل إنقاذ
الفتى الى الخروج به من باب السجن العام .

- ٥١ -

وسار الرجل العبوس وباردل يتبعهما شوكنج ، حتى وصلوا الى منزل
مشرف على الحبر الجديد ، يدل السكون فيه على انه لا يسكنه أحد .
ففتح الرجل العبوس بابه ، وصعد الثلاثة سلالمه الى أن وصلوا الى
الدور الأعلى فيه .

وهناك فتح العبوس باب غرفة وظهر لهم نور شمع ضعيف ، ورأى
باردل غرفة تدل على فقر ساكنيها اذ لم يكن يوجد فيها من الأثاث غير ما لا
يمكن الاستغناء عنه .

ثم رأى في هذه الغرفة امرأتين ، لا ينطبق جالهما الباهر على ظواهر
هذا الفقر

وكانت هاتان المراتان سوزان والارلندية والدة رالف فان العبوس جاء بها

الى ذلك المنزل .

فقال : ستجتمعين بابنك في هذا المساء .

وقد بدأ العبوس حين دخولهم إلى الغرفة بأن أطفأ الشمعة ثم ذهب إلى النافذة ففتحها ونادى باردل قائلاً : أنظر .

وأطل باردل من النافذة وقال : إن الضباب كثيف ، ولا أرى كل شيء ، ولكن يخال لي أن هذه النافذة مشرفة على فسحة السجن الجديد .

- هو ما تقول .

- وأرى أنه لا يفصل بينهما غير عرض الشارع ، وهو أضيقت شوارع لنندرا .

- هو ذاك ، وإن الفاصل بينهما أيضاً سور السجن العريض وهو لا سقف له كما ترى

فلم يفهم رئيس الحراس مراده وقال له : ماذا تعني بذلك ؟

- اصنع لي تعلم قصدي . إن النافذة يبلغ ارتفاعها ستين قدماً تقريباً .

- فافترض أنك أنت وجوهان تأتيان بالفق من سجنه إلى الفسحة التي تراها أي فسحة السجن الجديد .

- نعم .

- فسألني لكم من هذه النافذة حبلاً طويلاً معقداً ، أعلق طرفه بحديد النافذة ، فيسقط الحبل من فوق السور إلى فسحة السجن ، حيث تكونون .

وعند ذلك يركب الفق ظهر جوهان ويتسلق به الحائط بواسطة الحبل المعقد ، حتى يبلغ إلى أعلاه .

وبين أعلى السور وهذه النافذة مسافة ثلاثة أمتار ، فإذا وضع لوح

سميك من الخشب بينهما ، سار بالسلام على اللوح ، ودخل من النافذة إلى الحجرة .

- وأين هو الحبل ؟

- هذا هو .

ثم أراه حبلاً طويلاً ملفوفاً ، وقد كثرت فيه العقد ، وجعلت المسافة شبراً بين العقدة والأخرى تسهلاً للصعود عليه ، بحيث يصبح شبيهاً بالسلم .

فابتسم باردل وقال : إن هذا الفكر جميل وبسيط ، ولكنه لا يخطر لي .

- وكذلك غلبة التبغ فإنها لم تخطر لك أيضاً .

- هو ذاك .

- والذي أراه الآن انه يجب الاسراع لأن الوقت غير متسع لدينا .

- أيطول زمن بدء التأثير بالمخدر ؟

بعد خمس دقائق من شربه .

- وماذا يحدث للحارس حين يدخن تلك السيكارة ؟

- ينام نوم الأموات ، ولا توقظه المدافع ، ولا يستفيق إلا عند الصباح .

- إذاً الفرار بالصبي بات سهلاً لأنني أبعدت حراس فسيحة السجن الجديد ولم يبق شيء نخافه غير الصدفة .

- أي صدفة تعني ؟

- لا أدري فقد يمر بنا أحد الحراس اتفاقاً بل يخطر للمدير العام أن يحول في الرواقات ويراقب مراقبة فوق العادة .

- وبعد ذلك ؟

- إذا لم يحصل شيء من هذا ، نصل الى فسيحة السجن كما صممت ،

ويفر جوهان بالصبي إلى هذه الغرفة ، ولكنني أرى أنه يجب علي أيضاً أن أفر معهم .

— لماذا ؟

— لأنني إذا بقيت في السجن يعلمون بفرار الغلام

— دون شك .

— وهم يعلمون أن مفتاح باب الفسحة لا يكون إلا معي في الليل .

— ليعلموا .

— ولكن ذلك يدعو إلى اتهامي بتسهيل فراره

فابتسم العبوس وقال : أتظن أنهم يتهمونك ؟

— بل أؤكد ، لأن الحارس ويب سيقول فوق ذلك إنني سقيته مخدراً .

وفي كل حال فلا يسعني إلا الامتنال لأمرك ، فمر أطلع . ولكنني أستطيع

إذا كنت مطلق السراح ان أفيدارلندا بشيء . ولهذا أفضل الفرار فإنهم

إذا اتهموني وزجوني في أعماق سجن ، فلا أعود أستطيع خدمة الوطن

العزیز بشيء

فأجابه العبوس بهرود : إن كل ما تقوله ملؤه الحكمة والصواب ، ولكن

لا فائدة فيه .

فتراجع منذعراً وقال : كيف لا فائدة فيه ؟

— دون شك

— ألا تحتاج ارلندا إلى خدمتي ؟

— بالعكس .

— إذا كيف أستطيع خدمتها وأنا مغلول اليدين في السجن ؟

— إنك لا تذهب إلى السجن ولا تغل يدك ، بل تبقى في حبس الطاحونة

وتفيدة فيه فوائد كثيرة .

— أأبقى في حبس الطاحونة سجيناً ؟

— بل تبقى كما أنت الآن محترماً محبوباً ، وتبقى في منصبك وهو رئاسة الحراس .
فنظر باردل اليه نظرة بلاهة وقال له : إني لا أفهم شيئاً من هذه الألغاز .

فابتسم العبوس وقال : سوف ترى إن الأمر بسيط كما رأيت في مسألة الحبل وعلبة التبغ
— أأبقى رئيس الحراس في سجن وأسهل فيه فرار المسجونين ، ويكون الأمر بسيطاً ؟
— دون شك

— ومفتاح الفسحة ؟
— إنهم سرقوه منك .
— وتخدير التبغ ؟
— إنك تخدرت أيضاً كما تخدر الحارس ويب .
— كيف ذلك ؟

— ذلك إنك بعد أن تخدر ويب وينام . وبعد أن تساعد جوهان ويفر بالصبي ، تعود بملء السكينة والارتياح الى الحبس القديم وتدخن سيكارة من تلك السكاير المخدرة التي أعطيت منها ويب ، وتنام مخدراً في نفس الرواق الذي نام فيه .
فصاح باردل صيحة دهش وقال : إن هذا الفكر بسيط جداً ، ولكنه لم يخطر لي .

— ذلك لأنه بسيط . والآن اعلم أنهم سيدققون غداً كل التدقيق ثم تنجلي أبحاثهم عن اتهام بائع التبغ فاذا سئلت عن الذي باعك التبغ فقل إنك اشتريته من الدكان الصغيرة الكائنة في أول الشارع .
— لماذا ؟

— لأنني أمرته أن يسافر الليلة الى فرنسا وسيبحثون عنه فلا يجدوه فتثبت التهمة عليه وتنجو . والآن لم يبق لدينا من الوقت غير ساعة فعد الى الحبس وافعل كل ما قلته لك .

فامتلل باردل وانصرف . وعاد المعبوس الى الارلندية فرآها تبكي فقال لها: إن بكاءك سيستحيل بعد ساعة الى بكاء سرور حين تضمين الى صدرك ولدك ، فكفي عن البكاء وثقي بمراحم الله .

- ٥٢ -

كان ويب الحارس ، أي الرجل الملقب بالكرباج ، مشهوراً بالفظاعة كما قدمنا . وكان يكره الارلنديين كرهًا عظيمًا . فإذا دفع نكد الطالع أحدهم إلى ذلك السجن ، وتولى هو تشغيلة عذبه عذاباً لا يطاق ونكل به أقطع تنكيل .
وكان يعلم أن الفتى ارلندي فكان يجور عليه كل الجور غير مشفق على جسمه الصغير .

وقد تقدم لنا القول أنه سمع رالف وصاح صيحة دهش ، فأيقن أنه رأى بين البنائين رجلاً يعرفه ، فجعله بكرباجه وأصعده الى الطاحونة قبل أن يحییء دوره .

ثم لما فرغ من تشغيلة هذا الشغل الشاق ناداه بلهجته المألوفة فأيقن المسجونون أنه ناظم على الفتى يريد جلدده وود كل منهم لو تحمل عنه ألم الضرب لفرط إشفاقهم عليه .

أما رالف فإنه لبى النداء وسار مرتفع الرأس شامخ الأنف غير مكترث بنظرات ذلك الرجل الوحشي .

فسأله ويب عن الرجل الذي عرفه من بين البنائين ، وأذذره بالضرب فلم يجبه رالف الا بالانكار فحقق عليه وضربه ضرباً مؤلماً ثم أعاده الى الطاحونة .

ودام يعذبه هذا العذاب والمسجونون ينظرون ولا يحسرون على اعتراضه حتى المساء .

فجاء باردل وشاهد أعمال ويب المنكرة فوبخه أقسى توبيخ ولم يسمعه الا أن ينظر الى الفتى نظرة إشفاق لم تخف على ويب . فهاج لها وحقق على رئيسه حقداً عظيماً لتوبيخه اياه أمام المسجونين ، لا سيما وانه كان يكرهه منذ زمن بعيد لأن باردل كان قد شكاه مرتين للمدير العام لما يرتكبه من الفظاعة فعاقبه المدير في المرتين .

ومع ذلك فان باردل لم يحسر على ابعاده عن الخدمة في تلك الليلة وتركه يتولى حراسة الرواق الذي أقام فيه البنائون ورالف . وعادة الحراس في ذلك السجن انهم يتهيرون كل ساعتين . وأما في الليل فقد تحتم على الحارس أن يحرس أربع ساعات متوالية .

وقد ذهب ويب يتعشى في الساعة السادسة ، أي حين كان باردل يدخل المسجونين والبنائين الى غرفهم وقد دفع الخنزير الى جوهان وترك غرفته وغرفة رالف مفتوحة كما قدمنا .

وكان باردل يعلم ان ويب يعود الى الحراسة ، في الساعة الثامنة والنصف

وانصرف بعد ادخال المسجونين الى لقاء الرجل العبوس .

أما ويب فإنه ذهب للمساء مع صديقه جوثان ، ولم يكن له صديق سواه بين عمال السجن ، لاتفاقهما في الفظاعة ، ولاتحادهما على كره رئيسهما باردل .

وفي المثل المأثور ان الطيور على أشكالها تقع . فلما اجتمع هذان الحارسان

جعلاً يتمشيان ويطحعانان بباردل طعناً قبيحاً ويتمنيان له كل شر ويستنبطان
الحيلة شأنهما في كل اجتماع
وقد دار بينهما في تلك الليلة الحديث الآتي فقال جوناثان . لقد طال عسف
هذا الرئيس بنا وإني أراك أصلح منه للرئاسة .

فأجابه ويب : ومتى كانت الناصية تعطى لمستحقها فإن جميع
الرؤساء متعاملون علينا ، حتى لقد بت أخشى ان أقضي العمر كله في هذا
المنصب الحقير .

- ولكنك اذا سميت قد تنال منصب باردل .

- وأين لي ذلك أيها الصديق ألا ترى ميل المدير اليه وتعلقه به ؟

- ان المدير مخطيء .

- وهذا رأيي أيضاً .

- وفوق ذلك فان باردل يتهامل في الخدمة منذ بضعة أيام .

- أنظن انه يتهامل ؟

- بل أظن أنه يحاول مساعدة أحد المسجونين على الفرار .

فارتعش ويب واتقدت عيناه وقال : وما حملك على ان تفكر به هذا الفكر
الديك برهان ؟

- اني أراه منذ يومين يكثر الخروج من السجن حتى انه يخرج ثلاث مرات
في اليوم الواحد .

- وأين يذهب ؟

- الى الخمارة في أول الشارع

- خمارة الحارس القديم الذي عزل ؟

- هو بعينه ، وقد رأيت أمس ، مختلياً في تلك الخمارة مع رجل لم
ترضني هيئته .

- أحق ما تقول ؟

وخفض جوناتان صوته وقال : اسمعت بأولئك الارلنديين الذين يشغلون الحكومة في هذه الأيام ؟ ان قلبي بجدثني بأنه منهم وأنه الآن خارج السجن .
- لقد كذب حديث قلبك دون شك فقد تركته الآن منشغلا بإدخال المسجونين والعمال إلى غرفهم .

- ولكنه سيخرج من السجن متى قضى هذه المدة .
- يسوؤني اني رضيت ان أنوب هذه الليلة بالحراسة عن زميلنا بيرلي .
- لماذا ؟

- لأنني كنت أقفواثر باردل حين خروجه من الباب العام .
فقال له جوناتان : إننا أيها الصديق ، مرتبطان برواق الصداقة منذ عهد بعيد .

- ماذا تعني بذلك ؟
- اعني اني هذه الليلة حر إلى منتصف الليل فلماذا شئت أن تقفواثر باردل توليت الخدمة مكانك إلى أن تمود .
- لا أحب إلي من ذلك فإن ما قلته لي قد هاج بي عاطفة الحق على باردل ، غير انه يجب ان تنتظر إلى ان يسلمني باردل الخدمة ، فتعبرس مكاني

- كما تريد .
وقد تم الأمر على ما توقعه جوناتان فإن ويب ذهب إلى الرواق فتبعه باردل وقال له ، قف مكاني في الحراسة فإني سأخرج من السجن لبعض الشؤون وأعود في الساعة التاسعة للتفتيش .

ثم تركه وانصرف إلى الخمارة التي واعد الرجل المبوس على الاجتماع به فيها .

وبعد عشر دقائق أقبل جوناتان فتولى الحراسة مكان ويب ، وذهب ويب إلى مأمور السجن الخارجي ، فتكلف هيئة الاهتمام وقال له : ألم

ترى باردل ؟

— انه خرج الآن وأظن انه ذهب إلى المخارة .

— يجب أن أحادثه في شأن هام فاسمح لي بالخروج .

فأذن له المأمور وذهب ويب توأ إلى المخارة ولكنه لم يدخل اليها بل لبث واقفاً خارجها ونظر من زجاج بابها الخارجي ، قرأى في داخلها باردل جالسا مع الرجل العبوس ومختلياً به خلوة سرية .

وبعد هنيهة خرج باردل فأختبأ ويب ثم اقتفى اثره دون ان يراه ، ورأى أنه لم يذهب إلى السجن بل انه وقف في عطفة ينتظر فوقف هو أيضاً بعيداً عنه إلى أن أقبل الرجل العبوس وشوكنج فراحما قد انضبا إلى باردل وساروا جميعهم في الطريق .

- ٥٣ -

كان ويب على فظاعته فطناً حكيماً مبالغ بالحيلة والحذر ، بحيث كان يسير في أثرهم فيراهم ولا يرونه ، حتى رآهم قد دخلوا إلى منزل مشرف على سور السجن ، فوقف يراقب ماذا يكون ، وهو لا يحسر ان يتبعهم إلى ذلك المنزل .

ووقف بعيداً وعيناه شاخصتان إلى النوافذ ورأى نوراً ضعيفاً من خلالها ثم رأى ان النور قد انطفأ وان النافذة قد فتحت .

وكان ثاقب البصر فعقدق بتلك النافذة ورأى رأسي رجلين قد برزا منها وأيقن أن باردل أحدهما .

وهنا اقترب حتى اصبح تحت النافذة وجعل يصغي متنصتاً على يسمع كلمة من حديث الرجلين غير ان الصوت يذهب صمداً ولا ينزل من الأعلى

الى الأسفل ، ومع ذلك فإنه كان يسمع لفظاً ولكنه لا يفهم شيئاً من الحديث .

على انه بات واثقاً مما قاله له جوناثان ، وهو ان رئيس الحراس يأتمر منذ أيام لأنقاذ أحد المسجونين ، فبذل جهداً عظيماً ، واصفى إصفاء تاماً حتى أنه حبس أنفاسه عله يفهم كلمة واحدة مما يتحدث به الرجلان ، وسمع ولكنه لم يسمع غير كلمة واحدة وهي الحبيل ، فاضطرب قلبه وقال في نفسه : أما وهما قد ذكرا الحبيل فلم يبق شك بصدق ظنون جوناثان من أنهم يحاولون إنقاذ مسجون ، وإذا كان ذلك فلا بد ان يكون باردل شريكاً بالجريمة .

وعند ذاك رأى ويب أنه قد عرف كل ما يمكن أن يعرفه وأنه لم يعد بحاجة لوقوفه تحت ذلك المنزل ، فعاد على أعقابيه وبلغ السجن قبل أن يخرج باردل من المنزل .

وكان أول ما خطر له حين دخوله الى السجن أن يذهب الى المدير العام ويعرض له ما سمعه ورآه ، لكنه عاد عن هذا القصد حذراً من أن لا يصدقه المدير لميله الى باردل ، ورأى أن من الحكمة أن يقبض عليه متلبساً بالجريمة . وعند ذلك ذهب قواً الى صديقه جوناثان ورآه في موقف الحراسة ينتظر عودته بفارغ الصبر .

أما جوناثان فإنه رآه يبتسم إبتساماً معنوياً فأيقن أنه وقف على سر من الأسرار وقال : ما وراءك ؟

— لقد كنت مصيباً في ظنونك أيها الصديق .

— أرايت أن لباردل علائق خارجية ؟

— نعم .

— مع من ؟

— مع قوم لا أعرفهم ولكنني واثق أنهم يريدون إنقاذ أحد المساجين غير

- اني لم أوفق الى معرفة هذا السجين .
- ولكنني أنا عرفته
- كيف ذلك ؟
- اليس باردل الذي أقفل أبواب غرف المسجونين هذه الليلة ؟
- نعم .
- ولكنك ترك باب إحدى الغرف مفتوحاً .
- باب أية غرفة ؟
- غرفة ١٦ شمال وانظر .
- وجعل صدر ويب يخفق خفوقاً قوياً وقال : انها غرفة الغلام الأيرلندي
- ألم أقل لك أنت باردل من جمعية الأيرلنديين ؟
- إصنع إلي أنه يجب ان تبقى هنا في الرواق .
- دون شك .
- وإن باردل سيأتي في الساعة التاسعة .
- ربما ..
- وبعد سيسألك لماذا خلقتني في الحراسة فتقول له اني مريض لأنه يحذرني أكثر مما يحذرك ..
- أتظن ذلك ؟
- بل أؤكد وهو سيبعدك بحجة من الحجج .
- وعند ذلك ماذا أصنع ؟
- تذهب الى الفسحة وتختبئ فيها ..
- وبعد ذلك ؟
- ليس الوقت فسيحاً فأوضح لك كل شيء ، ولكنني واثق أن باردل سيخرج الغلام من سجنه ويأقني به الى فسحة السجن الجديد ، بعد ذلك تتبعه الى تلك الفسحة وتصيح مستنجداً وعلى البقية إذ أكون هناك فنقبض عليه

متلبساً بالجريمة .

ثم تركه وانصرف الى الفسحة فاحتجب عن الأبصار .
وبعد هنيهة جاء بردل وهو متشح بوشاحه وقد علق في زناره حلقة فيها
مفاتيح الغرف وبيده مصباح .

وكان جوثان واقفاً في موقف الحراسة فدنا منه وارتعش حين رآه في
مكان ويب وقال : أين ويب وكيف أنت هنا ؟
- إنه يا سيدي مريض وقد اتابني عنه .

- لماذا لم يقل لي ؟

- لأنه خشى ان توبخه وقد سألتني ان أنوب عنه ونحن على العشاء .
وقال يوفاء : أخاف أن يكون أخطأ في اختيارك فلأنك لا تصلح لحراسة
الليل كما أرى

- لماذا يا سيدي ؟

- لأنك لا تطيق السهر لأن النعاس قد سرى الى عينيك منذ الآن .
ثم وضع المصباح على الأرض وأخذ من جيبه علبة السكاير التي أعطاه إياها
الرجل العبوس وأعطاه سيكارة قائلا : خذ ودخن كما أصنع انا فان التدخين
يعين على السهر .

وأخذ جوثان السيكارة شاكراً وأشعلها وجعل يدخن وهو مطمئن .

- ٥٤ -

أن الرجل العبوس أعطى باردل هذا السيكار المخدر كي يدخن منها ويب فكانت من حظ جوناتان ، غير أن باردل رأى أن النتيجة واحدة ، فان جوناتان كان يخلف ويب في الحراسة والغرض تخدير حارس الرواق .
وصار الاثنان يدخنان فسان جوناتان يظهر عجبته بالتبغ وارتياسه ثم قال :
من أين تشتري يا سيدي التبغ الفاخر ؟

فضحك باردل وقال له : مهما يكن فاخراً فلا أراه يفيسدك في السهر ، فانك عدت إلى النعاس ، فخذ هذه السيكار الأخرى ما زلت معجباً بهذا التبغ .

تناولها وأشعلها من السيكار الأولى وصار يدخن بها .

وعند ذلك قال باردل : أبق في مكانك واحذر أن تنام فاني ذاهب الآن وسأعود للمراقبة ، ثم تركه وانصرف .

فصار جوناتان يشيعه بالنظر وهو معجب بأمره ويقول في نفسه :
لقد أخطأ ويب في حسابه ، انه كان يعتقد انه سيمتدح حجة لابعادي فاذا هو يبعد نفسه .

ثم جعل يسير في الرواق ذهاباً وإياباً وهو يقول : ان ويب سيطول انتظاره ويأتي لينقذني فأسلمه الحراسة وأذهب في شأني

فقد مثل لنا الحقد على باردل أموراً لا حقيقة لها فان هذا الرئيس يتولى منصبه من عشرين عاماً لا يخاطر به من أجل غلام وهو طامع بالتري .

وفيا هو يعيشي شعر بهرد فجائني لم يدر سببه فالتف بردائه وقال لا شك أن النار مطفأة في المستوقد والا من أين هذا البرد الشديد ؟

ثم اشتد عليه البرد وكان ذلك من تأثير المخدر فذهب الى زاوية ووقف فيها كأنه يحاول الفرار من البرد ، شعر أن ساقيه لا يحملانه فجلس القرفصاء وعند ذلك شعر بصداع أليم فأطبقت عيناه وحاول أن يقف فلم يستطع وأن يستغيث فلم يخرج له صوت ، ثم حاول أن يفتح عينيه فلم تفتحها ، فكاد يحن مما أصابه ، ولكن عذابه لم يطل فانه سقط على الأرض فاقد الرشد وقد بلغ منه المخدر كل مبلغ .

وعند ذلك فتح باب الرواق وظهر منه باردل ومصباحه بيده فدنأ من جوثافان وهو ملقى على الأرض لا حراك به فناداه وهزه ، لم يجب ، رفسه برجله وقال : لقد نال ما يستحق ، ثم تركه وذهب الى غرفة جوهن كولدن . وكان جوهن لا يزال ساهراً ينتظر عودة باردل ففتح باردل باب غرفته وناداه بتلك اللغة الارلندية الاصطلاحية أن يخرج اليه .

أسرع جوهن اليه وقال له باردل : ألا يزال خنجرى معك ؟
- نعم .

- إذا لم بنا فقد أزف الوقت .

- انى مستعد لكل شيء ، لنسر الى حيث تريد .

ثم سار الاثنان فمرا بجوثافان وهو صريع على الأرض ، قال له جوهن : ألملك قتلته ؟

- كلا ، بل قتلت حواسه فهو نائم الآن نوم تخدير .

ومشيا في الرواق الى أن وصلا الى غرفة الغلام ، وكان المسكين قد أنهكه التعب في النهار مما لقيه من عناء الطاحونة وكرباج الحارس ، فنام نوماً عميقاً .

وجعل الاثنان يتأملان وجهه الجميل هنيهة ، قال جوهن : ألا ترى هذا الوجه الملائكي ، والله انى أكاد أشفق أن أوقظه ؟

- ان نومه سيكون اكثر هدوءاً بعد ساعة حين ينام في حجر امه .
ثم هزه برفق وجعل الاثنان يبتسمان كي لا يخاف ففتح عينيه ونظر الى
باردل وقال له : أهذا أنت الذي تقفل باب سجنى كل ليلة وتحذني عن امي ؟
- نعم أنا هو يا بني فقم واتبعني ولا تفه بحرف .

وأمرع الغلام الى لبس ثيابه دون ان يسأله الى اين يذهب به فأمسك
جوهان بيده ، وسار باردل أمامهما فتبعاه الى باب الفسحة وهناك أطفالاً
باردل مصباحه وفتح الباب .

وكان السكون سائداً في فسحة السجن والظلام حالكما فتقادمهما باردل
وتبعه جوهان بالغلام وهو لا يحسر ان يكلمه كلمة عن أمه خوفاً من أن تبدر
منه صيحة فرج فينفضح أمرهم .

وكانوا لا يزالون في فسحة السجن القديم ، ولا يفصل بين القديم والجديد غير
باب ففتحها باردل ودخل الثلاثة إلى الفسحة الكبرى وعند ذلك سأله جوهان
قائلاً : إلى أين نحن سائرون ؟

- انظر إلى العلاء ألا ترى منزلاً مشرفاً على السور ؟

- نعم ..

- ألا ترى نافذة مفتوحة ؟

- نعم ..

- أنه يوجد حبل معقد ربط أحد طرفيه إلى حديد تلك النافذة وسقط
الطرف الآخر إلى أرض الفسحة أفهمت الان ؟

- نعم ..

وتقدم الرجلان بالغلام حتى بلغا إلى السور فارتعش باردل فجأة وصاح
صيحة دهش وخوف ، ذلك انه رأى رجلاً ملتصقاً بجدار السور وبيده ذلك
الحبل المعقد .

ولما رأى هذا الرجل باردل مشى اليه مشي الظافر وقال له : لقد قبضت عليك متلبساً بالخيانة ولم يبق سبيل للإنكار .
واضطرب باردل إضطراباً عظيماً إذ علم من صوته انه ويب ذلك الحارس الوحشي الذي ادعى انه مريض كي يخلفه جوناثان بالحراسة .

- ٥٥ -

أما ويب فقد كان رابط الجأش آمناً لوثوقه من أن جوناثان قادم لنجدته من وراء باردل ، خلافاً لباردل فإنه ذعر ذعراً شديداً ، ولم يكن خوفه على نفسه ، بل على الغلام الذي فوجيء عند الوثوق من انقاذه من هذه السكبة ، ولكن وقت إضطرابه لم يطل ، وعاد لفوره إلى سكينته العادية !!

أما ويب فإنه قال متهاكماً : بورك لك في هذه المهنة الجديدة أيها الصديق العزيز ، فإنك تسهل للمساجين سبيل الفرار ، وتبعد عنك الخفراء ، وتطلق الحبائل من نوافذ المنازل المجاورة ، لكن عين ويب ساهرة عليك وأنه . .
ولم يدع له باردل فرصة لإتمام حديثه فأنقض عليه وقبض على عنقه بيده كي يمنعه عن الصياح .

وجعل ويب يصيح بصوت غثثنق مستنجداً بجوناثان ، وهجم عليه جوهان كولدن عند ذلك بخنجره وقال له باردل : إطعمه والله يحمي ارلندا .

وكان باردل وجوهان قرييين ، غير ان ويب كان يدافع دفاع اليأس ، وكان هم باردل أن يلقيه على الأرض ويضغط على عنقه كي يمنعه عن الاستغاثة فإن أضعف صوت يصل إلى الخفراء يستفزهم ، لذلك كان يضغط على عنقه ضغطاً شديداً ، فلم يمسك يده ولم يخطر له أنه يحمل خنجرأ مع ان مدير السجن

العام كان أصدر أمره إلى جميع الحراس يحمل الخناجر .
أما ويب فإنه شعر ان باردل يكاد يخنقه بضغطة على عنقه لكن ذلك لم
يمنعه عن استلال خنجره .

وقال باردل لجوهان : اطعنه بخنجرك .
وصاح جوهان عند ذلك صيحة ألم ، لأن ويب كان سبقه إلى طعنه
بخنجره ، ولما شعر جوهان بألم الطعنة هجم عليه هجوم الكواسر وطعنه
بخنجره طعنة نجلاء ، ولم يعد يدافع عن نفسه وشعر باردل وهو لا يزال
ضاغظاً عليه أنه قد انحط وتلاشى لأن الخنجر قد أصاب قلبه فاخترقه وقضى
عليه في الحال .

وتركه باردل عند ذلك فسقط على الأرض ميتاً لا حراك به .
أما الغلام فقد كان واقفاً ينظر هذا المشهد الهائل وقد ملأ الذعر قلبه فدنا
منه باردل وقال : لا تخف يا بني لقد نجوت وسوف ترى أمك .
ثم أمره أن يركب ظهر جوهان وأمره أن يتسلق الجدار بواسطة الحبل
المعقد .

وكان الضباب كثيفاً فلم ير الغلام النافذة ، ولا المنزل ، بل كان يرى الحبل
كأنه معلق في السماء .
وركب ظهر جوهان وطوق عنقه بيديه .
وأخذ جوهان الحبل وبدأ يصعد .

غير انه لم يشب الوثبة الأولى حتى شعر ان قواه قد اضمحلت ، فسألت
الحبل مرغماً وسقط بالغلام إلى الأرض وهو يقول : وانا أيضاً قد أصبت بما
أصيب به .

ذلك ان خنجر ويب كان قد أصاب فخذ جوهان فنزف دمه بغزارة ودعا
إلى ما رأيناه من إنحطاط قواه .
ولما رأى باردل ما أصابه أوشك أن يحن من يأسه وخاف ان تكون

الأقدار قضت على المشروع يحملته ولم يجد بداً من أن يتولى هو بنفسه انقاذ الغلام .

وكان رالف قد نهض واقفاً فأسرع اليه باردل وقال له : إركب ظهري وتعلق بي جيداً فسأحاول بنفسى الصمود بك .

وكان رئيس الحراس على ما يبدو من ظواهر قوته قد تجاوز سن الكهولة ولم يكن متمرنًا على شيء من الألعاب الرياضية ، ولم يكن لأعضائه شيء من تلك المرونة الخاصة بأعضاء الشباب ، فحاول ان يتسلق الجدار بينما كانت جوهان راكماً يحاول النهوض فلا يستطيع ويقول لباردل : أعتقد الفتى ولا تهتم بسواه الان .

فصعد وعلم لأول وهلة انه لا يجد قوة تعينه على بلوغ المراد وأن صعوده محال فلبث ممسكاً بالحبل وهو يكاد يجن من اليأس .

وفيا هو على هذه الحالة من القنوط لا يعلم ماذا يصنع سمع صوتاً يناديه ويقول : عد إلى الأرض وأترك الحبل .

فسقط باردل على الأرض مندهلاً والفتى فوق ظهره ورفع عينيه إلى مصدر الصوت فرأى رجلاً ينزل من السور مستعيناً بالحبل حتى بلغ الأرض ورأى انه الرجل العبوس .

أما الرجل العبوس فانه نظر نظرة سريعة إلى ما حوله فرأى ويب قتيلاً وجوهان جريحاً فعلم كل ما حدث وقال لباردل : انى سمعت من النافذة ما حدث بينكم وأسعرت لنجدتكم فأين رالف ؟

— ها هو .



فنظر إلى جاهاان وقال : أين جرححت ؟

— فى الفخذ .

— اتشمر بضعف ؟

— إني كثير الضعف وأراني مشرف على الموت ، ولكنى لا اكترث بالموت

— بل أنقذكم جميعاً .

وكان الحبل طويلاً يجر على الأرض ، فأخذه الرجل العبوس وربط به وسط جوفهان ثم قال له : انني  برالف إلى الحجرة ومتى وصلنا إليها وبات الفتى بأمن  مع شوكنج ، وانت مربوط به ، فننقذك أيضاً .

ثم التفت الى باردل وقال له . امعك فاعمل ما اوصيتك به ولم يبق
لديك ما تخشاه من ويب فهو قنيل فعد الى رواق السجن القديم ودخن سيكارة
من التبغ الذي اعطمتك اياه فاذا راوك تخدراً لا يتهمونك

فأشار باردل إشارة إمتثال وأركب الرجل العبوس الفتى فوق ظهره وجعل يتسلق به ذلك الجدار المرتفع بخفة الغلمان حتى توارى عن نظر باردل فصاح صيحه فرح وقال : لقد نجى الفتى فلتحيا ارلندا وليحيا زعيمها .
فأجاب جوهان بصوت خافت بمثل دعاءه ثم قال : اذهب الان ايها الحبيب واستودعك الله .

- بل الى اللقاء فسيرفعونك بالحنبل وتشفى من جرحك .

ثم ودعه وهو متأثر لنكيبته وعاد الى السجن القديم ليفعل ما امره به
الرجل العبوس وينجو من تهمة الخيانة .
أما جوهان كولدن فكان يتمتع بصوت ضعيف قسائلاً : اني أصبت
بجرح قاتل ، لكن عزائي اني أموت شهيداً ارلندا ، فلتحيها بعدي ..
ولديهما نصرأوها .

وكان الرجل العبوس قد أدرك مراده في ذلك الحين ودفع رالف الى أمه وقد عرف جوهان ذلك من الحبل المعلق به فانه بدأ بالتوتر ، ثم أحس بالجذب ، ثم رأى نفسه قد ارتفع عن سطح الأرض ، فعلى ، فؤاده رجاء ، لكن هذا المنكود لم يكذب يصل الى مرتفع السور حتى صاح صيحة رعب

هائلة وهوى ساقطاً على الأرض .
ذلك ان الحبل انقطع لثقل جسمه فكان آخر ما قاله ذلك المنكود اني كنت
واثقاً من دنو ساعتي فلو سلمت من الشنقة لما سلمت من الجرح فلتذهب تلك
النفس شهيدة وطنها ولأمت فداء ابن ارلندا .

انتهت رواية « ابن ارلندا »
ويليها الجزء الثالث عشر من روكامبول « قلب المرأة »
وبه يبدأ المجلد الرابع والأخير

RIWAYAT RUCAMBUL

AL-MAKTABA AL-THAKAFIYAT